موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

تفسير القران الكريم

سورة الأعراف

info@nabulsi.com

www.nabulsi.com

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(01-60): تفسير الآية 1، مقدمة عن السورة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-11-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة لسورة الأعراف

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الأول من سورة الأعراف ، والأولى أن نقف وقفة متأنية عند مضامين هذه السورة :

ـ هذه السورة مكية ، إلا أنها أطول السور المكية على الإطلاق .

ـ وهذه السورة المكية الطويلة تضمنت قصص الأنبياء بشكل مفصل .

ـ وكما تعلمون أن السور المكية تركز دائماً على عقيدة التوحيد ، والإيمان الحقيقي هو التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، ألا ترى مع الله أحداً ، أن تعلم علم اليقين أن يد الله تعمل في الخفاء ، وأنه :

(فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية : 84)

وأنه :

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف :26)

وأنه :

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر الآية : 2)

وأنه :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ)

(سورة هود الآية : 123)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف الآية : 54)

يعني أن أمره متوافق توافقاً تاماً مع خلقه .

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر:62)

السور المكية في الأصل تركز على التوحيد ، لأنك إذا آمنت بالله خالقاً ، هذا شأن الوثنيين .

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)

(سورة الزمر الآية : 3)

فأن تؤمن بالله خالقاً شأن الوثنيين أيضاً ، بل إن إبليس آمن بالله ، قال :

(فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة ص الآية : 81)

وقال :

(خَلَقْتَنِي)

(سورة الأعراف الآية : 12)

وقال :

(قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة الأعراف :14)

لذلك هذه السورة الأعراف أطول سورة مكية ، عرضت لقصص الأنبياء بشكل تفصيلي ، ومهمتها كشأن كل السور المكية أن تركز على التوحيد ، الإيمان هو التوحيد ، وبالتوحيد تخلص ، بالتوحيد تستقيم ، وتركز أيضاً على البعث والجزاء ، فإنه ما من ركنين من أركان الإيمان تلازما في القرآن كركن الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر ، إذا آمنت بالله هو معك ، ويراقبك ، وإذا آمنت باليوم الآخر هو سيحاسبك ، ولمجرد أن تؤمن أن الله يعلم وسيحاسب ، وسيعاقب تستقيم على أمره .

فالسور المكية أيضاً تركز على الإيمان باليوم الآخر ، بيوم الجزاء ، بيوم الدينونة بيوم تسوية الحسابات، بيوم الواقعة الرافعة الخافضة ، وتركز أيضاً على الوحي ، ديننا الإسلامي دين وحي ، التلقي من الله ، الوحي كيان مستقل عن رسول الله ، لا يملك أن يجلبه ، ولا أن يوقفه ، ولا أن يصرفه، فديننا دين توحيد ، ودين إيمان باليوم الآخر ، ودين تركيز على الوحي والرسالة ، هذا شأن السور المكية ، والأعراف من أطول السور المكية .

من إعجاز القرآن في سورة الأعراف

شيء آخر : في هذه السورة الطويلة ، بل هي تعد من أطول السور المكية في هذه السورة إشارة إلى إعجاز القرآن .

1 – ما هي المعجزة ؟

أيها الإخوة الكرام ، كلكم يعلم أن كل نبي معه معجزة ، ما المعجزة ؟ إنسان يقول : أنا رسول الله ، ومعه منهج افعل ولا تفعل ، والكفار ألفوا الحركة من دون منهج ، من دون قيد أو شرط ، من دون حسبان لحساب أو جزاء ، فلذلك حينما يأتي إنسان ويقول : أنا رسول الله موقف هؤلاء المعرضين الشاردين هو التكذيب .

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً)

(سورة الرعد الآية : 43)

2 – المعجزة شهادة الله لأنبيائه :

فكيف يشهد الله لأنبيائه ورسله أنهم أنبياءه ورسله ؟ لا بد من أن يشهد لهم شهادة الله لهم بالمعجزات ، فيُجري على أيديهم خوارق للنواميس ، لا يستطيعها إلا خالق الأكوان .

صور مِن بعض معجزات الأنبياء

1 ـ معجزة موسى عليه السلام :



سيدنا موسى :

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

(سورة الأعراف: 107)

سيدنا عيسى أحيا الميت .

2 ـ معجزة إبراهيم عليه السلام :

معجزة سيدنا إبراهيم : النار لم تحرقه

سيدنا إبراهيم لم تستطع النار أن تحرقه . هذه معجزات إثبات للناس أن هؤلاء الرجال أنبياء ، أو شهادة الله للبشر أن هؤلاء الأنبياء والرسل هم أنبياءه ورسله ، إلا أن المشكلة أن الأنبياء السابقين هو أنبياء لأقوامهم فقط ، كل نبي له قوم .

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

(سورة الرعد :7)

لذلك المعجزات كانت حسية ، أي مادية ،

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

(وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)

(سورة الأعراف: 108)

معجزات حسية كتألق عود الثقاب ، تألقت مرة واحدة وانطفأت ، وأصبحت خبراً يصدقه من يصدقه ، ويكذبه من يكذبه ، إلا أن بعثة النبي عليه الصلاة والسلام لكل الأمم والشعوب ، بل هو :

(رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

(سورة الأنبياء: 107)

فلا يمكن أن تكون معجزته حسية منقطعة خبراً يصدق أو يكذب ، لا بد من أن تكون معجزته مستمرة إلى نهاية الحياة .

3 ـ معجزة النبي عليه الصلاة والسلام :

لذلك كانت معجزة النبي صلى الله عليه وسلم معجزة علمية ، في القرآن الكريم 1300 آية تتحدث عن الكون ، بل فيها سبق علمي إشارات قرآنية إلى قوانين ، وإلى حقائق اكتشفت بعد 1400 عام ، قبل أن يرتاد الإنسان الفضاء ، ماذا يعلم ماذا في الفضاء ؟ هو في الأرض ، لما ارتاد الفضاء ، وتجاوز طبقة الهواء ، وانعدم تناثر الضوء صاح الرائد الفضائي : لقد أصبحنا عمياً لا نرى شيئاً ، ثم نفتح القرآن الكريم لنجد آية تقول :

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

(سورة الحجر :15)



أما أن تصل بحوث علم الجنين بعد ألف عام وزيادة إلى أن نوع الجنين لا علاقة للبويضة به إطلاقاً ، الذي يحدد نوع الجنين النطفة فقط ، وتأتي آية لتقول :

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى)

(سورة النجم: 46)

أن يكتشف العلم أن كل شيء مؤلف من ذرات وفيها نواة ، وفيها كهارب ، وفيها مدارات ، وكل شيء يدور في الكون ، الصخر ، الحجر ، الخشب ، كل شيء ، أما أن نقرأ قوله تعالى:

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

(سورة يس :40)

الحديث طويل ، 1300 آية في القرآن الكريم فيها سبق علمي ، هي أدلة قاطعة يقيناً 100 % أن الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن ، ففي هذه السورة إشارات كثيرة إلى الإعجاز العلمي في القرآن الكريم .

ذلك أنك تؤمن بالله بواسطة عقلك من خلال الكون ، فالكون مظهر لأسماء الله الحسنى ، وصفاته الفضلى ، وتؤمن بالقرآن من خلال إعجازه .

أنت راكب طائرة(777) ، أحدث طائرة في العالم ، أو قبل أحدث طائرة على ارتفاع 40 ألف قدم ، على مقعد وثير ، الجو مكيف ومدفأ ، تتناول كل الأطعمة النفيسة ، والشربات النفيسة أمام قنوات عديدة جداً تتابع الأخبار ، وكل شيء على ما يرام ، وتفتح القرآن الكريم لتقرأ قوله تعالى :

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا)

(سورة النحل الآية : 8)

وأنت تركب طائرة .

(وَزِينَةً)

أما حينما تتابع الآية :

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل :8)

يقشعر جلدك ، دخلت الطائرة في كلمة :



(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

ودخل القطار ، ودخلت السيارة ، ودخلت الحوامة .

أما أن تشاهد على موقع معلوماتي وردة جورية بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، وردة جورية بأوراقها الحمراء الداكنة ، بوريقاتها الخضراء الزاهية ، بكأسها الأزرق في الوسط ، ثم يكتب تحت هذه الصورة صورة انفجار لنجم يبعد عنا 3000 سنة ضوئية ، اسم هذا النجم عين القط ، يبعد عنا 3000 سنة ضوئية ، والأربع سنوات ضوئية لو أردنا أن نصل إلى هذا النجم بمركبة أرضية لاحتجنا إلى خمسين مليون عام 300 سنة ضوئية ، ثم تفتح القرآن الكريم لتقرأ قوله تعالى :

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)

(سورة الرحمن: 37)

إذاً : في هذه السورة سورة الأعراف تركيز على إعجاز القرآن الكريم ، وأنت تؤمن بأن هذا الكتاب كلام الله يقيناً من خلال إعجازه ، والآن الإعجاز العلمي في القرآن والسنة أقوى علم يرد به على من يشكك بالدين ، يقيناً ، وعقلاً ، وفطرة ، وبديهة ، هذه الإشارات العلمية في القرآن الكريم لا يمكن أن تكون إلا من عند خالق الأكوان ، وكأن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم هو أن تقتنع أن الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن .

سورة الأعراف بيان لتكريم الإنسان

شيء آخر ، في هذه السورة سورة الأعراف بيان إلى أن الإنسان مكرم .

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

(سورة الإسراء:70)

الإنسان مكرم ، والإنسان هو المخلوق الأول تفضيلا .

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

الإنسان مكرم ، والإنسان هو المخلوق الأول ، والإنسان هو المخلوق المكلف .

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات :56)

والعبادة طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية .

سورة الأعراف بيان لأزلية الصراع الثنائي بين الحق والباطل



وفي هذه السورة تبين أن حكمة الله وإرادته شاءت أن يكون في العالم حق وباطل مؤمن وكافر ، محسن ومسيء ، منصف وجاحد ، مخلص وخائن ، هذه المفارقة ، أو هذه الاثنينية في الحياة تقتضي صراعاً بين الحق والباطل ، وكنت أقول دائماً : كان من الممكن أن يكون الطرف الآخر في كوكب آخر ، إذاً : ليس هناك مشكلة ، وكان من الممكن أن يكون الطرف الآخر في قارة أخرى ، وكان من الممكن أن يكون الطرف الآخر في حقبة أخرى ، ولكن شاءت حكمة الله أن يجتمع المؤمنون مع الكافرين ، أهل الحق مع أهل الباطل ، أهل الدنيا مع أهل الآخرة ، أهل العقل مع أهل الشهوة ، أهل القيم مع أهل المصالح ، أهل المبادئ مع أهل الغرائز .

آدم طرف الحق وإبليس طرف الباطل

إذاً : لا بد من معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل ، لا بد ، لذلك يعلمنا ربنا جل جلاله درساً بليغاً في هذه السورة ، حينما مثل إبليس طرف الباطل ، طرف الإغواء ، طرف المعصية ، طرف الشهوة ، طرف الإباء تأبي طاعة الله عز وجل ، ويمثل آدم عليه السلام طرف الإيمان والتقوى والقرب والطاعة ، وكيف استطاع إبليس مستغلاً فطرة آدم السليمة وطيبه ، فاستطاع أن يخرجه من الجنة ؟ هذا درس بليغ لنا .

إذاً : وطنوا أنفسكم أن الشيطان عدو مبين ، لذلك ينبغي أن نحذره ، هذا أيضاً من مضامين سورة الأعراف .

سورة الأعراف تقسم الناس إلى أهل الشقاء وأهل السعادة وأهل الأعراف

ومضمون آخر في هذه السورة وهو : أن المصير الخلائق يوم القيامة مؤمنون وكافرون ، الكافرون ضحكوا أولاً ثم بكوا كثيراً ، وشقوا إلى أبد الآبدين ، وخسروا أنفسهم وأهليهم ، أما المؤمنون فتكلفوا طاعة الله عز وجل ، وهي ذات كلفة ، ومنه التكليف .

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

(سورة النازعاتك 41)

هؤلاء المؤمنون استقاموا على أمر الله عز وجل ، وبذلوا الغالي والرخيص والنفس والنفيس حتى استحقوا جنة الله عز وجل التي فيها :

((ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر))

[البخاري عن أنس]

استحقوا الجنة ، فلذلك هناك مؤمنون وكافرون .

وتنفرد هذه السورة بأن هناك زمرة ثالثة ، هم الأعراف ، وسميت السورة باسمهم ، سورة الأعراف ، ولها بحث طويل يأتي في مكانه من دروس هذه السورة إن شاء الله تعالى .

سورة الأعراف مملوءة بقصص الأنبياء

1 – الرسل مبلِّغون :

وهي أول سورة مكية تبين مقام النبوات ذكرت قصة سيدنا نوح ، وهود وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وموسى ، بالتفصيل ، وكيف أن الأنبياء قمم البشر ، وأن الله اصطفاهم على علم ، اصطفاهم ليكونوا مبلغين للبشر ، مبلغين بألسنتهم ، ومبلغين بأفعالهم فالنبي عليه الصلاة والسلام مثلاً أقواله تشريع ، وأفعاله تشريع ، وإقراره تشريع ، هو قدوة لنا .

2 – ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب :

بالمناسبة : هناك قاعدة جليلة أنه ما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض ، مثل ذلك الوضوء ، الصلاة لا تتم إلا به ، ولأن الصلاة فرض ، ولأنها لا تتم إلا بالوضوء ، فالوضوء فرض ، وما لا تتم السنة إلا به فهو سنة ، لذلك إذا قال الله عز وجل :

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر الآية : 7)

أنه لا بد من أن تعلم ما الذي آتانا ، ما الذي أتى به رسول الله ، ما لا يتم تنفيذ هذه الآية ، وهي :

(وَمَا آَتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ)

هذه الآية لا تطبق ، ولا تصبح موضع التطبيق إلا إذا عرفت ما الذي آتانا ، إذاً كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب ، وكل أمر لا يتم تطبيقه إلا بشيء الشيء الثاني أصبح واجباً ، إذاً : يجب علينا جميعاً ، بل مفروض علينا جميعاً سنة النبي القولية ،

(وَمَا آَتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ)

كيف آخذه إن لم أعلم ماذا آتاني ، وعن أي شيء نهاني ؟ .

3 – الرسل قدوة للبشر :

الآن للنبي رسالة ثانية ، الثانية :

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(سورة الأحزاب الآية : 21)

كيف يكون النبي أسوة حسنة إن لم نعرف سيرته العملية ، حياته في بيته ، مع زوجاته ، مع أولاده ، مع جيرانه ، مع أصحابه ، مع إخوانه ، في سلمه ، في حربه ، في إقبال الدنيا ، في إدبار الدنيا ، في انتصاره ، في عدم انتصاره .

إذاً ومعرفة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فرض عين على كل مسلم ، فلذلك هذه السورة جاءت بقصص الأنبياء ، نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وموسى .

4 – العلم لا يؤخذ من العلماء :

بالمناسبة أيها الإخوة ، لو كان من الممكن أن يتعلم الإنسان من كتاب فقط فلا داعي إطلاقاً لإرسال الأنبياء إطلاقاً ، لو كان من الممكن أن يتعلم الجيل من دون معلمين فلا داعي أن نفتح المدارس ، نوزع

كتبًا فقط ، لكن العلم لا يؤخذ إلا عن معلم متحقق ورع ، لذلك لا بد من إرسال الأنبياء ، والأنبياء الذين ذُكروا في القرآن الكريم عددهم محدود .

(مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ)

(سورة غافر الآية : 78)

قرأت في بعض الكتب أن العدد التقريبي بالآلاف ، لكن نحن في كتابنا الكريم ذُكرت قصص بعض الأنبياء .

إذاً الأنبياء قدوة ، والأنبياء لهم مهمتان مهمة التبليغ ، ومهمة القدوة ، ولعلي أرى مهمة القدوة أعظم بكثير من مهمة التبليغ ، سهل جداً أن تتكلم بالفضائل ، لكن البطولة العظمى أن تتمثل هذه الفضائل ، أن تكون حليماً ، البطولة أن تواجه بلدة ناصبتك العداء عشرين عاماً ، ونكلت بأصحابك ، وتفننت في حربهم ، وفي إزعاجهم ، وفي هجائهم ، وفي التنكيل بهم ، ثم تنتصر على هذه البلدة مكة ، ومعك عشرة آلاف سيف متوهج ، هذه السيوف رهن إشارتك ، ويكفي أن تعطيهم إشارة ليبيدوا هؤلاء حرب إبادة ، تقول لهم :

((ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال اذهبوا فأنتم الطلقاء))

[السيرة النبوية لابن هشام]

هذه البطولة ، أن يذهب إلى الطائف ليهدي أهلها إلى سواء السبيل ، يكذبونه يسخرون منه ، يتلذذون في تعذيبه ، وتأتيه ملك الجبال ، ويقول : يا محمد ، أنا طوع إرادتك ، لو شئت لأطبقت عليهم الأخشبين ، فيقول : لا يا أخي ، اللهم اهدِ قومي ، فإنهم لا يعلمون ، ما تخلى عنهم ، قال : قومي ، ودعا لهم بالهدى ، واعتذر عنهم ، فإنهم لا يعلمون ، ورجا الله أن يخرج من أصلابهم من يوحده ، هذا هو الكمال .

لذلك الأنبياء والمرسلون يعلموننا بكمالاتهم أضعاف ما يعلموننا بألسنتهم ، لذلك قال بعضهم : إن دلالة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم على فهمه لكتاب الله أبلغ من دلالة كلماته ، لأن الكمال يؤول أما السلوك حدي ، السلوك لا يؤول ، هكذا فعل مع جاره وهكذا .

إذاً : في هذه السورة الكريمة إشارة أيضاً إلى أن الأنبياء هم قمم البشر ، وقد اصطفاهم الله على علم :

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحاً وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران : 33)

اصطفاهم على علم .

في سورة الأعراف صورة للمتاجرة بالعلم

شيء آخر ، في هذه السورة أيضاً شرح لإنسان تاجر بهذا العلم ، اشترى به ثمناً قليلاً ، وصدقوا أيها الإخوة ، ما من مثل يقفز إلى ذهني كهذا المثل :

لو أنك وجدت على الطاولة ورقة مستطيلة بيضاء ، وظننتها ورقة من سخط المتاع ، كتبت عليها بعض الكلمات ثم مزقتها ، ثم اكتشفت أنها شيك بمئة مليار دولار ، فلما مزقتها خسرت المبلغ كله ، كم هو الندم ؟.

هذا الذي يتاجر بالدين ، هذا الذي يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً ، هذا الذي يتقرب إلى الناس باتجاه ديني كاذب .

لذلك يقول الإمام الشافعي : " لأن أرتزق بالرقص أهون من أن أرتزق بالدين " .

لذلك :

(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ)

(سورة الأعراف الآية : 176)

إذاً : في هذه السورة أيضاً إشارة إلى من يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً .

الأعراف تثبيت للتوحيد ابتداء وانتهاء

آخر موضوع في هذه السورة ، أن هذه السورة تثبت أخيراً التوحيد ، وأنه ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، بدأت بالتوحيد ، وانتهت بالتوحيد ، وأن التوحيد نهاية العلم وأن التقوى نهاية العمل ، و أنه يمكن أن نضغط رسالات الأنبياء جميعاً بكلمتين :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء: 25)

وحد اعتقاداً ، وأطع ربك سلوكاً ، هذا هو الدين كله .

أيها الإخوة الكرام ، الآية الأولى في هذه السورة سورة الأعراف :

(المص)

الحروف المقطّعة

شيء يلفت النظر ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((مَنْ قَرَأَ حَرْفَاً مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، لا أَقُولُ : آلم حَرْفٌ ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْف ، ولامٌ حَرْفٌ ، وَمِيمٌ حَرْفٌ))

[رواه الترمذي والدارامي عن ابن مسعود]

هذه الحروف أيها الإخوة ، تختلف عن بقية الحروف ، بقية الحروف حروف بناء ليس لها كيان إطلاقاً، الباء ما لها معنى ، أما أكلتُ بالملعقة ، لها معنى ، الحرف كلمة ليس لها معنى إطلاقاً إلا إذا اقترنت مع غيرها ، من ، ما لها معنى ، أما ذهبت من دمشق إلى حلب ، فالحروف البناء ، والحروف بمعنى الأدوات ، ليس لها معنًى تستقلّ به ، إلا أن معانيها من ارتباطها من بقية الكلمات ، إلا أن هذه الحروف الأربعة عشر حرفاً ، التي افتتحت بها بعض سور القرآن ، هذه حروف لها كيان مستقل .

مثلاً : لماذا قرأ النبي عليه الصلاة والسلام ؟ :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(سورة الفيل)

لماذا قرأ ؟

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

(سورة الشرح)

أما حينما قرأ البقرة قال :

(الم)

(سورة البقرة)

أولاً : هي حروف مقطعة ، ثانياً : تسكن ، ألف : سكون ، لام ، ميم ، ثالثاً ينبغي أن نفصل فيما بينها ، ألف ، لام ، ميم ، حروف مقطعة ، تُسكن ، نقف عليها ، نفصل بينها وبين الحروف التي بجانبها .

طبيعة الحروف المقطَّعة

1 – الله عزوجل هو الذي علم النبي النطق بالقرآن :

شيء آخر ، هذه الحروف هي مسميات وأسماء ، تتميز هذه الحروف بأنها مسميات وأسماء ، كيف ؟ مسميات ، با ، أو كتب ، ك ، مسمى ، ت ، مسمى ، با ، مسمى كتب ، أما الأسماء : كاف ، ك ، ا ، ف ، كاف مفتوحة هذا اسمها ، وتاء مفتوحة ، وباء مفتوحة ، صار الحرف له مسمى ، يعني صوته ، وله اسم ، ألف ، باء ، جيم ، دال ، تاء ظاء ، عين ، غين ، قاف ، كاف ، من الذي علم النبي صلى الله عليه وسلم أن يقرأ

(الم)

وأن يقرأ في سورة أخرى :

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

(أَلَمْ)

نطق بالمسميات ، أما :

(الم)

فقد نطق بالأسماء .

الشيء الذي يلفت النظر أن النبي أُميّ ، وأميته وحده وسام شرف له ، لأن الذي تولى تعليمه هو الله ، العلم المطلق ، أما نحن فلو كنا أميين أميتنا وصمة عار بحقنا نحن ليس عندنا وحي نتعلم منه ، ولما تلقى الوحي من الله ، ولما تولى الله تعليمه كان أعلم العلماء ، فقد تأخذ بعض الأحاديث ، تدرسها ، تحللها ، تنال دكتوراه ، أنت دكتور ، لأنك درست بعض الأحاديث ، فكيف بصاحب الأحاديث ؟ العلماء في الأرض عالة على علمه .

فلذلك من علّم النبي أن يقرأ :

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)

(أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

ومن علمه أن يقرأ في البقرة

(الم)

2 – استنباط لطيف :

لذلك هناك استنباط أول في قوله تعالى :

يعني عليك :

(فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ)

(سورة القيامة: 18)

(فَإِذَا قَرَأْنَاهُ)

يعني قرأه جبريل عليك ،

(فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ)

لذلك استنبط أن القرآن لا يؤخذ إلا بالتلقي ، والقرآن فضلاً عن هذا الكتاب الذي فيه آيات القرآن ، القرآن نقل لنا جمعاً عن جمع من رسول الله إلى اليوم ، فهو منقول بالتواتر ، والتواتر ما رواه جمع

غفير ، عن الجمع الغفير من نزول هذا القرآن عن رسول الله ، عن جبريل ، عن الله ، فهذا الكتاب الذي بين أيديكم هو الذي أنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالتمام والكمال ، وهذه قضية إيمانية .

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

(سورة الحجر:9)

3 – الحروف المقطّعة في القرآن نصف حرف اللغة العربية :

أيها الإخوة ، شيء آخر : هذه الحروف حروف المعجم 28 حرفاً ، الحروف المقطعة 14 حرفاً ، نصف الحروف بالتمام والكمال ، والحروف لها صفات في علم التجويد الهمس ، والتفخيم ، والترقيق ، والصفير ... إلخ .

نصف خصائص الحروف في هذه الحروف الـ14 ، بعض الآيات أو بعض السور تبدأ بحرف واحد :

(ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ)

(سورة ق: 1)

(ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)

(سورة ص)

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)

(سورة القلم)

بعض الحروف المقطعة حرفان ، حاء ، ميم ، بعض هذه الحروف ثلاثة حروف ،

(الم)

بعض هذه الحروف أربعة حروف كسورة الأعراف :

(المص)

بعض هذه الحروف خمسة .

(كهيعص)

(سورة مريم الآية : 1)

4 – المعنى الراجح للحروف المقطّعة :

مجموع الحروف أربعة عشر ، التفسير السهل والمريح أن الله أعلم بمراده والتفسير الآخر ، كما يقال : الرأي والرأي الآخر ، والتفسير الآخر أنها أوائل أسماء الله الحسنى ، ألف : الله ، لام : لطيف ، ميم : محمود .

وبعضهم قال : إنها أوائل أسماء رسول الله لأنه جاء بعدها في الأعم الأغلب كاف الخطاب .

(طه)

(سورة طه)

يا طاهر من الذنوب ، يا هادياً إلى علام الغيوب .

(مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ)

(سورة طه الآية : 2)

المرجح أنها أوائل أسماء رسول الله ، لأن كل هذه الحروف يأتي بعدها كاف الخطاب .

بعضهم قال وهو ورأي وجيه : أن هذه الحروف بين أيديكم ، وأنها قوام لغتكم ، وهذا القرآن يتحداكم ، المادة الأولية عندكم ، بين أيديكم ، وهذا القرآن لن تستطيعوا أن تأتوا بسورة منه ، بل ولا بآية ، هذا هو التحدي ، المادة الأولية بين أيديكم ، هي حروف ، إذاً لك أن تقول الله أعلم بمراده .

إخواننا الكرام ، تصوروا لو أن النبي فسره لانتهى القرآن ، وهو سيد الخلق ، لأن لا يعرف الله إلا الله، ولا يعرف كلام الله إلا الله ، نجتهد نحن جميعاً .

لذلك القرآن ليس ملك أحد ، فالذي قال : الله أعلم بمراده معه الحق ، ومعها وجهة نظر ، الذي قال : أوائل أسماء الله الحسنى مقبول ، والذي قال : أوائل أسماء النبي لوجوب كاف الخطاب ، والذي قال : هذا القرآن المعجز من هذه الحروف ، فأتوا بمثله إن استطعتم لا تستطيعون .

وبعض علماء القلوب قال : ألف من أقصى الحلق ، واللام من وسطه ، والميم من الشفتين ، يعني هذه الحروف تغطي كل مخارج الحروف ، من أقصى الحلق ، إلى أوسط الفم ، إلى الشفتين ، والصاد لأن في هذه السورة قصص الأنبياء ، كلٌ يدلو بدلوه ، وكلام الله معجز ، لك أن تختار من هذه التفسيرات ما يروق لك .

أيها الإخوة الكرام ، في درس قادم إن شاء الله نتابع تفسير الآية التي تلي هذه الآية .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(02-60): تفسير الآيتان 2 - 3 ، مخاطبة الله لمقام النبوة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-12-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثاني من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثانية ، وهي قوله تعالى :

(كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأعراف: 2)

الله محمود على الخلق وإنزال الكتب :

أيها الإخوة ،

(كِتَابٌ)

أي القرآن الكريم

(أُنزِلَ إِلَيْكَ)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام الآية : 1)

الكون .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

(سورة الكهف الآية : 1)

القرآن .

1 – لا بد للخلق من منهج يسيرون عليه :

الكون في كفة والقرآن في كفة ، الله عز وجل خلق السماوات والأرض ونور السماوات والأرض بالهدى .

للتقريب : يُشق الطريق ، ثم توضع الشاخصات ، هنا منعطف ، هنا تقاطع ، هنا منحدر ، هنا طريق ذات اتجاه واحدة ، يشق الطريق أولاً ، وتوضع الشاخصات ثانياً .

لذلك :

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة النور الآية : 35)

خلق السماوات والأرض ، وهداية الله نور السماوات والأرض ، وفي درس سبق بينت لكم أن الله سبحانه وتعالى قا

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

(سورة الرحمن)

والترتيب ليس الترتيب زمنياً ، إنما هو ترتيب رتبي ، بمعنى أنه لا معنى لوجود الإنسان من دون منهج يسير عليه ، من دون منهج يَشقى ويُشقي ، في شهوات يندفع من خلالها ، هذا الاندفاع من دون منهج يسير عليه يسبب شقاء للبشر .

2 – بين المنهج الإلهي السماوي والأنظمة الأرضية الوضعية :

لذلك :

(كِتَابٌ أنزلَ)

إذا سمعت كلمة أنزل أي من الأعلى ، الأرض فيها مبادئ وفيها اتجاهات ، وفيها فلسفات ، وفيها تصورات ، وفيها مذاهب ، وفيها اتجاهات ، لكن هذا الكتاب أنزل من أعلى ، من عند خالق السماوات والأرض ، كلمة أنزل يعني ليس من صنع البشر ، ليس من ثقافة البشر ، ليس من تصورات البشر ، ليس من معطيات البشر ليس من اختراع البشر ، هذا من إله البشر ، من خالق السماوات والأرض .

(كِتَابٌ أنزلَ إِلَيْكَ)

يا محمد .

أيها الإخوة ، من نعم الله الكبرى أنك تتبع منهجاً ليس من نِدٍّ لك ، ليس من مُساوٍ بك ، حينما تتبع منهجاً من صنع إنسان مثلك هذا المنهج يحابي مصالحه ، يحابي حظوظه ، يحابي حاجاته ، لذلك إذا وضع الإنسان التشريع حابى نفسه ، إذا وضع الإنسان التشريع كان نظره قاصراً ، إذا وضع الإنسان التشريع رأى من زاوية واحدة .

3 – الأصل في الأنظمة الأرضية النقص :

لذلك ما من تشريع أرضي إلا ويعدل ، ثم يعدل ، ثم يعدل ، ثم يلغى ، أبداً ، لأن الإنسان ليس مؤهلاً أن يشرع ، لأن علمه قاصر ، وأهواءه تتحكم فيه ، يأتي التشريع منعكساً لضعفه في النظر ، ولضعفه في النفس .

لذلك من نعم الله الكبرى على المسلمين أن التشريع ليس من بعضهم ، ليس من صنع فئة منهم ، ليس من صنع طرف آخر ، التشريع من عند خالق السماوات والأرض ،

(كِتَابٌ أنزلَ إِلَيْكَ)

معنى : فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ

شيء آخر ،

(فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ)

الحرج ؛ الضيق ، يا محمد لا تضق ، ولا تُحرج بهذا الكتاب ، ما المعنى ؟

المعنى الأول للنهي (فلا يكن ...) :

هناك لفتة رائعة جداً لهذه الآية ، أن النهي لا يتوجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام بعدم الحرج ، لكن النهي كما يرى بعض المفسرين يتوجه إلى الحرج بألا يدخل على قلب محمد .

((قلب العبد بين إصبعين من أصابع الرحمن))

[أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو]

أحياناً يمتلئ قلبُ الإنسان أمناً ، وقد لا يملك أسباب الأمن ، وقد يمتلئ قلبه خوفاً ، وقد يملك أسباب الأمن .

للتوضيح : إنسان سافر ، والعجلة الاحتياط ليست صالحة ، طول الطريق هو في هلع وخوف شديد ، فلو فسدت عجلة تدور لتوقف عن السير ، لو أن ابنه في الليل أصلح العجلة الاحتياط ، ولم يخبره هذا الذي يقود مركبته في النهار ، وعنده عجلة احتياط فاسدة بزعمه ، والابن أصلحها ، ولم يبلغ أباه يمتلئ قلبه قلقا وخوفا ، ومعه أسباب الأمن ، ولو أن هذه العجلة فاسدة ، لكن الذي يقود المركبة لا يعلم يمتلئ قلبه أمنا ، ومعه أسباب الخوف .

إذاً : الخوف والأمن يلقى في قلب الإنسان ، لذلك قال تعالى :

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام:82)

فحينما يتوجه الإنسان إلى الله عز وجل لا يسمح الله للقلق ، والخوف أن يتسرب إلى قلب المؤمن ، في قلب المؤمن من الأمن ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم ، والآية واضحة جداً :

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

تطابق الفطرة مع منهج الله :

لذلك من نعم الله العظمى أن الله سبحانه وتعالى جعل فطرة الإنسان متطابقة تطابقاً تاماً مع منهج الله ، فأنت حينما تطيع الله تصطلح مع نفسك ، حينما تطيع الله يلقى في قلبك من الأمن ما لو وزع على أهل بلدٍ لكفاهم ، حينما تطيع الله تلقى في قلبك السكينة ، وحينما تطيع الله تعطى الحكمة .

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة الآية : 269)

حينما تطيع الله تعطى الصبر ، تعطى الرضا . أيها الإخوة الكرام ،

(كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ)

ينهى الله الحرج ، والضيق ، والقلق ، والخوف ، والألم ، أن تتسرب إلى قلبه صلى الله عليه وسلم . لذلك قد يعيش إنسانان في ظروف واحدة ، وصعوبات واحدة ، وعقبات واحدة ، وصوارف واحدة ، ومشكلات واحدة ، الأول مؤمن قلبه ممتلئ طمأنينة ، ورضا ، وسعادة وإقبال ، وتفاؤل ، والثاني يمتلئ قلبه بالضيق ، والقلق ، والخوف ، والحقد ، والتشاؤم .

جهازُ المناعة أخطر جهاز في الجسم :

بالمناسبة ، أخطر جهاز يعمل بأجسامنا جهاز المناعة المكتسب ، هذا الجهاز أوكل الله إليه القضاء على معظم الأمراض السرطانية والجرثومية ، وهذا الجهاز يقويه الإحساس بالأمن ، يقويه الحب ، يقويه الود ، وهذا الجهاز يضعفه الخوف ، والقلق ، والحقد فأنت حينما تتعرف إلى الله وتتصل به ترتفع معنوياتك .

لذلك بشكل علمي بحت المؤمن أبعد عن الأمراض من غير المؤمن ، لأن جهازه المناعي بأعلى درجة بسبب الحب الذي في قلبه ، والأمن الذي ينعم به ، والطمأنينة التي يرتاح بها ، والتوازن الذي ينعم به .
لذلك :

(فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ)

بعض العلماء يقول : هذا نهي للحرج أن يتسرب إلى قلب النبي عليه الصلاة والسلام ، أنت مطمئن ، وهذه السعادة النفسية أيها الإخوة والله لا تقدر بثمن .

المعنى الثاني للنهي (فلا يكن ...) :

هناك معنى آخر ، النبي بشر ، لولا أنه بشر ، تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم)

(سورة فصلت الآية : 6)

((لقد أوذيت في الله ، وما يؤذى أحد ، وأخفت في الله ، وما يخاف أحد ، ولقد أتت علي ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال))

[أخرجه أحمد ، والترمذي وابن ماجة وابن حبان ، عن أنس]

هو بشر ، يشتهي ، ويخاف ، ويرغب ، ويتمنى ، لأنه بشر ، ولأنه انتصر على بشريته كان سيد البشر .

أيها الإخوة ، لأنه بشر يتألم أشد الألم إذا اتُهم بأنه ساحر ، هو ليس بساحر ، لأنه بشر يتألم أشد الألم إذا اتُهم بأنه مجنون .

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

(سورة القلم: 2)

هو بشر ، ولأنه بشر يتألم أشد الألم إذا اتهم بأنه كاهن ، اتُهم أنه ساحر ، وأنه كاهن ، وأنه مجنون ، لكن السؤال :

لماذا أثبت الله في القرآن الاتهامات الظالمة التي اتُهم بها النبيُّ ؟

يا رب ، هذا نبيك ، هذا سيد الخلق ، هذا حبيب الحق ، هذا سيد ولد آدم ، هذا صفوتك من خلقك ، فكيف تثبت في القرآن الكريم الاتهامات الظالمة التي اتُهم بها ؟ كنا نتوقع أن هذه التهم الظالمة الجاحدة أن لا تُذكر في كتاب الله ، كتاب الله يتلى إلى يوم القيامة ، نتعبد الله بقراءاته .

قال بعض العلماء : الحكمة من هذا أن كل من دعا إلى الله ، إلى نهاية الحياة سيلاقي متاعب كثيرة ، لأن معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية ، فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أسوة للمؤمنين ، أسوة للعلماء ، أسوة للدعاة إلى الله ، هذا سيد الخلق ، وحبيب الحق كُذب ، وعورض ، واتُهم ، اتُهم بأنه مجنون ، وبأنه ساحر ، وبأنه كاهن ، وهو فوق هذه الشبهات كلها :

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

إذاً : كأن هذه التهم التي أثبتها الله في القرآن الذي نتعبد الله بتلاوته إلى يوم القيامة هي تسلية ، وتعزية، ومواساة ، وتطييب قلب لكل من دعا إلى الله بعده ، ولاقى من المتاعب ما لاقى .

ولا يغيب عن أذهانكم أن إرادة الله شاءت أن يجتمع المؤمنون وغير المؤمنين في هذه الأرض ، واجتماع المؤمنين وغير المؤمنين ينتج عنه معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل ، فليوطِّن المؤمن نفسه أنه في معركة ، معركة الحق والباطل ، معركة الخير والشر معركة الظلم والعدل ، معركة الرحمة والقسوة .

لذلك هذه الآيات التي تثبت التهم الظالمة التي اتُهم بها النبي عليه الصلاة والسلام هي تسلية لكل مؤمن من بعده :

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

المعنى الثالث للنهي (فلا يكن ...) :

هناك معنى ثالث : أن الله سبحانه وتعالى يطيّب قلبَ نبيّه ، مع أنهم اتهموك لكنك عندي من المقربين ، لا حرج عليك ، مع أنهم اتهموك إنك من منأى عن كل هذه التهم ، وأنت فوق كل هذه التهم ، وأنت النبي الأول ، وأنت الرسول الأول ، وأنت الحبيب الأول ، وأنت المقرب الذي بلغ مرتبة عند الله لم يبلغها نبي مرسل ، ولا ملك مقرب حين بلغ سدرة المنتهى .

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)

(سورة النجم: 10)

موقف البشر مع رسالات الله قسمان : مؤمن وكافر :

أيها الإخوة ،

(كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ)

كأن الله سبحانه وتعالى يشير في هذه الآية الثانية من سورة الأعراف أن البشر حينما تأتيهم رسالات السماء ينقسمون ، ينقسمون على فريقين ، فريق يؤمن بها ، وفريق يكفر بها ، فريق يتلقاها بالقبول والرضا ، وفريق يتلقاها بالمعارضة والتكذيب ، هكذا شأن الحياة ، بالحياة اثنينية ، فيها حق وفيها باطل، فيها خير وفيها شر ، فيها جمال وفيها قبح ، فيها عدل وفيها جور ، فيها إحسان وفيها إساءة ، فيها رحمة وفيها قسوة ، كل الصفات السلبية صفات أهل الكفر والضلال ، وكل الصفات الإيجابية صفات أهل الإيمان والإسلام .

لذلك كيف أننا في الأحداث التي تحيط بنا أحياناً ينشأ حدث عظيم ينقسم به المجتمع كما ترون ، وكذلك الناس حينما تأتيهم رسالات الله ينقسمون إلى مؤمنين وإلى كافرين ، والدليل :

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً)

(سورة الرعد الآية: 43)

يكذبونه ، ذلك بأن الطرف الآخر يتحرك بلا ضابط ، بلا منهج ، بلا تعليمات بلا توجيهات ، بلا قيم ، بلا مبادئ ، تحركه شهوته ، دابة متفلتة ، تبحث عن إرواء شهواتها بأي طريقة ، بأي ثمن ، بأي أسلوب ، بلا رادع من قيمة أو مبدأ ، أو حياء ، أو خجل ، هكذا العالم اليوم ، انقسم إلى قسمين مؤمن وكافر ، مقسط وظالم ، القاسط هو الظالم ، أما المقسط فهو العادل ، وقد انقسم العالم اليوم إلى مثل هذا.

لذلك المؤمن يتلقى هذه الرسالة بالقبول والإيمان ، والتصديق ، والبكاء ، والسعادة بينما غير المؤمن يتلقى هذه الرسالة بالتكذيب ، والسخرية ، والمعارضة ، والرد ، لذلك يقول الله عز وجل :

(كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ)

من ؟ الكافرين المكذبين ، الساخرين ، المعارضين

(لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

معنى ذكرى :

ما معنى ذكرى ؟

إذا ذهبت إلى بلد من البلدان ، وليكن إلى بلد ساحلي ، ورأيت صخرة مشهورة في هذا البلد ، ولتكن صخرة الروشة في بيروت ، رأيتها بأم عينك ، بعد بضع سنوات رأيت صورة لهذه الصخرة ، تقول : نعم كنت في هذا المكان ، ما معنى ذكرى ؟ إنه شيء رأيته ، شيء تعرفه ، لكن هذه الصورة ذكرتك به، شيء رأيته ، شيء تعرفه ، لكن هذه الصورة ذكرتك به .

فلذلك الله عز وجل حينما خلق النفوس قبل أن تصور ، خلقها في عالم الأزل خلقها في عالم الذر ، هذه النفوس التي خلقها ماذا قال لها ؟

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)

(سورة الأعراف الآية :172)

هذا عالم الأزل ، هذا عالم الذر ، كل المخلوقات كانت نفوساً مجردة من صورها ،

(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)

هذا العهد جاء في العقل ، وجاء في الفطرة ، وجاء في رسالات السماء ، فأنت مؤمن في أصل خلقك ، أنت مؤمن في أصل فطرتك ، أنت مؤمن بحسب مبادئ عقلك ، أنت مؤمن بحسب ما أودع الله فيك من خصائص ، أنت مؤمن فإذا جاءتك الدعوة إلى الله تتذكر .

لذلك أينما قرأت في القرآن الكريم كلمة وذكرى تعني أنك مؤمن بالفطرة ، مؤمن بحسب مبادئ العقل، مؤمن بهذا العهد الذي عاهدت الله عليه في عالم الأزل ، أنت مؤمن ، فإذا جاءتك الرسالة ، أو جاءك الهدى تتذكر العهد الذي قطعته على نفسك في عالم الأزل .

إذاً :

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)

أيها الإخوة ، إذاً :

(لِتُنْذِرَ بِهِ)

المكذبين ، الشاردين ، الذين اختاروا الشهوة ولم يختاروا الآخرة ، اختاروا حظوظ الدنيا ، ولم يختاروا:

(مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

(سورة القمر :55)

اختاروا العاجلة ، وكفروا بالآجلة ، اختاروا الحياة الدنيا ، وكفروا بالحياة الآخرة لهؤلاء تنذرهم من مغبة كفرهم ، تنذرهم من مغبة تقصيرهم ، تنذرهم من مغبة معصيتهم تنذرهم من مغبة انحرافهم عن الطريق الصحيح ، بينما الطرف الآخر المؤمنون أنت تذكرهم بما عرفوا في عالم الأزل ، تذكرهم بما أخذ الله عليهم من عهد حينما خلقهم في عالم الذر .

إذاً :

(لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

معنى الرسالة :

إخواننا الكرام ، ماذا تعني كلمة الرسالة ؟ يعني هناك مرسل هو الله جل جلاله هناك مرسل إليه هو النبي عليه الصلاة والسلام ، هناك مرسل إليهم هم البشر ، هناك موضوع الرسالة هو الكتاب ، وهناك

مرسِل ، وهناك مرسَل ، وهناك مرسل إليه ، موضوع الرسالة هو هذا القرآن ، منهج الله عز وجل ، خاتم الكتب ، دستور حياتنا ، طريق سلامتنا ، طريق سعادتنا ، لذلك الآن جاء التوجيه :

(اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ)

(سورة الأعراف: 3)

دعوة قرآنية إلى اتباع المنهج القرآني :

1 – هذا مثل من الواقع فاعقلوه ، ولله المثل الأعلى :

يشكل مبسط تبسيط كبير :

عندك آلة غالية جداً ، عظيمة النفع ، معقّدة التركيب ، معك كُتيب صغير فيه تعليمات التشغيل والصيانة ، فأنت بدافع من حرصك على هذه الآلة ، وعلى سلامتها ، وعلى حسن مردودها تقرأ الكتاب، وتنفذ ما في هذا الكتاب ، أنت أعقد آلة في الكون ، ولهذه الآلة البالغة التعقيد صانع حكيم ، ولهذا الصانع الحكيم تعليمات التشغيل والصيانة ، فأنت بدافعٍ من حبك لذاتك ، وحبك لسلامتك ، وحبك لكمال وجودك ، وحبك لاستمرار وجودك تنفذ تعليمات الصانع ، انظر إلى سلوكك إن اقتنيت مركبة جديدة ، تقرأ كيف تستخدم المكابح ؟ كيف تستخدم الماسحات ؟ كيف تستخدم ؟ كيف تملأ مستودع البنزين ؟ بشكل فطري وطبيعي حينما تشتري آلة ، وتحرص على سلامتها ، وحسن أداءها ، تتبع تعليمات الصانع .

لذلك جاء التوجيه الإلهي : أيها المؤمنون

(اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ)

طبق .

(خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)

(سورة مريم الآية : 12)

هذا من عند الخبير .

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر: 14)

2 – الأوامر والنواهي الإلهية هي ضمان للسلامة وليست حدودا للحريات :

أنت حينما تمشي في حقل ، ثم تفاجأ بلوحة كتب عليها : " حقل ألغام ، ممنوع التجاوز " ، لا تشعر بحقد على من وضعها ، بل تشعر بالامتنان ، لأن هذه اللوحة ليست حداً لحريتك ، بل هي ضمان لسلامتك .

(اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ)

فنحن ربنا خلقنا .

(لَهُ الْخَلْقُ)

دقق :

(وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف الآية : 54)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة الآية : 21)

مَن هي الجهة التي تستحق وحدها أن تطاع ؟ الله جل جلاله ، لا معبود بحق إلا هو .

لذلك :

(اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ)

لسلامتكم ، لسعادتكم ، لأمنكم ، لنمائكم ، لتوفيقكم ، لنصركم ،

(اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ)

لكن لا يعقل أن يكون الله هو الخالق ، وتتبع منهج آخرين من أهل الأرض .

((إني والإنس والجن ، أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر سواي ، خيري إلى العباد نازل ، وشرهم إلي صاعد ، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم ، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي ، إني والجن والإنس في نبأ عظيم : أخلق ويعبد غيري وأرزق ويشكر غيري ، خيري إلى العباد نازل ، وشرهم إلي صاعد ، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم ، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي ، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد ، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب ، أهل ذكري ، أهل مودتي ، أهل شكري ، أهل زيادتي ، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب ، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد ، والسيئة بمثلها وأعفو ، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

[ورد في الأثر القدسي]

لذلك :

(اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا)

3 – هذا هو المنهج الإلهي فلماذا نستورد مناهج المخلوقين ؟!

ينبغي ألا نستورد مناهج من أماكن أخرى ، من ثقافات أخرى ، ثقافات مادية ، ثقافات جمالية ، ثقافات ملحدة ، ثقافات نفعية ، ثقافات الأرض لا تعد ولا تحصى ، كلها باطلة إلا منهج الله عز وجل ،

(وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ)

أيْ تذكروا قليلاً العهد الذي بينكم وبين ربكم في عالم الأزل .

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه : 123)

4 – لا شقاء ولا ضلال في اتباع منهج الله :

لا يضل عقله ، ولا تشقى نفسه .

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة : 38)

اجمع الآيتين ، من يتبع هدى الله عز وجل لا يضل عقله ، ولا تشقى نفسه ، ولا يندم على ما فات ، ولا يخشى مما هو آت ، فماذا بقي من السعادة ؟ لا يضل عقله ، ولا تشقى نفسه ، ولا يندم على ما فات، ولا يخشى مما هو آت .

أيها الإخوة ، الحقيقة أن آدم عليه السلام وهو في الجنة أعطاه الله درساً بليغاً ، وأنت حينما تربي ابنك ينبغي أن تعطيه درساً بليغاً ، ينبغي ألا تعتني بجسمه فحسب ، ينبغي أن تعتني بجسمه ونفسه وعقله وإيمانه ، وسر وجوده ، أن تبين له سر وجوده ، وغاية وجوده لذلك ،

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

5 – منهج الله سماوي عُلْويّ ، لا شرقي ولا غربيّ :

أيها الإخوة ، لكن البشر شأنهم أنهم يلزمون مَن حولهم إذا كانوا أقوياء باتباع منهجهم هذا الذي ترونه في العالم شرقاً وغرباً ، الشرق يفرض المنهج المبني على تقديس المجموع فيما سبق ، وجهة أخرى تدعو إلى مبدأ يعتمد على تقديس الفرد ، أما ربنا عز وجل فمنهجه لا شرقي ولا غربي ، ولكنه علوي،

لا يجوز أن تقال الإسلام يتطابق مع المنهج الفلاني ، أو مع المنهج الفلاني ، الإسلام نسيج وحده ، الإسلام من عند خالق السماوات والأرض الإسلام علوي .

أيها الإخوة الكرام ، مع أن الإنسان أودع الله فيه فطرة تتوافق مع منهج الله توافقاً تاماً ، ومع ذلك منّ الله على البشر برسالات السماء من حين إلى آخر ، فكلما ضعف تمسك الناس بالهدى بمنهج الله عز وجل ، جاءت رسالة جديدة ، إلا الذي ينبغي أن يكون واضحاً تماماً هو أن كل جيل ينبغي أن ينقل إلى الجيل الآخر معالم الهدى .

لذلك ما لم تبنَ مناهج التربية على وحي السماء ، وعلى الهدى الذي جاء به الأنبياء فهناك خطر كبير ، خطر الفساد في الأرض ، خطر الشقاء ، فساد وشقاء .

لكن قد تشير بعض الحقائق إلى أن الأجيال ينبغي أن تتوارث نقل الهدى من جيل إلى جيل بمثل في جسم الإنسان :

من الإعجاز في خَلق الإنسان :

1 – في جسمِك مدرسة حربية وأنت لا تدري !!!

هناك غدة صغيرة جداً لا تزيد على حبة الحمص ، إلى جانب القلب ، كتب الطب من مئة عام أجمعت على أن هذه الغدة لا وظيفة لها إطلاقاً ، بسبب أنها تضمر بعد سنتين وتتلاشى كلياً ، وهناك دراسات من عقد واحد من الزمن تؤكد أن هذه الغدة أخطر غدة على الإطلاق ، إنها مدرسة حربية ، تدخلها الكريات البيضاء المقاتلة ، وتتعلم فيها من هو الصديق ومن هو العدو ، الكريات البيضاء خمس فرق ، فرقة استطلاع ، وفرقة تصنيع السلاح وفرقة المشاة المحاربين ، وفرقة الخدمات ، وفرقة المغاوير ، الحديث عن الفرقة الثالثة فقط فرقة المقاتلين ، هذه الكريات البيضاء المقاتلة معها سلاح فتاك ، لكنها جاهلة ، سماها العلماء الخلية التائية الهمجية ، تدخل هذه إلى هذه الكلية الحربية وقد كبرت هذه الكلية آلاف المرات بدت وكأنها مدرج ، وهذه الخلايا التائية الهمجية تجلس على مقاعدها في هذا المدرّج ، أمّا كيف تُعلم هذه الكريات الهمجية مَن هو الصديق والعدو فهذا لا يعلمه إلا الله .

تمضي هذه الكريات البيضاء في هذه المدرسة الحربية سنتين كاملتين ، تتعلم من هو الصديق ، ومن هو العدو ، ثم ينتهي العامان الدراسيان بامتحانين ، الامتحان الأول تعطى الخلية التي كانت همجية فأصبحت مثقفة تعطى عنصرًا عدوًّا ، فإذا قتلته تنجح وتتخرج ، وإذا لم تقتله ترسب وتقتل ، الامتحان الآخر تعطَى عنصرًا صديقًا ، فإن قتلته ترسب وتقتل ، وإن لم تقتله تنجح وتتخرج .

الآن مجموع الكريات البيضاء المقاتلة تتخرج بعد سنتين من هذه الكلية ، وتغلق الكلية أبوابها ، وتضمر وتتلاشى ، الآن الجيل المتخرج من هذه الكلية يتولى تعليم الأجيال اللاحقة ، إلى نهاية الحياة ، كل جيل يعلم الجيل القادم .

2 – تعلَّم نقل العلم مِن نظام جسمك :

ذكرتني هذه الحقيقة العلمية بأن البشر ينبغي أن يكونوا كذلك ، أن ينقلوا إلى أجيالهم اللاحقة الهدى الإلهي ، مع التربية التي تناسب هذا الهدى .

بعد ستين سنة يضعف التعليم في جسم الإنسان ، فيصاب الإنسان بشيء اسمه خرف المناعي ، التعليم ضعيف ، في جندي معه سلاح فتاك وجاهل فقد يضرب الصديق ، وقد يقتل الموالي ، لذلك ينشأ في جسم الإنسان بعد سن الستين حرب أهلية ، من خصائص هذه الحرب الأهلية : التهاب المفاصل الرثوي، الذي معه التهاب مفاصل عنده حرب أهلية ، فالعناصر القوية في الجسم تضرب عناصر المفاصل ، وهناك سبعة أمراض خطيرة هي من نتائج الحرب الأهلية بين فرق المقاتلين المدججة بالسلاح ، وهم جهلة ، لأن التعليم كان ضعيفًا ، هذه الحالة اسمها الخرف المناعي .

فلذلك الأمة مسؤولة أن تنقل رسالات السماء إلى الأجيال الصاعدة .

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

(سورة العلق)

3 – التعليم صنعة الأنبياء :

أيها الإخوة الكرام ، لا بد من التنويه بأن التعليم صنعة الأنبياء .

((وإنما بعثت معلما))

[أخرجه ابن ماجه عن ابن عمر]

((إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق))

[أخرجه ابن سعد البخاري ، والحاكم ، والبيهقي ، عن أبي هريرة]

وإلى درس آخر إن شاء الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(03-60): تفسير الآيات 4 - 7

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-12-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثالث من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الرابعة ، وهي قوله تعالى :

(وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ)

(سورة الأعراف:4)

مسائل لغوية متعلقة بالآية : وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ

1 ـ(كَم) الاستفهامية ، و(كَم) الخبرية :

أيها الإخوة ، نحتاج أحياناً لشرح الآيات إلى بعض قواعد اللغة ، كم في اللغة على نوعين ، تأتي كم استفهامية ، وتأتي كم تكثيرية ، أو خبرية ، فإذا سألتُ : كم كتاباً قرأتَ ؟ يقول لي : خمسة كتب ، هذه كم استفهامية ، أما إذا كان الذي أمامي قد قرأ كتباً لا تعد ولا تحصى ، يقول لي : كم كتابٍ قرأتُ ، هذه كم خبرية ، أو تكثيرية ، إذا كان الشيء يعدّ يذكر العدد ، فإن كان لا يعدّ تأتي كم التكثيرية أو كم الخبرية .

فالله عز وجل لأنه رب العالمين ، لأنه خلق الإنسان ليسعده في الدنيا والآخرة ، فإذا ضل الإنسان عن طريق سعادته ، وسلامته ساق الله له من الشدائد ما يحمله على التوبة .

وقد بينت في دروس سابقة كيف أن الله سبحانه وتعالى يتوب على عباده ليتوب عليهم ، أن يسوق لهم بعض الشدائد ليحملهم بها على التوبة ، أو يتوبون فيتوب عليهم أي يقبل توبتهم .

2 ـ المجاز في قوله : مِن قريةٍ :

إذاً

(وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ)

وعندنا في اللغة أيضاً ما يسمى في المجاز ، فأحياناً يقول الله عز وجل :

(وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ)

(سورة يوسف الآية : 82)

القرية مكان ، والقرية جماد ، والقرية غير عاقلة ، والقرية لا تجيب ، أي اسأل أهل القرية ، ونقول أحياناً في بلاغاتنا اليومية : اجتمع مجلس الوزراء ، المجلس هو الكرسي ، هل يعقل أن تجتمع مقاعد الوزراء وتتخذ قرارات ؟! المقصود بالمجلس مَن على الكرسي ، هذا اسمه مجاز عقلي ، قد يعبر عن صاحب المكان بالمكان ، وقد يعبر عن الكل بالجزء ، وقد يعبر عن الجزء بالكل .

(يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ)

(سورة البقرة الآية : 19)

لا تدخل .

(يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آَذَانِهِمْ)

(سورة البقرة الآية : 19)

ذكر الكل وأراد الإصبع الواحد ، الكل يحل محل الجزء ، والجزء يحل محل الكل ، والمكان محل السكان ، وهكذا ، هذا اسمه مجاز عقلي ، والكناية فرع من المجاز العقلي .

مثلاً :

وإذا المنية أنشبتْ أظفارها

المنية ليس لها أظافر .

ألفيتَ كلَّ تميمة لا تنفع

شُبهت المنية بإنسان ، وحذف الإنسان ، وبقي بعض لوزامه ، أو شُبهت المنية بوحش ، وحذف الوحش ، وبقي بعض لوازمه ، وهو إنشاب الأظافر ، هذا بحث في البلاغة يطول في المجاز العقلي والكناية .

إذاً :

(وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ)

أي كم من أهل قرية أهلكناها .

فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ

1 – ملمحٌ لطيف في الآية :

أيها الإخوة ، في القرآن ملمح دقيق جداً ، أهلكناها وانتهى الأمر ، قال :

(فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ)

أي لم تهلك بعد ، كيف نوفق في الآية بين :

(أَهْلَكْنَاهَا)

والفعل ماضي ؟ ثم يقول الله عز وجل

(فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ)

هناك ملمح دقيق جداً في هذه الآية ، حينما ترى مصيبة قد وقعت سأوضح لك الحقيقة بالمثل التالي : هناك موظف حامت حوله الشبهات ، صار حوله لغط كثير ، هناك من يقول : يأخذ مالاً ليس له ، أو إنه يشترط على أية موافقة مبلغًا من المال ، صار حوله لغط ، و تساؤلات ، وهمس ، وغمز ، ولمز ، الإدارة العامة أجرت تحقيقاً سرياً ، أرسلت له من يدفع له المال ، فقبله ، أرسلت له من يطالبه بمخالفة للقانون ، فاشرط مبلغ من المال ، بعد غمز ، ولمز ، وتحقيقات ، وإشارات ، ولغط ، وبعد وفضيحة شاعت ، وبعد تحقيقات دقيقة ومتأنية ، ومديدة ، حتى اجتمعت الأمور ، والمعلومات الدقيقة على أنه ليس مستقيماً ، واجتمع مجلس الإدارة ، وطرح أمر هذا الموظف ، وكان من يدافع عنه ، ومعلوماته غير دقيقة ، والذي أدلى بالمعلومات الدقيقة ، وبالأدلة الدقيقة أيضاً ، فاتخِذ قرارٌ بالأكثرية بكف يده عن العمل ، وكلف أمين السر بكتابة مسودة لهذا القرار ، والقرار وقعت مسودته ، ثم كتب على الكمبيوتر ، ثم وقعت النسخة الأخيرة ، وعممت على كل الدوائر ، وبعدها صدر القرار بكف يده عن العمل .

الآن دقق ، هل كفُّ اليد عن العمل قرار طارئ ؟ لا ، إنه مدروس ، هل هو قرار صدر فجأة ؟ لا ، بل كان قبْله في دراسة طويلة .

هذا الكلام أسوقه كي تؤمن معي أن كل مصيبة وقعت ، ليست هذه المصيبة ارتجالية ، ولا مزاجية ، ولا طارئا ، بل هي مصيبة وقعت لحكمة بالغة ، وبعد دراسة وافية ، وبعد تعنت الإنسان ، وبعد استكباره عن أن يتوب ، وبعد مباهاته بهذا العمل السيئ ، وبعد إجراءات كثيرة تنبيهية ، وبعد تحذيرات، وبعد أعمال عديدة لحمله على أن يكون صالحاً فلم يصلح ، فاتخذ هذا القرار .

2 – كل مصيبة بقدَر ولحكمة :

إياك أن تظن أن مصيبة كبيرة نزلت بإنسان ، قضية فجائية ، أو قضية مزاجية ، أو قضية طارئة ، الأمر أعقد من هذا بكثير .

(وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا)

ترى مجتمعا غارقًا في الربا ، غارقا في الزنا ، غارقا في الكذب ، غارقا في النفاق ، غارقا في القسوة، غارقا في الظلم ، يجب أن تعتقد أن هذا المجتمع هالك عند الله ، لكن متى يأتي الإجراء الذي يجسد هذا الهلاك ؟ لا نعلم .

الفكرة دقيقة جداً ، حينما يشرد الإنسان عن الله ، وحينما يبتعد الإنسان عن ربه ، وعن منهج ربه ، وحينما يبني مجده على أنقاض الناس ، حينما يبني حياته على موتهم ، حينما يبني عزه على ذلهم ، حينما يبني غناه على فقرهم ، حينما تأخذه العزة بالإثم ، حينما ينصح فلا يقبل ، تقدم له المعلومات الدقيقة التي لصالحه ، فيرفضها حينما يركب رأسه ، عندئذٍ يصدر قرار من الله عز وجل بإهلاكه ، مع وقف التنفيذ ، يأتي التنفيذ بحكمة بالغة وبتقدير كبير .

لذلك :

(وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا)

بعد أن صدر القرار بإهلاكها ، الآن بعد حين جاء تنفيذ هذا القرار .

لذلك إخواننا الكرام ، من أدق الأدعية :

((اللهم إني عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ فيّ حكمك ، عدلٌ فيّ قضاؤك))

[أحمد عن ابن عمر]

((أعوذ بنور وجهك التي أشرقت له السماوات والأرض ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تحل بي غضبك ، أو أن تنزل بي سخطك ، أعوذ بك من فجأة نقمتك ، وتحول عافيتك ، وجميع سخط ، لك العتبى حتى ترضى))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

فجأة خثرة بالدماغ ، شلل ، هذه ليست جاءت فجأة ، أنت توهمتها فجأة ، بل للمعاصي ، والآثام ، أحياناً طبعاً ، نحن لا نحكم إلا على الظاهر .

3 – المصيبة إمّا ردعٌ أو رفعٌ أو دفعٌ أو كشفٌ أو قصمٌ :

إن المصائب أنواع ، لئلا يتوهم أحدكم أن الإنسان إذا أصابته خثرة فهو عاصٍ ، لا ، المعاصي أنواع، هناك مصيبة دفع ، هذه مصائب المؤمنين ، يدفعه إلى بابه ، هناك مصيبة رفع ، هذه مصائب المتقين ، ليرفع درجته عند الله ، هناك مصائب ردع للعصاة والمذنبين ، هناك مصائب القصم للمجرمين ، مصائب الأنبياء كشفٌ ، فإنهم ينطوون على كمال لا يظهر إلا في ظروف صعبة .

يذهب النبي عليه الصلاة والسلام إلى الطائف مشياً على قدميه ليدعو أهلها إلى الإسلام ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ليهديهم إلى سواء السبيل ، فيكذبونه ، ويسخرون منه ، يغرون أبناءهم كي يؤذوه، فيسيل الدم من قدمه الشريفة ، فيأتيه ملك الجبال ليمكّنه من أن ينتقم منهم ، فيقول : لا يا أخي ، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون ، هذه مصيبة ، ولكنها مصيبة كشف .

الأنبياء مصائبهم مصائب كشف لكمالهم ، والمؤمنون مصائبهم دفع إلى بابه ، ورفع في مقاماتهم ، بينما العصاة والمذنبون مصائبهم ردع ، إن كان فيهم بقية خير ، أو قصم إذا كانوا قد شردوا عن الله شرود البعير .

لكن أحياناً قد يأتي مرض مفاجئ ، أحياناً إذا كان صاحب هذا المرض غارقًا في المعاصي والآثام ، والفسق ، والفجور ، والزنا ، نقول : هذا الذي جاء من الله هو فجأة نقمته وتحول عافيته ، سبقه تحذيرات ، وإنذارات ، ودعوة صامتة ، وتأديب تربوي ، وسبقه إكرام استدراجي ، وسبقته محاولات ، والله عز وجل حلم عليه ، وأمده ، وحذره ، فلما أصر على معصيته ، ونسي ربه ، وشرد عنه شرود البعير جاءت المصيبة .

إذاً : أخطر شيء في الإنسان أن يكون قد صدر قرار من الله بإهلاكه ، مع وقف التنفيذ ، هذا فجأة قد يكون حادث سير أحياناً يشله نصفين ، قد يكون مصيبة تودي بماله كله ، على كلٍ نعوذ بالله من فجاءة نقمته ، وتحول عافيته ، وجميع سخطه ، وله العتبى حتى يرضى لكن عافيته أوسع لنا ، قل هذا الدعاء:

اللهم إني عبدك ، وابن عبدك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ فيّ حكمُك ، عدل فيّ قضاؤك ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له نور السماوات والأرض ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي سخطك ، أو أن تحل علي غضبك ، أعوذ بك من فجأة نقمتك وتحول عافيتك ، وجميع سخط ، ولك العتبة حتى ترضى ، لكن عافيتك أوسع لي .

((اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليّ ـ أعترف يعني ـ وأبوء لك بذنبي ، فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت))

[البخاري عن شداد بن أوس]

4 – فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا

إذاً :

(وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا)

بياتاً في الليل .

إنّ الإنسان يأوي إلى فراشه ، يستقر في سريره ، السرير دافئ ، والبيت مريح ، وقد تناول طعام العشاء ، وكل شيء على ما يرام ، فجأة زلزال يجعل عالي المدينة سافلها .

والله سمعت عن إنسان في مدينة عربية أصابها زلزال ، من شدة الخوف الذي ملئ قلوب أهل البيت ، خرجت الأم ، وحملت وليدها الصغير على صدرها ، وانطلقت إلى الشارع من شدة الخوف نظرت إلى وليدها فإذا هو حذاء زوجها .

(يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

(سورة الحج: 2)

أحياناً نستمع إلى الزلازل ، إعصار تسونامي ، ساحل من أجمل سواحل العالم ، يرتاده كبار أغنياء العالم في عيد الميلاد ، البرد شديد بأوربا ، وثلوج ، وكذا في أمريكا ، فيأتون إلى منتجعات من نوع العشر نجوم ، لكنهم رأوا فيها نجوم الظهر ، فقد أتوا إلى بلاد الزنا ، والشذوذ ، والتعري ، إنهم أغنياء العالم ، فجاءهم زلزال تسونامي على قدرهم ، وأمامنا مشاهد كثرة ، فقد تجد جزيرة كلها نوادي للعُراة تغرق كلياً .

على كلٍ :

(وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا)

((يا رب ، أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال : أحب عبادي إلي تقي القلب ، نقي اليدين ، لا يمشي لأحد بسوء أحبني ، وأحب من أحبني ، وحببني إلى خلقي قال : يا ربي إنك تعلم إني أحبك ، وأحبك من يحبك ، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال : ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي))

[رواه وابن عساكر ، عن ابن عباس]

يجب أن تذهب إلى المستشفى أحياناً ، هذا بلا رجل ، هذا معه مرض جلدي مخيف ، هذا معه فشل كلوي ، هذا معه تشمع كبد ، هذا معه خثرة بالدماغ ، أنت صحيح معافى ، يا رب أتم علينا الصحة . فأحياناً المصائب مفيدة جداً ، تحدث قوة ردع المصائب ، وأحياناً النعم تحدث محبة لله عز وجل ، وأحياناً الآيات الكونية تحدث شعور بالتعظيم ، فكأن المؤمن يجب أن يعظم ربه أولاً ، وأن يخافه ثانياً ، وأن يحب ثالثاً .

5 – القرية مكان مثالي للمعيشة :

(وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا)

هنا إشارة إلى أن القرية هي المكان المثالي للمعيشة ، وبعض رؤساء الدول الكبرى في أوربا جمع عددا كبيرا من العلماء في منتجع ، وأقاموا فيه شهراً ليجيبوا عن سؤال واحد : لماذا انتشر العنف في العالم ؟ طبعاً الإجابات طويلة ، وأنا ذكرت بعضها في دروس سابقة ، لكن أشاروا عليه بأن التجمعات

السكانية الكبيرة يضعف فيها الضبط الاجتماعي ، أما التجمعات القليلة فالضبط أشد بكثير ، فلذلك اقترحوا عليه ألا تزيد مدينة على 200 ألف إنسان ، أما 18 مليونا فشيء مرعب !!! ففي مثل هذه المدينة وحشة ، وأعمال عنف ، وجرائم ، واحتيالات ما لا سبيل إلى وصفه .

(وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا)

هو نائم

(أَوْ هُمْ قَائِلُونَ)

في وقت القيلولة ، يعني تأتي المصيبة فجأة ، يأتي المرض فجأة ، يأتي الزلزال فجأة .

6 – لا أحد يتوقع توقيت المصيبة والهلاك فاحذورا نقمة الله :

بالمناسبة : سبحان الله ! لحكمة أرادها الله أن الإنسان الذي وصل إلى القمر ، والذي وصلت مركباته إلى المشتري ، والذي نقل الصورة عبر القارات الملونة ، نقل الصوت ، اخترع الغواصات ، اخترع الطائرات ، البوارج ، اخترع أسلحة فتاكة ، لا يستطيع أن يتنبأ بالزلزال ، ولا قبل ثانية واحدة ، مع كل علمه ، بينما الدواب تتنبأ بالزلازل قبل عشرين دقيقة ، لذلك قلما تصاب دابة بأخطار الزلازل ، قبل عشرين دقيقة تنطلق بعيدة عن مكان الزلزال ، وفي بلدة واحدة في زلزال تسونامي رأوا الحيوانات تعدو مسرعة فقلدتها فنجت .

فقد تأتي المصيبة ليلاً ، وقد تأتي عصراً وقت القيلولة ، لذلك إذا رأى الإنسان أن الله يمده بالنعم وهو يعصيه فليحذره ، لا سمح الله ولا قدر أنْ تصيبه مصيبة .

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج:12)

وترون رأي العين الزلازل ، والفيضانات ، والصواعق ، والحروب الأهلية :

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ)

(سورة الأنعام الآية : 65)

هذه الصواعق ، ومعها الصواريخ .

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

(سورة الأنعام الآية : 65)

هذه الزلازل ، ومعها الألغام .

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام الآية : 65)

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

((رأس الحكمة مخافة الله تعالى))

[أخرجه الحكيم وابن لال عن ابن مسعود]

7 – طاعة الله وقاية من العذاب :

لذلك أنت حينما تطيع الله فأنت في ظل الله ، في رعاية الله ، في توفيق الله ، في حفظ الله ، في ذمة الله.

((من صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله حتى يمسي ، ومن صلى العشاء في جماعة فهو في ذمة الله حتى يصبح))

((ابن آدم لا تعجز عن ركعتين قبل شروق الشمس وقبل غروبها ، أكفيك ما بينهما))

إنسان صلى الفجر في جماعة ، وصلى قيام الليل ، وقرأ قرآن ، وذكر الله ، هذا في النهار في حصن حصين ، في توفيق ، في سداد ، في حكمة ، له هيبة

(وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ)

(فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

(سورة الأعراف :5)

الإنسان على نفسه بصيرة ، والإقرار سيد الأدلة :

ما معنى هذه الآية ؟ معنى هذه الآية أن الإنسان :

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة :15)

(وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

(سورة الأنعام)

هذا ذكرني بإنسان كان يتولى الدعاية بالدخان في الشاشات الغربية ، شاب في ريعان الشباب ، يرتدي الكوبوي ، ويركب على حصان ، ويدخن ويقول : تعال إلى حيث النكهة ، هي نكهة الخمر ، لأن معظم الدخان منقوع في الخمر ، هذا قبل أن يموت قال : كنت أكذب عليكم ، الدخان قتلني .

لذلك :

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

عند الموت تنكشف كل الحقائق :

أنا أؤكد لكم أن أي إنسان على وجه الأرض من دون استثناء ، من أي دين ، من أي ملة ، من أي طائفة ، من أي مذهب ، ولو كان ملحدا ، عند الموت تنكشف له الحقائق التي جاء بها الأنبياء ، فيقول :

(وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)

أليس من دليل أقوى من هذا الدليل ؟ لما أدرك فرعونَ الغرقُ قال :

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس :90)

أي إنسان من الستة آلاف مليون حينما يأتيه الموت يكتشف الحقيقة التي جاء بها الأنبياء ، لذلك :

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق الآية : 22)

النبي عليه الصلاة والسلام خاطب كفار قريش وهم قتلى فقال :

((يا فلان ـ بأسمائهم واحداً واحداً ـ يا فلان ، يا فلان ، يا فلان ، يا فلان ، يا عتبة بن ربيعة يا صفوان بن أمية ، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً))

[أخرجه مسلم عن أنس رضي الله عنه]

لقد كذبتموني وصدقني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس .

إياك ، ثم إياك ، ثم إياك أن تكون في خندق معادٍ للدين ، لأنك إذا وقعت في هذا الخندق هل تعلم من هو الطرف الآخر ؟ الله رب العالمين ، لذلك الله عز وجل توعد إنسانين بحرب منه ، الوعيد الأول في القرآن الكريم ، والثاني في السنة ، الأول :

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة الآية : 279)

آكلوا الربا ، وبالسنة :

((من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب))

[رواه البخاري عن أبي هريرة]

إذاً :

(فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

لكن متى ؟ بعد فوات الأوان .

خيارك مع الإيمان خيارُ وقت فقط :

إخواننا الكرام ، خيارك مع مليون موضوع خيار قبول أو رفض ، مع مليون إلا أن خيارك مع الإيمان خيار وقت فقط ، إما أن تؤمن في الوقت المناسب ، وتنتفع بإيمانك أو أن تؤمن بعد فوات الأوان .
مَن هو أكفر كفار الأرض ؟ فرعون ، الذي قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات:24)

والذي قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص:38)

عندما أدركه الغرق قال :

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

لذلك البطولة أن تضحك أخيراً لا أن تضحك أولاً ، ثم تبكي كثيراً ، من ضحك أخيراً ضحك كثيراً .

(وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

(سورة الانشقاق:9)

أما الأول فـ :

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

(سورة الانشقاق:13)

كان فاسقا ، قويا ، غنيا ، يدخل إلى بيته فيضحك ضحك الحيوانات أحياناً ، لكن المؤمن يخاف في الدنيا ، فيضحكه الله في الآخرة .

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين:34)

فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا

ما هو البأسُ ؟

ما هو البأس ؟ هو قوة لا تقاوم .
مثلاً : الرشح مرض طارئ لأسبوع ، أحياناً كسر عظم فيُجبر ، هناك مئات الأمراض شفاؤها مضمون وسريع ، أما الورم الخبيث فهذا مرض قاضٍ ، فهناك أورام ، واحتشاء ، وخثرات بالدماغ ،

وفشل كلوي ، وتشمع كبد .
فلذلك هذا هو البأس ، فهو قوة مدمرة لا تقابل ، ولا تقاوم ، زلزال تسونامي خلّف خمسة ملايين متشرد، و ثلاثمئة ألف قتيل ، ولا في عشر سنوات يمكن أن تقف هذه البلاد على قدميها ، هذا بأس ، فإما كوارث طبيعية ، أو أمراض وبيلة ، أو حروب أهلية كما تسمعون كل يوم .
أقسم لي إنسان التقى بي قبل أيام ، قال لي : بيني وبين أهلي عشرة كيلو مترات ، ومن أشهر مديدة لم أرَهم ، فلو ذهبت إليهم لكنت مقتولاً حتماً ، اشكروا الله عز وجل ، واسألوا الله أن يديم نعم الأمن والسلامة ، وأن يجعل هذا الأمن والسلامة في كل بلاد المسلمين .

(فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ

1 – لا تستطيع خداع كل الناس لكل الوقت :

هذه الفطرة تستطيع أن توهم بعض الناس لأمد طويل بشيء ما ، وبإمكانك أن توهم كل الناس لأمد قصير بشيء ما ، أما أن توهمهم جميعاً لأمد طويل فهذا مستحيل ، أما أن تخدع نفسك ، أو أن تخدع ، أو أن تخدع ربك ولو لثانية واحدة فهذا من رابع المستحيلات ،

(بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

2 – الإنسان ثلاثةُ أثلاث :

إخواننا الكرام ، الإنسان فيه ثلاثة أثلاث ، فيه ثلث يعرفه جميع الناس ، مهندس طبيب ، معلم ، طويل، أبيض ، متزوج ، من سكان دمشق مثلاً ، وثلث ثانٍ لا يعرفه إلا أقرب الناس إليه ، زوجته ، وأولاده ، وجيرانه ، وشريكه في العمل ومن سافر معه ، ومن حاككه بالدرهم والدينار ، أما الثلث الثالث فلا يعله إلا الله ، والمشكلة دائماً في هذا الثلث .
قد يخطب الرجلُ بنتا فتجده ملاكًا ، سبحان الله ! تقول لك : مَلَك ! بعد حين أصبح وحشًا ، كيف انقلب من مَلَك إلى وحش ؟ هذا من الثلث الثالث .
لذلك إذا أراد الإنسان أن يمدح إنساناً فليقل : أظنه صالحاً ، ولا أزكي على الله أحداً سيدنا الصديق لمّا ولى سيدَنَا عمر ، قال : << هذا علمي به ، يا رب ، لو سألتني : لمَ وليته ؟ أقول : يا رب ، وليت عليهم أرحمهم ، هذا علمي به ، فإن بدل وغير فلا علم لي بالغيب >> .

كن متأدباً مع الله ، فإن بدل وغير فلا علم لي بالغيب .

لذلك ورد :

((أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما ، وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما))

[رواه الترمذي والبيهقي ، عن أبي هريرة الطبراني]

أيها الإخوة الكرام ،

(فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ)

(سورة الأعراف:6)

فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ

شبهة مدفوعة في نص هذه الآية :

التوفيق بين آيات إثبات السؤال وآيات عدم إثبات السؤال :

أحياناً يتوهم الإنسان أن في القرآن تناقضا ، يأتيك بقوله تعالى :

(وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً)

(سورة المعارج:10)

(وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)

(سورة القصص:78)

مرة سألني أخ عن هذه الآية ، قلت له : إنسان عليه مخالفة سير ، ثم ارتكب جريمة قتل ، حكم عليه بالإعدام ، وهو ذاهب ليعدم يقول أحدهم : عليه مخالفة سير ، لا يحاسبوه عليها ، هذه هو معفى منها ، لأنه سيعدمونه .

(وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ)

(سورة الرحمن:39)

لكن الله عز وجل يقول : أنا سوف أسأل الذين أرسلت إليهم رسلي ، هل استجابوا ؟ هل صدقوا ؟ هل آمنوا ؟ هل كذبوا ؟ وسأسأل الرسل : هل بلغتموهم ؟ هل طبقتم ما تقولون ؟ المتكلم له حساب ، تكلمت، هل أنت مطبق لما قلت ؟ ألا تستحي مني ؟ ألا تستحي أن تقول شيئاً أنت لا تفعله ؟.

(كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)

(سورة الصف:3)

فالمتكلم يُسأل له حساب ، والمستمع يُسأل ، هل طبقت الذي سمعت ، أم ماذا كنت تعمل ؟ .

أيها الإخوة الكرام ، الكفار في عهد النبي كانوا كفاراً ، وكانوا وقحين ، فلو رأوا في القرآن تناقضاً لما سكتوا ، ولكنهم كانوا عرباً ، وكانت لغتهم عربية ويعرفون آثار العربية .

بين السبب والفاعل :

حتى أوضح لكم هذا أضرب مثلاً :

أحياناً تقول : هذا الطالب رسب في صفه ، ماذا تريد أن تقول ؟ كان كسولاً فاستحق الرسوب ، والذي جعله يرسب كسله فقط ، لو قلت بعد حين : إن إدارة المدرسة رسبته في الصف ، ماذا تقصد ؟ اتخاذ القرار بترسيبه ، إعطاءه جلاء الراسب ، هذا قرار يحتاج إلى منفذ ، فإذا عزوت الرسوب إلى الطالب فهو السبب ، وإذا عزوته إلى الإدارة فهي الفاعلة ، ولا تناقض بين الأمرين ، أنت قد تقول : هناك تناقض يا أخي ، فمرة قلت : الطالب رسب ، مرة قلت : الأستاذ رسبه ، لا تناقض أبداً ، إذا عزوت الرسوب إلى الطالب ، أي بسبب كسله رسب ، وإذا عزوت الرسوب إلى المدير ، معنى ذلك أنه اتخذ قراراً بترسيبه .

أحياناً تعزى المصيبة إلى الإنسان .

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم)

(سورة الشورى الآية : 30)

أنتم السبب ، وفي آية :

(مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ)

(سورة النساء الآية : 79)

من الله فعلاً ، لكن من الإنسان سببا ، فإذا كان الرجل عربيًا يتقن هذه اللغة فما عنده مشكلة أبداً ، هناك تنوع في العبارة ، أحياناً نقصد الفاعل ، وأحياناً نقصد المتسبب ، أما كفار قريش فلو رأوا تناقضاً لأقاموا الدنيا ولم يقعدوها على النبي صلى الله عليه وسلم ، يقول لك : أخذ بنتا عمرها 13 سنة ، هذا شيء ضمن العادات والتقاليد هناك ، ليس معنى هذا أنه تزوجها في هذه السن ، كان كبراء الأمة الناس يتقربون إليهم بتزوج بناتهم ، هو لم يقاربها إلا بعد أن بلغت ، لو كان في هذا الزواج مأخذا لأقام المشركون الدنيا ولم يقعدوها عليه ، فقد تكون بعيدًا عن العادات والتقاليد .

الآن مثلاً : من يستطيع أن يخاطب إنسانا كبيرا ، ويقول عنه : إنه جرثومة ؟ لا تستطيع ، أما أن يأتي شاعر كبير كأبي تمام ليخاطب المعتصم من أكبر خلفاء بني العباس ويقول له : أنت جرثومة الدين والإسلام والحسب

***

معنى الجرثومة وقتها أصل الشيء ، ما الآن الجرثومة معناها أصل المرض ، أي أنك علة المرض ، فالكلمة لها معاني عديدة .

حينما قال عليه الصلاة والسلام :

((اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك))

[أخرجه البخاري من حديث ابن عباس]

العصابة جماعة الخير كان معناها سابقاً ، الآن المعنى : مجموعة لصوص وعصابة ، اختلف المعنى ، استعمار ، كلمة رائعة :

(وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)

(سورة هود الآية : 61)

أما الآن فهناك قوى غاشمة تنهب الثروات ، تقتل الناس ، كلمة استعمار بغيضة الآن ، أما أصلها فرائع ، فالإنسان لضعفه باللغة ، ولعدم اهتمامه بتطور الألفاظ قد لا يفهم بعض الآيات ، وقد يرى فيها بعض التناقض .

(فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ)

(سورة الأعراف:7)

فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ

أعمالهم ، الآن أحدث طريقة في التحقيق أن تريه الصورة ، فتسكته :

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى* قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

(سورة طه:46)

الله معنا .

(فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ)

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد الآية : 4)

ومع المؤمنين بالتوفيق ، والنصر ، والتأييد ، والحفظ .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(04-60): تفسير الآيتان 8-9 ، ميزان الحق العلم والعمل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-12-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الرابع من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثامنة ، وهي قوله تعالى :

(وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8))

الإيمان بالله واليوم الآخر ركنان متلازمان :

أيها الإخوة ، ما من ركنين من أركان الإيمان تلازما في القرآن كركن الإيمان بالله واليوم الآخر ، فالإيمان بالله عز وجل هو أصل كل أنواع الإيمان ، لكن ما لم تؤمن أن الله يعلم ، وسيحاسب ، وسيعاقب لن تستقيم على أمره .

وقد وردت في القرآن الكريم آية هي أصل في الاستقامة :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق الآية : 12)

اللام لام التعليل .

(أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (12))

(سورة الطلاق)

حينما تعلم أن علم الله يطولك ، وأن قدرته تطولك ، وأنه يعلم ، وسيحاسب وسيعاقب ، وأنه في اليوم الآخر تسوى فيه الحسابات ، يؤخذ للضعيف من القوي ، وللفقير من الغني ، وللمظلوم من الظالم ، هذا اليوم حينما تؤمن به تنزاح عن صدرك هموم كالجبال .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197))

(سورة آل عمران)

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46)فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (47))

(سورة إبراهيم)

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

(سورة إبراهيم)

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ

1 – الميزان الشرعي :

أيها الإخوة ، هناك موازين في الأرض ، هناك آلاف الموازين ، لكن الله عنده ميزان ، البطولة ، والذكاء ، والتوفيق ، والتألق ، والفلاح ، والنجاح أن يكون ميزانك وفق ميزان الله ، والحمق ، والغباء، وضيق الأفق ، والجهل أن تتوهم أن ميزانك الذي هو بعيد عن ميزان الله يكفي .

مثلاً : حينما تعتقد أن المال هو كل شيء ، وأنك بالمال تصل إلى كل شيء ، وأن المال قيمة ثابتة في كل العصور ، وأن الذي معه المال معه كل شيء ، ودنياه جنة ، وأن الذي فقد المال ما ذاق شيئاً من طعم الحياة ، ودنياه جهنم ، حينما تعتقد كذلك فهذا الإنسان هو أغبى الخلق ، لأنه اعتمد ميزاناً ما أقره الله عز وجل .

2 – ميزان العلم والعمل :



الله عز وجل اعتمد ميزانين ، اعتمد ميزان العلم ، وميزان العمل ، فقال :

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر الآية : 9)

وقال :

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة الآية : 11)

هذا العلم ، وميزان العمل :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام الآية : 132)

حجمك عند الله بحجم عملك الصالح ، أما موازين الأرض ، القوي معظّم ومبجّل ، والناس ينصرفون إليه ، وينصرفون عن الضعيف ، والغني مبجل ، ومعظم ، والناس ينصرفون إليه ، وينصرفون عن الفقير ، والإنسان الوسيم مبجّل ومعظّم ، وينصرف الناس إليه ، وينصرفون عن الدميم .

الأحنف بن قيس كان قصير القامة ، أسمر اللون ، أحنف الرجل ، مائل الذقن غائر العينين ، ناتئ الوجنتين ، ليس شيء من قبح المنظر إلا وهو آخذ منه بنصيب ، وكان مع ذلك سيد قومه ، كان إذا غضب غضبَ لغضبته مئة ألف سيف ، لا يسألونه فيما غضب ، وكان إذا علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه .

3 – من السعادة موافقة ميزان الشرع :

حينما تأتي موازينك مطابقة لموازين خالق السماوات والأرض فأنت أسعد الناس ، أنت الموفق ، أنت الذكي ، أنت العاقل ، أنت الفالح ، أنت الناجح ، أما إذا اعتمدت ميزاناً ساقطاً عند الله عز وجل فلا تعجبك أموالهم ، ولا أولادهم .

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (44))

(سورة الفرقان)

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)

(سورة الجمعة الآية : 5)

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

(سورة المنافقون الآية : 4)

4 – تقييم النفس والناس بميزان الشرع :

أيها الإخوة ، البطولة أن يكون ميزانك في تقييم نفسك ، وتقييم من حولك مطابقاً لميزان الله ، أما إذا كان ميزانك أرضياً ، وشركياً ، ودنيوياً فهي الطامة الكبرى .

لذلك البطولة أن تأتي يوم القيامة وفق موازين الله ناجحاً .

من هو الغني بميزان أهل الأرض ؟ من كان عنده أموال طائلة ، من هو الغني بميزان الله ؟ من كان له عمل صالح .

(رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24))

(سورة القصص)

لما سقى للفتاتين سيدنا موسى قال :

(رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

أنا مفتقر للعمل الصالح ، لذلك قال سيدنا علي : << الغنى والفقر بعد العرض على الله >> .

إذاً : الله عز وجل اعتمد ميزانين فقط ، اعتمد ميزان العلم ، واعتمد ميزان العمل العلم :

(يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

والعمل :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

وأنت في الحياة الدنيا اعتمد هذين الميزانين ، في تقييم نفسك ، إذا كنت مؤمناً يجب أن تتمتع بمعنويات عالية جداً ، والمال لا تعبأ به ، إن لم يستوِ عندك التبر والتراب فلست مؤمناً .

((والله يا عم ، لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في شمالي ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

ابحث عن ميزان الله يوم القيامة ، أنت بقدر استقامتك على أمره ، وبقدر خدمتك لخلقه ترقى عند الله ، أما عند الناس بقدر ولاءك للأقوياء ، ومدحك لهم ، وانبطاحك أمامهم ترقى عندهم ، لذلك المؤمن يعتز بإيمانه ، ولا يعبأ بأهل الدنيا :

(كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25)وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26))

(سورة الدخان)

(كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59))

(سورة الشعراء)

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (29))

(سورة الدخان)

أيها الإخوة ، هذا شيء مهم جداً ، أن تعتمد على ميزان الله في تقييم نفسك ، وفي تقييم خاطب ابنتك .

((إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه))

[رواه الترمذي وابن ماجة والحاكم ، عن أبي هريرة]

وفي تقييم شريكك عنده خبرات عالية جداً لكن دينه رقيق ، هذا يدخلك في المال الحرام ، أنت بحاجة ماسة إلى ميزان دقيق جداً تزين به كل شيء .

5 ـ ميزان الله هو عين العدل :

هذا الميزان يوم القيامة هو عين الحق ، لا بد من أن أوضح :

فرق بين أن يكون الميزان عادلاً ، وبين أن يكون عين العدل ، فرق كبير ، لا بد من مثل :

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

(سورة التوبة الآية : 28)

لم يقل : نجسون ، لأن الإناء إذا كان نجساً يُطهر ، أما النجس فهو عين النجاسة ، لا تطهر أبداً ، الفرق بين الصفة والمصدر كبير .

ولله المثل الأعلى : ميزان الله عز وجل ليس عادلاً ، إنما هو عين العدل ، هو العدل ، لذلك بعض العلماء قال : " الحسن ما حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه الشرع " ، الشرع هو الميزان على كل شيء، مهما طرح مع المعصية من فلسفات ، ومرغبات ، وزخارف لفظية ، ومنطلقات نظرية ، وتطبيقات عملية ، والاختلاط حضارة ، والاختلاط يعمل تهذيب للمشاعر ، الحسن ما حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه الشرع ، ابحث عن ميزان الله .

(وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ)

ما معنى ؟

معنى : فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ

(فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ)

الحقيقة أن العمل له وزن .

1 – مثال تقريب لمعنى الآية :

هذا مثل للتقريب : إذا أنشأت(سيركًا) نصبته في بعض المصايف ، وجاءك دخل وفير ، إذا كنت في دولة إسلامية مضطهدة ، وتمكنت أن تخترع القنبلة النووية ، فأصبحت هذه الدولة قوية ، منيعة ، مرهوبة الجانب ، هل هذا الذي أنشأ سيركاً كالذي اخترع قنبلة يرفع بها شأن المسلمين ، مثلاً ؟ أي

العملين أثقل في الوزن ؟ العمل الثاني ، في هذه الظروف الصعبة أنا أتكلم ، أنت تنشئ جامعة لتخريج قادة للأمة ، أو أن تنشئ ملهى ليليا ؟ بينهما فرق كبير جداً .

2 – كل عمل له عند الله وزن :

فكل عمل له عند الله وزن ، تطعم إنسانًا عمل صالح ، أم أن تدله على الله عمل أعظم ، فكل عمل له وزن ، بر الصديق عمل طيب ، لكن بر الوالدين عمل أطيب ، أن تعتني بأولاد أصدقائك لباقة وذوق ، لكن أن تربي أولادك الذين ليس لهم إلا أنت عمل أعظم ، كل عمل نعمله له عند الله وزن ، العمل يوزن بنيته ، قد يبتغي الإنسان من عمله أن ينتزع إعجاب الآخرين .

((من طلب العلم ليجاري به العلماء ، أو ليماري به السفهاء ، أو يصرف به وجوه الناس إليه ، أدخله الله النار))

[أخرجه الترمذي عن كعب من مالك]

كل عمل له ميزان ، أولاً بنيته ، ثانياً بحجمه ، ثالثاً بعمقه ، رابعاً بديمومته خامساً باتساع رقعته . العمل له وزن ، هناك إنسان تطعمه وجبة واحدة ، وهناك إنسان تهيئ له عملا يعيش منه طوال حياته ، هناك إنسان يغض بصره عن الحرام ، لكن هناك إنسان يأخذ بيد زوجته إلى الله فيجعلها مؤمنة كبيرة .

3 – النية والعقبات والصوارف تحدّد وزن العمل :

الملخص كل عمل يعمله له وزن ، فتحت حانوتك ، نويت أن تربح من أجل أن تقتني سيارة ، وأن تذهب إلى المصيف يوم الجمعة ، وأن يرتدي أولادك ثياباً جديدة تتباهى بهم ، أو من أجل أن تسكن بيتا له إطلالة جميلة ، ومساحته واسعة ، فيه تزينات رائعة ، وقد تفتح حانوتك من أجل أن تخدم المسلمين ، وأن تعطيهم بضاعة جيدةً بسعر معتدل ، الفرق كبير ، كل عمل له وزن ، وزن بنيته ، وزن بقدر العقبات الموضوعة أمامه ، وزن بقدر الصوارف التي تصرف عنه ، وزن بقدر التضحية من أجله ، وزن بقدر المتاعب التي حصلها الإنسان من هذا العمل ، وزن بقدر المعارضين له ، كل عمل له وزن .

إذاً أيها الإخوة :

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة الأنبياء الآية : 47)

الميزان بكِفّتيه لا بكفة واحدة :

هنا تعليق لطيف : كل إنسان له ميزان ، وكل عمل له ميزان ، معالجة المرضى هذا عمل طبي ، له ميزان ، بين أن تعالجه ، وتعتني به عناية فائقة ، وأن تسأله كل ساعتين عن صحته إذا كان من الأغنياء الميسورين ، وتنتظر أن تأتيك منه مكافئة مجزية ، أن يضع لك في الصحيفة ثناء على علمك ، وعلى عمليتك الجراحية ، وبين أن تعتني بإنسان فقير جداً في مستشفى عام ، لا أحد ينتبه إليه فتعتني به وكأنه في أرقى مستشفى ، هذا وزن ، وهذا وزن ، كل عمل له وزن ، وكل إنسان له وزن .

مثلٌ إلهي لوزن الناس :

الذي تجاوز الخمسين لما يراهق كالمراهقين الصغار :

((أبغض العصاة وبغضي للشيخ العاصي أشد))

[ورد في الأثر]

الشاب إذا أخطأ فهو خطأ ، لكن الشاب غير محصن ، حوله نساء كاسيات عاريات ، زلّت عينه ، أخذته عينه إلى منظر لا يليق به ، فتاب واسترجع ، هذا شيء ، والذي عمره خمسون سنة ، وعنده زوجة وأولاد ، عنده خمس بنات ، وزوجهم كلهم ، وهو مراهق ؟! يتحرش بالسكرتيرة ، هذه مشكلة كبيرة جداً ، هذا له وزن ، وهذا له وزن ، كل عمل له وزن وكل إنسان له وزن .

ورد في بعض الآثار :

((أحب الطائعين وحبي للشاب الطائع أشد))

[ورد في الأثر]



أول حياته ، كتلة حماس ، شهوات مستعرة ، آمال ، طموحات ، وهو يغض بصره عن محارم الله ، إن الله يباهي به الملائكة ، يقول : انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي. أيها الإخوة ،

((وأحب المتواضعين ، وحبي للغني المتواضع أشد))

[ورد في الأثر]

غني جلس مع عماله ، أكل معهم ، سألهم عن صحتهم ، عن أولادهم ، عن مشكلاتهم ، آنسهم ، طيب قلبهم ، جبر خاطرهم ، هذا غني بإمكانه

يتقوقع ببرجه العاجي عنده سكرتير ، وسكرتار ، وسكرتور ، ممكن ، ولا أحد بإمكانه أن يصل إليه ، لا اتصال هاتفي التلفون مغلق لأنه ، أو رقم خاص ، لا تعرف رقمه ، بين مدير معمل غني قاعد مع عماله يؤنسهم ، يتلطف معهم ، يحل مشكلاتهم .

((وأحب المتواضعين ، وحبي للغني المتواضع أشد ، وأحب الكرماء ، وحبي للفقير الكريم أشد))

عنده برتقال قدمه لك .

((أحب الكرماء ، وحبي للفقير الكريم أشد))

الآن :

((وأبغض ثلاثاً وبغضي لثلاث أشد ، أبغض العصاة وبغضي للشيخ العاصي أشد))

والله أنا لا أتكلم من فراغ ، والله تأتيني شكاوى من نساء مؤمنات طاهرات ، يشتكين على أزواجهن 60 ، 65 ، 70 ، 58 ، مراهق ، هذه نكسة كبيرة جداً .

((أبغض العصاة ، وبغضي للشيخ العاصي أشد ، أبغض المتكبرين وبغضي للفقير المتكبر أشد))

على ماذا ؟

((وأبغض البخلاء ، وبغضي للغني البخيل أشد))

كل إنسان له ميزان ، وكل عمل له ميزان .

صدقوا أيها الإخوة ، موازين الدولة عندها عشر مراتب ، وكل مرتبة ثلاث درجات ، مليونَا موظف في ثلاثين درجة ، والله عز وجل يقول :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

إذا كان لله ستة آلاف مليون إنسان فعنده ستة آلاف مليون ملف ، كل واحد له درجة ، بحسب وضعه ، بحسب شبابه ، بحسب سنه ، بحسب حجمه المالي .

دعا الخطيب إلى التبرع لصندوق العافية ، دفع أحدُهم ألف ، ومعه مئة مليون وآخر دفع خمسين ليرة ومعه مئة ليرة ، شاب صغير ، رُبّ درهم سبق ألف درهم ، درهم تنفقه في إخلاص خير من مئة ألف درهم ينفق في رياء ، درهم تنفقه في حياتك خير من مئة درهم ينفق بعد مماتك .

مرة ثانية : كل عمل له وزن ، له ميزان ، وكل إنسان له ميزان ، والموازين عند الله هي الحق المطلق:

(وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ)

لا نقول : الوزن عادل ، الوزن يومئذٍ عين العدل ، لا نقول : الوزن محق ، الوزن يومئذٍ عين الحق ، هو الأصل .

أحياناً يكون مثلاً صنجات في البلدية ، هذه مدروسة على الميلي غرام ، فأي صنجة عند بائع مزورة تُفحص على الأولى ، أو أمتار ، هناك متر بالبلدية على معشار الميلي هذا المتر ، فإذا شككنا بمتر ناقص سنتيمترين نأخذه إلى المتر الأصلي ، والأصلي هو الميزان ، هو المقياس ، بكل المقاييس الدولة عندها موازين ، ومقاييس ، وأطوال ، وعبواة ، ومكاييل نظامية ، هذه المكاييل والعبواة والأوزان والأطوال هي الأصل في تقييم كل ميزان آخر .

(وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

إذا زيّن أحدُهم بيته ، هذا ليس حراماً ، لكن وزن العمل يوم القيامة ضعيف جداً ، إنسان ضحى بحياته من أجل الحق ، هذا شهيد ، هذا له بهذا العمل وزن كبير جداً .

العبرة أن كل عمل له وزن .

(فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ)

لكن إنسانا وضعنا في ميزانه بيته ، وبيته جيد جداً ، ومركبته ، ورحلاته ، وسفرياته ، ونزهاته ، ما له وزن يوم الآخرة ، الآخرة ما لها وزن ، أما الوزن بالآخرة : يا رب أنا خدمت عبادك ، أخلصت لهم ما غششتهم ، ما ابتززت أموالهم ، ما ألقيت في قلبهم الرعب ، أنا كنت محسناً لهم ، عرفتهم عليك ، دعوتهم إليك ، مسكتهم بكتابك ، حببتهم بسنة نبيك ، أطعمت الفقراء ، كسوة العراة ، دللت عليك ، خدمت عبادك ، في الليل ناجيتك يا رب ، صليت الصلوات بأوقاتها ، أقبلت عليك ، تواضعت للخلق ، كنت في خدمة خلقك ، هذه أعمال لها وزن كبير .

لعلي استطعت أن أوصل لكم الفكرة ، الأعمال لها وزن ، هذه الأعمال توضع في ميزان الإنسان يوم القيامة ، فإن كانت أعمال جليلة :

(فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ)

طبعاً هناك وزن ثقيل ، وفي دم ثقيل طبعاً ، الفرق بينهما كبير جداً .

إنسان يحمل ثلاث دكتورات ، يعد مرجع أول في بلاده في الذرة مثلاً ، إنسان يحمل أربع شهادات في الطب مثلاً ، إنسان أسس جامعة كبيرة ، إنسان له مئة مؤلف له وزن .

مرة كنت في مسجد ، وهناك رجلان يصليان ، فلما انتهيا من صلاتهما أنا هرعت إلى أحدهما ، وسلمت عليه سلاماً في أعلى درجة من الأدب والود ، صديقي الذي معي ما فهم ماذا فعلت ، إنسانان يرتديان ثوبا أبيض في الصيف ، ومتقدمان في السن ، فلما هرعت إلى أحدهما ، وسلمت عليه بأدب جم

ما فهم صديقي من هما ، هذا الأول كان عميد كليتنا في الأدب العربي ، كان أعلم علماء المنطقة بالنحو، أنا درست على يديه أربع سنوات ، أنا أعرف حجمه العلمي ، ومؤلفاته ، ومكانته العلمية ، أما هو فيبدو إنسانا عاديا ، بخريف العمر لبس ثوبا أبيض ، ويصلي المغرب في الجامع .

فكل إنسان له وزن ، لأن عمله كبير ، إنجازه كبير ، فلذلك :

(وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

اسأل نفسك كل يوم : ماذا فعلتُ ؟

كل يوم اسأل نفسك : ماذا فعلت ؟ ماذا قدمت لآخرتك ؟ لون أن الله سألك يوم القيامة عبدي ماذا فعلت من أجلي ؟ ماذا فعلت ؟

بلا تحفظ معظم أعمال الناس من أجل دنياهم ، من أجل دخل يتمتع بالحياة ، يعيش مع الناس كواحد منهم ، لا يعنيه لا هداية أمة ، ولا حل مشكلة ، ولا معرفة بالله عز وجل ، فهذا الذي :

(ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

أي أنه ناجح ، والنجاح ممتع جداً ، ولا شيء يسعد كالنجاح ،

(فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

يجب أن تحاسب نفسك كل يوم ، أو يجب أن نحاسب أنفسنا كل يوم ، اليوم ماذا فعلت ؟ هل تصدقت ؟ هل دعوت إلى الله ؟ هل أمرت بالمعروف ؟ هل نهيت عن منكر ؟ هل أطعمت حيواناً جائعاً ، هل رعيت أولادك ؟ هل كنت باراً بوالديك ؟ هل زرت فقيراً ؟ هل عدت مريضاً ؟ هل تصدقت على مسكين ؟ هل نشرت حقاً ؟ هل رددت باطلاً ؟ ماذا فعلت ؟ .

مستويات الموازين :

أيها الإخوة ، الموازين لها مستويات هناك ميزان يستعمل لوزن السيارات يمكن لو وضعت عليه مئة كيلو ذهب لا يتحرك إطلاقاً ، صمِّم لأربعين طنًّا ، ثلاثون طنًّا ومئة كيلو لا تفعل فيه شيئًا ، ولا

يحركونه أبداً ، لكن هناك ميزان لو وزنت به ورقة ، وكتبت عليها كلمة محمد ترجح الكفة لوزن الحبر فقط ، وهناك ميزان لو وضعت يديك فوقه ، وحركتها عشرة ميلي تتغير الكفة ، لأن الهواء ضغط على الكفة ، هذه موازين حساسة جداً ، وكلما ارتقى الإنسان تكون موازينه حساسة .

النبي رأى تمرة على السرير فقال :

((والله يا عائشة ، لولا أني أخاف أنها من تمر الصدقة لأكلتها))

[مسند أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده]



اشتهى تمرة موجودة على السرير ، يبدو أنه طبق صدقة ، لعلها وقعت من هذا الطبق ، قال :

((والله يا عائشة ، لولا أني أخاف أنها من تمر الصدقة لأكلتها))

هناك إنسان عنده ميزان حساس ، لدرجة أنه لو لم يرحب بفلان ترحيباً كافياً لألقى اللوم على نفسِه ، الذي عنده ميزان حساس ذنبه كأنه جبل جاثم على صدره ، والذي ما عنده ميزان حساس جريمته كالذبابة .

صدقوا أيها الإخوة ، والله بميزان دقيق لم أرَ أشد غباء من الطغاة ، يقتلون آلاف ملايين ، كيف ينامون؟! كيف سيواجهون الله عز وجل ؟! شعوب تموت من الجوع ، وهم يستغلون ثرواتهم ، ينهبون أموالهم ، ينهبون بترولهم ، يقهرونهم ، يميتون ، ساعة سلاح فسفوري ، ومرة قنبلة ذكية ، ومرة عنقودية ، ومرة خارقة وحارقة ، ومرة قنبلة توجه بالليزر ، ومرة قنبلة نابالم حارقة ، ومرة طائرة ، ومرة قنبلة تلغي الاتصالات ، مرة قنبلة تبيد البشر وتبقي الحجر ، في موازين دقيقة :

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

والله لا تغرق قطرة دم من آدم إلى يوم القيامة إلا وسيتحملها إنسان يوم القيامة ، لا قتل شعوب بأكملها.

قتل امرئ في بلدة جريمة لا تغتفر وقتل شعب مسلم مسألة في نظر

***

شعب بأكمله يباد إبادة ، ويقال : نتابع بقلق ما يجري هناك ، يتابعون بقلق هذا العمل ، ويقولون : هذا العمل غير مقبول ، غير مقبول فقط ، أو يستنكرون ، هذا كلام مضحك :

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

يأتي على القاضي العدل يوم القيامة ، أي قاضٍ ؟ العدل ، ساعة يتمنى فيها أن لو لم يقض بين اثنين في تمرة :

((يأتي على القاضي العدل يوم القيامة ساعة يتمنى فيها أن لو لم يقض بين اثنين في تمرة))

[أحد عن عائشة]

حقوق العباد ، قاضي يحكم بحسب المبلغ الذي قبضه ؟ أخذه من أحد الخصمين ؟ .

زيادة حساسية الميزان بزيادة الإيمان :

هناك موازين حساسة ، وموازين غير حساسة ، وكلما ازداد إيمانك يدق ميزانك ، تحاسب على النظرة، تحاسب على الهمسة ، على تألق الوجه مع إنسان عاصٍ له مكانة ، سلمت عليه باهتمام ، واحترام ، وتعظيم ، وتبجيل ، والذين حولك رأوك مهتماً به أشد الاهتمام ، وهو غارق في المعاصي والآثام ، وقد تسلم على مؤمن طيب ، ورع ، مستقيم ، لكنه فقير ، بسلام متعجل ، ما سحب النبي يده من صحابي سلم عليه إلا كان النبي آخر من يسحب يده من يد الصحابي ، والله أعطاك ميزان هو العقل ، عامل الناس كما تحب أن يعاملوك ، وأعطاك ميزان الفطرة ، إذا أخطأت تشعر بانقباض ، أعطاك ميزان العقل وأعطاك ميزان الفطرة ، ما في إنسان يرتكب خطأ كبير إلا يشعر بألم .

كتب على سرير بألمانيا بفندق : إن تقلبت طوال الليل ولم تنم فالعلة ليست في فرشنا ، إنها وثيرة ، ومريحة ، ولكن العلة في ذنوبك .

الصلاة ميزان :

الإنسان أحياناً لا ينام الليل ، يرتكب خطأ ، وليس مداناً في الأرض إطلاقاً ، لكنه لا ينام الليل ، والصلاة ميزان ، العمل الطيب تستطيع بعده أن تتصل بالله عز وجل ، لكن العمل السيئ قد لا تستطيع بعده أن تقبل على الله ، المؤمن عنده حساسية فائقة جداً ، تكون صلاته ميزانًا ، هذا لمَ سخرت منه ؟ لمَ دخلت هذه المرأة إلى المحل التجاري ، وأدرت معها حديثاً لطيفاً ؟ وملأت عينيك من محاسنها ، والظهر أذن تفضل صلِ ، إذا ملأت عينيك من محاسنها ، وأدرت معها حديثاً عاطفياً ، وأذن الظهر تشعر حالك في حجاب صار بينك وبين الله ، لأنك ما كنت مع الموقف الكامل .

(قَالَ مَا خَطْبُكُمَا)

(سورة القصص الآية : 23)

كلمة واحدة ، الآنسات ماذا يفعلن هنا ؟ خير إن شاء الله ، لا ،

(مَا خَطْبُكُمَا)

هي ماذا قالت له ؟

(لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ)

(سورة القصص الآية : 23)

لو وقفت هنا ، طيب لمَ ؟ قال :

(وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23))

(سورة القصص)

مباشرة ، أعطته الجواب بأقلّ كلام .

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (32))

(سورة الأحزاب)

فلذلك الصلاة ميزان ، وأقول لك هي من أدق الموازين ، وحينما تعمل عملاً طيباً تقف بين يدي الله مقبلاً ، إذا لم تستح بعملك أمام الله فافعل ما تشاء ، الصلاة ميزان .

والعقل ميزان .

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7)أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8))

(سورة الرحمن)

احذروا ازدواجية الموازين والمعايير !!!

لماذا لما تشتري القماش تكليه بخط منحنٍ مع المتر ؟ أما إذا بعته تشده حتى يتمزق ، لماذا ؟ عندك ميزان مزدوج ، لماذا تعامل زوجة ابنك بميزان وابنتك بميزان ، البنت ذنبها مغفور ، أما زوجة الابن ذنبها غير مغفور أبداً ، لماذا تعامل هذا الموظف الذي في سن ابنك تماماً ، لماذا تعامل هذا الموظف بميزان وابنك بميزان ؟ تحمله أول ثوب ، والثاني ، والخامس ، لم يعد يستطيع أن يحمل ، فتقول له : أنت شاب ، ثم يحمل ابنك أول ثوب والثاني فتقول له : بابا ظهرك ، وأمام الصانع ، عندك ميزانان .

أمثلة واقعية من ازدواجية المكاييل :

الحقيقة ليست فقط الدول القوية المتغطرسة عندها مكيالان ، بل ثلاثة أرباعنا معنا مكيالان ، تكيل لكل إنسان بمكيال ، فإذا كان عندك بضاعة فهي أفضل بضاعة في الأرض ، إذا قال لك زبون : عندك بضاعة ، وهي ليست عندك ، تقول له : ماذا تريد من هذه ؟ قد تكون أحسن من بضاعتك ، لكن أنت عندك ميزانان ، البضاعة ما عندك ، إذاً تبخس فيها ، لو أردت أن أضرب أمثلة لا تنتهي الدروس

بأمثلة من يكيل بمكيالين .

قصة طريفة ، أن امرأة زوج ابنتها أتى بغسالة من أرقى مستوى ، فدعت له ، وأثنت عليه بشكل غير طبيعي ، من غرائب الصدف في اليوم نفسه ابنها أتى لزوجته بغسالة أيضاً من نفس المستوى فغضبت عليه ، هذه مثل القردة قاعدة في البيت ، بنفس اليوم مكيالان .

حينما تكيل بمكيالين تسقط من عين الله ، ولأن تسقط من السماء إلى الأرض أهون من أن تسقط من عين الله ، لا تكل بمكيالين ، عامل الناس كما تحب أن يعاملوك .

الخطأ في الوزن لا يتكرر ، أما الخطأ في الميزان فلا يصحح :

إخوانا الكرام ، مرة ثانية الخطأ في الوزن لا يتكرر ، أما الخطأ في الميزان فلا يصحح ، اجتهد ألا تخطئ في الميزان ، الميزان غير صحيح لو استخدمته مليون مرة كل هذه الأوزان غير صحيحة ، أما حينما تتوهم أن الكيلو كيلوين فهذا خطأ في الوزن لا يتكرر ، فالخطأ في الميزان لا يصحح ، والخطأ في الوزن لا يتكرر .

الآن :

(وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (9))

(سورة الأعراف)

وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ

أعماله كلها دنيوية ، أعماله كلها لصالحه ، لرفاهه ، لزيادة ثروته ، لاستعلائه على الناس :

(وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ)

الخسارة يوم القيامة أكبر خسارة على الإطلاق :



أكبر خسارة لا أن تخسر مالك كله ، ولا أن تخسر بيتك ، ولا تجارتك ، ولا وكالة سحبت من يدك ، ولا منصب عُزلت منه ، أكبر خسارة أن تخسر نفسك يوم القيامة .

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

تفسير سورة الأعراف لفضيلة الدكتور محمد راتب النا

(سورة الزمر الآية : 15)

هذه أكبر خسارة :

(وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ)

لذلك بالقارعة :

(َأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (7)وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8)فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ(9))

(سورة القارعة)

يتجه إلى الهاوية إلى النار .

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (10)نَارٌ حَامِيَةٌ (11))

(سورة القارعة)

كل عمل له وزن ، يوزن بنيته ، بحجمه ، بعمق تأثيره ، بامتداد أمده ، باتساع رقعته ، بالعقبات التي أمامه ، بالصوارف التي تصرف عنه ، وهناك آلاف الموازين للعمل الواحد ، وكل عمل له وزن ، وكل إنسان له وزن :

(وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ)

الله هو الحق .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(05-60): تفسير الآية 10، تمكين الإنسان في الأرض

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-12-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الخامس من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية العاشرة ، وهي قوله تعالى :

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ(10))

معنى التمكين في جسم الإنسان : وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ

التمكين أيها الإخوة ، أن تكون في مكان مكين ، وأن لا يستطيع أحد أن ينال منك ، التمكين له معنى ضيق ، وله معنى واسع .

مِن مظاهر التمكين في جسم الإنسان

1 – الوقوف والمشي على القدمين :

كيف تمشي على قدمين ؟ من جعل لك هيكلاً عظمياً ، هذا الهيكل كيف أصبح متيناً ؟ هو مِن الكلس ، من جعل هذا المعدن له أملاح مذابة في بعض الأطعمة ؟ ثم ترسب في العظام ، فجعل لك هيكلاً عظمياً متيناً قد يحمل 500 كيلو ، عظم عنق الفخذ يتحمل 250 كيلو ، فالعظمان نصف طن ، كيف مكنك بهذا الهيكل العظمي ؟ لولا هذا الهيكل العظمي لكان الإنسان أشياء مرنة ملقاة في الأرض ، يقف على قدمين ؟ من ربط العظام بالعضلات ؟ العضلات المحركة ، من جعلك إنساناً كاملاً ؟

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4))

(سورة التين)

من جعلك تمشي على قدمين ؟ لولا جهاز بالغ الدقة في الأذن ، جهاز التوازن لما أمكنك أن تمشي على قدمين ، لاحتجت إلى مساحة واسعة جداً ، لكانت القدمان كبيرتين ، ويصبح المشي أشغالاً شاقة ، كيف مكنك الله في الأرض ؟ كيف جعلك قائماً ، متحركاً ، مدركاً سميعاً ، بصيراً ، ناطقاً .

2 – العمل غير الإرادي للعضلات :

أيها الإخوة ، من أراحك من عضلات كثيرة تعمل عملاً لا إرادي ؟ القلب يعمل بشكل لا إرادي ، لو أن القلب نبضه بإرادتك لكنت بين خيارين ، الموت أو إلغاء النوم ، مَن جعل التنفس لا إرادي ؟ هل تصدق أنه من الأمراض النادرة أن يتعطل مركز التنبيه النوبي للرئتين عندئذٍ بعد تطور شديد جداً اكتشف دواء ، أنت محتاج إليه في كل ساعة في الليل ، تنام الساعة الحادية عشرة تستيقظ الساعة الثانية عشرة لأخذ حبة ، وإلا يموت الإنسان .

3 – النوم براحة مع عمل الأجهزة بانتظام :

من جعلك تنام ملء عينيك ؟ والرئتان تعملان ، من جعلك تنام ملء عينيك والقلب ينبض ؟ من جعلك تنام ملء عينيك ومجموعة أجهزة تعمل بنظام ليلي ، وبنظام نهاري ، في النهار يرتفع الضغط ويزداد النبض ، وتنشط الكليتان ، وتنشط أجهزة الإفراز ، في الليل من أجل أن تبقى مستريحاً بعض الأجهزة التي مهمتها إفراز الفضلات والسوائل الضارة كالكليتين تهجع وتنام معك ، من مكنك أن تنام ؟ الله جل جلاله .

4 – عدم وجود الأعصاب في شعر الرأس :

من جعل هذا الشعر تاجا للإنسان ، لكن بلا أعصاب حس ، لو جعل فيه أعصاب الحس لكانت الحلاقة عملية جراحية ، تحتاج إلى تخدير تام .

5 – الساعة البيولوجية في الجسم :

أيها الإخوة ، الساعة البيولوجية ساعة مرتبطة بقعر العين ، فإذا كان في قعر العين ضياء تأمر عشرات الأجهزة ببرامج خاصة في النهار ، فإذا اختفى الضوء من قعر العين الساعة البيولوجية تأمر أجهزة عديدة أن تعمل بنظام ليلي ، هذه يد مَن ؟

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

التمكين بالخلق ، مَن الذي هيأ جيشاً بكل هذه الكلمة من معنى في جسمك ؟

6 – جهاز المناعة :

فرقة استطلاع لو دخل جرثوم إلى الجسم ، فرقة استطلاع تذهب إليه ، وتأخذ تركيبه الكيماوي وشفرته ، وفرقة تصنيع سلاح ، هذه الفرقة حينما تتسلم تركيب هذا الجرثوم تصنع له سلاحاً مضاداً قاتلاً ، من هيأ فرقة ثالثة للقتال ؟ عناصر قتال ، كريات بيضاء ، من هيأ فرقة خدمات ؟ من هيأ فرقة مغامرين ؟ هؤلاء متميزون يلتهمون الخلية السرطانية في وقت مبكر .

جهاز المناعة المكتسب جيش بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، من هيأ العناصر المقاتلة هذه جهالة ، ومعها سلاح فتاك ، من علماها العناصر الصديقة والعدوة ؟ غدة صغير توهمها الأطباء أنه لا فائدة لها، هي التيموس ، هي مدرسة حربية تدخل إليها الكريات البيضاء ، وتبقى سنتين على مقاعد كالمدرجات في الجامعة ، هذه الكرية البيضاء سماها العلماء الخلية التائية الهمجية ، فإذا تخرجت أصبح اسمها الخلية التائية المثقفة ، تعرف من هو الصديق ، ومن هو العدو .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

7 – الحواس :

أنت عندك حواس تطلعك على العالم الخارجي ، فالعين تغطي مساحة كبيرة ، لكنك إذا خلدت إلى النوم العين تقف عند الجدران ، لو سمعت حركة في الليل مَن الذي يسيطر على كل البيت ؟ الأذن ، ولو دخلت فأرة تحت السرير ، وماتت لا تراها ، ولا تسمعها ما الذي يكشفها لك ؟ حاسة ثالثة الشم .

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ *وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

(سورة البلد)

لو أن العين وفيها ماء يتجمد في الدرجة صفر كل مَن سكن في القطب يفقد بصره ، فمَن أودع في ماء العين مادة مضادة للتجمد ؟ إنه الله جل جلاله ، مَن جعل في شبكية العين 130 مليون عصية ومخروط، من أجل أن ترى الأشياء بدقة بالغة ، فالعين البشرية تفرق بين 8 ملايين لون ، من جعل القرنية شفافة شفافية تامة ؟ من أجل أن تكون الرؤية صافية ، فكيف تتغذى القرنية ؟ عن طريق الحلول والتسرب ، الخلية الأولى تأخذ غذائها وغذاء دارتها .

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

مَن جعل لك هذا اللسان ؟ تنطق ، من علمك اللغة ؟

(الرَّحْمَنُ (1)عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2)خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

تستمع فتفهم ، تتكلم فتعبر ، لكن كيف تنتقل المعرفة من إنسان إلى آخر ؟ من عالم إلى متعلم ؟ من جيل إلى جيل ؟ عن طريق اللغة المكتوبة .

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1)خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2)اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3)الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4))

(سورة العلق)

هناك نص أمامك ، الإمام القرطبي ألف التفسير وانتقل إلى رحمة الله ، مضى على موته ألف عام ، والناس ينتفعون من تفسيره ، كيف يمكن للغة أن تكون مكتوبة ، وأن تقرأ ؟ مَن نقل الثقافات من أمة إلى أمة ؟ عن طريق الترجمة .

((12)يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات الآية : 13)

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

8 – لو تعلم كيف مكّن لعملِ القلب !!!

هذا القلب بعد أسابيع عدة جزء من العلقة ينبض ، ثم يكون القلب ، ويبقى ينبض وينبض حتى الموت ، عضلة القلب أحد أكبر الآيات الدالة على عظمة الله ، تنقبض وتتمدد ، وبين الانقباض والتمدد تستريح ، وهذه الراحة تجعلها مؤهلة كي تتابع الانقباض والانبساط .

من جعل هذه الشرايين مرنة ؟ وكأنها قلوب ، فإذا نبض القلب توسعت الشرايين ، فإذا عادت إلى حجمها الطبيعي بفعل مرونتها كانت قلباً آخر ، من جعل أنبوب الأوعية أنبوباً مغلقاً ؟ طوله أربعون ألف كيلومتر ، كل واحد عنده أوعية دموية لو وصلت مع بعضها بعضاً لدارت حول الأرض أربعين ألف كم .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ)

9 – إنك تأكل ما تشتهي ! ولكن غاب عنك كيف تهضم ذلك :

الهضم عملية معقدة جداً ، أسنان ، ولعاب ، ومريء ، المريء عبارة عن عضلات حلقية ، لو أمسكنا بإنسان ، وعلقناه من رجليه ، وأطعمناه لقمة تمشي عكس الجاذبية ، لو سقينا إنسانا معلقا من رجليه ماء لصعد الماء نحو الأعلى حتى المعدة ، مَن صمم المريء ؟

10 – وأنت نائم سيجتمع اللعابُ في فمك ، فهل فكّرت في ذلك ؟

وأنت نائم يتجمع اللعاب في فمك ، فتنطلق إشارة إلى الدماغ ، لقد كثر اللعاب وأنت نائم وغارق بالنوم، الدماغ يقظ ، يعطي أمر للبلعوم ، لسان المزمار ، فيفتح طريق المريء ويغلق طريق الرئتين ، من ؟ فعل من ؟ .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

جهاز المناعة المكتسب آية ، القلب والأوعية آية جهاز الهضم آية .

11 – كيف مُكِّن للحرارة أن تتولّد في الجسم ؟

كيف تتولد الحرارة في جسمك ؟ من احتراق ، كيف يحترق السكر بدرجة 37 ، مستحيل ، ضع ملعقة سكر في كفك لا تحترق ، عن مادة بسيطة الأنسولين يحترق السكر ، يولد الطاقة ، من فضلات السكر المحترق ثاني أوكسيد الكربون ، الإنسان في زفيره يصدر ثاني أوكسيد الكربون ، ثاني أوكسيد الكربون الغاز الأول للنباتات ، النبات يأخذ منك ثاني أوكسيد الكربون ويعطيك الأوكسجين ، من جعل هذا التوازن في الأرض ؟ من ؟ .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

12 – وماذا عن المشيمة ؟

ما هي المشيمة ؟ قرص لحم ، يقوم بأعمال يعجز عنها الأطباء ، تجتمع في المشيمة دورة دم الأم ، ودورة دم الجنين ، وكل دم له زمرة وأنت لو أعطيت إنساناً دماً من غير زمرته لمات فوراً بما يسمى انحلال الدم ، فكيف يجتمع دم الأم وله زمرة مع دم الجنين وله زمرة في قرص لحمي هو المشيمة ؟ لأن بينهما غشاء ، هذا الغشاء سماه الأطباء الغشاء العاقل ، يقوم بأعمال العقل لا يصدقها ، الغشاء العاقل يأخذ الأوكسجين من دم الأم يطرحه في دم الجنين ، قام مقام جهاز التنفس ، وليس في الرحم تنفس ، يأخذ السكر من دم الأم ، ويطرحه في دم الجنين ، صار بحاجة إلى أنسولين ، صار للغشاء العاقل جهاز هضم وجهاز تنفس ، الآن يأخذ الأنسولين من البنكرياس فيطرحه في دم الجنين ، بنكرياس في الغشاء العاقل ، الآن صار هناك أوكسجين وسكر وأنسولين تحترق ، فتتولد طاقة عند الجنين فيأخذ الحرارة ، الآن الغشاء العاقل يمنع ـ هو حارس مرور ـ أيّ مواد سامة من دم الأم إلى دم الجنين ، حجر صحي ، الآن ينقل الجهاز العاقل كل عوامل مناعة الأم إلى دم جنينها ، فكل التحصينات

التي تتمتع بها الأم تنتقل إلى الجنين ، المناعة التي تكتسبها الأم من أمراض أصيبت بها أو من لقاحات تلقتها المحصلة من في مناعة ضد مئات الأمراض ، عوامل المناعة ينقلها الغشاء العاقل إلى الجنين ، يد من ؟ فعل مَن ؟ علم مَن ؟ حكمة مَن ؟

الآن الغشاء العاقل يعلم ، وليس على وجه الأرض إنسان يمكن أن يعلم كم يحتاج هذا الجنين من السكر ، والأوكسجين ، والمواد البروتينية ، والمواد الشحمية ، والدسمة والمواد المعدنية ، وأشباه المعادن ، والفيتامينات ، يعلم هذا الغشاء العاقل ما يحتاجه الجنين .

الآن ينفذ هذه الحاجة ، يأخذ هذه المواد من دم الأم يطرحها في دم الجنين ، فصار الغشاء العاقل جهاز هضم بأكمله ، قدرة من ؟

الآن الجنين قد يحتاج إلى مادة لا تأكلها أمه ، من الذي أوحى إلى الأم أن تشتهي طعاماً معيناً ؟ شهوة الأم لطعام في أثناء الحمل هي تعبير عن حاجة جنينها إلى مواد هذا الطعام ، قدرة من ؟ .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

13 – ماذا تعلم عن الولادة ؟

والولادة شيء بالغ التعقيد ، الولادة أوامر هرمونية تجعل عظم الحوض في المرأة يتباعد ، من أمر الرحم أن تكون تقلصاته لطيفة متنامية حتى لا يموت الجنين .

ومن أمر الرحم بعد الولادة أن ينقبض انقباضاً شديداً حتى وكأنه صخرة لإغلاق عشرات ألوف الأوعية المقطوعة .

من جعل الأم الحامل تختزن كمية دم استثنائية تكافئ الدم الذي تخسره في الولادة تقدير من ؟ .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

إخواننا الكرام ، والله لو أمضينا أعمارنا كلها معرفة خصائص خلق الإنسان لما كفت والله .

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

***

14 – هل تعلم شيئًا عن السائل الأمينوسي ؟!!

هذه الجمجمة من صممها فيها مفاصل ثابتة ؟ أي ضربة يتلقاها الطفل أو وقع على الأرض ، هذه المفاصل الثابتة على شكل خطوط منكسرة متداخلة هذه تمتص الصدمة فتبقى الجمجمة سليمة ، قدرة من ؟

من جعل سائلاً بين الجمجمة وبين الدماغ ؟ هذا السائل يوزع الصدمة على كامل مساحة الدماغ ، والمركبات الفضائية قلدت هذا النظام ، الدماغ ضمن سائل .

من جعل في الرحم سائل الأمينوسي في غشاء يغشى الطفل ، وغشاء ثان وغشاء ثالث ، قال الله عز وجل :

(فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ)

(سورة الزمر الآية : 6)

بين الذي يلي الطفل هذا الغشاء ممتلئ بسائل اسمه السائل الأمينوسي ، هذا السائل يغذي الجنين ، ويسهل حركته ، وهو دافئ في الشتاء ، تدفئة مركزية ، هذا السائل يسهل الحركة ، ويغذي الجنين ، ثم يعقم الجنين ، مادة معقمة ، ومادة مسهلة ، مثل الزيت تماماً ومادة مغذية ، ثم هي تعقم المجرى عند الولادة ، تصميم من ؟

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

15 – قد جاءك عنصر الحياة ، إنه الماء ، فما علمُك به ؟

أيها الإخوة ، الماء ، في هذا الماء خاصة ، لولا هذه الخاصة لما كان هذا الدرس ، ولما كانت آسيا ، ولما كان على وجه الأرض كائن حي هي الخاصة ، هذا الماء بدرجة زائد أربع تنعكس آليته من الانكماش إلى التمدد ، لذلك تتجمد البحار فتنكمش فتزداد كثافتها ، فتغوص في أعماق البحار ، بعد حين تتجمد البحار كلها ينعدم التبخر ، تنعدم المطر ، يموت النبات ، يموت الحيوان ، يموت الإنسان ، لولا أن الماء في الدرجة زائد أربع تنعكس آليته من الانكماش إلى التمدد لما كانت حياة على وجه الأرض قدرة من ؟ علم من ؟ حكمة من ؟

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

16 – ما علاقتك بالشمس ؟

أيها الإخوة ، هذه الشمس مصدر حرارة ، مصدر تعقيم ، هذه الشمس مصدر أساسي في حياة الإنسان.

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(سورة فصلت الآية : 37)

لذلك أيها الإخوة ، يقول الله عز وجل :

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

17 – كيف تحفظ المعلومات ؟

من أعطاك ذاكرة ؟ لولا هذه الذاكرة تحفظ المعلومات الدقيقة .

بالمناسبة أيها الإخوة ، ما من خليفة في الجسم البشري إلا ولها عمر ، أقصر عمر خلية الأمعاء الدقيقة، عمر الخلية 48 ساعة ، كل 48 ساعة تتبدل خلايا الأمعاء الدقيقة ، تتبدل تبدلا كاملا ، وأقصر عمر للخلايا خمس سنوات ، فكل شيء بجسمك بعد خمس سنوات يتبدل ، عدا الدماغ ، لو تبدل الدماغ ، الأخ ماذا يعمل ؟ والله كنت طبيبًا ونسيت معلوماتي كلها ، لو أن خلايا الدماغ تتبدل فقدت كل خبراتك ، من الذي قرر أن خلايا الدماغ لا تتبدل ؟ الله جل جلاله ، القلب والدماغ لا يتبدل .

مَن مكنك ؟ من أعطاك ذاكرة ، حجم الذاكرة بالدماغ لا يزيد على حبة العدس ، تحتوي سبعين مليار صورة ، في عمر ستين سنة ، من أعطاك هوية ؟ لك نبرة صوت خاصة ، لك رائحة جلد خاصة ، لك زمرة نسيجية خاصة ، لك قزحية خاصة ، لك نطفة خاصة ، ما في إنسان نطفته كنطفة إنسان آخر .

18 – وماذا عن رَّحم المرأة ؟

من جعل في المرأة جهازًا يستقبل هذه النطفة ، ويحفظ تركيبها عنده ، فإذا جاءت نطفة ثانية فهي من الزنى ، واحتمال أن تصاب المرأة بسرطان الرحم قائم ، ولو توفي الزوج من جعل هذا الجهاز يقبل نطفة جديدة بعد أربعة أشهر ؟ هذا تصميم من ؟

أيها الإخوة ،

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس الآية : 101)

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21))

(سورة الذاريات)

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

19 – جهاز التعرُّق :

مكنك ، من جعل الجلد يتعرق ؟ جهاز تكييف وتبريد ، يتعرق في حر الجو ، فيبخر العرق ، ويأخذ معه الحرارة ، في عندك مئات ملايين الغدد العرقية ، التعرق جهاز تبريد كامل ، تصميم من ؟ .

تستنشق الهواء من الأنف ، الأنف فيه سطوح متداخلة ، يمر الهواء ، في أثناء المرور في أيام الشتاء الهواء درجته صفر ، ينتقل من صفر إلى 38 حينما يدخل في هذه السطوح المتداخلة ، وفيها الأوعية

الدموية في هذا المكان ، فيها عضلات موسعة ، في البرد يحمر أنف الإنسان ، وهذا يعني أن في الأوعية عضلات تتوسع ، تأتي كمية دم حارة تسخن الهواء الداخل للداخل ، من جعل السطوح فيها مادة مخاطية ؟ حتى إذا تعلقت ذرات تصفيها ؟ من جعل في الأنف شعيرات ؟ حتى إذا كان ذرة الغبار ماشية في الفراغ تلتقطها ، هذا تصميم من ؟ تسخين ولصق ، مادة لاصقة للمواد الضارة ، ثم مواد لاقطة ، وشعيرات بالأنف تصميم من ؟ الله جل جلاله .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ)

20 – العمل الآلي :

أعطيناكم ذاكرة ، ثم إن الإنسان لما يألف عملا ينتقل العمل إلى القيادة الآلية ، فيمكنك كل يوم أن تنتقل من عملك إلى بيتك ، تقود مركبتك قيادة آلية ، وتقوم بعملية معقدة ، وأنت تحاكي إنسان ، تدير معه حديث مهم ، أكثر أعمالك اليومية تنتقل لمركز القيادة الآلية ، تقوم بها من دون تفكير .

أحيانا يجعل الطيار نظام الطائرة بقيادة آلية ، فيجلس مع الركاب ، فيخاف الركاب أحياناً ، والله عز وجل جعل لك مئات الأعمال تقوم بها آلياً دون أن تشعر .

أحياناً إنسان بيده دخينة مشتعلة فتمس يدك ، فترفع يدك هكذا ، من صمم الفعل المنعكس لما تشعر اليد بالحرارة ، الشعور بالحرارة لا يصل إلى الدماغ حتى يقرر ، تكون اليد قد احترقت إلى حين أن يؤخذ أمر من النخاع الشوكي مباشرة ، هذه اسمه الفعل المنعكس .

21 – منعكس المص عند الطفل :

الطفل ولد الآن مثلا ، وعنده منعكس ، لو لم يكن هذا المنعكس لما كان إنسان على وجه الأرض ، إنه منعكس المص ، الآن ولد ، وفي أثناء تنظيفه دون أن تشعر الممرضة تصل يدها إلى شفته فيمصها مباشرة ، من علّمه يمص ، ويحكم شفتيه على حلمة ثدي أمه ، ويسحب هواء ، هل ثمة قوة في الأرض تعلمه ذلك ؟ لولا هذا المنعكس لما كانت حياة ، مَن علّمه آلية معقدة في مص الحليب ؟ إنه الله جل جلاله .

22 – ثقب البوتال في القلب :

مَن جعل بين الأذينين ثقبا اسمه بوتال ، الدم ينتقل من أذين إلى أذين ، ولا هواء في الرحم ، إلى أن يولد تأتي جلطة فتغلق هذا الثقب ، فينتقل الدم إلى الرئتين ، هذه يد من ؟

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ)

والله أيها الإخوة ، جسمك فقط لو تفكرت في دقائقه لوجدتَ العجب العجاب .

23 – هل تعلم ما في شعرك أيها الإنسان ؟

في رأس الإنسان 300 ألف شعرة ، بكل شعرة وريد ، وشريان ، وعضلة ، وعصب ، وغدة دهنية وغدة صبغية ، مَن جعل الرجل يفقد شعره أحياناً ؟ لكن المرأة لو تفقد شعرها كلياً لكانت طامة كبرى .

24 – كيف ينجب الرجل ولو كان في التسعين ؟

مَن جعل الرجل ينجب إلى التسعين ؟ أما المرأة في عندها بيوض محدودة تنتهي بسن اليأس ، لو واحدة بالتسعين حاملة مثلاً ، تصور واحدة حاملة بالتسعين ، من صمم حملَ المرأة محدودًا ؟ بالـ40 ـ بالـ45 ـ ، والرجل ينجب ولدًا ، وهو في التسعين ، هذا تصميم من ؟

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

والله أيها الإخوة ، أمامكم آيات تدل على عظمة الله عز وجل لا تعد ولا تحصى ، من جسمك :

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ)

25 – كيف تنتقل البويضة ؟

تنتقل البويضة من المبيض إلى الرحم عن طريق قناة اسمها قناة فالوب ، هذه البويضة كرة لا أرجلَ لها ، كيف تنتقل ؟ كيف تمشي ؟ بقناة فالوب ، التي فيها أهداب صغيرة تتحرك ، هذه الحركة تنقلها من مكان إلى آخر ، لولا هذه الأهداب لما كان إنسان على وجه الأرض ، بأهداب في جدر قناة فالوب تنقل البويضة من المبيض إلى الرحم ، والإنسان في اللقاء الزوجي يخرج منه من 250 مليون حوين لـ400 مليون ، وتحتاج البويضة إلى حوين واحد ، هذا تصميم من ؟

أيها الإخوة ، جسمك وحده يمكن أن تخشع لله ، يمكن أن تخر ساجداً لله ، جسمك وحده .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

26 – جهاز التوازن :

إنسان منتصب القامة ، لأن فيه جهاز توازن فوق الأذنين ، وهو جهاز التوازن معقد جداً ، ثلاث أقواس فيها سائل ، وأهداب ، لما الإنسان يميل السائل يبقى بشكل أفقي فيمس الأهداب ، فالإنسان يعلم

أنه مال ، ولولا قنوات التوازن التي لا تملكها دراجة في الأرض لما كان إنسان يمشي على الأرض ، فلا تقف مائلا ، ولا تستطيع ذاك ، لأنك بغير توازن ، ومساحة القدمين لا تكفي لأن يبقى قائماً ، ما هذه الأجهزة المعقدة ؟

27 – جهاز حساب تفاضل الأصوات في الأذن :

أنت تمشي في الطريق ، فسمعت بوق سيارة ، أنت تملك جهازا بالغ التعقيد يحسب تفاضل وصول الصوتين للأذنين ، والتفاضل بينهما واحد على 1620 جزءا من الثانية ، يكتشف هذا الجهاز أن المركبة من على اليمين ، فيعطيك أمرا لتتحرك نحو اليسار .

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ)

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ

1 – هل تعلم أن هناك أسبابًا كثيرة يعيش من ورائها الإنسان ؟!

كم من إنسان يعيش بسبب الحرّ في الأرض ؟ التكييف ، والمرطبات ، معمل الثلوج ، المكيفات ، لو أردت أن تعدد الحِرف التي يعيش منها الملايين بسبب الحر ، الحر أحد أسباب المعيشة ، فهناك إنسان مهندس تكييف ، تأتي موجة حر فتباع مكيفات بعدد كبير جداً ، هذا مهندس تكييف ، والتكييف يحتاج إلى صيانة ، ويحتاج إلى أدوات ثقب ، ويحتاج إلى موظفين ، فكم من إنسان يعمل في التكييف ، أو كم من إنسان يعمل في الأرض بسبب الحر فقط ؟

كم من إنسان يعمل في الأرض بسبب البرد ؟ المدافئ ، والوقود السائل ، والتدفئة المركزية ، الثياب الصوفية ، والمعاطف الثقيلة والألبسة الداخلية الصوفية ، كم من إنسان يعيش في الأرض بسبب البرد .

كم من إنسان يعيش بالأرض بسبب طول الشعر .

كم من إنسان يعيش في الأرض بسبب المرض ، كم من طبيب في الأرض ؟ كم من مستشفى ؟ كم من دواء ؟ كم هي كليات طب ؟ كم جامعة ؟ كم من كتاب مؤلف ؟ معنى :

(مَعَايِشَ)

أيْ أسباب للرزق .

تأتي حشرة فتبيد محصولا بأكمله ، كم مِن إنسان يعيش على وجود حشرات زراعية ؟ مهندس زراعي، مبيدات ، مضخات ، تجد أمما تعيش على حشرة .

لو أردت أن تعدد المصالح ، والمهن ، والحرف ، والاختصاصات التي يعيش منها الإنسان لما استطعت إحصاءها .

جعلك تتقن عملا ، والإتقان يتنامى ، لأن الدماغ ثابت ، والخبرات تتراكم فيه .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ)

ألا تشكرون ؟

أيها الإخوة ، ضَعف البصر : كم من إنسان يعيش على النظارات في الأرض ؟

ضعف السمع : كم من إنسان يعيش على تقوية السمع ؟

كسر العظام : كم من إنسان يعيش على تجبير العظام ؟

إنّ جسم الإنسان أحد أسباب وجود آلاف المهن والحرف لصيانتها .

أنت تحتاج إلى مأوى ، ويقال إن هناك أكثر من مئة حرفة متعلقة بالبناء ، لأنك لا يمكنك أنْ تنام في العراء ، تبرد ، تحتاج إلى مأوى ، المهندسون ، مواد البناء ، والتخطيط شيء لا ينتهي ، الأبنية ، المستشفيات ، الطفل لا يعلم شيئاً .

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً)

(سورة النحل الآية : 78)

كم من إنسان يعيش بالتعليم في الأرض ، التعليم ، والمدارس ، والمناهج ، والكتب والمفتشون ، وتطوير المناهج ، والبعثات ، والجامعات ، لأن الطفل لا يعلم شيئاً ، بينما معظم الحيوانات تعرف كل شيء منذ الولادة ، لأن الإنسان مكرم عند الله ، جعل له طفولة مديدة ، وجعل الأب والأم يتولون تربيته.

كم مِن إنسان عايش على الحر ، على البرد ، على المرض ، على الصحة ، على الجهل .

(لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا)

يأتي الجيش أولاً ، ثانياً : التربية والتعليم ، أكبر وزارة فيها موظفون التربية والتعليم ، يأتي بعد ذلك الجيش .

العدوان : الإنسان أحيانا يعتدي ، كم من إنسان يعيش على صد العدوان ؟ معامل الأسلحة كما ترون كل يوم ، هذا معنى كلمة معايش :

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ)

وجوب شكرِ اللهِ على النعم :

ألا تشكر ، الله عز وجل يقول :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ)

(سورة النساء الآية : 147)

أنت حينما تشكر ، وحينما تؤمن فقد حققت الهدف من وجودك ، لماذا ؟ لأن هذا الكون مسخر لك تسخيرين ، تسخير تعريف وتسخير تكريم ، رد فعل التعريف أن تؤمن ، ورد فعل التكريم أن تشكر ، فإذا آمنت ، وشكرت فقد حققت الهدف من وجودك ، لك رسالة أن تؤمن ، وأن تشكر ، لأن الله سبحانه وتعالى منحك نعمة الإيجاد ، ومنحك نعمة الإمداد ، ومنحك نعمة الهدى والرشاد .

فلذلك أيها الإخوة ،

(قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ)

أنت نعمة من نعم الله ، وجودك نعمة منحك الإيجاد ، منحك الإمداد ، منحك الهدى والرشاد ، لو أن العناصر بالأرض تنصهر بدرجة واحدة ، ما الذي يحصل ؟ الكون كله إما غاز أو سائل أو صلب ، وهناك خشب وحديد ، وماء ، وهواء تستنشقه ، ومادة لزجة ، ومادة لينة ، ومادة قاسية ، وهناك متانة، وقساوة .

أنت تضطر أحياناً أن تجعل سورًا على رصيف حجري ، كيف يتعامل الحديد مع الحجر ؟ هناك معدن اسمه الرصاص ، هذا المعدن له خاصة عجيبة ، بالتبريد يتمدد ، فتحفر حفرة في قطعة الحجر ، يوضع الحديد ويصبّ الرصاص ، يتمدد بالتبريد ، أصبحت قطعة الحديد مع قطعة الحجر كتلة واحدة .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ)

استنباطات من لفظ معايش :

1 – الأصلُ تداولُ الكتلة النقدية بين الناس :

أيها الإخوة الكرام ، الحقيقة أن الله عز وجل أراد لهذه الكتلة النقدية أن تكون متداولة بين أيدي الأمة ، فجعل معايش ، أنت عندك أرض أتت آفة زراعية ، تحتاج لمهندس وإلى دواء ، وإلى آلات رش ، فكأن الكتلة النقدية ممنوع تحتكرها وحدك ، فكل إنسان منتج يجب أن تكون نفقاته من الثلث إلى النصف من أرباحه ، إذاً : توزعت هذه الثروة بين أكبر شريحة في المجتمع ، هذه المعايش .

2 – تمكين الناس من صنائعهم وحِرفهم :

كلمة معايش دقيقة جداً ، كل هؤلاء الناس ، كل واحد منهم مكّنه الله عز وجل من إتقان صنعة ، أحيانا تجد طيارا شابا صغيرا ، يقود طائرة عملاقة مِن طابقين فيها 600 راكب في بالليل ، هل تستطيع أن تحلّ محله ؟ أو تجلس بمقعد القيادة ، وتطير من بلد إلى بلد بالليل ، وتهبط بالمطار بسلام ؟ هذه خبرات عالية جداً ، أن طيارا يقود طيارة .

تجد جراح قلب يشق الصدر و هو مرتاح ، يأتي بصاروخ فيقصّ العظم ، يصل إلى القلب فيبرده ، ويوقفه عن النبض ، يوصل الدم بقلب كهربائي ، يعمل بكفاءة عالية جداً ، يفتح البطين فيصل إلى الدسام ، يضع دساما جديدا ، والعملية تستغرق سبع ساعات ، بعد ذلك يحدث صعقة للقلب فيعمل من جديد !!!

كل أعمال الجراحين بالقلب ، لو أن القلب سكنته ولن يعمل مرة أخرى لم توجد عملية قلب إطلاقاً ، لو كان التصميم أن القلب لو أوقفته عن النبض لا يعمل مرة ثانية لما كان هناك عمل جراحي إطلاقاً ، أما القلب فهو مصمم بالتبريد ليسكن ويكف عن النبض ، ويتحول الدم إلى قلب صناعي ، لما تنتهي تحدِث له صعقة فيعمل ، إذا لم يعمل فقل : عظّم الله أجركم .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

حدثني طبيب قلب قال لي : هناك شريان في القلب من أمتن الشرايين ليس له وظيفة ، إلا أنه قطعة غيار عند العملية الجراحية ، يأخذونه ويضعونه مكان الشريان المسدود ، هذا تصميم مَن ؟

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ)

تجد هذا جراح قلب ، هذا طبيب هضمية ، هذا مهندس معماري ، هذا مهندس بترول ، هذا يكتشف البترول ، وفي بقاع البحر ينزلون اسطوانات داخلها اسطوانات ، يصبونها بإسمنت فيتفاعل مع الماء ويجمد وهو بالماء ، يصبح هناك أنبوب ، فيأتون بمنصة كبيرة ، والله مثل الشياطين ، طبعاً هناك آبار بترولية في قاع المحيطات ، منصة كبيرة ، ومدينة ، وطائرة هليوكوبتر تهبط عليها ، ومكاتب ، بالبحر.

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

الآن تركب طائرة فيها 400 راكب على ارتفاع 40 ألف قدم ، وأنت قاعد مرتاح ، تكييف ، مشروبات ، شاي وقهوة ، وطعام ساخن ومجلات ، وترى الفضائيات كلها أمامك ، ما هذا ! .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ)

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

(سورة النحل)

خاتمة :

الحديث عن المعايش حديث لا ينتهي ، والحديث عن التمكين حديث لا ينتهي ، أنت ممكّن في الأرض، وأنت هيأ الله لك أن تعيش عن طريق حرفة تحترفها ، ولولا أن الإنسان يحتاج إلى أن يأكل ويشرب لما رأيت على وجه الأرض شيئاً .

إذاً : أيها الإخوة ، نلخص ما في هذا الدرس بقوله تعالى في الآية العاشرة :

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ)

إذاً : أنت المخلوق الأول ، وقد مكانك الله في الأرض ، وجعل لك سبلاً كي تكتسب رزقك ، وفي هذه السبل تُمتحن ، تصدق أم تكذب ؟ تنصح أم تغش ، ترحم أو تقسو ، أنت من خلال عملك تمتحن .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(06-60): تفسير الآية 11، قصة الخلق وسبب وجود الإنسان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-01-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس السادس من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الحادية عشرة ، وهي قوله تعالى :

معالجة القرآن الكريم لمسألة الخَلق :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ)

1 – كل سورة تعالج قضية الخَلق من زاوية محددة :

أيها الإخوة الكرام ، هذه الآية والتي تليها تعالج مسألة الخَلق ، وقد تقدمت هذه المسألة في سورة البقرة، وعولجت في سبعة مواضع من القرآن الكريم ، في سورة البقرة والأعراف ، والحج ، والإسراء ، والكهف ، وطه ، وص ، ولكن في كل سورة تعالج هذه المسألة من زاوية ، هناك من يتوهم أن في القرآن تكراراً ، والحقيقة لو تتبعت الموضوعات المتكرر في القرآن الكريم لوجدت أن كل رواية في كل سورة لها زاوية خاصة ، فهذا من إعجاز القرآن الكريم ، وفوق ذلك هناك قضايا أساسية جداً في العقيدة ، القرآن الكريم من أسلوبه الحكيم أنه يأتي بها في أماكن كثيرة كي تترسخ .

لا يعقل أن يقول الأب لابنه في كبر عمره : اجتهد مرة واحدة ، هذا الكلام يقوله له كل يوم ، وفي كل مناسبة ، وعقب كل حادثة ، وإبان كل تصرف ، يا بني انتبه ، اجتهد .

2 – تكرار القصص في القرآن لفائدة بلاغية :

أولاً : التكرار في القرآن الكريم له تفسير بلاغي ، أن كل رواية أتت على الموضوع من زاوية ، وبمعنى آخر أن التكرار من مهمته القصوى البلاغية أن يؤكد المعنى الذي هو أساسي .

الموضوعات الأساسية والموضوعات الثانوية :الموضوعات الأساسية والموضوعات الثانوية :

كلكم يعلم أيها الإخوة أن في حياتنا موضوعات أساسية ، وهناك موضوعات ثانوية ، بتعبير آخر هناك موضوع مصيري ، فالإنسان مثلاً صحته موضوع مصيري ، لأن خللاً في قلبه ينهي حياته ، الصحة موضوع خطير ، لأنه قد ينهي حياة الإنسان ، الإيمان موضوع خطير ، قد ينهي سعادته .

فالموضوعات الخطيرة التي لها أثر مستقبلي ، أو الموضوعات المصيرية ، هذه موضوعات يعتني بها القرآن كثيراً ، لذلك في حياتنا موضوعات برأي الفقهاء فرائض ، تتوقف سعادتنا على تحقيقها ، بل تتوقف سعادتنا وسلامتنا على تحقيقها ، إذاً هي فرائض ، وهناك موضوعات تحت باب المحرمات ، هذه سبب شقائنا وهلاكنا في الدنيا والآخرة ، إذاً على طرفي الأحكام الفرائض والمحرمات ، بينهما في الوسط المباحات ، وهو موضوع حيادي ، طريقة جلوسك في البيت ، على الأرض ، على الكرسي ، على فراش معين ، ألوان ثيابك ، هناك ملايين الموضوعات حيادية ، ليس لها أثر إيجابي ولا سلبي في إيمانك .

لذلك الأنبياء والمرسلون عليهم صلوات رب العالمين الموضوعات التي لها أثر إيجابي أو سلبي في علاقتك بالله عز وجل جاء ذكروها بشكل واضح ، والأشياء التي سُكت عنها هي الأشياء التي ليس لها أثر إيجابي ولا سلبي في حياتك الإيمانية .

لذلك الأنبياء ما من شيء يقرب إلى الله عز وجل إلا وأتوا على ذكره ، وما من شيء يبعد عن الله عز وجل إلا أتوا على ذكره ، والذي أغفل ذكره هناك حكمة من ذكره لا تقل عن حكمة التي ذكره الله عز وجل ، وهذا معنى قوله تعالى :

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

(سورة المائدة الآية : 3)

الإتمام عددي ، والإكمال نوعي ، أي أن مجموع القضايا التي عالجها القرآن الكريم والسنة المطهرة تامة عدداً ، وأن طريقة المعالجة التي عالجها القرآن الكريم في القضايا التي عرضها كاملة نوعاً ، فهذا الدين توقيفي ، لا يضاف عليه ، ولا يحذف منه ، لأنه من عند الخالق ، الخالق الذات الكاملة ، من عند الحكمة المطلقة ، والرحمة المطلقة ، والعلم المطلق ، والعدل المطلق .

إذاً : الدين لا يضاف عليه ، ولا يحذف منه ، وهو عند بعض المشككين تراث ، الدين ليس تراثاً ، الدين وحي ، وحي من السماء والمعصوم بينه ، وحي من عند الله ، والنبي الكريم بيّنَ دقائق هذا الوحي ، أما الحضارة والثقافة والتراث فهذه أشياء أرضية ، أما أن يوصف الدين بأنه تراث فلا ، الدين وحي ، ووحي السماء هو خطاب السماء للأرض ، هذا الخطاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،

لكن الذي يقول : لا بد من تجديد الدين ، الدين لا يجدد ، الدين توقيفي ، لعل الخطاب الديني يجدد ، الخطاب ، الخطاب الدعوي يجدد ، وإذا أصررنا على أن هناك تجديد بالدين فهو كما يلي :

أن ننزع عن الدين كلما علق به من ما ليس منه .

لذلك يقولون : الأشياء الأصل فيها الإباحية ، ولا يحرم شيء إلا بالدليل القطعي الثبوت والدلالة ، بينما العبادات والعقائد الأصل فيها الحظر ، ولا يضاف على العقائد والعبادات أشياء إلا بالدليل قطعي الثبوت والدلالة .

((إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم))

[أخرجه الحاكم عن أنس ، السجزي عن أبي هريرة]

((يا ابن عمر دينك ، دينك ، إنما هو لحمك ودمك ، فانظر عمن تأخذ ، خذ الدين عن الذين استقاموا ، ولا تأخذ عن الذين قالوا))

[عن ابن عمر]

حقيقة معترف بها عند الجميع : الله هو الخالق :

أيها الإخوة الكرام ، قصة الخَلق وردت في القرآن الكريم ، في سور عديدة وفي مواضع عديدة ، ومن زوايا عديدة ، ولكن يعنينا من هذه القصة أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة الآية : 21)

الجهة الوحيدة المستحقة للعبادة هي الجهة الخبيرة بالخلق كلِّهم :

من هي الجهة الوحيدة في الكون التي تستحق العبادة ؟ إنها الجهة الخبيرة ، قال تعالى :

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14))

(سورة فاطر)

فالإنسان حينما يتوجه إلى الله يكون عاقلاً ، أما إذا توجه إلى غير الله يكون غير عاقل لأنه قد قيل : أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً .

لكن أنت في حياتك اليومية إذا اقتنيت آلة بالغة التعقيد ، غالية الثمن ، عظيمة النفع ، وأصابها عطب أو عطل ، لا يمكن أن تذهب إلى من تحبه ، تذهب إلى من هو الخبير في إصلاحها ، وفي صيانتها ، وفي معرفة أسباب سلامتها ، وحسن مردودها .

إذاً الله عز وجل يخاطبنا ويقول :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ)

من معاني هذه الكلمة أنه ينبغي أن تستمعوا إلى بيان الله عز وجل ، ينبغي أن تنصاعوا لأمره ، ينبغي أن تطبقوا تعليماته ، لأنها تعليمات الخبير ، تعليمات الخالق ، تعليمات الرب ، تعليمات أسباب سلامتنا وسعادتنا .

(ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ)

بعضهم يقول : المخلوقات كلها خلقت في عالم الذر ، استناداً لقوله تعالى :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

هذا عالم الذر ، النفوس مجردة من الصور ، في عالم الذر بعض ما في هذا العالم قبل حمل الأمانة ، وبعض من في هذا العالم أشفق من حمل هذه الأمانة ، لأننا بشر لأننا من صنف الإنسان نحن حتماً قبلنا حمل الأمانة .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ)

في الحياة الدنيا هي عالم الصور ، فالحصان أخذ صورة ، والشمس لها صورة ، والقمر له صورة ، والإنسان له صورة ، وأنواع النباتات لها صورة ، والحيوانات لها صور .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ)

في عالم الذر ، عالم النفوس المجردة ، وفي عام الدنيا علم الصور .

الأمانة والإنسان :

أيها الإخوة الكرام ، الإنسان قبل حمل الأمانة ، ما الأمانة ؟ الأمانة في رأي العلماء ، بل في رأي جمهور العلماء نفسك التي بين جنبيك ، هذه أمرها بيدك ، مصيرها إليك كُلفت حملها ، أي كُلفت أن تعرفها بربها ، كُلفت أن تحملها على طاعته ، كُلفت أن تزكيها كُلفت أن تأهلها للجنة ، كُلفت أن تسمو بها ، لذلك الذي يؤكد هذا المعنى قال تعالى :

نفسك هي امانتك

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس)

(قَدْ أَفْلَحَ)

الفلاح هو النجاح ، هو التفوق ، هو الفلاح ، هو تحقيق الهدف ، والإنسان يحب النجاح ، والناجح سعيد جداً ، الناجح هو الذي يحقق الهدف .

متى يتحققُ هدفُ الإنسان ؟

من هنا يمكن أن أقول : متى تحقق الهدف ؟ الجواب إذا صح عملك ، ومتى يصح عملك؟ إذا عرفت سبب وجودك في الدنيا ، كلام دقيق ، الآن الناس في ضياع ، هناك من يتوهم أنه يعيش ليأكل ، أو يعيش ليستمتع ، أو يأكل ليعيش ، أو يعيش ليعرف الله عز وجل ، اسأل نفسك هذا السؤال سؤال دقيق وخطير ، وسؤال فلسفي ، لماذا أنت في الدنيا ؟ يعني أنت سافرت إلى بلد

معرفة الله اساس وجودك في الدنيا

وسألتنا ماذا أفعل ؟ نقول لك : سؤالك عجيب ، لماذا جئت لهذا البلد ؟ إن جئت طالب علم فالطريق

واضح إلى المعاهد والجامعات ، إن جئت تاجراً فالطريق واضح إلى المعامل والمؤسسات ، إن جئت سائحاً فالطريق واضح إلى المقاصف والمتنزهات ، فلا تصح حركتك في مكان ما إلا إذا علمت لماذا أنت في هذا المكان بالضبط ، هذا معنى فرعي .

حينما تعلم لماذا أنت في الدنيا أن تعرف الله ، أن تستقيم على أمره ، أن تتقرب إليه بالأعمال الصالحة ، الآن ما دام الهدف واضح جداً تختار له ملايين الوسائل التي تعينك على بلوغ الهدف ، ولأضرب على هذا مثلاً :

أنت في باريس تحمل شهادة ثانوية ، وقد أرسلت لبعثة لنيل الدكتوراه ، هذا الهدف ، كل حركاتك ، وسكناتك ، ونشاطاتك ، واهتماماتك متعلقة بهذا الهدف ، الآن أنت مضطر أن تستأجر بيت ، الهدف وهو الدراسة يُحتم عليك أن تختار بيتاً إلى جانب الجامعة يوفر لك المال والجهد والوقت ، إذاً : اختيار البيت متعلق بالهدف ، الآن تشتري مجلة متصلة باختصاصك ، من أجل أن تحقق الهدف ، تصاحب طالباً يتقن اللغة المحلية ، كي يعينك على الحديث بهذه اللغة ، تأكل طعاماً يعينك على الدراسة ، تحتاج إلى دخل تعمل عملاً بوقت قصير جداً حتى يتيح لك هذا العمل وقتاً كافياً للدراسة ، كلامي دقيق جداً .


على الانسان ان يحدد هدفه

حينما تعرف لماذا أنت في الدنيا ، من أجل أن تعرف الله ، ومن أجل أن تستقيم على أمره ، ومن أجل أن تتقرب إليه ، ومن أجل أن يكون إعدادك لنفسك تمهيداً وثمناً لدخول الجنة .

فيا أيها الإخوة ، ولا أبالغ إذا قلت : إن الذين يعرفون أهدافهم في الحياة الدنيا لا يزيدون بحسب الإحصاءات الرسمية على 3 % ممن يعرف هدفه ، الآن يختار آلاف الوسائل لتحقيق الهدف ، أما الذي لا يعرف هدفه فهذا هو الإمعة ، والإمعة ؛ هو مع الناس ، إن أحسن الناس ، ومع الناس إن أساءوا ، هو تابع لصرعات الأزياء ، تابع للمفاهيم السائدة ، تابع للكلام المطروح ، تابع للإعلام ، تابع لكل مؤثرات البيئة ، هذا على هامش الحياة .

الحكمة من خلق البشر هي العبادة :

الحكمة من خلق البشر هي العبادة

أما المؤمن حينما يعمل عقله ، ويقرأ كتاب ربه ، ويعرف سر وجوده ، فيكتشف أنه مخلوق للعبادة .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56)﴾

(سورة الذاريات)

وأن العبادة سر وجوده ، وأن الإنسان يرقى إلى أعلى مقام حينما يكون عبداً لله ، فلما وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى سدرة المنتهى قال تعالى :

﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10)﴾

(سورة النجم)

وحينما جاءته الرسالة ، وهي أعلى مهمة ينالها إنسان لقول النبي الكريم :

((سَلُوا اللّه لِي الوَسِيلَة ، فإنها مَنْزِلَة في الجَنَّةِ لا تَنْبَغِي إلاَّ لِعَبْدٍ مِنْ عِبادِ اللّه وأرْجُو أنْ أكُونَ أنا هُو))

[رواه مسلم عبد الله بن عمرو بن العاص]

هذا المقام هو العبودية :

﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً (19)﴾

(سورة الجن)

إذاً العبودية سر وجودنا ، وغاية وجودنا ، والعبودية خضوع لله خالص ، ومحبة لله خالصة ، وحرية خالصة ، وطاعة خالصة ، وعمل صالح خالص ، وتضحية خالصة فالعبودية علة وجودنا ، وغاية وجودنا ، قال تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

هي طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية ، فيها جانب معرفي ، وجانب سلوكي ، وجانب جمالي ، تعرفه فتطيعه ، فتسعد بقربه في الدنيا والآخرة ، في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، تعرفه فتعبده فتسلم ، وتسعد بقربه في الدنيا والآخرة .

العبادة بين المفهوم الضيق والمفهوم الواسع :

أيها الإخوة ، هذه العبادة ، لكن الذين يفهمون العبادة فهماً ضيقاً يتوهمونها صلاةً فقط ، وصياماً وحجاً وزكاة ، العبادة منهج كامل يغطي كل حياتك ، وكل أطوار حياتك ، وكل شؤون حياتك ، وكل اهتماماتك ، يبدأ من الفراش الزوجية ، إلى العلاقات الدولية ، أكاد أقول : المنهج التعبدي في القرآن الكريم وفي السنة فيه مئات ألوف الموضوعات .

مرة ثانية : من أخص خصوصياتك من فراش الزوجية ، وينتهي بأضخم العلاقات بين الأمم العلاقات الدولية ، هذه العبادة ، أما نصلي ، ونصوم ، ونحج ، وانتهى الأمر ، وبيوتنا كسب أموالنا ، إنفاق أموالنا ، علاقاتنا المالية ، والنسائية ، وأفراحنا ، وأتراحنا ، وسفرنا وفق المنهج العربي ، وعلى التقليد الغربي ، هذا هو ليس الإسلام .

فلذلك حينما طبقنا ظاهر الإسلام خسرنا قيمة الإسلام ، وخسرنا ثمار الإسلام وخسرنا وعود الواحد الديان .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

الله عز وجل كلفنا أن نعبده ، أو كلفنا حمل الأمانة .

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

كلفنا حمل الأمانة ، والأمانة هي النفس البشرية .

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

مِن مقومات حمل الأمانة :

الآن مع موضوع من لوازم هذا الموضوع ، ما كلفنا الله حمل الأمانة إلا وأعطانا مقوماتها ، ما مقومات حمل الأمانة ؟

1 - الكـون :



أعطاك الكون ، الدليل :

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

(سورة الجاثية الآية : 13)

تسخير تعريف وتكريم ، الكون مسخر للإنسان ، وأنت أيها الإنسان علمت أو لم تعلم أكرم المخلوقات على الله ، أنت المخلوق الأول رتبة ، لأنك قبلت حمل الأمانة .

(سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)

تسخير تعريف ، وتسخير تكريم ، تسخير التعريف يقتضي أن تؤمن به ، وتسخر التكريم يقتضي أن تشكره ، فإذا آمنت به وشكرته حققت الهدف من وجودك ، قال تعالى :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

(سورة النساء الآية : 147)

فإذا شكرتم وآمنتم ، أو آمنتم وشكرتم فقد حققتم علة وجودكم ، وحققتم الغاية من وجودكم ، أما عامة الناس وهذا شيء مؤلم جداً فتغطيهم آية كريمة :

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)

(سورة الكهف)

متى يسعد الإنسانُ ؟

1 – السعادة والسلامة مطلبان أساسيان لجميع الخَلق :

موضوع ثان أيها الإخوة ، من لوازم هذا الموضوع ، متى يسعد الإنسان ؟ لأن السلامة والسعادة مطلبان أساسيان لكل الخلق ، على وجه الأرض ستة آلاف مليون ، أنا متأكد أنه ما منهم واحد إلا وهو يتمنى السلامة والسعادة .

2 – الشقاء سببُه الجهلُ :

فلماذا الشقاء ؟ قالوا : الشقاء بسبب الجهل ، والدليل أن علة وجود الناس في النار الجهل :

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(سورة الملك)

والجهل أعد أعداء الإنسان ، نحن كأمة من أعداءنا ؟ إياكم أن تظنوا أعداءنا هؤلاء الأعداء التقليديون ، الذين نصفهم بالغدر والبطش ، والغطرسة ، والتدمير ، والإبادة والإفساد ، والاستغلال ، نحن أعداء أنفسنا .أؤكد لكم مرة ثانية أن مصيرنا ليس بيدهم ، بيدنا .

(وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ)

(سورة الأنفال الآية : 19)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد الآية : 11)

من شأن الأعداء أن يعتدوا ، من شأن الأعداء أن يستغلوا ، أن ينهبوا الثروات أن يفرقوا ، أن يشتتوا ، هذا شأنهم ، لكن قوتهم أتت من ضعفنا ، من جهلنا ، من تفرقنا .

3– السعادة تأتي مِن تحقيق الهدف :

أيها الإخوة ، أضرب لكم مثلا بسيطا : أنت طالب جامعي في السنة الأخيرة وفي اختصاص جيد جداً ، عليك طلب بأهم مادة بالاختصاص ، وامتحانك بعد يومين ، ولك أصدقاء تحبهم حباً جماً ، أخذوك عنوة قبل الامتحان بيومين إلى الساحل ، ونزلت بأفخر فندق ، وتناولت أطيب الطعام ، واستمتعت بأجمل المناظر ، كل شروط السرور محققة ، أصدقاء تحبهم ، مكان جميل ، إطلالة جميلة ، طعام طيب ، لماذا تشعر بانقباض شديد ؟ لأن هذه الحركة لا تحقق هدفك ، لو جلست في غرفة قميئة ذات رطوبة عالية ، والإضاءة خافتة ، ومعك الكتاب المقرر ، وقرأته واستوعبته ، وشعرت أنك جاهز لأداء امتحان في هذه المادة يأتي شعور بالفرح لا يوصف ، وأنت في غرفة قميئة ذات رطوبة عالية والإضاءة خافتة، لا مناظر أبداً ، والجدران ليست مطلية ، أنت مسرور ، إذاً : سعادة تأتي من تحقيق الهدف في دليل آخر :

التاجر إذا كان له بيع كثيف ، وإقبال شديد على البضاعة ، يمضي 12 ساعة لا يجلس ، ولا يأكل ، وهو في نشوة السعادة ، إذا انعدم البيع ، وما إنسان يقول لك : عندك مال ، وقاعد على مقعد وثير ، ومشروبات ، وقهوة ، وشاي ، وصحف ، ومجلات ، وأصدقاء تشعر بانقباض شديد ، لأن هذا المحل

لا يحقق هدفه ، أما إذا حقق هدفه يغدو هذا المكان الضيق في سوق مزدحم ، في ظروف صعبة ، لا تدفئة ، ولا تكييف ، ولا الجلوس مريح ، ولا طعام ، وأنت في قمة السعادة .

لذلك نحن لا تصلح حركتنا في الحياة إلا إذا عرفنا سر وجودنا ، كما أنه لا نسعد إلا إذا جاءت حركتنا مطابقة لهدفنا .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

ولكن حينما كلفنا الله أن نحمل الأمانة أو أن نعبده ، فهما معنيان يصبان في خانة واحدة ، حينما كلفنا حمل الأمانة ، أو حينما كلفنا أن نعبده ، أعطانا المقومات ، أعطانا الكون كما قلت قبل قليل ، سخر لنا ما في السماوات وما في الأرض ، تسخير تعريف وتكريم ، إذاً : التفكر في خلق السماوات والأرض أحد بنود العبادة .

2 ـ العقـل :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران)

الآن البند الثاني : أعطاك عقلاً ، العقل ميزان.

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7))

(سورة الرحمن)

تشعر بالراحة عندما يتوافق عملك مع فطرتك

هذا العقل إذا أعملته أعطاك النتائج ، تماماً : عندك بيت ثمنه خمسون مليونًا ، ودُفع لك ثمنه بالعملة الصعبة ، وفي الجيب الأيمن جهاز إلكتروني يكشف العملة المزورة ، وفي الجيب الأيسر فيها أرقام العملة المزورة ، في الجيب الأول جهاز إلكتروني ، وفي الثاني أرقام أوراق العملة المزورة ، وأنت قبضت ثمن هذا البيت بالعملة الصعبة ، لم تستخدم الجهاز الأول الإلكتروني ، ولم تدقق في أرقام العملة التي في بجيبك ، وكان المبلغ كله عملة مزورة ، من هو الخاسر ؟ أنت ، أنت السبب ، معك عقل باليمين ، ومعك منهج قرآني باليسار ، فلا عقلك استخدمت ، ولا القرآن الكريم استخدمت ، فشقي الإنسان .

الله عز وجل قال لك : افعل ولا تفعل ، تحب أنْ تحكم عقلك ، العقل ينطبق مع النقل ، لأن العقل مقياس أودعه الله فينا ، والنقل كلامه ، فمعك عقل لو أعملته بتجرد من دون انحياز ، من دون أسلوب تغطية ، تبرير ، تسويغ ، لهداك عقلك إلى الله عز وجل ، لأن الآيات التي تتحدث عن العقل ، وعن التفكر ، وعن العلم تقترب من ألف آية ، أعطاك القرآن فيه الحلال والحرام .

فلذلك الشقاء بسبب جهل الإنسان ، وعدم استخدام العقل والنقل معاً ، والعقل والنقل متطابقان والحمد لله.

3 ـ الفطرة :

أعطاك فطرة ، لو أنك لم تعمل عقلك كما أنه لم تقرأ كتابك ، أعطاك بنية نفسية جبلة ، فطرة تكشف لك الخطأ ذاتياً .

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس)

((الحَلالَ بَيِّنٌ ، وَالحَرَامَ بَيِّنٌ))

[متفق عليه]

((والإثم ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس))

[أخرجه البخاري ، و مسلم والترمذي عن النواس بن سمعان]



الفطرة توقظك بالخطأ كجهاز التنبيه

هل هناك إنسان يغش الحليب أمام الشاري ؟ يقول له : لحظة لأصب عليه الماء ، مستحيل ، بالفطرة تعلم أن هذا العمل غير صحيح أبداً .

فلذلك أعطاك كوناً ، أعطاك عقلاً ، أعطاك فطرة .

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا)

حينما تفجر أنها فجرت ، وألهمها حين تتقي أنها اتقت ،

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

4 ـ الشـهـوة :

الآن : أعطاك شهوة هي ثمن الجنة ، ما أودع الله بالإنسان الشهوات إلا ليرقى بها مرتين ، مرة صابراً، ومرة شاكراً إلى رب الأرض والسماوات ، هذا الميل نحو المال نحو المرأة ، نحو العلو في الأرض ، أودع فيك الشهوات ، قال تعالى :

(زُيِّنَ لِلنَّاس حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة آل عمران الآية : 14)

أعطاك الشهوات لترقى بها ، وهي حيادية ، وما من شهوة أودعها الله فيك إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها ، فلا حرمان بالإسلام ، وما من شهوة أودعها الله فيك إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها .

لكن المحرمات ليست قيوداً لحريتك ، بل هي ضمان لسلامتك ، المحرمات تاماً كلوحة كتب عليها : حقل ألغام ممنوع التجاوز ، لا تشعر بحقد أبداً على من وضع اللوحة ، بل تشكره من أعماق أعماقك ، لأنه ضمن لك بهذه اللوحة سلامتك ، كما لو وضعت لوحة أمام تيار توتر عال : " ممنوع الاقتراب خطر الموت " ، اللوحة رحيمة ، اللوحة فيها علم ، فيها حكمة ، فيها رحمة ، فيها قيادة حكيمة للمواطنين ، ممنوع الاقتراب خطر الموت ، لذلك أودع فيك الشهوات لترقى بها صابراً ، أو شاكراً إلى رب الأرض والسماوات .

أعطاك كوناً سخره لك تسخير تعريف وتكريم ، رد فعل التعريف أن تؤمن ، ورد فعل التكريم أن تشكر، أعطاك عقلاً كي تتأكد به من صحة النقل ، وكي تفهم به النقل ، دون أن تلغي النقل بعقلك ، العقل ليس حكماً على النقل ، ولكن من تأكد من صحة النقل قبل النقل ولفهم النقل بعد النقل ، أعطلك الفطرة تكشف لك الخطأ ذاتياً .

الآن في أرقى الطائرات ما فيها عدادات أبداً ، فيها لوحات عاتمة ، إذا حدث خلل يظهر على الشاشة ، أن خللاً في المكان الفلاني .

وأنت عندك شاشة ، حينما تخطئ تشعر أنك تخطئ ، وحينما تصيب تشعر أن مصيب ، لذلك متوافقة توافق تاماً مع منهج الله عز وجل ، سواء عليك أأطعت أمر الله عز وجل أم استجبت لنداء الفطرة ، الأمر سيان ، لأن منهج الله متوافق تماماً مع فطرتك ، فأي شيء أمرك الله به نفسك تتوق إلى تطبيقه دون أن تشعر أعطاك كوناً ، وعقلاً ، وفطرة وشهوة .

5 ـ حــرية الاختيار :

أعطاك حرية ، أنت حر .

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

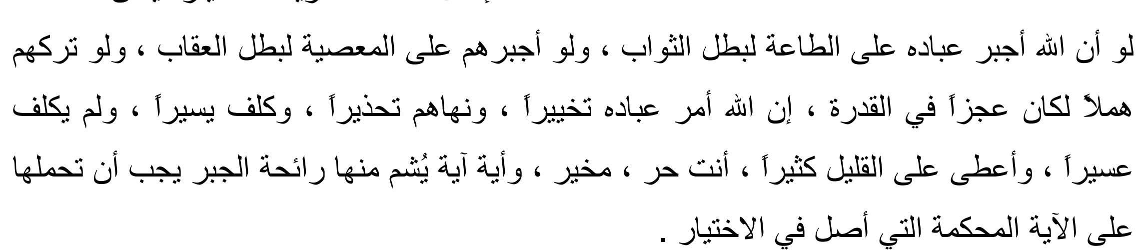
(سورة الكهف الآية : 29)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

(سورة البقرة الآية : 148)



ما لم تكن حراً لا يثمن عملك ، ما لم تكن حراً فلا يمكن أن ترقى إلى الله عز وجل ، أنت حر فيما كلفت به ، لكن الذي لست حراً فيه ما إن كنت ذكراً أو أنثى ، ومن أبوك وأمك ، وفي أي مكان ولدت ، وفي أي زمان ولدت ، هذه لمصلحتك ، ومحض خير لك ، وليس في إمكانك أبدع مما أعطاك .

إذاً : أعطاك حرية الاختيار ليثمن عملك ، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب ، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب ، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة ، إن الله أمر عباده تخييراً ، ونهاهم تحذيراً ، وكلف يسيراً ، ولم يكلف عسيراً ، وأعطى على القليل كثيراً ، أنت حر ، مخير ، وأية آية يُشم منها رائحة الجبر يجب أن تحملها على الآية المحكمة التي أصل في الاختيار .

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

هذه الآية أصل في أنك مخير ، وأنه لا يقول بالجبر إلا مشرك ، لا يقول في الجبر فيما كلفنا إلا مشرك.

إذاً : أعطاك كوناً ، وعقلاً ، وفطرة ، أعطاك شهوة ، أعطاك اختياراً .

المنهج الإلهي :

وفضلاً عن كل ذلك أعطاك منهجاً ، لو أن الأمور التبست عليك ، هناك منهج ، وكتاب ، وسنة ، كتاب عقائد ، كتاب سيرة ، كتاب أحكام فقهية ، افعل ولا تفعل ، هذا المنهج قال عنه العلماء : الحسن ما حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه الشرع ، والشريعة عدل كلها ، والشريعة رحمة كلها ، والشريعة حكمة كلها ، والشريعة مصلحة كلها ، فأية قضية خرجت من المصلحة إلى المفسدة ، ومن العدل إلى الجور ، ومن الحكمة إلى خلافها ، ليست من الشريعة ، ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل .

إذاً : نحن قد خلقنا ربنا ، ولأنه خلقنا أمرنا أن نعبده .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

وقد ورد في كتاب مدارج السالكين لابن القين رحمه الله تعالى أثر قدسي :

((إني والجن والإنس في نبأ عظيم : أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر غيري))

[أخرجه الحكيم البيهقي عن أبي الدرداء]

((خيري إلى العباد نازل ، وشرهم إلي صاعد ، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي ، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب ، أهل ذكري أهل مودتي ، أهل شكري أهل زيادتي أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب ، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد والسيئة بمثلها وأعفو ، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

أيها الإخوة الكرام ، الآية الكريمة :

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ)

لأن جنس البشر أعلى صنف عند الله ، رُكب الملك من عقب بلا شهوة ، ورُكب الحيوان من شهوة بلا عقل ، ورُكب الإنسان من كليهما ، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة ، وإن سمت شهواته على عقله أصبح دون الحيوان .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (6)إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7))

(سورة البينة)

إذاً :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(07-60): تفسير الآيات 11 – 13 ، تسلسل الإيمان بالله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-01-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس السابع من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثانية عشرة ، وهي قوله تعالى :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ)

تذكير للفائدة والتقرير :

1 – مسألة الخَلق :

وفي الدرس السابق بينت لكم قصة الخلق بفضل الله عز وجل ، وكيف أن الإنسان خُلق في عالم الذر ، بل خُلقت جميع المخلوقات في عالم الذر ، قبل أن تكون صوراً .

2 – حملُ الإنسان للأمانة :

وعُرضت عليها الأمانة ، حيث قال الله عز وجل :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

3 – العبادة أصل خلق الإنسان وثمن للجنة :

ولما حمل الإنسان الأمانة كُلف أن يزكي نفسه عن طريق تعريفها بالله ، وحملها على طاعته ، والتقرب إليه من أجل أن تكون هذه المعرفة ، وهذه الطاعة ، وهذا التقرب ثمناً لجنة عرضها السماوات والأرض ، فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، إلى أبد الآبدين ، فنحن في الأصل مخلوقون للجنة .

الناس قسمان : عامل للجنة وعامل للنار :

وقد انقسم البشر قسمين في ضوء هذه الحقيقة ، فقال الله تعالى :

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

(سورة النازعات)

أي أن الجنة ثمنها الانضباط ، أن تعرف الله ، وأن تنضبط بمنهجه ، وعلى هذا قال تعالى :

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى *(5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل)

صدق أنه مخلوق للجنة ، والحسنى هي الجنة ، بني على هذا التصديق أنه اتقى أن يعصي الله ، وبنى حياته على العطاء .

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

(سورة الليل)

إذاً كل شؤون حياته في اتجاه سعادته الأبدية .

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل)

الصنف الثاني كذب بالجنة ، وآمن أنه مخلوق للدنيا ، بُني على هذا التكذيب أنه استغنى عن طاعة الله، وبنى حياته على الأخذ وكل شؤون حياته باتجاه شقائه .

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

(سورة الليل)

قصة الخلق حينما قال الله تعالى :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب)

لم يكن ظلوماً جهولاً حينما قبل حمل الأمانة ، ولكن حينما خان الأمانة ولم يؤدِ الأمانة ،

(كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

4 – مقوّمات حمل الأمانة :

وذكرت في الدرس الماضي أن الإنسان حينما قبل حمل الأمانة سخر الله له :

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة الجاثية الآية : 13)

الكــون :

وأعطاه مقومات التكليف ، وذكرت أن أبرز مقومات التكليف هذا الكون الذي سخر له ، وكان التسخير تسخير تعريف وتكريم .

لذلك رد فعل التعريف أن تؤمن ، ورد فعل التكريم أن تشكر ، وأنت حينما تؤمن وتشكر حققت الهدف من وجودك ، قال تعالى :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء الآية : 147)

العقـل :

ثم أعطاه العقل ، كأداة لمعرفة الله وهو مناط المسؤولية والمحاسبة ، وهو ميزان :

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن)

والعقل مهمته التأكد من صحة النقل ، ثم فهم النقل ، ولن يكون العقل حكماً على النقل .

الفطرة :

ثم أعطاه فطرة سليمة تكشف له خطأه ذاتياً .

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس)

الاختيـار :

ثم أعطاه اختياراً ليثمن عمله :

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

الشهــوة :

ثم أعطاه شهوة كقوة دافعة ، وهي حيادية ، يمكن أن تكون قوة نافعة ودافعة ، ويمكن أن تكون قوة مدمرة .

الشــرع :

ثم أعطاه الشرع ، وأنزل الله على أنبيائه الكتب ليكون الشرع ميزاناً على ميزاني العقل والفطرة .
ذكرت هذا في درس سابق ، وأنتقل اليوم إلى تسلسل الإيمان بالله .

تسلسل الإيمان وثوابته :

الثابت الأول : الكون :

أيها الإخوة ، هناك الكون يعد الثابت الأول ، لا يختلف عليه اثنان في الأرض ستة آلاف مليون إنسان هذا الكون بين أيديهم ، وتحت سمعهم وبصرهم ، فيه شمس ، وقمر ونجوم ، ومجرات ، وأرض ، وجبال ، وسهول ، وينابيع ، وأنهار ، وبحار ، وبحيرات ، ونبات ، مليون نبع من النبات ، وأطيار ، وأسماك ، وحيوانات ، ومعادن ، وأشباه معادن ، هذا الكون هو الثابت الأول في الإيمان ، كل أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى يمكن أن يشفَّ الكون عنها .

1 – كل أسماء الله وصفاته يشفّ عنها الكون :

كل أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى ، يمكن أن تراها في الكون ، يمكن أن ترى في الكون علمَه ، يمكن أن ترى في الكون حكمته ، يمكن أن ترى في الكون لطفه ، يمكن أن ترى في الكون رحمته ، يمكن أن ترى في الكون عدله ، يمكن أن ترى في الكون قوته ، يمكن أن ترى في الكون بطشه ، كل أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى يمكن أن يشف الكون عنها ، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد .

2 – مبادئ العقل : السببية ـ الغائية ـ عدم التناقض :

وعقلك بني على مبادئ ثلاث مبدأ السببية ، مبدأ الغائية ، مبدأ عدم التناقض والكون أنظمته الأساسية لكل شيء سبب ، ولكل شيء غاية ، والتناقض لا وجود له في الكون ، مبادئ عقلك مطابقة تطابقاً تاماً مع مبادئ الخلق .
لذلك هذا العقل إذا أعملته في الكون يمكن أن تتعرف إلى الله من خلاله ، إذاً : العقل أداة معرفة الله .

3 – الكون لغة عالمية :

أيها الإخوة ، ثم أن هذا الكون لغته عالمية ، العربي يقرأ ما فيه ، والأعجمي يقرأ ما فيه ، وأهل أوربا يقرؤوا ما فيه ، هذا قاسم مشترك ، لذلك قال بعضهم : الكون قرآن صامت ، والقرآن كون ناطق ، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي ، فأكبر ثابت من ثوابت الإيمان هذا الكون الذي يشف عن وجود الله ، وعن كماله ، وعن وحدانيته ، وعن أسماءه الحسنى وصفاته الفضلى ، لكن العقل سأوضح لكم مهمته :

أنت دخلت إلى جامعة ، عقلك وحده ، تجد منشآت تتناسب تناسباً رائعاً مع حقيقة الجامعة ، مدرجات ، فيها عزل صوت ، فيها تدفئة ، فيها شاشات عارضة ، فيها تهوية ، فيها مقاعد مريحة ، فيها مكتبة ، وحدائق ، وسكن للطلاب ، وسكن للأساتذة ، وإدارة جامعة ، ومخابر ، أنت بعقلك يمكن أن تكتشف أن وراء هذا البناء تخطيطا ، وأدمغة ، ونظاما ، وخبرات متراكمة ، لكن مهما كنت ذكياً ، مهما كنت حصيفاً فلا يمكن أن تعرف ما اسم رئيس الجامعة ، لا يمكن أن تعرف ما اسم عمداء الكليات ، لا يمكن أن تعرف ما الكليات التي في الجامعة ، لا يمكن أن تعرف نظام القبول ، أو نظام النجاح والرسوب ، هذه المعلومات لا يمكن أن تكتشفها بعقلك ، لا بد من كتيب ، هذا الكتيب يتكامل مع عقلك ، هذا تمهيد .

الله عز وجل جعل هذا الكون ينطق بوجوده ، بعلمه ، بقوته ، برحمته ، بعدله بلطفه ، بجماله ، لكن لماذا خلقك الله ؟ أنزل كتاباً هو القرآن الكريم ، قال لك فيه :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

لماذا الحياة القصيرة ؟ لماذا الحياة أربعون عاما ، خمسون ، ستون ؟ قال لك في كتابه :

(وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى)

(سورة الضحى)

لماذا يأتي الأنبياء ؟ يأتي الأنبياء ليبينوا للناس علة وجودنا ، وطريق سلامتنا وسعادتنا .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

فصار الكتاب يكمل العقل ، ما عجز عقلك عن إدراكه أخبرك الله به ، هذا الكتاب لعل قائلاً يقول : إنه كلام إنسان عبقري بليغ في اللغة ، أعطاك مع الكتاب شهادة الإله العظيم على أنه كلامه ، أكبر دليل على أن هذا الكتاب كلام الله إعجازه ، يعني قبل 1400 عام نزل هذا الكتاب .

صور من حقائق كونية :

1 – ظاهرة تناثر الضوء :

وقبل عشرين عام تقريباً صعد الإنسان إلى القمر ، وفي أثناء الصعود تجاوز طبقة الهواء ، وهي تزيد عن 65 ألف كم ، فلما تجاوز رواد الفضاء طبقة الهواء صاح أحدهم بأعلى صوته : لقد أصبحنا عميا ، التفسير العلمي أن الهواء مع الشمس يشكل ظاهرة ضوئية اسمها التناثر ، أي أن أشعة الشمس إذا سلطت على طبقات الهواء عكست هذه الذرات أشعة الشمس على ذرات أخرى لم تصلها أشعة الشمس، فصار في الأرض مكان فيه أشعة شمس ومكان فيه ضياء الشمس ، وجود الضياء من دون أشعة هذه ظاهرة اسمها تناثر الضوء ، فلما تجاوزنا طبقة الهواء ألغي التناثر ، فصار الفضاء ظلاماً دامساً كالليل الأليل ، فصاح رائد الفضاء : لقد أصبحنا عمياً ، افتح القرآن :

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

(سورة الحجر)

لا يمكن أن يكون هذا الكلام كلام بشر ، مستحيل ، لأن الحقيقة التي كشفت بعد 1400 عام ذكرها القرآن قبل 1400 عام .

2 – الوردة الجورية :

أكبر وكالة فضاء (ناسا) تعرض صورة لوردة جورية ، وردة جورية ، أوراق حمراء داكنة ، حولها وريقات خضراء زاهية ، في الوسط كاس أزرق ، كتب تحته صورة لانفجار نجم اسمه عين القط ، يبعد عنا ثلاثة آلاف سنة ضوئية ، تفتح القرآن :

(انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

3 – الحاجز بين البحرين :

يكتشف رواد الفضاء من سفينة الفضاء أن بين كل بحرين خطا ، والخط تباين لونين ، هذا المنظر يثير الفضول عند علماء البحار ، يتابعون هذه الظاهرة ، فإذا بعد التحقيق والبحث ، والدرس ، والتجريب تبين لكل واحد ماءه ، لكل بحر كثافته ، لكل بحر ملوحته ولا يمكن أن تختلط مياه البحار مع بعضها

بعضا ، حتى في بعض الصور لمكان التقاء البحار كباب المندب ، أو كقناة السويس ، أو كمضيق جبل طارق ، أو كمضيق بنما ، أو بمضيق البوسفور هناك جدار بين البحرين ، تفتح القرآن الكريم :

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

4 – النطفة هي التي تحدد جنس المولود وليس البويضة :

بعد تطور علم الأجنة إلى أعلى مستوى تبين أن الذي يحدد كون المولود ذكراً أو أنثى هي النطفة وليس البويضة ، تفتح القرآن الكريم :

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى)

(سورة النجم)

5 – كل شيء في الكون يدور :

بعد اكتشاف علم الذرة أن كل شيء في الكون يدور حتى الخشب ، حتى الصخر أي شيء في الكون مؤلف من ذرات ، والذرة من نواة ، وكهارب ، ومسارات .

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

(سورة يس)

6 – أدنى الأرض : غور فلسطين :

بعد اكتشاف أشعة الليزر تبين أن أعمق نقطة في الأرض هي غور فلسطين والآية الكريمة :

(غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة الروم)

في أدنى الأرض باكتشاف أشعة الليزر تبين أن أعمق نقطة في الأرض غور فلسطين ، وتؤكد روايات التاريخ أن المعركة التي تمت بين الفرس والروم كانت في غور فلسطين .

7 – وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ :

تركب طائرة أحدث طائرة 777 ، وأنت على مقعد وثير ، والجو لطيف ، ومكيف ، وشراب متنوع ، وأطعمة فاخرة ، ومجلات ، وصحف ، وقنوات ، تفتح القرآن الكريم فتقرأ قوله تعالى :

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا)

(سورة النحل الآية : 8)

كم هي المسافة بين الحمار والطائرة ؟

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

(سورة النحل الآية : 8)

لأنه كلام خالق الأكوان :

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل)

الطائرة ، والباخرة ، والقطار ، والسيارة .

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

8 – الحكمة من تذكية الحيوان وعدم قطع رأسه :

النبي عليه الصلاة والسلام يعطي أمراً تشريعياً بعدم جواز قطع رأس الدابة حينما تذبح ، قال : اقطعوا أوداجها فقط ، هذا التوجيه لا يمكن أن يفسر في مكان في العالم ، ما الفرق بين قطع رأسها وقطع أوعيتها الدموية ؟ لا أحد يعلم ، لا في عهد النبي ، ولا بعد مئة عام ، ولا بعد مئتي عام ، ولا بعد 500 عام ، ولا بعد ألف عام ، ولا بعد 1400 عام هناك جهة في الأرض تفسر ما سر هذا التوجيه ، الآن انكشفت الحقيقة ، لأن القلب أخطر عضو في الجسم ، ولأن القلب عليه مدار الحياة ، لا يمكن أن يكون تحت رحمة الشبكة العامة الكهربائية ، لا بد له من مولد ذاتي في مركز كهربائي ذاتي ، وهذا المركز إذا تعطل في مركز ثان ، وإذا تعطل الثاني في مركز ثالث ، احتياطيان ، وأن هذا المركز الكهربائي يعطي أمر بالنبض النظامي 80 نبضة بالدقيقة فقط ، والإنسان بحاجة أحياناً إذا هاجمه عدو أن يسرع ، أو إذا واجه حيواناً مخيفاً ، أو ثعباناً في بستان بحاجة إلى جهد أعلى من 80 نبضة ، لكن العين بإدراك الخطر تنقل صورة الخطر إلى الدماغ ، والدماغ عنده مفهومات الثعبان ، مفهومات الثعبان تنبئ الدماغ أن هذا لدغته قاتلة ، فالدماغ ملك الجهاز العصبي يعطي التماسا لملكة الجهاز الهرموني ، الغدة النخامية ، تعطي أمر لوزير داخليتها ...... فيعطي أمرا إلى القلب ليرفع النبض إلى 180 نبضة ، وأمرا إلى الرئتين ليزداد الوجيب ، فالخائف قلبه ينبض سريعاً ، ورئتاه تخفقان سريعاً ، وأمرا إلى الأوعية المحيطية بتضييق اللمعة فيصفر الخائف ، وأمرا إلى الكبد بإطلاق كمية سكر استثنائية ، فالخائف سكره عالٍ ، وأمرًا إلى هرمون التجلط بإطلاق كمية إضافية فدم الخائف لزج . هذه الدابة إذا ذبحنها ، وقطعنا رأسها يبقى القلب يعمل 80 نبضة ، الثمانون نبضة تخرج ربع الدم

فقط، أما إذا أبقينا الرأس موصولا بالجسم يعمل الجهاز الاستثنائي ، فالخروف أدرك الخطر ، ارتفع النبض 180 نبضة حيث يخرج الدم كله من جسم الدابة ، تجد اللحم الذي دُبح وفق الطريقة الإسلامية أزهر اللون ، شهي المنظر ، طيب الطعم ، أما إذا دُبح بقطع رأس الدابة يبقى أربعة أخماس الدم في الدابة ، يصبح لون اللحم أزرق ، ومؤذيًا ، واللحم بؤرة جراثيم ، ليس هذا من علم النبي ، ولا من تجربة النبي ، ولا من ثقافة النبي ، ولا من معطيات بيئة النبي :

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم)

فالكون أكبر ثابت من ثوابت الإيمان .

الثابت الثاني : القرآن :

يليه في المصداقية القرآن الكريم ، كلام الله ، الكون خلقه ، والقرآن كلامه ، ولكن هذا القرآن معه شهادة من الله أنه كلامه .

لكل نبيٍّ معجزة :

إخواننا الكرام ، كل نبي معه معجزة ، والمعجزة في حقيقتها شهادة الله للبشر أن هذا الإنسان رسول رب البشر ، علامة ، إلا أن الأنبياء السابقين كانوا لأقوامهم ، فالمعجزة حسية ، سيدنا موسى ألقى عصاه :

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

(سورة الأعراف)

سيدنا عيسى أحيى الميت ، وهذا شيء فوق طاقة البشر ، سيدنا إبراهيم ألقي في النار فلم تحرقه ، هذه معجزات ، لكن هؤلاء الأنبياء لأقوامهم فقط ، أما النبي عليه الصلاة والسلام هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، هو لكل البشر أجمعين ، هو رحمة للعالمين ، هو إلى نهاية الدوران ، هو حتى قيام الساعة ، إذاً كتابه خاتم الكتب ، لا بد من أن تكون شهادة الله للخلق من أن هذا القرآن كلامه مستمرة ، المعجزة الحسية كتألق عود الثقاب يتألق مرة ، ثم ينطفئ فتصبح خبراً تصدقه أو لا تصدقه ، بينما إعجاز القرآن شهادة الله المستمرة .

في القرآن 1300 آية كونية ، سدس القرآن شهادة على خمسة أسداسه أنه كلام الله ، السدس شهادة من الله .

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا)

(سورة يس الآية : 38)

الآن ثبت أن الشمس تجري ، يعني حقائق لا تنتهي ، والإعجاز يحتاج إلى سنوات ، والآن المادة الأولى في الدعوة إلى الله الإعجاز العلمي في القرآن والسنة .

الثابت الثالث : السُّنَّة :

لكن القرآن كلي ، يحتاج إلى من يفسره لنا ، فيأتي النبي الكريم ليبين للناس ما نزل إليهم ، فبيان النبي الكريم هو شرح ، وتوضيح لمجمل القرآن الكريم ، وكأن سنة النبي هي تفسير لكلام الله ، فعندنا كون الثابت الأول في الإيمان ، وكتاب فيه كل شيء ، وإنسان سيشرح هذا الكتاب ، دليل أن الله موجود ، وواحد ، وكامل الكون ، ودليل أن هذا القرآن كلام الله إعجازه ، ودليل أن النبي رسول الله هو القرآن .

لا زلنا في العقل ، لكن بعد هذه المرحلة يأتي دور النقل ، أي شيء عجز العقل عن إدراكه أخبر الله به، صار عندنا في ديننا معقولات ، ومسموعات ، وعندنا تفكر ، ونقل ، وعندنا عقل ونقل ، وعندنا أبحاث يتولاها العقل ، وعندنا أخبار تتلقفها الأذن .

1 – إخبار الله بوجود الملائكة والجن والنار والجنة :

الآن القسم الآخر من الدين الله أخبرنا أن هناك ملائكة .

(لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

(سورة التحريم)

ما الدليل ؟ ليس عندنا دليل حسي ، بل هناك دليل إخباري ، هو إخبار الله لك .

أنت دخلت إلى بيت ، صاحب البيت كل ذرة في دمك ، وكل خلية في جسمك تؤمن أنه صادق ، وهناك خزانة مغلقة ، سألته : ما في هذه الخزانة ؟ قال لك : كتب قديمة ، الدليل الخبر فقط ، لكن لو فتحت الخزانة ترى بعينك ، وتدرك بعقلك أن هذه كتب قديمة ، أما هو فما فتحها لك ، لكنه أخبرك .

فأخبرنا الله عن وجود الملائكة ، وعن وجود الجن ، وأن هناك حياة بعد الموت فيها جنة وفيها نار ، فيها نار لا ينفذ عذابها ، وفيها جنة يدوم نعيمها إلى أبد الآبدين .

2 – إخبار الله بالماضي السحيق :

أخبرنا عن الماضي السحيق ، كيف خُلق الإنسان ، آدم وحواء ، وكيف كانا في الجنة ، فالشيطان أخرجهما من الجنة ، وأخبرنا عن الأقوام السابقة عن عاد وثمود وأصحاب الأيكة ، وقوم موسى

وهارون ، ففي ماضي سحيق ، في مستقبل بعيد ، في حديث عن الذات الإلهية .

(لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

(سورة البقرة الآية : 255)

هذا الدين العظيم فيه معقولات ، ومخبرات ، عقل ، و نقل ، الذي عجز عقلك عن إدراكه أخبرك الله به .

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ

أيها الإخوة الكرام ،

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ)

لأن الإنسان قبل حمل الأمانة كان أعلى المخلوقات ، لأنه قبل حمل الأمانة صار أعلى المخلوقات على الإطلاق ، فالملائكة دونه ، هنا السجود يعني خذوا أمري من آدم ، المعنى الدقيق للسجود أن نأخذ الأمر أمر الله عز وجل من آدم ، السجود هو الخضوع ، أنت حينما يأتيك أحياناً إنسان عادي معه أمر من الملك ، فإذا أطعت هذا الإنسان العادي هي في الحقيقة ليست طاعة له ، ولكنها طاعة للملِك ، فهنا السجود الخضوع يعني أيها الملائكة أنتم أشفقتم من حمل الأمانة ، لكن آدم قبلها ، وحملها ، فكان أعلى المخلوقات ، وسوف أنفذ له أمري ، وأنتم عليكم أن تأخذوا أمرني من خلاله :

(اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ)

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

معصية إبليس بعدم السجود معصية كبرياء وعظمة :

قال الله عز وجل :

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

(سورة الحجر)

لكن إبليس رفض أن يسجد ، قال :

(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

(سورة الأعراف الآية : 12)

الآن بدأت معصية الكِبْر ، المعاصي نوعان : معصية كبر ، ومعصية غلبة ، وأفضل ألف مَرة أن تقع في الغلبة من أن تقع في الكبر ، لأن الكبر يتناقض مع العبودية لله ، لذلك الذي يعصي الله غلبة ترجى

له التوبة ، وهو قريب من التوبة ، وربما معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً .

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ)

أي عصى :

(فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ)

(سورة الكهف الآية : 50)

لم يسجد ، هو طبعاً ليس من الملائكة ، لكن قبل أن يؤمر كان متفوقاً ، حتى ظُن أنه فوق الملائكة ، لكنه أبت نفسه أن يسجد استكباراً ، وعلواً في الأرض :

(إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ)

(فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ)

الآن أيها الإخوة ، قال الله عز وجل :

(قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

(سورة الأعراف)

إبليس أوَّل مَن سن قاعدة : أَنَا خَيْرٌ :

أنت أمام قضيب مستقيم ، وأمام خطاف يستخدم للحمل ، خطاف منحني هكذا أيهما أفضل ؟ كلام ليس له معنى ، حينما تحتاج إلى قضيب مستقيم القضيب المستقيم أفضل ، وحينما تحتاج إلى خطاف تحمل به الأشياء فالانحناء أفضل ، فأن تقول : أيهما أفضل الطين أم النار هذا كلام لا معنى له ، كل صفة تؤدي مهمتها ، أيهما أفضل سيارة سياحية أم سيارة شاحنة ؟ كلام مضحك ، ماذا تريد أن تستخدم هذه السيارة ، لنقل الركاب ؟ السياحية أفضل ، لنقل البضاعة ؟ الشاحنة أفضل ، فكل صفة لا يمكن أن تكون مفضلة إلا بحسب مهمتها ، لكن أنا أفاضل بين شاحنتين ، أو بين سيارتين لنقل الركاب ، أما أنا أفاضل بين مركبة مهمتها نقل الركاب ، ومركبة مهمتها نقل البضائع فهذا غير مقبول .

قال :

(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)

لا ، الجن لهم مهمات تخطي المسافات ، والحدود ، والسدود ، وسرعة الحركة ، والإنس لهم مهمة ، أعطي كل مخلوق الصفات التي تؤهله لتحقيق هدفه .

طبعاً قال القرآن على لسان إبليس :

(قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً)

(سورة الإسراء)

إذاً : جاء التوضيح :

(مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ)

(سورة ص الآية : 74)

بين المنع والامتناع :

الله عز وجل يقول :

(مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ)

ما الذي منعك أن تسجد ؟

والحقيقة هنا نحتاج إلى وقفة متأنية ، عندنا :

(مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ)

و:

(مَا مَنَعَكَ ألا تَسْجُدَ)

هذا يتوضح في الفرق بين المنع و الامتناع .

أحياناً تريد أن تأكل تأتي قوة قاهرة تشهر عليك سلاحاً ، فلا تأكل ، أنت الآن مُنعت أن تأكل ، لكن الأكل أمامك ، وهممت أن تأكل ، فجاء طبيب تثق بعلمه ، وأخبرك أن هذا الطعام يؤذي مرضك ، ويؤخر شفاءك ، الآن لم تمنع من أن تأكل ، ولكنك أقنعت ألا تأكل ، فامتنعت ، الفرق كبير بين أن تُمنع بالقوة ، وبين أن تمتنع اختياراً .

دقة القرآن الكريم شيء عجيب :

(مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ)

هل هناك قوة قاهرة منعتك أن تسجد ؟ وهناك آية ثانية توضح هذا المعنى :

(مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ)

من الذي أقنعك ألا تسجد ؟

الفرق بين :

(مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ)

و :

(مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ)

هو الفرق بين أن تقهر ، وبين أن تقتنع ، فيبدو أن إبليس اقتنع أن النار خير من الطين ، فقال :

(قالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ)

(سورة الحجر الآية : 33)

(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

هذا ما ترتب عن المعصية :

1 – الهبوط من الجنة :

أيها الإخوة ، لما رفض إبليس أن يسجد :

(قالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ)

(سورة الأعراف)

2 – معنى الهبوط :

الهبوط له معنيان ، هبوط مكاني ، الطائرة هبطت على المطار الفلاني ، هذا هبوط مكاني ، وإنسان كان مديرًا عاما بمؤسسة ، وباعتبار المؤسسة فخمة جداً مكتبه الفخم في الطابق الأول ، فهبطت مكانته، ووظفوه رئيس دائرة في الطابق العاشر ، نقول : هبطت مكانته ، لكن كان هو تحت ، فصار فوق ، لا ، مكانته هبطت هنا ، كان مكتبه في الطابق الأول ، لأنه مدير عام ، أصبح رئيس فرع في الطابق العاشر ، هو لم يصعد تحت ولكنه هبط ، هبطت مكانته ، هبطت سلطته ، هبط دخله .

لذلك :

(قالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا)

كنت مرشحاً أن تكون من أهل الجنة حيث فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، لكنك الآن تكبرت ، وأبيت أن تطيع الله ، وتوهمت أن النار خير من الطين ، فتستحق الآن أن تهبط منها

(فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ)

قيسوا على هذه الآية أوضاع البشر ، هذا الذي يأبى أن يطيع الله ، يتكبر أن يصلي ، يتكبر أن يسجد لله ، ترون أنتم في المناسبات الدينية المسئولون كلهم يسجدون ، هذا وسام شرف لهم ، أليس كذلك ؟ للأرض .

قال :

(إِنَّكَ مِنْ الصَّاغِرِينَ)

أما الذي يأبى أن يسجد لله فهو صغير عند الله ، تتكبر على من ؟ على خالق السماوات والأرض ، مع أن العلاقة مع الله كلما ازددت تواضعاً له وخضوعاً له أعزك الله ، أنا لا أتصور على وجه الأرض إنسان أعز الله كسيدنا محمد .

هل من المعقول لإنسان ليس مسلماً يؤلف كتابا ، يدرس تاريخ البشرية ، ويبحث من هؤلاء البشر على عظماء البشر ، عظماء البشر في كل القرون ، وفي كل القارات ، وفي كل الثقافات ، ويختار من بين هؤلاء العظام القادة العباقرة ألف إنسان ، ثم يصطفي من هذه الألف مئة ، ثم يجعل محمد بن عبد الله على رأس هذه المئة .

مرة ذكرت أقوالا لمفكري الغرب في هذا النبي الكريم ، رفعه الله عند المسلمين وعند غير المسلمين .

أيها الإخوة الكرام ، قال تعالى :

(إِنَّكَ مِنْ الصَّاغِرِينَ)

لأنك استنكفت أن تسجد تنفيذاً لأمر الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(08-60): تفسير الآيات 14 - 19 ، لماذا حقد إبليس على آدم ؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-02-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثامن من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الرابعة عشرة ، وهي قوله تعالى :

(قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة الأعراف)

أمنيةُ الشيطان : التأخيرُ إلى يومِ القيامة :

1 – هذا ما يفعله الحقد :

حينما عصى إبليس ربه ، وأبى أن يسجد لآدم ، وكان عند الله من الصاغرين ، كفعل أي مشرك حقد على آدم حقداً شديداً .

لذلك تمنى على الله أن يؤخر أجله إلى يوم القيامة ، حتى ينتقم من آدم وذريته من بعده ، فعلة أنه طلب من الله عز وجل أي يؤخر أجله إلى يوم القيامة كي ينتقم من آدم ، ومن ذريته جميعاً .

2 – المؤمنُ لا يحقد :

وهذا الموضوع يوقفنا عند نقطة : أن المؤمن موحد يرى أن الله عز وجل هو الفعال ، لذلك لا يحقد على بني البشر ، ذلك أن الله عز وجل يقول :

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

(سورة لقمان)

الصبر يحتاج إلى إيمان ، وإلى إرادة ، لكن آية أخرى تلفت النظر :

(وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

(سورة الشورى)

فائدة جليلة :

اللام لام التوكيل ، وهناك لام المزحلقة ، وهما توكيدان ، فما الفرق بين الآيتين ؟ سأوضح لكم بمثل : لو أن أباً عنده ابن يحبه حباً جماً ، وقع من الشرفة فنزل ميتاً ، ليس هناك في بني البشر من يحقد عليه، هذا قضاء وقدر من الله مباشرة ، أما حينما ـ لا سمح الله ولا قدر ـ يدهس سائق ابنه فهناك إنسان يمكن أن يصب جام غضبه عليه ، يمكن أن يحقد عليه ، لذلك جاء الصبر .

إذا كان قضاء الله وقدره على يد إنسان يحتاج إلى صبر أشد ، وإلى إيمان أشد ، وإلى إرادة اشد ، لذلك قال :

(ولَمَنْ صَبَرَ)

يعني على قضاء الله وقدره ،

(وَغَفَرَ)

لمن أجري القضاء على يديه ،

(إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

فإبليس حينما كان عند الله من الصاغرين ، وكان كما تروي بعض الكتب متفوقاً قبل أن يؤمر بالسجود، فحينما طرده الله من رحمته حقد على آدم ، لذلك قال :

(فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة الحجر)

والله عز وجل قال له :

(قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ)

(سورة الأعراف)

3 – الغاية من طلب إبليس التأخير شفاءُ الغليل من ذرية آدم :

هو طلب الإمهال ليشفي غليله من بني آدم ، لأن آدم حينما توهم إبليس جاء له بالصغار والذلة .

لذلك دققوا الآن ، الفاسد يتمنى أن يكون جميع الناس فاسدين ، والمنحرف يتمنى أن يكون جميع الناس منحرفين ، والضال يتمنى أن يكون جميع الناس ضالين .

فلذلك قد ينتقل الإنسان من حالة الضلال إلى الإضلال ، من حالة الفساد إلى حالة الإفساد ، من حالة الانحراف إلى الدعوة إلى الانحراف ، من حالة التكذيب إلى الدعوة إلى التكذيب ، هذا شأن المنحرف ، المنحرف الذي خرج عن منهج الله ، وعصى الله اختل توازنه النفسي ، وضعه غير طبيعي ، وضعه

النفسي غير سوي ، مريض ، المرض الأكبر أن توازنه اختل ، وأيّ إنسان يعصي الواحد الديان يختل توازنه ، لأن فطرة الإنسان مطبقة انطباقاً تاماً على منهج الرحمن ، الفطرة كالمنهج ، فالمجرد أن تعصي الله خرجت عن منهج الله ، أو خرجت عن فطرتك ، اختل التوازن ، وحينما يختل توازن الإنسان يحاول أن يستعيده ، فكيف يستعيده ؟ دعك من إبليس ، الله عز وجل قال :

(شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ)

(سورة الأنعام الآية : 112)

هناك شيطان من الإنس ، فلما ينحرف الإنسان ، يقصر ، يترك الصلاة ، يكذب ، يحلف يميناً كاذباً ، يأكل مالاً حراماً ، يقبل دخلاً مشبوهاً ، يقصر في واجباته ، يقصر في عباداته ، يبني مجده على أنقاض الآخرين ، يبني حياته على موتهم ، يبني غناه على فقرهم يبني أمنه على خوفهم ، يبني عزه على ذلهم، اختل توازنه ، كيف يستعيد هذا التوازن ؟

كيف يستعيد الإنسانُ توازنه بعد اختلاله بالانحراف ؟

هناك طريق واحدة سليمة وصحيحة ورائعة وبطولية ، أن يتوب إلى الله ، يستعيد توازنه فوراً ، أن يصطلح مع الله ، أن يقبل على الله ، أن يفتح مع الله صفحة جديدة ، هذا الطريق السليم ، الرجعة الرائعة ، لكن الذي خرج عن منهج الله ، وضل ضلالاً مبيناً ، وقصر في واجباته ، وأساء لخلقه ، وبنى مجده على أنقاض الآخرين ، هذا إنسان اختل توازنه ، وقد يحاول أن يستعيد هذا التوازن بمعاصٍ جديدة ، ماذا يفعل ؟ يطعن بالصالحين .

كل إنسان عاصٍ لا يصدق إنساناً نظيفاً ، يقول لك : له أهداف ، أنت تعرف الظاهر ، لأنه لما يتهم الناس جميعاً يرتاح ، يقول لك : قضية عامة ، لذلك العقل الباطل للإنسان حينما يرى إنساناً صالحاً ، منضبطاً ، سعيداً لا يصدقه ، له دخل آخر لا نعرف ، الله أعلم ، رأساً يتهمه ، بلا دليل ، بلا شيء مؤشر ، فالطعن بالصالحين من صفات الذين اختل توازنهم ، حتى الأنبياء المعصومون قيل لهم : تريد أن تتفضل علينا ، تريد أن تكون عالياً في الأرض تريد أن تستغلنا ، حتى الأنبياء ما نجو من اتهام المنحرفين .

لذلك تروي بعض القصص للعبرة فقط : أن سيدنا موسى قال في المناجاة : يا رب ، لا تبق لي عدواً ، قال : يا موسى هذه ليست لي ، هناك أعداء لله عز وجل .

فأنت اطمئن ، حينما تستقيم على أمر الله ، حينما تسعد بالله ، حينما تفتح مع الله صفحة جديدة ، حينما يكون باطنك كظاهرك ، وعلانيتك كسريرتك ، وخلوتك كجلوتك ، وحينما تقول : أنا أسعد الناس فهناك

من يشكك فيما تقول ، هناك في من يطعن ، هناك في من يقلل أهميتك ، هذا شيء طبيعي ، حتى قيل : لا بد للمؤمن من كافر يقاتله ، ومنافق يبغضه ، ومؤمن يحسده ، ونفس ترديه ، وشيطان يغويه .

إذاً : الطريق غير الصحيح لاستعادة التوازن الطعن بالصالحين ، لذلك في أي جلسة ، المتكلمون ، المقصرون ، الذين لا يعبدون الله يَدعون كل الشرائح ، وكل الأطياف ، ويركزون على الدعاة إلى الله ، بلا سبب ، وبلا ذنب ، وبلا دليل ، لكنهم إذا طعنوا فيهم يرتاحون .

مرة سألت طالبا : أين وظيفتك ؟ فقال لي : لسنا كاتبين لها يا أستاذ ، قلت له : أنت كم طالبا ؟ .

أحياناً تكون امرأة مصابة بالإيدز فتغوي 37 شابا ، كي يتوسع هذا المرض .

المنحرف يريد أن يكون الناس جميعاً منحرفين ، والمقصر يتمنى أن يكون الناس جميعاً مقصرين ، والذي يغش المسلمين يقول : الكل يغش ، ولا أستثني أحداً ، لكن حكمة الله جل جلاله يجعل الله في كل مكان ، في كل دائرة ، في كل مؤسسة ، في كل مستشفى ، في كل معمل ، في كل جامعة ، في كل مدرسة ، في كل سلك إنسان مستقيم ، هذا المستقيم هو حجة على غير المستقيم .

والله خلال تجربة مديدة ما رأيت مكاناً ، ولا مؤسسة ، ولا عملاً ، ولا دائرة إلا وفيها إنسان مستقيم يعد شاهداً وحجة على غير المسلم .

إذاً : إما أن تستعيد هذا التوازن بالتوبة إلى الله ، والصلح معه ، وإما أن تستعيد هذا التوازن بأن تطعن بالصالحين ، وإما أن تستعيد هذا التوازن بإفساد الصالحين ، وأن تجر الناس إلى معصية الله ، تجرهم إلى الفساد ، تزين لهم الدنيا ، تزين لهم المعاصي والآثام ، أو أن تتعلق بعقيدة زائغة ، أن النبي الكريم يشفع لنا ، إذاً : افعلوا ما تشاءون ، يتعلق الإنسان بعقيدة زائغة غير صحيحة ، الشفاعة حق ، لكن لمن مات موحداً ، لا لمن ارتكب كل المعاصي والآثام .

((يا فاطمة بنت محمد ، يا عباس عمر رسول الله ، أنقذا نفسيكما من النار أنا لا أغني عنكما من الله شيئا ، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم ، من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[ورد في الأثر]

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

(سورة الزمر)

أيها الإخوة الكرام ، إذاً : حينما يعصي الإنسان يختل توازنه ، فيبحث عن استعادة هذا التوازن إما أن يتوب إلى الله ، وهذا أسلم طريق ، أو أن يطعن بالصالحين ، أو أن يتعلق بعقيدة زائغة ، أو أن يفسد الصالحين .

ذهب إنسان إلى بيت الله الحرام ، وتاب هناك ، وكان يشرب الخمر قبل الحج ، له أصدقاء ، عاد من الحج تائباً ، يقول لي : مرة قال له صديق غني : كم كلفتك هذه الحجة ؟ قال له : مثلاً قصة قديمة

كلفتني خمسين ألفا ، قال له : خذ هذه الخمسين واشرب الخمر ، ثم حج ثانية وتب ، لماذا ؟ الفاسد يحب أن يفسد ، العاصي يحب أن يدعو الناس إلى المعصية .

إذاً : إما أن تفسد ، وإما أن تطعن بالصالحين ، وإما أن تتعلق بعقيدة زائغة ، وإما أن تتوب إلى الله ، أما كل إنسان يعصي الله يختل توازنه .

مِن سننِ الله في خَلقه : الموت :

لكن إبليس حينما قال :

(أنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

نسي أن لله في خلقه سننا ومن أبرز هذه السنن :

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

(سورة آل عمران الآية : 185 - الأنبياء : 35)

إذاً طلبه الذي طلبه ، وتمنياته الذي حلم بها ، أن يبقى إلى يوم القيامة لم تحقق لكن الله عز وجل في سورة الحجر قال له :

(قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ)

يعني هذا الوقت لا تعلمه أنت ، نعلمه نحن ، وهناك حكمة بالغة بالغة من أنّ أجلَ الإنسان لا يعرفه ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((أكثروا ذكر هادم اللذات ، مفرق الأحباب ، مشتت الجماعات))

[ورواه الديلمي عن أنس]

((عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي والحاكم و البيهقي عن سهل بن سعد]

((من عد غدا من أجله فقد أساء صحبة الموت))

[أخرجه البيهقي ، عن أنس]

الذي يقول مثلاً : أنا غداً أفعل كذا ، إذاً أنت أيها الإنسان لا تعرف ما الموت يأتي بغتة .

حدثني إنسان والله عن عشرين سنة قادمة ، خططه ، وسفره ، وعودته ، وإحالته على المعاش ، وإنشاء محل تجاري ، وقد كبر أبناءه ، ونوع البضاعة ، ولماذا اختار هذه البضاعة ، ثم رأيت نعيه في اليوم نفسه .

لذلك قال له :

(فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ)

وفي سورة أخرى :

(إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ)

عندنا ، لا عندك إبليس .

أيها الإخوة ، كلكم يعلم أن هناك نفختين ، لذلك قال تعالى :

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)

(سورة الزمر)

حينما يبعث الناس الذين هم في القبور ، لذلك قال الله عز وجل :

(فَإِنَّكَ مِنْ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ)

قال :

(قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

(سورة الأعراف)

الإنسان مخيَّرٌ :

أيها الإخوة ، الإغواء الإغراء بالمعصية ، لمن نسب إبليس معصيته ؟ إلى الله هؤلاء الجبريون الذين يتوهمون أن الله أجبرهم على المعصية ، ولو أن الله أجبر عباده على المعصية لبطل الثواب ، وبطل العقاب ، وانتهى الوعد والوعيد .

يا أمير المؤمنين ، أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر ؟ قال : << ويحك ، لو كان قضاءاً لازماً وقدراً حاتماً إذاً لبطل الوعد والوعيد ، ولانتفى الثواب والعقاب ، إن الله أمر عباده تخييراً ، ونهاهم تحذيراً ، وكلف يسيراً ، ولم يكلف عسيراً ، وأعطى على القليل كثيراً >> .

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية : 29)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة الآية : 148)

القرآن ينطق بأن الإنسان مخير ، بل :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

هذه الآية أصل في أن الإنسان مخير ، ولا يقول إنسان : إنه مقهور على معصية الله إلا مشرك :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

ودائماً المنحرف والمقصر والعاصي يميل إلى أن يعزو خطأه ومعصيته إلى الله ، يقول : الله ما هداني، الله كتب علي الشقاء ، ما بيدي ، من قال الأمر ليس بيدك ؟ النبي عليه الصلاة والسلام يبين أن الإنسان مخير ، والقرآن الكريم يبين ذلك .

لذلك سيدنا عمر جيء له بشارب خمر ، فقال : أقيموا عليه الحد ، قال : والله يا أمير المؤمنين إن الله قدر علي ذلك ، فقال : أقيموا عليه الحد مرتين ، مرة لأنه شرب الخمر ، ومرة لأنه افترى على الله ، قال : ويحك يا هذا ، إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار .

إبليس قال :

(فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي)

وكل كلمة تسمعها أن الله أضل فلاناً يجب أن تقف عندها ، يعني إذا في بالقرآن آيات ـ دققوا ـ إذا في بالقرآن آيات يُعزى فيها الإضلال إلى الله :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة فاطر الآية : 8 ـ النحل : 93)

الإضلال الجزائي والإضلال الحكمي والإضلال عن الشركاء :

يجب أن تقف عندها وقفة متأنية :

1 – الإضلال الجزائي :

إذا عُزي الإضلال إلى الله ـ دققوا ـ فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري ، يؤكد هذا المعنى قوله تعالى :

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف الآية : 5)

يؤكد هذا المعنى هذا المثل :

طالب في الجامعة لم يداوم ، ولم يقتن الكتب ، ولم يقدم الامتحان ، جاءه إنذار وثان ، وثالث ، ورابع ، وخامس ، لم يستجب ، صدر قرار بترقين قيده من الجامعة ، هل هذا القرار قهر له ؟ لا ، إنه تجسيد لرغبته . إذا عُزي الإضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري.

2 – الإضلال الحكمي :

وقد يُعزى الإضلال إلى الله ، ونقصد به الإضلال الحكمي .

إنسان رفض الدين كلياً ، إذاً رفض معه كل توجيهات الخالق ، رفض معه كل أسباب سلامته ، كل أسباب سعادته ، كل أسباب رزقه ، كل أسباب نجاحه ، كل أسباب توفيقه .

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآَنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء الآية : 9)

أنت حينما ترفض منهج الله معنى ذلك أنك رفضت كل ما عند الله ، هذا اسمه الإضلال الحكمي .

إنسان في طريقه إلى حمص ، وليس هناك لوحة بيانية للطريق ، وهناك طريقان ، ما عرف أين طريق حمص ، رأى رجلا واقفا قال له : بالله عليك من أين حمص ؟ قال له : من هذا الطريق ، قال له: بارك الله بك ، لما قبل هذه النصيحة قال له : بعد فترة في تحويلة انتبه لها ، وجسر ضيق ... حكى له عشرة تفصيلات دقيقة جداً ، لما قبلت هذا التوجيه استفدت من مئات التوصيات ، والنصائح ، والتعليمات .

لو سأل هذا الإنسانَ رجلٌ آخر : من أين حمص ؟ قال له : من هنا ، قال له : أنت كذاب ، هل يقدر هذا الإنسان أن يذكر له التفصيلات ، هذا المسافر ضل ، ما الذي جعله يضل ؟ أنه رفض مشورة هذا الإنسان ونصيحته .

حينما يرفض الإنسان الدين يخسر كل توجيهات الخالق ، يخسر كل تعليمات الصانع ، يخسر كل أسباب سلامته ، يخسر كل أسباب سعادته إذا رفض الدين ، هذا الإضلال إذا عُزي إلى الله يعني الإضلال الحكمي ، الأول الإضلال الجزائي .

3 – الإضلال عن الشركاء :

لكن هناك إضلال ثالث ، شيء رائع جداً ، الله عز وجل لأنه يحب عباده يضلهم عن شركائه ، واحد اعتمد على ماله ، من اعتمد على ماله قلّ ، اعتمد على ماله وقال : الدراهم مراهم ، والله وضعه

بمأزق، المال لا يفعل شيئاً ، أعطاه درسا في التوحيد ، أبعده عن الشرك ، أضله عن أن يتوهم أن المال تحل به كل المشكلات ، هذا الإضلال عن الشركاء .

إنسان اعتمد على عقله ، قال : من اعتمد على عقله ضل ، نسي المنهج ، نسي الوحي ، نسي الكتاب ، نسي السنة ، جمع طرح ، قال لك : الاختلاط ضرورة ، يهذب المشاعر ، إذا كان في المدرسة بنات وذكور تجد الذكور يتنعمون كثير ، مثلاً ، يحسنون صورتهم أمام الفتيات ، خرج بفكرة خلاف القرآن والسنة ، اعتمد على عقله فضل ، الأول اعتمد على ماله قل .

فهذا إضلال عن الشركاء ، فالصحابة الكرام هم قمم البشر ، كانوا في حنين اثني عشر ألفا ،

((ولا يُغلَبُ اثنا عشَرَ ألفاً مِنْ قِلة))

[أخرجه البيهقي من رواية الربيع بن أنس]

ومع ذلك لما قالوا في حنين :

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

إذاً : حينما ترى آية في القرآن تعزى فيها الضلالة إلى الله فهي من نوع الإضلال الجزائي ، أو الإضلال الحكمي ، أن من معنى الإضلال عن الشركاء ، لذلك قالوا : في القرآن آيات محكمة هن أم الكتاب ، وآيات متشابهة ، الآيات المتشابهات مهما كثرت تحمل على الآيات المحكمات مهما قلت .

مثلاً : أنا أقول : القمح مادة خطيرة في حياتنا ، خطيرة ؟ يعني قنبلة هو متفجرات ؟ وقد يكون مادة أساسية ، لكن كلمة (خطيرة) تحتمل أنه مادة متفجرة أو مادة أساسية ، بعد حين قلت : القمح مادة أساسية ، ما معنى خطيرة إذاً ؟ أساسية .

فالآيات المتشابهات مهما كثرت تحمل على الآيات المحكمات مهما قلّت ، فأية آية فيها إضلال :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

معنى ذلك أنه إضلال جزائي ، أو إضلال حكمي .

فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ

قال :

(فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ)

1 – بين الوقوف والقعود والاضطجاع :

الإنسان يقف ، وإذا كان واقفا حمل كل وزنه ، لأن الوقوف متعب ، أما إذا جلس فيحمل نصف وزنه ، ما دام ظهره قائما ، أما إذا اضطجع ارتاح من حمل وزنه ، الجاذبية تجذبه ، وهو مضطجع جميعاً ، وهذه أكثر الحالات راحة ، حالة أن يكون مضطجعاً ، وأصعب حالة أن يكون واقفاً ، أما حالة القعود فحالة وسط .

عندنا في الآلات استعداد ، أحيانا الآلة واقفة ، لكنها في حالة استعداد ، أو مغلقة تعمل ، فالوقوف يعمل الإنسان ، الاضطجاع مغلق ، أما القعود فهو استعداد ، لأن الوقوف من القعود سهل جداً ، أما الوقوف من الاضطجاع فصعب .

لذلك الشيطان إبليس اللعين قال له :

(لَأَقْعُدَنَّ)

قال الله :

(وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ)

(سورة التوبة الآية : 5)

لا تناموا ، إذا كان عدوك نملة فلا تنام له ، لا تنام له ، أي كن يقظاً ، هذا الشيطان قال :

(لَأَقْعُدَنَّ)

أنا مستعد ، أنا قاعد ، و في أية لحظة أكون واقفاً .

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ)

لذرية آدم .

(صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

لما يختار إنسان الضلال يكون الشيطان بعيدا عنه ، لأنه حقق هدف الشيطان .

يروى من باب الطرفة أن رجلاً سأل الشيطان : ماذا أفعل ؟ عنده مشكلة ، قال له : افعل كذا ، قال له : فعلته ، افعل كذا قال : فعلته ، عرض عليه عشر حالات ، كلها فعلها ، قال له : لم يعد عندي ، بعد هذا قال له : ماذا تريد أن تفعل ؟ قال له : كذا وكذا ، قال له : اتق الله يا رجل .

الشيطان جاهز بكل الطرق والتلبيسات :

(لَأَقْعُدَنَّ)

الشيطان جاهز ، أولاً : يغريك بالكفر ، فإن لم يستطع أغراك بالشرك ، إن وجدك على توحيد أغراك بالكبائر ، إن وجدك على طاعة أغراك بالصغائر ، إن وجدك على ورع أغراك بالشبهات ، إن وجدك على يقين الآن يغريك بالتحرش بين المؤمنين ، فإن لم يستطع فآخر ورقة رابحة يغريك بالمباحات .

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

أما المنحرف ، العاصي ، الفاجر ، شارب الخمر ، المجرم ، الشيطان لا يحتاجه ، لأنه يحقق كل أهدافه من دون جهد ، يقول لك الفاسق : أنا مرتاح ، يقول لك المؤمن : بعدما تبت إلى الله عندي وساوس صعبة ، شيء طبيعي جداً .

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

الشيطان قاعد على الطريق المستقيم إلى الرحمن ، أما طريق الغواية ما في شياطين .
مرة سألني رجل أن هؤلاء الأجانب ما عندهم صحون ، الصحون فيها مضمون إباحي ، هم إباحيون ، حياتهم اليومية مضمون الصحون .

(قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

(سورة الأعراف)

الجهات التي يأتي منها الشيطان :

1 - مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ

(بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

الآخرة ، الشيطان هدفه الأول أن يشكك بالآخرة ، التشكيك بالآخرة ، أو أن تأتي بمفهوم للشفاعة ساذج، هذا اليوم يوم الدين يوم عصيب .

(عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)

(سورة المدثر)

الشيطان عنده أقوال ، يقول لك : من هنا إلى يوم الله يفرجها الله ، عنده أساليب كثيرة كي يشكك من هذا اليوم الخطير

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

أو إذا كانت أنماط الحياة المعاصرة فيها اختلاط ، فيها فجور ، فيها غناء ، فيها مسلسلات ، فيها أفلام إباحية ، فيها نوادٍ ليلية هذه الحياة حياة راقية ، هذا مجتمع مخملي ، راق ، هو مجتمع الجنفيص وليس المخملي ، يزين لك الحياة الدنيا الفسق ، والفجور ، وأماكن اللهو ، السياحة ، السفر ، الانغماس في الملذات ، يقول لك روح رياضية ، والآن هناك كلمة مشهورة (الأمر عادي) تجلس مع صديق زوجها على انفراد في البيت ،(عادي) ، عادي ، يعني أنه حلال ؟! ما معنى كلمة عادي ؟ ما لها معنى ، ترتكب جميع المعاصي والوضع عادي ، طبيعي ، تظهر كل مفاتنها والطبيعي عادي ، كله عادي .

لذلك الشيطان يقول :

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

بين أيديهم الآخرة ، يظن :

(إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا)

(سورة المؤمنين الآية : 37)

والجنة هي في الدنيا ، الغني في جنة ، والفقير في جهنم ، أو الأشياء المستحدثة التي فيها فسق وفجور يرحب بها كثيراً ، مهرجانات الأعمال الفنية الساقطة يهتم بها كثيراً ، كل المعاصي والآثام المعاصرة يحفل بها ويعتني بها ، ويبين أنها حضارة ورقي ، ورقص الباليه شيء راق جداً مثلاً ، أو الفنون الجميلة حيث الصور عارية تماماً ، فن جميل ، يا أخي ، إن الله جميل يحب الجمال ، فكل شيء بين أيدي الحياة المعاصرة لو صادم الشريعة والحقيقة يحفل به .

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

2 – وَمِنْ خَلْفِهِمْ

خلفه ذرية ، يرتكب المعاصي من أجل ذريته .

يا أهلي يا ولدي ، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي ، جمعت المال مما حل وحرم ، فأنفقته في حله وفي غير حله ، فالهناء لكم والتبعة علي .

أندم الناس غني دخل ورثته بماله الجنة ، ودخل هو بماله النار ، ترك لهم مالاً يرثونه حلالاً ، هم أنفقوه في طاعة الله ، فدخل ورثته بمال أبيهم الجنة ، ودخل الأب بماله الغير مشروع النار .

لذلك مرة قرأت أربعة أدعية مؤثرة جداً :

اللهم إني أعوذ بك أي يكون أحد أسعد بما علمتني مني .

أنت تشرح حديثا شرحا دقيقا مع الأدلة ، مع التحليلات العميقة ، مع اللغة الناصعة ، لكنك لست مطبقاً له ، فيأتي إنسان بسيط أخذ المعنى ، وطبقه ، وسعد به ، اللهم إني أعوذ بك أي يكون أحد أسعد بما علمتني مني .

اللهم إني أعوذ بك أن أتزين للناس بشيء يشينني عندك .

يوم الجمعة ثياب بيضاء بالصيف ، أو بالشتاء ألوان مرتبة تمام ، ومعطر بالمسك ، هذا عطر العود غال ، وذاهب إلى الجامع ، لكن أين كان الخميس في الليل ؟ لا نعرف ، اللهم إني أعوذ بك أن أتزين للناس بشيء يشينني عندك .

اللهم إني أعوذ بك أن أقول قولاً فيه رضاك ألتمس به أحد سواك .

كلمة حق قيلت بالباطل ، كلمة حق أريد بها باطل .

وآخر دعاء :

اللهم إني أعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك .

أي أكون قصة .

للتقريب : يمكن أن يكون في مسرحية ، خشبة مسرح ، فيها مقاعد للمشاهدين ، فالإنسان إذا كان له مقعد مع المشاهدين يرى ما على المسرح ، أما إن لم يكن مستقيماً سيجر إلى خشبة المسرح ، وسيعاقب أشد العقاب ، ثم يكون قصة للمشاهدين قال الله تعالى :

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

(سورة المؤمنون الآية : 44)

إذاً :

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

(مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

الآخرة والمستجدات التي تتصادم مع الدين .

(وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

الأولاد من أجل أولاده يكسب المال الحرام يطعمهم الطعام الحرام ، أو ما قبل الإسلام ، نعتني كثيراً بالفراعنة ، بالذين جاءوا قبل الإسلام بكثير نراهم هم التاريخ .

3 – وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

يأتيك من باب الطاعات ، فيقول لك : الصلاة غير صحيحة ، إذاً لا تصلي ، يقول لك : هذه ليست صلاة ، الصلاة بكاء ولا تبكي ، لا تصلي ، أنت لست مطبقا لكلام الشيخ ، فلا تذهب ، ناصحك ، كمثل مريض ، قال له : أنت مريض ، لا تستحي أن تذهب إلى الطبيب ، أنا أذهب إليه كي أشفى ، دائماً يمنعك عن مجلس علم ، ويقول لك : يأخذون اسمك ، مثلاً ، يمنعك عن مجلس علم ، يمنعك عن طاعة، عن أداء عبادة ، عن عمل صالح عن دفع صدقة ، يخوفك دائماً ، هذه :

(عَنْ أَيْمَانِهِمْ)

أو يدخلك بالوسواس ، الوضوء ما صح ، توضأ مرة ثانية ، مرة ثالثة ، مرة رابعة ، تشعر ببلل خفيف فالوضوء ما صح ، يدخلك بالوساوس المتسلطة ، هذه :

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

4 – وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ

(وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

المعاصي والآثام ، وأكبر شيء من صفات المنحرفين :

وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ

دائماً يتبرم ، دائماً يشكو ، دائماً يسخط ، كل شيء لا يعجبه ، يكون عنده بيت ، وعنده مركبة ، وعنده زوجة ، وعنده أولاد ، وله دخل ، السخط ، والتأفف والنقد من صفات التائهين عن الله عز وجل .

كان عليه الصلاة والسلام تعظم عنده النعمة مهما دقت ،

(وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

أيها الإخوة ، النبي عليه الصلاة والسلام كانت تعظم عنده النعمة مهما دقت .

الآن الله عز وجل يقول :

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

(سورة إبراهيم الآية : 34)

قال رجل لإنسان : خذ هذه الليرة وعدّها ، لا تُعَد ، المعنى أن النعمة الواحدة لو أمضيت كل حياتك في سبيل إحصاء بركاتها لا تستطيع ، ودائماً الإنسان عاجز عن شكر النعمة ، فلأن يكون عاجزاً عن شكرها من باب أولى .

بربك لو أنجبت مولوداً مباركاً ، وجاءتك مئة هدية ، إحصاء هذه الهدايا يتم في ربع ساعة ، أمّا تأدية ما يقابلها فتحتاج إلى وقت ، وإلى مال ، ونفقات كبيرة .

نحن عاجزون عن إحصاء النعمة الواحدة ، فلأن نكون عاجزين عن شكر النعم كلها من باب أولى .

(وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

ثم إن الله سبحانه وتعالى يقول :

(قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة الأعراف)

والتي بعدها :

(وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأعراف)

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس التاسع من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثامنة عشرة ، وهي قوله تعالى :

(قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة الأعراف)

وقبلها :

(قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة الأعراف)

خطة الشيطان :

1 – إن ربك لبالمرصاد :

أيها الإخوة ، بلغ الغرور للشيطان أنه رسم خطة ، وظن أن هذه الخطة ستنجح ، وهذا يذكرنا بقوله :

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا)

(سورة الأنفال الآية : 59)

أي أن الذين كفروا حسبوا أن يفعلوا شيئاً ما أراده الله ، أو أن يتفلتوا من عقاب الله .

أيها الإخوة ، لمجرد أن تتوهم أنك تستطيع أن تفعل ما تشاء فأنت لا تملك من الإيمان شيئاً ، إبليس توهم أنه سيرسم خطة ينتقم بها من آدم الذي أبى أن يسجد له ، وصار من الصاغرين ، وينبغي أن ينتقم منه ومن ذريته إلى يوم القيامة ، فلذلك قال الله له :

(قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا)

ماذا تذكرنا كلمة :

(اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا)

المؤمن محمود عند الله ، وعند الخلق ، وعند نفسه ، وغير المؤمن مذموم عند الله ، وعند الخلق ، وعند نفسه .

2 – إياكم وانهيار الإنسان الداخلي :

وقد لا ننتبه من انهيار الإنسان من داخله ، لأن فطرة الإنسان متطابقة مع الشرع تاماً تطابقا ، فإذا بنى مجده على أنقاض الآخرين يختل توازنه ، وتنهار نفسه ، ويحتقر ذاته ، وقد يكون عند الناس ، لكن الأعمال السيئة تدرك بالفطرة ، والفطرة تعذب صاحبها ، فهؤلاء الذين اصطلحوا مع فطرهم ، واصطلحوا مع ربهم ، بمعنويات عالية جداً ، لأنهم انتصروا مع أنفسهم ، لكن هؤلاء الذين بنوا مجدهم على أنقاض الآخرين ، وبنوا حياتهم على موتهم ، وأمنهم على خوفهم ، هؤلاء سقطوا من الداخل ، هذا اسمه انهيار داخلي ، أو اختلال توازن داخلي ، أو احتقار الذات ، قد يكون عند الناس عظيماً مبجلاً محترماً ، لكنه في الحقيقة يحتقر ذاته .

قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا

أيها الإخوة ،

(قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا)

الاحترام والسمعة الطيبة من صفات المسلم :

يقابل هذا المعنى أن النبي عليه الصلاة والسلام من أسمائه محمود ، أي محمود عند الله ، ومحمود عند الناس ، ومحمود بين أهله ، ومحمود عند نفسه ، احترام المرء لذاته لا يقدر بثمن ، أن تكون مستقيماً وصادقاً ووفياً ، ومنصفاً ، وعزيز النفس ، ولو كنت في المرتبة الدنيا من المجتمع ، ولو كنت مستخدماً، الذي يطيع الله عز وجل يشعر بعزة .

يروى أن سيدنا الحسن مشى مشية فيها زهو ، فقيل له : يا ابن رسول الله ، ما هذا ؟ قال : هذا عز الطاعة .

المؤمن عزيز ، فإبليس لأنه كاد لآدم ولبنيه من بعده ، وقرر أن يغويهم أجمعين انتقاماً من آدم الذي لا علاقة له بصغاره ، هو أبى أن يسجد ، فكان عند الله من الصاغرين ، أراد أن ينتقم من آدم ومن ذريته أجمعين فقال :

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

والآية شرحت في اللقاء السابق .

تمهيد للآية :

1 – بين العقل والذكاء :

أيها الإخوة ، هذا يقودنا إلى موضوع دقيق ، هو أن الإنسان عنده ذكاء ، وعنده عقل ، والعقل شيء ، وقد يظن الناس أنهما شيء واحد ، لأنه قيل : ما كل ذكي بعاقل ، فقد تملك دماغ بمستوى عالٍ جداً ، وهذا المستوى يقاس الآن في علم النفس بعلامات ، معظم الناس يحتلون درجة مئة ، والعباقرة 140 ، والأغبياء في الثمانين ، بالحد الوسط مئة ، هناك عباقرة ، هناك قادة ، هناك نجوم ، هناك متفوقون ، هؤلاء ذكاؤهم بأعلى مستوى ، لكن ما كل ذكي بعاقل ، قد تتقن عملاً ، قد تبرع في كشف شيء ، قد تخترع شيئاً ، قد تملك ذاكرة قوية جداً ، قد تملك ملاحظة قوية جداً ، قد تملك قوة محاكمة كبيرة جداً ، لكن لأنك لم تعرف ربك ، ولم تعرف سر وجودك ، ولم تعرف غاية وجودك ، ولم تستقم على أمر ربك ، ولم تتقرب إليه ، ولم تضع الآخرة نصب عينيك ، ولم تعمل للجنة ، فأنت لست عاقلاً ، الإنسان يكون عاقلاً إذا عرف سر وجوده ، وغاية وجوده ، يكون عاقلاً إذا عرف ربه .

2 – ذكاءٌ إبليسيٌّ :

فإبليس في أكثر الكتب تشهد له بالذكاء ، بمعنى أنه بارع جداً في إضلال البشر ، هذا الذي يخترع سلاحا فتاكا ، وليكن سلاحا جرثوميا ، أو سلاحا كيماويا ، وآثار السلاح مخيفة ، لا شك أنه ذكي جداً ، لكنه ليس عاقلاً ، لأنه كان أداة لهدم المجتمعات ، وإنزال المصائب ببني البشر ، هذه كلمة دقيقة : ما كل ذكي بعاقل ، العاقل من عرف الله .

ولما مشى النبي عليه الصلاة والسلام ، ورأى مع أصحابه مجنوناً ، وسأل من هذا ؟ طبعاً سألهم سؤال العارف ، قالوا : مجنون ، قال : لا ، هذا مبتلى ، المجنون من عصى الله .

3 – إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا

أيها الإخوة ،

(قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا)

ثم قال لنا في سورة أخرى :

(إنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كَانَ ضَعِيفاً)

(سورة النساء)

صحيح هو الشيطان يتمنى إغواء بني آدم ، لكن الله طمئننا .

(ِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(سورة الإسراء الآية : 65)

اطمئنوا .

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم الآية : 22)

الشيطان ليس له علينا سلطان ، والشيطان ليس له على عباد الله سلطان ، والشيطان يحترق بكلمة واحدة ، (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا)

(سورة الأعراف)

تملك أن تقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فينتهي دور الشيطان ، لذلك قال الله تعالى :

(إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا)

كائن قوي ، ومعك سلاح فتاك ، ولا يملك مثل هذا السلاح ، عن بُعد شديد تصوب نحوه فتقتله ، انتهى الأمر ، هكذا الشيطان . أيها الإخوة ، لكن حينما قال :

(إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

(سورة يوسف الآية : 28)

4 – إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ

الشيطان كيده ضعيف ، والمرأة كيدها عظيم ، لأنك بحاجة إليها ، ولأن جزء من كيانك متعلق بها ، لذلك تعرف كيف تُضعف من تعلق بها ، ولا يكون المؤمن مؤمناً إلا إذا كان حراً من كل الشهوات ، لا أقول : أن لا يقبل عليها بالحلال ، لا ، ليس هذا هو المعنى ، لكن :

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة]

تعس عبد الفرج ، وبالمقابل سعد عبد الله ، عبد الله حر ، يتزوج ، ويُكرم بزوجة ، تسره إن نظر إليها، وتطيعه إن أمرها ، وتحفظه إن عاب عنها ، ولكن ليس عبداً لها .

صحابية ضغطت على زوجها من أجل حاجة دنيوية ، فقال زوجها الصحابي الجليل : << اعلم أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلت إحداها على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر ، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أن أضحي بهم من أجلك >> .

فلذلك :

(إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا)

وبالمقابل :

(إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ

ثم يقول الله عز وجل :

(وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأعراف)

1 – ما هي الجنة المقصودة في هذه الآية ؟

أية جنة هذه ؟ هناك من يظن أنها جنة الآخرة ، جنة الآخرة من خصائصها أن من دخلها لا يخرج منها ، والدليل :

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

(سورة الحجر)

وجنة الآخرة تأتي بعد التكليف ، لا قبل التكليف ، وكلمة جنة يعني مكان محجوب عن الآخرين ، منها المِجنّ .

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ)

(سورة الأنعام الآية : 76)

والمجن هو الترس ، والجنة لا يطلع من كان خارجها على ما فيها ، فأي مكان جميل محاط بأسوار هو جنة ، على كلٍ أكثر المفسرين على أن الجنة التي كان فيها آدم عليه السلام هي جنة في الأرض ، والذي يتوهم أن البلاء كله من حواء التي أغرته بأكل التفاحة من الشجرة فاستحق هو وزوجته أن يخرجا هذا كلام مضحك ، لأن الله عز وجل يقول :

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة الآية : 30)

أنت أيها الإنسان مخلوق في الأرض ، وما كان آدم في الجنة إلا ليتلقى درساً بليغاً له ولذريته من بعده، الدرس البليغ :

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً)

(سورة فاطر الآية : 6)

درس بليغ ، قد يكون في الأرض كذب ، لأن الشيطان قاسمهما :

(وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ)

(سورة الأعراف)

كان كاذباً بهذا القسم ، فدرس كبير أن الشيطان عدو للإنسان ، ودرس آخر أن هناك شيء اسمه الكذب، وكذب الشيطان عليهم .

2 – الأرض موطن الامتحان :

على كلٍ أيها الإخوة ، أريد أن أبين أن الله سبحانه وتعالى جاء بآدم إلى الأرض ليمتحن فيها ، ومعه أوامر ونواهٍ ، افعل ولا تفعل ، مهمة الشيطان أن يوسوس لك ، وأن يغريك بالذي أمرت أن تفعله ألا تفعله ، ومهمة الشيطان أن يوسوس لك ، وأن يغريك بالذي نهيت على فعله أن تفعله ، هذه بشكل دقيق وموجز مهمة الشيطان أن يبعدك عن طاعة الله وأن يقربك من معصية الله ، أن يغريك بالدنيا ، وأن يزهدك بالآخرة ، أن تسير بعكس منهج الله ، أن تتفلت من منظومة القيم التي أرادها الله لك ، وقد يقول بعضهم ما معنى قوله :

(يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ)

(سورة ق)

قال بعض المفسرين : إن الجنة تتسع لبني البشر جميعاً لو أنهم جميعاً آمنوا ، وأن النار تتسع لبني البشر جميعاً لو أنهم كفروا .

أحيانا يدعو إنسان مئة شخص ، ويهيئ مكانا لتسعين ، متوقعاً أن البعض لا يأتي ، لو أنهم جاءوا جميعاً ، وفاجئوه لم يكن مستعدا .

لكن الله سبحانه وتعالى يطمئننا أن الجنة تتسع لكل الخلق ، لو أنهم عرفوه ، وأن النار تستوعب كل الخلق لو كفروا .

أمرٌ ونهي لآدم وحواء :

1 – الأمر : فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا

أيها الإخوة ، الذي يلفت النظر ، قال تعالى : * فَكُلَا مِنْ * ـ من الجنة ـ * حَيْثُ شِئْتُمَا * ، يعني يا آدم ويا حواء كلا من الجنة

(حَيْثُ شِئْتُمَا)

هناك مئة نوع ، ألف نوع ، عشرة آلاف نوع ، مليون نوع ،

(فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا)

2 – النهي : وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ

أما المحرم :

(وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ)

ونسبة الحلال إلى الحرام ملايين الأضعاف ، أو نسبة الحرام إلى الحلال واحد بالمليون ، كم نوعا من الشراب المباح في حياتنا ؟ والله أكثر من مئة نوع تقريباً ، وهناك أكثر مئة نوع من الشراب محرم الخمر ، كم نوعًا من اللحم أبيح لنا ؟ والله مئات الأنواع ، المحرم لحم الخنزير ، ودائماً نسبة الحلال إلى الحرام أضعاف ، مئات الأضعاف ، ألوف الأضعاف ، بل ملايين الأضعاف ، الحرام في الأرض هو امتحان من الله .

وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ

الآن :

(وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ)

1 – هامش الأمان :

قد يُظن أنه أمِرا أن يأكلا من حيث شاءا ، ولا يأكلا من هذه الشجرة ، الآية ليست كذلك :

(وَلَا تَقْرَبَا)

أيْ يجب أن تدع بينك وبين المعصية هامش أمان ،

(وَلَا تَقْرَبَا)

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

(سورة الإسراء الآية : 32)

في الدنيا ، الزنا محرم ، لكن مقدماته محرمة أيضاً ، أن تتنزه في طرقات فيها غاديات ورائحات ، كما أن الزنا محرم أسبابه محرمة ، إطلاق البصر محرم ، التنزه في الطرقات ، فيها ملاحظة شديدة ، الحديث عن النساء ، صحبة الأراذل ، إطلاق البصر ، عدم التفريق بين الأولاد في المضاجع ، الاختلاط ، أن تقرأ قصة ماجنة ، أن تشاهد عملاً إباحياً ، كل المقدمات التي تقود إلى الزنا محرمة ، لأنه ما لا يكون الحرام إلا به فهو حرام ، ما يتوصل به إلى معصية فهو معصية ، من هنا جاءت الآية دقيقة :

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

فالله عز وجل نهى آدم عن أن يقترب من الشجرة .

تماماً لو كتب وزير الكهرباء على بُعدٍ كافٍ من تيار التوتر العالي لوحة : " ممنوع الاقتراب " ، والتيار له مسافة معينة إذا دخل فيها الإنسان جذبه ، وأصبح فحمة ، فالإعلان الحكيم لا يكون : ممنوع مس التيار ، الإعلان الحكيم : " ممنوع الاقتراب من التيار " .

2 – الشريف من يفرّ من أسباب المعصية :

(وَلَا تَقْرَبَا)

لذلك من هو الشريف ؟ لا الذي يهرب من الخطيئة ، لكنه الذي يهرب من أسباب الخطيئة ، كجلسة لا تليق أن يكون فيها ، أو مكان لا يجوز أن يكون فيه نزهة ليست منضبطة ، حفل ليس منضبطاً ، لقاء مختلط ليس منضبطاً ، لا الحديث منضبط ، ولا الثياب منضبطة ، تجارة فيها شبهات كثيرة ، فإذا شاركت تاجراً لا يقدم عنده الأمر ولا يؤخر لا ينبغي أن تكون معه .

(وَلَا تَقْرَبَا)

أعطاك الاحتياط ، لذلك قال تعالى :

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

(سورة البقرة الآية : 187)

يجب أن تبقي بينك وبين كل معصية هامش أمان ، كأن المعصية نهر عميق وله شاطئان ، شاطئ زلق مائل ، وشاطئ مستوٍ جاف ، فالمشي على الشاطئ المستوي الجاف فيه أمان واطمئنان ، بينما المشي على الشاطئ المائل الزلق هناك احتمال كبير جداً أن يسقط الإنسان في النهر .

لذلك :

(وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ)

(وَلَا تَقْرَبَا)

إذاً : المؤمن يهرب من أسباب الخطيئة ، المؤمن يدع بينه وبين الخطيئة هامش أمان .

3 – وجوب الابتعاد عن الشبهات :

المؤمن يبتعد عن الشبهات .

((الحَلالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُما مُشْتَبِهاتٌ))

[متفق عليه عن النعمان بن بشير]

فمن ترك الشبهات فقد حصن نفسه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام .

أيها الإخوة ،

(وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ)

أيضاً قال تعالى :

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ)

(سورة الحج الآية : 30)

حتى في العقائد تجلس مع أناس عقائدهم زائغة ، ولا تستطيع أن تقنعهم ، ولا تملك الحجج القوية على ذلك ، فزينوا لك الباطل ، والانحراف ، والتفلت ، وإنكار الوجود الإلهي أن إن لم تكن قوياً تستطيع أن تدحض افتراءاتهم ينبغي أن تبتعد عنهم ، والمقياس في ذلك لعبة شد الحبل ، إن جلست معهم ومعك من القوة النفسية ، والحجة العقلية ، والأدلة الشرعية ما تشدهم إليك اجلس معهم لا مانع ، أما إذا كنت أضعف ممن تقنعهم بل أقنعوك ، إذا كنت أضعف ممن أن تجرهم إليك فجروك إليهم ، إذا كنت أضعف من أن تأتيهم بالأدلة فجاءوك بأدلة مضادة ، إذاً ولا تقربهم .

المؤمن يحتاج إلى حمية ، فقد يخاف على عقيدته من الشبهات ، وقد يخاف على سلوكه من الشهوات ، الشهوات لها مشكلة ، والشبهات لها مشكلة ، الشبهات عقدية والشهوات سلوكية .

(وَلَا تَقْرَبَا)

نحن أمام درس بليغ يتلقاه سيدنا آدم من ربه ، أولاً الحلال لا يعد ولا يحصى ، والحرام محدود .

ثانياً : العقائد أخطر شيء في حياة الإنسان ، فإن لم تكن متمكناً بأدلة عقلية ونصيّة ، وإن لم تملك قوة نفسية فابتعد إلى أن تقوى .

فلذلك كما قلت قبل قليل : لعبة شد الحبل ميزان في أن تلتقي مع الآخرين ، وأن لا تلتقي ، إن شددتهم إليك فالتقي معهم ، وإن شدوك إليهم ابتعد عنهم .

ليست هذه الجنة بجنة الآخرة :

أيها الإخوة ،

(وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ)

يعني الجنة التي في الأرض ، لكن كان لهما طبيعة خاصة ، وقد يكون الإنسان له جسم وله نفس ، فإن كانت نفسه غلافاً لجسمه تستمتع بكل شيء من دون عبء .

للتقريب : إذا نظرت إلى تفاحة وصلتك لذتها ، أنت في الدنيا تأكل تفاحة ، تشتريها ، تغسلها ، تقشرها، تقطعها ، تأكلها ، تعضها أولاً ، تمضغها قبل أن تبلع اللقمة يضغط اللسان على اللقمة إلى سقف الحلق ، هناك أعصاب الذوق تشعر بطعمها ، لكنها دخلت إلى جوفك أصبحت عبئًا عليك .

أحيانا يأكل الإنسان أكثر من حاجته ، وهناك طعام غير جيد ، لكن هذا تحليل ظني .

لكن في الجنة كيف أن شعلة الشمعة محيطة بالفتيل ، في الجنة النفس محيطة بالجسد ، يمكن أن تأكل مليون تفاحة ، وأن تأكل في مليون وليمة دون أن تحس بالتخمة ، لأن النفس خارجية ، والنفس اتصلت اتصالا مباشرا مع هذه الأشياء الطيبة ، فاستمتعت بها دون أن يكون هناك جهاز هضم ، وفضلات ، وخروج ، وبول ، كل هذه المتاعب ليست في الجنة .

فالشيطان جاء دوره ، وعندنا دليل آخر ، إذا كانت هذه جنة الآخرة فكيف يكون الشيطان فيها ؟ أيضاً مستحيل ، جنة الآخرة تأتي بعد التكليف ، جنة الآخرة من دخلها لا يخرج منها ، أو لا يُخرج منا ، جنة الآخرة ليس فيها مكان للشياطين .

(فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآَتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ)

(سورة الأعراف)

فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ

1 – معنى الوسوسة :

أيها الإخوة ، وسوس أي همس سراً ، مزيناً أو مغوياً ، الواحد لو فرضنا اقترب من شخص قريباً جداً

، وشده إليه ، وأمسكه من ذقنه ، وأدار أذنه إلى فمه ، وقال له : اجتهد ، هذا كلام مضحك ، الاجتهاد لا يحتاج إلى همس ، قل هذه الكلمة بصوت مرتفع ، لماذا الهمس ؟ للمعصية ، لاختلاس الأموال ، لتلقي الأموال الباطلة ، بالإشارات درج مفتوح فقط ، الشيء الحرام لا يتم علانية ، يتم سراً ، هذا معنى وسوس ، والوسوسة فعل ثنائي مضعف ،(وس وسَ)(زل زلَ)(قل قلَ)(عس عسَ)
وسوس يعني ألقى في أذنه همساً مغرياً إياه بالمعصية الوسوسة لا تكون إلا بالشر .

2 – بين إلهام الملك ووسوسة الشيطان :

لذلك كمصطلح الملك يُلهم ، والشيطان يوسوس ، والحقيقة أنك مخير ، وأحياناً تأخذ وضعاً سكونياً ، يقال لك : تحرك ، إما أن تستجيب للملك فتأتي إلى المسجد ، وإما أن تستجيب إلى الشيطان فتذهب إلى الملهى ، تحرك فقط ، ليس هناك إسلام سكوني ، وكأن إلهام الملك ووسوسة الشيطان من أجل أن تتحرك .

الطالب في الامتحان لا يكتب ، يقول له المراقب : انتهينا ، إما أن تكتب أو اخرج ، وضع صعب جداً، أصعب وضع أنه لا يكتب ولا يخرج ، لا حرب ، ولا سلم ، هذا من أصعب الأوضاع .

(لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا)

(سورة طه)

فالشيطان وسوس ، همس مغرياً إياه بالمعصية ، والوسوسة بالشر ، إذاً أمُّنا حواء لم تكن السبب إخراجنا من الجنة لئلا تتهم ظلماً ، البشر في الأرض كلهم يتهمون أمنا حواء بأنها السبب ، الآية :

(فَوَسْوَسَ لَهُمَا)

هي ضحية أيضاً

(فَوَسْوَسَ)

لا وسوست له :

(فَوَسْوَسَ لَهُمَا)

هذه الآية واضحة ، فأمّنا حواء بريئة من هذه التهمة .

(فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا)

3 – تبعات الوقوع في المعصية :

(فَوَسْوَسَ لَهُمَا)

أن يدخلا التفاحة إلى جوفهما ، إذا دخلت صارت في المريء ، وفي المعدة ، حيث الهضم ، والمرارة، والبنكرياس ، والأمعاء الدقيقة ، والأمعاء الغليظة ، والفضلات ، والخروج ، والروائح ، والحمامات ، هنا اختلف الوضع ، كان آدم وزوجته حواء يستمتعان بالجنة من دون أعباء ، من دون متاعب إطلاقاً ، فلما أكلا من هذه الشجرة انعكست خصائص النفس فأصبحت النفس في الداخل ، والجسم في الخارج .

الإنسان بين طبيعة الحياة الأرضية وطبيعة الحياة الأخروية :

مثلاً : الإنسان في الجنة ، لو فرضنا الأرض كلها جنة ، ابنه في أمريكا ، خطر في باله ابنه ، فاطلع فرآه أين هو جالس ، أما لما تكون النفس داخل الجسم يحتاج أن يأخذ الفيزا ، وقد تستغرق شهرا أو شهرين ، ويركب طائرة عشرين ساعة ، وهناك وقفة في المطارات ، أصبح جسمه هو الأصل ، في الجنة النفس هي الأصل ، قال :

(إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ)

(سورة الصافات)

(فَاطَّلَعَ فَرَآَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ)

(سورة الصافات)

نظرة ، بالجنة أنت كلك أعين ، كلك آذان ، كلك مشاعر ، كلك أحاسيس ، أنت بالجنة تأكل ما تشاء ، وبأكبر كمية تشاء ، دون أن يكون الأكل عبئاً عليك .

(فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ)

لما وسوس لهما ، وأقنعهما بأكل التفاحة دخلت التفاحة إلى الجوف ، والنفس أصبحت في الداخل ، والجسم بالخارج ، وصار الطعام عبئًا ، وصار يحتاج إلى سعي ، أنت في الجنة لا تجوع فيها :

(وَلَا تَضْحَى)

(سورة طه)

في الدنيا جوع ، ويريد الإنسان أن يأكل ، إذاً : ينبغي أن يعمل ، ينبغي أن يخرج من البيت الساعة الخامسة صباحاً ، هناك عمل ، هناك جهد ، هناك مؤسسات ، هناك شركات ، هناك دوام ، هناك تأخر، هناك عقاب ، هناك عمل ثماني ساعات ، من أجل أن تأكل ، وأن تسكن في بيت ، وأن تتزوج ، أما نظام الجنة فنظام آخر ، نظام :

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا)

(سورة ق الآية : 35)

(وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا)

(سورة الإنسان الآية : 14)

نظام الجنة كل شيء بين يديك ، بل أغرب من ذلك على الخاطر ، كل شيء خطر في بالك تجده أمامك .

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا)

أما في الدنيا :

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ)

(سورة الانشقاق)

لا تستطيع أن تدخل بيت ، مفتاحه معك ، وهناك زوجة في البيت ، وعندك ولدان إلا بعد أربعين سنة من العمل ، والدراسة ، والتأسيس ، واشتريت بيتًا خمسين مترا ، شماليا ، لأن الحياة معقدة ، لذلك في الدنيا الكدح ، والجهد ، والمجاهد ، والتكليف .

لما أكل سيدنا آدم من التفاحة انعكست المقاييس ، كان الإنسان كما سيكون في الجنة ، كان الإنسان في جنة الأرض كما سيكون في جنة الآخرة ، فلما أكل التفاحة هو مخلوق للدنيا ، لا خطأ أبداً ، لكن الدرس أن الله علّم الإنسان أن الشيطان عدو له .

لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا

أيها الإخوة ، ليس في الجنة عورات ، لأنه لا خلاف لمنهج الله ، وفي الدنيا عورات ، العورة فتحة ، المشكلة لا في الفتحة بل بما يخرج من الفتحة ، هذه عورة أساسها نظام الدنيا الذي يختلف عن نظام الآخرة .

ذكاء الشيطان في الوسوسة :

دائماً هناك نقطة دقيقة ؛ أن الشيطان حينما يغوي بني آدم يغويه بذكاء ، فالشيطان وسوس لهما

(لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ)

إن أردت أن تكون ملكاً ، وأن تكون خالداً في هذه الجنة فكُلْ من هذه الشجرة ، وليس هناك تجربة سابقة لآدم بالكذب ، آدم ما صدق أن مخلوقاً من مخلوقات الله يقسم كذباً ، أول يمين كذب في تاريخ البشر يمين إبليس :

وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ

(وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ)

(سورة الأعراف)

أقسم لهما أنكما إذا أردتما أن تخلدا في الجنة فكلا من هذه الشجرة .

(إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنْ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ)

أحياناً يقول لك : أخوك ناصحك ، افعل هذه المعصية ، استمتع بالحياة ، الدنيا مؤقتة .

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

***

ناصحك بقوله :

(إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ)

(فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ)

(سورة الأعراف)

فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ

1 – معنى : دلاّهُما :

يعني دليت الشيء ؛ أنزلته ، دلاهما ؛ أي أسقطهما في المعصية ، واسأل كل إنسان تورط في معصية ، تأتيه موجة كآبة بعد المعصية لا يحتملها ، لأن الإنسان حينما يعصي الله يحس بكآبة ، بجفاء ، ببعد .

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

(وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ)

إذاً : دلاّهما أنزلهما بالمعصية .

2 – بغرور :

بغرور يعني مرة تلوى المرة ، إلى أن استجاب هذا الإنسان ، وكل المعاصي والآثام تبدأ بالوسوسة ، والإلحاح ، والتزيين ، والإغراء ، والتحميس .

فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا

(فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا)

كما قلت : لقد اختلف الوضع ، كانا بنظام فأصبحا بنظام آخر ، كانا بنظام يشبه نظام الجنة ، فلما أكلا من هذه الشجرة انعكست هذه الآية فأصبحا بنظام يشبه نظام الدنيا .

1 – ما هي السوءة ؟

(بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا)

والسوءة سميت سوءة لأن منظرها يسيء لصاحبها ، لو أن الإنسان كُشفت سوأته يتألم أشد الألم ، لذلك من بعض أنواع العقاب الذي لا يحتمل أن يجرد الإنسان من ثيابه ، كما فعل من جاءوا إلى العراق من أجل الديمقراطية ، في سجن(أبو غريب) من أشد أنواع العقوبات أن يُعرى الإنسان من ثيابه .

2 ـ الأصل في المؤمن السترُ وفي الكافر التعرّي :

لذلك دائماً أهل الإيمان يدعون لمزيد من الستر ، وأهل الكفران يدعون إلى التعري ، التعري يرافق الفسقة والفجار ، والتستر يرافق المؤمنين الأطهار . لما

(بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا)

أصبحا مضطرين أن يخصفا ، أن يأخذا شيئاً ، أن يقطعان شيئاً ليسترا بهما شيئاً لا يليق أن يظهر .

(وَطَفِقَا)

بدآ

(يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ)

وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ

وجاء النداء الإلهي :

(وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ)

الدرس الخالد والقاعدة المطردة : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ

هذا هو الدرس الخالد للبشرية إلى يوم القيامة ، أنت بين وسوسة الشيطان ، وإلهام الملك ، الملَك يقول لك : لما أُمرت أن تفعله افعل ، ولما نُهيت ألا تفعله لا تفعل ، ويقول لك الشيطان : لما أُمرت أن تفعله لا تفعل ، لا تصلي ، لا تحضر الدرس ، إنه كلام مُعاد ، اجلس ، اجلس ، تابع المسلسل الفلاني ، لما أُمرت أن تفعله يقول لك : لا تفعل ، ولما نُهيت أن تفعله يقول لك : افعل ، هذه مهمة الشيطان .

فالله عز وجل عاتبهما وقال :

(أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ)

(قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

(سورة الأعراف)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(10-60): تفسير الآيات 23 - 25
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-03-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

قالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس العاشر من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثالثة والعشرين ، وهي قوله تعالى :

(قالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)

حقائق مهمة مستنبطة من الآية :

الحقيقة الأولى : العاصي لله ظالمٌ لنفسِه :

أيها الإخوة ، الحقيقة الأولى أن الإنسان حينما يعصي ربه هو في الحقيقة يظلم نفسه ، يحرمها من السعادة ، يحرمها من القرب ، يحرمها من التوفيق ، يحرمها من النجاح يحرمها من الأمن ، يحرمها من الحكمة ، يحرمها من الرضا ، يحرمها من تحقيق الهدف الذي خُلقت من أجله .

الحقيقة الثانية : العاصي لله خاسرٌ :

الذي يعصي الله خاسر ، ومستحيل ألف ألفِ ألف مستحيل أن تعصيه وأن تربح ، ومستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر :

(قالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا)

أيْ يا عبادي :

((أنا خلقت الخير والشر ، فطوبى لمن قدرت على يده الخير ، وويل لمن قدرت على يده الشر))

[أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس]

الحقيقة الثالثة : الإنسان خَلَقه الله الخبير الحكيم :

الإنسان الذي خلقه هو الخبير ، هو الصانع الحكيم ، هو الجهة الوحيدة التي تنبغي أن تتبع تعليماتها ، أنت حينما تقتني آلة غالية الثمن ، عظيمة النفع ، دقيقة الصنع ، ومعها تعليمات الصانع ، أنت انطلاقاً من حبك لذاتك ، من حرصك على سلامتك ، من حرصك على سعادتك تطيع تعليمات الصانع .

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

(سورة فصلت الآية : 46)

الحقيقة الرابعة : الخطأ من طبيعة البشر :

(قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

كأن الله سبحانه وتعالى حينما ركب الإنسان من عقل وشهوة طبيعي جداً أن يخطئ ، ولكن العار لا أن تخطئ العار أن تبقى مخطئاً ، ليس العار أن تكون جاهلاً ، ولكن العار أن تبقى جاهلاً .

الحقيقة الخامسة : التوبة النصوح تمحو الذنب :

إذاً : حينما أودع الله فينا الشهوات أودعها كي نسمو بها إلى رب الأرض والسماوات ، فلو زلت القدم فالصلح حاصل ، والتوبة ممكنة ، والعفو ممكن ، والمغفرة ممكنة ، والرجوع إلى الله ممكن .

عَنْ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

((يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))

[أخرجه الترمذي]

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر الآية : 53)

للتقريب : عند إنسان مركبة غالية جداً ، والمركبات بأربعين مليونًا ، أمسك مطرقة ، وكسر بلورها ، وثمنه مئة ألف ، مَن ضرّ ؟ مَن أغضب ؟ مَن استفز ؟ ضر نفسه ، وأغضب نفسه ، وخسر نفسه .

الحقيقة السادسة : أوامر الشرع ليست قيداً للحرية :

حينما تؤمن أن أوامر الشرع ليست قيداً لحريتك ، ولكنها ضمان لسلامتك ، العلاقة بين الأمر والنهي علاقة علمية ، أي علاقة سبب بنتيجة ، الأمر نفسه في نتائجه والنهي نفسه في نتائجه ، فإذا وضعت لك الحكومة لوحة أمام خط التوتر العالي ممنوع الاقتراب ـ دقق ـ من هو الأحمق ؟ الذي يريد أن يعصي التعليمات ، وهو يتأكد ليس هناك شرطي يراقبه ، التيار يعاقبك ، التيار يجعل المقترب منه فحمة سوداء بعد دقيقة ، وحينما تقول : هل أحد يراني ؟ تكون حمق ، لأن التيار نفسه يعاقب .

لو كنتَ تقود مركبة شاحنة تحمل مئة طن ، وصلت إلى جسر كُتب عليه : " الحمولة القسوة عشرة أطنان " ، الأحمق يتلفت ، هل هناك شرطة ؟ لا ، الموضوع أعمق من هذا ، الجسر سوف يخسف بك، بعد قليل تكون في النهر .

حينما تؤمن أن العلاقة بين الأمر ونتائجه علاقة علمية ، أي علاقة سبب بنتيجة تأتمر انطلاقاً من مصلحتك ، تأتمر انطلاقاً من حبك لسلامتك ، تأتمر انطلاقاً من حبك لسعادتك ، من حبك لكمالك ، من حبك لطمأنينتك لذلك :

(وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

(سورة البقرة)

هذا الفهم للدين ، فحينما ترى الأوامر والنواهي ليست قيداً لحريتك ، ولكنها ضمان لسلامتك تكون فقيهاً .

قالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا

أيها الإخوة ،

(قالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا)

لكن لولا أن رحمة الله تمثلت في أنه تواب ، وفي أنه رحيم ، وفي أنه غفار الذنوب ، لكان وضع الناس صعب جداً ، لذلك قال العلماء : " ما أمرك أن تتوب إلا ليتوب عليك ، وما أمرك أن تستغفر إلا ليغفر لك ، وما أمرك أن تدعوه إلا ليجيبك " .

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

(سورة النساء الآية : 27)

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ)

(سورة البقرة الآية : 222)

أيها الإخوة ،

(قالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أنفُسَنَا)

لمجرد أن تعترف لله ، يا رب لقد ظلمت نفسي ، يا رب اغفر لي ، يا رب سامحني ، يا رب اغفر زلتي ، يا رب ، استر عورتي ، يا رب ارحم ضعفي ، يا رب أقلّ عثرتي ، يا رب اغفر زلتي ، يقول العبد : يا رب لقد تبت إليك ، ويقول الله : عبدي ، لقد قبلت .

(وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

الله غفور ، ورحيم ، وتواب ، ورؤوف ، ويحبنا ، لذلك ورد في بعض الآثار القدسية :

((يا داود ، لو يعلم المعرضون انتظاري لهم ، وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطعت أوصالهم من حبي ، ولماتوا شوقاً إلي ، هذه إرادتي بالمعرضين فكيف بالمقبلين))

[ورد في الأثر]

قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ

(قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)

1 – معنى الهبوط :

أيها الإخوة ،

(اهْبِطُوا)

هذه واو الجمع ، آدم وحواء وإبليس ،

(اهْبِطُوا)

هنا الهبوط انتقال من مرحلة عليا إلى مرحلة دنيا .

2 – طبيعة النفس في الجنة :

سيدنا آدم كان في الجنة يأكل ما يشتهي من دون أن يدخل الطعام إلى جوفه ، يستمتع بكل ما في الجنة من دون أن يتأذى بها ، أما في الأرض حينما أصبح جسمه محيطاً بنفسه فلا يستمتع بالشيء إلا إذا أدخله إلى جوفه ، وإذا أدخله إلى جوفه فهناك جهاز هضم ، وفضلات ، وبراز ، وإذا شرب فهناك بول، لوجود دخول إلى الجسم ، وهناك نظام آخر ، نظام الجنة النفس محيطة بالجسم ، يمكن أن تأكل مليار تفاحة ، وأن تستمتع بطعمها دون أن تتأذى .

لذلك طبيعة الجنة من طبيعة خاصة ، وطبيعة الدنيا طبيعة خاصة .

(اهْبِطُوا)

كنت في حال :

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ)

(سورة ق : الآية 35)

في الجنة لمجرد أن تطلب شيئاً فهو أمامك ،

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا)

(قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ)

(سورة الحاقة)

أما حينما عصى آدم ربه ، وأكل من التفاحة بدت لهما سوآتهما .

إذاً : الآية الكريمة :

(قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)

3 – الإنسان مخلوق للعيش على الأرض :

(اهْبِطُوا)

من حالة ، لكن لئلا تتوهموا أن الإنسان مخلوق في الأصل للجنة ، ولولا معصيته لما كان في الدنيا ، هذا وهم غير صحيح ، قال تعالى :

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة الآية : 30)

الإنسان مخلوق للدنيا ، ولكن حينما خلقه في الدنيا ، وكلفه حمل الأمانة ، أعطاه درساً بليغاً له ولذريته من بعده .

4 – طبيعة العيش على الأرض مقتضية للصراع :

حينما قال الله عز وجل قال :

(قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)

دلّ على أن في الأرض صراعا ، وأنّ في الأرض حقًّا وباطلا ، وخيرا وشرًّا ، وجريمة ، وإحسانًا ، ورحمة وقسوة ، عدلا وجورا ، ومؤمنا وكافرا ، ومنافقا ، ومنتفعا بالدنيا ، ومؤمنا بالآخرة ، وإنسانا يتعلق بالقيم ، وإنسانا يتعلق بالمصلحة .

التصريحات دائماً : مصلحتنا فوق كل شيء ، في المصلحة غدر ، و نقض عهد ، وعدوان ، وحرب استباقية ، وجرائم تحت غطاء المصالحة ، أما المؤمن فهو إنسانُ مبدأٍ ، إنسان قيم ، إنسان أهداف نبيلة، والكافر إنسان مصلحة ، إنسان حاجة ، إنسان ابتزاز .

إذاً : كلمة :

(بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)

أي أنه لا بد من صراع في الأرض ، وكان من الممكن أن يعيش الطرف الآخر في كوكب آخر ، فلا حروب ، ولا صراعات ، ولا بدر ، ولا أحد ، ولا الخندق ، ولا فتح مكة ، كان من الممكن أن يعيش الكفار في كوكب آخر ، وكان من الممكن أن يعيشوا في قارة أخرى ، أو كان من الممكن أن يعيشوا في حقبة أخرى ، ولكن شاءت حكمة الله البالغة أنه أرادنا الله أن نعيش معاً على أرض واحدة ، مؤمن وكافر ، مستقيم ومنحرف ، رجل مبدأ ، رجل مصلحة ، صادق ، وكاذب ، هذا الاجتماع بين الطرف الأول والطرف الآخر من نتيجته الحتمية صراع مستمر .

إذاً : معركة الحق والباطل ـ دققوا ـ معركة أزلية أرادها الله ، لأن الحق لا ينمو إلا بالتحدي ، ولأن أهل الحق لا يستحقون الجنة إلا بالتضحية ، فقد أعطانا الله فرصة أن نضحي ، وأن نصارع ، وأن نتحمل العدوان ، والكفران ، والمعارضة ، والتآمر .

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

(سورة التوبة الآية : 71)

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

(سورة الأنفال الآية : 73)

وطِّنوا أنفسكم أن معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية ، وأن هذه المعركة قدرنا ، والله عز وجل معنا ، ولن يترنا أعمالنا ، وهو يؤيدنا ، وينصرنا .

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ)

(سورة محمد الآية : 4)

كي نمتحن ، دخول هذا الصراع ثمن الجنة ، والذين وقفوا مع النبي عليه الصلاة والسلام ، والذين وقفوا ضده ، ما المصير ؟ النبي انتصر ، وأصحابه انتصروا ، وأصحابه في أعلى عليين ، والذين ناصبوه العداء في مزبلة التاريخ .

إذا ذكرنا أبا بكر نقول : رضي الله عنه ، إنه سيدنا ، إذا ذكرنا عمر : رضي الله عنه ، سيدنا ، وإذا ذكرنا عدو الله أبا جهل نقول : لعنه الله .

5 – إيَّاك أنْ تكون في خندق مُعادٍ للحق :

القضية واضحة جداً ، لذلك عد للمليار قبل أن تكون في خندق معادٍ للحق ، إن كنت في خندق معادٍ للحق فهل تعلم من الطرف الآخر ؟ الله عز وجل ، لذلك عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قالَ : قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنَّ اللَّهَ قالَ :

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فقدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ...))

[البخاري]

إياك ، ثم إياك ، ثم إياك أن تكون في خندق مناهض للحق .

ما الدرس الذي تلقاه آدم ويجب أن تأخذه ذريته من بهده ؟ أن تجربة آدم عليه السلام في الجنة من أجل أن يعرف نتائج المعصية ، ومن أجل أن يعرف ما أعد الله له بعد الدنيا من جنة ، هذا نموذج ، والمعصية سبب الشقاء .

لذلك الدرس البليغ معنى الطاعة الجنة ، معنى المعصية الخروج منها ، معنى العداوة :

(إنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(سورة فاطر)

هذا الدرس لآدم عليه السلام ولأمته من بعده إلى يوم القيامة .

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا)

وفي آية أخرى :

(قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً)

(سورة طه الآية : 123)

فائدة : بين (اهْبطا)و(اهْبطُوا) :

الآية

(اهْبطا)

موجهة لآدم عليه السلام ولأمنا حواء ، أما الآية :

(اهْبطُوا)

موجهة إلى آدم عليه السلام وإلى أمنا حواء ، وإلى إبليس معاً ، لكن هذا الصراع ليس أبدياً ، الآن كم ملة في الأرض ؟ وكم دينا ، وكم طائفة ، وكم اتجاها ، وكم تيارا ، وكم عقيدة ، بالآلاف ، وكل فئة ، وكل طائفة ، وكل مذهب ، وكل دين يتوهم أنه على حق ، وأن الذين حوله على باطل ، من الذي يحكم بينهم في النهاية ؟ الله جل جلاله .

(فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة البقرة الآية : 113)

(وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)

(قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)

6 – كل شيء يُكشَف عند الموت :

الصراع ليس مستمراً ، الإنسان حينما يقترب من الموت تنكشف له الحقائق ، ينكشف له ما جاء به الأنبياء .

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق)

أؤكد لكم أن كل إنسان على وجه الأرض من أي دين ، من أي مذهب ، من أي اتجاه ، من أي طائفة ، حتى لو كان ملحداً ، حتى لو كان مجوسياً ، أي إنسان عند الموت تكشف له الحقائق ، أوضح دليل ، أكفر كفار الأرض الذي قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

حينما أدركه الغرق قال :

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سور يونس الآية : 90)

إذاً : خيارنا مع الإيمان خيار وقت فقط ، لا خيار قبول أو رفض ، إما أن نؤمن الآن ، ونحن في بحبوحة ، وأن ننتفع من إيماننا ، وإما أن نؤمن بعد فوات الأوان .

(قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَر)

وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَر

هناك أرض ، وعمر مديد ، وصيف وشتاء ، وربيع وخريف ، وطفولة وفتوة ، وشباب وكهولة ، وشيخوخة ، ثم الموت ، وهناك خير ، وشر ، وعمل صالح ، وعمل سيئ ، وحق وباطل ، وإخلاص وخيانة ، وعدوان وإحسان .

(وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَر)

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ)

(سور الإسراء الآية : 84)

اعملوا ما شئتم .

(قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)

إذاً : الصراع مِن قدر الله ، وهذا قدرنا ، هذه مشيئة الله لنا ، أحياناً الصراع بين أخوين ، أو بين زوجين ، الزوجة تريد الدنيا ، والزوج يريد الآخرة ، بين شريكين ، بين صاحبين ، بين أسرتين ، بين عشريتين بين قبيلتين ، بين شعبين ، بين أمتين ، بين حضارتين ، هناك صراع .

(قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)

إلى حين الموت ، والموت يفصل بين الناس يوم القيامة ، والله عز وجل يفصل بين الناس يوم القيامة .

المعركة بين الحق والباطل بثمن باهظ :

أيها الإخوة ، هل هذه المعركة التي بين الحق والباطل معركة بثمن ، لا بلا ثمن ، بل بثمن فلكي ، بثمن باهظ ، حينما تأتي إلى الدنيا ، وتتجه نحو الحق ، وتتحمل عداوات الناس ، تتحول المكر ، والدهاء ، تتحول أحياناً الظلم ، لأنك مؤمن ، ماذا فعل أصحاب الأخدود ؟ ليس لهم ذنب إلا أنهم قالوا : ربنا الله ، فقط ، والآن المؤمنون في الأرض ما ذنبهم ؟ والله ولا ذنب لهم إلا أنهم مؤمنون ، يقول لك : تطهير عرقي في البوسنة والهرسك ، تطهير عرقي ، مكافحة الإرهاب ، أيّ إرهاب هذا ؟ والله الإرهاب الذي نراه ممن يحاربون الإرهاب يفوق حد الخيال ، يمكن أن تكون نتائج حرب مليون قتيل ، وسلاح فسفوري ، وسلاح كيماوي وسلاح دمار شامل ، ولا شيء عليهم ، أما إذا دافع الإنسان عن نفسه تقوم الدنيا ولا تقعد ، عشرون ألف أسير ، ودُمر بلد بأكمله ، هذا الحق والباطل واضح جداً ، الآن الباطل قوي جداً ، المعركة أزلية أبدية ، هذه قدرنا .

لكن اسمعوا الجواب : هذه المعركة لها ثمن باهظ ، لها ثمن فلكي ، جنة عرضها السماوات والأرض ، إلى أبد الآبدين ، هذا هو الثمن ، لذلك :

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

(سورة التوبة)

الله عز وجل يوضح قال فيها ، أي في الدنيا :

(قالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ)

(سورة الأعراف)

1 – الموت مصير كل حي :

الموت مصير كل حي ، هناك إنسان يولد فيفرح الأهل به فرحاً كبيراً ، الحمد لله انه سليم ، مرة قال لي أحدهم : إذا جاءك مولود سليم معه مليون ليرة ، قلت له : كيف ؟ قال لي : ابن ابنتي جاء الشريان محل الوريد في القلب ، العملية تكلف 400 ألف ليرة ، والمستشفى 300 ألف والنقل إلى بيروت 50 ألفا ، قال لي : دفعت 750 ألف خلال ساعة ، لكنه حين يأتي سليما ، الآن يربى ، ينظف ، ويفرح به الأهل ، وحين تخرجوا أسنانه يفرحون ، يدخل الحضانة ، كل ما جاء ضيف ينادون ليقرا الفاتحة ، دخل الابتدائي ، ثم الإعدادي ، ثم الثانوي ، أخذ شهادة ثانوية ، دخل الجامعة ، أخذ الجامعة ، نريد وظيفة ، الآن الهم الوظيفة ، أربع سنوات في الجامعة والمقرر صعب ، والأستاذ أسئلته غير متوقعة ، وهذا متآمر ... وإلخ ، يلقي تهم على الأساتذة جزافاً أنه هو مقصر ، يتخرج ليظهر موضوع العمل ، يجد عملا مناسبا ، يريد زوجة ، هذه طويلة ، وهذه قصيرة ، وهذه مدخل البيت غير مقدر ، وهذه الأم صعبة ، متاهة طويلة عريضة ، تزوج فما أنجب ، هل السبب منه أم منها ؟ الله يعلم ، ثم أنجب طفل الأنبوب ، الآن تبدأ أعراض في جسمه على أن يُعلّق نعيُه .

(لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ)

(سورة الانشقاق)

هذا طريق إجباري لكل الناس ، لذلك :

(فِيهَا تَحْيَوْنَ)

ما هو الموت ؟ بوابة خروج ، إذا كنت بالمطار في بوابة ـ كيت ـ من هنا تخرج من هذا البلد بوابة 23 ، الله عنده كثير بوابات ، بوابة السرطان ، بوابة حادث سير ، بوابة خثرة بالدماغ كلها بوابات ، هذا مرض الموت بوابة .

(فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ)

تصور رجلا في النعش ، أذن المؤذن ، فتح النعش وحُمل ، وُضع في حفرة ، والله مرة حضرت تشييع جنازة المتوفى ـ رحمه الله ـ أعرف عنه قصصا على نظافته ، وعلى أناقته ، على أناقة بيته ، وجمال بيته ، وأناقة أجهزته ، وفرشه ، شيء يفوق حد الخيال ، البلاطة التي يسد بها القبر أقلّ من الفتحة بعشرة سنتيمترات ، فوضعوا أحجارا بشكل عشوائي ، وأهالوا التراب ، وقد نزل فوقه كيلوين من التراب ، سبحان الله .

أعرف رجلاً ثانيا ما شاء الله له معامل ، ومؤسسات ، وأموال منقولة ، وغير منقولة ، وبيت بأرقى أحياء دمشق ثمنه 110 ملايين ، وبيت بالمصيف ، وبيت على البحر ، وكل سنة رحلة في العالم ، فتح القبر بأيام مطيرة ، خرج منه مياه سوداء ، فلتت مياه المجاري عليه ، ابنه مهندس ، سألوه ، فقال : ضعوه ، ماذا نفعل ؟ يقول لي مدير معمله : ما أكلت أسبوعا ، هنا وضعوا معلمي ؟ .

(فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُون)

2 – الحياة زمن مؤقت :

لذلك البطولة أن تعد للقبر ، هذا البيت مؤقت مهما اعتنيت به البيت موقت ، مهما اعتنيت به ، اسأل كم من إنسان كسا البيت لسنتين ، وما سكن فيه ، والبناء بأرقى أحياء دمشق في سبعة طوابق ، ولا سكن واحد بالبيت ، كلهم مات قبل استلام البيت ، البيوت كلها فارغة ، البيت الواحد بمئة مليون .

(فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ)

كل بطولتك أن تعد للقاء الله ، العمل الصالح ، الاستقامة ، الصلة بالله ، خدمة الناس ، الإخلاص ، إنفاق المال ، تربية الأولاد ، نشر الحق ، هذا كل بطولتك ، وأنت الغني الحقيقي .

إخواننا الكرام ، الغنى غنى العمل الصالح ، فقط ، هذا الغنى الحقيقي ، حجمك عند الله بحجم عملك الصالح .

والله كنت مرة بحلب فأطلعوني على أرقى أحياء حلب ، والحقيقة أن هناك أبنية يصعب وصفها ، مهندسون أجانب ، والقصة في السنوات 74 قديمة جداً ، رأينا بيتا كل الرخام فيه أونكس ، هذا أرقى أنواع الرخام ، القصة لما كانت الليرة السورية 3 ليرات تساوي دولارا ، فصاحب هذا البيت صاحب ذوق رفيع المستوى جداً ، فتوفي في الثانية والأربعين ، في وقت مبكر بمرض عضال ، ولحكمة أرادها الله كان طويل جداً ، والقبر كان أقصر من قامته ، فلما وضع في أرض القبر دفعه الحفار في صدره حتى صار مائلا ، لا إله إلا الله ، من قصرِ الآن يساوي 700 مليون ، صاحب هذا القصر كان القبر أقصر من طول قامته ، فكان بوضع خاص .

الموت عبرة ، الموت أكبر عبرة لنا جميعاً ، فأنت كطالب علم ، لك أن تنال شهادة ، وأن تعمل ، وأن تتزوج ، لكن لا تنسى أن الله ينتظر عملك الصالح ، وأن البطولة أن تلقى الله ، وأنت مستقيم على أمره، وأنت محسن إلى خلقه ، وأن مالك حلال .

(فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ)

لذلك :

((أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللّذّات))

[رواه مُحَمّدِ بْن عَمْرٍو عَنْ أَبِــي سَلَمَةَ عَنْ أَبــي هُرَيْرَةَ]

مفرق الأحباب ، مشتت الجماعات .

((عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي ، والحاكم ، والبيهقي ، عن علي]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ ، يَعْنِي الْمَوْتَ))

[أخرجه ابن ماجه]

ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود والتزود بسكنى القبور ، والتأهب ليوم النشور .

3 – هل لك جواب عن سؤال الله ؟

قبل أن تتكلم قبل أن تغضب ، قبل أن ترضى ، قبل أن تبتسم ، قبل أن تتجهم قبل أن تعطي ، قبل أن تمنع ، قبل أن تصل ، قبل أن تقطع ، هل هذا العمل يرضي الله ، لو أن الله سألني لماذا طلقتاها ؟ معك جواب ؟ لماذا أعطيت ابن فلانة التي هي زوجتك بيتاً ، ولم تعطِ ابن الزوجة الثانية ؟

" إن الرجل ليعبد الله ستين سنة ثم يضر بالوصية فتجب له النار " .

قبل أن تخص الذكور بمالك وتحرم البنات ، هل معك لله جواب ؟ قبل أن تخرج شريكك من الشركة ، وله حق فيها مثلك ، لكن المحل باسمك ، أنت أقوى منه ، فأخرجته وضايقته ، وأهنته ، قال لك : نفك الشركة ، أعطيته ، والمحل بقي لك ، قبل أن تفعل هذا هل هيأت لله جوابا ؟ قبل أن تطلق هذه المسكينة التي قبلت بك فقيراً ، وعاشت معك على المر والحلو ، فلما تضخمت مكانتك ، وازداد مالك أهملتها ، وتزوجت غيرها ، ولم تعبأ بها ، هل هذا جزاء الإنسان ؟ هل عندك جواب عن كل شيء تفعله ؟ هذا المبلغ الذي أخذته هل يرضى الله عنه ، هل أخذته حلالاً .

إخواننا الكرام :

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((لَيَأْتِيَنَّ عَلَى الْقَاضِي الْعَدْلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَاعَةٌ يَتَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ بَيْنَ اثْنَيْنِ فِي تَمْرَةٍ قَطُّ))

[أخرجه أحمد في مسنده]

هناك رجل في مصر غني جداً وتوفي ، سمع أولاده من بعض العلماء أن أول ليلة هي أصعب ليلة ، فرَجَوْا إنسانا فقيرا يموت من الجوع ، قالوا له : خذ عشر جنيهات ، ونمْ معه أول ليلة ، مبلغ كبير له ـ طبعاً القصة رمزية لا تصدقوها ـ جاء منكر ونكير فوجدوا اثنين ، سمع صوتا فحركوا رجله ، هذا حي، وليس ميتا ، تعال نبدأ فيه ، أجلسوه ، مِن شدة فقره كان لابسا كيس خيش ، فتحه من فوق ليخرج رأسه منه ، ومن أطرافه نبقت يديه ، وربطه بحبل بدؤوا بالحبل : مِن أين أتيت به ؟ قال لهم : من بستان ، تركوا البستان ، كيف دخلت البستان ؟ ما عرف كيف يجيب ، الآن كيف دخل ، بعدها الحبل ، بعدها كيس الخيش ، هذا بعد التحقيق والقتل والضرب صباحاً خرج من القبر ، وقال : الله يعين أباكم .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

الآية أوضح :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ *وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

هذه الآية تكفي ، جاء أعرابي إلى النبي الكريم فقال له : عظني ، ولا تطل ، فتلا عليه هذه الآية ، فقال كفيت ، فقال عليه الصلاة والسلام : فقه الرجل ، أصبح فقيهاً .

أعرابي راعي غنم بسيط ، ثقافته محدودة ، ما عنده كمبيوتر ، ولا عنده مكتبة ضخمة ، ولا حضر مؤتمرات إطلاقاً ، وثقافته محدودة ، قال له ابن سيدنا عمر : بعني هذه الشاة ، وخذ ثمنها ، قال : ليست لي ، قال له : قل لصاحبها : ماتت ، أمرٌ سهل جداً ، قال ليست لي ، قال له : خذ ثمنها ، قال : ليست لي ، قال له : خذ ثمنها ، قال له : والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت لصاحبها : ماتت ، أو أكلها الذئب ، فصدقني ، فإني عنده صادق أمين ، ولكن أين الله ؟ هذا الراعي وضع يده على جوهر الدين ، وهذا هو الفقيه .

إذا قلت : أين الله فأنت مؤمن وربِّ الكعبة ، لما تؤدي الحقوق ، تقوم بواجباتك ، تأخذ الذي لك فقط ، أنت مؤمن ورب الكعبة ، أما الآن فهناك مظاهر دينية صارخة ، وأكل مال حرام مخيف ، هذه المشكلة.

في درس قادم إن شاء الله نتابع قوله تعالى :

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(11-60): تفسير الآية 26 ، أنواع السوءات وأنواع اللباس

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 09-03-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الحادي عشر من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية السادسة والعشرين ، وهي قوله تعالى :

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

نداءٌ عامٌّ إلى البشرية : يَا بَنِي آدَمَ

درسٌ بليغ لآدم عليه السلام وذريته : عداوة إبليس :

أيها الإخوة ،

(يَا بَنِي آدَمَ)

كأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يذكرنا بالدرس البليغ الذي تلقاه آدم ، أراد أنه يذكرنا بدرس سيدنا آدم مع الشيطان ، وكيف أن هذا الدرس أراده الله لآدم ولذريته من بعده .

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً)

(سورة فاطر الآية : 6)

كيف أن هذا الدرس أشار إلى أن معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية قال :

(اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)

(سورة الأعراف الآية : 24)

درس بليغ في الأرض حق وباطل ، خير وشر ، جمال وقبح ، عدل وجور إحسان وإساءة ، أهل الدنيا القبابلة مع القوة ، والإساءة ، والدنيا ، وكفروا بالآخرة ، وأهل الإيمان مع الكمال ، والإحسان وآمنوا بالآخرة .

الله عز وجل في قوله تعالى :

(يَا بَنِي آدَمَ)

يذكرنا بالدرس البليغ الذي تلقاه آدم من ربه ، لأن آدم عليه السلام كان في جنة برأي معظم العلماء في الدنيا ، لأن جنة الآخرة تأتي بعد التكليف ، بينما جنة الدنيا الذي كان فيها آدم كانت قبل التكليف ، لأن جنة الدنيا يمكن أن يخرج منها المرء ، لكن جنة الآخرة :

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

(سورة الحجر)

إذاً : قوله تعالى :

(يَابَنِي آدَمَ)

أي أراد الله عز وجل منا من خلال الخطاب :

(يَا بَنِي آدَمَ)

أن يذكرنا بالدرس البليغ الذي تلقاه قبل أن يأتي به إلى الدنيا ، ليكون في الدنيا هذه الاثنينية ، الحق والبطل ، الخير والشر ، الإحسان والإساءة ، الصدق والكذب .

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ

1 – معنى : أَنزَلْنَا

أنزلنا أي ؛ أنزلنا المطر من السماء ، وهذا المطر الذي نزل من السماء ، ومن بعض أنواع النباتات ما صنعت منه الخيوط ، ومن الخيوط ما صنعت به النسج ، ومن النسج كان لباسنا .

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا)

2 – أولُ معصية كانت بنزع الثياب :

أول معصية عُصيت في عالم البشر هو نزع الثياب .

(يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا)

(سورة الأعراف الآية : 27)

3 – إبليس يسعى دائما إلى كشف العورات ، والمنهج الإلهي يدعو إلى الستر :

إذاً : عندنا شيء اسمه ستر للعورات ، وكشف للعورات ، إبليس ومن لفّ لفّه وأتباعه إلى يوم القيامة مع كشف العورات ، والوحي الإلهي ، والإرادة الإلهية ، والمنهج الإلهي ، مع ستر العورة .

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ)

لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ

1 – ما هي السوءة ؟

أيها الإخوة ، الحقيقة السوءة هي العورة المغلظة ، واللباس يواري السوءة ، وهذا اللباس أراده الله عز وجل ، لأنه صنع من مواد هي من خَلق الله عز وجل .

2 – أشياء خلقها الله للإنسان خاصة :

أحياناً تدرك يقيناً أنّ هذا الشيء خُلق من أجل هذا الشيء ، أحياناً تجد نباتا أخضر ، لا يزهر ولا يثمر، هو فقط من أجل أن ترى منظراً أخضر اللون ، هناك شجرة من أجل أن تكون ظلاً ، أوراق دائمة ، أوراق منمنمة ، كثيفة ، مطبقة ، على شكل دائرة ، والجذع مستقيم ، تدرك أنه هذه الشجرة إنما صممت من أجل أن تكون ظلاً للإنسان ، لو جُلت جولة فكرية في خَلق الله عز وجل لوجدت أن الشيء قد تفهمه بوظيفته ، وهناك أشياء خلقها الله خصيصى للإنسان ، هذا باب كبير في التفكر .

الماء :

لماذا هذا الماء فيه خاصة يتميز بها ، أنك إذا بردته إلى درجة زائد أربع يزداد حجمه فتقلّ كثافته ، فيطفو ، لولا هذه الخاصة لما كان هذا الدرس ، ولما كانت حياة على سطح الأرض .

مادة مضادة لتجمد العين :

لماذا في ماء العين مادة مضادة للتجمد ؟ لولا هذه الخاصة كل إنسان دخل في جو تحت الصفر يفقد بصره .

أنت تشعر أحياناً أن هذا الشيء خُلق خصيصى لهذا الشيء ، لذلك النباتات التي تحاك منها الخيطان ، القطن ، الكتان ، هذه النباتات مصممة كي تصنع قماشاً نرتديه ، اللؤلؤ من أجل أن يكون زينة للنساء ، اللحم من أجل أن يأكله الإنسان طرياً .

حينما تجول بفكرك في هذا الكون الواسع ترى أن كل شيء له سبب ، وله غاية ، وأن العقل يرفض التناقض ، وهذا هو التفكير الصحيح .

إذاً : حينما قال الله عز وجل :

(يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ)

المطر من السماء ، فأنبت نباتاً ، من أنواع النبات القطن ، والكتان ، وما شاكل ذلك ، هذا النبات تصنع منه الخيوط ، والخيوط تكون نسيجاً ، والنسيج يصبح ثياباً نرتديها ، فنستر به سوآتنا .

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ)

لكن إبليس كما وصفه الله عز وجل :

(يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا)

البشر بين التعرّي والستر :

لذلك العالم الآن عالم مقسوم قسمين ، عالم التعري وعالم الحجاب ، المسلم المرأة محجبة الرجل ثيابه فيها ستر ، فيها حشمة لا يظهر فخذه للناس ، قد تزور بلد أوربي تلتقي مع مدير عام يرتدي بنطال قصير إلى أعلى الفخذ ، طبيعي جداً ، النمط الغربي نمط تعرية ، والمنهج الإلهي منهج ستر ، لأن في التعرية إثارة ، ومع الإثارة فاحشة ، ومع الفاحشة فساد ، ومع الفساد ضياع ، ومع الضياع شقاء ، وبعد الموت جهنم ، وقد بدأتْ أول معصية عُصي بها الله في الأرض بكشف العورة .

لذلك الآباء المربون الذين يحرصون على سلامة أخلاق أولادهم قد لا يخلع أحدُهم ثيابه أمام ابنه ، وهذا الأصح ، والأولى ، والأوجب ، لا يمكن لأب مؤمن طاهر أن ينزع ثيابه أمام أولاده أبداً ، الله أمرنا بالستر ، المرأة المسلمة مستورة ، مفاتنها لزوجها ، ولمحارمها لا لكل الناس .

ورأيتم كم من الفساد استشرى في الأرض حينما تعرت المرأة ، كم محطة فضائية بُنيت على عرض المرأة عارية ؟ كم موقع في الانترنيت إباحي ؟ أساسه عرض المرأة عارية ؟ كم في الطريق من فساد من فتاة تبرز كل مفاتنها للناس ؟ لذلك الستر والتعري صفتان تخصان المؤمنين الستر ، والتعري لغير المؤمنين .

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ)

صدقوا أيها الإخوة أنّ المرأة التي ترتدي ثياباً محشومة واللهِ كأنها ملكة ، وأنت حينما ترى امرأة ترتدي ثياباً محتشمة كأنها أختك لا تفكر بشيء آخر ، أما حينما تبرز المرأة مفاتنها تنتقل من أنها امرأة إلى أنها متعة ، وفي هذا امتهان للمرأة

الآن هناك مسيرات في العالم الغربي أساس المسيرة احتجاج واعتراض واستنكار ، أن أي سلعة مهما كانت قليلة الشأن تروَّج عن طريق امرأة شبه عارية ، هذا من فعل إبليس ، التعري أول معصية ارتكبت في الأرض ، والمؤمن أبرز ما فيه الستر ، والصون والاحتشام .

فائدة في قوله : أَنْزَلْنَا

لكن هناك من قال : كلمة أنزلنا أي شيء نزل من السماء هو الخير ، وقد يكون في الإنسان دافع نحو السماء ، ودافع نحو الأرض ، الشرور تتأتى من أن يستجيب الإنسان لنداء الشهوة ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، لذلك الثياب تستر العورات قال تعالى :

(يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا)

وَرِيشًا

الريش هو ما يكسو جلد الطائر ، والريش جميل ، وكان بعض الملوك يضعون ريشة على تاجهم ، والعوام استنبطوا من هذا أنه فلان (مريّش) ، يعني أنه يملك أن يشتري التحسينات ، الترف ، الأشياء الجميلة ، التي لا يحتاجها الفقراء ، فالريش معناه زينة ، والله عز وجل حينما قال :

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل ،)

فكأن الزينة حاجة في الإنسان ، الإنسان يسكن في بيت ، لكن يستمتع في بيت مطلي بطلاء لطيف ، فيه ألوان جميلة .

هناك إنسان يرتدي ثيابا تستر عورته ، لكنه فوق ذلك يحبها ثياباً جميلة ، بألوان أنيقة ، وبألوان متناسبة ، فكأن الله سبحانه وتعالى أودع فينا حب الشيء الجميل ، وقد قالوا : الإنسان فطر على حب الجمال ، والكمال ، والنوال ، النوال ، وهو العطاء ، فكلّ واحد منا دون استثناء يحب الشيء الجميل ، يحب البيت الجميل ، يحب الثياب الجميلة ، يحب الأداة الجميلة ، يحب الآلة إذا كانت جميلة ، لذلك الآن قضية الجمال واضحة جداً في العالم ، فأيّ شيء له مظهر جميل ، هذا شيء ليس منافياً للفطرة ، لكن العالَم الغربي بالغ بتجميل الحياة ، حتى أصبحت حياته مهوى للقلوب ، ونحن قصرنا كثيراً ، فلم نعبأ بتجميل بلادنا حتى نفر منها أبناءنا ، والجمال لا يحتاج إلى أموال طائلة ، بل يحتاج إلى ذوق ، وجنة المؤمن داره ، وأحياناً يكون الطلاء بسيطا ، ورخيصا جداً ، لكنه طلاء بلون زاهٍ ، والأثاث متناسب مع لون الطلاء ، وكل شيء في الغرفة مشتق من لون موحد .

مرة دخلت إلى صالة للأفراح وللتعزية ، لفت نظري تناسق ألوان عجيب ، فالإنسان يرتاح .

من قال لك : إن الإنسان ينبغي ألا تكون حياته جميلة ؟ كن متأنقاً في ثيابك ، اختر ألواناً تناسبك ، اختر أدوات فيها مسحة جمالية ، هذه حاجة أساسية ، لا تنتقد الآخرين إذا أرادوا أن يكون الشيء جميلاً، هذه فطرة ، لكن ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة ، الجمال في البيت ، في المدخل ، في غرفة الضيوف ، في التناسق ، في الأزهار ، لكن أن تصل إلى الجمال عن طريق المعاصي والآثام فهذا لا يجوز .

المرأة جميلة ، لكن الله سبحانه وتعالى جعل لك لهذا الجمال طريقاً شرعياً ، أن تتزوج فقط ، والبيت جميل ، لكن جعل لك لهذا البيت الجميل طريقاً واحداً ؛ أن تعمل عملاً شريفاً ، وأن تكسب رزقاً حلالاً ، وأن تشتري بيتاً جميلاً ، أما أن تكون متعتك بالجمال على حساب دينك ، وعلى حساب مبادئك ، فهنا الخطأ ، وقد رسب من يفعل هذا بالامتحان .

إذاً :

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا)

كل شيء خلقه لنا يحقق هدفاً وظيفياً وهدفاً جمالياً :

إذاً : الحاجات التي خلقها الله عز وجل تحقق هدفا وظيفيا ، وهدفا جماليا ، وأيُّ شيء الله عز وجل خلقه ، فالتفاحة فضلاً على أنها مغذية ، وفيها مواد سكرية ، وفيها معادن ، وفيها فيتامينات ، فضلاً على كل خصائصها ، وفضلاً على رائحتها الطيبة ، وطعمها الطيب ، ومنظرها الجميل ، أحياناً هناك لوحات فنية فيها فواكه ، تفاحة جميلة جداً ، الموز جميل ، الأجاص جميل ، العنب جميل ، الله عز وجل علمنا أن كل شيء خلقه لنا يحقق هدفاً وظيفياً وهدفاً جمالياً .

فلذلك الجمال مطلوب ، والمؤمن جميل ، ويحب الجمال ، لكن يحب وفق منهج الله ، ولا يحيد عن منهج الله قيد أنملة .

كان عليه الصلاة والسلام إذا مشى يُعرف بطيب الرائحة .

كان عليه الصلاة والسلام يرتدي أجمل ثيابه في المناسبات والأعياد .

كان عليه الصلاة والسلام له ثياب يرتديها إذا لقي الوفود ، وفي خطبة الجمعة .

أنا أتمنى ، وهذه مناسبة ألا نبتعد عن الجمال ، ألا نجعل بلادنا ليست جميلة ، تجد الطرقات ليست جميلة ، لأن الانتماء فردي ، البيوت جميلة جداً ، أما الطرقات فغير جميلة ، ليس هناك انتماء جماعي، أن هذا الشيء يخرش منظره ، قد يضع أشياء لا يحتاجها في الشرفة ، ومنظر الشرفة فيها أشياء قديمة

مكسورة ، معطوبة ، لا يهمه ذلك ، البيت جميل من الداخل ، فيه أناقة ، وجمال ، لكن الشرفة هذه للناس ، يضع فيها أشياء ليست مقبولة ذوقاً .

إذاً :

(قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا)

إنسان بلمسات خفيفة يجعل بيته جنة بلمسات خفيفة ، مسمار عليه شريط ، منظره غير لائق ، يقلع المسمار ، ويضع مكان الثقب معجون فصار المنظر جميلا ، والأشياء الدقيقة يمكن أن تطفي على الإنسان شعوراً بالجمال .

أنا لست مع أن نكون أتقياء ، وبلادنا غير جميلة ، بيوتنا غير جميلة ، تدخل إلى صيدلية أحياناً فيها أناقة ، وفيها نظافة ، وفيها نظام يلفت النظر ، وصيدلية أخرى الأدوية فوق بعضها ، الغبار ، يا لطيف شيء لا يحتمل ، فالنظافة من الإيمان ، والأناقة من الإيمان والأشياء الجميلة من الإيمان ، وهذه آية قرآنية :

(قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا)

المعنى الواسع للسوءات : السوءات الأخلاقية :

لكن هناك سوءات أخرى ، هناك سوءات فكرية ، إنسان جاهل ، هناك سوءات أخلاقية ، كالكاذب ، والمخادع ، والمنافق ، والمستكبر .

صدقوا أيها الإخوة كما أنك تتقزز من منظر قبيح ، من ثياب قذرة ، من ثياب متنافرة في ألوانها ، كما أنك تتقزز من مركبة لم يفكر صاحبها أن يغسلها من سَنة ، كما أنك تتقزز من بيت فيه حاجات غير منسقة غير مرتبة ، قبيحة المنظر ، فوضى ، ليس هناك نظام ، ولا ترتيب ، المؤمن يتقزز من كلمة بذيئة ، من مزاح رخيص ، من مزاح جنسي ، من كِبر ، من استعلاء ، من نفاق ، من إنسان ذي وجهين ، هذه سوءات ثانية ، والله لا أبالغ لعل السوءات الثانية أشد إيلاماً للنفس من السوآت الأولى .

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ)

والإنسان أيها الإخوة من دون ثياب منظره يدعو للتقزز ، ولحكمة بالغةٍ بالغة قد أنزل الله علينا هذه الثياب ، بالتعبير العامي الدارج : " الإنسان نصفه عروق ، ونصفه خروق " ، كلام يقوله عوام الناس، فالله عز وجل قال :

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا)

هناك أشياء جمالية ، البيت بيت ، والبيت دافئ ، لكن ما فيه جمال ، فيه مدفأة غير منظفة ، مثلاً ، فيه صحن يؤدي الوظيفة ، لكن أكل عليه الدهر وشرب ، منظره مقزز ،

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا)

لكن الكذب سوءة ، النفاق سوءة ، الكبر سوءة ، المزاح الرخيص سوءة ، المزاح الجنسي سوءة ، الوقاحة سوءة ، هذه سوءات النفس ، لباس التقوى يواري سوءات النفس ، وسوءات الجسد تسترها الثياب ، وسوءات النفس تسترها التقوى ، تجد المؤمن بأدبه ، بتواضعه ، بطريقة جلوسه ، بطريقة حركته ، بطرقة كلامه ، بحركاته ، بسكناته ، مؤدب ، يمشي بأدب خافض الطرف ، لا يستعلي على الناس ، لا يحرج من حوله ، لا يحمِّر الوجوه ، لا يصطاد في الماء العكر ، ليس قناصاً ، هذا جمال الأخلاق ، كما أن المؤمن قد يكون حسن الصورة وأفعاله أيضاً جميلة ، لذلك :

جمال الوجه مع قبح النفوس كقنديل على قبر المجوس

***

كما أن هناك جسما جميلا ، هناك فعل جميل ، كما أن هناك بيتا جميلا هناك بطولة جميلة .

والله أيها الإخوة ، البطولات التي نقرأ عنها في التاريخ القديم والحديث تبقى طرباً من قراءتها أسابيع ، لذلك قالوا : إن في الإنشاد إرشاداً ، وإن في الإرشاد إنشاداً ، أحياناً تطرب لفكرة جميلة ، لتحليل جميل، لعقيدة صحيحة ، تطرب لتفسير آية رائع فالجمال جمال النفوس أحياناً .

لذلك :

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا)

كل فعل الله عز وجل فيه أداء لوظيفة أساسية ، وأداء لوظيفة جمالية .

أنت ما مهمتك أيها الإنسان ؟ إذا قدمت شيئاً قدمه بغلاف جميل ، إذا أردت أن تنصح إنساناً فانصحه بكلام جميل ، بكلام لطيف ، بكلام متواضع .

اللباس الحسن ليس من الكِبر :

يجب أن يكون الجمال منهجاً في حياتنا ، جمال الشكل والنظافة ، والأناقة ، والانسجام ، وجمال الأفعال ، والمؤمن جميل ، لأن الله جميل يحب الجمال .

يا رسول الله ، إن أحدنا يحب اللباس الحسنة ، هل هذا من الكبر ؟ قال :

((لا ، الكبر : من بطر الحق وغمط الناس))

[أخرجه أبو داود والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة]

الكبر أن ترفض الحق ، وأن تبخس الناس أشيائهم هذا كبر ، أما أن يكون بيتك جميلا ، مرة ثالثة ، ورابعة ، وخامسة : أنا لا أقصد بالجمال الذي يحتاج إلى ملايين مملينة .

والله مرة دخلت بيتا في الغوطة ، لفت نظري جمال بسيط جداً ، كل أصص النباتات بحجم واحد ، مطلية باللون الأخضر ، بقياس واحد ، هذا شيء جمالي ، طلاء بسيط جداً ، لكن بلون لطيف ، ما مِن حاجة غير مهمة في البيت كل شيء أساسي .

أحيانا ستار لطيف ، ألوان الستار تنسجم مع الأثاث ، وأحيانا السجادة ، الطقم أخضر ، والسجادة خمري ، فلا تناسب ، وأحيانا السجادة من لون الطقم تقريباً تعطي جمالا ، الجمال مطلوب ، مطلوب عند كل الناس ، وأنت بإمكانك أن تتنامى أذواقك ، حتى يكون البيت جميلا ، قد يكون خمسين مترا ، لكن فيه جمال ، قد يكون مركبة قديمة جداً ، لكن فيها جمال فيها أناقة ، هذا من قوله تعالى :

(وَرِيشًا)

والنقلة الثانية : كما أن هناك سوءة في الجسد عورة مغلظة ، منظرها قبيح ، هناك سوءة في النفس ، سوءة الجسد تسترها الثياب ، وسوءة النفس تسترها التقوى ، الاتصال بالله ، وطاعة الله ، واقتباس الكمال الإلهي ، أن تكون رحيماً ، أن تكون متواضعاً ، أن تكون حليماً ، أن تكون لطيفاً ، أن تكون شفوقاً ، أن تكون منصفاً أن تكون عدلاً ، والبطولات لا تنسى .

ذَلِكَ خَيْرٌ : كلُّ شيء أنزله الله من السماء فيه خير :

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ)

كل شيء نزل من السماء هو الخير ، مثلاً الله عز وجل يقول :

(وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ)

(سورة الزمر الآية : 6)

أيضاً المطر نزل من السماء ، والأرض أنبتت ذلك العشب ، والحيوان أكل هذا العشب ، فنمَا جسمه وتكاثر ، فكأن هذه الأنعام أنزلت علينا من السماء ، هذا المعنى الثاني :

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)

(سورة الحديد الآية : 25)

إذاً : الكتاب ميزان ، الكتاب منهج ، الكتاب فيه افعل ولا تفعل ، افعل الخير ، ولا تفعل الشر ، افعل العدل ولا تفعل الظلم ، وهذا الكتاب نزل من السماء .

(وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)

(سورة الحديد الآية : 25)

المنافع بأس الحديد ، لأنه ينفع الناس في صون القيم ، والسيف من الحديد ، والأسلحة كلها الآن من الحديد ، لكن شتان بين أن يكون السلاح لصون القيم ، أو أن يكون السلاح لصون الكفر والعدوان ، الآن نحن في عصر استثنائي ، كما قال عليه الصلاة والسلام :

((كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف ، ولم تنهوا عن المنكر ؟ قالوا : أو كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال: نعم والذي نفسي بيده ، وأشد منه سيكون ، قالوا : وما أشد منه يا رسول الله ؟ قال : كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكرا ورأيتم المنكر معروفا ؟ قالوا وكائن يا رسول الله ؟ قال : نعم وأشد منه سيكون ، قال : كيف بكم إذا أصبح المعروف))

[رواه أبو أمامه عن النبي عليه الصلاة والسلام]

السلاح في تاريخ البشرية يدعم الحق ، يدعم الهدى ، الآن السلاح يدعم الكفر ، يدعم الفساد ، يدعم الإباحية ، موت كعقاص الغنم لا يدري القاتل لمَ يقتل ، ولا المقتول فيما قتل ، يوم يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى ولا يستطيع أن يغير ، إن تكلم قتلوه ، وإن سكت استباحوه .

لذلك :

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)

بالعدل ، لينفذ أمر الله ، ودعماً لهذا الأمر الإلهي ، ودعماً لهذا الوحي السماوي ، ودعماً لهذا الحق الذي هو من عند الله ،

(وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)

البأس أن يكون سلاحاً ، تدافع به عن الحق ، وعن نفسك .

أيها الإخوة الكرام ، لا زلنا في :

(أَنْزَلْنَا)

كل شيء نزل من السماء فيه خير كبير ، فيه نعمة كبيرة ، وكل شيء جاءنا من البشر فيه شر كبير ، لذلك قال تعالى :

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة الروم)

سوءات الحس تواريها الثياب ، وسوءات القيم تواريها التقوى ، ولعل سوءات القيم أشد قبحاً من سوآت الحس .

تربية الأولاد على جمال الظاهر والباطن :

أيها الإخوة ، الله عز وجل يقول :

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ)

(سورة الأعراف الآية : 32)

هذه الأشياء الجميلة مِن نِعم الله الكبرى ، والله مرة دخلت مدرسة شرعية ، والله فيها لمسات جمالية ، شيء يحير العقول ، الدخول للمدرسة شيء محبب .

حدثني أخ مقيم ببلاد بعيدة ، من شدة أناقة المدرسة وجمال أبهائها ، وتأمين الحاجات التي ترضي الطلاب ، الطفل في يوم العيد يبكي ، تطوق نفسه للذهاب إلى المدرسة يجب أن تكون هكذا مدارسنا ، وهكذا مساجدنا ، وهكذا بيوتنا ، العنصر الجمالي نحن مقصرون جداً فيه .

تجد قرية أنيقة ، شوارعها ، حدائقها ، الأشجار تحف بها ، لأن أهل هذه البلدة يوم الجمعة جميعاً يعملون في تنظيفها ، وفي تجميلها ، وفي تزينها .

المساحات الجمالية ، شيء يلفت النظر ، قد تدخل إلى مسجد ، والله في قرية دخلت من يومين مسجدها رأيتُ شيئا جميلا جداً ، الأناقة ، والسجاد ، والثريات والتدفئة ، شيء جميل جداً ، المكان الجميل يستهوي ، الآن ماذا فعل أهل الدنيا ؟ أنشؤوا فنادق بخمس نجوم ، جميلة جداً ، لكن فيها الخمور ، وفيها الزنا ، وفيها المعاصي والآثام ، وفيها الحفلات الراقصة ، وفيها النوادي الليلية ، من ربط الجمال بالكفر والمعصية ؟ هم نحن لما نربطه بالإيمان والطاعة ؟ ماذا ينقصنا ؟ من هذا الذي ربط الجمال بالكفر والمعصية ؟ نحن يجب أن نربطه بالإيمان والطاعة ، والبوادر طيبة جداً .

قد تدخل معهدا فيه نظام ، فيه أناقة ، فيه لوحات .

دخلت مرة إلى ثانوية في تركيا أقسم لكم بالله كأنها فندق خمس نجوم ، شيء محبب ، اللوحات الفنية ، النظافة ، الأناقة ، النبتات .

أنا أتمنى أن نقيم مسحة جمالية في بيوتنا ، لأن البيت الجميل يستهوي الأولاد ، والبيت غير جميل ، ما فيه نظام ، فيه فوضى ، فيه تنازع بين الأم والأب ، الأولاد يهربون منه إلى الطريق ، إلى أصدقائهم ، فقدتَ ابنك بهذه الطريقة ، اجعل البيت شيء يجذب الأولاد إليه .

خاتمة :

أيها الإخوة ، الأشياء الجميلة والأنيقة هي من الإيمان ، وأيضاً من الحضارة أن تجد حديقة ببلد متطور نظيفة بشكل غير معقول ، وما مِن إنسان يمكن أن يؤذي الحديقة ، تجد حديقة ببلد متخلف ، حينما

أنشأت رائعة جداً ، بعد حين أصبحت مكانا للقمامة ، هذا شيء غير معقول إطلاقاً ، فنحن يجب أن نربي أبناءنا أنه يعتني بالأشياء العامة بالحديقة يعتني بالمركبة العامة ، ما يكتب ، أيام تجد خط مكتوب على الحيطان ، يكون الحائط حجر ما عاد له حل ، يريد نحت مرة ثانية ، ففي تصرف غير جمالي ، غير مقبول إطلاقاً بسبب ضعف التربية ، وضعف القيم والوازع .

لذلك أنا ركزت في هذه الآية على كلمة :

(وَرِيشًا)

نحن إذا كانت بيوتنا جميلة جمال الانسجام ، لا جمال الفخامة والغلاء ، بل جمال انسجام ، أحيانا طلاء البيت رخيص ، لكن بلون زاهٍ ، يحدث راحة نفسية ، الأثاث المتناسب يحدث راحة نفسية ، ولما تكون بيوتنا غير جميلة إطلاقاً ، وفيها خصومات ، يهرب الطفل من البيت ، ويجد الطريق أجمل ، فقعد مع رفاقه ، ودخل المطعم ، فخسرناه ، فاترك ابنك عندك ، خصِّص له غرفة خاصة ، خصِّص له مساحات جمالية ، خصِّص له منظرا طبيعيا صغيرا ، لوحة ، آية قرآنية مثلاً ، أنا أتمنى أن نربط الإيمان بالجمال الإيمان جميل ، الإيمان أجمل شيء بحياتك أنك مؤمن ، صادق ، أمين ، متواضع ، وأضِف لإيمانك ، ورحمتك ، وإنصافك ، وعدلك ، وفصاحتك أضِف مكانا جميلا ، عندك محل تجاري اتركه جميلا ، اترك مكتبك جميلا ، اترك الصيدلية جميلة ، الجمال يجذب الغرب ، انتبه لهذه الناحية ، أي مكان تذهب إليه ، تجد طريقا عاما ما له لون أبداً ، كان في الشتاء ففي أيام مطر ، ومسّ الطينُ الحيطانَ ، تجد منظرا لا يحتمل ، هذا من المفروض أن نكافحه .

لذلك أنا ألحّ في هذا الدرس أن نعتني بالجمال ، حتى نجذب الناس إلينا ، حتى نري الناس أن الإسلام جميل ، وأهله عندهم أذواق رفيعة جداً .

إذاً :

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

هناك سوءة جسمية سترها بالثياب ، وسوءة نفسية سترها بالتقوى .

تكلم أحدُهم كلاما بذيئًا جداً ، ويرتدي ثيابا أنيقة جداً ، قال له شخص ، إمّا أن تتكلّم مثل لباسك ، أو تلبس مثل كلامِك ، إما أن تنطق بكلام جميل كهذه الثياب ، أو أن ترتدي ثيابا كهذا الكلام ، الانسجام مطلوب بهذه الحياة .

الآية دقيقة جداً ، فيها أنواع السوءات ، وأنواع اللباس ، وفيها إشارة إلى أن الريش له هدف جمالي فقط، الآن كل شيء تراه عينك من خَلق الله جميل ، الفواكه كلها جميلة ، الأشجار جميلة ، الجمال جزء من خَلق الله عز وجل .

انظر إلى السماء قبل الغروب فيها الشفق الأحمر ، انظر إلى البحر كيف ألوانه متدرجة ، انظر إلى الأخضر ، لماذا خلق الله أشياء جميلة جداً ؟ كي تكون مرتكزاً لأوصاف الجنة ، هناك أماكن فيها غابات ، فيها إطلالة على بحر ، فيها أشجار جميلة .

كم نوعا من الأزهار ؟ والله هناك مئات ألوف من أنواع النباتات هدفها فقط إمتاع العين فقط ، ألوف مؤلفة من النباتات الجميلة من أجل أن تستمتع بها .

إنّ الجمال في الإسلام منضبط بمنهج الله ، ما في مثلاً نريد أن نعلم طلاب الفنون الجميلة يرسموا امرأة عارية ، هذا مرفوض في ديننا ، لأن المرأة لها أحكام خاصة ، المرأة زوجة مقدسة ، المرأة نبت مقدسة ، لا يصح أن تكون المرأة سلعة رخيصة ، أو مظهر جمالي فقط ، المرأة يجب أن تصن بالثياب، أما جمالها لزوجها ، لمحارمها ، وليس لكل الناس .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(12-60): تفسير الآية 27 ، عدم سيطرة الشيطان على الإنسان وبعض خصائص الجن

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-03-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثاني عشر من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الكريمة السابعة والعشرين ، وهي قوله تعالى :

(يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآَتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)

أنواع الموضوعات من حيث وسائل إدراكها :

أيها الإخوة ، موضوع الجن موضوع إخباري ، هناك موضوعات حسية ، أداة اليقين بها الحواس الخمس ، إذا ظهرت عينه وآثاره ، سبيل اليقين به الحواس الخمس ، أو استطالاتها ، كالمراصد والمجاهر .

أما الشيء الذي غابت عينه ، وبقيت آثاره فهذه موضوعات عقلية ، سبيل اليقين بها العقل ، في الدين موضوعات ثالثة ، موضوعات إخبارية ، لا سبيل لا إلى الحواس ، ولا إلى العقل كي يوقن بها ، إنها موضوعات إخبارية .

الكون ينطق بوجود الإله :

حينما تفكر في خلق السماوات والأرض والسماوات والأرض فالشيء الأول الثابت في طريق الإيمان أن هذا الكون ينطق بوجود إله ، واحد ، وكامل ، وكمال الخلق يدل على كمال الوجود ، كمال الخلق يدل على كمال التصرف أيضاً ، هذا الإله العظيم من كماله أن يرسل للعباد رسلاً ، وأن ينزل كتباً ، وان يعرفهم بأنفسهم ، وبالمهمة التي أنيطت بهم ، أما الذي جاء بهذا الكتاب يقول : أنا رسول الله ، الكتاب يحتاج إلى شهادة من الله عز وجل لعباده أنه كلامه ، إعجاز القرآن شهادة الله له بأنه كلامه ، ووقوع الوعد والوعيد شهادة أخرى من الله لعباده أنه كلامه .

دور العقل والنقل في الإيمان :

إذاً : الذي جاء بهذا الكتاب هو رسوله ، آمنا بالله موجوداً ، وواحداً ، وكاملاً ، عن طريق الكون ، وآمنا بقرآنه على أنه كلامه القديم من خلال الإعجاز ، ووقوع الوعد والوعيد ، وآمنا برسوله من خلال قرآنه .

ثلاثة أسباب عقلية للإيمان ، بقي السبب الآخر ، الإله العظيم والكون يشهد له وكتابه وإعجاز القرآن يشهد له ، ونبيه ببيانه ، وهو المعصوم يشهد له ، الآن انتهى دور العقل ، وجاء دور النقل ، دور النقل لا سبيل إلا لتصديق كلام الله أو كلام النبي ، الخبر الصادق ، عن طريق النقل عرفنا أن هناك عالماً هو عالم الجن .

مسائل في الإيمان تتعلق بالأخبار الشرعية والنقول الصحيحة :

الإيمان بالجن تصديقي لا تحقيقي ، الإيمان بوجود الله وأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى إيمان تحقيقي، والإيمان بالقرآن الكريم من خلال إعجازه ، ووقوع الوعد والوعيد تحقيقي ، والإيمان برسوله الكريم من خلال قرآنه تحقيقي ، انتهى دور العقل وبدأ دور النقل .

الآن أخبرنا الله أن هناك حياة أبدية خُلقنا من أجلها ، أخبرنا الله أن الله عز وجل سيحاسبنا عن كل شيء ، أخبرنا أن هناك أنبياء كثر جاءوا قبل النبي عليه الصلاة والسلام .

(مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ)

(سورة غافر الآية : 78)

أخبرنا أنه بعد الموت هناك برزخ إلى يوم القيامة ، أخبرنا أن هناك جنة يدوم نعيمها ، وهناك نار لا ينفذ عذابها ، هذه كلها إخباريات ، وأخبرنا أنه حينما :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

وفي آيات أخرى : حملها الإنس والجن :

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)

(سورة الرحمن الآية : 33)

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

موضوع الجن إخباري :

إذاً : موضوع الجن بكل تفاصيله موضوع إخباري ، لا عقلي ، ولا حسي ، ولا استنباطي ، موضوع إخباري ، تؤمن بالجن إيماناً قطعياً حينما تؤمن بأن هذا الإله العظيم من خلال الكون كماله مطلق ، وأن النبي الكريم من خلال قرآنه لا ينطق عن الهوى ، إيماننا بالجن إيمان إخباري .

هذه حقيقة أولى أيها الإخوة ، لكن أنا أن أنصح أي إنسان أراد أن يدعو إلى الله أن يمتنع عن طرح الموضوعات الإخبارية لمن كان إيمانه بالله مهزوزاً ، ما معك دليل لا حسي ، ولا عقلي ، معك دليل إخباري ، الإيمان بالملائكة ، الإيمان بالجن ، الإيمان بالحوض ، الإيمان بالصراط ، الإيمان بأصل العالم .

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الكهف الآية : 51)

الله أخبرنا ببداية البشر من آدم وحواء ، الإيمان بما بعد الموت ، هذه كلها قضايا إخبارية ، إلا أن ابن القيم وحده اعتقد وأنا معه في هذا الاعتقاد أن الإيمان باليوم الآخر دليله عقلي ، وتفاصيله نقلية ، لأنه لا يعقل لكمال الله المطلق أن يكون في الأرض أقوياء طغاة ، وضعفاء مظلومون ، وتنتهي الحياة ، أغنياء وفقراء ، أعمارهم مديدة ، وأعمار قصيرة ، أصحاء ومرضى ، وتنتهي الحياة ، هذا مستحيل ، لا يتناسب مع كمال الخلق الذي يشير إلى كمال الخالق .

أيها الإخوة ، إذاً موضوع الجن بقضه وقضيضه ، بكل تفاصيله موضوع إخباري ، الإيمان به عن طريق الخبر الصادق .

موقف الناس من موضوع الجن :

الآن الناس حيال هذا الموضوع ، فريقان ، فريقا ومنهم معظم المسلمين الذين لم يطلبوا العلم ، أعطى الجن قوى رهيبة ، أعطاه علم الغيب ، أعطاه إسعاد الإنسان ، أعطاه إضلاله ، أعطاه قوى خارقة ، هذا كله باطل .

وهناك أناس آخرون ماديون أنكروا وجود الجن ، والحقيقة وسط بين طرفين ، وأنا مضطر في هذه الآيات المتعلقة بالجن أن أوضح بعض الحقائق .

حقائق متعلقة بموضوع الجن :

1 – الجن موجودون حقيقة :

أولاً : الجن موجودون ، نحن مؤمنون بكتاب الله .

(قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ)

(سورة الجن الآية : 1)

2 – منهم الصالحون ومنهم دون ذلك :

الجن ورد ذكرهم في القرآن الكريم في آيات كثيرة ، وهم متنوعون ، منهم صالحون ، ومنهم طالحون.

(وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً)

(سورة الجن)

هناك جن صالحون مؤمنون ، وهناك جن ضالون مضلون ، فاسدون مفسدون لكن النبي لم يرهم ، أخبر أنه حضر مجلسه نفر من الجن ، لم يرهم ، الآن ومنهم كذّابون وسفهاء ، ومنهم ساذجون .

(وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً)

(سورة الجن)

كانوا يكذبون .

(وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً)

(سورة الجن)

منهم من يكذب ، ومنهم من يصدق الكذب ، وتصديق الكذب نوع من السذاجة هذا كله قرآن . في موضوع الجن لا يستطيع واحد منا أن يتكلم برأيه ، لأنه موضوع إخباري ، ولا نستطيع أيضاً أن نزيد على الإخباريات ، ولا أن ننقص منها .

3 – الجن عندهم استعداد للهداية :

الجن عندهم استعداد للهداية .

(فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ)

(سورة الجن الآية : 1)

إذاً : الجن عندهم استعداد للهداية .

(وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً)

(سورة الجن)

هذه آية كريمة .

(وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ)

(سورة الجن الآية : 14)

إذاً : عندهم استعداد للهداية .

4 – لن ينتفع الإنس إطلاقاً إذا لاذوا بالجن :

الآن الحقيقة الخطيرة ، وهي أخطر حقيقة لهذا الدرس : لن ينتفع الإنس إطلاقاً إذا لاذوا بالجن .

(وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً)

(سورة الجن)

لا يمكن أن تنتفع من الجن ، إلا أن تزداد مرضاً ، وقلقاً ، وخوفاً ، وسقوطاً من عين نفسك ، ومن عين الله .

5 – الجن لا يعلمون الغيب :

الدليل الآخر ، أو الحقيقة الخطيرة الأخرى أنهم لا يعلمون الغيب ، الله عز وجل روى لنا قصة عن سيدنا سليمان ، وقد كلف الجن بأعمال شاقة ، ومات هذا النبي الكريم ، وما دل الجن على موته :

(مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ)

(سورة سبأ)

(فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ)

سيدنا سليمان :

(مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ)

(سورة سبأ الآية : 14)

إخواننا الكرام ، الحقائق هذه يمكن أن تركل بها مليون قصة لا أصل لها ، الجن لا يعلمون الغيب ، بل سيد الخلق وحبيب الحق لا يعلم الغيب :

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)

(سورة الأعراف الآية : 188)

(لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً)

(سورة الجن الآية : 21)

سيد الخلق ، وحبيب الحق ، بل لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرا ، بل :

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

(سورة الأنعام)

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ *فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)

(سورة الحاقة)

لذلك الجن لا يقدرون أن يفعلوا شيئاً .

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة إبراهيم)

هذا القرآن ، وهذه الحقائق ، في ضوء هذه الحقائق يمكن أن تركل بقدمك مليون قصة لا أصل لها ، ولا واقع لها ، ولا مؤدى لها .

شيوع الأساطير والخرافات بين المسلمين :

والله لولا أنني أعلم علم اليقين أن مساحات شاسعة من بلاد المسلمين يؤمنون بخرافات ، وأساطير ، وترهات ، وخزعبلات ، ودجل وابتزاز لما ذكرت هذا الموضوع ، ومنهم مثقَّفون ، ومن يحمل شهادة عليا ، والذين يعملون في هذا الحقل يبتزون أموال الناس ، وفي حالات كثيرة ينتهكون أعراضهم إن كنَّ نساء ، يبتزون أموال الناس ، وينتهكون أعراضهم ، وأنت حينما تتصور أن جنياً اقترب منك بوسوسة أو بتزيين شهوة ، أو بإثارة فتنة ، يكفيك أن تقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ويحترق الجني .

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)

(سورة الأعراف الآية : 200)

انتهى الأمر .

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

(سورة الأعراف)

معك سلاح فتاك ؛ أن تستعيذ بالله ، لست محتاجا لمن يقول لك : أريد ديكا أسود بالذات ، أريد خروفًا بكذا صفة ، وأريد ألف ليرة ، وأنا أخرجه لك ، يكتب لك كلمات ما لها معنى إطلاقاً ، ويتكلم كلاما ما له معنى إطلاقاً ، وإذا كان المستجير امرأة اعتدى على عرضها ، هذا يقع كل يوم ، وعندي قصص ،

وموثقة ، كفانا خرافات ، وكفانا خزعبلات ، وكفانا أوهاما ، وكفانا أخطاء ، وكفانا عقائد زائغة وباطلة.

الآية الأصل في هذا الموضوع :

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ)

لا يعلم الغيب ، ولا يقدر أن يفعل معك شيئاً .

أيها الإخوة ، لذلك علامة عقلك ، وعلامة سلامة عقيدتك ، وعلامة الإيماني الأصيل أن تركل كل هذه القصص ، وتلك المحاولات ، وتلك الأباطيل والخزعبلات والكذب ، والدجل بقدمك ، ولا تعبأ بذلك .

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(سورة الحجر الآية : 42)

وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ

تكفيك هذه الآية ، كن عبداً لله ، ولن تستطيع الجن بأكملهم أن ينالوا منك :

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة البقرة الآية : 102)

هناك في أمراض نفسية ، ووساوس متسلطة ، وخوف ، وقلق وهلع ، وجن ، ابتزاز .

أيها الإخوة الكرام ، أما الآية التي نحن بصددها فإن الله عز وجل خلق آدم ، وخلق حواء ، وهم مكلفون أن يعبدوا الله عز وجل ، لو أنه خلقهم في الأرض مباشرة فلا جنة في الأرض ، لو أنه خلقهم كما نحن عليه ، سيدنا آدم ، والسيدة حواء يفتقران إلى خبرة متعلقة بالشيطان ، لذلك كان الدرس البليغ لسيدنا آدم ولحواء ، ولذرية آدم من بعده إلى يوم القيامة .

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً)

(سورة فاطر الآية : 6)

الشيطان يكرهك بزوجتك ، ويزين لك امرأة أجنبية لا تحل لك ، لها زوج ، ولها أولاد ، والقصص في هذا الموضوع لا تعد ولا تحصى ، الشيطان يخوفك أن تنفق مالك .

(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

الشيطان يزين لك المعصية .

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

(سورة الأعراف)

دائماً يشكو ، بيت ، ومركبة ، وزوجة ، وأولاد ، ودخل كبير ،

(وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

والمؤمن يشكر على قطعة خبز يأكلها قبل أن ينام ، يا رب لك الحمد ، يشكر الله على صحته ، على أن آواه في بيت ، وكم ممن لا مأوى له ، و نحن جميعاً ينبغي أن نشكر الله على نعمة الأمن في بلادنا ، لأنكم ترون ماذا يجري حولنا .

لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ

أيها الإخوة الكرام ،

(لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

تقدُّم ، ومجتمع الحضارات ، والمرأة نصف المجتمع ، والعولمة ، دين جديد هذا ، هذه حيونة ،

(مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

(وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

نعود إلى الآراميين ، نعود إلى أقوام الوثنية ، إلى مصر الفراعنة ، ونغفل الإسلام منهج الله في الأرض

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

وضوءك ما صح ، ما شعرت ببلل ؟ وساوس متسلطة ، والله مئات بل ألوف يبقى في الحمام خمس ساعات ، يعيد الوضوء خمس مرات ، يعيد الصلاة سبع مرات ، توسوس .

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

يمنعه من فعل الخير خوف رياء ، يقول : بدليل أنك ترائي للناس بهذا العمل ، إذاً لا تفعل هذا الخير ، والله عشرات بل بضع عشرات من الإخوة بسذاجة عجيبة توقف عن فعل الخير قال لئلا يكون مرائياً ، من قال لك ذلك ؟ هذه :

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

لما قصفت أفغانستان في رمضان هذا وحيد القرن سألوه : معقول أن تقصفها في رمضان ؟ هذا شهر مقدس ، قال : غزوة بدر كانت في رمضان أيضاً ، الشيطان داخل في أمور ديننا بشكل دقيق جداً .

(لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

يأتيك من الجانب الإسلامي أن الفاتحة فيها 14 شدة ، نقصتها واحدة ، الصلاة باطلة ، راحت الصلاة، تجد الإنسان المؤمن الطيب البسيط يقع بوساوس متسلطة تسحقه ، من خلق الله ؟ هذه يموت منها ، أنا جوابي : أي خاطر يزعجك فهو ليس منك ، اطمئن ، هذا من الشيطان ، ولا تعبأ به ، ولن تحاسب عليه، لأنك انزعجت منه ، لو كان منك لما انزعجت منه ، لروجته وارتحت إليه ، لذلك يمكن أن تنسى كل هذه الخطرات التي لا تعجبك .

يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ

شيء آخر : الله عز وجل لا يحاسب إلا على العمل ، اطمئن ، مهما جاءتك الخواطر التي لا ترضيك لن تحاسب ، لا تحاسب إلا على عملك فقط ، لا على خواطرك .

1 – معركة الحق والباطل أزلية :

أيها الإخوة ،

(يَا بَنِي آدَمَ)

أدخل آدم عليه السلام الجنة جنة الأرض ، وكان وضعه في جنة الأرض كوضعه في جنة السماء ، فلا عورة ، ولا تناول طعام إلى داخل الجسم ، النفس محيطة بالجسم ، كلها أعين ، كلها آذان ، يكفي أن يخطر في بالها شيء تكون عنده ، هذا وضع الجنة ، فلما أكل من الشجرة صار هناك أجهزة ، وهضم، وفضلات ، وبول ، وبراز ، وجهد ، وحدود ، هذه التفاحة لا تستطيع أن تكملها .

لذلك أراد الله عز وجل أن يكون آدم في الجنة يتلقى درساً بليغاً أن معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية .

(قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)

(سورة الأعراف الآية : 25)

هذه العداوة التي في الأرض أرادها الله وسمح بها لحكمة بالغةٍ بالغة ، لأن الحق لا ينمو إلا بالتحدي ، ولأن أهل الحق لا يستحقون الجنة إلا بالبذل والتضحية .

درسين ، معركة الحق والباطل ، معركة أزلية أبدية .

2– معركة الحق والباطل أزلية :

الدرس الثاني :

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا)

الفرق بين جنة الأرض وجنة السماء :

الآن جنة آدم التي في الأرض كانت قبل التكليف ، لكن جنة السماء التي وعد بها المتقون تكون بعد التكليف ، ولا يمكن لإبليس أن يدخلها ، ولا يمكن لمن دخلها أن يخرج منها ، هذا الفرق الدقيق ، لذلك الآن هناك تكليف ، افعل ولا تفعل ، وعندك خبرة ، عندك خبرة لإبليس كيف أنه أغرى آدم بمعصية الله فبدت العورة .

أيّة معصية لله من نتائجها عورة مادية وأخلاقية :

هذا قانون ، أيّة معصية لله من نتائجها عورة ، فإذا أكلت مال حرام أنت متهم عند الناس أنك لص لا سمح الله ولا قدر ، هذه عورة ، هناك عوارت مادية ، وسوءة ، وعورة مغلظة ، الفخذ عورة ، لكن هناك عورات نفسية ، الخيانة عورة ، لماذا الخائن يكاد يموت دناءة ؟ خان أمته ، فالخيانة عورة الفخذ عورة ، الغش عورة ، أية معصية لله عز وجل ينتج عنها عروة تسوءك ، وحينما عصا آدم ربه بدت عورته .

في الدرس قبل الماضي :

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

(سورة الأعراف)

امتحن فقط ، أما إذا امتحن ولم ينجح فإنها تعطي معنى آخر ، تعطي النتيجة السلبية للامتحان ، فلان فُتن ، إن قلت : فلان فُتن ونجح في الفتنة ، امتحن ونجح في الامتحان .

سيدنا موسى افتتن ونجح بالامتحان ، انضم إلى صاحب الحق مع أنه مضطهد ، ولم ينضم إلى القوي، من جماعة فرعون ، لذلك لما فُتن ونجح بالامتحان استحق تكريم الله عز وجل ، لكن إذا قلنا : فلان فُتن، وما كملنا ، إذا وقفنا عند فُتن يعني فُتن ولم ينجح ، وقد قال الله عز وجل :

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ)

(سورة البقرة الآية : 191)

بصراحة أب جاهلي قلبه كالصخر متوحش ، يأتي بفتاة كالملائكة ، جميلة ، عفوية ، يحفر لها حفرة في الرمل ، ويدسها بالتراب ، ويهيل عليها التراب ، هذا قلب متوحش ، في بعض الأخبار عن الرسول أنه بكى النبي عليه الصلاة والسلام ، أن الذي يطلق لابنته العنان ، ترتدي الثياب الضيقة ، والشفافة ، والفاضحة ، والقصير ، والطويل والماكياج ، والشعر ، وتفتن الشباب في الطرقات ، وتدعو الناس إلى الانحراف الأخلاقي قال تعالى :

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ)

الذي يئد ابنته مجرم في نظرنا ، وهذا الذي يسمح لابنته أن تفتن من في الطريق ، وأن تثير غرائزهم، وأن تشعرهم بالإحباط ، وبينه وبين الزواج عشرون عاما تريه كل مفاتنها ، ولا يستطيع أن يكلمها بكلمة ،

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ)

أيها الإخوة ، رحمة الله عز وجل أنه أعطانا الدرس البليغ ثم ، بعث بنا إلى الدنيا ثم كلفنا ، جاء الدرس قبل التكليف ، وحذرنا من الشيطان ، وحذرنا أيضاً من الخصومات لأنها منفذ للشيطان . والحقيقة الدقيقة أن كل مخالفة لأمر الله تظهر عورة الإنسان ، بل أنت حينما تعمل عملاً صالحاً وتتيه به تنكشف عورتك ، قال :

رقصت الفضيلة تيهاً بفضلها فانكشفت عورتها

حتى لو حدثت إنسانا : أنا فعلت كذا ، فلان لحمه من خيري ، انكشفت عورتك مننت عليه ، الاستعلاء، والمن ، والإيذاء باللسان عورات كلها .

وصدقوني أيها الإخوة ، أن الإنسان أحياناً تنكشف عورته عند الطبيب فيموت خجلاً ، لكن حينما يعصي الله عز وجل ، ويأتي يوم القيامة ، وقابل إحسان الله بالإساءة إلى خلقه .

ورد في بعض الآثار في الجامع الصغير : إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول : يا رب ، لإرسالك بي إلى النار أهون علي مما ألقى ، وإنه لا يعلم ما فيها من شدة العذاب .

لذلك العورة عورتان ، عورة مادية وهي السوءة ، وعورة أخلاقية وهي المعصية والإثم .

(يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ)

الإنسان لا يرى الجن :

المعاصي تري السوءات ، ولكن الشياطين نحن لا نراهم ، يقول لك دخل ، جلس هنا ، رأيته ، كله

خلط الإنسان لا يرى الجن ، والنبي كذلك ما علم أن الجن حضرت مجلسه إلا بعد أن أخبره الله ،

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)

أما المؤمنون فوليّهم الله ، أما الذين لا يؤمنون فأوليائهم الطاغوت ، واحد يزين الزنا ، واحد يزين الربا ، واحد يزين الاختلاط ، واحد يدفع إلى الخصومة الزوجية ، كل جني موكل بمعصية ، إذاً ، فهم عدد كبير ، أما الله عز وجل فهو ولي الذين أمنوا .

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)

(إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا)

(سورة آل عمران الآية : 155)

حينما يخطئ الإنسان يأتيه الشيطان ، وحينما لا ينظف بيته يأتيه الذباب ، ويأتيه البعوض ، الشيطان يبحث عن معصية ،

(إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا)

الشيطان يدعوك ، وليس له عليك سلطان :

أيها الإخوة ، الشيطان لا يستطيع أن يفعل شيئاً ، إلا أن يدعوك ، لذلك أنا أضرب هذا المثل كثيراً وهو مناسب لنعيده :

إنسان توجه إلى قسم شرطة ليشتكي على إنسان ، يرتدي ثيابا بيضاء جميلة جداً ، نزل في حفرة مياه آسنة سوداء ، منظره لا يحتمل ، المحقق قال له : على من تشتكي ؟ قال له : على فلان ، قال له : دفعك إلى الحفرة ؟ قال له : لا والله حرام ، أنا لا أحب أن أظلمه قال له : شهر عليك مسدس ، وأمرك أن تنزل لها ؟ قال له : لا والله ، أيضاً لم يفعل ذلك ، قال له : حملك وأنزلك ؟ قال له : لا والله ، لمَ تشتكي عليه ؟ قال لي : انزل ، فنزلت ، هذا يحتاج إلى مستشفى مجانين .

(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ)

أيها الإخوة ، نتابع الآيات في درس قادم إن شاء الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(13-60): تفسير الآيات 28 - 30 ، الفاحشة ـ الزيادة في القبح ـ الزنا

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 06-04-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة ، مع الدرس الثالث عشر من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثامنة والعشرين ، وهي قوله تعالى :

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا

1 – معنى الفاحشة :

أيها الإخوة ، ما معنى كلمة فاحشة ؟ كلمة فاحشة تنصرف إلى فعلٍ قبيح ، فعلٍ يسبب لفاعله العار ، فعل يجعل صاحبه مضغة في الأفواه ، شيء تستقذره النفس ، شيء تنكره الفطرة السليمة ، شيء يشيع بين الناس كخبر يتعلق الناس بترويجه لغرابته .

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً)

جاء في بعض المعاجم هي الزيادة في القبح ، وبعض العلماء صرَف كلمة فاحشة إلى الزنا ، لأن أية معصية ينتهي أثرها بانتهائها ، إلا الزنا فيستمر أثرها بعد انتهائها ، هناك ولد ، وجنين إسقاطه مشكلة ، وإبقاءه مشكلة ، وولادته مشكلة ، ونسبَه مشكلة ، ومكانته الاجتماعية مشكلة ، يبدو أن الفاحشة في الأعم الأغلب تنصرف إلى الزنا ، والله سبحانه وتعالي يقول :

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)

(سورة الإسراء)

2 – وجوبُ الابتعاد عن مقدِّمات الفاحشة :

والتوجيه الإلهي دقيق جداً ، إذ هو ينهى عن القرب من الزنا ، لا عن الزنا ، يبدو أن هذه المعصية لها مقدمات ، وكأن المقدمات منطقة خطيرة ، فإذا دخلت فيها جذبتك إلى نهايتها .

تماماً : كتيار كهربائي عالي التوتر ، فيه 8 أمتار ، أيّ كائن حيّ دخل في هذه الأمتار الثمانية قبل أن يصل إليه يجذبه ويحرقه .

يبدو أن هذه المعصية كبيرة ، أو يبدو أن هذه الجريمة تسمى في القانون جريمة الزنا ، يبدو أن الزنا له قوة جذب كبيرة ، فحينما تتساهل وتدخل المنطقة التي ينبغي أن تبتعد عنها تصل إلى نهاية الفاحشة شئت أم أبيت .

تماماً : كصخرة في رأس جبل مستقرة ، فإذا دفعتها وفي نيتك أن تجعلها تنحدر في المنحدر عشرة أمتار لن تستقر إلا في قعر الوادي ، أنت مخير أن تبقيها في مكانها الآمن أو أن تدفعها ، فإذا دفعتها فلن تستقر إلا في نهاية الوادي .

لذلك أقول لكم هذه الكلمة الدقيقة ، وتؤكدها دراسات علم النفس : إن الإنسان حينما يقع في الفاحشة 90 % ممن وقعوا في هذه الفاحشة ما كانوا يتصورون أن يصلوا إلى نهايتها ، ولكن لأنهم اقتربوا من حرمها .

((الحَلالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُما مُشْتَبِهاتٌ))

[متفق عليه]

صحبة الأراذل طريق إلى الزنا ، صحبة الزناة طريق إلى الزنا ، مطالعة قصة إباحية طريق إلى الزنا، مشاهدة عمل فني إباحي طريق إلى الزنا ، مطالعة موقع إباحية في الإنترنت طريق إلى الزنا ، إطلاق البصر في الطريق طريق إلى الزنا ، لقول الله عز وجل :

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور الآية : 30)

كأن الآية رسمت طريق حفظ الفرج وغض البصر ، وأؤكد لكم أيها الإخوة بشكل قاطع أنه ما من تكليف كلفنا الله به ، وما من معصية نهانا عنها إلا وفي وسع الإنسان أن يأخذ بالتكليف ، ويبتعد عن ما نهاه عنه الله ، لقوله تعالى :

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة الآية : 286)

إنّ الله لا يعذب قلبا بشهوة تركها صاحبها في سبيل الله ، وإذا سألني شاب : بماذا تنصحني ؟ أقول للشاب : أنصحك أن يكون النبي الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم سيدنا يوسف قدوة لك ، لأنه قال :

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

(سورة يوسف الآية : 23)

لأنه كان شاباً جميل الصورة ، وكان بعيداً عن أهله ، وكان في قصر ملك ، والتي أمرته بالزنا سيدته، ولم تفضح أمره ، وقد عدّ العلماء عشرة أسباب تدعوه إلى أن تزلّ قدمه ، ومع ذلك قال :

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

لما صار عزيز مصر رأته خادمة في موكبه فقالت : سبحان من جعل العبيد ملوكاً بطاعته ، وسبحان من جعل الملوك عبيداً بمعصيته !!!

والآن كل الفضائح في الأرض من زمرتين فضيحة جنسية ، أو فضيحة مالية ، فإذا تمكنت أن تسد هاتين الثغرتين فأنت في حصن ، ولا يستطيع أحد في الأرض أن ينال منك ، محصن من أن تأكل مالاً حراماً ، ومحصن من أن تتهم بامرأة ، إن لم تخلو بها كيف تتهم ؟ .

3 – إيّاكم والخلوة بالأجنبية :

لذلك أيها الإخوة ، الخلوة مع المرأة أجنبية ، النبي قال كلام دقيق قال :

((لا يخلون رجل بامرأة))

[أخرجه أحمد والترمذي والحاكم ، عن عمر]

ما قال : ما خلا كافر ، ما قال : ما خلا فاسق

((لا يخلون رجل))

أيّ رجل من دون استثناء بامرأة ، حتى إن بعض دراسات علم نفس الجنس تؤكد أن الإنسان حينما يستثار من قبل امرأة في خلوة تعطل محاكمته .

ألم يقع في حماقة ما بعدها حماقة رئيس أكبر دولة في العالم ، لأنه كان في خلوة ، وأعلى منصب جمهوري في الأرض اضطر أن يبكي أمام رجال الدين معترفاً بذنبه ، وقد نشر على الإنترنت أكثر من 3000 صفحة في تفاصيل سقوطه .

(وَلَا تَقْرَبُوا الزنا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا)

ولا يزني إلا الجاهل الدنيء . سيدنا يوسف قال :

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

(سورة يوسف)

4 – كل شهوة لها قناة نظيفة تسري من خلالها :

النقطة الدقيق أيها الإخوة ، أنه ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها ، لا تقلق ، وسبحان من لا ينسى من فضله أحدا .

((ما من شيء أحب إلى الله تعالى من شاب تائب))

[أخرجه أبو المظفر السمعاني ، عن سلمان]

إن الله ليباهي الملائكة بالشاب التائب ، يقول : انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي ، بماذا ترقى إلى الله ؟ غض البصر يرقى بك إلى الله ، ضبط الأذن عن سماع الأغاني يرقى بك إلى الله ، ضبط اللسان عن أن تتفوه بكلمة فاحشة يرقى بك إلى الله ، أن تصاحب المؤمنين صحبتهم ترقى بك إلى الله .

((لا تصاحب إلا مؤمنا ، ولا يأكل طعامك إلا تقي))

[أخرجه أحمد ، وأبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم عن أبي سعيد]

أن تبتعد عن كل عمل فني فيه مشاهد مثيرة هذا يرقى بك إلى الله ، أن تلقي من يدك كل قصة مثيرة ألقها في الأرض ، أنت إنسان طاهر ، وهذه الشهوة التي أودعها الله فيك لن تحرم منها ، ولكن في الحلال .

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص الآية : 50)

المعنى المخالف أن الذي يتبع هواه وفق هدى الله عز وجل لا شيء عليه ، كإنسان يتزوج ، وقد يكون اللقاء الزوجي ، وقد يستيقظ لصلاة الليل ، وقد يبكي في الصلاة ، ما فعل شيئاً خلاف المنهج ـ دقق في هذا الكلام ـ ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها ، الزواج شيء رائع جداً ، امرأة تحل لك ، امرأة مصيرها لك ، معك ، سوف يثمر هذا الحب طفلاً يملأ البيت سعادة ، يكبر ، يكون معك دائماً ، يكون في عونك ، البنت في قلبها عطف وحنان على أبيها لا يوصف ، الزواج الشرعي فيه مستقبل ووفاء ، وسعادة ، وطمأنينة ، وراحة نفسية ، ومكانة اجتماعية .

لما يخطب الإنسان يأتي إلى بيت أهل مخطوبته ، خطب ، وكتب الكتاب ، يبقى إلى الساعة الثالثة أحياناً ، لا أحد يتكلم ولا كلمة ، هي زوجته ، وحقه ، ويوم العرس يزمرون في الطريق ، أتستحيون ؟ لا ، لا نستحي ، هذا عرس ، وحلال .

أؤكد لكم مرة ثانية أنه ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها .

أؤكد للإخوة الشباب وللأخوات الشابات أن مرة زار بيتي إنسان متقدم في السن ، قدمت له ضيافة قطعة حلوى ، أول قطعة وضعها في فمه ، قال دعاء والله أنا أعرفه ، لكن شعرت بقشعريرة ، قال : سبحان من قسم لنا هذا ، ولا ينسى من فضله أحدا .

أنا أقول للإخوة الشباب : غض بصرك ، واضبط لسانك ، واضبط أذنك واطلب العلم ، وائتِ إلى المسجد ، وأتقن عملك ، ولن ينساك الله من فضله ، لأنه في كتاب الجامع الصغير حديث إن قرأته اقشعر جلدك ، الحديث ضمن مجموعة أحاديث تزيد على عشرين حديثًا ، حق الرجل على ابنه ، حق الأب على ولده ، حق الابن على أبيه ، حق المسلم على المسلم ، حق الجار على الجار ، أما هذا الحديث :

((حق المسلم على الله أن يعينه إذا طلب العفاف))

عندي قصص كثيرة ، لا تعد ولا تحصى عن شاب طلب العفاف ، إحدى هذه القصص لعلي ذكرتها سبقاً :

اضطر شاب أن يرافق أمه إلى فريضة الحج ، حج وهو في الـ18 من عمره ، فلما عاد عنده مكتبة في حي متواضع ، يبدو أن فتاة متفلتة ساقطة وقفت أمام محله وغمزته ، وأشارت إليه أن اتبعني ، فتبعها ، وهو في الطريق أجرى محاكمة ، قال : يا رب أنا حججت بيتك الحرام ، وأين أنا ذاهب الآن ؟ فخاف من الله ورجع ، يقسم بالله العظيم أنه في اليوم التالي وقف أمام محله التجاري رجل وقور من وجهاء الحي ، قال له : يا بني ، هل أنت متزوج ؟ قال : لا ، يا عم ، قال له : عندي فتاة تناسبك تماماً ، أرسل أمك إلينا ، هو توهم أنه فيها عيب كبير حتى عرضها أبوها ، هكذا نحن ، وهذا من أفكارنا الجاهلية ، لكن القرآن قال :

(قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ)

(سورة القصص الآية : 27)

ما الذي يمنع تكون أبا ، وعندك بنت مناسبة صالحة مستقيمة ، أن تعرضها على شاب مؤمن ؟ قال له: تعال انظر إليها ، أعجبتني أخلاقك ، وعندي بنت تناسبك ، لذلك ورد في الأثر :

" من مشى بتزويج رجل بامرأة كان له بكل خطوة خطاها ، وبكل كلمة قالها عبادة سنة قام ليلها ، وصام نهارها " .

والآن ما من عمل أعظم من أن تهيئ لشاب مؤمن شابة مؤمنة ، تسره إن نظر إليها ، وتحفظه إن غاب عنها ، وتطيعه إن أمرها .

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

(سورة النور الآية : 26)

لا تقل : لا علاقة لي ، لا تقل : امش بجنازة ، ولا تمش بزواج ، هذا كلام الشيطان ، والرحمن ماذا يقول ؟ :

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ)

(سورة النور الآية : 32)

هذا أمر إلهي ، كن وسيطا ، ولا مانع ، تحمل بعض المتاعب ، تأتيك بعض المتاعب طبعاً ، الزوجان المتفاهمان يغيب الزوج عنك خمس سنوات مسرور هو وهي ، يتشاجران فيأتي عندك ، لماذا في هذه الخمس سنوات لم تشكرني ، لما تشاجر معها جاء ، وقال : أخي أنت كنت الواسطة ، لذلك :

((المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم))

[أخرجه الترمذي عن ابن عمر]

تحمل ، أنت تعيش بعمل صالح ، لذلك إخواننا الكرام ، ما مِن شيء الآن يعلو باسم الأعمال الصالحة على تزويج الشباب ، وتحصينهم من هذا الفساد الذي يعم الأرض .

هل تصدقون أن نصف نساء في بلدنا الطيب سوريا من دون زواج ، وهذه وصمة عار بحق الأمة ، وهذه مشكلة كبيرة .

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً

أيها الإخوة ، الآية الكريمة :

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً)

الفاحشة هي الزنا ، أو المعصية التي لها آثار مستقبلية ، والزنا في ولد ، وقال بعض العلماء : الفاحشة هي معصية عليها حد ، كالجلد أو قطع اليد ، أو ما شاكل ذلك ، أو الفاحشة الكبائر ، أو الفاحشة كان العرب في جاهلية يطوفون عراة ، لأنهم ارتكبوا المعاصي بثيابهم ، إذا ينبغي أن يطوفوا طاهرين من دون ثياب ، فارتكبوا معصية أكبر ، هذا حمق ، وهذه الجاهلية .

أيها الإخوة ، لكن آية تحير :

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ)

(سورة الأحزاب الآية : 30)

هل يعقل أن تنهى امرأة زوجها رسول الله عن أن تزني ؟! لكن أعجبني تفسير أن زوجات النبي عليه الصلاة والسلام حينما يحمِّلنَه ما لا يطيق من أمور الدنيا فكأنهن ارتكبن فاحشة .

لكِ زوج مؤمن ، طاهر ، مستقيم ، يده نظيفة ، دخله حلال ، لا تحملينه فوق طاقته ، لا تضطريه أن يأكل مال حرام .

الصحابية كانت الكريمة تقول لزوجها قبل أن يغادر البيت : اتق الله لنا ، نحن بك نصبر على الجوع ، ولا نصبر على الحرام ، الآن تضغط عليه ، وتضغط عليه إلى أن يأكل المال الحرام .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ)

(سورة التغابن الآية : 14)

عداوة مآل ، يوم القيامة يستحق النار بسبب زوجته ، ضغطت عليه إلى أن أكل المال الحرام ، من هنا قال عليه الصلاة والسلام :

((أعظم النساء بركة أيسرهن مؤونة))

[رواه أحمد والحاكم والبيهقي عن عائشة]

((أعظم النساء بركة وأقلهن مهرا))

[الجامع الصغير عن عائشة]

مبدأ التقليد الأعمى : قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا

إذاً هؤلاء :

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا)

هكذا الناس ، انظر هذا الكلام الجديد المعاصر : هكذا الناس ، ضع رأسك بين الرؤوس وقل : يا قطاع الرؤوس ، الله يهدينا ، الله يصلحنا ، ماذا نفعل ؟ هذه بلوى عامة ، الله يتوب علينا ، نحن بعد أربعين أو خمسين سنة نحج ونتوب ، هذا كلام الناس ، والله إنّ الغربيين لو دخلوا جحر ضب لدخلناه .

نحن كنا صغارا في التعليم إذا ارتكب الطالب مخالفة أكبر عقاب يُحلَق شعرُه قليلا ، الآن يُحلق على الصفر ، أنا أتفاجئ في الأخبار بشخص محترم جداً حلق شعرَه على الصفر كله ، لماذا ؟! لأنه :

((لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ ، لَدَخَلْتُمْ فِيهِ))

[أخرجه الحاكم عن ابن عباس]

يلبس الشباب اليوم سروالا كاحتا ، هو جديد ، لكنه كاحت ، أو البنطال فيه ثقوب ، والله مرة أخت كريمة أرسلت لي ابنها لقضية ، لما دخل على غرفتي ببنطال فيه عدة ثقوب ، رق قلبي له ، وكتبت عندي أن سأؤمن له بنطالا جديدا ، ثم علمتُ أنها موضة جديدة .

ذهبت إلى أستراليا ، ودعانا أخ على طعام الإفطار ، فجاء ابنه ، والأخ بحالة موسرة جداً ، وابنه يلبس كل بنطالا له ثقوب كثيرة .

((لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ))

أنا خائف من الأيام القادمة ، تكون البنطال من نوع آخر .

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا)

هكذا الموضة ، هكذا الأزياء السَّنة ، نحن تحت رحمة يهودي بفرنسا ، يقصر نقصر ، يطيل نطيل ، يحدِث شقة نساوي شقة ، ضيق نضيّق ، نحن تحت رحمته .

هذه طرفة ، إياكم أن تأخذوها على جديتها ، أن امرأة في القاهرة رأت شيخاً أزهرياً ، قالت له بجهل كبير : يا سيدي ، هل النبي الكريم له حق أن يقول : النساء ناقصات عقل ودين ؟ فأَحَبَّ أن يجاريها ، قال لها : والله ليس له حق ، لكن هذه ليست لكم ، هي للصحابيات ، أنتن لا عقل لكنّ ولا دين .

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا)

هكذا الموضة ، هكذا الناس ، هكذا العرف ، هكذا التقاليد ، هكذا الإنسان ، لابد أن تكون زوجته شبه عارية ، تضيف الضيوف بنفسها .

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً)

بميزان الشرع شيء يستحي به ، شيء له آثار سيئة .

وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا)

لذلك قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى : " لأن يرتكب العوام الكبائر أهون على الله أن يقولوا على الله ما لا يعلمون " .

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

أولاً :

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا)

هذا تقليد ، والتقليد مرفوض في الإسلام ، إلا ما كان صالحاً ، لكن حتى في العقيدة التقليد مرفوض ولو كان صحيحاً ، لأن الله لو قبِلَ من إنسان عقيدته تقليداً لكان كل أهل الفرق الضالة عند الله مقبولين ماذا فعلوا ؟ وجدوا مَن هو أكبر منهم ، قال هكذا ، فقالوا مثله ، الآية الكريمة :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد الآية : 19)

لا تقبل عقيدة المسلم تقليداً إطلاقاً ، ولو أنها صحيحة ، لأنه لا ميزان لها ، التقليد لا قيمة له ، أما في السلوك ، فمن قلد عالماً لقي الله سالماً ، لا مانع ، رأيت كلامه لطيفا مثلاً ، عفيفا ، دقيقا في معاملته ، مواعيده دقيقة ، فقلّدته ، هذا جيد ، لكن عندك مقياس ، من قلّد عالماً لقي الله سالماً ، هذه مقولة ، وليست آية ولا حديثاً ، لكن إنسان أعجبك منه بشاشته للضيف ، هذا جيد ، أعجبك منه إكرامه للضيف، أعجبك منه تواضعه ، لا مانع ، أما في العقائد التقليد فمرفوض ،

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

المعاصي مرتبة في القرآن ترتيبا تصاعديا :

هذا افتراء على الله ، ولأن ترتكب الكبائر أهون من أن تقول على الله ما لا تعلم .

لذلك المعاصي في القرآن الكريم مرتبة ترتيبا تصاعديا ، الفحشاء والمنكر ، الإثم والعدوان ، الشرك ، الكفر .

(أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

هذا ترتيب تصاعدي ، وأكبر شيء تفعله أن توهم الناس أنه هذا الشيء مباح ، ويمكن أن يقول لك واحد : لك أن تدخل بيتا ليس فيه إلا امرأة ، وليست قريبة لي ، ولا من محارمك ، تجلس عندها ، وتأكل ، وتشرب ، وتنام ، ، ويأتي بروايات ضعيفة ، ماذا بقي ؟ هذه خلوة بأجنبية .

(أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

لذلك :

((ابن عمر ، دينك ، دينك ، إنما هو لحمك ودمك ، فانظر عمن تأخذ ، خذ الدين عن الذين استقاموا ، ولا تأخذ عن الذين قالوا))

[سلسلة الأحاديث الضعيفة عن ابن عمر]

الدين مصيري ، الدين متعلق بالآخرة ، الدين متعلق بالأبد .

(سورة الزمر الآية : 15)

الآية دقيقة جداً :

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا)

فردّ الله عليهم بقوله :

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

لكن الله جل جلاله بماذا أمر ؟

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(سورة الأعراف)

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ

الإسلام قائم على العدل :

(قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ)

بالعدل ، الإسلام جاء بالعدل ، وفي آخر الزمان كما قال عليه الصلاة والسلام :

((تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً ، فيأتي أخي عيسى فيملئها قسطاً وعدلاً))

موت كعقاص الغنم ، لا يدري القاتل لمَ يقتل ؟ ولا المقتول فيمَ قتل ؟ كما ترون القتل عشوائي ، معدل القتلى كل يوم في بلد مجاور 59 إنسانا يومياً ، لا ذنب له ، كان بعمله ، كان بسوق مزدحم ، سيارة مفخخة ، إلى متى هذا القتل ؟ موت كعقاص الغنم ، لا يدري القاتل لمَ يقتل ؟ ولا المقتول فيمَ قتل ؟

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ)

بالعدل .

لذلك أحد الأعراب قال للنبي الكريم : اعدل يا محمد ، فابتسم عليه الصلاة والسلام وقال :

((ويلك ! من يعدل إذا لم أعدل))

[أخرجه مسلم عن أبي سعيد]

وقيمة العدل أعظم قيمة ، وأسماء الله الحسنى كلها محققة في الدنيا ، إلا اسم العدل محقق جزئياً ، لأن هذه الدار دار ابتلاء ليست دار جزاء ، لذلك :

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

(سورة مريم الآية : 71)

ورود النار غير دخولها ، الذي يرد النار يوم القيامة من المؤمنين لا يتأثر بوهجها ، ليرى عدل الله ، ليرى هؤلاء الذين قتلوا الشعوب ، ليرى هؤلاء الذين ألقوا قنبلة ذرية على هيروشيما فقتلوا 300 ألف بثلاث ثوانٍ ، الآن القتل جماعي ، يقال : مقبرة جماعية ، قصف جوي ، قنابل النابالم ، يورانيوم مخضب أثره لـ4500 سنة ، ماذا أقول لكم ؟ والله البشرية الآن بوضع من الإجرام لا يمكن أن يتصوره إنسان ، أنا أقول الآن : العالم القوي متطور جداً ، لكنه وحشي ، والعالم الثالث الضعيف حضاري ، لكنه غير متطور .

وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ

(قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)

1 – معنى الوجه :

الوجه أيها الإخوة ذات الإنسان ، أشرف شيء فيه .

2 – تحريم الضرب على الوجه :

لذلك هناك أحاديث تنهى عن ضرب الوجه ، لأنه مكان كرامة الإنسان ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((اتقوا الوجه))

[أبو داود]

عند الضرورة القصوى التأديب يكون بالضرب على الكتف ، أما على الوجه ففيه إهانة كبيرة .

بالمناسبة : الجماد للنبات ، النبات للحيوان ، الحيوان للإنسان ، فلِمَن الإنسان ؟ لله .

" خلقت لك ما في الكون من أجلك فلا تتعب ، وخلقتك من أجلي فلا تلعب فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك " .

الإنسان مخلوق لله ، وأي إنسان يجير بالتعبير المصري لإنسان آخر فقد احتقر نفسه .

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

(سورة البقرة الآية : 130)

أنت لله ، كن حراً ، كن عبداً لله ، فعبد الله حر ، ولا تكن تابعاً لجهة أرضية ، كن حراً ، وكن منصفاً ، القسط هو العدل .

وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ

1 – معنى : مَسْجِدٍ :

المسجد بالمعنى الواسع أيّ مكان على الإطلاق يعدّ مسجداً ، مكان السجود ، أنت فلاح بالحقل ، دخل وقت الظهر تؤذن وتصلي ، فهذا المكان مسجد ، أنت بالمعمل ، وليس هناك مسجد قريب ، ودخل وقت العصر ، تتوضأ ، وتصلي في أرض المعمل ، أنت بمكتب ، أنت مريض ، قبلة المريض جهة راحته ، أنت خائف ، قبلة الخائف جهة أمْنه ، أي مكان تصلي فيه فهو مسجد ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((أعطيت جوامع الكلم))

[أخرجه أبو يعلى في مسنده عن عمر]

لذلك علمونا في الجامعة أن أفصح كلام بعد كلام الله كلام رسول الله .

((أعطيت جوامع الكلم))

((ونصرت بالرعب))

[متفق عليه]

أي بالهيبة .

واسمحوا لي بهذه الكلمة المؤلمة : أمّا أمّته مِن بعده فحينما لم تطبق منهجه هزمت بالرعب ، وفي بعض الأحاديث :

((نصرت بالرعب مسيرة شهر))

[متفق عليه]

الشهر تقريباً ألف كيلومتر ، العدو بعد ألف كيلومتر كيانه مهزوز خوفاً من المسلمين ، أما لما تركنا سنته من بعده هُزمنا بالرعب مسيرة عام ، يخرج تصريح بآخر الدنيا لا ننام الليل ، لذلك :

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

(سورة آل عمران الآية : 151)

حينما يشرك الإنسان يخاف ، الخوف من صفات المشركين .

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

((أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجُعلت لي الأرض مسجدا وطهورا))

كثير من الأجانب أسلموا لأنهم رأوا فلاحا يصلي ، ليس هناك كنيسة ، توضأ من الجدول المائي وصلى ، توضأ وصلى بالمعمل ، بمكتبه ، بأي مكان ، في بيتك .

((أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون))

(قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)

2 – وضع الوجه على الأرض سجودا لله وذلاًّ له :

مكان الشرف ضعه في الأرض تواضعاً لله ، الجماد لك مسخر ، والنبات لك مسخر ، والحيوان لك مسخر ، وأنت المخلوق المكرَّم الذي سخر لك ما في السماوات ، وما في الأرض ، الكواكب مسخرة لك ، وأنت المخلوق المكرم تضع جبهتك على الأرض تواضعاً لله ، وعبودية له ، أنت بهذا في أعلى مقام ، لذلك أعلى مقام وصله النبي سدرة المنتهى ، في هذه السدرة :

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)

(سورة النجم)

الإنسان إمّا بين عبودية القهر وعبودية الشكر والإيمان :

لذلك العبيد نوعان ، عبيد قهر ، كأهل الأرض كلهم ، من دون استثناء كل واحد منا مقهور ، كيف ؟ خثرة في الدماغ لا ترى بالعين تغلق شريانا يفقد الإنسان بذلك حركته ، عافانا الله جميعاً من الشلل ، خثرة أخرى بمكان آخر تفقده بصره ، بمكان تفقده ذاكرته ، الإنسان تحت رحمة الله ، فهو مقهور ، هذا عبد القهر ، عبد القهر جمعه عبيد .

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

(سورة فصلت)

أما عبد الإيمان والشكر جمعه عباد .

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

(سورة الفرقان الآية : 63)

فرق كبير بين عبيد القهر ، وبين عباد الشكر ، كن عبداً لله شاكراً ، ائته طائعاً ، ائته بمبادرة منك ، تعرّف إليه ، وأنت صحيح معافى ، وأنت شاب ، من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة .

3 – المعنى الضيق للمسجد> :

المعنى الضيق : أن المكان الذي خصص حرصاً للسجود هو المسجد ، عندنا مسجد بالمعنى الواسع ، وهو أيّ مكان في الأرض سجدت فيه ، ولو دخلت إلى كنيسة ، واضطررت أن تصلي فيها فمكان سجودك في الكنيسة مسجد .

(وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)

أما إذا دخلت إلى بيت من بيوت الله :

((إن بيوتي في أرضي المساجد ، وإن زواري فيها عمارها ، فطوبى لعبد تطهر في بيته ، ثم زارني في بيتي ، فحق على المزور أن يكرم زائره))

[رواه الطبراني عن ابن مسعود]

4 – المسجد مكان الأمن والحكمة والراحة :

بصراحة هل قدّم لكم أحدٌ كأسا من الشاي الآن ؟ لا شاي ، ولا قهوة ، ولا فواكه ولا ... ولا كراسي ، لكن إن شاء الله تمنحون الحكمة .

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة الآية : 269)

تمنحون الرضا ، أن ترضوا عن الله ، تمنحون الأمن .

(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

(سورة قريش)

تمنحون معرفة الله عز وجل ، عطاء الله كبير ، كبير جداً ، إذا كنت في بيته .

((إن بيوتي في أرضي المساجد ، وإن زواري فيها عمارها ، فطوبى لعبد تطهر في بيته ، ثم زارني في بيتي ، فحق على المزور أن يكرم زائره))

يكرمك بنعمة الأمن فلا تقلق ، يكرمك بنعمة التفاؤل .

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة الآية : 51)

يكرمك بنعمة الحكمة :

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

يكرمك بنعمة السكينة تتنزل على قلبك ، إن الله يعطي الصحة والذكاء ، والمال ، والجمال للكثيرين من خلقه ، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين .

هناك فراغ بالنفس لا يملأه المال ، ولا تملأه الزوجة الجميلة ، ولا يملأه المنصب الرفيع ، لا يملأه إلا الإيمان بالله ، ومعرفته ، وطاعته ، والإقبال عليه .

لذلك رأى هارون الرشيد مرة غيمة ، أيْ سحابة فقال : اذهبي أينما شئتِ ، فإنه يأتيني خراجك .

الحقيقة أيها الإنسان اذهب أينما شئت ، لا بد من أن ترجع إلى الله في وقت ما ، فالبطولة أن ترجع إليه وأنت شاب .

وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ

القلب عبادته الإخلاص ، والجوارح عبادتها أداء العبادات ، فاعبد الله مخلصاً .

(لَهُ الدِّينَ)

أيها الإخوة ،

(وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ)

أيْ لا تعتمد لا على زيد ، ولا على عبيد ثم تقول : يا رب ، اعتمد على الله وحده ، لا تنظر إلى الأسباب ، اعتمد على مسبب الأسباب ، إياك أن تتلبس بشرك خفي ، ثم تدعو الله .

((أنا أغنى الأغنياء عن الشرك))

[أخرجه مالك عن أبي هريرة]

(وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ)

(فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأعراف)

فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ

أنواع الهداية :

لئلا نقع في سوء ظن ، وحسن الظن بالله ثمن الجنة قال علماء التفسير : الهداية أربعة أنواع ، هداية الوحي ، وهداية التوفيق ، أول هداية هدايةُ المصالح ، وهداية الوحي وهداية التوفيق ، والهداية الأخيرة دخول الجنة ، المقصود هنا بالهداية الثالثة ، هداية التوفيق .

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آَمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

(سورة الكهف)

هداية التوفيق :

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

(سورة الفاتحة)

لذلك هداية الوحي لجميع الناس ، القرآن بين أيدينا ، كلام النبي بين أيدينا ، الخطباء والدعاة ليلاً نهاراً يتكلمون ، هذه هداية الوحي للجميع ، أما حينما تأخذ قراراً بطاعة الله ـ دقق ـ الآن تستحق هداية ثالثة ، هداية التوفيق ، يعينك على طاعته ، يعينك على العمل الصالح ، يهب لك بعض المال كي تنفقه في سبيل الله ، يطلق لسانك في ذكر الله ، هداية التوفيق الثالثة .

1 – هداية المصالح :

أول هداية لكل البشر ، إذا اختل توازن الشخص يصحح فوراً ، هذه هداية ، إذا أكل أكلة سامة يتقيؤها الإنسان ، إذا انكسر العظم يلتحم بعد فترة ، هداية المصالح مؤمَّنة لكل البشر ، حتى الكفار ، هدانا الله إلى مصالحنا ، إذا أكل أكلة سامة لها رائحة كريهة تعافها نفسك ، من برمجك على أن تعاف أكلة فاسدة؟ الله عز وجل ، من جعل الطعام إذا فسد له رائحة كريهة جداً ؟ الله عز وجل ، من جعل اللحم إذا فسد له رائحة لا تحتمل ؟ الله عز وجل ، هذا الكلام يتكلم فيه سنوات ، الله هداك إلى مصالحك ، من قال : إن القلب إذا أوقفناه لإجراء عمليه قلب مفتوح بعد أن يقف وقوفاً تاماً ، ونضع له دساما جديدا

نعطيه صعقة فيعمل ، لو لم يعمل لانتهت عمليات القلب كلياً ، من أعطى لكل مرض أعراضا ؟ الله عز وجل ، لو لا الأعراض لم يكن هناك ما طب أساساً ، هذا موضوع طويل جداً ، هداية المصالح ، هل يمكنك أن توقف ميتا ؟ لا يقف ، أما الإنسان الحي فيقف ، مع أن للميت أرجلا ، لكن قاعدة الاستناد ضيقة جداً ، لكن في الحي توازن ، في بالأذن جهاز توازن ، هداك إلى مصالحك ، هذه الهداية الأولى.

2 – هداية الوحي :

الهداية الثانية : هداية وحي ، هناك قرآن وسنة ودعاة .

3 – هداية التوفيق :

الثالثة : أنت حينما تقبل الهدى ، حينما تتخذ قراراً بأن تؤمن ، وأن تستقيم على أمر الله تأتي المعونة .

(حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ)

(سورة الحجرات الآية : 7)

هذه هداية المعونة ، الله قال :

(فَرِيقًا هَدَى)

الذي قبل الله أعانه ، ودله على أهل الحق ، وجمعه مع أهل الحق ، أعانه على طاعته ، أعانه على غض البصر ، أعانه على الصدق ، أعانه على إلغاء الغناء من حياته كلياً ، أعانه على اختيار زوجة صالحة ، ولو لم تكن جميلة جداً ، قبل بها إرضاء لله ، هذا أعانه الله .

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

(فَرِيقًا هَدَى)

أعطاه هداية التوفيق ، والذي رفض الهدى :

(وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

يمشي مع الشيطان ، الشيطان يزين له المعاصي ، يخوفه أن ينفق ماله ، يفرق بينه وبين زوجته ، لماذا حقت

(عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ)

؟ لأنهم :

(اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

لما يقع الإنسان في معصية ، ويعلم أنها معصية ، ويخاف الله عز وجل توبته سهلة جداً ، لكن أكبر أنواع المعاصي من يعصي الله ، ويتوهم أنه على حق ، يقول لك : هذا هو الأمر الصحيح .

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)

(سورة الكهف)

من الناس من لا يدري ، ولا يدري أنه لا يدري ، فهذا شيطان فاحذروه وأخطر إنسان في الحياة نصف المتعلم ، لا هو عالم فيفيد بعلمه ، ولا هو جاهل فيتعلم ، هو نصف العالم .

(فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمْ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(14-60): تفسير الآيتان 31 - 32 ، الزينة ـ خذوا زينتكم عند كل مسجد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-04-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الرابع عشر من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الواحدة والثلاثين، وهي قوله تعالى :

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

مقدمة بين يدي الآية :

1 – الكونُ مسخَّر للإنسان :

أيها الإخوة ، الإنسان كما تعلمون هو المخلوق الأول رتبة ، لأنه حمل الأمانة التي أشفقت من حملها السماوات والأرض ، لذلك سخر الله له :

(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

(سورة الجاثية الآية : 13)

2 – العلمُ هو غذاءُ الجانب العقلي في الإنسان :

هذا الإنسان فيه جانب عقلي ، الجانب العقلي غذاءه العلم ، وفيه جانب نفسي قلبي غذاءه الحب ، وفيه جانب مادي غذاءه الطعام والشراب .

لذلك يقال : إن الإنتاج العقلي والشعوري للبشرية لا يزيد على علم وفلسفة وفن ، العلم ما هو كائن ، العلوم ، فيزياء ، المادة والطاقة ، وتحولاتهما ، كيمياء ، رياضيات ، فلك ، علوم طبيعية ، نبات ، حيوان ، طب ، جيولوجيا ، علم طبقات الأرض ، تاريخ ، جغرافيا ، والعلوم لا تعد ولا تحصى ، هي في الحقيقة دراسة الظواهر ، الظواهر النفسية علم نفس ، الظواهر الاجتماعية علم اجتماع ، الظواهر المادية علوم ، فيزياء ، وكيمياء ، وما شاكل ذلك .

3 – تعريفُ العلم :

تعريف العلم بشكل جامع مانع : علاقة ثابتة بين متغيرين ، فهو قانون ، وحقيقة مطّردة تطابق الواقع عليها دليل ، إن لم تطابق الواقع فليست علماً ، بل هي جهل ، وإن افتقرت إلى الدليل ، فهي تقليد ، وإن لم تكن قطعية فهي ظن ، ووهم ، وشك .

إذاً : علاقة بين متغيرين مقطوع بها تطابق الواقع عليها دليل .

4 – تعريفُ الفلسفة :

أما الفلسفة ما يجب أن يكون ، العلم ما هو كائن ، الفلسفة ما يجب أن يكون ، وقد يؤكد الفلاسفة هناك فلسفة الوجود ، وجود الله عز وجل ، وفلسفة المعرفة ، وفلسفة القيم .

5 – تعريفُ الفنِّ :

أما الفن فهو كل ما هو ممتع ، بدءاً من الشعر ، الشعر أدب ، والأدب فن ، وقال العلماء عن الشعر : " حَسَنه حسن ، وقبيحُه قبيح " ، والنبي عليه الصلاة والسلام ورد عنه كما أنه قالَ :

((إِنَّ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا))

[البخاري عن ابن عمر]

هناك فنون مقبولة في الدين ، وفنون مرفوضة ، فنون مسموح بها ، وفنون محرمة ، الخط فن ، الشعر فن ، الأدب فن ، رسم النباتات ما فيه شيء ، رسم الكائنات الحية في عليه إشكال ، الفن بعضه سمح به الشرع ، بعضه حرمه الشرع .

الآن هذه المقدمة من أجل كلمة :

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ)

يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ

1 – الجانب الجمالي في شخصية الإنسان :

عند كل إنسان حاجة جمالية ، الإنسان يروق له البيت الجميل ، يحتاج إلى الجمال ، يروق له الطريق النظيف ، النبي الكريم أمَرنا أن نميط الأذى عن الطريق ، يروقه البيت الجميل :

((فنظفوا أفنيتكم ، ولا تشبهوا باليهود))

[أخرجه الترمذي عن سعد]

يروقه المركبة الجديدة :

(لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

(سورة النحل الآية : 8)

تروقه الثياب الجميلة .

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((إِنَّكُمْ قَادِمُونَ عَلَى إِخْوَانِكُمْ فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ ، وَأَصْلِحُوا لِبَاسَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ فِي النَّاسِ))

[أبو داود عن أبي الدرداء]

تروقه الحديقة ، قال الله عز وجل :

(حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ)

(سورة النمل الآية : 60)

بل :

((إنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَال))

[رواه مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه]

2 – كل حاجة جمالية لها قناة نظيفة تسري من خلالها :

والحاجة إلى الجمال حاجة أساسية ، لكن ما مِن حاجة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قنوات نظيفة ، إذا جمّل إنسان بيته ، وجنة المؤمن داره ، جمّل بيته ، جمّل ثيابه ، نظّف مركبته ، فرضاً ، عنده محل تجاري نظيف ، مطلي ، الحاجات في أماكنها ، فيه نظام ، فنحن نحب الجمال ، نحب الكمال، نحب النوال ، هذه فطرتنا .

لكن الشيء المؤلم لماذا الطرف الآخر يعتنون جداً بمدنهم ، وحدائقهم ، وأبنيتهم ومؤسساتهم ، ودور عبادتهم ، والمسلمون مقصرون في هذا ، الفوضى والقبح منفران ، والنظام والجمال والأناقة مسعدان .

أنا لا أقول : الجمال بالشيء الغالي ، لكن يمكن أن تطلي الغرفة طلاء لطيفًا مريحًا هادئا رخيصا جداً، يمكن أن تشتري أثاثا متناسبا مع الطلاء ، فالحاجة الجمالية حاجة أساسية جداً .

أحيانا إذا سافر الإنسان نزل في فندق من خمس نجوم ، يدفع عشرة أضعاف الأجور ، أو عشرين ضعفا مقابل النظافة والجمال ، أليس كذلك ؟ لكن فيه معاصٍ وآثام يقابل ذلك .

المعاني المستنبطة من قوله : خُذُوا زِينَتَكُمْ

على كلٍ الآية الكريمة :

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)

المعاني التي يمكن أن نستنبطها من هذه الآية :

المعنى الأول : الاغتسالُ ولُبسُ الثياب النظيفة المتناسبة :

أن ترتدي ثياباً جديدة نظيفة إذا أتيت إلى بيت من بيوت الله ، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام كان له ثياب يرتديها في المناسبات ، وفي المسجد ، وحينما يلتقي الوفود ، وكل إنسان مؤمن ، والمؤمن سفير الإسلام ، يمثل الدين ، إذا دُعي إلى حفل إذا جاء إلى المسجد ، وكان ثيابه نظيفة ، أقول : نظيفة ، أقول: ألوانها معقولة فقط ، أنا لا أطالبك بأكثر من ذلك ، أنت مسلم ، أحياناً تناسب الألوان ، والألوان الهادئة ، والثياب التي ليس فيها تقليد للغرب ، الآن هناك من يشتري ثيابا فيها صور ، فيها كلمات بالإنكليزية ، لو يعلم الذي اشترى هذه الثياب ما تعني هذه الكلمات لخرج من جلده خجلاً .

((لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتم))

[أخرجه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس]

ثياب نظيفة ، اغتسل ولو مدًّا بدينار .

((اغتسلوا يوم الجمعة ، ولو كأسا بدينار))

[أخرجه ابن عدي في الكامل عن أنس ابن أبي شيبة عن أبي هريرة]

غسل الجمعة واجب ، أنا أريد أن أقول باختصار : لماذا كان الجانب الجمالي ضعيفًا في حياة المسلمين؟ مع أنهم أتباع سيد الخلق ، وحبيب الحق ، وكان يُعرف بريح المسك ، وكان يعتني بثيابه ، وكان يقول :

((إِنَّكُمْ قَادِمُونَ عَلَى إِخْوَانِكُمْ فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ ، وَأَصْلِحُوا لِبَاسَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ فِي النَّاس))

[أبو داود عن أبي الدرداء]

على كلٍ ، من معاني هذه الآية أنت تأتي بيوت الله بزينة ، قالوا : الزينة الثياب النظيفة .

والله حدثني أخ قال لي : أنا مغرم بحضور الدروس في المساجد ، حضر درسًا ، وفي نهاية الدرس أقيمت الصلاة ، فلما سجد شم رائحة من جورب الذي أمامه خرج منها من جلده ، قال لي : والله ما عدت آتي إلى هذا المسجد من شدة انزعاجي .

فلما يكون الإنسان نظيفا معطَّرًا ، اغتسل ، قلّم أظافره ، رَجّلَ شعره ، اعتنى بهندامه ، فهذا من العبادة:

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)

هذا معنى .

المعنى الثاني : التستُّر وعجم التعرِّي :

المعنى الثاني : كان الناس قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام يطوفون بالبيت عُراةً ، فحُملت هذه الآية على أن نرتدي ثيابًا تستر عوراتنا ، دائماً البشر فريقان ، فريق يبالغ في الستر ، وهم المؤمنون ، وفريق آخر يبالغ في التعري وهم الفسَقة ، والشيطان يأمر بالتعرّي .

(يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا)

(سورة الأعراف الآية : 27)

فكلما اقتربت من أهل الإيمان كانت الثياب سابغة ، وساترة ، فحملوا هذه الآية أن ترتدي ثياباً فضلاً عن أنها نظيفة معقولة ، وأن ترتدي ثياباً تستر عورة الإنسان .

المعنى الثالث : الزينةُ ما فوق الستر :

وقال بعض العلماء : " الزينة ما فوق الستر " .

قد تكون غرفةُ الإنسان مطلية طلاء جيدًا ، نظيفة ، وجميلة ، لكن زيّنها بمنظر طبيعي ، زينها بآية ، بخطاط كبير ، زينها بزهور طبيعية ، أو غير طبيعية ، زينها بزاوية جمالية ، الزينة عند بعض علماء التفسير تزيد على قوام الشيء .

قد يكون الإنسان نظيفًا ، وقد اغتسل ، ويرتدي ثيابا جميلة ، إذا كان خاطبا يضع وردة حمراء مثلاً ، هذه الوردة زيادة ، أحيان يضع عطرًا ، الزينة تزيد على قوام الشيء .

المعنى الرابع : الزينةُ هي الطيبُ :

وبعضهم قال : " الزينة هي الطيب " ، وطيب الرجال له رائحة ، وليس له لون ، بينما طيب النساء له لون وليس له رائحة ، لأن المرأة إذا تعطرت وخرجت من بيتها ، ولفتت النظر برائحتها الفواحة تلعنها الملائكة حتى تعود .

الحدُّ الأدنى في فهم هذه الآية :

لكن الحد الأدنى من فهم هذه الآية : أن ترتدي ثياباً لا تؤذي بها أحداً في المسجد ، فالقصاب له ثياب خاصة ، يرتديها في أثناء العمل ، الدابة فيها دم ، فيها دهن ، والدهن له رائحة ، والحداد له ثياب خاصة ، ثياب زرقاء ، وعليها رائحة الفحم ، وكل حرفة لها ثياب ، لا ينبغي أن تأتي بهذه الثياب إلى المسجد ، لأن هذه الثياب تؤذي من حولك ، فالحد الأدنى في الفهم لهذه الآية : أن ترتدي ثياباً لا تؤذي مصلياً ، أن تكون نظيفة ، وأن تكون ساترة ، وأن تكون إلى حد ما جميلة .

أيها الإخوة ،

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)

تفسيرُ علماءِ القلوبِ لهذه الآية :

بعض علماء القلوب فسروا هذه الآية تفسيراً آخر ، أحيانا يزور إنسان قريبه ، ومعه هدية ، هذه الهدية إذا زار قريبه المريض ، وقدمها له ، كأنه معه شيء جميل ، معه هدية ، بعضهم قال : أنت أردت أن تأتي إلى المسجد فهل عملت عملاً صالحاً لوجه الله ؟ هل أطعمت جائعاً ؟ هل كسوت عارياً ؟ هل رعيت يتيماً ؟ هل دللت إنساناً ؟ هل أنفقت من مالك ؟ هل جئت إلى بيت من بيوت الله ومعك هدية ، معك زينة ؟ الإنسان يفتخر بالهدية ، إذا دخل بيتًا ومعه هدية حملها وأساريره منطلقة ، حملها وعنده ثقة بنفسه ، معه هدية ، هذا أيضاً معنى آخر ، فائتِ بهدية إلى الله ، وهدية الله أن تكون في خدمة خلقه.

((الخلق كلهم عيال الله ، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله))

[أخرجه أبو يعلى ، والبزار عن أنس ، والطبراني عن ابن مسعود]

والعمل الصالح قرض حسن لله عز وجل .

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ)

(سورة البقرة الآية : 245)

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)

إخواننا الكرام ، الإنسان حجمه عند الله بحجم عمله الصالح ، يسلم بالاستقامة ، لكن لا يسعد إلا بالقرب من الله ، والإنسان إذا اقترب من الله ، اقترب من الرحيم ، اقترب من العليم ، اقترب من الحكيم، اقترب من الجميل ، المؤمن جميل ، جميل بأفعاله ، بكلامه قيل للعباس : << أيّكما أكبر أنت أم رسول الله ؟ عمه أكبر منه سنًّا ، فقال لهم : هو أكبر مني ، وأنا ولدت قبله >> .

الجمال يعم البدن والخُلق والمعاملات :

نحن مِن ضعف تفكرنا نظن الجميل في الصورة فقط ، قد يكون الكلام جميلا ، جمال الرجل فصاحته، وأحيانا يكون الاعتذار جميلا ، وأحياناً يكون في المشي جمال ، وهناك مشي مع الكِبْر ، وهناك جلسة على المقعد بأدب ، إنسان يجلس ويباعد بين رجليه هكذا ، أو يضع رجل فوق رجل استعلاءً ، هناك جلسة جميلة ، وحركة جميلة ، ومشي جميل ، واستقبال جميل ، ووداع جميل ، وإغلاق باب بنعومة . أحيانا يركب الإنسانُ سيارة عامة ، ويسمك الباب ويغلقه بقوة ، فيخرج صاحب المركبة من جلده من ، أغلقه بهدوء ، بهدوء ، وأحيانا هناك مشي مع جلبة لا تحتمل .

دخل رجل ليصلي مع النبي الكريم ليلحق معه الركعة الأولى فأحدث جلبة في المسجد فقال له :

((زادك الله حرصاً ولا تعد))

[أخرجه أحمد و البخاري وأبو داود والنسائي عن أبي بكرة]

قد يكون الإنسان ساكنا في بيت في طابق ثالث ، أحب أن يصلي قيام الليل ، يجب أن يوقظ البناية كلها بالحركة والضجيج .

كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل بيته لف ثوبه ، لئلا يوقظ أهله بحفيف ثوبه .

لذلك هناك حركة جميلة ، وكلام جميل ، واستقبال جميل ، يأتيك ضيف تقول له : تفضل هل هناك موضوع معين ؟ أهلاً وسهلاً نورت ، أنا مشتاق إليك ، استقبال جميل ، ووداع جميل ، وإقامة مأدبة مع جمال ، والنبي عليه الصلاة والسلام ما ذم طعاماً قط ، وما مدح طعاماً قط ، رحب بالضيف فقط .

النبي عليه الصلاة والسلام قمة الجمال الأدبي :

الجمال واسع جداً ، المؤمن قمة في الجمال ، قمة في الأدب ، ما هذا الأدب يا رسول الله ؟ قال :

((أدبني ربي فأحسن تأديبي))

[أخرجه ابن السمعاني ، عن ابن مسعود]

قمة من الحياء ، كان أشد حياء من العذراء التي في خدرها .

عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ امْرَأَةً سَأَلَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ غُسْلِهَا مِنْ الْمَحِيضِ فَأَمَرَهَا كَيْفَ تَغْتَسِلُ قَالَ:

((خُذِي فِرْصَةً مِنْ مَسْكٍ فَتَطَهَّرِي بِهَا ، قَالَتْ : كَيْفَ أَتَطَهَّرُ ؟ قَالَ : تَطَهَّرِي بِهَا ، قَالَتْ : كَيْفَ ؟ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ ! تَطَهَّرِي ، فَاجْتَبَذْتُهَا إِلَيَّ فَقُلْتُ : تَتَبَّعِي بِهَا أَثَرَ الدَّمِ))

[متفق عليه]

احمر وجهه صلى الله عليه وسلم ، وخجل ، وكان أشد حياء من العذراء في خدرها .

هناك موقف جميل ، الموضوع واسع جداً ، أنا أؤكد لكم أن المؤمن قمة في الجمال ، قمة في الأدب ، قمة في الاعتذار ، قمة في الحديث ، يستمع ، وتراه يصغي للحديث بقلبه وبسمعه ، ولعله أدرى به .
أحياناً يشكو لك إنسان أن ابنه سيء ، فتقول أنت عن ابنك : والله عندي ابن الله يرضى عليه لا مثيل له، هذا الموطن موطن مواساة ، لا موطن افتخار عليه بابنك .

((عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ : كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ ، قَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! مَا تَقُولُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
((وَمَا ذَاكَ ؟ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ ، سَاعَةً وَسَاعَةً ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

[رواه مسلم]

منتهى الأدب ، الجمال واسع جداً ، وأعظم جمال جَمال الروح ، أعظم جمال التواضع ، أعظم جمال الحكمة ، أعظم الجمال العطف على الآخرين ، من علامات نبوة النبي عليه الصلاة والسلام أنه من رآه بديهة هابه ، ومن عامله أحبه .

قَالَ رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجَابِر بْن عَبْدِ اللَّهِ :

((أَتَبِيعُنِي جَمَلَكَ هَذَا يَا جَابِرُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، بَلْ أَهَبُهُ لَكَ ، قَالَ : لَا ، وَلَكِنْ بِعْنِيهِ ، قَالَ: قُلْتُ : فَسُمْنِي بِهِ ، قَالَ : قَدْ قُلْتُ ، أَخَذْتُهُ بِدِرْهَمٍ ، قَالَ : قُلْتُ : لَا ، إِذًا يَغْبِنُنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : فَبِدِرْهَمَيْنِ ، قَالَ : قُلْتُ : لَا ، قَالَ : فَلَمْ يَزَلْ يَرْفَعُ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَلَغَ الْأُوقِيَّةَ ، قَالَ : قُلْتُ : فَقَدْ رَضِيتُ ، قَالَ : قَدْ رَضِيتَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قُلْتُ : هُوَ لَكَ ، قَالَ : قَدْ أَخَذْتُهُ))

[أخرجه أحمد عن جابر]

((من كان له صبي فليتصابَ له))

[أخرجه ابن عساكر عن معاوية]

صلى طفلٌ في أول صف ، يجب أن يبقى في الصف الأول ، ولا أسمح لأحد أن يؤخر طفلا إلى الصف الثاني ، هؤلاء أحباب الله ، يدخل الإنسان بيته فيصبح عيدًا ، وهناك إنسان يخرج من بيته فيصبح عيدًا ، في الحالتين عيدٌ ، لكن البطولة في الدخول .

كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل بيته بساماً ضحاكاً .

كان يقول عليه الصلاة والسلام :

((أكرموا النساء ، فوالله ما أكرمهن إلا كريم ، وما أهانهن إلا لئيم ، يغلبن كل كريم ، ويغلبهن لئيم ، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً))

[ورد في الأثر]

كان عليه الصلاة والسلام يقول :

((فإنهن المؤنسات الغاليات))

[أخرجه أحمد في مسنده والطبراني في الكبير عن عقبة بن عامر]

كان عليه الصلاة والسلام إذا دخلت السيدة فاطمة وقف لها ، سيد الخلق ، وابنته وقف لها ، رحب بها، جاءته السيدة فاطمة فتاة ، بعد الولادة ضمها ، وشمها ، وقال : ريحانة أشمها وعلى الله رزقها .

الآن إذا أنجبت بنت يطلقها ، أو قال لها : إذا أنجبتِ بنتًا ثانية أطلقك ، حلف يمين طلاق ، مسكينة قطع قلبها ، فأنجبت ابنتين فلم تطلق .

والله الموقف الكامل يملؤك سعادة وكمالا ، تكون في البيت محبوبًا ، تحب أهلك ، تحب أولادك ، محسن ، تعيش نغصًا ، وعداوة ، وبغضاء ، وتراشق تهم ، وسباب ، وتكسير زجاج ، وخبط أبواب ، ومسبات دين ، البيت كتلة من الشقاء ، ومن البعد عن الله ، كن قريبًا من الله ، يصبح دخولك عيدًا .

كان عليه الصلاة والسلام تسأله السيدة عائشة عن حبه لها ؟ يقول لها : كعقدة الحبل .

معظم الشباب الآن إذا أحب يمزح مع زوجته يقول لها : أريد أن أطلقك ، أو أريد أن أتزوج امرأة ثانية، لا مزح له إلا بهذين الموضوعين المزعجين ، فهو قليل ذوق ، يجب أن تشعر بالطمأنينة .

حكت له السيدة عائشة عن أبي زرع وأم زرع ، كان طويل ، وممتع جداً ، وكان يصغي لها ، وهو سيد الخلق ، وحبيب الحق ، يحمل أكبر دعوة في الأرض ، يصغي لها ، لكنها قالت لها بعد أن انتهت القصة : غير أنه طلقها ، فقال لها : أنا لك لأبي زرع لأم زرع ، غير أني لا أطلقك ، هكذا كان النبي عليه الصلاة والسلام .

كلمة جمال واسعة جداً ، يمكن أن يكون جمال الجسم لما تغتسل ، رائحته الطيبة .

امرأة في الجاهلية من أعلام الجاهلية ، نصحت ابنتها قبل الزفاف فقالت لها : والماء أطيب الطيب المفقود .

إذا ما عندك عطر إطلاقاً فاغتسل ، ثبت أن لكل واحد رائحة عطرة لجلده ، ويتميز بها ، للتأكد لك ابن صغير ، إذا تحمم ضمه وشمه ، فيه رائحة جميلة جداً ، الجلد له رائحة جميلة ، والماء أطيب الطيب المفقود ، بدءاً من أن تكون نظيفاً مروراً بنظافة الثياب ، ثم بأناقة الثياب ، ثم بنظافة البيت ، وجمال البيت .

أنا لا أقول أبداً : بيت غال ، يمكن أن يكون بيتك متواضعا جداً ، والفرش متواضع جداً ، لكن فيه لمسات جمالية ، فيه تناسق ، فيه ذوق ، وفضلاً عن بيته مركبته ، يغسلها ، أحياناً محله التجاري .

والله مرة كنت بمحل تغير زيت السيارة غير معقول ، كأنك جالس بصالة في فندق ، وهو محل تغير زيت ، الآن ببعض البلاد معامل فيها مناطق جميلة جداً ، فيها نظافة ، فيها أناقة ، لأن الإنسان يعيش عمرا واحدا .

أنا أدعو إلى أن يكون الجمال عنصرًا أساسيًا في حياتنا ، لكن أهل الفسق والفجور لا يفهمون الجمال إلا جمال المرأة المتبذلة ، وإلا أن يغوص في حمأة الجنس ، يقول لك : إن الله جميل يحب الجمال ، هذا الكلام كلمة حق أريد بها باطل .

أيها الإخوة ،

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا)

وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا

1 – لابد من الاعتدال حتى في المباحات :

هذا أمر إباحة ،

(وَلَا تُسْرِفُوا)

ثبت الآن أن الإنسان مبرمج ، مصمم على الاعتدال ، إذا كان معتدل أجهزته تكفيه مدى الحياة ، كل أعضائه ، وأجهزته ، وحواسه ، يمكن أن تكون معه إلى آخر أيامه ، بشرط الاعتدال في الطعام والشراب ، وحتى في المباحات ، ففيها اعتدال ، لأنّ الإسراف في المباح له مضاعفات خطيرة . مرة أن هذه المادة الفلانية التي تحلي بها الطعام من دون أن يكون لها حريرات مسرطنة ، فردوا على هذا الكلام : أي شيء إذا أسرفت به مسرطن ، أي شيء ، كأن هذا الإنسان بأجهزته وأعضائه وحواسه مصمم على الاعتدال ، فإذا بالغ ، وإذا أسرف وقع في شر عمله .

2– بين الإسراف والتبذير :

أيها الإخوة ، الإسراف في المباحات ، والتبذير في المعاصي والآثام ، أيُّ مال أنفقته في حرام فأنت مبذر ، مضطر أن أقول هذا الكلام : شراء الدخان تبذير ، ليس إسرافاً .

(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً)

(سورة الإسراء)

أيُّ شيء محرم شراءه تبذير ، أما أيّ شيء حلال الأخذ منه أكبر من الحد المعقول إسراف ، والإسراف في المباحات والتبذير في المعاصي والآثام . شيء آخر ، مقولة لطيفة : لو أنفقت مثل أُحد ذهباً في حلٍ لما كنت مسرفاً .

رجلٌ من أهل الغنى أقام عقد قران لابنته ، وأنا حضرت هذا العقد ، دعا ألف إنسان ، واتفق مع مطعم لتقديم الطعام ، كل إنسان كلف ألف ليرة ، المبلغ مليون ، وهناك أناس حضروا ، وانتقدوه انتقادا شديدا، أنا تريثت ، ثم علمت أن هذا الطعام لم تذهب حبة رز هباء ، وضع في المعلبات ، وفي الأواني ، وأصلح شأنه ، أضيف له اللحم ، ووزع على معاهد ، وعلى مياتم ، وأكل منه حوالي عشرين يوما ، ودفع مليون ليرة لتزويج الشباب فوق المبلغ ، فقالوا : لو أنفق مثل أحد ذهباً لما كنت مسرفاً ، ولو أنفقت درهما واحداً في حرام لكنت مسرفاً ، وبالأصح كنت مبذرا .

لذلك الإسلام دين الفطرة ، قال عليه الصلاة والسلام :

((أشدكم لله خشية أنا ـ سيد الخلق ـ أنام وأقوم ، أصوم وأفطر ، أتزوج النساء آكل اللحم ، هذه سنتي ، فمن رغب عنها فليس من أمتي))

[البخاري عن عائشة]

إسلامنا وسطي ، إسلامنا دين الفطرة

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

ولا تسرفوا في أي شيء .

3 – الغرق في المباحات وقوعٌ في حبائل الشيطان :

إخواننا الكرام ، لابد من تعليق : إذا غرق الإنسان في المباحات فقد وقع في حبائل الشيطان ، كيف ؟ الشيطان دائماً يزين للإنسان والعياذ بالله الكفر ، فإن رآه على إيمان زين له الشرك ، فإن رآه على توحيد زين له الكبائر ، إن رآه على طاعة زين له الصغائر ، إن رآه على ورع زين له البدع ، إن رآه على سنة زين له التحريش بين المؤمنين ، هذا الشيخ لا يفهم ، اتركه ، فإن رآه على استقامة آخر ورقة

بيد الشيطان ليصرف الإنسان عن عبادة الرحمن المباحات ، يغرقه في المباحات ، ثم يأتي الموت فجأة، عندئذٍ يضطر أن يقول :

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر)

تصور بيتًا تسكنه مستأجراً ، ونظام الإيجار في بلد ما أن المستأجر يطرد في أية ثانية ، من دون إنذار، ولا يسمح له بأخذ شيء من هذا البيت ، اشترى الثريات ، السجاد ، يخرج بثيابه ، الساعة الثالثة والنصف بالليل ، لو كان في بلد هكذا نظام الإيجار فيه ، هل من العقل أن يفرش هذا البيت ، الثريات ، السجاد ، الأثاث ، أجهزة الكهرباء ، وبأي لحظة يكون خارج البيت ؟ ولا يسمح له بأخذ شيء ؟ هذا مجنون ، وعنده بيت على الهيكل ، لكنه بعيد ، دخلك كبير ؟ اكسُ هذا البيت ، رمم هذا البيت ، افرش هذا البيت ، اطلِ هذا البيت ، فلذلك الذي يضع كل البيض كله في سلة واحدة مغامر ومقامر .

إذاً : إحدى أوراق الشيطان أن نغرق في المباحات .

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

المسرف ضيع عليه الآخرة ، إن أسرف في المباحات انشغل بها عن الطاعات ، وإذا فعل المحرمات حجبته عن قيوم الأرض والسماوات .

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

الأصل في الأشياء الإباحة : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

1 – الأصل في الأشياء الإباحة :

هذه الفواكه كم ثمنها ؟ الله خلقها لك ، لمَ لا تشتريها ؟ تملك ثمنها ، وأولادك تواقون إليها ، لمَ لا تشتريها ؟ أخي عندهم أكل ، الأكل قوت ، أما هذه فهي فاكهة ، وقد قال الله عنها :

(وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ)

(سورة الواقعة)

(لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ)

(سورة يس)

الشيء الجميل خلقه الله جميلا ، وسمح بالتعامل معه ، إذاً : لا تقل : أنا لا أتزوج ، من أنت ؟ الزواج سنة ، الأنبياء تزوجوا ، وهو شيء لا يعيق هدفك الأخروي .

أيها الإخوة ، مرة ثانية :

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ)

2 – البطولة في العمل الصالح لا في الامتناع عن المباح :

البطولة لا أن تمتنع عن المباحات بل أن تعمل الصالحات ، وهناك فرق كبير بين أن تمتنع عن المباحات فتشعر بالحرمان الدائم ، وبين أن تفعل الصالحات فتتألق عند الله عز وجل ، هذا المفهوم الإيجابي للإيمان ، الزهد أن تزهد في الآخرة ، الزهد المحرم أن تزهد في الآخرة ، أما الذي يسعى للآخرة فهذا طموح .

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

لهم ولغيرهم .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ)

(سورة البقرة الآية : 126)

3 – نِعم الدنيا المادية لجميع الناس ، ونعم الآخرة للمؤمنين خاصة :

هناك كفار تتفننوا في الطعام والشراب ، عندهم بيوت فخمة جداً ، مركبات فخمة جداً ، يتزوجون نساء جميلات جداً ، عندهم أذواق في النزهات ، وفي السهرات ، وفي الحفلات .

لذلك الدنيا عرض حاضر ، يأكل منه البر والفاجر ، والآخرة وعد صادق يحكم فيه ملك عادل ، الآخرة وعد صادق ، لذلك قال تعالى :

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

لهم وحدهم يوم القيامة ، أما في الدنيا لهم ولغيرهم .

لذلك الله أعطى فرعون الملك وهو لا يحبه وبالتالي أعطى سليمان الملك وهو يحبه .

(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

(سورة ص الآية : 35)

ما دام الله قد أعطى المُلْكَ لمن يحب ، ولمن لا يحب ، إذاً ليس المُلْكُ مقياساً ، أعطى المال لقارون وهو لا يحبه ، أعطاه لعبد الرحمن بن عوف ، وهو يحبه ، إذاً : المال ليس مقياساً ، لا يعد الفقير أقلَّ قيمة عند الله ، ولا الغني أكبر قيمة ، سيدنا عبد الرحمن بن عوف قال : ماذا أفعل إذا كنت أنفق مئة في الصباح فيؤتيني الله ألفاً في المساء ، ماذا أفعل ؟ كان تاجرً قال : والله ما استقليت رحباً ، ولا بعت ديناً، تعلموا هذا الدرس ، ولا بعت ديناً ،

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

الآن الطلاب في أثناء العام الدراسي كلهم دارسون ، الامتحان لم يأتِ بعد ، كلهم مثل بعضهم ، يتمتعون بكل الميزات ، أما عند الامتحان فيكرم المرء أو يهان .

4 – الطيبات من الرزق معها طاعة لله ، وسعادة بالعيش :

هناك رأي آخر ، الآية دقيقة ، يعني هذه الطيبات من الرزق معها طاعة لله ، معها إقبال على الله ، معها سرور إيماني ، من هنا قال عليه الصلاة والسلام :

((من أصبح منكم آمنا في سربه))

[رواه البخاري في الأدب والترمذي وابن ماجة عن عبد الله بن محصن]

هذا أمن الإيمان ، أنت مستقيم على أمر الله ، وعندك شعور أن الله يحبك ، وأنك لم تعصه ، وأنك تحب عباده المؤمنين ، وأنك في خدمتهم ، ولم تبنِ مجدك على أنقاض الآخرين ، ولا بنيت أمنك على إخافتهم ، ولا غناك على فقرهم ، ولا حياتك على موتهم ، ولا عزك على ذلهم ، عندك إحساس أن الله يحبك ، هذا الإحساس مريح جداً ، هذا إذا ضم إلى ما سمح الله لك من طعام وشراب ، وصحة وزواج، يكون هذه الحالة نادرة مخالفة للمؤمنين ، مؤمن جمع بين الراحة النفسية والنعم التي أنعم الله بها عليك .

(قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

في الدنيا يمتاز على أهل الدنيا الذين انغمسوا في هذه المتع أنهم موصولون بالله عز وجل ، فصلة المؤمن سعادة من الداخل ، ومتعة من الخارج .

(كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(15-60): تفسير الآية 33 ، تحريم الزنا والخمر والسرقة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-04-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الخامس عشر من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثالثة والثلاثين ، وهي قوله تعالى :

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

بين يدي الآية :

1 – الفائدة من أسلوب الحصر :

أيها الإخوة الكرام ، بادئ ذي بدء : كلمة إنما في اللغة العربية أداة قصر وحصر ، يعني أن الذي حرمه الله ما سيأتي بعد إنما ، ولا شيء محرم غيره ، والتحريم والتحليل من شأن الله وحده ، وليس من شأن البشر ، لذلك قل يا محمد لهم :

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي)

ما الذي حرمه ؟ ما سيأتي بعد إنما .

2 – ما هي الفواحش ؟

أولاً : الفواحش ، الفاحشة العمل القبيح ، الفاحشة ، الفاحشة العمل المشين ، الفاحشة العمل المخزي ، العمل الذي يعد فضيحة ، العمل الذي يتجاوز أثره إلى غير الفاعل ، الإنسان قد يشرب الخمر فيؤذي نفسه ، لكن حينما يزني يؤذي فتاة معه ، فينقل فتاةً من فتاةٍ شريفة إلى فتاةٍ زانيةٍ سقطت من عين الله ، ومن عين نفسها .

3 – الفواحش كلُّها محرَّمة :

لذلك الفواحش محرمة ، لماذا ؟ هنا السر ، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى شرع نظام الأبوة والبنوة ، وأقدس علاقة بين شخصين علاقة الأب بالابن والدليل ، قال الله عز وجل :

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ *وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

(سورة البلد)

4 – الزنا يلغي نظام الأبوة :

نظام الأبوة والبنوة يدل على الله ، وأيّ إنسان سعادته بسعادة أبنائه ، لا يريد من ابنه شيئاً إلا أن يكون سعيداً ، لذلك :

((لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد ، ومن الضال الواجد ، ومن الظمآن الوارد))

[أخرجه ابن عساكر عن أبي هريرة]



محبة الأم لأبنائها

نظام الأبوة أودع الله في الآباء محبة الأبناء بطبعهم ، وأودع الله في الأمهات محبة الأبناء ، فحينما يعلم الإنسان أن هذا ابنه يتفانى بخدمته ، يتفانى بتيسير حاجاته ، يتفانى بإسعاده ، يجوع ويطعمه ، يعرى ويكسوه ، هذا النظام قائم على حفظ الأنساب ، ماذا تفعل الفاحشة ؟ تختلط الأنساب بها ، لا تعرف لا الابن من .

الآن مع مثل بسيط : تجد امرأة متدينة وملتزمة ومحجبة ، وعندها أولاد ، وعندها من زوجها أولاد من غيرها ، قسوتها على الآخرين عجيبة، ورحمتها بأولادها عجيبة .

إن ذلك نظام رسخه الله في طبع البشر ، أن الأب والأم يندفعون بشكل عجيب إلى الحفاظ على سلامة أبنائهم ، ومستقبل أبنائهم ، وصحة أبنائهم ، وغذاء أبنائهم ، وكساء أبنائهم ، وتحصين أبنائهم ، وأخلاق أبنائهم ، هكذا صمم الله الخليقة ، ماذا يفعل الزنا ؟ يلغي الأبوة ، يلغي البنوة ، يلغي هذه العاطفة المقدسة التي أودعها الله في الإنسان .

الإنسان متى يعمل ؟ متى يتفانى في خدمة ابنه ؟ إذا كان موقناً أنه ابنه ، ومتى يكون موقناً أنه ابنه ؟ إذا كانت زوجته التي عنده أنجبت له هذا الولد .

لذلك اخطر شيء في الزنا أنه يلغي نظام الأبوة والبنوة .

هناك طرفة ذكرتها كثيراً لكنها معبرة كثيراً ، أن شابا في بلاد الغرب أحب فتاة ، فاستأذن والده في الزواج منها ، قال له : لا يا بني ، إنها أختك ، وأمك لا تدري ، فلما أعجب بامرأة ثانية قال له الكلام نفسه ، والثالثة كذلك ، فشكا إلى أمه ، فقالت له : تزوج أين شئت ، أنت لست ابنه ، وهو لا يدري .

فطرة الآباء على خدمة أبنائهم

الفواحش تلغي النسب ، تلغي ما أودعه الله في الآباء من محبة للأبناء .

والله سمعت قصة أن امرأة ملتزمة تؤدي عباداتها كاملة ، ولا أقرها على عملها ، ترعى أولادها رعاية مثالية ، لكن بنت زوجها من غيرها تقسو عليها قسوة يصعب شرحها ، هي هي .

حينما تكون الفواحش ، وتختلط الأنساب يلغَى النظام الذي رسمه الله للبشر ، لذلك تجد قسوة في العالم الغربي تفوق حد الخيال ، لأن عدد اللقطاء يزيد على عدد الأولاد الشرعيين ، اللقيط لا أب له ، ما استقى من أبيه الرحمة ، ما استقى من أمه الرحمة .

إن الوقوع في الفواحش يعني إلغاءَ نظام الأبوة ، ونظام البنوة ، وإلغاء هذه العاطفة المقدسة التي أودعها الله في الآباء ، وهذه العاطفة المقدسة التي أودعها الله في الأمهات .

إن الفاحشة عمل قبيح ، وهو العمل الذي يعد فضيحة ، والعمل الذي يستحي به ، والعمل الذي يتجاوز أثره فاعله إلى غير فاعله .

قال العلماء : الفاحشة هي الزنا ، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها ، ليس في الإسلام حرمان ، ولكن في الإسلام تنظيم ، وفي الإسلام نظافة ، وطهر ، وعفاف ، وأنساب واضحة ، هذا أب لفلان ، وهذا ابن فلان ، وهذا ابن فلانة ، وهذه أم فلان ، هذا الانضباط في الأنساب يفعّل العواطف المقدسة التي أودعها الله في الآباء وفي الأمهات .

لذلك الفواحش تتناقض مع نظام الأسرة ، بينما الاستقامة ، والزواج الذي شرعه الله لنا هذا يؤكد النظام الإلهي الذي نظمه للبشر عن طريق أن الأب أودع فيه في طبعه محبة أولاده ، الابن مكلف تكليفاً أن

يبر أباه ، لذلك هناك آيات كثيرة جداً توصي الأبناء بآبائهم ، وليس في القرآن إلا آية واحدة متعلقة بالمواريث ، وليس في القرآن غير هذه الآية التي توصي الآباء بالأولاد ، لأنه طبع في الإنسان . لذلك :

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)

مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ

هناك فواحش معلنة ، وفواحش غير معلنة ، كلاهما محرم ، وحينما يبتعد الإنسان عن الله يخاف على سمعته ، فقد يقترف الفواحش من دون أن يعلم أحد بها ، والقرآن الكريم بين لنا أن الله يعلم كل شيء ، ولا تخفى على الله خافية .

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

(سورة طه)

فالفواحش الأعمال القبيحة المخزية التي تصنف مع الفضائح ، التي يتجاوز أثرها فاعلها إلى إنسان آخر ، والفاحشة هي الزنا ، وهذه محرمة في الإسلام ، وفي كل الأديان ، وفي كل الشرائع ، لأنها تسبب اختلاطاً في الأنساب ، وإلغاءً لما أودعه الله في قلوب الآباء والأبناء من تعاطف ، ومحبة ، ومأثرة ، وما شاكل ذلك .

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)

((من لم يكن له ورع يرده عن معصية الله تعالى إذا خلا بها لم يعبأ الله بسائر عمله))

[رواه الحكيم عن أنس رضي الله عنه]

وقد ورد في الحديث الشريف عَنْ ثَوْبَانَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ :

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا ، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا ، قَالَ ثَوْبَانُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، صِفْهُمْ لَنَا ، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ ، قَالَ : أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[أخرجه ابن ماجة]

لذلك :

(مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)

وعلامة إخلاصك لله عز وجل أن يستوي عملك في سرك وفي جهرك ، في خلوتك وفي جلوتك ، أمام الناس ووحدك في البيت .

((من لم يكن له ورع يرده عن معصية الله تعالى إذا خلا بها لم يعبأ الله بسائر عمله))

وعلامة إخلاصك أن يستوي عملك في سرك وفي جهرك ، في خلوتك وفي جلوتك ، في ظاهرك وباطنك .

إذاً أول شيء :

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ)

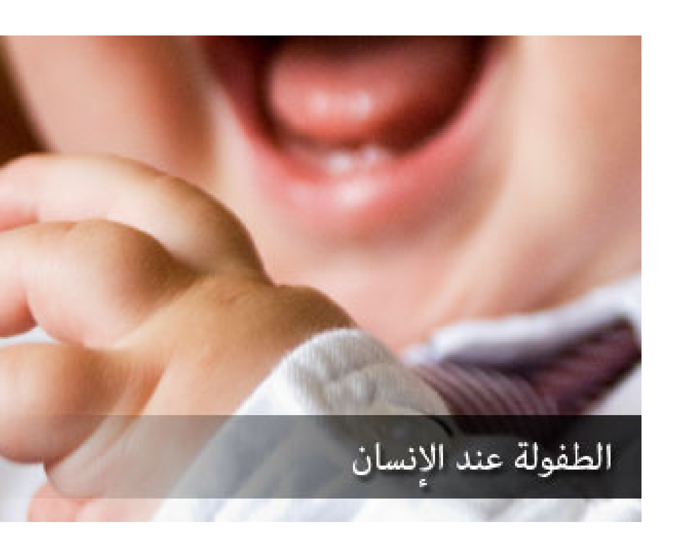
، لأنها تلغي الأنساب ، فيولد لقيط لا أب له .

بين اللقيط وصحيح النسب :

إخواننا الكرام ، الطفل لكرامة الإنسان عند الله جعل طفولته مديدة ، لأنه يستقي من أبيه وأمه العطف ، والحنان ، والرحمة ، ينشأ على محبة أمه وأبيه ، ينشأ بعلاقات إنسانية راقية جداً ، أما اللقيط فلا أبَ له، ولا أم له ، لذلك لو أن اللقيط كبر ، وتسلم منصب تراه قاسياً قسوة لا حدود لها ، لا يرحم ، يتشفى أحياناً من المجتمع ، يتشفى ، يبالغ في إيذائه ، نظام ربنا عز وجل ، ومنهج ربنا عز وجل أساسه نظام الأسرة ، ونظام الأسرة أساسها حفظ الأنساب ، وحفظ الأنساب يتناقض معها الزنا ، الزنا علاقة بلا نسب ، علاقة مشبوهة ، علاقة سرية ، لذلك حتى عقد الزواج إن لم يكن بعلم ولي الفتاة فهو عقد زنا .

((لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل))

[أخرجه البيهقي عن عمران وعن عائشة]


الطفولة عند الإنسان

ما الفرق بين الزواج الذي يعلن ويشهر وبين الزنا ؟ العلاقة واحدة ، لكن الأولى وفق الحكم الشرعي ، والثانية بخلاف الحكم الشرعي .

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)

لذلك بطولتك في أن تخشى الله في سرك ، في خلوتك ، في بيتك ، في غرفتك الله عز وجل قال :

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ)

(سورة غافر الآية : 19)

أنت في غرفتك ، ولغرفتك نافدة على بيت الجيران ، وقد خرجت امرأة من الشرفة في ثياب متبذلة ، من الذي يضبط لك هذه المخالفة ؟ لو أنك ملأتَ عينيك من محاسنها ، وهي لا تدري ولا تعلم ، وأنت في غرفة أقل إضاءة من الطريق ، ترى كل شيء ، قال تعالى :

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

(سورة غافر)

لذلك ضبط الأنساب أساس البعد عن الزنا ، تعد أكبر جريمة في المجتمعات الحديثة هي الزنا ، إلى أنه يصبح في نهاية المطاف شيئاً عادياً جداً .

((كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً))

[ورد في الأثر]

حدثني أخ من بلاد بعيدة جداً ، قال لي : والله الأب المتزمت المتمسك بالتقاليد والعادات والتراث ، المتزمت الذي يعد في مجتمعاتهم أصولياً ، إذا رأى ابنته تتزين قبل أن تخرج يحذرها من الحمل فقط ، هكذا أصبح الوضع .

نحن في نعمة كبيرة أيها الإخوة ، لا يزال المجتمع الإسلامي منضبط ، لا يزال هناك أسر ، قلّمَا يتناهى إليك ما يسمى بالخيانة الزوجية ، أما إذا كان هناك خيانة زوجية وحمل سفاح ، وابن زنا ولقيط فالمشكلة كبيرة .

لذلك أول شيء جاء في هذه الآية :

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ)

الزنا عمل قبيح ، مخزٍ ، يعد فضيحة ، يستحي به ، له رائحة نتنة ، يتجاوز أثره فاعله إلى غيره .

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)

هناك فاحشة معلنة في الغربي .

إن كثيرًا من الأشخاص المهمين جداً في مؤتمر صحفي على عشر محطات فضائية ، امرأة كان ترشح أن تكون ملكة بريطانيا ، قالت في لقاء صحفي : أنا زنيت عشر مرات مع فلان ، ومع فلان ، بشكل طبيعي جداً ، كأن الواحد عندنا قال : أنا أكلت الأكلة الفلانية ، أكلت في المطعم الفلاني ، بهذه البساطة، هذا هو البعد عن الله عز وجل ، نحن في نعمة كبيرة ، نحن عندنا بقية حياء ، نقية خجل ، بقية خوف من الله ، بقية انضباط ، بقية تماسك أسري ، بقية أسرى نظيفة ، أدام الله علينا هذه النعم .

أيها الإخوة الكرام ،

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ)

وَالْإِثْمَ

1 – الإثمُ هو الخمرُ :

الإثم كما قال العلماء : " كل كبيرة يقام عليها حد " .

وقال بعضهم : " الإثم هو الخمر والميسر " ، فالذي يشرب الخمر يقول لك : أنا لا أؤذي أحد ، هذا صحيح ، إنك لا تؤذي أحداً ، ولكنك آذيت نفسك ، لماذا ؟ .

العلة العميقة في تحريم الإثم أن الله أودع في الإنسان عقلاً ، والعقل مناط التكليف ، والعقل أثمن جهاز وضعه الله فينا .

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن)

2 – لك عقلٌ فحافظ عليه :

هذا العقل يعطل بالخمر ، فكما أن الإنسان ينبغي أن يتحرك وفق نظلم الأسرة ينبغي أن يرعى أولاده ، أن يعتني بهم ، أن يؤمن لهم الطعام والشراب ، والمأوى والكساء والتعليم ، والتهذيب ، والتوجيه ، وأن يعتني بكل الطوارئ التي تطرأ عليهم ، كما أن الإنسان ينبغي أن يكون حفظ النسب أساساً لنظام الأبوة والبنوة ، واستمراراً للحياة ، ينبغي ألا يعطل عقله عن أن يدير شؤونه ، بتعطيل العقل تضيع ، لذلك الذي يقول : أنا أحتسي كؤوس الخمر كي أنسى الهموم ، نقول له : لا ، أنت حينما تبتعد عن الخمر تملك عقلاً ، هذا العقل يمكن أن يحل لك المشكلات .

((إنَّ اللَّهَ تَعالى يَلُومُ على العَجْزِ ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بالكَيْسِ))

[رواه أبو داود عن عوف بن مالك رضي الله عنه]

أن تستخدموا عقولكم لحل مشكلاتكم ،

((إنَّ اللَّهَ تَعالى يَلُومُ على العَجْزِ ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بالكَيْسِ))

قال :

((فإذَا غَلَبَكَ أمْرٌ فقُلْ حَسْبيَ اللَّهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ))

[رواه أبي داود ، عن عوف بن مالك رضي الله عنه]

3 – لا تحتجّ بالقدر بعد التقصير والإهمال :

هذا الأمر أيها الإخوة أتمنى أوضحه فيما يلي :

لو أن في الحمام مأخذا كهربائيا مكشوفا ، والتيار 220 فولطًا ، وإذا مشى طفل في الحمام ورجله على البلاط ، والبلاط فيه ماء ، ودون أن يشعر طفل ولمست رجله المأخذ الكهربائي يموت فوراً ، الآن إذا كان عند إنسان مأخذ كهربائي في الحمام مكشوف ، الشريط مكشوف أيضاً ، وطفله صغير ، والحمام فيه ماء ، ودخل الطفل بلا شيء في قدمه ، ومس التيار مات ، لما يقول الأب : سبحان الله ! هذا مات بأجله ، لا ، هذا جزاء التقصير ، إياك ، ثم إياك ، ثم إياك أن تعزو أخطاءك إلى القضاء والقدر .

أنا أقول لكم هذا الكلام الدقيق ، قال لك الطبيب : ابتعد عن الملح كلياً ، لأن ضغطك مرتفع ، والضغط قاتل صامت ، وأنت قلت : كل ملح ، وتوكّل على الله ، والشافي الله ، ولا تخف ، ولا يضر مع اسمه شيء ، وحدثت خثرة في الدماغ على أثر ارتفاع الضغط ، وفقد الإنسان الحركة ، لا تقل : هذا قضاء وقدر ، تقول : هذا جزاء التقصير ، أما حينما تأخذ بكل القواعد الصحية ، وحينما تنصاع لكل التعليمات التي تأتيك عن طريق الطبيب ، ويأتي شيء من الله فهذا هو القضاء والقدر .

حينما لا تدرس ، ولا تنجح ، لا تقل : قسمة ونصيب ، الله لم يكتب لي أن أنجح ، سبحان الله ! لا تقل هذا ، قل : أنا ما نجحت لأني ما درست ، أما لما تدرس أعلى دراسة ، ويوم الامتحان ينشأ ظرف طارئ في صحتك يمنعك من أداء الامتحان ، وقلت : حسبي الله ونعم الوكيل ، فكلامك صحيح .

أنا أتمنى أن أجل أن ننهض ، أن نتقدم ، ألا نعزو أخطاءنا إلى القضاء والقدر ، هناك أنظمة وقوانين ، الله عز وجل لم يغيّر لك القوانين من أجلك ، هناك قوانين للصحة ، وقوانين للسلامة ، من نام على سطح ووقع من على السطح فقد وقع آثماً ، ومن كان جمله حرونًا فلا يركبه ، فلما ركبه أحدهم ، ودقت عنقه لم يصلِّ النبي عليه ، أو تنزل من المركبة وهي تمشي ، وتضطرب فتقع ، وتأتي رجلك تحت الدولاب ، وتقول : هكذا كتب الله عليّ ، لماذا نزلت والمركبة تمشي ؟ القضاء والقدر شيء، وجزاء التقصير شيء آخر ، لا ينبغي أن نعزو أخطاءنا إلى القضاء والقدر إطلاقاً ـ دققوا ـ :

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ)

(سورة النور الآية : 11)

خذوا العبرة من حادثة الإفك :

الإفك ، حديث الإفك ، اتهام السيدة عائشة ، زوجة رسول الله ، المصونة الحصان ، العفيفة ، الطاهرة ، اتهمت بأثمن ما تملكه امرأة .

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ)

(سورة النور الآية : 11)

هذا التسيير الإلهي ، قال :

(وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة النور الآية : 11)

إذاً التوحيد لا يعفي من المسؤولية ، طبيب بالإسعاف يدير حديثًا مع ممرضة ، وجاءه إنسان مصاب ، وقال لهم : انتظروا ، فمات المريض ، سبحان الله ! مات بأجَله ، لا ، لم يمت بأجله ، مات بسبب تقصير الطبيب المسعف ، ويحاسب على ذلك .

أكثر شيء يؤلمني الخلط ، والتقصير ، والإهمال ، والتسيب ، وعدم إتقان العمل ، وربطه بالقضاء والقدر .

ركّب رجلٌ صحنًا ، وموضوع الصحن موضوع ثان ، لكن ركب صحنًا ، وضع له برغيًّا واحدا ، جاءت موجة رياح فوقع الصحن فوق ابنة صديقه ، فماتت ، لا تقل لي : قضاء وقدر ، وسبحان الله ماتت وهي بعمر الورود ، لا تقل هذا الكلام ، هذا الذي ركب هذا الصحن ينبغي أن يحاسب حساباً عسيراً ، لأنه أهمل عمله .

ما دمنا نربط كل شيء بالقضاء والقدر ، نغطي بالقضاء كل أغلاطنا فلن نتقدم قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ تَطَبَّبَ وَلَمْ يُعْلَمْ مِنْهُ طِبٌّ قَبْلَ ذَلِكَ فَهُوَ ضَامِنٌ))

[أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجة والحاكم عن ابن عمرو]

لمَ تطبب ، ولم تكن مختصًا ، وتعطي دواء ، والدواء من آثاره صدمة مفاجئة ، ولا تتأكد أن المريض يتحمل هذه الصدمة ، وتأتيه صدمة ، ويموت ، لا تقل : مات بأجله ، هذا ترتيب سيدك ، وماذا نعمل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هذه مشكلات العالم الإسلامي ، خلط الأوراق ، القضاء والقدر شيء ، وجزاء التقصير شيء آخر ، الكسل الذي يؤدي إلى الرسوب شيء ، وأن إنسانًا يوم الامتحان جاءه مرض عضال مفاجئ منعه من أداء الامتحان شيء آخر .

لذلك لما يؤدي الإنسان ما عليه ، ثم يستقبل أيّ قضاء من الله وقدر بنفس طيبة ، يقول : أنا أديت الذي علي ، الذي جاءني فيه حكمة بالغة ، وأؤكد لكم أنك إذا أديت الذي عليك لا يأتي القضاء والقدر إلا لصالحك ، عندئذٍ أقول لكم :

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة)

صدقوا أيها الإخوة ، في التعليمات القانونية لا بد من فحص الزوجين ، عملياً الفحص شكلي ، قد يكون الفحص ، لو أجري الفحص للزوجين كان هذا الزواج سيؤدي إلى أولاد عندهم أمراض في الدم خطيرة جداً ، في بعض البلاد 8 آلاف حالة ، في بلد أربع حالات فقط مع الوعي الصحي ، من دون وعي صحي ، من دون انضباط بقواعد العلم 8 آلاف حالة ، هذا الطفل الذي يولد كسيحاً على الكرسي ، يكلف معاينةً كل شهر ، يجب أن يضخ دم له 8 ساعات على جهاز ، فوق طاقة الإنسان ، يكلف من 200 لـ300 ألف كل سنة ، المبالغ التي تنفق على أمراض ناتجة من عدم الفحص الدقيق قبل الزواج فوق طاقة الإنسان .

الحياة فيها علم ، والدين الإسلامي دين علم ، ودين قواعد ، ودين مسؤولية ودين مبادئ ، فلذلك الذي حرمه الله :

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ)

لأنه يعطل العقل ، وإذا تعطل العقل تعطلت إدارة الحياة ، إنسان سكران ، غارق بالسكر . الآن :

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ)

الخمر والخمر تعطل العقل ، نحن بحاجة إلى حفظ أنساب حتى نفعّل نظام الأبوة ، كل أب له ابن ، وحياته كلها في خدمة أولاده ، بل هم زاده إلى الله ، بل هم جنته وناره ، وأولاده امتداد له ، وأولاده وجوده المستمر .

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ)

الفواحش تلغي نظام الأبوة ، يصبح هناك لقطاء ، وإنسان حاقد ، ما استقى الرحمة من أمه وأبيه .

(وَالْإِثْمَ)

هو الخمر ، تعطل العقل ، الذي أنيط به إدارة الحياة العقل ، يتعطل بالخمر .

(وَالْبَغْيَ)

1 – ما هو البغي ؟

وهو العدوان ، والعمل الذي يصل إلى الآخرين ، هناك عدوان على العِرض ، وعلى النفس ، وعلى المال ، وأوضح شيء المال .

2 – من آثار البغي السيئة :

مثلاً : زرع إنسان أرضًا واشتغل فيها سنة ، وباع المحصول ، وقبض الثمن ، هذا الثمن جهد ثمانية أشهر دوامًا مديدًا ، وجهدا عضليا كبيرا ، وجهدا علميا في الزراعة ، وجهدا آخر في الوقاية من الحشرات ، وجهدا تسويقيا ، جمع المال ، في الطريق لقيه أحدهم معه سلاح ، قال له : أعطني ما في هذه المحفظة ، ما الذي حصل ؟ هذا القوي بهذا السلاح اعتدى على كسب هذا الرجل .
كلما اعتدي على كسب الإنسان ضعفت قيمة العمل ، والعمل أساس التقدم ، أساس البناء ، فحينما يعتدى على الأعراض ، وعلى الأموال ، وعلى الأنفس تعمّ الفوضى ، لعن الله من قال الفوضى البناءة ، أي فوضى بناءة ؟ هذا الذي يجري حولنا ، لا أمن إطلاقاً ، ولا استقرار ، ولا بيت ، ولا أسرة ، ولا ابن .
لذلك أيها الإخوة ، حينما يعتدى على الأموال والأعراض والأشخاص يفتقد الأمن ، وتوقفت الأعمال ، ودائماً مع الفوضى كساد ، وسرقة ، ونهب ، وضعف للأعمال ، والعمل أساس التقدم .

هذه مِن آثار الزنا والخمر والبغي :

باختلاط الأنساب ألغي نظام الأبوة والبنوة .

الشيء الثاني :

(وَالْإِثْمَ)

هو الخمر ، ألغي العقل الذي يدير الحياة .

الآن :

(وَالْبَغْيَ)

ألغي الكسب المشروع ، ولم يعُد للعمل قيمة ، وكل البلاد التي طبقت نظام إلغاء الملكية أخفقت إخفاقاً كبيراً ، وفي النهاية رجعت إلى نظام الملكية .

المجتمعات التي بقيت سبعين عاماً تنادي بإلغاء الملكية لم يحصل لها تقدم أبداً ، بل كانت في تخلف شديد ، فلما ثبت أن هذا النظام لا يمكن أن ينمي قدرات الإنسان عادوا إلى نظام آخر .

على كلٍ :

(وَالْبَغْيَ)

هو العدوان ، والحقيقة أن الأشياء المحرمة أشياء دقيقة جداً ، الأولى تحريم الزنا ، والثانية تحريم الخمر ، والثالثة تحريم العدوان ، الحياة لا تستقر إلا بالبعد عن الزنا ، فتكون الأسر نظيفة ، وبالبعد عن الخمر فتكون العقول نشطة ، وبالبعد عن العدوان فتنمو المكاسب .

إنّ أيّ إنسان تقول له : هذا الجهد لك ، هذا الربح لك ، يعمل ليلاً نهاراً ، حينما يكون في الشيء ثمرة يمكن أن تقطفها فقد تتفانى في خدمة عملك .

أذكر مرة أن معملا تعطلت فيه آلة في الساعة الثانية ليلاً ، صاحب المعمل أتى بمن يصلح عطب هذه الآلة الساعة الثالثة ليلاً ، حتى لا يعطل العمل والإنتاج ، إذا كان الشيء يعود ثمرته لك تتفانى بخدمته .

إذاً : قضية التحريم وراءها أبعاد كبيرة جداً ، وعميقة جداً ، وبعيدة جداً .

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ)

وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ


الربان مسؤول عن نجاة السفينة

هناك بغي بالحق ، وهذا مثل بسيط : ربان السفينة عنده خبرات عالية جداً ، لكنه تقاعد ، وركب سفينة ، فيها ربان مبتدئ ، والأمواج متلاطمة ، وخطر الغرق قائم ، فاستولى على قيادة السفينة لينجو أهلها من الغرق ، هو أخذ هذا المنصب القيادي بغير حق ، أخذه بحق هنا حفاظاً على سلامة السفينة ، هناك حالات نادرة جداً ، قال له سيدنا يوسف :

(اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)

(سورة يوسف)

قد ترى أن الذي يدير هذه الدفة غير صالح ، فيه مشكلات كبيرة جداً ، فإن أخذت عنه ربما أنقذت المركبة من الغرق ، هذا تعليق على كلمة :

(وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ)

وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا

1 – لا تستقر حياةٌ بالشرك :

الآن :

(وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا)

الحياة مع الشرك حياة مشتتة ، حياة فيها صراعات ، هناك أقوياء كثر ، وكل قوي له اتجاهات ، وكل قوي له أتباع ، وكل قوي له أشخاص ، وكل قوي له إعلام ، وتجد صراعات الحياة عجيبة ، لأن الناس تفرقوا عن الله عز وجل ، ما اعتصموا بحبل الله .

2 – أساس الحياة التوحيد والإخلاص :

فلذلك الشرك من أخطر الآفات الاعتقادية ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، ونهاية العلم التوحيد، ونهاية العمل التقوى ، والتوحيد :

((اعمل لوجه واحد يكفيك الوجوه كلها))

[أخرجه ابن عدي ، والديلمي عن أنس]

((من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها))

التوحيد :

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ* إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

هذا التوحيد ، التوحيد مسعد ، التوحيد مريح ، التوحيد فيه شعور بالأمن ، علاقتك بالله ، أمرك بيده ، بيتك بيده ، أهلك بيده ، أولادك بيده ، من هو أقوى منك بيده ، من هو أضعف منك بيده ، الأمراض بيده ، تتجه إليه مخلصاً .

لذلك بعد أن يلغى الزنا ، ينضبط الإنسان ، يفعّل نظام الأبوة ، كل إنسان يعتني بأولاده ، هناك بيوت نظيفة ، وحينما تلغى الخمر تكون العقول نشطة بإدارة الحياة ، وحينما يلغى العدوان يصير العمل مقدسًا ، وإلغاء البغي لصون العمل ، وإلغاء الإثم لصوم العقل ، وإلغاء الفحش لصون الأنساب ، وإيجاد مجتمع طاهر ، نظيف ، الأولاد معروفون ، يتلقون أكبر عناية من آبائهم ، العقل نشيط ، الشيء الآخر أنه لا عدوان ، فإذا كان كسب الرجل له ينمو العمل .

3 – ما هو التوحيد ؟

التوحيد ألا تتجه لغير الله ، وألا تتكل إلا على الله ، التوحيد يعني أنه لا رافع ، ولا خافض إلا الله ، ولا معطي ولا مانع إلا الله ، ولا رازق إلا الله ، ولا معز إلا الله ، ولا مذل إلا الله ، فأنت بالتوحيد كإنسان يريد تأشيرة سفر إلى بلد معين ، لكن بنظام الهجرة والجوازات هذا البلد لا يحق إلا للمدير العام بإدارة الهجرة والجوازات أن يعطي الموافقة ، وبناء الهجرة عشرة طوابق ، وفيه ألف موظف ، هل يعقل أن تبذل ماء وجهك لأحد الموظفين ، ما بيده شيء ، الأمر منوط برئيس المركز ، حينما تعلم أن أمرك بيد الله وحده لا تتذلل إنسان ، ولا تخضع لإنسان .

((اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس ؛ فإن الأمور تجري بالمقادير))

[أخرجه ابن عساكر عن عبد الله بن بسر]

وشرف المؤمن قيامه بالليل ، وعزه غناه عن الناس ، التوحيد ينمي شخصيتك التوحيد يمنحك الأمن ، التوحيد يمنحك الوضوح ، التوحيد يمنحك الجرأة ، كلمة الحق لا تقطع رزقاً ، ولا تقرب أجلاً ، هذا هو التوحيد .

لذلك :

(وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا)

وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

لكن أخطر شيء أن تستقي معلومات غير صحيحة عن الله عز وجل ، يقول لك قائل :

((شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي))

[رواه مسلم عن أبي هريرة]

والله شيء جميل ، ما شاء الله على هذا الحديث ، هو حديث صحيح ، له تفسير دقيق ، لكن يُفهم هذا الحديث فهم ساذج ، افعل ما شئت من الكبائر ، عندئذٍ تنالك شفاعة رسول الله ، هذا الفهم الساذج مدمر للحياة ، لذلك :

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

إذا صح أن المعاصي ركبت تركيباً تصاعدياً ، بدأنا بالفاحشة ، ثم بالخمر ، ثم بالعدوان ، ثم بالشرك ، يأتي على رأس هذه المعاصي والآثام :

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

لذلك لأن يرتكب العوام الفواحش والكبائر أفضل أن يقولوا

(عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(16-60): تفسير الآية 34 ، لكل أمة طاغية نهاية محرقة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-04-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس السادس عشر من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الرابعة والثلاثين ، وهي قوله تعالى :

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

معاني الآية وأبعادُها :

لهذه الآية أبعاد كثيرة ، ومعاني دقيقة وخطيرة .

1 – معنى الأُمّة :

أولاً : من هي الأمة ؟ جمعٌ كبير من البشر ، لهم صفات مشتركة ، بينهم قواسم مشتركة ، الأمر الذي حدا بعلماء النفس إلى وضع علم جديد اسمه علم نفس الأمة ، معظم الأمم لها خصائص مشتركة . مثلاً : الله عز وجل وصف اليهود فقال :

(يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ)

(سورة البقرة الآية : 96)

أمّة تؤكد العمل ، أمة تحرص على المال ، أمة غارقة في الشهوات ، أمة أمة مبدأ ، أمة أمة خير ، الأمم بين أفرادها قواسم مشتركة .

خصائص أمةِ الإسلام :

لكن الله سبحانه وتعالى خص الأمة العربية والإسلامية بهذه الآية حينما قال :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس)

(سورة آل عمران الآية : 110)

لكن هذه الخيرية لها علتها :

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية : 110)

فإن لم نأمر بالمعروف ، ولم ننهَ عن المنكر ، ولم نؤمن بالله الإيمان الذي يحملنا على طاعته ، نحن كأية أمة خلقها الله ، لا نملك أية ميزة على بقية الأمم ، وهذا معنى قوله تعالى يخاطب من ادعى أنهم أبناء الله وأحباءه :

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة الآية : 18)

وإذا قال المسلمون في آخر الزمان : نحن الأمة المختارة ، نحن أمة سيد الأنبياء والمرسلين ، الجواب الإلهي جاهز :

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

2 – لكل أمّةٍ أجلٌ تقف عنده :

لذلك أيها الإخوة ، الآية الكريمة :

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ)

لكل تجمع كبير صفات مشتركة ، هذه الأمة كبرت ، وقويت ، وسيطرت لها أجل ، هذه الأمة ارتقت في مدارج الفضائل ، لكن لها أجل ،

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)

وفي قوم عاد عبرة لمَن يعتبر !!!

مثلاً الله عز وجل ضرب مثلاً للأمم الطاغية ، المتجبرة ، المستكبرة ، التي تنتهك الأعراض ، وتنهب الثروات ، وتظلم العباد ، وتقتل ، وتسفك الدماء ، هذه الأمم الطاغية المستكبرة ، المتجبرة ، ضرب الله لنا مثلاً عنها .

قوم عاد قال تعالى عنهم :

(لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

(سورة الفجر)

تفوق في شتى المجالات ، قال :

(وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

(سورة فصلت الآية : 15)

تفوّق وغطرسة .

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ)

(سورة الشعراء)

تفوق عمراني مذهل .

(وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

(سورة الشعراء)

وصناعي .

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

(سورة الشعراء)

وعسكري .

(وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)

(سورة العنكبوت)

وعلمي ، تفوق عمراني ، وصناعي ، وعسكري ، وعلمي ، وغطرسة ، بل تفوق في شتى الميادين .

أيها الإخوة ، لو أردنا أن تضغط حركتهم في الحياة فهما كلمتان :

(طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)

الطغيان قصف ، والإفساد ، أفلام .

(طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)

لم يطغوا في بلدهم ، بل في البلاد في شتى البلاد .

(فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)

(فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر)

لعاد ، ولمن كانت على شاكلة عاد ، كيف أهلكهم الله ؟

(وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ *سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)

(سورة الحاقة)

أيها الإخوة ، ما أهلك الله قوماً إلا وذكرهم أنه أهلك من هم أشد منهم قوة إلا عاداً حينما أهلكها قال :

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً)

(سورة فصلت الآية : 15)

ما كان فوق عاد إلا الله ، ومع ذلك أهلكها الله ، وفي هذا إشارة لطيفة حينما قال الله عز وجل :

(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى)

(سورة النجم)

إشارة لطيفة إلى أن هناك عاداً ثانية ، والعالم يعاني منها ما يعاني ، وصفات عاد الثانية تنطبق على صفات عاد الأولى .

إذاً : الأمم الطاغية لها أجل ، لذلك اسمعوا هذه الكلمات الدقيقة : أية أمة قوية جداً لم يكن فوقها إلا الله قوية جداً ، متغطرسة ، لها نفوذ في كل البلاد ، خططت لتبني مجدها على أنقاض الشعوب ، وتبني حريتها على تقييد الشعوب ، وتبني ثقافتها على إزالة ثقافات الشعوب ، وتبني أمنها على إخافة الشعوب، وتبني قوتها على إضعاف الشعوب ، وتبني غناها على إفقار الشعوب ، هذه الأمة القوية ، نجاح خططها على المدى البعيد لا يتناقض مع عدل الله فحسب ، بل مع وجوده ، لأن :

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)

بالتعبير الدارج كل أمة لها عشرة أيام .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ : كلمة تدعو إلى التفاؤل :

لذلك أيها الإخوة ، هذا يدعو إلى التفاؤل ، هذا يبعدنا عن الشعور بالإحباط ، والشعور بالقهر ، والشعور باليأس ، والقهر ، واليأس ، والقهر ، والإحباط ليست من صفات المؤمنين .

أين هم الرومان ؟ أين هم المغول ؟ أين هم اليونان ؟ أين هم الفراعنة ؟ وأين هو المعسكر الشرقي ؟ والقطب الواحد ؟ لعل الله سبحانه وتعالى يهيئ له خطة قد لا يسر بها الأصدقاء .

3 – معنى : لكل أمّةٍ أجلٌ :

أيها الإخوة ، معنى :

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)

أي لم يَدُم لهم ذلك ، وما مِن شيء يستمر ،

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)

من ألا تيئس ، من أجل ألا تشعر بالإحباط ، من أجل ألا تستسلم ، من أجل ألا تضعف معنوياتك .

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

الله عز وجل له سياسة ، يمدهم ، ويقويهم ، ويفعلون ما يريدون ، ويقولون ويتبجحون ، ويتغطرسون، ويهددون ، ويتوعدون ، إلى أن يقول ضعيف الإيمان : أين الله ؟ وقد قالها ضعاف الإيمان ، يمد اللهُ القويَّ ، يعطيه قوة ، يفعل ما يقول ، يفرض ثقافته على بقية الشعوب ، يفرض إرادته على بقية

الشعوب ، يقصف ، يدمر ، حتى يقول ضعيف الإيمان : أين الله ، ثم يظهر آياته ، حتى يقول الكافر : لا إله إلا الله ، هناك امتحانان صعبان امتحان يوصلان المؤمن الضعيف إلى أن يقول : أين الله ، وامتحان آخر يوصل الكافر إلى أن يقول : لا إله إلا الله .

أيها الإخوة ، الله عز وجل يمدهم ، يمدهم ويقويهم ، ويتوهم ضعف الإيمان أنهم يفعلون ما يريدون ، ولكنه يأخذهم فجأة :

(أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ)

(سورة القمر)

ويجعلهم أحاديث .

سُنّة الله مع الطغاة والظالمين :

لذلك أيها الإخوة ، دققوا في هذه الآية ، هذه الآية ترسم سياسة الله مع الطغاة :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص الآية : 4)

علا علواً كبيراً وقال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

وقال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية : 38)

لأنه رأى رؤية في ما ترويه الكتب أن طفلاً من بني إسرائيل سيقضي على ملكه ، فأمر يذبح أبناء بني إسرائيل جميعاً ، وأي قابلة لا تخبر عن مولود ذكرٍ تقتل ، القضية سهلة ، لكن الطفل الذي سيقضي على مُلكه رباه هو في قصره ، وهذا مِن حكم الله العظمى ، إذاً :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص الآية : 4)

السياسة الواضحة له :

(وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً)

(سورة القصص الآية : 4)

الفتن الطائفية ، أنت كردي ، أنت آشوري ، أنت عربي ، أنت سني ، أنت شيعي الورقة الرابحة في أيدي الطغاة الفتن الطائفية ، ولا يستطيع المسلمون إسقاط هذه الورقة إلا بوعي ، وتقارب ، ومحبة ،

إذاً :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص)

لماذا ؟ الآن دققوا كلام رب العالمين :

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ*وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

إذاً الله عز وجل يسلط الكافر على المؤمن المقصر ، فإذا عاد المؤمن المقصر إلى الله قواه ، وعالج به الكافر ، هذه سياسة الله .

هذه آية أصل في الموضوع أعيدها ثانية :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ)

(وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

إذاً :

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

لابد من اتخاذ الأسباب :

ولكن :

(وَقُلِ اعْمَلُوا)

(سورة التوبة الآية : 105)

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

(سورة الأنفال الآية : 60)

والله عز وجل لن يطالبنا بالقوة المكافئة ، هذا فوق إمكاناتنا ، ولكنه طالبنا بالقوة المتاحة .

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

(سورة الأنفال الآية : 60)

ويجب أن يكون عدوكم عدواً لله .

أيها الإخوة ، لماذا ينتقم الله من الطغاة ؟ ينتقم منهم لتحقيق السلامة بين البشر ، لئلا ييأس البشر ، لمعالجة البشر ، الظالم سوط الله ، ينتقم به ثم ينتقم منه .

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة الأنعام)

أيها الإخوة ، سأقول كلمة دققوا فيها : لو أراد خصوم الطغاة أن ينتقموا منهم لما استطاعوا أن ينتقموا منهم كما ينتقم الله منهم .

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

لو أراد خصوم الطغاة أن ينتقموا من الطغاة بكل ما أوتوا من قوة لا يستطيعون أن ينتقموا معشار انتقام الله منهم .

إذا رأيت فساداً ، أو طغياناً فلا تيأس ، واقرأ قوله تعالى ،

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)

الحكمةُ في تسليط الظالم والمصائب على الناس :

لكن النقطة الدقيقة ، وهذا بعلم الله عز وجل هناك شريحة اجتماعية واسعة جداً لا يمكن أن تلجأ إلى الله ، ولا أن تصطلح معه ، ولا أن تقبل عليه ، ولا أن تلتزم منهجه إلا إذا عضك الظالم ، فالظلم لهم دور كبير جداً ، هم يعضون المؤمنين ، والمؤمنون يلجئون إلى الله ، يلوذون بالله ، يحتمون بالله ، يقبلون على الله ، يلجئون إلى المساجد .

عقب زلزال في تركيا أقسم لي أحد الإخوة في اسطنبول أن المساجد في الصلوات الخمس لا تتسع للمصلين ، من شدة الخوف .

فهذه المصائب لها دور كبير جداً في هداية البشر ، ولا أبالغ أن معظم الناس أتوا إلى الله ، وفروا إليه في التعبير القرآني ، وأقبلوا عليه ، واصطلحوا معه عقب تدبير إلهي حكيم ، والبطولة أن تأتيه طائعاً ، البطولة أن تأتيه بعد الدعوة البيانية .

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

(سورة الأنفال الآية : 23)

أكمل شيء أن تستمع إلى درس ، إلى خطبة ، أن تقرأ كتابا ، أن تقرأ آية ، أن تشرح آية ، تهتم ، تتعظ، تستقيم ، تلتزم ، هذا أكمل إنسان .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص الآية : 50)

هناك معالجة أصعب ، التأديب التربوي :

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

إن لم تُجدِ الدعوة البيانية أخضعك الله للتأديب التربوي ، وهذا أصعب ، كالتهاب معدة حاد ، بالحمية الشديدة تشفى ، لم تلتزم بالحمية إذاً لابد من عملية جراحية ، العملية أصعب ، فيها تخدير ، وفيها فتح بطن ، أما لو التزمت حمية شديدة فلا حاجة للعملية ، فإما أن تأتيه طائعاً مستجيباً ، متمسكاً ، ملتزماً ، أو لا بد من تأديب تربوي ، فإن لم تتب عقب الشدة فهناك طريقة ثالثة هي الإكرام الاستدراجي ، تأتي الدنيا ، وأنت لست على طاعة الله ، تأتي الدنيا من أوسع أبوابها :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام الآية : 44)

إذاً دعوة بيانية ، تأديب تربوي ، إكرام استدراجي ، وقصمٌ :

(أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

أيها الإخوة ، إذاً هناك شريحة من البشر كبيرة جداً لا سبيل إلى أن تعرف الله ، وأن تصطلح معه إلا عن طريق الشدة ، لذلك :

أوحى ربك إلى الدنيا أن تشددي ، وتضيقي ، وتكدري على أوليائي حتى يحبوا لقاءي .

شهد الله أن المؤمن إذا عرف الله يرى أنه إذا أخضعه لشدة هو في العناية المشددة ، ضمن الإمكان ، في إمكان أن تهتدي ، فالله وضعك ضمن ظرف صعب .

لذلك بالضبط دققوا في هذا المثل : إنسان معه مرض خبيث في الدرجة الخامسة ، ولا أمل بشفائه ، بقي له أشهر ، وسأل الطبيب : ماذا آكل ؟ يقول له : كل ما شئت ، أما إنسان معه التهاب معدة ، وبحمية خلال أربعة أيام ينجو ، فالطبيب يقيم عليه النكير لو أكل شيئاً يؤذيه معدته ، فإذا تشدد فهناك أمل ، التشدد فيه خير ، وبقية خير ، وإمكان إصلاح ، وإمكان شفاء ، وإمكان توبة .

لذلك إذا أحب الله عبده ابتلاه ، إذا أحب الله عبده عجل له بالعقوبة ، وحينما تعامل معاملة شديدة من قِبل الله دقق فيما سأقول ، فأنت في العناية المشددة .

لكن النبي علمنا أن نقول : لكن عافيتك أوسع لنا يا رب ، والبطولة أن تأتيه طائعاً ، وأنت صحيح معافى .

أيها الإخوة ، الحقيقة التي يجب أن نؤمن بها أن هؤلاء الطغاة إن لم يضيقوا على المؤمنين ، إن لم يهددوا المؤمنين ، إن لم يقطعوا عنهم بعض الإمدادات ، إن لم يحاصروهم ، هؤلاء فقد لا يتعرفون إلى طريق الحق ، قد لا يلجئون إلى الله .

لذلك هذه الشدة حينما يكتشف الإنسان يوم القيامة حكمتها يجب أن يذوب محبة لله عز وجل كما تذوب الشمعة إذا اشتعل فتيلها .

(وَآَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة يونس)

مرة ثانية : الآية التي تنتظم هذا الدرس :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

كلُّ شيءٍ وقع بإرادةِ وحكمة الله :

أيها الإخوة ، يجب أن تعلم علم اليقين أن كل الذي وقع أراده الله ، وأن إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة ، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق ، هذا هو الإيمان ، لو أن شدة أصابة المسلمين بعدها خير ، الآن نخبة قليلة من الناس يكتشفون الإيجابيات من وراء الأحداث الأخيرة في العالم ، هذه الإيجابيات على رأسها أن العالم انقسم إلى قسمين ، المنطقة الرمادية في العالم اختفت ، هناك أبيض وأسود ، مؤمنون وغير مؤمنين ، صادقون وكاذبون ، مخلصون وخائنون ، العالم أخذ الوضع الحاد ، أبيض وأسود ، هذه موحلة كبيرة جداً ، الإسلام قفز إلى بؤرة الاهتمام ، الإسلام وحّد المسلمين ، هذه الشدائد توحد .

اكتشافُ إيجابيات الأحداث الأخيرة :

لو أنّ إنسانا عنده تأمل عميق ، وتحليل دقيق لاكتشف أن هناك إيجابيات في الأحداث الأخيرة لا يعلمها إلا الله مثلاً :

إن صح أن هناك ساحة عليها المبادئ والقيم في الأرض ، كانت قبل خمسين عاما كتلة الشرق بمبادئه وقيمه ، والتركيز على المجموع ، وقيم الغرب بمبادئه وقيمه ، والتركيز على الفرد ، والإسلام وحي من السماء ، منهج إلهي ، الشرق تداعى من الداخل ، بقي على ساحة المبادئ والقيم الإسلام والغرب ،

الغرب قوي جداً ، وغني جداً ، وذكي جداً ، وطرح قيم رائعة جداً ، والحق يقال ، طرح قيمة الحرية ، والديمقراطية ، وحقوق الإنسان ، وتكافؤ الفرص ، وحق المقاضاة ، والحريات بكل أنواعها ، والعولمة، واحترام جميع الأديان ، قبل 11 أيلول ، فخطف أبصار أهل الأرض ، وصار الذي معه بطاقة خضراء ، كأنه دخل الجنة ، وتمنى البشر جميعاً أن يعيشوا في بلاد الغرب ، ولكن الله سبحانه وتعالى ما كان ليغش البشر فأظهر حقيقة الغرب .

والله قبل 20 ـ أو 30 عاما قلة قليلة جداً من المثقفين في العالم الإسلامي يكشفون حقيقة الغرب ، الآن أطفالنا كشفوا حقيقة الغرب ، الآن لا يمكن أن تحترم هذه الحضارة ، قد تخاف منها ، هي قوة غاشمة ، ولكنها ليست حضارة راقية أبداً ، لم يبقَ على ساحة المبادئ والقيم إلا الإسلام ، وهذا أكبر مكسب تحقق للمسلمين في الحقبة الأخيرة .

الألم وسيلة للسعادة :

أيها الإخوة ، يبدو أن الألم وسيلة للسعادة ، لذلك من أسماء الله الضار ، وممنوع أن تقول : اسم الله الضار ، اسم الضار يذكر مع النافع ، الضار النافع ، فهو يضر لينفع ، ممنوع أن تقول : الله الخافض ، يجب أن تقول : الله الخافض الرافع ، يخفض ليرفع ، ممنوع أن تقول : الله مذل ، قل : الله مذل معز ، يذل ليعز ، ممنوع أن تقول : الله مانع ، يمنع ليعطي ، وربما كان المنع عين العطاء .

واللهِ لو كُشف للإنسان يوم القيامة حكمة ما ساقه الله إليك لصعقتَ ، كان دخله محدودا ، وولدا يتيما ، عنده مشكلة صحية ، لم يوفق في زواجه ، لو يُكشف للإنسان يوم القيامة الحكم التي وراء ما ساقه الله من قضاء وقدر أقول : والله إن لم يذب كالشمعة محبة لله ففي هذا الدين خلل .

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ودار ترح لا دار فرح فمن عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشدة ، ألا وإن الله تعالى خلق الدنيا دار بلوى ، والآخرة دار عقبى ، فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة ، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضا ، فيأخذ ويبتلي ليجزي))

[رواه الديلمي عن ابن عمر]

إذاً : الألم وسيلة للسعادة ، كم من إنسان عظيم له بصمات كبيرة جداً على الثقافة البشرية ، نشأ يتيماً ، نشأ فقيراً ، نشأ مضطهداً ، لذلك قالوا : الحزن خلاّق ، الحزن يورث التفوق أحياناً ، أما النعيم فلا يورث شيئاً ، تلاحظون أن طفلا ينشأ في أسرة غنية جداً لا يدرس ولا يتفوق ، ولا يلتزم بشيء ، مائع، ضائع ، وهكذا ، النعيم أفسده ، وقد تجد بطولات من الفقراء ، يسمون عند الناس عصاميين ، بطولات كبيرة جداً ، لأنّ الحزن خلاق .

يجب أن تعتقد أنك لست مخيراً في أمك وأبيك ، ولا في كونك ذكراً أو أنثى ، ولا في مكان ولادتك ، ولا في زمن ولادتك ، ولا في قدراتك ، وقد أكد علماء التوحيد أن هذا الذي لم تكن مخيراً به محض خير لك ، وليس في الإمكان أبدع مما كان ، بل ليس في إمكانك أبدع مما أعطاك .

إذاً : الألم وسيلة للسعادة ، والضرر طريق للنفع ، والخفض طريق للرفع ، والإذلال أحياناً طريق إلى العز ، والمنع أحياناً طريق عين العطاء .

لذلك المؤمن عقب مشكلة ، عقب شبح مصيبة ، عقب خطر ، يلجأ إلى بيت الله الحرام معتمراً أو حاجاً، فيصطلح مع الله ، أو يأتي إلى المسجد ليصلي في المسجد ، وليذكر الله فيه ، أو يلجأ إلى تلاوة القرآن ، أو يحاول أن يسترضي الله بالأعمال الصالحة ، والبذل والتضحية .

لذلك حينما تفهم على الله حكمته من الشدائد تنقلب الشدائد إلى رغائب ، والبطولة أن تعتقد اعتقاداً جازماً أن كل شيء يفعله الله لخير ، أنت لا يستقيم إيمانك حينما تتوهم أن الله لا يعلم ما يجري في الأرض .

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا)

(سورة الأنعام الآية : 59)

ينزل صاروخ ، معقول ورقة يعلمها وصاروخ لا يعلمه ؟! مستحيل ، وأنت لا يستقيم إيمانك حينما تتوهم أن الله لا يقدر أن يردع الطغاة ، كن فيكون ، زل فيزول .

زلزال آسيا ، يساوي مليون قنبلة ذرية ، الأمر بيد الله عز وجل .

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً)

(سورة يس الآية : 29)

لكن الله يمهل ولا يهمل .

من تدبير الله تعالى : تسخيرُ الأعداء لخدمة الدين :

شيء آخر : الطغاة مهما كانوا ظالمين ، ومهما كانوا فاجرين ، ومهما كانوا مفسدين ـ دققوا فيما سأقول ـ لا بد من أن يسخرهم الله لخدمة دينه من دون أن يشعروا ، ومن دون أن يريدوا ، وبلا أجر وبلا ثواب .

أقول لكم وأنا أعني ما أقول : أكبر جهة لها الفضل في صحوة المسلمين أعداء المسلمين ، يدفعونهم إلى التوبة ، يدفعونهم إلى الصلح مع الله ، يدفعونهم إلى طلب العلم ، لو أن الحياة فيها رخاء شديد ، وفيها تفلت ، وفيها شهوات ، وفيها تجارة رائجة ، تجد أن الأماكن التي فيها رخاء شديد هذا الرخاء أكبر حجاب عن الله عز وجل ، والأماكن التي فيها شدة فيها قلق ، وفيها ضغوط ، تجد المساجد ممتلئة،

الناس منيبة ، الناس يصلون الليل ، يقرؤون القرآن ، ويتعاونون ، والله هناك بطولات في هذه البلدة لا يعلمها إلا الله ، من الشباب ، من الشابات ، بذل ، تضحية ، لا تنظر إلى الطرف الآخر المتفلت ، هناك بيوت تنطوي على أولياء في هذه البلدة .

((رأيت عمود الإسلام قد سُل من تحت وسادتي فأتبعته بصري فإذا هو بالشام))

[أحمد]

((رأيت ليلة أسري بي عمودا أبيض كأنه لؤلؤة تحمله الملائكة ، قلت : ما تحملون ؟ قالوا : عمود الإسلام ، أمرنا أن نضعه بالشام ، وبينا أنا نائم رأيت عمود الكتاب اختلس من تحت وسادتي فظننت أن الله تخلى من أهل الأرض فأتبعته بصري فإذا هو نور ساطع بين يدي حتى وضع بالشام))

[رواه الطبراني عن عبد الله بن حوالة]

والله أنا سافرت كثيراً شرقاً وغرباً ، والله كلما أعود إلى هذه البلدة أرى مصداق قول النبي فيها .

((رأيت عمود الإسلام قد سُل من تحت وسادتي فأتبعته بصري فإذا هو بالشام))

النقطة الدقيقة : نقول نحن للطاغية أحياناً : لو علمت ما سبّبت للمسلمين من عودة إلى الله ، ومن رخاء من تعامل المسلمين مع الله من دون أن تشعر ، ومن دون أن تريد لندمت أشد الندم ، الطرف الآخر دائماً هو الذي يدفعنا إلى باب الله ، يسوقنا إلى بابه .

((عجبت لأقوام يساقون إلى الجنة في السلاسل))

[أخرجه الطبراني عن أبي أمامة أبو نعيم ، عن أبي هريرة]

هذا كله يكشف يوم القيامة ، ترى أن الله بيده كل شيء ، وأن هؤلاء الطغاة وظفهم للخير المطلق ، ما مِن مكان فيه شدة إلا وفيه عودة إلى الله ، وتوبة ، وصلح معه ، وهذا شيء واضح جداً .

لا أحد يستطيع إفسادَ هداية الله لخَلْقه :

لذلك أيها الإخوة ، أطمئنكم أن قوى الأرض مجتمعة لا تستطيع أن تفسد على الله هدايته لخلقه ، أبداً ، الدليل :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال الآية : 36)

ماذا علينا أن نفعل ؟

إذاً : الكرة في ملعبنا ، والله ينتظرنا .

((ولو يعلم المعرضون انتظاري لهم ، وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطعت أوصالهم من حبي ، ولماتوا شوقاً إلي ، هذه إرادتي بالمعرضين فكيف بالمقبلين))

[ورد في الأثر]

الله ينتظرنا ، والأمر بيده فقط ، وليس إلا الله ، ولا إله إلا الله ، ولا رافع إلا الله ولا خافض إلا الله ، ولا معطي إلا الله ، ولا مانع إلا الله ، ولا معز إلا الله ، ولا مذل إلا الله وهذا هو التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، وما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله عائد إليه ، الآن الحل :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

(سورة آل عمران الآية : 120)

كل خططهم ، وأسلحتهم ، وحاملات طائراتهم ، وصواريخهم العابرة للقارات ، وأقمارهم الصناعية ، وأموال بأيديهم ، ومناطق نفوذ ، وثروات بين أيديهم ، كل هذا الحجم الكبير ،

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

ولكن إن تعصوا ، وتصبروا ما بعد المعصية والقهر إلا القبر ، لكن بعد الطاعة والصبر في النصر ، فأنت مؤهل أن تنتصر بطاعتك لله ، وبصبرك على الشدة التي ساقها الله لك .

لذلك أيها الإخوة ، الآية الدقيقة جداً :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد الآية : 11)

إن لم نغير فلا يغيّر الله ، وإن غيرنا يغيّر الله ، والكرة في ملعبنا ، والأمر في يدنا ، وخلاصنا لا بأيدي أعدائنا ، أبداً ، والإنسان ضعيف الإيمان هكذا يتوهم ، أن خلاصنا بيد أعدائنا ، خلاصنا بأيدينا .

(وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ)

(سورة الأنفال الآية : 19)

وليس في الكون إلا الله ، ولا إله إلا الله ، هذه كلمة التوحيد .

أيها الإخوة ، وكل إنسان الآن الله فردا ، شركة ، مؤسسة ، جماعة يقيمون على ظلم أو على خطأ فلها نهاية ، إلا المؤمن الصادق المستقيم فخطه البياني صاعد صعودا مستمرا ، إلا الذي أن يؤمن ، وبنى مجده على أنقاض الآخرين ، بنى حياته على موت الآخرين ، وبنى عزه على إذلال الآخرين ، وبنى أمنه على إخافة الآخرين ، وبنى غناه على فقرهم ، هذا له نهاية تأتي الآية :

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)

آية مطمئنة ، آية يطرب لها المؤمن ،

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

في بعض الدول بالشرق تداعت من الداخل ، عندها قنابل نووية يمكن أن تبيد الخمس قارات خمس مرات ، بلا أي حرب خارجية تداعت من الداخل .

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

(سورة الإسراء)

لو كان عمره سبعين سنة فهو زهوق ، لو كان يملك سلاحا نوويا فهو زهوق .

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

هذا هو الإيمان ، الإيمان ليس إلا الله ، الإيمان لا إله إلا الله .

خاتمة :

أيها الإخوة ، آية قصيرة لكن مدلولاتها كبيرة ، آية قصيرة تفرح الإنسان آية قصيرة تذهب عنه اليأس، والإحباط ، والتطامن ، لا تقولوا انتهينا ، لم ننتهِ ، نحن عند الله في مكان قوي ، والله لن يترنا أعمالنا ، والله معنا ، ولكن ينبغي أن نصطلح معه .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(17-60): تفسير الآيات 34 – 36 ، أرسل الله تعالى الرسل من جنس البشر حتى تكون لهم حجة عليهم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-06-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس السابع عشر من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الخامسة والثلاثين، وهي قوله تعالى :

(يَا بَنِي آَدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آَيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

أيها الإخوة ، بعد أن بين الله لنا في الآيات السابقة أنه أحل لنا الطيبات ، وحرم علينا الخبائث ، وأعطانا منهجاً يضمن لنا سلامتنا كأفراد وكمجتمع ، ثم طمئننا أن الأمة الطاغية لها أجل .

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)

(سورة الأعراف الآية : 34)

بعد كل هذا خاطب بني آدم عامة ، والقرآن أحياناً يخاطب المؤمنين بفروع الدين ، ولكنه يخاطب الناس جميعاً بأصول الدين ، خاطب ربنا جل جلاله في هذه الآية بني آدم :

(يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ)

تقتضي رحمة الله عز وجل ألاّ يدع عباده من دون توجيهات ، لأن الله سبحانه وتعالى خلق :

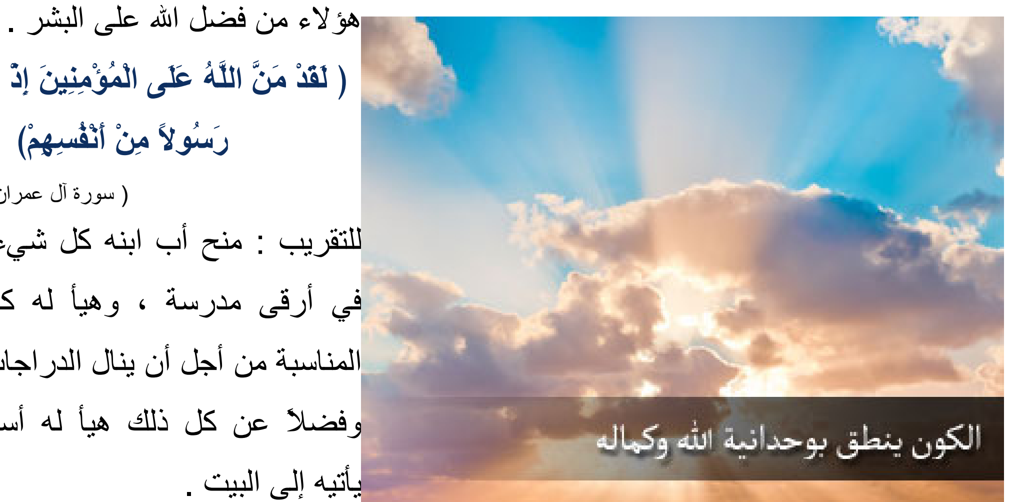
(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(سورة التين)

هذا الذي منحه الله لك أيها الإنسان لتهتدي إليه :

أعطاه الكون ينطق بكل جزئياته بوجود الله ووحدانيته وكماله ، أعطاه العقل كأداة معرفته ، وجعل مبادئه متوافقة مع خصائص الكون ، أعطاه الفطرة ، وجعلها مقياساً يكشف بها خطأه ، أودع فيه الشهوات لتكون دافعاً له إلى رب الأرض والسماوات ، منحه حرية الاختيار ليثمن عمله ، أعطاه الوقت غلاف عمله ، وفضلاً عن كل ذلك ، فضلاً عن أن العقل كافٍ لمعرفة الله ، وعن أن الكون مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى ، وعن أن الفطرة كافية لمعرفة الخطأ ، وعن أن الشهوة دافعة إلى

الله عز وجل ، وعن أن الحرية تُثمن عمله فضلاً عن كل ذلك أرسل الأنبياء ، وأرسل المرسلين ، هؤلاء من فضل الله على البشر .



(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ)

(سورة آل عمران الآية : 164)

للتقريب : منح أب ابنه كل شيء ، وضعه في أرقى مدرسة ، وهيأ له كل الأجواء المناسبة من أجل أن ينال الدراجات العالية ، وفضلاً عن كل ذلك هيأ له أستاذاً خاصاً يأتيه إلى البيت .

من رحمة الله بعباده : يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ

لذلك :

(يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ)

أولاً : الله عز وجل رحيم ، تقتضي رحمته أن يبعث الأنبياء ، وأن يرسل المرسلين تنبيهاً ، وإرشاداً ، وتوجيهاً ، للتقريب مرة ثانية :

أب جالس في غرفته ، والمدفأة مشتعلة ، وله ابن صغير ، واقترب من المدفأة هل في الأرض كلها أب يبقى ساكتاً ؟ أو يبقى جالساً ؟ مستحيل ألاّ يسديَ إليه توجيهًا ، إما بصوت أو بحركة ليبتعد ابنه عن المدفأة ، لئلا يحترق .

لذلك أنت في الصلاة تقول : الحمد لله رب العالمين ، تقتضي رحمة الله عز وجل أن يبعث الأنبياء ، وأن يرسل المرسلين .

وأحياناً شيء طبيعي جداً أن الناس يتفلتون من منهج الله ، ويألفون الانغماس في الشهوات ، لا يعجبهم أن يقيدوا بمنهج ، المنهج يزعجهم ، يقيد حركتهم ، هم غارقون في ملذاتهم ، غارقون في شهواتهم ، غارقون في تحقيق مصالحهم ، فإذا جاء منهج إلهي الذي يحدد لهم حركته في الأعم الأغلب يكذبون الرسول .

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً)

(سورة الرعد الآية : 43)

لكل رسول معجزة تشهد لرسالته :

لذلك لا بد لهذا الإله العظيم من أن يؤيد رسوله الكريم بشهادة منه عن طريق المعجزات ، فكل نبي معه معجزة فيها خرق للمعجزات ، هذا الخرق شهادة الله للناس أن هذا الإنسان رسول الله ، فسيدنا موسى :

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

(سورة الأعراف)

وسيدنا عيسى أحيا الميت ، وسيدنا إبراهيم ألقي في النار فلم يحترق ، ولكل نبي معجزة .

القرآن بإعجازه شهادة للرسول بصدق نبوته :

القرآن معجزة سيدنا محمد

إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، ولأنه لكل البشر أجمعين ، ولأن كتابه خاتم الكتب ، فلا يمكن أن تكون معجزته حسية ، بمعنى أنها وقعت وانتهت ، وأصبحت خبراً يصدقه من يصدقه ، ويكذبه من يكذبه ، لا بد من أن تكون معجزة النبي لأنه خاتم الأنبياء ، ولأنه خاتم الرسل ، ولأن كتابه خاتم الكتب من أن تكون مستمرة .

لذلك كان في القرآن الكريم 1300 آية تتحدث عن الكون ، وفي هذه الآيات إشارات فيها سبق علمي ، فالحقائق التي اكتشفت حديثاً أشار القرآن إليها من 1400 عام وهي دليل قطعي على أن القرآن كلام الله .

إذاً : رحمة الله تقتضي أنه إذا أرسل رسولاً ، أو بعث نبياً معه شهادة من الله الشهادة :

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ)

(وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)

(سورة الأعراف)

الشهوات حيادية ومقوم من مقومات التكليف :

فقصة النبوة والأنبياء تعني رحمة الله عز وجل ، تعني أن هذا الإنسان زوده الله بالشهوات ، الشهوات حيادية ، وبإمكانك أن تتحول بالشهوات 180 درجة ، أودع في الإنسان حب المرأة .

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

(سورة آل عمران)

فهذه الشهوات الحركة فيها واسعة جداً ، إلا أن منهج الله أعطاك مساحة مسموحاً بها ، وهناك مساحات محرمة ، المرأة زوجة فقط ، المال مِن كسب مشروع ، أنت تكون عالياً في الأرض بوسائل مشروعة ، أن تكون في خدمة الخلق .

أيها الإخوة ، هذا الذي أقوله يعني أن الإنسان حينما يتحرك بدافع شهواته وفق منهج ربه لا يشعر بالحرمان إطلاقاً .

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص الآية : 50)

المعنى المخالف : الذي يتبع هواه وفق هدى الله عز وجل لا شيء عليه .

إرسال الرسل لفائدة الناس :

(يَا بَنِي آدَمَ)

هؤلاء الرسل لصالحكم من أجل سلامتكم ، من أجل سعادتكم معهم تعليمات الصانع ، الخبير ، الحكيم ، العليم ، الرؤوف ، الرحيم ، تعليمات الصانع من أجل سلامتكم ، من أجل سعادتكم .

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء الآية : 9)

للطريق الأمثل ، يهديهم بالقرآن :

(سُبُلَ السَّلَامِ)

(سورة المائدة الآية : 16)

يهديك القرآن إلى سلام مع نفسك ، إلى سلام مع ربك ، إلى سلام مع البشر ، مع الخلق ، مع من حولك، مع من فوقك ، مع من دونك ، مع كل المخلوقات ، المؤمن بعد أن اهتدى إلى الله اصطلح مع الخلق ، أصبح متناغماً مع الخلق .

لذلك :

الرسل بشرٌ كسائر البشر :

(يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ)

يعني أنهم بشر ، لولا أن الأنبياء بشر تجري عليهم كل خصائص البشر لما كانوا سادة البشر ، النبي يأكل ويشرب .

(لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ)

(سورة الفرقان الآية : 20)

هم بحاجة إلى الطعام والشراب ، وبحاجة إلى حركة في الأسواق ، ليكسبوا ثمن الطعام والشراب ، لولا أن النبي بشر تجري عليه كل خصائص البشر ، لما كان سيد البشر النبي يشتهي ، ويرضى ، ويغضب.

((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ ، وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ))

[رواه مسلم عن أنس]

لذلك بعض الجهلة تمنوا ، وقد ذكرهم الله عز وجل أن يكون النبي ملكاً ، قال :

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً)

(سورة الإسراء)

فلو جاء الرسول ملكاً فماذا تقولون له دائماً إن أمركم بغض البصر ؟ لا ، نحن بشر ، أنت ملك ، نحن لا نستطيع ذلك ، أنت من طينة أخرى ، أنت فُطرت على الكمال ، نحن بشر عندنا شهوات ، لذلك :

(قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً)

(سورة الإسراء)

لو أن الذين دُعوا إلى الله عز وجل ملائكة لكان أنبيائهم ملائكة ، ولو أن الذين دُعوا إلى الله بشراً لكان الأنبياء بشراً .

إذاً كلمة :

(يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ)

أُعيد هذه المقولة مرات عديدة : لولا أن النبي بشر ، تجري عليه كل خصائص البشر ، لما كان سيد البشر ، تقتضي بشريته أن يشتهي كما نشتهي ، وأن يحب كما نحب ، وأن يغضب كما يغضب ، وأن يرضى كما نرضى إلا أنه بصدقه مع ربه ، وبإرادته الصلبة ، انتصر على بشريته ، فكان سيد البشر ، لذلك :

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة الآية : 286)

لولا أن التكليف في وسع البشر لما كان هناك تفوق لأحد .

من الممكن أن نعطي طالباً الأسئلة ، ويأتي بالعلامة التامة ، ونقيم له حفلا تكريميا ، وبقية الطلاب جاءتهم أسئلة من معلومات لم يدرسوها إطلاقاً ، ثم نوبخهم ، لولا أن هناك تكافؤ فرص ، لولا أن المنهج دُرّس بإتقان ، والطلاب متكافئون في القدرات ، والسؤال معقول ، لما كان هناك للتفوق مجال إطلاقاً .

إنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ

لولا أن النبي بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر ، لذلك كان قدوة لنا ، النبي قدوة لنا ، فهذا الذي يقول هو نبي ، لا يا أخي .

((وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ))

[أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة]

مقام الطبيب الجراح كبير ، لكن أي ممرض إن أراد أن يعطي حقنة للمريض لا بد من أن يعقمها كالطبيب .

هناك أشياء شاملة وكاملة ، على كل الأطراف أن يطبقوها ، الإنسان هو الذي صنع هذه السيارة ، كل الشركات العملاقة لها أصحاب ، لو أن صاحب المركبة قاد مركبة من اختراعه ، يجب أن يعرف كيف يوقفها ، وكيف يحركها ، كأي سائق آخر .

لذلك الاستقامة أيها الإخوة حدية ، التفاوت لا بالاستقامة ، التفاوت بالعمل الصالح .

((وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ))

وأي خلل في الاستقامة تُحجب عن الله ، ولو لم تكن نبياً ، ولو أنك من عامة المؤمنين ، إذا كان في الاستقامة خلل تُحجب عن الله عز وجل ، ومنهج الأنبياء لا للأنبياء ، بل لعامة المؤمنين .

فلذلك :

(يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ)

من جلدتكم ، من بني البشر ، من جبلة واحدة ، من نفس واحدة ، من خصائص واحدة ، من شهوات واحدة ، من مخاوف واحدة .

هذا بعض ما عاناه النبي عليه الصلاة والسلام في حياته :

عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ))

[رواه أحمد والترمذي وابن ماجة وابن حبان]



في بدر بدأ النبي يدعو ربه حتى انخلع الرداء عن منكبيه ، خاف أن يكون الاستعداد قليلاً ، خاف أن يكون الأخذ بالأسباب ضعيفاً ، نصر الله عز وجل لا يتنزل إلا على مَن طبّق منهج الله عز وجل ، ومنهج الله في الحرب أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ، ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء .

فلذلك :

(يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ)

من جلدتكم ، بشر .

تزوج النبي عليه الصلاة والسلام زوجات عديدات ، هناك زوجات أتعبنه ، وصبر ، وجاع ، أذاقه الله الفقر ، كان يدخل بيته أحياناً فيسأل : هل عندكم طعام ؟ يقولون : لا ، يقول : فإني صائم ، وهو سيد الخلق ، أذاقه الفقر فكان قدوة لنا ، وأذاقه الغنى ، لمن هذا الوادي ؟ قال : هو لك ، وادٍ من الغنم ، قال: أتهزأ بي ؟ قال : لا والله هو لك ، قال : أشهد أنك رسول الله ، تعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، أذاقه الفقر ، وأذاقه الغنى ، في الفقر كان المثل الأعلى ، وفي الغنى كان المثل الأعلى ، ثم أذاقه النصر ، فدخل مكة فاتحاً ، مطأطأ الرأس متواضعاً ، حتى كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عز وجل ، ما دخلها متغطرساً ، ولا مستبيحاً للمدينة ، ولا متشفياً من أعدائه .

((اذهبوا فأنتم الطلقاء))

[رواه : ابن أبي شيبة عن أبي سلمة]

((ما ترون إني فاعل فيكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم))

[رواه ابن أبي شيبة عن أبي سلمة]

قال :

((اذهبوا فأنتم الطلقاء))

أذاقه النصر فعفى ، وأذاقه القهر في الطائف ، كذبه أهل الطائف ، وسخروا منه وأمروا صبيانه أن ينالوا منه ، فقال : يا رب إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ولك العتبة حتى ترضى ، أذاقه موت الولد ، فقال :

((إنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ ، ولاَ نَقُولُ إلاَّ ما يُرْضِي رَبَّنا ، وَإنَّا بِفِرَاقِكَ يا إبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ))

[رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه]

أذاقه أن ابنتيه طلقتا ، فصبر ، أذاقه الهجرة ، إنسان يقتلع من جذوره ، وينتقل إلى مكان جديد ، لولا أن النبي أذاقه الله كل شيء فكان في كل موقف المثل العلى لما كان سيد الأنبياء والمرسلين .

البطولة أن تنجح في الامتحان :

لذلك أقول لكم أيها الإخوة كلمة دقيقة جداً يحتاجها كل واحد منا : ليست البطولة ألا تمتحن ، لا بد من أن تمتحن ، ولكن البطولة أن تنجح في الامتحان ، قد تمتحن بالفقر ، وقد تمتحن بالغنى ، وقد تمتحن بالصحة ، وقد تمتحن بالمرض ، لا سمح الله ، وقد تمتحن بالقوة ، وقد تمتحن بالضعف ، وقد تمتحن بالوسامة ، وقد تمتحن بالدمامة ، وقد تمتحن بتألق الذكاء ، وقد تمتحن بالمحدودية ، وقد تمتحن بطلاقة اللسان ، وقد تمتحن بعيب اللسان ، البطولة لا أن تنجو من امتحان ، لكن البطولة أن تنجح بالامتحان .

الإمام الشافعي سُئل : أندعو الله بالامتحان أم بالتمكين ؟ فقال : " لن تمكن قبل أن تبتلى " .

صدقوا أيها الإخوة ، لا يمكن أن يرقى الإنسان عند الله إلا بعد الامتحان ، الله عز وجل عنده امتحانات لا تعد ولا تحصى ، الله عز وجل قادر أن يحجم كل إنسان ، أو أن يعيده إلى حجمه الحقيقي ، أنا مستقيم ، أنا نزيه ، أنا لا آكل مالا حراما إطلاقاً ، يتبجح ، ويحكي ، هو لا يأكل على مستوى ألف ليرة، يأتي برقم يسيخ ، يقول لك : ماذا نفعل ؟ بلوى عامة ، إياك أن تظن أن الله لا يمتحنك .

لابد من الابتلاء :

هناك كثير من الأشخاص يتوهم أحدهم نفسه بمستوى عالٍ ، الله بلطف بالغ يحجمه ، لست كما تقول ، لست كما تدعي ، ليست محبتك لي كما تظن ، بالرخاء والصحة الطيبة ، والدخل الكبير ، والزوجة ، والأولاد ، والمركبة ، يقول لك : الله تفضل بمرض خفيف يحتمل ، لا يا رب ماذا فعلت لك أنا ؟

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنين)

لا يمكن أن ينجو أحد من امتحان .

لذلك يقول الإمام علي رضي الله عنه : << الرضا بمكروه الرضاء ارفع درجات اليقين >> .

ما مِن إنسان يمتحن مركبة في طريق نازل إطلاقاً ، إلا بطريق صاعد " الرضا بمكروه الرضاء أرفع درجات اليقين " .

الله عز وجل امتحن الصحابة في الخندق ، صحابة كرام ، ومجاهدون مع رسول الله ، سيد الأنام ، ومقربون من رسول الله ، وهم فَدَوْه بأرواحهم وأنفسهم ، في الخندق ليس موضوع معركة ، بل موضوع إبادة ، وموضوع استئصال ، عشرة آلاف مقاتل أرادوا أن يستأصلوا الإسلام كله ، حتى قال بعض من كان مع النبي الكريم : << أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى ، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته ، لم يقل رسول الله ، قال : صاحبكم ، قال تعالى :

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً)

(سورة الأحزاب)

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

(سورة الأحزاب)

(وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ {30})

مرة ثانية ، الإمام الشافعي رحم ه الله تعالى سُئل : أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ قال : لن تمكن قبل أن تبتلى .

وطن نفسك ، فإن أنواع البلاء لا تعد ولا تحصى ، ونحن الآن كمسلمين في أشد أنواع البلاء ، ما البلاء الذي نحن نحاط به ؟ الله قوى أعداءنا ، قواهم ، ثم قواهم ، ثم قواهم ، وهم يتفننون بإفقارنا ، وإضلالنا، وإفسادنا ، وإذلالنا ، وإبادتنا ، بلادنا مستباحة لهم ، ثرواتنا ملكهم ، حياة شبابنا لا تساوي عندهم شيئاً ، مليون قتيل في العراق ، أربعة ملايين مشرد ، مليون معاق ، كله بلا ثمن ، فلو وقع واحد من جنودهم أسيراً لقامت الدنيا ولم تقعد ، هذا ابتلاء صعب جداً .

لذلك الله أحياناً ـ وهذا أشد أنواع الابتلاء ـ يقوي الأعداء إلى درجة أن يقول ضعيف الإيمان : أين الله ؟ والله هناك آلاف من الناس تركوا الصلاة ، أين الله ؟ ما مِن خبر سار ، نحن في أشد أنواع الابتلاء ، والبطولة أن تصمد .

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

فالمؤمن ثابت على منهج الله في السراء ، وفي الضراء ، وفي الصحة والمرض ، وفي القوة والضعف، وفي إقبال الدنيا وإدبارها ، وقبل الزواج ، وبعد الزواج ، وقبل نيل الشهادة العليا ، وبعد نيل الشهادة العليا ، عاهدنا الله على السمع والطاعة في المنشط والمكره ، هذا المؤمن ، وأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ ، ولا تصدقوا أن الله يتخلى عنا أبداً .

(يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

هذه الآية بشارة ،

(وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ {6})

والله مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تستطيع قوة في الأرض طاغية أن تخطط لأمجادها ورخاءها على أنقاض الشعوب ، أن توفر لشعوبها دخولاً فلكية على حساب إفقار الشعوب ، وأن توفر لثقافتها ديمومة وتألقاً على حساب محو ثقافات الشعوب ، وأن تجعل شعوبها في أعلى مستوى على حساب قهر الشعوب ، والله الذي لا إله إلا هو نجاح خطط هذه الدول الكبرى الطاغية على المدى البعيد ، يتناقض مع رجل الأرض ، مستحيل وألف ألف مستحيل ، اطمأن ، لو أن قوى الأرض اجتمعت على أن تفسد على الله هدايته لخلقه لا تستطيع .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال الآية : 35)

في بلاد أراد المستعمرون إلغاء الهوية الإسلامية كلياً ، ألغوا اللغة العربية ، منحوا الشعب بأكمله جنسية الدولة الحاكمة ، المساجد أُغلقت ، كل ما تستطيع أن تفعله أنها أُخرجت من هذه البلاد ، والآن عامرة بالمساجد والإيمان ، وهي تحب العلماء ورجال الدين حباً يفوق حد الخيال . هذا دين الله ، لولا أنه دين الله لانتهى من


دين الله باق

ألف سنة ، هذا دين الله ، وما مِن قوة في الأرض تستطيع أو جهة في الأرض أن تلغي التعليم الشرعي، أن تلغي التدين ، هذا الدين من أنواع عظمته أنك إذا قمعته يزداد قوة ، وحينما تكشف الحقائق يوم القيامة ترى أن هؤلاء الذين حاربوا الدين لهم فضل على الدين ، لكن بلا أجر إطلاقاً ، لأنهم ساهموا في تقوية الإيمان ، وبجمع المؤمنين ، وفي الصحوة ، لولا الطرف الآخر لبقينا نائمين ، لكن الطرف الآخر أيقظنا ، ونبهنا ، وعرفنا بما ينوي أن يُفعل بنا .

رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي

أيها الإخوة ،

(يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى)

1 – آيات الله قرآنية وكونية وتكوينية :

هذه آيات ، آيات الكون ، وآيات التكوين ، وآيات القرآن ، الآيات الكونية خلقه ، والآيات التكوينية أفعاله ، والآيات القرآنية كلامه .

2 – فَمَنِ اتَّقَى

(فَمَنِ اتَّقَى)

من اتقى غضب الله عز وجل بطاعته ، من اتقى بطش الله عز وجل ، بالإنابة إليه ، من اتقى عقاب الله عز وجل ، بالالتزام منهجه

3 – وَأَصْلَحَ

(فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ)

أصلح عمله ، كان عمله فاسداً فأصبح صالحاً ، كان مقصر في أداء الواجبات أدى الواجبات بالتمام والكمال ، كان مقصر في أداء العبادات أدى العبادات بالتمام والكمال ، كان مقصر في حق زوجته أدى واجبه تجاه زوجته ، كان مقصراً في حق أولاده أدى واجبه تجاه أولاده ، كان مقصراً في حق جيرانه أدى واجبه تجاه جيرانه تجاه جسمه ، أكل باعتدال تجاه نفسه عرفها بربها ، حملها على طاعته .

(فَمَنِ اتَّقَى)

اتقى المصائب ، اتقى الكفر ، اتقى الشرك ، اتقى تبذير المال اتقى القهر ،

(فَمَنِ اتَّقَى)

غضب الله بطاعته ، الله عز وجل هو الجهة الوحيد بالكون ، لا ملجأ منه إلا إليه ، فر منه إليه ، الجأ منه إليه .

(فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ)

أحياناً يكون في البئر ماء ، الأولى ألا نردمها ، والأولى ألا نرمي فيها الأقذار ، بل الأولى أن نقيم لها سوراً عالياً ، والأولى أن نأخذ مائها بمحركات ، وأن نوصله للبيوت .

4 – فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ

لا خوف عليهم في الدنيا ، ولا يحزنون على فراقها .

أنت في لحظة ، هذه اللحظة الحامية ، هناك مستقبل وهناك ماضٍ ، المستقبل مغطى بـ :

(فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ)

والماضي مغطى بـ :

(وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)

يا رب ، ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

وسيدنا الصديق رضي الله عنه ما ندم على شيء فاته من الدنيا قط .

(فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

لا يضل عقله ، ولا تشقى نفسه ، من دون الهدى الإلهي هناك مليون سؤال لا جواب لها ، هناك ضياع عند الناس ، لماذا الحياة قصيرة ؟ عند الطبيب سنوات الممارسة أقلُّ من الدراسة بكثير ، لماذا هناك فقر وغنى ؟ لماذا هناك مرض وصحة ؟ لماذا هناك قهر في العالم ؟ لماذا هناك اجتياح ؟ لماذا هناك دول طاغية ؟ ودول مسحوقة ضعيفة ، لماذا ؟ من دون إيمان بالله عز وجل ينشأ مليون سؤال ، والقرآن قدم لك تفسيرا عميقا ، دقيقا ، متناسقا للكون والحياة والإنسان ، كل تساؤل كبير عند أهل الدنيا في القرآن الكريم جوابه الواضح جداً .

(فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

(سورة الأعراف)

وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

1 – لابد من إدخال الموت في الحسابات اليومية :

هؤلاء الذين ما أدخلوا الموت في حساباتهم ، وهذا حال معظم الناس ، يعيش لحظته ، مع أن هناك موتًا، وانتقالا من بيت 400 متر إلى قبر ، إنه انتقال مفاجئ من زوجة وأولاد وأصدقاء وأتباع وخدم وحشم إلى قبر ! سبحان من قهر عباده بالموت .



حينما يعيش الإنسان المستقبل يكون عاقلاً ، ودائماً الأغبياء يعيشون الماضي ، نتغنى بالماضي ، والأقلُّ غباء يعيشون الحاضر ، ردود فعل ، نفاجئ بفعل لم نعلم عنه شيئاً ، يُخطط لنا ، نفاجئ به ، نستنكر ، نندد ، نشجب ، لكن العقلاء يعيشون المستقبل ، وأخطر حدث في المستقبل مغادرة الدنيا ، ماذا أعددت لهذه المغادرة ؟ ماذا أعددت للقبر ؟ أعددت عملاً صالحاً ؟ أعددت استقامة ؟ أعددت تربية لأولادك ؟ أعددت ضبطاً لشهواتك ؟ أعددت ضبطاً لدخلك ولإنفاقك ؟ أعددت علاقات اجتماعية منهجية وفق منهج الله ؟ ماذا أعددت ؟ لذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ ، يَعْنِي الْمَوْتَ))

[الترمذي]

((أكثروا ذكر هادم اللذات ، مفرق الأحباب ، مشتت الجماعات))

((عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي عن جابر أبو نعيم ، عن علي عن جبريل مخاطب النبي عليه الصلاة والسلام]

2 – وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا

(وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا)

ما أدخلوا الموت في حساباتهم ،

(وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا)

كم دعوى الآن في قصر العدل كيدية ، فيها اغتصاب دين ، اغتصاب شركة ، اغتصاب مال ، وكم وُكِّل لهذا المغتصب فيعطيه الأدلة القانونية لمتابعة اغتصاب هذا البيت .

والله أيها الإخوة ، ولا أبالغ : معظم الناس ما أدخلوا الله في حساباتهم أبداً

(وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(18-60): تفسير الآيات 37 - 39 ، ظلم الإنسان لنفسه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-06-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثامن عشر من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية السابعة والثلاثين، وهي قوله تعالى :

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ)

أشدُّ أنواع الظلم الافتراءُ على الله : فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا

أيها الإخوة ، هذه الآية تشير إلى أن أشد أنواع الظلم لا أن تبيد الشعوب ، ولا أن تنهب الثروات ، ولا أن تقتل الملايين ، أشد أنواع الظلم ، أن تظلم نفسك ، ألا تعرفها بالله أن تخسر الآخرة ، أن تخسر الأبد .

1 – فَمَنْ أَظْلَمُ

(فَمَنْ أَظْلَمُ)

استفهام تقريري ، أيْ : ليس على وجه الأرض إنسان أشد ظلماً لنفسه ممن خسر الآخرة ، كما أن الآية الكريمة :

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة فصلت)

ليس على وجه الأرض إنسان أفضل عند الله :

(مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا)

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا)

2 – المفتري على الله مستغنٍ عن تشريعه ، مقدِّمٌ لآرائه :

دقق ، أحيانا يتصور الإنسان أن الدين لا يصلح لهذا العصر ، تَصور من عند نفسه ، وهو وهمٌ كبير ، وبناءً على هذا الوهم الكبير استغنى عن طاعة الله ، أو أحياناً يقدم آراء وتعديلات للأحكام الشرعية حيث يتوافق الشرع مع كل سلوك غير منضبط في الحياة ، كأن يقول : هذه لا تصلح لهذا الزمان ، وهذا الحجاب بدعة لم يكن من قبل ، ظهر في العهد العثماني ، وهذه الفرائض لا يمكن أن تكون مطبقة الآن ، القصد منها أن هذا الإسلام جاء في وقت التشريعات لذلك الوقت .

فكل إنسان يتصور الدين تصورًا خلاف حقيقته ، أو يقدم اقتراحات ، أو تعديلات أو إلغاء لبعض الأحكام ، أو تعديل لبعض الحكام ، أو يكذب بآيات الله فقد افترى على الله .

عندنا ثلاث حالات ، إنسان تصور الدين أنه لا يصلح لهذا الزمان ، هذا التصور حجبه عن حقيقة الدين ، منعه أن يعبد الله ، يتصور أن المرأة نصف المجتمع ، يجب أن تكون في كل مكان ، وفي أبهى زينة ، هذا من حقها ، رأس مالها جمالها ، من حقها أن تبدي كل مفاتنها كي تشعر بثقة بالنفس ، والربا؟ مستحيل أن تجمد الأموال ، لا بد من أن تستثمر بفائدة ، ويقدم لك أن ثمة تضخمًا نقديًا ، وحينما أتقاضى فائدة كبيرة جداً فأنا ألغي التضخم فقط ، ويقول لك : هناك قرض استهلاكي ، وقرض استثماري ، والاستثماري لا علاقة له بالأحكام ، كل إنسان يقدم تصورات للدين ، لعقائد الدين ، لأحكام الدين ، لأوامر الدين من عند نفسه ، أو يكذب بالآيات ، أو يخترع ، أو يتصور ، فهذا إنسان ليس على وجه الأرض من هو أظلم منه لنفسه ، لأنه خسر الأبد .

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)

لذلك الله عز وجل رتب المعاصي والآثام ترتيباً تصاعدياً ، فقال عن الإثم والعدوان ، والفحشاء والمنكر ، وعن الشرك ، وعن الكفر ، وجعل على رأس هذه المعاصي الكبيرة :

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

3 – أوهام الناس غالبها غير صحيحة :

صدقوا أيها الإخوة أن أربعة أخماس ما يتوهمه الناس عن الدين غير صحيح ، يعيشون في خرافات ، وعقائد ما أنزل الله بها من سلطان ، إن وجدوا ضالاً قالوا : الله كاتب ذلك عليه ، الله ابتلاه بالضلال ، إن وجدوا شارب خمر قالوا : طاسات معدودة بأماكن محدودة ، فلان لا يصلي ، الله ما هداه بعد حتى تأتيه هداية من السماء ، فهناك تصورات ، وآراء ، وتعديلات ، وتكذيب أحياناً ، وبدائل غير صحيحة .

فلذلك الله عز وجل يبين أنه لن تجد على وجه الأرض إنساناً أشد ظلماً لنفسه

(مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا)

يكفي أن تتوهم افعل كل المعاصي والآثام ، ويوم القيامة يسجد النبي تحت العرش يقول له : أرفع ، قال : لا أرفع حتى تشفعني بأمتي ، يقول له : ارفع ، واشفع تشفع ، الحديث له أصل ، إلا أنه فهمه خاطئ ، يعني افعل ما شئت والنبي يشفع لك ، اقرأ القرآن :

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

(سورة الزمر)

((يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ، سَلِينِي

[متفق عليه]

((من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[الترغيب والترهيب]

4 ـ أخطرُ شيء العقائد الزائغة :

أخطر شيء أن تعتقد عقيدة زائغة ، هذه تشلُّك ، وتثبِّط عزيمتك ، ويكفي تعتقد أن مسير في كل شيء، وما لك اختيار أبداً ، وهذا الذي كفر أراده الله أن يكفر ، فلما جاء إلى الدنيا كفر تحقيقاً لإرادة الله في الآخرة إلى جهنم وبئس المصير .

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

(سورة سبأ)

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

إخواننا الكرام ، لابد من أن تجري مسحاً دقيقاً لتصوراتك عن الدين ، عن القضاء والقدر ، عن الاختيار ، عن حقيقة الشهوة ، عن حقيقة المنهج الإلهي .

5 ـ وجوب معرفة المعلوم من الدين بالضرورة :

لذلك العلم فريضة على كل مسلم ، فهناك علم يجب أن تعلمه بالضرورة ، شئت أم بيت ، أحببت أم كرهت ، ولو تحمل شهادة في العالم ، العلم الذي يبغي أن يعلم بالضرورة يكسب معلومات عن مظلة قد

تجهل شكلها ، بيضوية ، دائرية ، مربعة ، مستطيلة ، قد تجهل عدد حبالها ، قد تجهل لونها ، قد تجهل من أي خيط صنعت حبالها ، ولكنك إذا جهلت حقيقة واحدة ، طريقة فتحها تنزل ميتاً ، فطريقة فتح المظلة معلومة يجب أن تعلم بالضرورة ، وفي الدين عقائد ، مجموعة أوامر ، مجموعة نواهٍ ، يجب أن تعلم بالضرورة ، ومعرفتها فرض عين على كل مسلم ، كقائد السيارة ، قد لا يعلم بأية طريقة صنعت ، وهذه المكابح من أية مادة صنعت ، لكن لا بد من أن يتعلم كيف يوقف السيارة ، أو يرتكب حادثًا مروعا ، كيف يوقفها ؟ كيف ينعقد بها يمنة أو يسرى ؟ كيف يدير محركها ؟ هذه معلومات لا بد من أن تعلم بالضرورة .

لذلك طلب العلم حتم واجب على كل مسلم ، وطلب العلم فريضة على كل مسلم ، أي على كل شخص مسلم ، ذكراً كان أم أنثى .

(فَمَنْ أَظْلَمُ)

أي لن تجد على وجه الأرض إنساناً أشد ظلماً لنفسه ممن خسر الأبد بسبب تصور غير صحيح عن الدين .

(مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)

إنّ أخطر تصور أن تتوهم أن أحكام الدين صالحة لعصر النبي والعصور الثلاثة التي من بعده فقط ، أما هذا العصر ففيه معطيات جديدة ، لا بد من الاختلاط ، لا بد من إيداع المال بالبنوك ، لا بد من أن نفعل ما نشاء ، فكل توهم لا يطابق الحقيقة مرفوض ، الجماعة رحمة ، فإذا عاش الإنسان وحده يتصور تصورا مضحكا ، يتصور تصورا مخزيا ، يخترع فتاوى من عنده .

((الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ))

[أخرجه أحمد عن النعمان بن بشير]

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)

هناك أمثلة كثيرة جداً في كسب المال ، يقول لك : لا بد من أن نغش ، ما السبب ؟ أنا عندي عيال ، والناس مالهم حرام أساساً ، أنا آخذ مالاً حراماً ، ليس حلالاً ، وهذه بلوى عامة ، ماذا أفعل ؟ فكل إنسان لما ينحرف يخترع أفكارا مضحكة حتى يتوازن ، أما إذا كان مع جماعة ، مع مرجعية إسلامية صحيحة ، مع رجل يثق بعلمه ، وبورعه ، مع إنسان يقدم له الدليل بكل قضية ، هذه محرمة ، وهذا الدليل ، هذه حلال ، وهذا الدليل فإنه يسلم تصوُّره ، فلذلك لا بد من طلب العلم ، وطلب العلم حتم واجب على كل مسلم .

6 – ما هي آياتُ الله ؟

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ)

ما آيات الله ؟ آيات الله شيء مدهش ، الله أكبر ، ما هذه الظاهرة ؟ هذه آية ، قد تكون آية ، قد تكون الآية آية كونية ، الأرض لو ألقيت في جوف الشمس لتبخرت في ثانية واحدة ، الأرض بمحيطاتها ، بقطبيها ، ببحارها ، بجبالها ، ببراكينها ، بكل ما فيها تتبخر في ثانية واحدة الشمس تستوعب مليون و300 ألف أرض ، تصور كرة وكرة كبيرة ، إذا قلنا : يجب أن تتسع هذه الكرة الكبيرة إلى مليون و300 ألف كرة صغيرة ، كم ينبغي أن يكون حجم الكرة الصغيرة ، أو لو عكست الآية فقلت : أريد كرة تتسع لمليون و300 ألف مرة من هذه الكرة ، كم حجم الشمس ؟ وبينهما 156 مليون كيلومتر ، ونجم صغير في برج بعيد يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما ، هذه آية ، الله أكبر ، وهي شيء مدهش .

من أجل أن تصل لأقرب نجم ملتهب خمسين مليون عام بمركبة أرضية ، أربع سنوات ضوئية ، والنجم الذي بُعده مليار مليون سنة .

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

(سورة الواقعة)

الله أكبر ، شيء مدهش ، لذلك أيها الإخوة ، التكذيب بالآيات أنْ لا يعبأ المرء بهذه الآيات الصارخة .

الشمس والقمر من آيات الله عز وجل .

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الشورى الآية : 29)

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(سورة فصلت الآية :37)

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم الآية : 21)

(وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

(سورة الروم الآية : 23)

الذي عنده حاسوب يسأل البرنامج القرآني : أعطني الآيات التي تبدأ بقوله تعالى : ومن آياته ، اجعلها لك منهجاً في التفكر .

فلذلك هذا الذي خسر الآخرة ، وهو أشد الناس ظلماً لنفسه بسبب أنه كذب بآيات الله .

7 – المؤمن مأخوذ بآيات الله ، وغير المؤمن مأخوذ بالاختراعات :

قد تجد الإنسان المعاصر مأخوذا بالمركبات ، يقول : هذه من نوع 500 ، ما هذا الكلام ؟! هذه سرعتها 500 ، هذه ثمنها فرضاً مبلغ فلكي ، هذه فيها كمبيوتر كامل ، هذه فيها كل شيء آلي ، ثم بعد ذلك يقرأ عن الجبال بحثا فلا يعبأ به ، أنا أرى المؤمن مأخوذا بآيات الله ، وغير مؤمن مأخوذ بمخترعات البشر ، تجده خبير بكل التفاصيل ، بكل الأشكال ، بكل خصائص المركبة ، لو أنه قدم فحصا يأخذ المرتبة الأولى ، وفي الشهادات العامة يأخذ صفرا ، وفي الممثلين والممثلات عنده معلومات ، لكنه في طريق غير صحيح .

لذلك :

(كَذَّبَ بِآيَاتِه)

أي : لم يعبأ بآياته الدالة على عظمته ، البعوضة آية ، الذبابة آية العين آية ، في الميليمتر مربع مئة مليون مستقبل ضوئي ، وفي العين مادة مضادة للتجمد ، هذا الماء آية ، الجبال آية ، البحار آية ، الأسماك آية ، الأطيار آية ، النباتات آية ، هناك نبات للأخشاب ، نبات للأدوية ، نبات للأصبغة ، نبات للثمار ، نبات نأكل جذوره ، نبات نأكل أوراقه ، نبات نأكل أزهاره ، نبات نأكل ثماره ، هناك أشجار للزينة كأنها مظلة ، هناك أشجار حدودية ، وأشجار مثمرة ، لو درست موضوع النباتات لم تستطع إنهاءَه .

(نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام الآية : 99)

من أوسع الآيات الدالة على عظمة الله ، حقل البطيخ يا ترى هذه نضجت أم لم تنضج ، معقول أن تنبطح إلى جانبها ، وأن تضربها لتسمع رنتها ؟! الله جعل حلزونا تمسكه بإصبعيك ، فإن انكسر فالبطيخة ناضجة ، وإن بقي طرياً فالبطيخة لم تنضج بعد ، الله جعل لك علامة ، تدخل إلى حقل الطماطم ، أحياناً يمكن أن يكون فرضاً خمسة أطنان ، وهناك مئة حبة حمراء داكنة ، والباقي خضراء، كأن هذه الحبات الحمراء تقول لك : تعال اقطفني ، أنا مجهزة كي تأكلني ، أعطاك علامة ، كل شيء عند النضج له لون خاص .

لما تكون مؤمنا تكون مأخوذا بآيات الله ، مأخوذا بالوردة ، ما هذه الرائحة ؟ ما هذا التنوع ؟ وتكون مأخوذ من مخلوقات الله ، وغير المؤمن مأخوذ بالمخترعات .

والله مرة بلغني عن شخص معجب بهذه المركبة المعينة إعجابا لا حدود له ، تمنى أن تمشي فوقه ، أحمق .

المؤمن مأخوذ بآيات الله ، فهذا كذب بآياته ، الله له آيات كونية ، وله آيات قرآنية والدليل :

(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ)

(سورة فصلت الآية : 2)

هذه آيات قرآنية ، وهناك آيات كونية ، و آيات تكوينية ، الزلازل من آيات الله الدالة على عظمته ، البراكين ، الأمطار حينما تزداد عن حدها المعقول تصبح نكبة كبيرة جداً ، الرياح قد تقتلع مدينة بأكملها ، نحن ما رأينا الأعاصير ، هناك أعاصير سرعتها 1200 كيلومتر .

(لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ)

(سورة المدثر)

مرة أصاب دمشق رياح عاتية سرعتها 125 كيلومتر ، أبنية كثيرة هدمت ، جدران كثيرة وقعت ، السرعة 125 كيلومتر ، وهناك أعاصير سرعتها 1200 كيلومتر ، لذلك الله عز وجل خَلْقه آيات ، وكلامه آيات ، وأفعاله آيات ، الذي ظلم نفسه ، وخسر الآخرة من شأنه ، ومن صفاته أنه يكذب بآيات الله ، تحدثه عن الجبال فيقول لك : أخي هذه موضوعات معروفة ، ما أسعار الدولار اليوم ؟ كل شيء متعلق بالله جاهل به ، كل آية تلفت النظر إلى عظمة الله ، إلى قدرته ، إلى حكمته ، إلى رحمته ، إلى جماله لا يعبأ به .

والله أحيانا يقف الإنسان أمام فراشة فيسجد لله على الألوان الرائعة ، أو أمام عصفور ، أو أمام ورود معينة ، تناسق ألوان مذهل .

أنا أرى أن المؤمن مأخوذ ومندهش بآيات الله الكونية ، وبآيات الله التكوينية ، وبآيات الله القرآنية ، والذي خسر الآخرة ، وكان ظالماً لنفسه أشد أنواع الظلم يكذب بآيات الله ، لا يعبأ بها .

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ)

8 – أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ

كيف ؟ هو كذب به كلياً ، سؤال : إذا ركب الإنسان طائرة أراد أن يهبط منها وهي في أعالي الجو ، طبعاً بالمظلة ، هو قال : ليس بحاجة للمظلة ،هذا قانون السقوط ، ألا يسقط بالمظلة ؟ أنا كافر به ، هذا خرافي ، فألقى بنفسه ، لما كذب بقانون السقوط عطله ، هو نافذ فيه ، صدقت به أم لم تصدق ، أكبرته أم احتقرته ، القانون نافذ فيك ، ينزل ميتا ، فإذا كذبت القرآن فإن قوانينه سارية عليك .

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَة عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً)

(سورة الإسراء)

هو كذب بهذا القرآن بأكمله ، قال : هذا ليس كلام الله ، وانكب على الدنيا ، ونجح ، صار يحمل اسما كبيرا ، أو جمع ثروة طائلة ، أنا كذبت ، وأنا غني ، لكن وضعك جاء في القرآن .

يقول لك : يا أخي هذه أوربة ، وصلوا إلى القمر ، صنعوا آلات كالمعجزات ، طائرة بـ 860 راكبا ، كأنها فندق ، كل شي فيها ، تحلق على ارتفاع خمسين ألف قدم ، فيها رفاه الأرض .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام الآية : 44)

هو كذب ، لكن وضعه موجود في القرآن ، الله عز وجل قال :

(كُلّاً نُمِدُّ)

(سورة الإسراء الآية : 20)

الآية الأولى :

(مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ مَذْمُومًا مَّدْحُورًا)

(وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً)

(سورة الإسراء)

(كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً)

(سورة الإسراء)

اطلب الدنيا تَنَلْها ، لكن :

(وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ)

(سورة البقرة الآية : 200)

لما ينجح الإنسان في الحياة ، وهو مكذب بالقرآن يظن أن القرآن تعطل ، القرآن صحيح ، لكن القرآن أشار إلى هذه الحالات ، إن أردت الدنيا فلك الدنيا ، إن أردت الآخرة فلك الآخرة ، الآن إن أحسنت إدارة الدنيا ملكتها ، كما يفعل أعداءنا ، دعك من عدوانهم ، انظر إلى معاملتهم لشعوبهم ، في ضمان صحي كامل ، أكبر عملية تُجرى مجاناً ، في حرية حقيقية يعاملوا شعوبهم معاملة تفوق حد الخيال ، لما أحسنوا إدارة شعوبهم كانوا أقوياء ، وملكوا الأرض ، وفرضوا ثقافتهم وإباحيتهم على بقية الشعوب، الدنيا لها نظام آخر .

كيف نحن ؟ هذه الساعة هذه ساعة رقمية ، وهناك ساعة بيانية بعقارب ، هذه نظام ، وهذه نظام ، لا توازن ساعة رقمية بساعة بيانية أبداً ، كل نوع له خصائص ، الدنيا لها قوانين ، والآخرة لها قوانين ، الدنيا تصلح بالكفر والعدل ، ولا تصلح بالإيمان والظلم ، الآخرة تسوى فيها الحسابات ، لا تصلح إلا بالإيمان والاستقامة والعمل الصالح ، حتى ما يختل توازن الإنسان في الدنيا ، الذين ملكوا الأرض

كفار، لكنهم أحسنوا إدارتها ، فلما أحسنوا إدارتها تفوقوا فملكوا الدنيا ، عندئذٍ فرضوا كل ما يريدون على بقية الشعوب ، فنحن فينا خطأ ، مسلم ؟ على عيني ، مؤمن ؟ ممتاز ، لكن ما لم تتفوق فلا يحترم دينك .

ماذا قدمت للمجتمع المسلم ؟

بصراحة المجتمع الإسلامي فيه بطالة كبيرة جداً ، لا نُحترم ، فيه عنوسة كبيرة جداً ، العنوسة في بعض المجتمعات 50% ، البطالة في بعض المجتمعات 60% ، فيها بطالة مقنعة ، إن أعطيت إنسانا ثلاث آلاف ليرة في الشهر فهذا بطال ، لأنها لا تكفيه ، يحتاج إلى 20 ألفا كي يحقق الحد الأدنى من كرامته .

فلذلك ما لم نحل مشكلات الشباب ، ما لم نهيئ مساكن للشباب ، ما لم نهيئ فرص عمل للشباب ، ما لم نهيئ زواجا للشابات ، ما لم نخفض نسبة العنوسة ، ما لم نخفض نسبة البطالة فلا نحترم في العالم ، ولا يُحترَم ديننا ، هذه حقيقة مرة ، وهي عندي أفضل ألف مرة من الوهم المريح ، لا تكن إنسانا سلبيا، يا أخي الدين عظيم ، البارحة صليت وبكيت ، بارك الله ، شيء رائع جداً ، لكن ماذا قدمت لهذه الأمة ؟ ماذا قدمت ؟ قدمت شيئًا جيدا ؟ أضخم قطر إسلامي فيه 250 مليون مسلم عن طريق التجار فقط ، لو ما رأوا من هؤلاء التجار الاستقامة ، والصدق ، والنزاهة ، والخدمة لما أسلموا ، أنت ماذا قدمت ؟ يكفي أن تكون صادقاً فأنت أكبر داعية ، يكفي أن تكون أميناً فأنت أكبر داعية ، يكفي أن تكون عفيفاً فأنت أكبر داعية ، فهل قدمت شيئًا ؟

إخواننا الكرام ، الحقيقية التي أتمنى أن تكون واضحة لديكم ، اسأل نفسك كل يوم : ماذا قدمت للمسلمين ؟ أما إذا كانت كل اهتمامك في مصالحك ، كل اهتمامك ينصب في بيتك ، ولا يعنيك من أمر الناس شيئاً فلا وزن لك عند الله .

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً)

(سورة الكهف)

هم :

(صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ)

(سورة الأنعام الآية : 124)

ماذا قدمت للأمة ؟ أتمنى أن تسحب الهمم ، أتقن عملك تكون قد قدمت شيئا للأمة .

أعرف رجلا عبقريا في الحواسيب الصناعية ، فكل حاسوب صناعي وراءه معمل ضخم ، وخمسمئة عامل ، وأحيانا تتعطل لوحة إدارة الحاسوب ، إصلاحها مليون ليرة ، وتعطيل المعمل أسبوعين تقريباً،

الله وفقه إلى إصلاح هذه اللوحة ، يتقاضى عشرة آلاف على إصلاح اللوحة كل يومين ، كم خدمة قدم للأمة ؟ كم معملا لما تعطلت هذه اللوحة ؟ كان تتعطل شهرا ، وفي ذهاب اللوحة إلى بلاد بعيدة جداً ، والدفع قريب من مليون ليرة .

أتقن عملك تكن قد قدمت شيء للأمة شيئا كبيرا جداً ، أتقن دراستك ، كن طبيبا لامعا ، كن صناعيا كبيرا ، هيئ فرص عمل للناس .

قال لي أخ : أنا أريد أن ألغي المعمل ، أن أصفي المعمل ، قلت له : لماذا ؟ قال لي : لأنه لم يصبح لي فيه أرباح ، المصاريف تساوي الأرباح تماماً ، قلت له : كم عاملا عندك ؟ قال لي : ثمانون ، قلت له : هذا أكبر ربح ، أنت فاتح ثمانين بيتًا ، أنت أمَّنتَ فرص عمل لثمانين أسرة ، كل بيت فيه ستة أولاد وزوجة ، بارك الله به ، تابع عمله ، وما ترك .

عندما تفهم الدين عطاء ، أنت ماذا فعلت ؟ طالب تفوق ، تاجر ، ائتِ بالبضاعة الجيدة ، وليكن سعرها معتدلا ، فأنت مع النبيين ، التاجر الصدوق مع النبيين ، وإندونيسيا فتحت عن طريق التجار ، أنت صناعي ، قدم صناعة متقنة بسعر معتدل ، هيئ فرص عمل للشباب .

ذهب أحدهم إلى بلاد الغرب ، إلى ألمانيا بالذات ، لإنشاء معمل كبير ، صُعق حينما وجد أنه ليس هناك من شروط إطلاقاً ، إلا تعهدين : أن يتعهد بتأمين فرص عمل ، وعدم تلويث البيئة ، وقدموا له كل دنم أرض بأجرة مارك واحد بالشهر ، اطلب مئة دنم ، الدنم بمارك ، وأسس عملا ، وقدم تعهدا بعدم تلويث البيئة ، وقدم تعهدا بتأمين فرص عمل للمواطنين .

إذاً : أحيانا التعقيدات تشل اقتصاد الأمة ، يقول لك : شيء شبه مستحيل أن آخذ ترخيصا مثلاً ، هذا من تخلف الشعوب الأخرى .

فلذلك اسأل نفسك : ماذا قدمت لهذه الأمة ، هل قدمت علما ؟ هل قدمت أولادا عندهم وعي كبير وملتزمين ؟ صاروا أطباء ، صاروا قضاة ، صاروا محامين ، صاروا مهندسين ، ما غشوا ، أدوا عملهم بالتمام والكمال .

لذلك أيها الإخوة ،

(أوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ)

الكتاب مطبق ، آمنت به أم لم تؤمن ، قوانينه مطبقة ، آمنت بها أم لم تؤمن ،

(يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ)

إذا أتقنوا الدنيا تفوقوا فيها وملكوها .

الآية الكريمة :

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

(سورة الأنبياء)

قال بعضهم : الصالحون بإدارتها ، الصالحون باستغلال ثرواتها ، الصالحون بتقديم الخدمات للأمة ، فحينما تقول : أنا أقدم شيئا معنى ذلك أنك مسلم حقيقي ، لكن لا تقدم شيئا أبداً فهذه مشكلة كبيرة .

لا ينفع شيءٌ من الدنيا أمام قضاء الله : أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ

(حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا)

أنت كنت تظن أن المال إله ، وأن فلانا بيده كل شيء ، بيده أن يرفعك ، أو أن يخفضك ، بيده أن يعزك ، أو أن يذلك ، أين هو ؟ .

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام الآية : 94)

قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا

(قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا)

هنا إضلال توحيدي ، الذين كان يعبدهم في الدنيا ضلوا عنهم في الآخرة ، الآن الإنسان بسذاجة مضحكة يسأل شخصًا معلوماته محدودة عن قضية متعلقة بمعصية كبيرة ، يقول له : ما فيها شيء ، يقول لك : أفتى لي ، لا تنفد .

((وَلَعَلّ بَعْضَكُمْ أَنْ يكونَ أَلْحَنَ بِحِجّتِهِ مِنْ بَعْض، فإن قضَيْتُ لأِحَدٍ مِنْكُمْ بشَيءٍ مِنْ حَقّ أخِيهِ، فإنّما أقْطعُ لَهُ قطعة مِنْ النّارِ))

[البخاري]

لو أنك انتزعت من فم النبي عليه الصلاة والسلام فتوى ، ولم تكن محقاً لا تنجو من عذاب الله .

وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ

(قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ)

كانوا كافرين بالله عز وجل ، مؤمنين بهؤلاء الشركاء .

إخواننا الكرام ، الآية :

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

الذين هم صالحون بإدارتها ، وخدمة البشر ، عندئذٍ يتملكونها ، وهذا في القرآن ، فإذا تملك إنسان الأرض ، وهو ليس مؤمناً هذا ورد في القرآن .

إذاً :

(أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ)

(قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا

للتقريب : إنسان أغراه إنسان آخر أن يرتكب جريمة ، وقال له : لن تُكتشف ، وأنا أضمن لك أن تعيش بحبوحة كبيرة بهذه الثروة الطائلة ، فاستجاب له ، وارتكب الجريمة ، وألقي القبض عليه ، وأودع في السجن ، هذا الذي أغراه أيضاً دخل السجن ، فالتقيا معاً ، أنا متأكد بالـ100 مليون أن كلا مِن صاحبه يلعن الآخر ، لولا أنك أغريتني لما فعلت هذه الجريمة .

قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ

الآن :

(حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ)

والذي قبل الضلال أضل غيره أيضاً ، صار هناك ثلاث حالات ، إنسان أغرى بجريمة ، وإنسان ارتكبها ، والذي ارتكبها أغرى إنسانا آخر بمثلها ، فهناك ثلاث فئات في النار .

(حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ)

لِكُلٍّ ضِعْفٌ

1 – المقلّد له ضِعفٌ من العذاب :

قال الله عز وجل :

(لِكُلٍّ ضِعفٌ)

لماذا ضعف ؟ إن إنسانا له عمل قيادي ، معلم ، ارتكب خطأ على مرأى ممن معه ، فالذين معه وجدوا هذا الخطأ مستساغا ، فقلدوه ، فهو يحمل إثم خطئه ، ومن قلده ، كل إنسان يمكن أن يُقلَّد عذابه مضاعف .

سيدنا عمر إذا أراد إنفاذ أمر جمع أهله وخاصته ، وقال : << إني قد أمرت الناس بكذا ، ونهيتهم عن كذا ، والناس كالطير ، إن رأوكم وقعتم وقعوا ، وايم الله ، لا أوتين بواحد وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني >> ، فصارت القرابة من عمر مصيبة .

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ)

(سورة الأحزاب الآية : 30)

الآن معلم عقابه مرتين ، خطأه وخطأ الطلاب الذين قلدوه ، الأب عقابه مرتين خطأه وخطأ أولاده ، الأم عقاب مرتين ، الأم متفلتة ، وابنتها أمها تفلتت مثلها ، لها عقاب مضاعف ، كل إنسان قيادي ولو كان عريف صف في أقل من هذه القيادة ؟ إذا أخطأ فعذابه مضاعف ، أمٌّ كذبت على زوجها أمام ابنتها، لما ابنتها تزوجت أيضاً كذبت على زوجها ، يضاعف لها العذاب ضعفين ، كل إنسان له منصب قيادي وأخطأ يتحمل خطأه وخطأ الذي قلده ، فالله عز وجل قال :

(لِكُلٍّ ضِعْفٌ)

لا تغلبوا أنفسكم ، كل إنسان قلد له عذاب الضعف ،

(وَلَـكِن لاَّ تَعْلَمُونَ)

(وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

(سورة الأعراف)

في النهاية لا أحد يضل أحدا :

في النهاية لا أحد يضل أحدا ، الذي توهم أن فلانا أضله عنده استعداد ، وعنده رغبة ، أحيانا صف فيه خمسون طالبا ، وفيه طالب سيئ جداً ، يغري رفاقه بالذهاب إلى السينما ، وعدم الدوام في اليوم التالي، من يستجيب له ؟ بعضهم ، الذي استجاب عنده استعداد ليغيب ، واستعداد ليكذب ، واستعداد ليدخل إلى السينما .

لذلك لا أحد يضل أحدا .

(وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ)

نحن لسنا محاسبين عنكم ، إنكم أردتم أن تكونوا مثلنا

(فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ)

خاتمة :

أيها الإخوة الكرام ، الموضوع دقيق جداً ، أنه أكبر خسارة على الإطلاق أن تخسر الآخرة ، وأشد أنواع الظلم أن تخسر الآخرة ، ظلم النفس ، وأشد أنواع الحمق أن تخسر الآخرة ، لذلك ما من إنسان يضل إنسانا ، وكل إنسان في الظاهر قلده إنسان آخر له عذاب الضعف .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(19-60): تفسير الآيات 40 ـ 43 ، عندما يرضى الله عن عباده يفتح لهم أبواب السماء ـ دخول الجنة برحمة من الله تعالى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 06-07-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس التاسع عشر من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الأربعين ، وهي قوله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ)

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا

أيها الإخوة ،

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا)

الآيات كما مر معنا في الدرس السابق هي الآيات الكونية ، خَلقه ، والآيات التكوينية ، أفعالُه ، والآيات القرآنية ، كلامُه ، ويضيف بعض المفسرين : معجزات الأنبياء .

1 – الفرق بين المعجزة والإعجاز :

وفرق كبير بين المعجزة والإعجاز ، المعجزة خرق للنواميس والقوانين ، أما الإعجاز فإشارة مبكرة لقضية علمية تكتشف بعد مئات السنين ، الفرق واضح بين الإعجاز ، والمعجزة ، المعجزة البحر أصبح طريقاً يبساً ، المعجزة يُلقى إنسان في النار فلا يحترق ، المعجزة عصا تلقى على الأرض .

(فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

(سورة الأعراف)

المعجزة انشقاق القمر ، هذه معجزات ، هي خرق للنواميس والعادات ، هي شهادة الله لأنبيائه ولرسله أن هذا الإنسان رسول الله ، أما الإعجاز فحينما تأتي إشارة إلى قضية علمية في القرآن الكريم اكتشفت في عام 2000 فإذا هي مطابقة مطابقة تامة لأحدث بحوث العلم هذا إعجاز ، الإعجاز وفق القوانين ، أما سبق علمي ، إشارة مسبقة إلى حقيقة علمية لم تكن معروفة وقت نزول الوحي ، بعد 1400 عام

اكتشف العلماء هذه الحقيقة ، فكانت الآية القرآنية دليلاً على أن الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن .

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا)

لأنهم لو صدقوا عليهم أن يطبقوا ، كنهم ألِفوا التفلت ، ألفوا الحركة بلا ضابط ، بلا أمر ، بلا نهي ، بلا رادع ، بلا قيمة ، بلا مبدأ ، وهذا شأن الإنسان الذي تفلت من منهج الله ، كدابة شاردة .

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)

(سورة الفرقان)

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)

(سورة الجمعة الآية : 5)

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

(سورة المنافقون الآية : 24)

2 – آيات الله طريق إلى الإيمان :

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا)

طريق الإيمان بالله الطريق إلى آياته القرآنية ، والتكوينية ، والكونية ، ومعجزاتهما ، هذا هو الطريق ، قال تعالى :

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الجاثية)

لأن الله عز وجل لا تدركه الأبصار ، إذاً : العقول من خلال خلقه تصل إليه .

وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا)

أبوا أن يؤمنوا بها استكباراً .

1 – إبليس رأسُ العاصين المستكبرين :

لذلك : هناك معاصي الاستكبار ، على رأس العاصين استكباراً إبليس اللعين .

(لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ)

(سورة الحجر الآية : 33)

(مِنْ طِينٍ)

(سورة الأعراف)

(أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

(سورة البقرة الآية : 34)

2 – معصية الاستكبار والإباء إثمها أكبر :

معصية استكبار ، معصية التأبي ، هذه المعصية إثمها مليون ضعف عن إثم معصية الغلبة .
أحيانا يُغلب الإنسانُ على أمره ، تغلبه شهوته ، فيفعلها ، ويبكي بكاء مراً ندماً على فعلته ، هذه معصية ، وهذه معصية ، لكن الأولى معصية الاستكبار ، معصية التأبي ، معصية التألق ، أما المعصية الثانية فهي معصية الغلبة والانكسار .
لذلك قال بعض العارفين : " رُبَّ معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً"، الآن :

((لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر))

ما الذي أكبر من الذنب ؟ قال :

((العجب العجب))

[أخرجه البزار وابن حبان عن أبي سعيد]
أن تعجب بنفسك ، فلذلك مرة قال لي شخص : أنا لا ألتفت إلى النساء إطلاقاً ، ولا ألقي لهن بالاً ، أنا فوق هذا ، أنا انتقدته في نفسي ، أيهما أعظم عند الله أنت أم سيدنا يوسف ؟ ماذا قال ؟ قال :

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

(سورة يوسف الآية : 33)
ألا أنبئكم بمعنى لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا حول عن معصيته إلا به ، ولا قوة على طاعته إلا به ، ألا تقرؤوا الفاتحة كل يوم ؟

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

(سورة الفاتحة)

استعن على طاعة الله بالله ، ألم يقل إبراهيم أبو الأنبياء :

(وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ)

(سورة إبراهيم الآية : 35)
لذلك أي إنسان يستقيم ، ويأخذه العجب باستقامته تزل قدمه ، وقد يرتكب حماقة ومعصية لا يرتكبها أقلّ منه ، فإذا كنت طائعاً لله فاسجد لله شكراً على أنك تطيعه .

لذلك :

((الذنب شؤم على غير فاعله))

[أخرجه الديلمي عن أنس]

لك صديق ارتكب ذنبا ، أنت ما ارتكبت ذنبا ، قال : هو :

((شؤم على غير فاعله إن رضيه فقد شاركه في الإثم ، وإن ذكره فقد اغتابه وإن عيره ابتلي به))

[أخرجه الديلمي عن أنس]

ينبغي إذا ارتكب أخوك ذنباً ألا تفضحه ، وألا تعيره ، وألا تقره ، لذلك :

((من غاب عن معصية فرضيها كان كمن شهدها ، ومن شهد معصية فأنكرها كان كم غاب عنها))

[ورد في الأثر]

لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء)

معنى تفتُّح السماء :

إذا فتحت أمامك أبواب السماء ما معنى ذلك ؟ يعني تجلى الله على قلبك بالسكينة ، والسكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء ، وتشقى بفقدها لو ملكت كل شيء ، فإذا كنت في بطن حوت ، وفي ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، وفي ظلمات ثلاث يتجلى الله عليك بالسكينة فأنت في جنة ، لذلك عاش السكينة النبيُّ عليه الصلاة والسلام وهو في الغار ، وعاش السكينة سيدُنا يونس وهو في بطن الحوت ، وعاش السكينة سيدُنا إبراهيم وهو في النار ، وعاش السكينة أهلُ الكهف وهم في الكهف ، السكينة إذا نزلها الله عليك سعدت بها ولو فقدت كل شيء ، وتشقى بقدها لو ملكت كل شيء ، إن فتحت لك أبواب السماء نزل على قلبك السكينة ، وإن فتحت لك أبواب السماء نزل على قلبك الأمن .

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام)

وإذا فتحت لك أبواب السماء آتاك الله الحكمة .

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة الآية : 269)

وإذا فتحت لك أبواب السماء آتاك الله الرضا .

وإذا فتحت لك أبواب السماء آتاك الله التفاؤل .

إن فتحت لك أبواب السماء فلا يضل عقلك ، ولا تشقى نفسك .
إن فتحت لك أبواب السماء فلا تهاب إلا الله ، ولا تخش إلا الله ، ولا تأخذك في الله لومة لائم .
إذا فتحت لك أبواب السماء آتاك الله بصراً نافذاً ، وقولاً سديداً ، وحكمة رائعة ، وإدراكاً عميقاً .
إذا فتحت لك أبواب السماء ملكت نفسك ولا تملكك ، وتحكمت بهواك ، ولم يتحكم بك .
إذا فتحت لك أبواب السماء قلّت مساكين أهل الدنيا ، جاؤوا إلى الدنيا وخرجوا منها ، ولم يذوقوا أطيب مات فيها ، فاتتهم جنة القرب ، في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .
إذا فتحت لك أبواب السماء ذكرك الله وأنت تذكره ، وذكر الله لك أبلغ من ذكرك له .
لذلك :

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا)

لو لم يكن هناك نتائج خطيرة جداً ماحقة ساحقة مهلكة من التكذيب فكذب ما شئت ، لكن :

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء)

المؤمن بعين الله ، المؤمن بتوفيق الله ، المؤمن بتأييد الله ، بحفظ الله ، ملائكة يحفظونه من أمر الله بأمر من الله ، مسدد ، معان ، موفق ، ينصره الله ، يكشف له الحقيقة ، يلقي في قلبه نوراً .
إذا فتحت لك أبواب السماء يهبك زوجة صالحة تعينك على أمر دينك ، إن فتحت لك أبواب السماء ألقى الله محبتك في قلوب الخلق ، وهذا معنى قوله تعالى :

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

(سورة طه الآية : 39)

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء)

في الدنيا ،

(وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ)

حُرم من نعيم الدنيا ونعيم الآخرة .

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

(سورة الرحمن)

حُرم من جنة الدنيا ، ومن جنة الآخرة .

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى)

(سورة طه)

أحيانا يخالف الإنسان القانون ، المخالفة جزاءها خمسون ليرة ، يقول لك : ليست مشكلة ، لا ، أحيانا هناك مخالفة بعدها إعدام ، هذه مشكلة ، الله عز وجل يبين :

(إنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا)

الكونية والتكوينية والقرآنية والإعجازية ،

(وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء)

فلا حكمة ، ولا رحمة ، ولا توفيق ، ولا نصر ، ولا تأييد ، ولا تطمين ، ولا استخلاف .

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا)

وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ

(لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى)

متى ؟ قال : القضية سهلة جداً

(حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ)

من ستة أطنان ،

(فِي سَمِّ الْخِيَاطِ)

بثقب الإبرة إذا دخل الجمل

(فِي سَمِّ الْخِيَاطِ)

يدخلون الجنة ، هذا اسمه شرط تعجيزي ، مستحيل وألف ألفُ ألف مستحيل أن يدخل هؤلاء الجنة ، لأنهم :

(كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا)

وقال بعض المفسرين : الجمل هو الحبل الثخين ، حبل سفينة ضخمة ، وهناك حبال قطرها عشرة سانتيمترات ، هذا يدخل في ثقب إبرة ؟ .

بالمناسبة ، الذي استخدم الإبرة والخيط الإبرة لها ثقب ، متى يدخلها الخيط ؟ إذا كان قطره أقلَّ من ثقب الإبرة ، هذا واحد ، وإذا كان متماسكاً صلباً ، وإذا كان مؤنفاً له رأس مؤنف ، فإذا قطعت الخيط بالمقص لا يدخل ، لا بد من برمه وتكوين رأس مؤنف له ، يجب أن يكون الخيط بقطر أقلَّ من ثقب الإبرة ، ويجب أن يكون الخيط متماسكا صلبا ، ويجب أن يكون له رأس مؤنف حتى يدخل ، أما الجمل إن كان جملا بمعناه الحقيقي ، أو الجمل بالمعنى المجازي فمستحيل وألف ألفِ ألف مستحيل أن يدخل في ثقب الإبرة .

(إنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ)

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ

لماذا أجرم ؟ لأنه كذب ، لما كذب بآيات الله كذب بوجود الله ، كذب بعدل الله ، كذب بالحساب ، وبالموت ، لما كذب بالحساب بعد الموت ، كذب باليوم الآخر ، كذب بالمسائلة الإلهية ، كذب بالعذاب ، فلا داعي له أن يستقيم ، فصار يأخذ ما ليس له ، ويأكل أموال الناس بالباطل ، وينتهك أعراضهم ، ويقتلهم أحياناً ، كما ترون ، القتل سهل ، يقول لك : دمرنا البناء فمات 60 شخصا ، كيف ؟ صدر إطلاق رصاص منه ، كلام كله بكذب ، لأنه ليس عندهم إله يحاسب ، ولما كفر بالله ، كفر باليوم الآخر فلا داعي له أن يستقيم ، ولا داعي له أن يخاف من الله ، شيء دقيق ، وترابط دقيق جداً ، لما كذب بالآيات الدالة على عظمة الله ، وعلى كماله ، وعلى عدله ، وعلى يوم الحساب والدينونة ، لما كذب بالله واليوم الآخر لماذا يستقيم ؟ استغنى عن طاعة الله ، ووجد نفسه قويا ، إذاً : يجب أن يأخذ ما ليس له .

الجاهلية الثانية :

الآن نحن في الجاهلية الثانية ، قال الله تعالى :

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)

(سورة الأحزاب الآية : 33)

هذه إشارة إلى جاهلية ثانية ، ففي الجاهلية الثانية القوي يسحق الضعيف ، والغني يأكل الفقير ، والذكي يحتال على غير الذكي ، والعلاقات علاقات مجتمع الغاب ، ليست علاقة إنسان مع إنسان ، بل علاقة مجتمع الغاب .

إنّ كل إنسان يرى من حقه أن يفترس الآخرين ، وكل إنسان قد يكون فريسة وضحية ، هذا مجتمع الغاب ، هذا مجتمع الجاهلية الثانية ، هذا مجتمع يوم يذوب قلب المؤمن في جوفه ، مما يرى ، ولا يستطيع أن يغير ، إن تكلم قتلوه ، وإن سكت استباحوه ، هذا المجتمع مجتمع يلعنه الله .

دقق أيها الأخ ،

(وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ)

لما كذب بآيات الله ، لما كذب بعدل الله ، لما كذب باليوم الآخر ، لما كذب بالحساب ، لما كذب بالنار ، استغنى عن طاعة الله ، هو قوي يجب أن يأخذ كل شيء ، هذا منطق هذا العصر .

نحن والله أيها الإخوة ، نعيش مع مجتمعات متطورة ، ولكنها متوحشة ، ونحن إن شاء الله مجتمع غير متطور ، لكننا متحضرون بهذا الدين ، عندنا رحمة ، عندنا تماسك أسري ، عندنا خوف من الله .

التكذيب بآيات الله يفضي إلى الإجرام :

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ)

إن كذبت بآيات الله في الأعم الأغلب ينبغي أن تكون مجرماً ، فالإنسان بشكل دقيق جداً لا يستقيم إلا إذا خاف الله ، إذا ما خافه لا يستقيم ، وكل شيء آخر يقال من بواعث عن الاستقامة ، أنا أراها غير صحيحة ، ضمير مسلكي ، تربية بيتيه ، تربية بيتيه بالسلام والترحيب ، أما إذا كان لا يؤمن بالله ، ولا باليوم الآخر يأكلها إسرافاً وتبذيراً .

أيها الإخوة ،

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ)

هؤلاء المجرمون قال :

(لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

(سورة الأعراف)

هذا جزاء المجرمين :

فراش وثير ، الناعم ، اللين بجهنم ،

(لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ)

الغطاء الذي فوقهم

(غَوَاشٍ)

أي جهنم ، جهنم تغشاهم من تحتهم ، ومن فوقهم ، ومن أمام ، ومن خلف ، ومن ميمنة وميسرة ، ومن فوق وتحت .

الآية :

(لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ)

من تحتهم جنهم تحرقهم ، ومن فوقهم النار تلسعهم ، من تحتهم ومن فوقهم ، لكن في آيات أخرى ومن أمامهم ومن خلفهم ، وعن يمينهم وشمالهم ، ومن فوقهم ومن تحتهم .

الآية :

(وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)

(سورة التوبة الآية : 49)

أحيانا ينشب حريق يتجه باتجاه معاكس ، إذا هرب الرجل من الحريق وجد أمامه حريقا ، صعد إلى الطابق الثاني وجد أمامه حريق ، نزل إلى القبو فوجد الحريق ، عن يمينه حريق ، عن يساره حريق ، هذا وصف .

(لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

هم ظلموا أنفسهم حينما غفلوا عن ربهم ، لما غفلوا عن ربهم ظلموا أنفسهم ، ولما تفلتوا من منهجه ظلموا أنفسهم ، ولما أساءوا لخلقه ظلموا أنفسهم ،

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

ظلم نفسه بأنه ما عرّفها بربها ، وظلم نفسه بأنه ما حملها على طاعته ، وظلم نفسه بأنه آذى الخلق ، وظلم نفسه بأنه بنى مجده على أنقاض الآخرين ، بنى عزه على إذلالهم ، وبنى غناه على فقرهم ، قال:

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

(سورة الأعراف)

الطرف المقابل للمجرمين : إنهم المؤمنون :

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ)

الطرف الآخر ،

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

أولاً : نجوا من النار ، أحياناً إذا حدث زلزال ، وبيتك نجا من الزلزال فأنت في مكسب كبير جداً ، إذا داهمك مستعمر لا سمح الله ولا قدر ، وقام باعتقال عشوائي إلى السجن ، ونجوت من هذا الاعتقال فأنت في خير كبير ، لكن الله عز وجل يقول :

1 – المؤمنون ناجون من النار مُنَعَّمون في الجنة :

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

ليس فقط نجو امن النار ،

(أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

هناك فرق بين أن تنجو فقط وأن تكون في نعيم مقيم .

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ *فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

(سورة الحاقة الآية : 19 - 24)

(نَعِيمٌ مُقِيمٌ)

(سورة التوبة الآية : 21)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُ :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ...))

[متفق عليه]

نظام الجنة أن كل ما تطلبه تراه أمامك .

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)

(سورة ق)

نظام الجنة أنك تستمتع استمتاعا متناميا ، وهذا معنى الخلود في الجنة ، فلو ذهب إنسان إلى بستان ، وبقي فيه ساعتين أو ثلاثا يملّ بعد هذا ، أما إذا بدّل ، وتنامي لا يمل .

إذاً : هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات لم ينجوا من النار ، وأدخلوا الجنة ، كانت النجاة من النار مكسبا كبيرا ، وفوق هذا المكسب الكبير جداً دخلوا جنة عرضها السماوات والأرض ،

(لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا)

2 – أعظم نعيم في الآخرة النظر إلى وجه الله الكريم :

لكن ما الذي فوق الجنة ؟ فوق الجنة النظرُ إلى وجه الله الكريم .

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ)

(سورة القيامة)

متألقة .

(إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

(سورة القيامة)

في بعض الآثار : أن أهل الجنة إذا نظروا إلى وجه الله الكريم يغيبون خمسين ألف عام من نشوة النظرة ، هذه فوق :

(جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

(سورة التغابن الآية : 9)

فوق :

(وَحُورٌ عِينٌ)

(سورة الواقعة)

فوق :

(وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ)

(سورة الواقعة)

فوق :

(مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ)

(سورة محمد الآية : 15)

3 – رضوان الله على أهل الجنة :

فوق كل أوصاف الجنة هناك نظر إلى وجه الله الكريم ، وفوق ذلك :

(وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة التوبة الآية : 72)

لما يرحب الله بك ، ويحتفل بك .

إذًا في الجنة بساتين تجري من تحتها الأنهار ، فيها :

((مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ...))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

فيها حور عين .

مرة صحابي جليل طالبته زوجته بشيء ليس في قدرته ، فقال : << اعلمي أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لا لو أطلّت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر ، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أن أضحي بهن من أجلك >> .

فوق ذلك نظر لوجه الله الكريم .

فوق ذلك :

(وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ)

دخلت بيتا مثلاً فيه طعام ، فيه شراب ، فيه مقبلات ، فيه ورود ، فيه رياحين فيه ، أشياء لطيفة جداً ، وصاحب البيت جميل الصورة ، لم تستطع أن تصرف عينك عنه ، وفوق ذلك قال لك : يا أهلاً وسهلاً، أخ كريم ، وعزيز ، ونحن بانتظارك ، وقد نورت البيت بمجيئك ، فكنتَ في استمتاع مادي ، ونظر إلى جمال ، ثم ترحيب من صاحب البيت .

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

4 – توهُّمٌ غيرُ صحيح مدفوعٌ بقوله : لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا

لكن أحيانا يتوهم إنسان بوسوسة من إبليس أن هذه أشياء صعبة ، الاستقامة صعبة ، الله عز وجل أراد أن يبدِّد هذا الوهم فقال :

(لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا)

ما مِن أمرٍ أمرك الله به إلا وكان ضمن وسعك .

وجاءت هذه الجملة اعتراضية :

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

5 – الإيمان مقرون بالعمل الصالح دائمًا :

آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بقلوبهم ، والإيمان إقرار بالقلب ، وعمل بالجوارح .

وكلمة :

(آمَنُواْ وَعَمِلُوا)

وردت 200 مرة في القرآن الكريم ، الدين إيمان وعمل صالح ، عقيدة وسلوك ، منطلقات نظرية ، وتطبيقات عملية .

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

اعتراض .

(لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا)

فلا تقل : لا أقدر ، إذا قلت : لا أقدر فأنت لا تعلم ، بل إنك تقدر في أي زمان ومكان ، وبأي ظرف ، وبأي بيئة ، وبأي معطيات ، أن تعبد الله ، لا تقل ، لا أقدر ، فإنه :

(لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا)

لذلك أحياناً يتوهم الإنسان بهمته الضعيفة ، ووسعه الخائر ، وعزيمته الضعيفة أنه لا يقدر ، هذا وهم ، لكن الإله العظيم هو الذي خلق الإنسان ، فلا يمكن أن يكلفه شيئاً لا يستطيعه أبداً ،

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

أنت في الدنيا كمثل إنسان دخل إلى سوق يشتري مركبة ، معه 700 - 800 ألف ليرة ، في بحث بالمعرض كله عن سيارة بهذا المستوى ، هذه إمكانيته ، لكن هناك مركبة ثمنها 8 ملايين ، و 24 مليونا ، هذه فكِّر فيها .

هناك متعٌ محرَّمة لا تفكر فيها أبداً ، أنا أفكر في الزواج فقط ، أفكر بعمل مشروع ، فما دمت مؤمنا ، ومعك منهج فكلّ تفكيرك وخواطرك ضمن المباح ، ضمن المسموح به ، ضمن المشروع ، أما لو تطلعت إلى ما يفعله العصاة والمجرمون طبعاً لا تستطيع ، أنت فكر بما هو مسموح لك ، كن مع المؤمنين ، أحط نفسك بجو إيماني ، تجد نفسَك متألقًا .

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

6 – نِعَم الدنيا مصحوبةٌ بقلقين : قلق مفارقتك وقلق مفارقتها لك :

المشكلة أن نِعم الدنيا معها قلق عميق ، أحدهم دخْله جيد ، يا ترى الشركة التي أنا وكيلها في هذه البلد، هل تبقى ؟ أم يأتي إنسان أقوى مني فيأخذها مني ، هناك قلق ، كل نِعَم الدنيا معها قلق ، معها قلقين ، القلق الأول أن تفارقك هذه النعمة ، وهناك أشخاص كثيرون كان أحدهم غنيا ثم افتقر ، كان وكيل شركة فسُحبت هذه الوكالة منه ، كان عنده ميزات ثم نحي عنها ، فكل نِعم الدنيا معها قلق عميق ، قلق أن تفارقك هذه النعمة ، و قلق آخر أن تفارقها أنت .

أحياناً يصل الإنسان إلى قمة نجاحه ، ثم يأتيه هاجس الموت ، بعدما وصل لهذا المستوى ، يمكن أن يموت فجأة .

مرة حدثني صديق زاروا أخا مريضًا ، الأخ يشعر بتعب غير معقول بعد تزيين البيت زينه ، واعتنى به ، بذل مهجة فؤاده فيه ، لما مرضَ مرضًا خطيرا زاره أصدقاءه ، قال لهم : ممكن أن تتزوج زوجتي بعدما أموت ، ويأتي إلى هذا البيت ، يأخذه على طبق من فضة ؟! .

إنّ نِعم الدنيا أيها الإخوة معها قلقان ، قلق أن تفارقك ، وقلق ثانٍ أن تفارقها ، لذلك قال النبي الكريم :

((اللَّهُمَّ مَتِّعْنا بأسْماعنا وأبْصَارنا وَقُوَّتِنا ما أحْيَيْتَنا))

[رواه الترمذي عن ابن عمر]

يا رب ما تفارقني هذه النعم .

7 – حظوظ الدنيا موزّعةٌ توزيعَ ابتلاء ، وحظوظ الآخرة موزّعةٌ توزيعَ جزاء :

أيها الإخوة ، حظوظ الدنيا موزعة توزيع ابتلاء ، قد يكون الفقير أقرب إلى الله من الغني ، حظوظ الدنيا موزعة في الدنيا توزيع ابتلاء ، لكنها سوف توزع في الآخرة توزيع جزاء .

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً)

(سور ة الإسراء)

قال : أهل الجنة :

(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة الأعراف)

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلّ

1 – ليست قلوب أهل الجنة كقلوب أهل الجنة :

(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلّ)

أحيانا هناك اجتهادات ، حتى بين الدعاة ، هذا اجتهاده بتأليف الكتب ، هذا اجتهاده بتأليف القلوب ، هذا اجتهاده بالتفسير ، هذا بالحديث ، هذا بالسيرة ، هذا آخذ اجتهاد متشدد ، هذا اتجاه وسطي ، في الدنيا يختلفون ، لكن لأنهم جميعاً في الدنيا يختلفون ، لأنهم جميعاً مؤمنون يوم القيامة ينزع ما بينهم من غلٍّ، هذه بشارة .

(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ)

2 – لولا هداية الله لن نهتدي أبدا :

لو لا أن هدانا الله ما كنا لنهتدي ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ ، قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : لَا وَلَا أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ))

[متفق عليه]

الجنة للتقريب : بيت ثمنه مئة مليون ، كلفوك أن تأتي بثمن المفتاح فقط ، أنت حينما دفعت ثمن المفتاح 20 ليرة ، لا معنى لذلك ، لأن البيت تملكته بقوتك ، ومالك ، لكنك دفعت ثمن مفتاحه فقط ، لذلك :

((ادخلوا الجنة برحمتي ، واقتسموها بأعمالكم))

[ورد في الأثر]

إذاً :

(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

عملك يساوي ثمن مفتاح الجنة ، أما هي فمن فضل الله عز وجل ، الجنة محض فضل ، والنار محض عدل .

إذا قال أب لابنه : اجتهد ، ونل الدرجة الأولى ، ولك هذه الدراجة الثمينة جداً ، رآها في محل ، هذا الابن أخذ الدرجة الأولى ، وأخذ الجلاء ، وتوجه مباشرة إلى البائع ، وقال : أعطني هذا الجلاء ، اذهب وهات ثمنها ، يدفع ثمنها والدك ، هذا الجلاء ليس ثمن الدراجة ، هذا سبب وضعه أبوك من أجل أن يشتريها لك ، فهذا الجلاء ليس ثمن الدراجة ، هذا الجلاء سبب تملك الدراجة ، هناك فرق بين سبب وثمن .

هذا معنى :

((لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ ، قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : لَا وَلَا أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ))

فضل ، لكن سببها الطاعة ، وأداء العبادات ، أنت قدمت السبب ، لكن ما قدمت الثمن ، الجنة مض فضل ، أنت قدمت عملا صالحًا هو سبب دخولك ، لذلك :

((ادخلوا الجنة برحمتي ، واقتسموها بأعمالكم))

اقتسام أماكن الجنة بالأعمال :

(وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

أي أنّ اقتسام أماكن الجنة بأعمالكم ، أما هي في الأصل فمحض فضل ، والنار محض عدل .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(20-60): تفسير الآيات 44 - 51 ، في الآخرة يتحقق اسم العدل كاملاً ، في الجنة المؤمن تتضاعف سعادته - والكافر في النار تتضاعف آلامه
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-07-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس العشرين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الرابعة والأربعين ، وهي قوله تعالى :

(وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)

أسماء الله الحسنى محققة كاملة في الدنيا إلا اسم العدل فمحقق كاملا في الآخرة :

أيها الإخوة ، أسماء الله تعالى كلها حسنى ، وكلها محققة في الدنيا ، اسم الرحيم تراه في خلق الله ، كيف ترحم الأم ابنها ، والعجماوات كيف ترحم أبناءها ، اسم الحكيم ، اسم اللطيف ، اسم القوي ، اسم القدير ، اسم الجبار ، كل أسماء الله الحسنى محققة في الدنيا إلا اسم العدل ، محقق في الدنيا جزئياً ، ويحقق تحققاً كاملاً يوم القيامة ، الدليل :

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)

(سورة الروم الآية : 27)

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

(سورة طه)

الدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء :

إذاً : الله عز وجل في الدنيا يعاقب بعض المسيئين ردعاً للباقين ، ويكافئ بعض المحسنين تشجيعاً للباقين ، لكن الدنيا ليست دار جزاء ، إنما دار عمل ، ليست دار تكليف إنما هي دار تشريف .

من الممكن لإنسان يعاني ما يعاني وهو على طاعة الله ، ويموت ، ويمكن لإنسان يفعل كل الجرائم ويموت دون أن يصاب بشيء .

إياكم أن تتوهموا أن الدنيا دار جزاء ، إنها دار ابتلاء ، إنها دار عمل ، إنها دار كدح ، أما الآخرة فهي دار جزاء ، ودار تكريم ، ودار إعطاء العبد الذي أطاع الله كل ما يشتهي .

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا)

(سورة ق الآية : 35)

لذلك ، النقطة الدقيقة جداً : أن اسم العدل ليس محققاً كلياً في الدنيا ، محقق تحقيقاً جزئياً ، أي أن الله يكافئ بعض المحسنين تشجيعاً للباقين ، ويعاقب بعض المسيئين ردعاً للباقين ، ولكن الحساب الختامي يوم القيامة :

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران الآية : 185)

لذلك :

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ودار ترح لا دار فرح فمن عرفها لم يفرح لرخاء ـ لأنهم وقت ـ ولم يحزن لشدة ـ لأنهم وقت ـ ألا وإن الله تعالى خلق الدنيا دار بلوى ، والآخرة دار عقبى ، فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة سببا ، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضا ، فيأخذ ليعطي ، ويبتلي ليجزي))

[رواه الديلمي عن ابن عمر]

هذه حال المؤمن حين يرى أعداءه في النار :

إن المؤمن حينما يرى أصحاب المال في النار ، حينما يرى الطغاة في النار ، حينما يرى العصاة في النار ، حينما يرى المجرمين في النار ، حينما يرى الذين بنوا مجدهم على أنقاض الناس في النار ، حينما يرى الذين بنوا غناهم على إفقار الناس ، بنوا عزهم على إذلال الناس ، بنوا قوتهم على إضعاف الناس ، حينما يراهم في النار تتحقق سعادته التامة ، لماذا ؟ لأنه كان يعيش وعداً ووعيداً ، فأصبح الوعد والوعيد حقيقة ، كان يعيش وعداً ووعيداً ، فإذا بالوعد يتحقق ، وبالوعيد يتحقق .

إنَّ الكافر أيضاً حينما يرى المؤمن الذي كان يحتقره ، وكان يزدريه ، وكان يراه محدوداً ، وكان يراه ضيق الأفق ، وكان يراه مغفلاً ، وكان يراه متزمتاً ، وكان يراه يعيش في أوهام ، إذا بهذا المؤمن الذي كان يزدريه في الدنيا في الجنة تتضاعف آلامه في النار ، وحينما يرى المؤمنُ الكبراءَ ، كبراء المجرمين ، الذين ملكوا الأرض ، وتصدروا الشاشات ، وتبجحوا ، وتوعدوا ، واستكبروا ، وتغطرسوا، وعاشوا في نعيم لا يوصف حينما يراهم في النار ، ويكون وعيد الله لهم قد تحقق ، وأصبح واقعاً ، عندئذٍ ما الذي يحصل ؟ تتضاعف سعادة المؤمن بتحقق وعيد الله ، ويتضاعف عذاب الكافر بتحقق وعد الله للمؤمن .

إنّ المؤمن إذا رأى الكبراء في الدنيا الذين حاربوا الدين ، ووقفوا في خندق معادٍ للدين ، هذا المؤمن حينما يرى أعداء الله في الأزلّين ، في نار جهنم يحمد قراره في الإيمان ، يحمد استقامته ، يحمد إيمانه،

يحمد علمه ، يحمد ورعه ، يحمد خوفه من الله ، وتتضاعف سعادته ، وحينما يرى الكافر الذي كان يزدريهم ، هم في نعيم مقيم يضاعف عذابه في الآخرة .

إذاً :

(وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا)

حين تراءى الفريقان .

وهناك آية أخرى تبين ذلك :

(يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ)

(سورة الحديد الآية : 31)

لو دخل زائر عيادةَ طبيب ، للتقريب ، ورأى العيادة ممتلئة ، وكل مريض يجب أن يدفع ألفي ليرة ، ووعددُ المرضى خمسون ، بألفين ، 100 ألف ليرة كل يوم ، ذهب هذا الزائرُ فسأل الطبيب ، هل مِن طريق أن أعمل مثلك ، وافتح عيادة ، هو لا يقرأ ولا يكتب ، اذهب وارجع إلى المدارس ، وادخل الابتدائي ، والإعدادي ، والثانوي ، واحصل على 230 نقطة ، وادخل كلية الطب ، وخذ الدبلوم ، والماجستير ، والدكتوراه ، وسافر إلى بلاد بعيدة ، واجلس ثماني سنوات ، وحصّل على البورد ، وافتح عيادة ،

(قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ)

(فَالْتَمِسُوا نُوراً)

(سورة الحديد الآية : 13)

شيء مضحك ، إنسان ما قدم شيئًا يتمنى ممن بذل حياته في سبيل شيئًا ؛ أن يكون مثله :

(يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ)

هذا شيء بدأ في الدنيا ،

(فَالْتَمِسُوا نُورًا)

(فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ)

(سورة الحديد الآية : 13)

السور للمؤمنين

(فِيهِ الرَّحْمَةُ)

(وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ)

(سورة الحديد)

(يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ)

(سورة الحديد الآية : 14)

كنا بحي واحد ، كنا بمدينة واحدة ، كنا بسوق واحد .

(قالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ)

(سورة الحديد الآية : 14)

فتنتم بالدنيا ، بمالها ، بنسائها ، بمناصبها ، فتنتم بزخرفة الحياة الدنيا ، كانت موازينكم مادية ، تعبدون العملة من دون الله ، تعبدون الدرهم والدينار ، كنتم عبد الخميصة كانت كنتم عبد الفرج ، كنتم عبد البطن ، كنتم عبيد شهواتكم ،

(قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا)

(قالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أنفُسَكُمْ)

(وَتَرَبَّصْتُمْ)

(سورة الحديد الآية : 14)

بالمؤمنين ، المؤمن الذي استقام ، والتحق بالمسجد ، وطلب العلم ، هذا يجب أن تدمر آخرته ، وضع العام ضد الدين ، ينتظرون أن تقع المصيبة بالمؤمن ، وهو في حفظ الله ،

(وَتَرَبَّصْتُمْ)

تنتظرون أن يدمر المؤمن كي ترتاحوا ، تنتظرون أن هذه الفتاة المحجبة لن تتزوج ، إلا إذا سفرت ، وتفلتت ، فكل إنسان منحرف يتربص بالمؤمن ، يتمنى أن يقع ، يتمنى أن يدمر ، يتمنى أن يُحبط ،

(وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أنفُسَكُمْ)

في الدنيا ،

(وَتَرَبَّصْتُمْ)

(وَارْتَبْتُمْ)

(سورة الحديد الآية : 14)

بالآخرة .

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالخسارة عليكما

***

(وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ)

(سورة الحديد الآية : 14)

المال شيء كبير جداً عندكم ، والمرأة شيء كبير ، والبيت الفخم ، والمركبة الفارهة ، والأموال الطائلة، والسفر ، والسياحة ، هذا كان دينكم .

(حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

(سورة الحديد)

الشيطان قال لك : الله لا يحاسبك ، من أنت أمامه ؟ لن تحاسب .

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم الآية : 22)

ولكنكم فتنتم أنفسكم في الدنيا ، وتربصتم بالمؤمنين ، وارتبتم بوعد الله ووعيده

(وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ)

عاش بالأمنيات ،

(حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

وقال لهم الشيطان : لن تحاسبوا ، الله غفور رحيم .

(فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

(سورة الحديد)

إذاً : في الجنة ، أو في الآخرة المؤمن تتضاعف سعادته ، لأنه يرى مصير الكفار المجرمين ، المنحرفين ، العصاة ، الذين تفننوا في قتل البشر ، وفي إذلال البشر ، وفي إفقار البشر ، وفي إضلال البشر ، واستعلوا ، وتغطرسوا .

(وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

(سورة فصلت الآية : 15)

(وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ)

الكافر لما رأى المؤمنين في الجنة تضاعف شقاءه في النار ، أنا كنت أظنهم جهلاء ، كنت أظنهم أغبياء، الحقيقة هم الأذكياء .

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين)

كانوا يتغامزون .

(وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ)

(سورة المطففين)

كانوا يزدرون المؤمنين .

فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ

1 – لعنةُ الله على الكافرين نوعٌ من العذاب :

(فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)

اللعنة هي البعد ، يعني الله عز وجل أكبر عقاب يعاقب به الإنسان أن الله يلعنه .

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

(سورة المطففين)

(فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)

الله أبعدهم عن ذاته العلية ، أبعدهم عن جنته ، أبعدهم عن رحمته ، أبعدهم إلى النظر إلى وجهه الكريم، أبعدهم عن رضوانه .

2 – الوعدُ أصبح واقعا :

أيها الإخوة ، النقطة الدقيقة أن الذي كان وعداً أصبح واقعاً ، وأن الذي كان وعيداً أصبح واقعاً ، أنت في الدنيا أمام إنسان مُرابٍ لا يعبأ ، يزدري آية الربا ، ثم يقول : من قال : إن الله سيحاسبني ؟ أموالي تضاعفت أضعاف مضاعفة ، هذا المرابي الوقح ، المستعلي ، الذي يتباهى بأنه يعصي الله ، وأمواله تزيد ، حينما تدمر أمواله كلها يحصل للمؤمنين توازن ، أن هذا الوعد للمؤمنين بالرزق .

(وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة الآية : 276)

وأن وعيد الكفار بالمحق :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة الآية : 276)

بشكل عام حتى في الدنيا تحقُّقُ الوعد والوعيد يريح المؤمن ، ويتعب الكافر ، أنت من ؟ أنت إنسان تعلقتَ بوعد الله ، دققوا :

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

هل يستويان ؟ إنسان وعده خالق السماوات والأرض بالجنة ، وإنسان أوعده الله بالنار ، هل يستويان ؟.

لذلك أيها الإخوة ،

(وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)

فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ

من هم الظالمون ؟

1 – الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ

من هم الظالمون ؟ قال :

(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ)

(سورة الأعراف)

أخ له أخ آخر ، التحق بجامع ، يخوِّفه ، يحذّره ، يتهم روّاد المساجد بتهم باطلة ، ما لها أصل أبداً ،

(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ)

هم بالأصل صدوا أنفسهم عن سبيل الله ، ولم يكتفوا أنهم صدوا أنفسهم ، صدوا غيرهم عن سبيل الله ، سبحان الله ! تجد غير المؤمن همُّه الأول أن يبعِد الناس عن الدين ، إن التحق بمسجد يخوفه ، وإن أدى زكاة ماله يخوفه من الفقر ، وإن وصل رحمه : عليك من نفسك ، وإن عملَ عمل صالح ، أي حركة يتحركها المؤمن ابتغاء مرضاة الله ، الكافر وغير المؤمن ، يخوفه ، يحذره ، يسفه له عمله ويعظم له عمل أهل الدنيا .

2 – وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا

(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا)

شيء غير واضح ، جهة قوية تحتل بلادا من أجل ثرواتها فقط ، تدَّعي أن فيها أسلحة دمار شامل ، تدّعي أنها جاءت من أجل الحرية والديمقراطية ، الشيء المعلن عندهم غير حقيقي ، فيه كذب ، فيه دجل ، الشيء المعلن غير حقيقي .

(وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا)

لذلك أهل الدنيا حتى فرعون ماذا قال ؟

(مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)

(سورة غافر)

يذبِّح بني إسرائيل ، يذبح أبناءَهم ، ويستحيي نساءَهم ، قال :

(وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)

الكذب قديم ، والدجل قديم ، والتزوير قديم ، يعلن شيئًا ، ويخفي شيئاً آخر ، لذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا : هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أَوْ الدَّجَّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ، أَوْ السَّاعَةَ ؟ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[رواه الترمذي عن أبي هريرة]

كل شيء معلن يفعل عكسه ، فلذلك مَن هم الظالمون ؟

(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ)

ويصدون الآخرين ، يصدون أنفسهم ، ويصدون غيرهم ، فهو ضال مضل ، فاسد مفسد .

(وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا)

الأمور ليست واضحة ، كل أهدافهم القذرة والخسيسة تغطى بكلمات براقة ، والمنافق مَرِنٌ ، والفتاة المتبذلة متحضِّرة ، والذي يأكل المال الحرام ذكي ، والغارق في الشهوات يعيش وقته ، ويلبّي حاجاته الأساسية .

(وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا)

الحياة مُرّة ، التعبير عنها براق ، مثلاً ، أرض مغتصبة شُرِّد شعبها ، يقول لك : أزمة الشرق الأوسط ، ليس فيه معنى اغتصاب ، إنسان يدافع عن دينه ، يقول لك : أصولي ، هذه المصطلحات مدروسة دراسة عميقة جداً ، تؤدي معنى معاكس لواقعها .

(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ)

3 – وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ

لأنه كفر بالآخرة استغنى عن طاعة الله ، لأنه كفر بالآخرة فعل كل شيء محرم ، لأنه كفر بالآخرة بنى حياته على الأخذ .

لذلك الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا ، والأقوياء أخذوا ولم يعطوا ، الأنبياء عاشوا للناس ، والأقوياء عاش الناس لهم ، الأنبياء ملكوا القلوب ، والأقوياء ملكوا الرقاب ،

(وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ)

آية أخرى :

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

(سورة المؤمنون)

(وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ)

(سورة الأعراف)

بين أهل الجنة وأهل النار حجابٌ : وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ

بين أهل الجنة والنار حجاب ، لكن هذا الحجاب من جهة المؤمنين حجاب رحمة ، ومن جهة أهل النار حجاب عذاب ، هذا الحجاب لا يمنع الرؤية ، حتى تتضاعف السعادة للمؤمنين ، ويتضاعف الشقاء للمجرمين .

وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ

(وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ)

الأعراف جَمعُ عُرف ، هو عرف الديك ، أعلى مكان في الديك ، يبدو أن بين الجنة والنار مكانا مرتفعا جداً عليه رجال .

(وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاً بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ)

يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ

يرون أصحاب الجنة بسيماهم ، سِمة الطهر ، سِمة العفاف ، سِمة النور ، سِمة الجمال ، سِمة الرضا ، سِمة المحبة ، وأنت في الدنيا ، المؤمن لو لم تكلمه من أدبه ، من إشراق وجهه ، من تواضعه ، من معاملته الطيبة ، من صدقه ، من أمانته ، من عفافه ، من إنصافه تعرفه مؤمناً ، والكذوب له سمة ، والجبار ، والخسيس ، والدنيء تعرفه غير مسلم ، في سيماهم .

في الآخرة قال :

(وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ)

يعني مكانا مرتفعا مشرفا على أهل الجنة وعلى أهل النار .

وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ

(يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ)

أن هنيئاً لكم لم يدخلوها ،

(وَهُمْ يَطْمَعُونَ)

هناك إنسان حضر احتفالا ، قدمت جائزة ثمينة جداً للأول ، قال له : هنيئاً لك ، لكن لم يتح له ذلك .

(وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأعراف)

ما صفاتُ أصحاب الأعراف :

من هم أصحاب الأعراف ؟ الله عز وجل قال :

(فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

(سورة القارعة)

إلى الجنة .

(وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ* فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ)

(سورة القارعة)

إلى النار .

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ)

(سورة القارعة)

لكن أصحاب الأعراف تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، لو أن الحسنات غلبت لكانوا من أهل الجنة ، لو أن السيئات غلبت لكانوا من أهل النار ، أما أصحاب الأعراف فتساوت حسناتهم وسيئاتهم ، خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، في تجارته كان مستقيما ، أما في بيته وعلاقاته الاجتماعية فما كان مستقيما ، أو في بيته مستقيم أما تجارته ففيها ربا ، خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، مع زوجته لطيف جداً ، ومع أي امرأة لطيف ، ما عنده موانع ، خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، لا يصوم إلا أنه يحب الخير ، خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، هؤلاء يجلسون على مكان مشرف على أهل الجنة وعلى أهل النار ، فإن اتجهوا إلى أصحاب الجنة ،

(أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ)

(وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ)

قسراً ،

(وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

الشيء الثالث :

(نَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ)

في جهنم كبراء غير كبراء : مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ

في جنهم كبراء :

(أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا)

(سورة الأنعام الآية : 123)

هناك أشخاص عاديين بجهنم ، وفي أشخاص كبراء ، كانوا كبار المجرمين في الدنيا .

(وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ)

هذا الكبير في النار كان حوله تجمع كبير جداً ، وأحلاف ، وتنظيمات ، وأحزاب ، وتعاون ، وتواطؤ ، وإمكانيات ، هؤلاء الكبراء في النار ، كانوا قد جمعوا الناس حولهم ، فأصحاب الأعراف نادوا هؤلاء الرجال ، لأنهم :

(يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ)

في الدنيا أحلاف ، أوربة كلها مع الدولة المعتدية الكبرى من أجل البترول ، قبولها لجرائم القطب الأول دليل التملك ، دليل الخوف ، وسقطت مصداقيتها .

في الدنيا أحلاف ، وتجمعات ، وأحزاب ، وقوائم ، وتكتلات ، أما في الآخرة :

(جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام الآية : 94)

كل هذه التجمعات لا تغنيهم ، لذلك :

(وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ)

أين جمعكم في الدنيا ؟

أحياناً يُعاقب الإنسان ، يقول لك : جاءني مئة تلفون من أجله ، هناك ضغوط ، وتكتلات ، وتجمعات ، ووساطات ، وأحلاف ، وأحزاب ، وطوائف في الدنيا أما في الآخرة فلا شيء من هذا القبيل ،

(جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ)

(سورة الأنعام الآية : 94)

(وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ)

(أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ)

(سورة الأعراف)

أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ

كنتم تحتقرون المؤمنين ، كنتم تزدرونهم ، كنتم تظنون أنهم محدودون في التفكير ، أنهم مغفلون ، أنهم متزمتون ، أنهم ضيقو الأفق ، أنهم يتعلقون بالأوهام ، بالغيبيات ، بما وراء الطبيعة ، بكتاب ليس من عند الله ، توهموه من عند الله .

(أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ)

إن أصحاب الأعراف الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم لأنهم تمنوا أن يكونوا في الجنة مع أصحاب الجنة ، ولأنهم ازدروا أهل النار الآن رجحت حسناتهم .

إن الإنسان غير الملتزم أحياناً له أخ ملتزم ، وأخ غير ملتزم ، يقول لك : والله الملتزم أشرف وأقوى ، وأنا أحبه أكثر ، والثاني ليس ملتزما ، لكن والله أحتقره ، لأنه عظّم المؤمن ، المستقيم الأخلاقي ، هذه ميزة .

ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ

الله عز وجل أكرم أهل الأعراف فقال :

(ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ)

إذاً : هم أناس تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، حينما

(نَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ)

فقالوا

(أَنْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ)

(وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

ثم هؤلاء أصحاب الأعراف :

(وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ)

كبراء أهل النار .

مثلاً : الذي سبب حربا عالمية ثالثة انتهت بخمسين مليون قتيل ، ومئة مليون مصاب ، من هؤلاء الكبراء ، الذي أمر بإلقاء قنبلة على هيروشيما ونكزاكي ، وقتل 300 ألف في ثلاث ثوانٍ ، هؤلاء

كبراء ، الذي قاد حرب عالمية ثانية ، الذي قاد حروبا خلفت المآسي ، مليون قتيل ، وأربعة ملايين مشرد ، ومليون معاق ، هؤلاء الذين يتخذون قرارات ، هؤلاء كبراء أهل النار ، يقال لهم :

(مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ)

(أَهَـؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ)

(وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ)

(سورة الأعراف)

جوابا على طلبات أهل النار : إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ

انتهى التكليف ، انتهى العمل الصالح ، انتهى التسامح ، انتهى العفو ،

(قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ)

أنت في الدنيا قد تعين إنسانا منحرفا ، قد يكون قريبك ، طلب منك مساعدة فتلبّيه ، أما في الآخرة فلا تكليف ، هناك بوادر ، هناك أوامر ،

(وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ)

ما صفات هؤلاء الكافرين المحرومين ؟

مَن هم ؟ قال :

(الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)

(سورة الأعراف)

والله حضرت مؤتمرا للعبادات في واشنطن ، المؤتمر غريب ، عبادات فقط ، لا محاضرات ، ولا إلقاء كلمات ، 18 دينا في الأرض ، كل دين عرض عباداته ، صدقوني ولا أبالغ فقط الدين الإسلامي الأذان فقط خشعت له الأبصار ، وبعضهم بكى ، ثم جاء طبيب فقرأ صفحة من كتاب الله من سورة آل عمران، وجاء طبيب آخر شرح هذه الصفحة في 8 دقائق ، وبيَّن كل الدين ، وبقية الأديان من دون استثناء رقص وغناء وموسيقى .

1 – الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا

(الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا)

ما هو اللهو واللعب ؟

ما هو اللهو ؟ أن تنشغل بالخسيس عن النفيس ، عندك كتاب مقرر ، الفحص بعد أسبوع ، يبنى على نجاحك تعيينك بمنصب له دخل جيد ، تتزوج ، تشتري بيتا ، تنجب أولادا ، تركت الكتاب المقرر ، وأخذت كتاب قصة إباحية ، أمضيت فيها الأيام الأربعة ، اشتغلت عن النفيس بالخسيس ، غصت في أعماق البحر ، تركت اللؤلؤ ، وجئت بالأصداف ، أمضيت الوقت كله في لعب النرد ، كان من الممكن أن تحضر مجلس علم ، لكنك اشتغلت عن النفيس بالخسيس ، هذا هو اللهو .

أما اللعب فإذا عملت عملاً لا جدوى منه إطلاقاً ، تابعت مثلاً لاعبا معينا ، تابعت شيئا ما فيه نفعٌ ولا ضر .

فلذلك اللهو واللعب ، اللهو اشتغلت بشيء خسيس عن شيء نفيس ، واللعب لم تحقق هدفاً لا إيجابياً ولا سلبياً ، يقول لك : نمضي الوقت ، أو نقتل الوقت .

(الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

2 – وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

الدنيا كبيرة جداً عند أهل الدنيا ، ويعني يعبد المال من دون الله يعبد المرأة من دون الله ، قال لي واحد: لا أستطيع أن أغض بصري لو ونش لا يغيرني لا يمسكني عن امرأة ، لا أقدر .

(اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

رأوها بحجم أكبر من حجمها .

هناك قصة وقعت في الشام لموظف في سوق الحميدية ، يجمع قمامة المحل ويضعها بعلبة فخمة جداً ، يغلفها بورق غالٍ جداً ، يضع عليها شريطا حريريا لماعا جداً ، يضعها على الرصيف ، فيأتي إنسان يظن فيها الماس ، يحملها ، ويمضي سريعاً ، يتبعه ، بعد 200 متر يفك الشريط ، 200 متر يفك الورق ، 200 متر يفك العلبة ، فتخرج قمامة المحل فيسب ويلعن ، هكذا الدنيا ، تكتشف الحقيقة عند الموت ، المال لا قيمة له .

(كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

(سورة الدخان)

القيمة بما بعد الموت ، الغنى والفقر بعد العرض على الله .

فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا

(الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا)

معنى ننساهم أي أبعدناهم عن المعالجة ، فإذا عالج الله شخصا كلما أخطأ ساق له شدة ، يشكر الله عز وجل ، لأنه ضمن العناية المشددة ، وإذا كان الله يتابعك فاشكر الله ، معنى ذلك أنك قابل للشفاء ، معنى ذلك أنك دخلت في سلم المعالجة ، لكن من هؤلاء الأشقياء ؟ الذين أوتوا الدنيا من أوسع أبوابها ، وهم في أشد أنواع المعصية .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

(فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ {51})

وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ

جحدوا آيات الله الكونية ، الكون ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والجبال والأنهار ، وجحدوا آياته التكوينية ، أفعاله ، كالزلازل ، والبراكين ، وجحدوا معجزات الأنبياء ، ما صدقوها ، ولم يعبئوا بها ، وجحدوا آياته القرآنية .

(الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ {51})

خاتمة :

أيها الإخوة الكرام ، هذه الآيات التي شُرحت في هذا اللقاء الطيب من أجل أن تعرف ماذا ينتظر المؤمنين يوم القيامة ، فالمؤمن حينما يتحقق اسمه الله (العدل) تتضاعف سعادته ، والكافر حينما يلقى الوعيد الذي وعده الله عز وجل تتضاعف آلامه .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(21-60): تفسير الآيتان 52 - 53 ، القرآن آياته محكمة ومفصلة ـ لا قيمة للإقرار بانتهاء التكليف

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-07-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الواحد والعشرين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثانية والخمسين ، وهي قوله تعالى :

(وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ

1 – لا حُجّة للناس بعد إنزال آيات الكتاب :

يعني أيها البشر ، لا عذر لكم يوم القيامة ، فلماذا هذا الجحود ؟ وهذا الكفر ؟ وهذا الإنكار ، ليس معكم الحجة ، لا عذر لكم يوم القيامة ، لأننا جئناكم بكتاب .

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصلت الآية : 42)

كتاب من عند خالق السماوات والأرض .

(أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ)

(سورة هود الآية : 1)

(وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ)

كتاب ، بلغتنا ، فيه تفصيل كل شيء ،

(فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ)

2 – لا حُجّة للناس بعد آيات الله الكونية :

أيها الإخوة ، لو أنهم قالوا يوم القيامة : الكتاب طارئ ، أيْ شيء لم يكن من قبل ، والنبي طارئ ، الجواب : آيات الله الكونية بين أيديكم ، هي كتاب يقرأه كل إنسان ، من أي جنس ، من أي لون ، الكون كتاب يقرأه البشر جميعاً ، والقرآن كتاب ، وكلام النبي صلى الله عليه وسلم منهج ، فإذا قلتم : القرآن

شيء طارئ ، والنبي لم يكن من قبل ، هذا الكون هو الثابت الأول الذي تقام فيه الحجة ، قال الله عز وجل :

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن الآية : 7)

كل شيء في الكون ينطق بوجود الله ، ووحدانيته ، وكماله .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد .

مَن منا يصدق أن تظهر طائرة من أعلى مستوى إثر انفجار في مستودع للحديد ، من منا يصدق أن قاموساً من أعلى مستوى يظهر بعد انفجار في مطبعة ، لا أحد يقبل ، هذا نظام رائع ، هذا تسيير ، هذه حكمة ، هذه رحمة ، هذه قوة ، هذه قدرة ، لذلك القرآن حجة عليكم ، والنبي عليه الصلاة والسلام حجة عليكم ، والكون والعقل حجة عليكم .

لذلك كلمة :

(وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ)

أي لا عذر لكم في شيء من هذا الجحود ، الكتاب مفصل .

لذلك الله عز وجل بين في هذا الكتاب ما ينبغي أن تعتقده ، أعطاك تصوراً دقيقاً عميقاً ، صحيحاً ، متناسقاً ، عن الكون ، والحياة ، والإنسان ، وعن الدار الدنيا ، والدار الآخرة .

إذاً : بيّن الله جل جلاله في الكتاب ما ينبغي أن تعتقده ، وبيّن أيضاً ما تعتقد به بالمنهج ، ففيه عقائد ، وعبادات ، ومعاملات ، وبيّن أيضاً ماذا بعد الموت ، بعده الدار الآخرة ، بيّن العقائد ، وبيّن العبادات ، وبيّن المعاملات ، وبيّن الدار الآخرة ،

(عَلَى عِلْمٍ)

أي بطريقة مسهبة ، واضحة ، بليغة ، عميقة ، فيه صور للدار الآخرة ، فيه قصص الأمم السابقة ، فيه آيات كونية ، فيه آيات تكوينية ، فيه دلائل ، فيه توجيهات ، فيه مواعظ .

(وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى)

هُدًى

كيف أن الإنسان في الظلام إذا رأى بصيص ضوء يهتدي به ، منارات على الطريق إلى الله ، العلم نور ، في القرآن بيّن كل شيء ، الذي قال :

جئت من أين ؟ و لكني أتيت فرأيت قدامي طريق فمشيت

كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقي ، لســت أدري

لا ، المؤمن يدري .

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود الآية : 119)

إذاً : المؤمن يعلم علم اليقين أن الله سبحانه وتعالى خلقه للدار الآخرة ، خلقه ليسعده ، خلقه لجنة عرضها السماوات والأرض ، خلقه ليكون من عباده المقربين .

(فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

(سورة القمر)

إذاً :

(هُدًى)

أي منارة يهتدي بها الإنسان .

وَرَحْمَةً

(وَرَحْمَةً)

سعادة ، الإسلام ليس معلومات ، وتصورات ، وحقائق ، ونصوص ، وأفكار ، الإسلام قرب من الله ، الإسلام سكينة ، الإسلام سعادة والإسلام رضا ، الإسلام توفيق .

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

(سورة الرحمن)

لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

1 ـ لا ينتفع بالقرآن إلا المؤمن :

(هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

لكن لمن ؟ لمن أراد الإيمان ، ما لم تتخذ هذا القرار ، أن تؤمن ، أن تعرف الله ، أن تعرف الحقيقة كل هذا لا يقدم ، ولا يؤخر .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الروم)

لمن أراد الإيمان ، النبي أراد الإيمان ، إمكاناته ، وقدراته ، تشبه آلة تصوير غالية جداً ، متقنة جداً ، متطورة جداً ، فالذي أراد أن يؤمن ففي هذه الآلة فيلم ، كل شيء ينطبع على هذا الفيلم ، والذي ما أراد أن يؤمن ، مع أن آلته رائعة جداً ، لكن ما فيها فيلم .

لذلك هناك من يعمل في محطات فضائية ، وليس مؤمناً ، هناك من يعمل في مجهر إلكتروني يرى الخلية وليس مؤمناً .

إن أردت الإيمان فإنّ الأقدام تدل على المسير ، والماء يدل على الغدير ، والبعرة تدل على البعير ، أفسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟

فالعبرة أن تؤمن ، العبرة أن تكون على الصراط المستقيم ،

(وَلَقَدْ جِئْنَاهُم ِكِتَابٍ)

حجتهم داحضة ، لا عذر لهم ، الحجة قائمة عليهم ،

(فَصَّلْنَاهُ)

أخبار الأمم السابقة ، مشاهد من يوم القيامة ، أحكام شرعية ، توجيهات ، آيات كونية ،

(وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ)

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً)

(سورة الأنعام الآية : 115)

أي أن هذا القرآن من دفته إلى دفته ، لا يزيد على أن يكون خبراً أو أمراً ، فالخبر صادق ، والأمر عادل ،

(وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً)

أو يا عبادي منكم الصدق ، ومنكم العدل .

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات الآية : 13)

سيدنا سعد بن معاذ الذي قال له النبي :

((ارْمِ سَعْدُ! فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي))

[أخرجه مسلم عن سعد بن أبي وقاص]

هذا خالي ، أروني خالاً مثل خالي ، قال له عمر رضي الله عن عمر : << يا سعد ، لا يغرنّك أنه قد قيل : خال رسول الله ، فالخَلق كلهم عند الله سواسية ، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له >> .

(وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

هدى دلالة ، ورحمة سعادة .

أحيانا يدرك الإنسان معاني دقيقة ، لكنه شقي ، فالقرآن دلالة وسعادة ،

(هُدًى وَرَحْمَةً)

لمن ؟ لمن أراد أن يؤمن .

لذلك الله عز وجل في أول سورة من سورة القرآن الكريم وهي سورة البقرة بعد الفاتحة قال :

(الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة البقرة)

2 ـ المتَّبعُ للشهوات لا ينتفع بالقرآن :

لكن الذي أراد الدنيا أراد شهواتها ، أراد العلو في الأرض .

(تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة القصص)

الذي أراد الدنيا ، أراد حظوظه من الدنيا ، أراد شهوات الدنيا ، قال :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آَنِفاً)

(سورة محمد الآية : 16)

قال لي أحدُهم : أنا ذهبت إلى فرنسا ، وليس هناك من معصية إلا اقترفتها ، عدا القتل ، عدت إلى الشام ، لي قريب يحضر هذه المجالس ، أخذني مرتين أو ثلاثا بضغط شديد ، أقسم لي بالله ، والله ما فهمت كلمة واحدة ، قال لي : أنا لست معك ، أنا في وادٍ آخر ، في أجواء ثانية ، فإذا ما أراد الإنسان الهدى لا يفهم شيئاً ، حتى القرآن لأنه :

(وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى)

(سورة فصلت الآية : 44)

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً)

(سورة الإسراء)

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ)

(سورة الشعراء)

لو أن هذا القرآن نزل على إنسان أعجمي ، فجاء إلى مكة من بلاد العجم ، وقرأه باللغة الأعجمية ، لا أحد يفهمه ، قرأه عليهم ،

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ)

(فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

(كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

دقق الآن :

(سورة الحجر)

إذا كان الإنسان غارقا في الشهوات ، والزنا ، والخمور ، لا يفهم شيئاً ، إلا أنه كتاب تقليدي ، تراثي ، لا يصلح لهذا العصر ، غيبيات .

لذلك أيها الإخوة ، هذا القرآن يحتاج إلى إيمان ، يحتاج إلى استقامة ، يحتاج إلى طهر .

(فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)

(سورة الواقعة)

(أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ)

(سورة محمد الآية : 16)

هذا اسمه طبع حكمي ، لأنه مشغول بشهوته ، وشهوته حجاب كثيف ، حبك الشيء يعمي ويصم ، مشغول بشهوته ،

(أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ)

(وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة محمد)

أيها الإخوة ،

(هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)

(سورة فصلت)

3 ـ الانتفاع بحسب التفاعل والاهتمام :

أحياناً يلقي المدرس درسا ، فيتفاعل طالب تفاعلا مذهلا ، يحفظه كلمة كلمة ، وطالب لا يذكر ولا كلمة ، بعضهم قال : أحياناً في أيام الشتاء القارصة ، تكاد أصابعُ الإنسان تسقط من البرد ، ينفخ في يديه ، فلعل هذا النفخ يدفئ يديه ، وأحياناً تمسك كأس شاي حار تنفخ فيه لعله يبرد ، النفخة نفخة ، لكن مرة استخدمتها لتحمية يديك ، ومرة استخدمتها لتبريد الكأس .

هناك درس يُلقى ، إنسان يذوب محبة لله ، إنسان يمر عليه كسنة ، دقيقة الألم ساعة ، وساعة اللذة دقيقة ، هذا شيء واضح .

أحيانا محاضرة ، الذي يعنيه موضوع المحاضرة يقول لك : والله ما شعرت بالوقت ، تمر الساعة كلمح البصر ، والذي لا تعنيه موضوعات المحاضرة تمر هذه الساعة كسنة ، الفعل واحد ، أما ردود الأفعال فمتنوعة .

مثل آخر : إنسان في مسجد ، والمسجد ليس فيه أحد ، له باب ، فالتفت هذا الإنسان إلى الباب ، ثم قام إلى معطف معلق ، وسحب منه ألف ليرة ، نحن صورناه ، إنسان التفت إلى الباب ، اطمأن ، وقام إلى معطف ، وسحب منه ألف ليرة ، وصورناه ، هو سارق ، فإذا علمنا أن هذا الإنسان هو الذي بنى المسجد ، وكلفه خمسون مليونا نجزم أنه ليس بسارق ، بل هو متصدِّق .

كنت بمدينة في الشمال ، فيها مسجد كلف 150 مليونا ، بناه شخصٌ واحد .

فإذا علمنا هذا الإنسان الذي بنى المسجد بأن هذا المعطف معطفه ، وقد لمح فقيراً فقام ليعطيه هذه الألف ليرة ، اختلف التفسير ، اختلف اختلافا كبيرا جداً .

فهناك من يتهم الإسلام أنه دين الإرهاب ، دين القتل ، هو دين السلام والله ، دين الرحمة ، دين الإنصاف .

لما فتح الفرنجة القدس ذبحوا سبعين ألف إنسان في يومين ، ولما فتحها صلاح الدين ما أراق قطرة دم واحدة ، لذلك قال المؤرخون : " ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب المسلمين " .

أيها الإخوة ، إنسان رأى ليرة ذهبية في الطريق ، فانكب وأخذها ، ووضعها في جيبه ، أيضاً صورناه، سألنا واحد فسر هذه الصورة ـ دقق الآن ـ لو أراد أن يأخذها وقع في سيئة كبيرة ، لو التقطها وأراد أن يبحث عن صاحبها وقع في عمل عظيم .

الصورة نفسها ، والكلام نفسه ، القرآن نفسه ، المحاضرة نفسها ، الخطبة نفسها ، الإلقاء نفسه ، الآيات نفسها ، إنسان يذوب محبة لله عز وجل ، ويندفع لطاعته ، وإنسان لا يرى في الدين شيئاً ، يقول لك : ضبابي ، شعور بالضعف يرافق الإنسان فتدين ، أنت متدين ، لأنك ضعيف ، لأنك فقير ، لأنك خائف ، عندك عقدة .

أساساً المتفلتون إذا رأوا إنسانا متمسكا بدينه يقولون : معقّد ، هذا شيء طبيعي ، الدين واحد ، لذلك الإنسان مخير ، يمكن أن تفهم الدين فهما حضاريا ، أن ترى الدين هو المنهج الوحيد ، الذي يصلح للبشرية ، ويمكن أن تفهم الدين فهم آخر .

أنا قبل يومين ذكرت : أن الزوج إما إنساني متدين ، أو عنصري كيف ؟ إذا توهم أن له ما ليس لزوجته ، مع أن الله عز وجل يقول :

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

[سورة البقرة الآية : 228)

الآن : إذا عامل زوجة ابنه لا كما يتمنى أن تعامل ابنته إذا تزوجت ، فهو عنصري إذا عامل موظفاً عنده في المحل من سن ابنه معاملة لا يرضاها لابنه ، فهو عنصري ، أنت موظف ، فإذا عاملت المراجع الذي أمامك على الطاولة معاملة لا ترضاها لو كنت مكانه فأنت عنصري ، فإما أن تكون

متدينا منصفا ، أو أن تكون عنصريا .

أيها الإخوة ،

(وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

(سورة الأعراف)

هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ

1 – معنى : تَأْوِيلَهُ :

القرآن بين أيدينا ، ماذا ننتظر ، التأويل ، ما التأويل ؟ وقوع الوعد والوعيد .

2 – ماذا ينتظر المؤمن و غيرُ المؤمن ؟

شاب مؤمن مستقيم ، طاهر عفيف ، صادق أمين ، يغض بصره ، هذا ماذا ينتظر من الله ؟ الحياة طيبة .

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل الآية : 97)

ماذا ينتظر هذا الشاب إذا آمن بالله ، واستقام على أمره ؟ ينتظر كل خير ، ينتظر حية طيبة ، فإذا عاش الحياة الطيبة فقد جاء تأويل الآية .

إنسان أعرض عن الله ، أراد المال من أي طريق ، أراد الشهوات ، أراد انتهاك الأعراض ، أراد نهب الثروات ، هذا ماذا ينتظر من الله ؟ التأويل ، وقوع الوعيد ، لذلك قال تعالى :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

(سورة طه الآية : 124)

حينما يعيش معيشة الضنك فقد جاء تأويل الآية ، المرابي أمواله تزداد ، هذا ماذا ينتظر ؟ تأويل آية الربا :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة الآية : 276)

حينما يخسر ماله كله يقول : جاء تأويل الآية ، المتصدق ماذا ينتظر ؟

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ)

(سورة البقرة الآية : 276)

حينما يزداد ماله أتت تأويل الآية ،

(وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

أنت حينما تطبق آية في القرآن يجب أن تنتظر تأويل الآية ، ما هو التأويل ؟ قد يكون في الدنيا .

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة جاثية)

أنت مؤمن لك حياة مستقرة ، لك عند الله طمأنينة ، لك عند الله شعور بالأمن شعور بالسعادة ، توفيق ، رزق حلال وفير ، زوجة صالحة تسرك إن نظرت إليها ، تحفظك إذا غبت عنها ، تطيعها إن أمرتها ، أولاد أبرار ، أنت حينما تستقيم على أمر الله يجب أن تنتظر من الله كل خير ، الدليل :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

(سورة التوبة الآية : 51)

أيها الإخوة ، قضية التأويل رائعة جداً .

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ)

أحياناً تتصدق ، ويأتيك الخير من كل مكان ، وأحياناً يرابي الإنسان فيُمحَق ماله ، إذا ضاعف الله له رزقه يكون قد جاء تأويل الصدقة ، وإذا محق الله ماله فقد جاءه تأويل آية الربا .

3 – لا يستوي المؤمن وغيرُ المؤمن في الدنيا والآخرة :

لذلك هذه الآية أنا أخاطب بها الشباب :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

والله الذي لا إله إلا هو أن يستوي عند الله المحسن والمسيء ، المستقيم والمنحرف ، الصادق والكاذب، الأمين والخائن ، من متع عينيه بمحاسن النساء ، ومن غض بصره ؟ والله أن يستوي هؤلاء مع هؤلاء هذا لا يتناقض مع عدل الله فحسب ، بل مع وجوده ، مستحيل ، اطمئن ، المؤمن واثق من الله عز وجل .

(لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لنا)

أنت تعامل الخالق ، بيده كل شيء ، بيده كل أمرك ، صحتك بيده أهلك بيده ، من حولك بيده ، من دونك بيده ، من فوقك بيده ، قوى الشر بيده ، الأقوياء بيده لذلك قال تعالى :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

أين الثرى من الثريا ؟ هل قطعة لحم مشوية ، وأنت جائع جداً ، كقطعة لحم متفسخة رائحتها على بعد خمسين مترا ؟ تخرج من جلدك منها .

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم)

حينما أقف أمام الحجرة النبوية الشريفة ، السنة أن نقف أمام مقام رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ثم أمام مقام سيدينا الصديق ، أقول : هؤلاء الذين عارضوه ، أين هم ؟ أبو جهل ، في مزبلة التاريخ ، هؤلاء الذين صدقوه ، وقاموا معه ، أين هم ؟ في أعلى عليين ، شيء واضح جداً ، بطولتك أن تكون مع الحق ، أنت تكون في خندق الحق ، وأكبر إنسان أحمق من وضع نفسه في خندق معادٍ للحق .

يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ)

الأصل معرفة الحقيقة قبل الموت :

بعض الأمثلة : لي قريب له قريب مدمن على الدخان ، إلى أن أصيب بسرطان في الرئة ، دخل المستشفى ، فزاره قريبه ، قال له : سوف أحاسب هذه الدخينة حساباً عسيراً ، لكنه خرج من المستشفى ميتاً ، ما تمكن من حاسبها حسابا عسيرا .

أقول لكم وأنا واثق من قولي : ما من إنسان على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة إلا ويعرف الحقيقة عند الموت ، فرعون الذي قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

الذي قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية : 38)

يوم أدركه الغرق قال :

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس الآية : 90)

الآن انتهى التكليف ، الإقرار ما له قيمة ، هؤلاء الذي عارضوا الدين

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ)

أيقنوا .

لذلك مرة واحد مات لدقائق ، تصور تكلم عن شعوره ، وقف قلبه دقائق ، ارتفع إلى السماء ، كان في حادث سير ، ارتفع إلى السماء ، وجاء المنقذون ، وهو يراهم رأي العين ، هذا الإنسان لما تكلم عن الذي حصل له ، وأيقن أنما جاء به الأنبياء هو الصواب ، جاب أنحاء العالم ، وجمع حالات مشابهة ، حوالي 70 حالة من كل البلاد ، من كل الفئات ، من كل الأديان ، حينما يأتي ملَكُ الموت تنكشف الحقيقة التي جاء بها الأنبياء ، الدليل :

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق الآية : 22)

هؤلاء الذين رفضوا ، وكفروا ، وانحرفوا ، وفجروا .

يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء)

من شفعاءُهم ؟ الذين أشركوهم مع الله في الدنيا ، إنسان منحرف الأخلاق له إنسان قوي كان معه يعاونه ، ما له غير القوي ، القوي في جهنم ، أين تريد أن تستخدمه شفيعا ؟ قال :

(مِن شُفَعَاء)

ممكن ؟

فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ

1 – لا ينفع شركاءُ الكافرين يوم القيامة :

(فَيَشْفَعُواْ لَنَا)

الله رد عليهم قال :

(وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ)

يعني وقود جهنم .

(أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ)

(سورة الأنبياء)

أنتم وإياهم ، شفعاءهم الذين علقوا الآمال عليهم معهم في النار .

شيء دقيق ، أصعب شيء في الحياة أن تندم ، والعاقل لا يندم ، أصعب شيء أن تخسر الآخرة ، أن تخسر الحياة الأبدية .

صدقوا أيها الإخوة ، لو كنت في الدنيا في أدنى منزلة ، ضارب آلة كاتبة ، أو كنت حاجبا ، وكنت مؤمناً ومستقيماً فقلامة ظفرك تساوي العالم الغربي كله ، فإذا أقبل الإنسان على الدنيا ، وبنى مجده على أنقاض الآخرين ، بنى حياته على موتهم ، بنى صحته على مرضهم ، بنى غناه على فقرهم ، بنى أمنه على خوفهم ، بنى عزه على ذلهم ، هذا الإنسان حينما يحاسب عن عمله عملاً عملاً سوف يعلم ما ينتظره ، لذلك يترنم الإنسان أحيانا ويقول لك : أنا حجمي المالي كبير ، إذا كان غنيا ، أو أنا مسؤول كبير ، لا يعلم ما مسؤول كبير ، حينما يعلم أبعاد هذه الكلمة ترتعد مفاصله .

يقول سيدنا عمر : << والله لو تعثرت بغلة في العراق ، هو بالمدينة ، بغلة وليس إنسان ، بالعراق لحاسبني الله عنها ، لمَ لم تصلح الطريق لها يا عمر ؟ >> ، هذه هي المسؤولية .

سيدنا عمر بن عبد العزيز دخلت عليه فاطمة بنت عبد الملك فرأته يبكي ، قالت : مالك تبكي ؟ قال : " دعيني وشأني ، فلما ألحت عليه قال : ويحكي يا فاطمة ، إني وليت أمر هذه الأمة ، فرأيت الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والشيخ الكبير ، والأرملة الوحيدة ، وذي العيال الكثير ، والرزق القليل ، والمأسور ، والمظلم ، وابن السبيل ، فعلمت أن الله سيسألني عنهم جميعاً ، وأن خصمي دونهم رسول الله ، فخفت ألا تثبت حجتي فلهذا أبكي " .

سيدنا عمر سأل أحد الولاة ، قال له : << ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب ؟ قال : أقطع يده، هذا الحكم الشرعي ، قال له : إذاً فإن جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك ، قال له : إن الله قد استخلفنا عن خلقه ، لنسد جوعتهم ، ونستر عورتهم ، ونوفر لهم حرفتهم ، فإن وفينا لهم ذلك تقاضيانهم شكرها ، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل ، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً ، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية >> .

2 – خيار الإنسان مع الإيمان خيارُ وقت :

خيارك مع الإيمان خيار وقت ، انتبه ، أنت خيارك مع مليون موضوع خيار قبول أو رفض ، تعرض عليك فتاة كي تتزوجها ، لا تعجبك أخلاقها فترفضها ، يعرض عليك بيت تسكنه ، وهو صغير ، فترفضه ، تجارة ليست رابحة ، ترفضها ، لك بمليون موضوع خيار قبول أو رفض ، إلا مع الإيمان خيارك خيار وقت ، إما أن تؤمن الآن ، أو لا بد من أن تؤمن بعد فوات الأوان ، لأنه أكبر كفار الأرض فرعون الذي قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

والذي قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

والذي قال :

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ)

(سورة الزخرف الآية : 51)

هذا عند الموت قال :

(آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

الإيمان حاصل ، لكن فاتك العمل الصالح ، فاتتك طاعة الله عز وجل ، ولست التوبة حتى إذا :

(أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ)

(سورة النساء الآية : 18)

أيها الإخوة ، يبحثون عن شفعاء ، شفعاءهم في النار ،

(مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّم)

وقود جهنم .

(أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ)

(سورة الأنبياء)

أنتم لها واردون معهم ، كفرد في عصابة وقع في قبضة العدالة ، أراد أن يتصل برئيس العصابة ، فقال له : أنا معك في السجن ، أراد من رئيس العصابة أن يشفع له ، قال له : أنا معك في السجن .

لذلك هؤلاء الذين كفروا ، ورفضوا حينما بحثوا عن شفعاء ليس معهم إلا من أشركوهم مع الله ،

(مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّم)

أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ

طرحوا طرحا آخر :

(أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ)

رد الله عليهم :

(وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

(سورة الأنعام)

يجب أن تخاف بالنص لا بعينك :

الكافر شأنه شأن حسي ، يخاف بعينه فقط ، وكم من إنسان يأتيه العقابُ فيتوب ، وقد حدثني أخ قال لي: والله عقِب زلزال تركيا المساجد في صلاة الظهر ممتلئة ، الصحن ، الطريق ، مضى على الزلزال شهر اطمأن الناس ، بقي صف واحد ، أكثر الناس يخاف بعيونه فقط ، يخاف عند مجيء المرض ، لكن البطولة أن تخاف بالنص ، أن تخاف بالخبر الصادق .

كما أقول دائماً : سافر أحدهم إلى حمص في الشتاء ، وله مبلغ ضخم في حمص ، لوحة فيها خمس كلمات : الطريق إلى حمص مغلق بسبب تراكم الثلوج في النبك ، يرجع ، حكمه النص ، أما الدابة فيحكمها الثلج ، تسير حتى الثلج ، فإذا حكمك النص فأنت عاقل ، أما إذا حكم الإنسان الواقع فهو دابة .

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ

نقطة ثانية :

(وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ)

أن الدين حالة من حالات ، كما يقول مَن افترى على الدين ، الدين أحكامه جيدة وقتَها ، هو لمجتمع الصحراء ، أما الآن فلا يصلح ، هذا افترى ، اتهم الدين باتهامات غير صالحة ، حاول أن يبحث عن نقائص الدعاة إلى الله ، اختراعها اختراعا حتى يصرف نفسه عنهم ، وحتى يصرف الناس عنهم ، فكل شيء افتراه ، كل شيء تصوره ، كل شيء اتهم به الدين :

(وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ)

توهم أن الأستاذ بهدية ثمينة قبل الفحص يعطيه الأسئلة ، ما درس ، ارتاح ، قضى الوقت كله في الملاهي ، ومع أصدقائه في اللعب ، قبل الفحص بيومين ، طرق باب الأستاذ ، طلب منه الأسئلة ، ومعه هدية ، فدفعه صفعتين ، كل شيء خطط له انتهى ، أستاذ نزيه لا يعطي الأسئلة .

(وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ)

لا شركاء يشفع لهم ، وأفكارهم التي اخترعوها ، وافتروا بها على الدين أصبحت غير صحيحة ، وقد لقوا مصيرهم المشئوم .

(وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ {28})

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(22-60): تفسير الآية 54 ، تبارك الله أحسن الخالقين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-07-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثاني والعشرين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الرابعة والخمسين ، وهي قوله تعالى :

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ

1 – لا خلاف بين ا لناس في ربوبيةِ الله :

أيها الإخوة الكرام ، في عالم الإيمان هناك ربوبية ، أي أن الله خلق وأمد ، خلقنا وأمدنا بكل ما نحتاج، هذا مفهوم الألوهية ، ولكن حينما يكلفنا أن نعبده هذا مقام الألوهية مقام الربوبية شيء ، ومقام الألوهية شيء آخر ، لا أحد في الأرض ينكر مقام الربوبية ، والدليل :

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)

(سورة لقمان الآية : 25)

كافر ، مؤمن ، وثني ، عبّاد الأوثان ، يقرّون أن الله خلق السماوات والأرض ، وهم يعترفون بأنهم ما يعبدون الأصنام إلا ليقربوهم إلى الله زلفى ، فحول مقام الربوبية لا خلاف ، لأن أصل مقام الربوبية ، العطاء ، فهو خلقني ، ومنحنا نعمة الإيجاد ، ومنحنا نعمة الإيجاد ، ومنحنا نعمة الإمداد ، هذا أصل مقام الربوبية ، فلا أحد في الأرض إلا ويعترف أن له رباً خلقه ، وأمده ، لكن حينما أمره ألا يكذب ، ألا يسرق ، ألا يقتل ، هنا الخلاف ، مقام الإلوهية يقتضي افعل ولا تفعل ، يقتضي الطاعة ، والإنسان يميل إلى أن يعيش من دون قيد أو شرط :

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً)

(سورة الرعد الآية : 43)

إنكار الرسالة ، إنكار المنهج ، إنكار الأمر ، إنكار النهي هو موضوع الخلاف ، مقام الربوبية لا خلاف فيه بين كل البشر ، لكن مقام الإلوهية ، مقام الأمر ، والنهي والرسالات ، والحرام ، والحلال ،

والوعد ، والوعيد ، هنا المشكلة .

أيها الإخوة ، من البديهيات أن أحداً في الكون لم يدع أنه خلق السماوات والأرض ، لكن مناهج الأرض تتناقض مع مناهج السماء .

(كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

(سورة المؤمنون)

إنسان يعبد شمساً ، أو قمراً ، أو حجراً ، أو مدراً ، أو بقراً ، أو موجاً ، فالعبادات لأنه التدين حاجة فطرية ، السبب ، أن الإنسان خلق ضعيفاً يحتاج إلى حجة قوية يحتمي بها تدعمه ، يلجا إليها ، يستعين بها ، تطمئنه ، حتى الذين اتبعوا الديانات الأرضية الوثنية هم يلبّون حاجة عندهم فطرية ، وهي الحاجة إلى قوي .

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

(سورة النساء)

خلق ضعيفاً ، إذاً : هو بحاجة إلى قوي ، لذلك لم يدّعِ أحد أنه خلق السماوات والأرض ، ولكن أعداداً لا تحصى ادّعت أنها مشرعة ، والإنسان إذا شرع أولاً فإنّ عِلمه قاصر ، فإن كان موضوعياً تجلب نفسه لذاتها الخير ، وتبعد عنها المحاسبة ، فالإنسان ليس مشرعًا .

فلذلك أيها الإخوة ، كأن الله سبحانه وتعالى يقول :

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)

نفسه للتقريب :

تقول الأم لابنها : يا بني ، لا تتأخر عن الساعة التاسعة ، فإنّ أباك يغضب أشد الغضب إذا تأخرت ، أليس ينفق عليك ؟ أليس يؤويك ؟ أليس يكرمك ؟.

2 – العلاقة بين الربوبية والألوهية :

هنا ربط بين مقام الربوبية ومقام الألوهية ، ينبغي أن تطيع الذي خلقك ، الذي منحك نعمة الإيجاد ، الذي منحك نعمة الإمداد ، الذي منحك نعمة الهدى والرشاد ، ينبغي أن تطيعه .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة الآية : 21)

عندنا مقام الربوبية لا خلاف فيه ، مقام الإلوهية هنا الخلاف متعلق بالضبط والتكليف ، وافعل ولا تفعل ، والأمر ، والنهي ، والحلال ، والحرام ، والوعد ، والوعيد .

الآن الآية الكريمة في البقرة :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

يعني ينبغي أن تطيع الذي منحك نعمة الإيجاد ، فلذلك قبول التكاليف يتناسب مع فضل الله عليك ، من هي الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تطيعها ؟ إنها الجهة التي منحتك الوجود ، منحتك السمع والبصر ، منحتك الشعور ، منحتك العقل ، منحتك الزوجة والأولاد ، منحتك مباهج الدنيا .

قبل هذه الآيات فصل الله كثيراً في خلق الإنسان ، الآن يفصل الله في خلق السماوات والأرض ، الظرف الذي يوجد فيه الإنسان ، تصور إنسانا تزوج ، اشترى بيتا ، وأثث البيت ، وهيأ كل ما يحتاج فيه ، فهذا البيت بغرفة ، بغرفة النوم ، بغرفة الاستقبال ، بغرفة الجلوس ، بمرافقه ، هذا ظرف وجود الزوجين . فالله عز وجل في آيات سابقة فسر في خلق الإنسان ، والآن يفصّل في خلق الأكوان .

الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ

لذلك :

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)

1 – معنى السماء :

السماء ؛ كل ما علاك فهو سماء ، وكل ما أقلك فهو أرض ، لكن الذي يلفت النظر أن الله ذكر السماء بالجمع ، والأرض مفردا ، لكن في آية يقول :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ)

(سورة الطلاق الآية : 12)

وجمع أرض أراضين ، ولكن كلمة أراضين ثقيلة على اللسان ، فجاءت السماوات جمعاً ، وجاءت الأرض فرداً ، لكن هذا لا يمنع أن يكون هناك سماوات لا تعد ولا تحصى ، لأن كلمة سبع سماوات السبع في اللغة لا تعني الكم تعني التكثير ، والأراضين لا الكم تعني التكثير .

2 – سقوط نظرية التطور لداروين :

الآن الإنسان لرعونته ، وجهله تصور بداية العالم ، فقال أناس : الكائنات الحية بدأت بمخلوق وحيد الخلية ، هذا المخلوق تطور ، وتطور ، وتطور ، من البر إلى البحر ، ثم إلى البر ، ثم أصبح قرداً ، ثم أصبح إنساناً ، هذه نظرية داروين ، وكل جهة تتصور بداية العالم ، لكن الله عز وجل ينفي كل هذه

التصورات فقال :

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الكهف الآية : 51)

للتقريب : اشترى أحدهم محلا بأحد أسواق دمشق ، بعدما اشتراه بعشرين سنة تزوج ، وأنجب ولدا ، وكبر الولد ، وجالس الابن مع أبيه في سهرة ، قال : أنا اشتريت محلا في زماني فرضاً بخمسة آلاف ليرة ، قال له ابنه : غلط يا أبي ، أنت أخذته بعشرة ، نظر إليه وقال له : أنت كنت معي وقتها ؟ أنت كنت ؟

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)
(وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ)

(سورة الكهف الآية : 51)

هذا التنطع ، هذه الرعونة في الفهم .

كتعليق : لا تفاجؤون به أنني أيقنت أخيراً بنظرية داروين ، لكنها معكوسة ، كان إنسان فأصبح قرداً ، يعني مسخ الإنسان قرداً مسخ قرداً وخنزيراً ، القرد يعبد شهوة البطن ، والخنزير يعبد شهوة الفرج ، إذا شهوة البطن استغرقت الإنسان فهو قرد ، وإذا شهوة الفرج استغرقت الإنسان فهو خنزير .

لذلك حينما ورد في بعض الآيات أن هؤلاء مسخوا قردة وخنازير أنا أتصور أنهم بقوا على شكل البشر ، لكن عبدوا شهواتهم من دون الله ، يؤكد هذا المعنى قول النبي الكريم :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ))

[رواه البخاري وابن ماجه]

تعس عبد البطن ، تعس عبد الفرج .

خلقُ البشرية بدأ بآدم عليه السلام :

أيها الإخوة ، إذاً : يجب أن تلقى عن الله شرح بداية الخلق ، من سيدنا آدم بدأت البشرية بنبي عظيم .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ ، وَلَا فَخْرَ ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي ...))

[أخرجه الترمذي]

البشرية بدأت بنبي كريم ، وأم كريمة ، آدم وحواء .

صدقوا أيها الإخوة ، أن نظرية داروين ساقطة كلياً ، ليس عند المسلمين ، بل عند أنصار هذه النظرية، لأن داروين نفسه تنبأ أنها غير صحيحة ، قال : إن لم يثبت العلم غير ذلك فإنها باطلة ، والعلم نقض كل ما جاء به داروين ، أما العجب العجيب فهو تمسك العالم كله بهذه النظرية ، لا لأنها صحيحة، لكن لأنها مريحة ، ما مِ، إله ، ولا مسؤولية ، ولا وعد ، ولا في وعيد .

أقص عليكم هذه القصة : يريد إنسان أن يشتري مركبة ، ولم يشترِ ، وإنسان يريد أن يشتري فاشترى، نحن أمام اثنين ، واحد اشترى ، والثاني لم يشترِ ، سَرَت إشاعة أن هناك تخفيضًا في الرسوم 50 % الذي لم يشترِ يصدق هذه الإشاعة من دون دليل ، من دون تحقيق من دون بحث ، ومن دون درس ، لأن هذه الإشاعة مريحة له ، والذي اشترى ، وتورط يكذب هذه الإشاعة ، من دون بحث ، ومن دون دليل ، ومن دون درس ، لأن تكذيبها مريح له .

فالإنسان أحياناً بعقله الباطن يعتقد بأشياء غير صحيحة ، لأنها مريحة ، ويرفض أشياء صحيحة لأنها متعبة ، ومكلفة ، وسوف يحاسب عليها .

لذلك يجب أن نأخذ عن الله بداية الخلق .

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ)

إذاً أيها الإخوة ، طرأ على هذا الكون بقواه ونواميسه ، الكون أولاً ، والإنسان ثانياً ، الله خلق الأرض، وهيأها لخليفته في الأرض .

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة الآية : 30)

معنى : خَلَقَ

ما معنى خلق ؟ خلق ؛ يعني خلق مخلوقاً كان معدوماً .

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

(سورة الإنسان)

خلق مخلوقاً كان معدوماً ، وبرأه على غير مثال سابق ، هذا هو الخلق ، فإذا قلنا : الله خالق السماوات والأرض ، أي كان الله ولم يكن معه شيء ، خلق السماوات والأرض بعد أن كان الكون معدوماً وبرأه، وصوره على غير مثال سابق ، أما الإنسان فقد سمح الله لذاته العلية ، وهو الخالق أن يوازن ذاته العلية مع صفة للمخلوق أن يتصف بها ، قال :

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

(سورة المؤمنين)

تسمية الإنسان خالقا مجازاً :

الذي يصنع هذا الكأس من رمل له وسائل ، له معامل ، الله عز وجل سمح للإنسان إذا صنع شيئاً لم يكن من قبل ، أن يسميه خالقاً ، وسمح لذاته العلية أن يوازنها مع مخلوقاته ، فقال :

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

الكُلية بحجم البيضة ، فيها طريق طوله 100 كم ، يمر الدم به في اليوم خمس مرات بلا صوت ، بلا نفقة ، بلا إزعاج ، بلا تعطيل ، أما الكُلية التي صنعها الإنسان بحجم نصف الطاولة ، يجب أن تستلقي على السرير ستة ساعات في الأسبوع ثلاث مرات ، حتى تصفي هذه الكلية الصناعية دم الإنسان ، شتان بين كلية طبيعية ، فيها عشر احتياطات لحاجة الإنسان وبين كلية صناعية ، شتان بين العين ، الذي فيها بالميل متر مربع مئة مليون مستقبل ضوئي بينما في أعلى آلة تصوير احترافية رقمية في عشرة آلاف ، الله سمح لنا أن نوازن بين صنعته وصنعة البشر ، حينما قال :

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

أيها الإخوة ، وردة طبيعية ، ووردة صناعية ، المسافة كبيرة جداً ، لا يوازن بينهما ، وردة طبيعية ، ووردة صناعية ، امرأة في أحسن تقويم ، وإنسان امرأة في محل لبيع الألبسة ، هل توازن هذه بتلك ؟ هذه كائن مخلوق ، له فكر ، له إحساس ، له مشاعر ، في حياة ، في إشراق ، وتلك جماد ، حينما قال الله عز وجل :

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

أي سمح لذاته العلية أن يطلق على صنعة الإنسان أنه خالق .

الفرق بين خلق الله ونسبة الخلق للعبد :

لكن الفرق بينهما : أن الله جل جلاله خلق شيئاً كان معدوماً ، خلق كل شيء من لا شيء ، وعلى غير مثال سابق ، الإنسان خلق شيئاً من كل شيء ، وعلى مثال سابق ، هذا الفرق ، الله عز وجل خلق كل شيء من لا شيء ، وعلى غير مثال سابق ، بينما الإنسان إذا سميناه مجازاً خالق صنع شيئاً من كل شيء ، وعلى مثال سابق ، فالغواصة تقليد للسمكة ، والطائرة تقليد للطير ، والذي اخترع العجلة تقليد لشجرة تنحدر في واد ، ما من شيء اخترعه الإنسان إلا وهو على مثال سابق ، حتى لو تخيل الإنسان مخلوقات بالمريخ تصور كالإنسان ، مع تعديلات طفيفة ، ما في عند الإنسان شيء إلا يبني عليه من شيء آخر .

إذاً : الله عز وجل يخلق كل شيء من لا شيء ، وعلى غير مثال سابق ، والإنسان يصنع شيئاً من كل شيء ، ووفق مثال سابق .

حينما صنع الإنسان هذا الكأس ما كان بإمكانه أن يصنع كأسا ذكرا وكأسا أنثى ، وبعد فترة يأتينا مليون كأس من هذين الكأسين ، الكأس كما هو يبقى مئة سنة كما هو ، أما الله عز وجل فجعل الذكر والأنثى .

(وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ)

(سورة الذاريات الآية : 49)

تصور أنه الله عز وجل خلق كميات كبيرة جداً من الفواكه ، والثمار ، والمحاصيل ، والبشر أكلوها وانتهوا ، وماتوا ، من صمم نظام البذور ؟ تأكل تينة كم بذرة فيها ؟ فيها ملايين ، وكل بذرة شجرة ، تأكل خيارة ، كم بذرة ؟ فيها كل بذرة شجرة ، نظام البذور نظام التلقيح ، نظام الزوجية ، دقق ، الفرق بين إنسان صنع كأسا ، والله عز وجل خلق إنسان ذكرا ، وخلقه أنثى ، وأودع في قلب الرجل حب المرأة ، وأودع في قلب المرأة حب الرجل ، وصار بينهما زواج وإنجاب .

فلذلك لو ذهبت تفكر في صنعة الله الواحد الديان ، وبين صنعة الإنسان تجد فروقاً تفوق حد الخيال .

أيها الإخوة ،

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)

السماء كل ما علاك فهو سماء .

أحياناً ينظر الإنسان إلى الكرة الأرضية ، يجد أستراليا هنا ، فإذا سافرت إلى أستراليا ، ترى السماء تحت ؟ انظر إلى الكرة الأرضية مجسمة تجد أستراليا هنا ، الاتجاه نحو الأسفل ، أنا سافرت لأستراليا السماء نحو الأعلى ، ما هي السماء ؟ العلماء قالوا : كل ما علاك فهو سماء ، السماء الجهة المناقضة لمركز الأرض ، وكل ما كان مركز باتجاه الأرض فهو أرض ، الأرض ما كان باتجاه مركز الأرض، والسماء ما كان مناقضاً لمركز الأرض .

أيها الإخوة ، قال بعض العلماء : في كل مجرة مليون مجموعة شمسية ، المجموعة الشمسية التي نحن فيها قطرها الأطول الأكبر 13 ساعة ، بين الأرض والشمس 8 دقائق ، بين الأرض والقمر ثانية واحدة ، ونجوم بُعدها عنا مليار سنة ضوئية ، المجموعة الشمسية كلها 13 ساعة ، عرضها ثلاث ساعات ، الأرض والقمر ثانية ضوئية الأرض ، والشمس 8 دقائق ، أما المجموعة الشمسية فكلها على درب التبانة نقطة ، فكل مجرة فيها مليون مجموعة شمسية ، وبكل مجموعة شمسية فيها أرض ، كوكب منطفئ ، يتلقى نوره من كوكب ملتهب .

لو أن العلوم في المستقبل كشفت أن هناك كائنات حية على كواكب أخرى شيء طبيعي جداً ، لأن الله سبحانه وتعالى قال :

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ)

(سورة الشورى الآية : 29)

إذاً كل ما علاك فهو سماء ، وكل ما أقلك فهو أرض .

فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

هل تصدقون أيها الإخوة أن كلمة يوم وردت في القرآن الكريم 365 مرة ، بعدد أيام العام ، وهذا من الإحكام الحسابي ، وعندنا آية في القرآن الكريم تفصيلية لخلق السماوات والأرض ، وعندنا سبع آيات إجمالية ، الآيات التي وردت فيها أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثماني آيات ، لكن واحدة من هذه الآيات فيها تفصيل :

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

(سور فصلت)

بحسب الآية 8 أيام ، يومين بأربعة ، بيومين ، لكن في بحث طويل أن هناك يومين مشتركين ، بين خلق السماوات وخلق الأرض ، فهذا التفصيل ينتهي إلى ستة أيام أيضاً .

لذلك أيها الإخوة ، خلق الأرض وما فيها في أربعة أيام ، وخلق السماوات في يومين ، وفي الأخير خلق السماوات والأرض في يومين ، فاليومان مشتركان في الآيتين ، إذاً : أربعة باثنين ستة .

هناك تعليقات وخواطر إيمانية : أن اليوم هو الدور ، لأن الشمس خلقت بعد خلق السماوات والأرض ، الشمس في دورة الأرض حول الشمس يتحدد الليل والنهار ، والفصول الأربعة ، في دورة الأرض حول نفسها ليل ونهار ، وفي دورتها حول الشمس الفصول الأربعة ، كأن الفصول أحد أسباب أقوات الأرض ، تبدل الفصول من شتاء ماطر ، إلى ربيع مزهر ، إلى صيف تنضج به المحاصيل ، إلى خريف تسقط به الأوراق ، وكأن اليومين الليل والنهار ، وعندنا اليوم هو الدور ، الليل والنهار ، والفصول الأربعة ، أو أن الله خلق الأرض في أطوار ، وفي أدوار ، وفي مراحل لحكمة باللغةٍ بالغة .

الآن أيها الإخوة ،

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

ستة أيام ، أنت لما تريد أن تصنع لبنا رائبا ، تسكب الحليب المغلي في أوعية ، تضع في كل وعاء شيئًا من اللبن ، وانتهى الأمر ، بعد عشر ساعات ينقلب هذا الحليب لبناً رائباً :

(سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ)

(سورة النحل)

العملية تمت بوقت قصير ، أما نضج وتحول الحليب إلى لبن تم بوقت طويل ، فمعنى ذلك الله عز وجل :

(إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس)

أما نظام السببية والغائية فيحتاج إلى وقت ، الله عز وجل

(كُنْ فَيَكُونُ)

وانتهى كل شيء ، لكن لو أن إنسانا أراد أن يشيد بناء ، والأموال كلها جاهزة ، هل يقدر إنسان بثانية يصنع بناء ؟ لا يقدر ، هناك مدة الحفر ، ومدة صب الإسمنت ، ومدة جفاف الإسمنت ، طبيعة خلق الدنيا فيها أسباب ، وفيها أزمنة ، لذلك اعتبر الزمن البعد الرابع للأشياء ، للتقريب :

في صنعة المخلوق لابد من عامل الزمن :

سأل أحدهم : كم يحتاج البناء إلى عامل ؟ قال له: مئة عامل ، متى ينتهي ؟ بعد ستة أشهر ، نأتي بمئتين ، معناها ثلاث أشهر ، نأتي بأربعمئة ، معناها شهر ونصفق ، نأتي بثمانمئة معناها عشرين يوما، نأتي بألف وستمئة معناها عشرة أيام ، نأتي بثلاثة آلاف وستمئة معناها خمسة أيام ، هل معقول أن تمشي بهذه السلسلة ؟ مستحيل ، لا بد من وقت لحفر الأرض ، لا بد من وقت لصب الإسمنت ، لا بد من وثقت لجفاف الإسمنت ، في صنعة الإنسان لا بد من الوقت ، وقت المعالجة ، أما عند الواحد الديان فإنه

(كُنْ فَيَكُونُ)

فالله عز وجل خلق الأرض على نواميس ، وجعل لكل شيء وقتا ، فلكل شيء زمن نضج ، أنت مضطر إلى كمية للمحاصيل ، هل هناك الآن طريقة بعد ساعة تقطف فيها الثمار ؟ لا ، بل لا بد من خمسة أشهر حتى ينبت الحب ، فتصميم الله للأرض والخلق كل شيء له زمن .

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ

إذاً : لما يقول الله :

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

فليس معنى ذلك أن معالجة الله للخلق كالإنسان ، لا ، الله :

(كُنْ فَيَكُونُ)

خلق ، لكنه جعل أنظمة تحتاج إلى وقت ، الفكرة دقيقة جداً ، عند الله ليس هناك معالجة ،

(كُنْ فَيَكُونُ)

إنسان وضع كمية لبن بأوعية الحليب ، فقط ، أما نظام البكتريا ، ونظام التخمر يحتاج إلى عشر ساعات حتى ينقلب هذا الحليب إلى لبن ، فإذا قلنا :

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

ليس معنى ذلك أن الله يعالج خلقه كما يعالج الإنسان صنعته ، لا .

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)

(سورة الشورى الآية : 11)

وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ، الدليل أن الله عز وجل قال :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ)

(سورة ق)

ما مسنا من تعب ، الله ما عنده معالجة ،

(كُنْ فَيَكُونُ)

أما الإنسان لو أراد أن يصل إلى حَلَب يحتاج خمس ساعات ، بالطائرة ساعة ، لا بد في وقت ، الوقت هو البعد الرابع للأشياء ، لكن الله عز وجل أراد أن يعلمنا ، فجعل لكل شيء قدرًا ، ولكل شيء وقتا ، ولكل شيء فترة ، فيا أيها الإنسان لا تستعجل .

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

معنى استوى على العرش أي تم كل شيء ، الإمام مالك سئل : ما الاستواء ؟ قال : " الاستواء معلوم ، و الكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة " . نحن غير مسموح لنا أبداً أن نتفكر في الله .

((تفكروا في مخلوقات الله ، ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا))

[أخرجه برموز السيوطي ، أبو الشيخ عن ابن عباس]

مسموح لنا أن نتفكر في مخلوقات الله لا في ذات الله عز وجل .

لذلك الآيات القليلة جداً المتعلقة بذات الله أكمل موقف منها أن تفوض معناها إلى الله .

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح الآية : 10)

أنا يا رب أفوضك بمعنى أن يدك فوق أيديهم .

(وَجَاءَ رَبُّكَ)

(سورة الفجر الآية : 22)

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

(سورة الرحمن)

أيها الإخوة ، الآيات القليلة التي تتحدث عن ذات الله أكمل موقف في تفسيرها التفويض ، وقد يليه التأويل ، يد الله قدرته ،

(وَجَاءَ رَبُّكَ)

جاء أمره .

(سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

(سورة الحج)

أي عليم بكل شيء ، أما التجسيد فعقيدة فاسدة ، والتعطيل عقيدة فاسدة ، أربع كلمات ، تفويض وتأويل مقبولان ، أما التجسيد والتعطيل فمرفوضان .

(اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

المعنى المألوف ،

(قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ)

العرش سرير الملك ، أما العرش الذي أراده الله في هذه الآية الله أعلم به ، لعله الكون بأكمله ، كان الله ولم يكن معه شيء ، فخلق الخلق ، لعل العرش تمام التمكن ، تمام كل شيء ، لذلك جاء خلق السماوات والأرض في ستة أيام ليعلمنا الله الصبر .

مرة هارون الرشيد رأى سحابة فقال : " اذهبي أين ما شئت فإنه يأتني خراجك " .

وأنا أقول : أي إنسان شرد عن الله سوف تعود إلى الدين عاجلاً أو آجلاً ، فلا تكن عجولا ، استخدم أسلوب النفَس الطويل ، الله عز وجل علمنا درساً لا ينسى ، أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام لا عن عجز ، ولا عن تعب ، ولا عن لغوب ، ولكن ليعلمنا أن لكل شيء قدر .

أيها الإخوة ،

(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ)

الإنسان مكلف أن يعبده ، مكلف بالعمل ، العمل حركة ، والحركة تحتاج إلى جهد ، وبذل الجهد يحتاج إلى راحة ، لذلك الله خلق الليل والنهار ، جعل النهار معاشاً ، وقت حركة وعمل وكسب ، وجعل الليل لباساً ، وقت راحة واسترخاء ، ولكن البشر عكسوا الآية ، جعلوا النهار للنوم ، والليل للعمل ، هذه من مفارقات الحياة .

(يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ)

ما مِن شكل يتداخل فيه الليل والنهار إلا الكرة ، لو كانت مكعبا الضوء يأتي فجأة ، أي شكل هندسي حروف ، الضوء يأتي فجأة ، والظلام يأتي فجأة إلا الكرة ، الكرة تدور أمام منبع ضوئي ، ففي منطقة بالكرة فيها تداخل الليل والنهار ، الآن نحن في ليل ، وفي النهار نهار ، لكن بين الفجر وطلوع الشمس منطقة تداخل ، وبين المغرب والعشاء منطقة تداخل ، هذا معنى :

(يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ)

الليل للراحة ، والنهار للعمل ، ثم إنّ النهار يتناسب مع طاقة الإنسان ، لو كان النهار سنة ، والليل سنة، تعمل وتنام ، تعمل وتنام ، كل واحد يعمل بوقت ، لا أحد ينام ، أما :

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً)

(سورة النبأ)

والآية الكريمة :

(وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

(سورة القصص)

والليل والنهار في قوله تعالى :

(يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ)

دليل على كروية الأرض .

(يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ

ليس السببُ خالقًا للنتيجة :

خلق ، لكن أمر الخلق بيد الله ، جعل لكل نتيجة سبب ، ولكن الله في أية لحظة من قدرته أن يعطل الأسباب ، أن يخلق نتائج بلا أسباب ، أو أن توجد الأسباب ولا نتائج .

يمكن أن يأتي السيد المسيح من دون أب ، ألغي السبب ، ويمكن أن يكون شابان زوج وزوجة في ريعان الشباب ولا ينجبان ، شاب وشابة لا ينجبان ، ونبي كريم يأتي من دون أب ، معنى ؛

(أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

إياك أن تتوهم أن السبب خالق النتيجة ، السبب يأتي قبل النتيجة ، بأي لحظة الله يعطل الأسباب ، وأن يخلق نتائج بلا أسباب ، فالأمر بيد الله عز وجل .

(تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ {54})

تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ

والله عز وجل سمح لذاته العلية أن يوازنها مع مخلوقاته ، قال :

(تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

وقال :

(وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)

(سورة الأنعام)

الآية إذاً :

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

الطائرة بيعت من دولة إلى دولة ، الدولة التي اشترت الطائرة تستخدمها كما تشاء ، تقصف ، تهدم بها منازل ، تشن غارات ، الشركة الصانعة انتهت مسؤوليتها ، هذا في عالم الأرض ، أما الله عز وجل فأيّ شيء خلقه بيده .

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

أمام الشبكية لكل نتيجة سبب ، لكن في الحقيقة السبب لا يخلق النتيجة ، ولكن يأتي قبلها ، لأن الله في أية لحظة يعطل السبب ، ألقي إبراهيم عليه السلام في النار ، النار تُحرق ، والله تعالى عطّلها .

(يَا نَارُ كُونِي بَرْداً)

لو ما قال :

(وَسَلَاماً)

(سورة الأنبياء الآية : 69)

لمات من البرد ، لو ما قال :

(عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء)

لانتهى مفعول النار إلى الأبد

(يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

خاتمة :

في الأخير :

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

بلا تعب ،

(وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ)

(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

تبارك عطاءه ، وتبارك خيره ، وتبارك فضله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(23-60): تفسير الآيتان 55 - 56 ، الدعاء وطريقة المناجاة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-08-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثالث والعشرين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الخامسة والخمسين ، وهي قوله تعالى :

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

الدعاء :

1 – الدعاءُ عبادة :

(ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ)

أيها الإخوة ، النبي عليه الصلاة والسلام في حديث صحيح قال :

((العبادة هي الدعاء))

((والدعاء مخ العبادة))

[أخرجه الترمذي عن أنس]

والدعاء هو العبادة ، على اختلاف الروايات .

2 – لماذا كان الدعاء عبادة ؟

أيها الإخوة ، لماذا الدعاء عبادة ؟ لأن الإنسان بفطرته لا يدعو جهة لا يؤمن بوجودها ، فلا أحد يدخل إلى بيت فارغ ، ويخاطب جهة ليست موجودة ، يتهم بعقله ، أنت لا تدعو جهة لا تؤمن بوجودها ، وأنت لا تدعو جهة لا تسمعك ، وأنت لا تدعو جهة ليست قادرة على تحقيق ما تطلب منها ، وأنت لا تدعو جهة تسمعك وقادرة ، ولكنها لا تريد أن ترحمك ، لا تدعوها ، أعدائك ، لمجرد أن تدعو الله عز وجل حكماً أنت مؤمن بوجوده ، ومؤمن بأنه يسمعك ، ومؤمن أنه قادر على أن يلبيك ، ومؤمن بأنه

يحب أن يلبيك ، خلقك ليرحمك .

لذلك يقول الله عز وجل :

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ)

(سورة الفرقان الآية : 77)

علامة المؤمن أنه يدعو الله عز وجل .

3 – ضعفُ الإنسان يضطره إلى الدعاء :

لكن هناك تمهيد لا بد منه ، أراد الله عز وجل لحكمة بالغة بالغةٍ بالغة ، أن يكون الإنسان ضعيفا .

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

(سورة النساء)

هذا ضعف في أصل خلقه ، والإنسان كما قال تعالى :

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً *إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً* إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج)

لماذا خلقه الله هلوعاً ، جزوعاً ، منوعاً ، ضعيفاً ؟ لأنه لو خلقه قوياً لاستغنى بقوته عن الله عز وجل ، فشقي باستغنائه ، خلقه ضعيفاً ليفتقر بضعفه فيسعد بافتقاره ، خلقنا ضعفاء ، وساق لنا بعض المصائب كي نتعرف إليه ، ونتصل به ، ونسعد بقربه ، ونذوق طعم القرب منه .

4 – علة الدعاء الاتصالُ بالله :

هذه النقطة دقيقة جداً ، علة الدعاء أن تتصل به ، هناك نخبة من البشر يتصلون بالله عز وجل من دون مشكلة ، من دون مصيبة ، من دون ابتلاء ، هؤلاء الأنبياء والمرسلون ، وكبار العلماء ، الصدقون ، الصحابة الكرام ، لكن عامة المسلمين يحتاجون إلى بواعث ، إلى دوافع ، إلى محفزات ، أحياناً يضعف الإنسان أمام مشكلة ، ليس له إلا الله ، يدعو الله عز وجل فيستجيب له ، فتزداد عقيدته بالله ، يدعو الله فيستجيب له ، ويذوق طعم القرب منه ، فيلزم هذا الباب ، فكم مِن مشكلة سببت قرباً من الله ، وكم من مشكلة سببت عودة إليه ؟ وكم من مشكلة سببت قرباً منه ، كم من مشكلة سببت أن الإنسان بعد أن يعرف الله يزهد فيما سواه .

هناك قصة رمزية يرويها بعض العلماء : أن شاباً أحب فتاةً وخطبها ، اشترط عليه والدها ، وهو له عمل في الدعوة أن يلزم دروسه ، فلما لزم دروسه ذاق طعم القرب ، وشعر بسعادة الإيمان ، فنسي المخطوبة ، فبعثت له برسالة :

أين أنت ؟ قال : يا وصال كنت سبب الاتصال .

أحيانا تأتي مشكلة خلاصك فيها ، ساق الله لك مشكلة ، وأنت ضعيف ، أنت في الأساس ضعيف ،

(وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا)

هذا الضعف في أصل ضعفه ، لمصلحته ليلتجأ إلى ربه .

حينما تصيب الإنسان مشكلة ، ويرى الأبواب كلها مغلقة ، لكن باب السماء مفتوح ، يتوجه إلى الله .

لذلك ورد في بعض الأحاديث الصحيحة :

((ينْزلُ رَبّنَا كُلّ لَيْلَةٍ إلى السّمَاءِ الدّنْيَا حَتّى يَبْقى ثُلُثُ اللّيْلِ الآخر ، فيَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فأسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْألُنِي فأعْطِيَهُ ؟ وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فأغْفِرَ لَه ؟ حتى ينفجر الفجر))

[مسلم عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

القصد من الدعاء الحقيقي أن تتصل بالله ، وأن تذوق طعم القرب منه ، وأن ترى ألوهيته ، الأمر كله بيده .

5 – الدعاء يقوي العقيدة :

أجمل كلمة قرأتها عن الدعاء أنه يقوي العقيدة ، أنت ضعيف ، والأمور صعبة جداً ، وهناك مشكلة كبيرة جداً لا تحل ، قمت في الليل ، وركعت ركعتين ، وتوجهت إلى الله عز وجل ، وقلت : يا رب ، ليس لي سواك ، في اليوم التالي شعرتَ بتبدل جذري ، الذي كان مصراً على منعك تساهل معك ، ما الذي حصل ؟ تشعر أن الله بيده كل شيء ، تشعر بيده مَن هم دونك ، مَن هم فوقك ، بيده الأقوياء ، بيده الجبابرة .

سيدنا موسى لمَ لم يقتله فرعون ؟ لمَ هابه ، وأجرى معه مناظرة ؟ وجاء بالسحرة ، الأمر بيد الله عز وجل .

(قالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

(سورة طه)

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء)

يا رسول الله ، لقد رأونا ، في الغار ، قال له :

((يَا أبَا بَكْرٍ مَا ظَنّكَ باثْنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا ؟))

[متفق عليه]

أنا الذي أراه ، وأرجو أن أكون على صواب : أن الهدف من الدعاء أن تتصل بالله ، المشكلة التي ساقها الله إليك باعث ، سبب ، وسيلة ، أما الهدف فأن تقترب منه ، أن تدعوه ، فإن دعوته أجابك ، وإن استغفرته غفر لك ، وإن تبت إليه قبلك ، وإن تضاءلت أمامه رفعك .

لذلك أيها الإخوة ، الإنسان خُلق ضعيفاً ليفتقر بضعفه ، فيسعد بافتقاره ، ولو خُلق قوياً لاستغنى بقوته، فشقي باستغنائه ، خُلق ضعيفاً ليفتقر بضعفه ، فيسعد بافتقاره ، ولم يُخلق قوياً لئلا يستغني عن الله بقوته، فيشقى باستغنائه ،

(وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا)

لذلك الباعث الديني من ضعف الإنسان ، حتى الذين آمنوا بآلهة ما أنزل الله بها من سلطان ، الآلهة الذين اخترعها الناس ، هم يلبون حاجة عندهم ، حاجة الضعف عندهم ، الإنسان ضعيف ، يخاف من مرض عضال ، يخاف من فقر ، يخاف من مشكلة في بيته ، يخاف من علاقة سيئة مع زوجته ، يخاف من علاقة سيئة في عمله ،

(وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا)

هو ضعيف ليقوى بالله ، فقير ليغتني بالله ، جاهل ليستنير بنور الله ، هذه علة الدعاء أن تتصل به .

المثل الواضح : أب عنده ابن ، وجاء فصل الشتاء ، والبرد شديد ، وهذا الابن ليس عنده معطف ، هل هناك أب حكيم عاقل رحيم قوي غني لا يعطي ابنه هذا المعطف إلا إذا سأله ، لا ، كمال الأب يقتضي أن يعطيه المعطف ، سأله أم لم يسأله ، ولكن حينما يؤخر شراء المعطف يأتي الابن ، ويسأل أباه هذا المعطف ، يقول له : حباً وكرامة يا بني ، أنت ابني ، أنت غالٍ علي ، فنشأت علاقة .

6 – عدمُ إجابة الدعاء لحكمة بالغةٍ :

العطاء عطاء ، والمنع منع ، أدق من ذلك الله عز وجل يتصرف بحكمته ورحمته ، وعدله ، أحيانا هناك خطة إلهية ، مهما دعونا فلن يستجاب لنا ، لا ، لأنه لا يحبنا ، ولكن تماماً كإنسان مفتوح بطنه بعمل جراحي ، العملية طويلة ، تحتاج إلى عشر ساعات ، والمرض خطير ، والطبيب ماهر ومحسن ومتفوق ، فجاء أولاد هذا الأب المريض الملقى على سرير العمليات يرجون الطبيب أن ينهي الأمر ، لا بد من أن تأخذ العملية أمدها .

نحن ندعو الله كثيراً ، فإن لم يستجب فنحن في عناية مشددة ، نحن في عمل جراحي صعب جداً إلى أن تنتهي العملية ، فلا تيئسوا ، ولا تقطنوا من روح الله ، وتفاءلوا ، وكان عليه الصلاة والسلام يحب الفأل الحسن .

7 – شأن العبد الافتقار ، وشأنُ الواحدِ القهار القوةُ والكرمُ :

لكن الله عز وجل يقول :

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا)

العبد عبد ، والرب رب ، شأن العبد الافتقار ، وشأن الواحد القهار القوة والكرم .

لذلك هذا المتألّه المستكبر هذا حُجب عن الله ، ورُبّ معصية أورثت ذلاً وانكساراً خيرٌ من طاعة أورثت عزاً واستكباراً ، ومعصية إبليس استكباره ، ومعصية آدم ضعفه .

(فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً)

(سورة طه)

ما إبليس قال :

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)

(سورة الأعراف الآية : 12)

ما كنت لأسجد له .

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

(سورة الأعراف الآية : 12)

فرق كبير بين معصية الاستكبار ، وبين معصية الضعف .

لذلك أيها الإخوة ، الدعاء يُقبل إذا أظهرت ضعفك أمام الله ، وهناك علاقة دقيقة جداً ، فكلما أظهرت ضعفك أمام الله ، كلما أظهرت افتقارك إليه كلما رفعك ، وما من مخلوق فيما أعلم على وجه الأرض أكثر افتقاراً إلى الله من رسول الله ، وما من مخلوق رفع الله ذكره وأعزه في الدنيا والآخرة كرسول الله ، العلاقة عكسية ، كلما ازددت خضوعاً لله ، كلما مرغت جبهتك في أعتاب الله كلما قلت : يا رب ، أنا عبد ضعيف .

اسمحوا لي أن أقول لكم هذا النص : نور الدين الشهيد الذي واجه المغول ، مرة سجد قبل معركة ، وقال : يا رب ، مَن هو الكلب نور الدين حتى تنصره ؟ انصر دينك يا رب .

كلما ازددت افتقاراً إليه غمرك بالعطاء ، كلما رفع ذكرك أعزك ، وألقى عليك الهيبة ، وكلما قلت : أنا وأنا يتخلى عنكَ .

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ)

(سورة القصص الآية : 79)

قارون :

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص الآية : 78)

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

(سورة القصص الآية : 81)

جرب قل : أنا ، يتخلى الله عنك ، قل : الله ، يتولاك .

درسان بليغان من سيرة الصحابة : درس حُنين ، ودرسُ بَدْرِ :

الصحابة الكرام ، وهم نخبة الخلق في بدر ، وعلى رأسهم النبي عليه الصلاة والسلام افتقروا إلى الله .

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران الآية : 123)

مفتقرون ضعفاء ، وفي حنين ، أقوى قوة في الجزيرة فتحت مكة ، ودانت الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها ، بعد حنين قالوا في أنفسهم ، وهم الصحابة الكرام :

((لن يهزم اثنا عشر ألفا من قلة))

[أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم في المستدرك عن ابن عباس]

قال تعالى :

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

درس بليغ ، درس حنين ودرس بدر ، ببدر قالوا : الله ، فتولاهم الله ، بحنين قالوا : نحن كثر ، فتتخلى الله عنهم ، جرب بعملك ، بزواجك ، ادخل إلى البيت قل : بسم الله الرحمن الرحيم ، اخرج من البيت قل : أعوذ بالله من أن أضل أو أُضل ، أو أذل أو أُذل ، أو أن أجهل أو أن يجهل علي ، الله يتولاك ، يسدد خطاك ، ينطقك بالصواب ، يلهمك الحكمة ، يلقي عليك هيبة ، يهابك الناس ، قل : أنا متفوق ، عندي خبرات متراكمة ، الناس كلهم يحبونني ، تجد استخفافاً من الناس ، وتخلياً من الناس ، فيصعقك ، لأنك قلت أنا .

أيها الإخوة ، لذلك الدعاء يحتاج إلى خضوع ، إلى تضرع ، إلى افتقار ، أنت حينما تفتقر للواحد الديان يرفعك في أعلى عليين ، يمنحك الحكمة ، يمنحك الهيبة ، يمنحك الوقار ، يمنحك القوة ، يمنحك العلم ، يمنحك النجاح ، التفوق ، اخضع ، تذلل .

وما لي سوى فقري إليك وسيلة   فبالافتقار إليك فقري أدفع

وما لي سوى قرعي لبابك حيلة   فإذا رددت فأي باب أقرع

***

لا تعتمد على أحد ، اعتمد على الله .

((لو كنت متخذ من العباد خليلاً لكان أبو بكر خليلي ، لكن أخ وصاحب في الله))

معنى : ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا

لذلك :

(ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا)

يعني أظهر ضعفك ، أظهر افتقارك إليه ، تذلل بين يديه ، مرغ جبهتك في أعتابه ، قل : يا رب ، أنا جاهل علمني ، أنا ضعيف قوني ، أنا فقير أغنني يا رب ، أنا لست حكيماً ألهمني الحكمة .

سيدنا يوسف نبي عظيم قمة في مجتمعه ، قال :

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

(سورة يوسف)

حتى استقامته وعفته ما نسبها إليه ،

(وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ)

شأن العبد الخضوع ، وشأن الله العطاء ، بقدر ما تخضع يرفع شأنك ، ألم تقرأ قوله تعالى :

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

وهذه الآية تنسحب على كل المؤمنين ، بقدر استقامته ، وطاعتك وإخلاصك يرفع الله لك شانك ، يلقي محبتك في قلوب الخلق ، إذا أحبك الله ألقى محبتك في قلوب الخلق وإذا ابغض الله عبداً ألقى بغضه في قلوب الخلق ، لا أحد يحبه ، إذا أحب الله عبداً كتب له القبول عند الخلق .

لذلك

(ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا)

أظهر ضعفك ، أظهر تذللك ، مرغ جبينك في أعتابه .

8 – لا ترفع صوتك بالدعاء :

أيها الإخوة ، لكن

(ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً)

رفع الصوت بالدعاء التفاصح بالدعاء ، الكلمات المنمقة بالدعاء ، الدعاء الطويل ، ساعة أحياناً .

حدثني أحد العلماء : كان في حفل بدأ المتكلم بالدعاء ، خمس دقائق ، عشر دقائق ربع ساعة ، قام نام ، فاق وقال له : أين وصل ؟ هذا عدوان ، رفع الصوت عدوان والإطالة عدوان ، عدوان في الدعاء .

9 – حقُّك في الدعاء محفوظ :

أيها الإخوة ، يجب أن تتأكد أنك إن دعوته ، أو لم تدعه لا يفعل معك إلا الأصلح ، فإذا كان الأصلح لك أن يستجيب لك استجاب لك ، وإذا كان الأصلح لك ألا يستجيب لا يستجيب ، لكنك حقك في الدعاء محفوظ .

دقق ، إذا كان الأصلح لك وهو الحكيم الخبير ، أن يستجيب لك استجاب لك ، إذا كان الأصلح لك ألا يستجيب لا يستجيب لك ، ولك أجر الدعاء ، ويقربك لكن مضمون الدعاء لا يتحقق .

لذلك الله عز وجل لا يفعل إلا الأصلح لك ، دعوته أم لم تدعُه .

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة الآية : 216)

لأن الله علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون قد يكون طموح الإنسان أن يكون ذا دخل غير محدود ، والله عز وجل شاءت حكمته أن يكون ذا دخل محدود ، يوم القيامة حينما يكشف الله لك عن الذي ساقه إليك ، عن الظروف التي وضعك فيها ، لماذا أنت من فلان ومن فلانة ؟ لماذا جئت في هذا العصر ؟ ولم تكن في عصر الصحابة ؟ لِمَ كنت من ريف أو من مدينة ؟ لِمَ كنت وسيماً أو لست وسيماً ؟ لِمَ كنت حاد الذكاء أو أقلّ من ذلك ؟ حينما يكشف الله لك ما ساقه لك في الدنيا يجب أن تذوب كالشمعة شكراً لله على ما ساقه له .

لذلك مشكلة البشر مع خالقهم يوم القيامة في كلمة واحدة :

(وَآَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة يونس الآية : 10)

أيها الإخوة ،

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا)

تذلل ،

(وَخُفْيَةً)

يا رب ، لا نسألك رد القضاء ، نتحمل ، ولكن نسألك اللطف به ، هذا تطاول على الله ، هذا الدعاء مرفوض ، لم يَرِد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، يا رب ، اصرف عني هذا البلاء كله ، أنت الكريم يا رب .

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً)

بصوت منخفض .

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً)

(سورة مريم)

كنت في بلد إسلامي ، ودخلت إلى أضخم مسجد في إفريقيا ، الذي أشاد هذا المسجد يقترب من الحرم النبوي ، الذي أشاد هذا المسجد استقبلني ، وقال لي : كنت في سجن الفرنسيين وقت الاستعمار ، ورأيت التعذيب بعيني ، أقسم لي بالله ، قال لي : لم أحرك شفتاي ، لكنني أضمرت ، إذا أنجاني الله من هذا البلاء سأبني له أضخم مسجد ،

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا)

أنت لا تحتاج إلى صوت مرتفع ، أحيانا تجد الدعاء بالمنبر ، ادعوه همساً ، ادعوه سراً ، لا تحرك شفتيك ،

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا)

أحيانا تكون في ظرف لا تستطيع أن تتكلم ، فقل بقلبك : يا رب نجيني ، يا رب ، ليس لي إلا أنت .
لما جاء الحجاج بالحسن البصري ليقطع رأسه لما دخل ، رأى السياف واقفًا واضح وضوح الشمس جاء ليقتل ، حرك شفتيه ، لم يفهم أحد ما قال ، فإذا بالحجاج يقف له جاء ليقتله وقف له ؟! يقول : أهلاً بابي سعيد ، أنت سيد العلماء ، وما زال يقربه من مجلسه حتى أجلسه على سريره واستفتاه ، وأكرمه ، وعطره ، وضيفه ، وشيعه إلى باب القصر السياف صُعق ، لماذا جيء بي ؟! جيء به لأقتله ، الحاجب صُعق ، تبعه الحاجب قال : يا أبا سعيد ، ماذا قلت بربك ؟ قال له : قلت : يا ملاذي عند كربتي ، يا مؤنسي في وحشتي ، اجعل نقمته علي برداً وسلاماً ، كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم .

لا تحتاج إلى صوت مرتفع ، ولا إلى فصاحة ، ولا إلى سجع ، ولا إلى كلمات رنانة .

هناك إخوة كثر يقولون : ما الدعاء المرغوب ؟ قل : ادعوه باللغة العامية ، يا رب ما لي غيرك ، يقبله منك يريد الله يقربك ، يريد قلبك ، يريد التفاتك ، يريد تضرعك ، يريد تذللك يريد قربك .

لذلك أيها الإخوة ،

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً)

بلا فصاحة زائدة ، والمتنطعون المتفيقهون الذين يدعون دعاء بصوت عالٍ جداً بتنسق ، بسجع ، هذا مصنوع ما فيه حرارة الدعاء والإخلاص .

10 – حظُّك من الدعاء الاتصالُ لا الإجابةُ :

أيها الإخوة ، حظك من الدعاء ـ دقق ـ حظك من الدعاء ليس الإجابة ، ولكن الاتصال ، الإجابة محققة أو غير محقق ، إن كان تحقيقها لصالحك فهي محققة ، وإن لم يكن تحقيقها لصالحك فهي ليست محققة،

هي محققة من دون دعاء ، ولا تحقق مع الدعاء الدعاء وسيلة للاتصال عز وجل ، ولأن تذوق طعم القرب منه ، وحلاوة المناجاة له ، لكن الذي يفعله الله هو الأصلح له ، أعجبك أم لم يعجبك ، وسوف يعجبك .

معنى : إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ

لكن :

(ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

هذه الآية تحمل على معنيين :

المعنى الأول :

(لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

في الدعاء ، بالإطالة ورفع الصوت .

المعنى الثاني :

ولكنه أيضاً :

(لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

على إخوانهم ، وعلى المؤمنين ، أيّ إنسان يعتدي لا يلهم الدعاء ، هناك حجاب عن الله ، عدوانه يبعده عن الله عز وجل ، والمعتدي لا يستطيع أن يدعو الله لوجود حجاب كبير .

صورٌ مِن العدوان في الدعاء :

1 – إطالةُ الدعاء : :

إخواننا الكرام ، أحياناً الدعاء فيه عدوان بالإطالة ، من أدعية النبي :

((اللهم أنا بك وإليك ، اللهم ارزقني طيباً واستعملني صالحاً ، اللهم اهديني واهدي بي))

الدعاء مختصر ، العدوان بالدعاء بالإطالة ، أو برفع الصوت .

2 – العدوانُ من حيث المضمونُ :

لكن هناك عدوان في مضمون الدعاء ، مثلاً : يا رب ، يا عزيز ، مليون ليرة إنكليز ، يريد مالا .

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة يونس)

اطلب الهداية ، اطلب الإيمان ، اطلب عملا صالحا ، اطلب أن يجعلك الله عليماً ، أن يجعلك داعية ، اطلب زوجة صالحة ، يا رب امرأة جميلة ، اطلبها صالحة .

لذلك هناك عدوان في مضمون الدعاء ، طبعاً الأنبياء قمم في الكمال ، لكن ليعلّمنا الله من بعض الآيات :

(وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ *قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

(سورة هود)

أحيانا يقال : يا رب انتقم منه ، الله ينصر دينه بالقوي ، من دون أن يشعر ، صدقوا أيها الإخوة ، ولا أبالغ ما مِن قوي على وجه الأرض طاغية من آدم إلى يوم القيامة ، إلا ويوظفه الله لخدمة المؤمنين ، لكن خدمة سلبية ، وليست إيجابية ، لخدمة أهل الإيمان ، من دون أن يشعر ، ومن دون أن يريد ، ومن دون أجر ولا ثواب ، هذا له دور ، دوره أن يشد الناس إلى الله ، شدته ، وغلظته ، وطغيانه ، وجبروته يلجئ الناس إلى باب الله .

لذلك مرة سُئل تيمورلنك : مَن أنت ؟ والله أجاب إجابة رائعة ، قال : " أنا غضب الرب " ، الإنسان يغضب يكسر ، يرفع صوته ، يخبط الباب ، إذا غضب الواحدُ الديان يرسل طاغية ، إن حسنت لم يقبل، إن أسأت لم يغفر ، إن رأى خيراً كتمه ، عن رأى شراً أذاعه ، وما مِن إنسان يطغى إلا ويسوق الناس إلى باب الله ، تجد البلاد الغنية جداً مستغنية عن الله ، وبلاد فيها مشكلات كثيرة ، تجد المساجد ممتلئة ، الحجاب منتشر ، الشباب في المساجد ، هل تعلم ما السبب ؟ شدة شديدة جداً ، هذا القوي لو يعلم أنه موظف عند الله لخدمة المؤمنين لا يصدق ، وبلا أجر ، وبلا ثواب ، وبوزر وعقاب .

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص الآية : 4)

هذا الدليل :

(عَلَا فِي الْأَرْضِ)

ولمجرد أن قيل له : سيأتي طفل من بني إسرائيل يقضي على ملكه ، القضية سهلة جداً ، أي طفل يجب أن يقتل ، والمولّدة التي لا تبلغ عن طفل ذكر تُقتَل مكانه .

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص)

دقق الآن :

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

اصطلح مع الله فقط ، اصطلح مع الله يغير الله لك كل شيء .

وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا

الآية التي بعدها :

(وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا)

هل بإمكانك أن تلغي إشراق الشمس ؟ لا ، بزوغ القمر ؟ لا ، نظام الليل والنهار ؟ لا ، خصائص المعادن ؟ لا ، هذه لا تأتمر بأمرك ، لكنك مخير فيما كلفت ، بإمكانك أن تصدق أو أن تكذب ، أن تخلص أو أن تخون ، أن تحسن أو أن تسيء ، أن تنصف أو أن تجحد ، بإمكانك .

فلذلك أيها الإخوة ، ما دام هذا بإمكانك إياك أن تفسد في منهج الله ، تزوجت زوجة ، إياك أن تسمح لها أن تبرز مفاتنها في الطريق ، أنت أفسدتها ، لما سمحت لها أن تخرج هكذا انتبهت إلى مفاتنها ، فأصبحت تظهرها لا لك بل لمن لا يستحقها ، بل للأجنبي ، بل للذئاب ، أنت أفسدتها ، ربيت أولاداً ربهم على طاعة الله ، لا على منهج استوردناه من الغرب .

(وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ)

الآن موضوع ثانٍ ، أول آية :

(تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً)

هنا

(خَوْفًا وَطَمَعًا)

خوفاً من صفات جبروته ، ومن صفات جلاله .

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

جبار منتقم ، ينتقم من العصاة ، ادعو ربك أن تنجو من صفات جبروته ، من صفات جلاله ، من صفات قدرته ، واطمع في صفات غفرانه ورحمته ، خوفاً من صفات جلاله ، وطمعاً بصفات كماله ، خوفاً من جبروته ، وطمعاً برحمته .

(ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ)

هنا الآن محط الشاهد هنا .

إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ

(إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ)

ما عند الله لا تناله بالدعاء ، بل بالعمل بالإحسان ، أحسن إحسانك يقربك من رحمة الله .

1 – معنى : قريب :

قريب صيغة مبالغة على وزن فعيل بمعنى مفعول ، كقتيل يعني مقتول يعني

(إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ)

مقتربة ، أو مقربة من المحسنين ، إحسانك يقربك منها ، وهي مقتربة من إحسانك ـ كلام دقيق ـ هي اسم مفعول .

(إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ)

مقتربة منك ، من إحسانك ، إحسان مقرب ، الإحسان اسم فاعل ، اسم المفعول رحمة الله ، رحمة الله عطاءه ، رحمة الله الصحة ، رحمة الله زوجة صالحة ، سمعة طيبة من رحمة الله ، أولاد أبرار من رحمة الله ، رزق وفير من رحمة الله ، عمر مديد في طاعة الله من رحمة الله ، سكينة من رحمة الله ، حكمة من رحمة الله ، أمنٌ من رحمة الله ، سعادة من رحمة الله ، فعطاء الله في الدنيا والآخرة المادي والمعنوي مجموع بكلمة رحمة الله .

(إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ)

توفيقه ، تأييده ، حفظه ، نصره ، ألقى في قلبك السكينة ، ألقى في قلبك الأمن ، ألقى في قلبك السعادة، ألقى عليك الهيبة ، خافك فمن حولك ، كلها من رحمة الله ، لك سمعة عطرة ، لسانك على كل فم ، ذكرك على كل لسان ، برحمة الله ، هي قريب يعني مقتربة ، بمعنى فعيل ، قريب على وزن فعيل ، كأن تقول : جريح ، أي مجروح ، مقتربة ، من أي شيء ؟

(مِّنَ الْمُحْسِنِينَ)

2 – الإحسانُ عامٌّ : مِّنَ الْمُحْسِنِينَ :

أحسن ، أحسن إلى زوجتك ، إلى أولادك ، إلى زبائنك ، إلى مرضاك ، إلى موكليك أيها المحامي ، إلى صاحب البناء أيها المهندس ، راقب الصب ، لا تهمل واجبك ، بائع أعط الناس بضاعة تقبلها أنت، تأكلها أنت إياك أن تسيء للناس ، إحسانك يحقق أهدافك من الدعاء ، الدعاء حظك منه القرب من الله ، أما مضمون الدعاء فلا يكون بالدعاء ، بل يكون بإحسانك للخلق .

((إنَّ اللَّهَ تَعالى كَتَبَ الإحْسانَ على كُلِّ شَيْءٍ ، فإذَا قَتَلْتُمْ فأحْسِنُوا القِتْلَة وَإذَا ذَبَحْتُمْ فأحْسِنُوا الذَّبْحَ ، وَلْيُحِدَّ أحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

[رواه شداد بن أوس عند مسلم]

تقول رجل صبور ، وامرأة صبور ، رجل معطار يستخدم العطر كثيراً وامرأة معطار ، رجل قتيل ، وامرأة قتيل .

(إنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قريبٌ)

للذكر والأنثى ، اللغة هكذا ، أما إذا لم تقل : امرأة قتيلة ، مع كلمة امرأة لا تذكر ولا تؤنث ، امرأة هي المؤنث ، امرأة قتيل ، الآن يقولون النائب فلانة ، القاضي فلانة .

(إنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قريبٌ إنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قريب)

هذه قضية لغوية ،

(مِّنَ الْمُحْسِنِينَ)

المحسن إحسانه يقرّبه من الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(24-60): تفسير الآيتان 57 - 58 ، الفرق بين الرياح والريح ـ والبلد الطيب يستحق رحمة الله تعالى
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 10-08-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الرابع والعشرين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية السابعة والخمسين ، وهي قوله تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

لابد لهذا الكون من خالق :

أيها الإخوة ، في العقل البشري مبادئ ثلاثة ، من هذه المبادئ مبدأ السببية ، مبدأ الغائية ، مبدأ عدم التناقض ، فالعقل إذا جال جولة في الكون يرجع بحقيقة ، وهي أن هذا الكون لا بد له من خالق ، لأن فيه حكمة ، والحكمة تدل على الحكيم ، وفيه قدرة ، والقدرة تدل على القدير ، وفيه علم ، والعلم يدل على العليم . فالإنسان إذا فكر في ملكوت السماوات والأرض ، ونفذ قوله تعالى :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ *الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران)

يستنبط أنه لا بد لهذا الكون من خالق ، من هو هذا الخالق ؟ يأتي الجواب في القرآن الكريم :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة السجدة الآية : 4)

أنت استنبطتَ ، ووصلت إلى أن لهذا الكون خالقاً ، فمَن هو الخالق ؟ الجواب أتي في الكتاب ، فالكون والقرآن يتكاملان ، القرآن يقول لك : القوة التي حكمت أنها وراء هذا الكون القوة العليمة ، القوة الحكيمة ، القوة الرحيمة ، هي الله :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ

1 – هُوَ الَّذِي

الآن :

(وَهُوَ)

تعود على الله ، والله

(هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ)

وهو الذي مد الأرض ، وهو الذي خلقكم ،

(اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)

(وَهُوَ الَّذِي)

العقل وصل إلى حقيقة قطعية ، أنه لا بد من هذا الكون من خالق ، ومن مربٍّ ، ومن مسيّر ، ون خلال هذا الكون يتضح أن الخالق قدير ، وعليم ، وحكيم ، ورحيم ، وقوي ، تأتي الآية الكريمة ، هل عرفت من هذه القوة التي خلقت فأبدعت ؟ إنها الله .

(وَهُوَ)

تعود على الله ، علم على الذات .

(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ)

2 – يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ

هذه الرياح هي الهواء ، والحقيقة أيها الإخوة أن هناك آيات كبيرة جداً وإحدى أكبر هذه الآيات الهواء، الهواء إذا تحرك بسرعة تفوق المئة متر وقد تصل إلى ألف .

(لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ)

(سورة المدثر)

والأعاصير ، كيف أهلك الله عاد :

(بريح صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً)

(سورة الحاقة)

في بعض البلاد سرعة الأعاصير تقترب من ألف كيلومتر ، هذه السرعة تدمر كل شيء ، هذا الهواء، فإذا كان متحركاً حركة لطيفة كان من نعيم الدنيا ، هو النسيم العليل ، أحياناً تهب نسمات تبدل الهواء ،

تجعله منعشاً ، تلطف الحرارة ، تجعلها مقبولة ، فبين أن يكون النسيم العليل من نعم الله الكبرى ، وبين أن يكون هواء إذا أسرع يدمر كل شيء ، هذا الهواء له خصائص ، أنت تمشي من خلاله ، ولا تحس به ، لكنه موجود ، والدليل أنه موجود يحمل طائرة وزنها سابقاً 350 طنًّا ، اركب طائرة ، هذه الطائرة فيها 400 راكب ، طبقتان ، فيها وقود 150 طنًّا ، ووزنها 150 ، ووزن الركاب مع حاجاتهم 50 ، من يحملها ؟ الهواء ، الهواء لطيف ، وقوي ، ووسيط ، ولولا الهواء لما سمعتم صوتي ، الدليل : رواد الفضاء على القمر ليس هناك هواء ، يتحادثون باللاسلكي ، يكون إلى جانبه ، بينه وبينه عشرة سنتيمترات .

فالهواء وسيط ، تحب أن تدفئ الغرفة تدفئ الهواء ، تحب تبرد الغرفة تبرد الهواء ، الهواء شفاف ، وجوده لطيف ، موجود وغير موجود ، تمشي في خلاله ، بل هناك ملمح في القرآن الكريم في قوله تعالى :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

(سورة الروم الآية : 42)

الإنسان يتصور أنه يمشي على الأرض ، لا ، في الأرض ، في الأرض يعني تحت الطاولة ، أما على الطاولة فهنا ، الإنسان يمشي في السراديب ؟ لا ، في المناجم ؟ لا ، يمشي على الأرض ، ولكن لأن الهواء جزء من الأرض قال الله تعالى :

(قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ)

معنى جزء أي يدور معها ، 65 ألف كم ، سمكُ طبقة الهواء ، 65 ألف كم ، يدور معها ، وقد يقول قائل : ولو يكن يدور معها ، لو بقي سابتاً ، وهي تدور لكانت سرعة الرياح على وجه الأرض 1600 كم بالساعة ، هذه السرعة لا تبق على وجه الأرض شيئاً ، مستحيل أن يبقى بناء ، لأن سرعة الأرض حول نفسها 1600 كم بالساعة ، محيطها 40 ألف ، قسمه على 24 ساعة ، الأرض تدور حول نفسها دورة كل 24 ساعة ، محيطها 40 ألف كم ، سرعتها وهي تدور حول الأرض 1600 كم بالساعة ، لو أن الأرض تتحرك والهواء ثابت لدمر كل شيء ، هل ينتبه الإنسان لهذه النعمة ؟ أن الهواء يدور مع الأرض .

أحيانا لا تكون رياح إطلاقاً ، تركب مركبة فتسرع ، لما تمد يدك من النافذة تحس بتيار من الرياح مخيف ، والهواء واقف ، لكنك تحركت ، وكذلك الأرض ، إن تحركت والهواء ثابت لكانت سرعة الرياح العاتية على سطح الأرض 1600 كم بالساعة ،

(لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ)

الهواء شفاف ، والهواء لطيف ، والهواء لا تراه بعينك ، وتمشي خلاله ، وهو يحمل طائرة ، الآن هناك طائرة تقل 900 راكب ، مدينة ، يحملها الهواء .
أحياناً تركب طائرة حديثة جداً ، تنظر إلى الخلف ، فتراها كمدينة ، مسافة طويلة جداً ، و المقاعد عشرة صفوف ، ومطابخ ، وحمامات ، وأول طابق ، وثاني طابق ، كلها في الجو ، ما الذي يحملها ؟ الهواء ، فالهواء شفاف ، لطيف ، لا يحس بوجوده ، تمشي خلاله ، إلا أنه إذا تحرك حركة لطيفة أنعشك ، وقلت : يا أخي هذه نسمات لا تقدر بثمن .

بين الرياح والريح :

أحيان تسافر إلى مكان مرتفع ، تجد في وقت العصر نسمات لطيفة جداً ، وأحيانًا تجلس على سطح البحر ، أو على شاطئ البحر تشعر بنسمات لطيفة جداً ، أما إذا أسرعت هذه النسمات انقلبت إلى رياح، أما إذا زادت سرعتها أصبحت ريحاً ، الرياح تجلب الأمطار ، أما الريح تدمر كل شيء .

العلاقة بين الماء والهواء :

لذلك الهواء وسيط ، أنت حينما توقد المدفأة ماذا تسخن ؟ تسخن الهواء ، وحينما تُعمل المكيف ماذا تبرد ؟ الهواء ، وأنت حينما تتكلم ، عبر ماذا تنتقل الأمواج الصوتية ؟ عبر الهواء ، فالهواء من آيات الله الدالة على عظمته ، لكن عظمة الله عز وجل تتبدى في علاقة بين الماء والهواء ، لولا هذه العلاقة لما كان هذا الدرس ، ولما كانت هذه المدينة ، ولما كان إنسان على وجه الأرض ، فهناك علاقة بين الماء والهواء ، الماء سائل كثافته وحدة ، وحدة الكثافة هو الماء ، أي شيء كثافته أقلّ يطفو ، أي شيء كثافته أكبر يرسب بالماء ، فلتر ماء يساوي كغ تقريباً ، الكثافة واحد ، الإسفنج كثافته قليلة جداً ، والحديد كثافته كثيرة جداً .
لذلك قطعة معدنية مهما دقت تسقط ، قطعة فلين مهما كبرت تطفو ، للكثافة ، الماء وضعه العام سائل، أما إذا سخنته يصبح بخاراً ، وإذا بردته يصبح جليداً ، فينتقل من حالة السيولة إلى الغازية بالتسخين ، ومن السيولة إلى الصلب بالتبريد .
الهواء يحمل بخار الماء ، لكن عظمة خلق الله عز وجل أن الهواء يحمل من بخار الماء بمستوى الحرارة ، بكل درجة حرارة يحمل كمية من بخار الماء .
للتقريب : يحمل بدرجة 30 ، والمتر المكعب من الهواء خمس غرامات بخار ماء ، في درجة أربعين يحمل سبعة ، وفي درجة عشر يحمل خمسة ، أو ثلاثة .

لهذا السبب تنزل الأمطار :

الآن من خصيصة الهواء التي تحمل بخار الماء تكون الأمطار ، أشعة الشمس تسلط على البحار ، البحار مساحات من الماء واسعة جداً ، ولو أن الخمس قارات تساوي خمسة أمثال الماء لما كانت الأمطار ، لحكمة أرادها الله أربعة أخماس الكرة محيطات ، والخُمس بر وأرض ، فتسلط على مسطح مائي كبير أشعة الشمس فيتبخر الماء ، هذا البخار يحمله الهواء ، فعندنا هواء يحمل بخار الماء ، وهذا الهواء فيه بخار ماء ، الدليل أن هناك موازين رطوبة ، يقول لك : الرطوبة 29 ، الهواء حامل لبخار الماء ، لكنك لا تراه ، لكن أحياناً يحمل 90 ، فيصبح سحابا ، فلما تكون كثافة بخار الماء عالية تراه سحاباً ، وإذا كانت قليلة لا تراه ، لكنْ أيّ هواء يحمل بخار الماء .

الدليل : ائتِ بإبريق ماء بارد جداً تجد ذرات من الماء قد علقت على جداره الخارجي ، بخار الماء في الهواء لما جاءته البرودة تكثف فأصبح ماء .

إنّ غرفة حارة ترى على البلّور طبقة من ذرات الماء الصغيرة ، إذاً : كل هواء فيه بخار ماء ، أما إذا زادت نسبته إلى درجة عالية جداً فيصير سحابا .

الآن المتر المكعب من الهواء يحمل كذا غرام من الماء ، على شكل بخار ماء هذا منطلق الدرس ، هذا الهواء يحمل بخار الماء ، في مكان حمله الحرارة أربعون ، لو أن هذا الهواء المحمل بالماء انتقل إلى مكان بارد النسبة هناك تختلف ، المكان عشرة ، الهواء بدرجة عشر لا يحمل إلا غراما واحدا ، عنده أربع غرامات زيادة يتخلى عنها ، فتصبح مطرا .

الهواء في المنطقة الحارة مثلاً يحمل خمس غرامات في المتر المكعب ، ولما يساق السحاب إلى منطقة باردة الدرجة عشر صار هناك اختلال في النسبة ، يجب أن يتخلى الهواء عن النسب الزائدة ، الآن دخلنا في الآية .

حركة الهواء نعمة :

الله عز وجل يقول :

(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ)

كيف تمشي الرياح ؟ الآن الرياح ساكنة هنا ، ومع سكون الرياح يشعر الإنسان بضيق ، ومع حركة الرياح يشعر بنشاط ، لكن لماذا يشعر بالضيق ؟ هو يتنفس فيعطي غاز الفحم ، وغاز الفحم غاز سام ، فلو أن الإنسان جلس تحت لحاف محكم ، بعد ساعة يمكن أن يفارق الحياة ، لأنه أخذ الأوكسجين ،

وطرح غاز الفحم ، فصار الهواء تحت اللحاف كله غاز فحم ، يقول لك : ضاقت نفسي ، لذلك تجديد الهواء مهم جداً ، ولو أنه مبرد ، هواء بارد مشبع بغاز الفحم تضيق النفس به .
ادخل إلى صف في الشتاء ، فيه ستون طالبا تشعر بضيق ، إلى أن تفتح النوافذ ويتبدل الهواء ، فيأتي هواء مشبع بالأوكسجين .

كيف يتحرك الهواء ؟

إخواننا الكرام ، أدق ما في الموضوع أن هذا الهواء الذي يحمل السحاب كيف يتحرك ؟ الهواء في المنطقة الحارة ممدد ، أو مخلخل ، أو كثافته قليلة ، أسماء لمسمى واحد ، ممدّد ، أو مخلخل ، أو كثافته قليلة ، أنا ألاحظ هذا في الطيران ، إذا كنت في جدة مثلاً الطائرة تصعد بزاوية صغيرة في مسافة طويلة جداً حتى تحلق بالجو ، الهواء حار جداً مخلخل ، لا يحملها كما ينبغي ، الهواء في المنطقة الباردة ضغطه مكثف عالٍ يحمل الطائرة .
لذلك الهواء في الحر مخلخل ، ممدد ، ضغطه خفيف ، الهواء في القطبين كثيف وضغطه عالٍ جداً .
هناك قانون : أن الهواء في الضغط المرتفع يتحرك إلى الضغط المنخفض ، عندك غرفة في بيتك ، أشعل مدفأة شتاءً ، إلى أن ترتفع الحرارة حتى 30 ، الحرارة بالغرفة 30 ، وفي خارجها 10 ، معنى ذلك أن الهواء في خارجها مضغوط كثيف ، وكثافته عالية ، والهواء بداخلها الحرارة عالية ، الهواء مخلخل ، ممدد ، كثافته قليلة .
ضع شمعة أمام الباب حتى ترى لهبة الشمعة اتجهت نحو الداخل ، اعكس الآية ، ضع الشمعة في الغرفة لترى اللهيب اتجه نحو الداخل أيضاً ، فينشأ تيار .
لذلك حينما تتعرض الأرض لأشعة الشمس لها حرارة معينة ، والماء له حرارة ، من تباين حرارتين تتباين كثافة الهوائيين ، الهواء الذي على سطح الأرض ، والذي على سطح البحر ، ينشأ نسيم ، أيّ مكان في الأرض ، في الساحل هناك هواء ، جاء من أن الماء استيعابه للحرارة أقلّ ، واليابسة أكثر ، في البحر الدرجة أقل ، اختلف الضغط فتحرك الهواء ، من مكان إلى مكان ، كل هذا الكلام لأشرح لكم قوله تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ)

الهواء في القطبين كثيف جداً ، ضغطه عال جداً ، والهواء في خط الاستواء مخلخل جداً ، ممدد جداً ، ضغطه منخفض جداً ، ينشأ تيار هواء ، من القطب إلى خط الاستواء ، الأرض تدور ، يصبح الاتجاه

مائلا ، يقول لك : ريح غربية ، الرياح الغربية هي رياح القطب متجهة إلى خط الاستواء ، لكن في أثناء دورة الأرض اتجهت نحو الشرق ، فأصبحت رياحا غربية .

هذا معنى قول الله عز وجل :

بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ

البشرى : حينما تكون الأرض قاحلة ما فيها مطر ، ويموت كل شيء ، الأشجار خشب ، الأرض بُنية اللون .

(فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)

(سورة الحج)

ما الذي حصل ؟ الذي حصل أن بذور النباتات كامنة في الأرض وكأنها ميتة .

في أهرامات فرعون وجدوا قمحا مخزّنا من ستة آلاف عام ، زُرِع هذا القمح ، فنبت ، معنى ذلك أن الرشيم كائن حي ، هذا الرشيم عاش ستة آلاف سنة ، فلما أصابته الرطوبة والماء والهواء نبت .

لذلك في هذه الآية الكريمة يصف الله الأرض الميتة :

(فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)

الله الذي آمنتَ به من خلال التفكر :

(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ)

بين تقنين المخلوق وتقدير الخالق :

الرزق في السماء ، لكن يجب أن تعلموا علم اليقين أن الله سبحانه وتعالى حينما يقنن تقنينه تقنين تأديب ، لا تقنين عجز ، أما الإنسان حينما فإنه يقنن فإن تقنينه تقنين عجز ، أما الرحمن إذا قنن فتقنينه تأديب .

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً)

(سورة الجن)

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة الأعراف الآية : 96)

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

(سورة المائدة الآية : 66)

فالتقنين الإلهي تقنين تأديب ، بينما تقنين البشر تقنين عجز ، تقنين تأديب لقوله تعالى :

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

(سورة الحجر)

الذي قرأت عنه أن سحابة اكتشفت في الفضاء الخارجي عن طريق المراصد العملاقة ، هذه السحابة يمكن أن تملأ محيطات الأرض ستين مرة في اليوم بالمياه العذبة ، الله هو المعطي ، فلا يسأل ، أما إذا قنن فإن تقنينه تأديب .

(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا)

إذا كانت الرياح مدمرة فإن اسمها ريح .

(وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ)

(سورة الحاقة)

أما الهواء إذا تحرك حركة خيرة ، وجلب الأمطار فنسميه رياحا ، أما إذا جاءت الأعاصير فنسميها ريحا .

رحمة الله تعالى بالخَلق من جهة نعمة الماءِ :

الله عز وجل يرحمنا ، فتجد الماء أصل الرزق ، والينابيع تمتلئ ، والأنهار تجري ، وينابيع ماء الشرب تمتلئ ، تمتلئ فتعطينا ماء عذاباً فراتاً طوال العام ، فبالماء نسقي الزرع ، بالماء نتطهر ، الماء تشربه .

أتمنى أن نفكر جادين بموضوعين : الماء والهواء ، من أقرب الموضوعات إلينا ، وفيها دقائق ، وإن ستة عشر مليار طن تسقط من السماء كل ثانية ، على مستوى الأرض طبعاً كل ثانية ، هذا عطاء الله ، ولو أخذنا ملح البحر ، وجففناه ، وفرشناه على سطح اليابسة ، بالقارات الخمس بما فيها الجبال ، والوديان ، والصحارى لكان ارتفاع الملح 86 مترا ، بأي مكان في الأرض ، ملح البحار إذا جمع من البحار ، وجفف ، وفرش على اليابسة على الخمس قارات لكان ارتفاعه 86 مترا .

رحمة الله تقتضي إنزال المطر ، والله عز وجل ثبّت ملايين القوانين ، قوانين الدوران ثابتة ، قوانين الإنبات ثابتة ، قوانين البذور ثابتة ، قوانين خصائص المعادن ثابتة ، إلا أنه حرك الرزق والصحة ، حركهما من أجل أن يؤدبنا بها .

فوائد حركة الرياح :

1 – تغيير الهواء وتجديده :

الآن تحريك الرياح منعش ، كان هناك غاز فحم فجاء مكانه أوكسجين ، أول شيء منعش ، فيه نفَس ، قد نحتاج نحن إلى ربع طاقة التكييف من دون أشخاص ، وكل واحد يبث هواء ساخنا ، هو الزفير ، في الشتاء قد يكون الرجل الواحد مدفأة ، وأحيانا لا يكون في الصف مدفأة ، لكن فيه كثافة عالية جداً ، من نفَس الطلاب تجد الصف معتدل الحرارة ، أول صفة للرياح أنها تجدد هواء الغرفة ، الذي كان مثقلا بغاز الفحم ، الغاز السام القاتل ، فصار مثقلا بالأوكسجين .

2 – تلقيحُ النباتات :

شيء ثان : بحركة الرياح تلقح النباتات .

(وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ)

(سورة الحجر الآية : 22)

النباتات مذكر وأنثى ، في المذكر عناصر التذكير ، وهي حبوب الطلع ، هذا الطلع ينتقل عبر الهواء إلى المؤنث فتعقد الثمرات ، الرياح لواقح .

تساعد الرياح النحل ، النحل له مهمة التلقيح أيضاً ، وتحريك الرياح بالسحاب المثقل بالرياح ينقل الأمطار من مكان إلى مكان ، إذاً : الرياح متعلقة بالرزق ، متعلقة بالانتعاش ، وعدم التسمم ، متعلقة بخيرات لا يعلمها إلا الله ، أصل الرياح تتحرك ، وقد يقال لك : الجو جامد ، الإنسان يحس بضيق شديد ، أما إذا تحرك الهواء انتعشت النفوس .

حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ

1 – حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا

(حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا)

أقلّت أيْ حملت ، الرياح تحمل السحاب ، إلهنا وربنا قال :

2 – سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ

(سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ)

الأشجار خشب ، الأرض بُنية اللون ، بعد الأمطار امش بطريق في الربيع ، أنواع الأزهار لا تعد ولا تحصى ، أين البذور ؟ الأشجار أزهرت ، ثم أورقت ، ثم أثمرت ، المسطحات الأرضية أصبحت خضراء ، على أطراف السواقي الأزهار والرياحين ، كلها طبيعية ، ترى جنة ، هذه النباتات أين كانت؟ كانت بذوراً كامنة ميتة ، فجاء الماء فأحياها .

(حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ)

ساقه الله

(لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ)

ساقه لبلاد عديدة كلها ميتة .

فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُل الثَّمَرَاتِ

(فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُل الثَّمَرَاتِ)

أحياناً يقال لك : كيلو المشمش بخمسين ليرة ، أحيانا بسبعين ، وإذا ساق الله عز وجل أمطارا غزيرة يكون بخمس ليرات ، لأنه يكثر ، وأحياناً يكون محصولنا من القمح ستة ملايين طن ، أحياناً 600 ألف طن أقلّ من مليون ، فالله عز وجل بيده الرزق .

(حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ)

السحاب لفظٌ مذكر ، وهو اسم جنس ، لأننا لا نقول : سقناها .

قياسٌ لإثبات البعث : كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى

(سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُل الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى)

تجد تربة مدفن من مدافن المدينة ، كيف أنك إذا صببت الماء على التراب حار جاف ، ما فيه حياة أبداً، بعد أسابيع اخضر ، أنبت الحشيش ، أنبت الأزهار ، أين كانت هذه ؟ وكذلك الله عز وجل حينما يأتي يوم القيامة هذه النفوس المدفونة بباطن الأرض .

(وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً)

(سورة نوح)

(فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُل الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

كما أن الماء ينبت النبات فيوم القيامة ينبت الإنسان ، أين بذرته ؟ ذرة ، في عجُز الإنسان آخر نقطة في عموده الفقري نقطةٌ اسمها عجب الذنب ، هذه تبقى حية في الميت ، هذه البذرة يوم القيامة تنبت ، ورجع الإنسان ليحاسب ، لماذا أكلت المال الحرام ؟ لماذا هدمت البيوت يا فلان ؟ أمد الله بعمره حتى الآن ، 3 سنوات ما كان ليموت ، وقد هدم سبعين بيتا ، لماذا هدمت البيوت ؟ لماذا نهبت الثروات ؟ لماذا قهرت البشر ؟ لماذا ظلمت ؟ لماذا قتلت ؟ لماذا نهبت ؟ ذرة صغيرة ، آخر ذرة بالعمود الفقري تبقى حية ، ومنها ينبت الإنسان ، حتى لو غرق في البحر ، حتى لو سقط من طائرة ، حتى لو احترق ، هذه الذرة عجب الذنب لا تموت ، ومنها ينبت الإنسان .

(وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا)

(فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

أحياناً تأتي موجة حر عالية جداً ، 47 درجة ، أصبحنا مثل الخليج ، هل فكر أحدكم ما حكمة ذلك ؟ الله عز وجل حينما قال :

(أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ)

(سورة الواقعة)

ثم يقول :

(نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً)

(سورة الواقعة الآية : 73)

تذكرك بماذا ؟ موجة الحر الـ47 في دمشق بماذا تذكر ؟ بجهنم ،

(نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً)

جهنم :

(وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

(سورة البقرة الآية : 24)

أعتقد أن في البراكين ترون بعض الصور ، سيل أسود ، هذه صخور بازلت أقسى أنواع الصخور من شدة حرارة 2000 درجة أصبحت سائل جهنم .

(وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

الدرجات بالآلاف ، وليست 47 بالآلاف ، حتى يكون الحجر وقوداً للنار .

لذلك :

(كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

(وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ)

(سورة الأعراف)

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ

بلاد فيها مؤمنون ، فيها صادقون ، فيها موحدون ، فيها محسنون ، ما فيها تفلت ، ما فيها عُري ، ما فيها شرب خمور ، تجد المكان إذا كان فيه أنهار من أول الطريق إلى آخره على الصفين الملاهي ، ماذا في بالملاهي ؟ خمور ، ومغنون ، وراقصات وحرام ، وأوكار للزنا ، بلد فيها ملاه تنتهك فيها الحرمات ، ترتكب فيها المعاصي والآثام ، هذا بلد ليس طيباً ، قال :

(وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا)

وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا

أي قليلا ، ولا ينتفع به ، يقال لك : موجة صقيع استمرت تسع ثوانٍ ، الحد الأدنى ست ثوان ، دون الست ثوان النبات لا يصقع ، وإذا أتت موجة صقيع على منطقة واسعة جداً يموت البرعم كله .

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

(سورة القلم)

تسع ثوان فقط تنهي كل شيء ، أصحاب الجنة أقسموا :

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ)

(سورة القلم)

أي لا يعطون أحد من الفقراء ،

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

(وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ)

العلمُ كالماء : كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ

العلم كالماء ، الماء أحياناً يصيب أرض خصبة ، ينبت الزرع والزيتون والفواكه ، والثمار ، والمحاصيل ، وهناك أرض تحبس الماء ، لكنها لا تنبت ، ينتفع بهذا الماء غيرها ، وهناك أرض تبلع الماء ، وتستهلكه ، ولا تنبت شيئاً ، فالإنسان أحيانا ينتفع بالعلم ، وهناك إنسان ينقله ، فيقدّم خدمة ، وهناك إنسان لا ينتفع به ، ولا ينقله .

(كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(25-60): تفسير الآيات 59 - 62 ، معاناة النبي في نشر هذا الدين العظيم ـ كل الرسالات السماوية واحدة ومتكاملة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-08-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الخامس والعشرين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية التاسعة والخمسين ، وهي قوله تعالى :

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ

1 – قصصُ الأنبياء تثبت قلبَ النبي عليه الصلاة والسلام :

أيها الإخوة ، هذه الآية مهمتها أن تخفف عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يعانيه من تكذيب ومعارضة ، وقد قال الله عز وجل :

(وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

(سورة هود الآية : 120)

قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في نصف هذه الآية يزداد ثبوتاً بسماع قصة نبي دونه ، لست وحدك يا محمد الذي يُكذب ، لست وحدك يا محمد الذي يعاني ما يعاني ، لأن معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية ، وطّنوا أنفسكم على ذلك ، كان من الممكن أن يكون الكفار في كوكب آخر ، وكان من الممكن أن يكونوا في قارة أخرى ، وكان من الممكن أن يكونوا في حقبة أخرى ، ولكن شاءت حكمة الله أن نجتمع معاً في كل زمان ومكان ، وهذا الاجتماع يقتضي معركة أزلية أبدية من آدم إلى يوم القيامة .

2 – لابد من الابتلاء في الدعوة إلى الله :

حينما يوطن الإنسانُ نفسَه على واقع يقبله ، ويتعامل معه ، ومعركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية، يا محمد لست بدعاً من الرسل ، لست وحدك الذي تُكذب ، لست وحدك الذي تؤذى ،

قال عليه الصلاة والسلام : عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ))

[أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة وابن حبان]

((قال : يا رسول الله إني أحبك ، قال : انظر ما تقول ، قال : والله إني أحبك قال : انظر ما تقول ، قال : والله إني أحبك ، قال : إن كنت صادقاً فيما تقول للفقرُ أقرب إليك من شرك نعليك))

[ورد في الأثر]

هناك ابتلاء وامتحان .

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت)

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ)

(سورة البقرة الآية : 214)

مستحيل وألف ألف مستحيل ألا تمتحن ، أو ألا تبتلا . قيل للشافعي : " يا إمام ، أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ فقال : لن تمكن قبل أن تبتلى " . قال تعالى :

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون)

يا محمد لست :

(بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ)

(سورة الأحقاف الآية : 9)

لست وحدك الذي تُكذَّب ، لست وحدك الذي تُعارَض ، لست وحدك الذي يُنكل بك ، هذه سنة الله في الخلق . فاتني أن أقول لكم : لماذا أراد الله أن نكون معاً ، في كل زمان ، وفي كل مكان ؟ لماذا أراد أن يكون أهل الحق مع أهل الباطل في كل مكان ؟ على مستوى الأسرة ، على مستوى الحي ، على مستوى الدائرة ، على مستوى المستشفى ، على مستوى المدرسة ، أناس مع الحق في أعلى درجة من الكمال ، أناس في أدنى درجة من السخف والاستهزاء والتنكيل ، هذه سنة الله في الأرض ، الحكمة منها أن الحق لا يقوى إلا بالتحدي ، وأن أهل الحق لا يستحقون الجنة إلا بالتضحيات .

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

(سورة آل عمران)

يجب أن تؤمن أن الابتلاء أحد سنن الله في الأرض ، أنت ممتحن .

3 – الإنسانُ ممتَحَنٌ في كل شيءٍ :

بالمناسبة : أنت ممتحن فيما أعطاك الله ، أعطاك صحة ممتحن بها ، أعطاك مال ممتحن به ، أعطاك مكانة ممتحن بها ، أعطاك علم ممتحن به ، وممتحن أيضاً فيما زوي عنك ، كنت تتمنى أن تكون ذا دخل غير محدود ، فدخلك محدود ، هذا امتحان ثانٍ ، كنت تتمنى أن تكون لك زوجة على نمط آخر ، فكانت على نمط لا يرضيك ، هذا امتحان ثانٍ ، أنت ممتحن فيما أعطيت ، ممتحن فيما زُوِيَ عنك .

لذلك من أدق أدعية رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ اللَّهُمَّ))

[الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ الْخَطْمِيِّ الْأَنْصَارِيِّ]

يا رب ، أعني على توظيفي في مرضاتك ، قال تعالى :

(وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ)

(سورة القصص الآية : 77)

ابتغ بالمال الدار الآخرة ، ابتغ بوسامتك الدار الآخرة ، ابتغ بفصاحتك الدار الآخرة ، ابتغ بعلمك الدار الآخرة ، ابتغ بغناك الدار الآخرة ، ابتغ بوجاهتك الدار الآخرة ،

(وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ)

لذلك :

((اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ ، اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ اللَّهُمَّ ، وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ))

[الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ الْخَطْمِيِّ الْأَنْصَارِيِّ]

عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))

[مسلم]

يا محمد لا تحزن ، لا تحزن ، لا تضجر ، لا تيأس .

(مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ)

(سورة الأحقاف الآية : 9)

الأنبياء السابقون كُذبوا ، وأوذوا ، وسُخر منهم ، وكلما مر عليه ملأ من قومهم سخروا منه ، والآن المؤمن يُسخر منه ، محدود ، جامد ، متزمت ، لا يتحرك ، لا يطلع على ما في الدنيا من مباهج ، يخاف من المرأة أن يختلط بها .

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين)

الكافر يضحك قليلاً ، وسيبكي كثيراً ، أما المؤمن فقد يبكي قليلاً ، ولكن سيضحك كثيراً ، حينما يولد الإنسان كل من حوله يضحك ، وهو يبكي وحده ، أما إذا وافته المنية فكل من حوله يبكي ، فإذا كان بطلاً يضحك وحده .

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ)

(سورة يس)

لذلك :

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ)

فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ

قال بعض علماء البلاغة :

(لَقَدْ)

تقترب من القسم ،

(لَقَدْ)

حرف تحقيق ، كأن تقول : والله لقد زرتك ، أو لقد زرتك ، تقترب من القسم .

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ)

علّةُ وجود الإنسان عبادةُ الله وحْدَه :

علة وجودنا أن نعبد الله من الجهة التي ينبغي أن نعبدها ؟ الجهة التي خلقت ، والجهة التي صورت ، والجهة التي أبدعت ، والجهة التي ترزق ، والجهة التي تحي وتميت ، هذه الجهة ينبغي أن تعبدها .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة)

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ

لا إله بحق ، ولا رافع ، ولا خافض ، ولا معز ، ولا مذل ، ولا معطي ، ولا مانع ، ولا رازق ، ولا جبار إلا الله ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد .

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر الآية : 2)

يا رب ، ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد مَن فقدك ؟ وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

(مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

صحتك ، أجهزتك ، حواسك ، زوجتك ، أولادك ، رزقك ، دخلك ، مَن هم أقوى منك ، من هم أضعف منك ، من هم كانوا على شاكلتك ، كل أمورك بيد الله . عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ آخِرَتِهِ كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ))

[ابن ماجه]

((اعمل لوجه واحد يكفِك الوجوه كلها))

[أخرجه ابن عدي والديلمي عن أنس]

(مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

((لا يرجو عبد إلا ربه ، ولا يخافن إلا ذنبه))

[مسند الفردوس عن علي بن أبي طالب]

هذا التوحيد ، التوحيد أن توحد وجهتك إلى الله ، التوحيد أن تتوكل على الله التوحيد أن ترضي الله ، التوحيد أن تتقي سخط الله ، التوحيد أن تتعامل مع الله وحده .

(مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

حينما يتخذ الإنسان إلهاً آخر الآن سيرضي هذا الإله الآخر ، سواء كان رجلا قويا ، رجلا غنيا ، قد يتخذ شهوته إلهاً ، إذا كان يحب زوجته ، وكانت فاسقة ويرضيها من أجل أن تبقى عليه راضية فقد اتخذها إلهاً ، إذا أراد أن يرضي ابنه في معصية الله اتخذه إلهاً ، إذا أراد أن يرضي من فوقه ، وخاف أن يصوم في رمضان فأفطر أمامه اتخذه إلهاً . لذلك أيها الإخوة ، الذي يتخذ من دون الله إلهاً أمامه عذاب عظيم ، لأنه سوف يخرج عن منهج الله ، وسوف يرضي هذا الإله الذي اتخذه إلهاً ، ولئلا تقعوا في حيرة ، كأن يقول إنسان لإنسان : أنت إله ، لكن يعامله كإله ، إذا أمره بمعصية ينفذ أمره فوراً ، إذا أبعده عن عمل خير ينفذ أمره فوراً ، أنا لا أقول : في عالم المسلمين من يقول : هذا إله ، لكن العبرة أنه يُعامل كإله ويُطاع في معصية .

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ)

العبادة طاعة طوعية ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية ،

(اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

سيدنا عمر كان له مظهر لم يكن يُرضي بعض ولاة الشام ، قال له أحدُهم : يا أمير المؤمنين ، أهكذا تقدم عليهم هكذا ؟ قال له : << يا أبا عبيدة ، والله لو قالها غيرك لنكلت به ، نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، ومهما ابتغينا العزة بغير الله أزلنا الله >> . انظروا إلى المسلمين اليوم ، يبتغون العزة بغير الله ، بعلاقات طيبة مع أعدائهم ، بتطبيع العلاقات ، بالخضوع والانبطاح ، هؤلاء حينما يفعلون هذا يزدادون عند الله ذلاً ومهانة ، ومهما ابتغينا العزة بغير الله أذلنا الله .

عداوة الكفار لخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام :

أيها الإخوة ، لماذا العداوة التي صُبت على النبي عليه الصلاة والسلام ؟

بالمناسبة ، كلما ارتقيت في سلم النجاح ازداد الخصوم ، حتى في بعض الأقوال أنه " لا بد للمؤمن من مؤمن يحسده ، ومن منافق يبغضه ، ومن كافر يقاتله ، ومن نفس ترديه ، ومن شيطان يغويه " .

الأنبياء جميعاً كان لهم مكان محدد ، وزمان محدد ، لكل قوم نبي ، زمان محدد مكان محدد ، إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام أرسل إلى كل الأمكنة ، هو :

(رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

(سورة الأنبياء)

أرسل إلى كل الأزمنة ، إلى نهاية الدوران ، لا شك أنه سيد الأنبياء والمرسلين ورسالته تشمل الأمم أجمعين ، والأزمنة كلها ، فلذلك كان التكذيب . بالمناسبة : لماذا أوذي النبي في الطائف ؟ لأنه قدوة لنا، قدوة للدعاة إلى يوم القيامة ، أي إنسان دعا إلى الله ، هناك من عارضه ، هناك من انتقده ، هناك من مكر به ، هناك أقوياء عليه ، لك في النبي أسوة حسنة ، ذهب إلى الطائف وكُذب ، وسُخر منه ، وأغري الصبيان بأن يضربوه ، وضربوه ، وسال الدم من قدمه الشريف ، قال :

((يا رب ، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولك العتبى حتى ترضى ، لكن عافيتك أوسع لي))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

مَن أنت أمام النبي عليه الصلاة والسلام ؟ لما قال :

((يا رب ، إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا رب المستضعفين إلى من تكلني ؟ إلى صديق يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولك العتبى حتى ترضى ، لكن عافيتك أوسع لي))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

هذا الدعاء يصلح لكل مسلم الآن ، لكل مسلم ، لأن الذي يعانيه المسلمون شيء لا يحتمل ، إن كان هناك من خط بياني فهم في الحضيض الآن ، العالم كله يتّهمهم بالإرهاب وبالجهل وبالتخلف ، العالم متفق على التنكيل بهم ، متفق على إفقارهم ، متفق على إضلالهم متفق على إذلالهم ، متفق على إفسادهم ، متفق على إبادتهم . دعاء النبي عليه الصلاة والسلام في الطائف يصلح لكل مسلم الآن ، ولكن أراد الله أن يمكنه من أن ينتقم منهم ، فجاءه ملَك الجبال قال :

((إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))

[متفق عليه عن عائشة]

الْأَخْشَبَيْنِ : أي الجبلين ، هنا البطولة ، لم ينتقم منهم ، قال :

((بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))

لم يتخلَ عنهم ، ودعا لهم ، واعتذر عنهم ، إنهم لا يعلمون ، وتمنى على الله أن ينجبوا ذرية صالحة ، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحده . الخط البياني في النهاية ، جاء الإسراء والمعراج ، قال تعالى :

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

(سورة الإسراء الآية : 1)

لو أن شخصا ضعيفا في حفظ القرآن الكريم أيّ كلمتين تناسبان هذه الآية ؟ أنا أعتقد :

(إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة الأحقاف)

لأنه نقله من مكة إلى بيت المقدس ، أسرى به ، وعرج به إلى السماوات العُلا حتى بلغ سدرة المنتهى، إذاً :

(إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

لكن الآية ليست كذلك ، قال تعالى :

(إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

(سورة الإسراء الآية : 1)

يا محمد سمعنا دعاءك في الطائف ، سمعنا تضرعك ، سمعنا أنك قلت : إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولك العتبى حتى ترضى ، سمعنا دعائك في الطائف ، وهذا هو التكريم ، أنت سيد الأنبياء والمرسلين .

العبرة بالنتائج والخواتيم :

لذلك أيها الإخوة ، ما من محنة تصيب المؤمن إلا ووراءها منحة من الله ، وما من شدة تصيب المؤمن إلا ووراءها شدة إلى الله .

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

العبرة بالنتائج ، هؤلاء الأقوياء الأشداء المسيطرون في عهد النبي زعماء قريش ، سادة قريش ، كبراء قريش ، علية القوم ، الأغنياء ، الأقوياء ، الذين تفننوا في التنكيل بأصحاب النبي ، أين هم الآن؟ في مزبلة التاريخ ، قل : أبو جهل ، ماذا تقول بعدها : الله يرضى عنه ؟! دمره الله ، لعنه الله ، قل : سيدنا الصديق ، رضي الله عنه وأرضاه ، سيدنا عمر ، هؤلاء الذين وقفوا مع الحق هم في أعلى عليين، الحياة هكذا ، إياك ، ثم إياك ، ثم إياك أن تقف في خندق معاد لدين الله ، كن مع الحق ، كن ذنباً لأهل الحق ، ولا تكن رأساً لأهل الباطل ، أهل الحق ما عندهم أذناب أبداً ، لكن هذا تعبير مستخدم الآن، ولا تكن رأساً لأهل الباطل .

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

(سورة الحجرات الآية : 10)

سيدنا بلال عبد حبشي ، قال له سيده لسيدنا الصديق : والله لو دفعت به درهماً لبعتُكَه ، قال له : << والله لو طلبت به مئة ألف درهم لدفعتها لك >> . اشتراه ، ووضع يده تحت إبطه ، قال : << هذا أخي حقاً >> ، كان الصحابة الكرام إذا ذكروا الصديق يقولون : << هو سيدنا ، وأعتق سيدَنا >> ، أيْ بلالاً ، هذا الإسلام ، الإسلام ما فيه فروق طبقية أبداً ، الإسلام ما فيه تمايز ، ما فيه عنصرية . أيها الإخوة ، إذاً النبي أوذي في الطائف ، لأنه قدوة للدعاة من بعده إلى يوم القيامة . السيدة عائشة السيدة الأولى ، المصون ، العفيفة ، الطاهرة ، اتهمت في أقدس ما تملكه امرأة ، لماذا اتهمت ؟ لتكون أسوة لكل مؤمنة إلى يوم القيامة بريئة وطاهرة واتهمت الله عز وجل جعل من الصحابة نماذج تحتذى .

قصص الأنبياء نماذج وقوانين :

الآن قصص الأنبياء لمن ؟ للأنبياء ؟ ماتوا ، لمَ يقول جل جلاله :

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأنبياء)

1 – قصة سيدنا يونس :

سيدنا يونس وجد نفسه في بطن حوت ، وإذا كانت الأسعار غالية ، عندك مشكلة ، عندك كساد ، هل تساوي هذه أن تجد نفسك في بطن حوت في الليل في أعماق البحر ؟ هل من مصيبة أكبر من أن تجد نفسك في بطن حوت ؟ الحوت وجبته المعتدلة أربعة أطنان ، أنت لقمة واحدة ، يرضع وليده 300 كغ في اليوم 3 مرات ، طن من حليب كل يوم ، يفتح فمه فيجمع 4 أطنان بين الظهر والعصر ، نبي كريم وجد نفسه في بطن حوت :

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ)

(سورة الأنبياء الآية : 88)

هذه القصة وانتهت ، الآن قلبت إلى قانون :

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

في أي عصر ، في أي مصر ، في أي مكان ، في أي زمان ، بأي خطر

(وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِين)

لمن هذه القصة ؟ لنا .

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

(سورة الشعراء)

2 – قصة سيدنا موسى :

بالمعطيات الأرضية ، فرعون بجبروته ، بطغيانه ، بأسلحته الفتاكة ، بحقده ، بتألهه ، يتبع نبياً كريماً، وشرذمة من بني إسرائيل ، هل هناك أمل بالنجاة ، إلى أن وصلوا إلى البحر ، البحر أمامهم ، وفرعون وراءهم ، لا أمل ، الأمل صفر :

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

(قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِين)

(سورة الشعراء)

الله على كل شيء قدير ،

(وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

أيها الإخوة ، إذاً : قصص الأنبياء أيضاً تثبيت للمؤمنين .

3 – قصة سيدنا يوسف :

سيدنا يوسف قال :

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

(سورة يوسف الآية : 23)

جعله عزيز مصر ، وكل الأنبياء والمرسلين قصصهم درس لنا . بالمناسبة : كل قصة من القصص المتكررة عولجت في القرآن الكريم ، وهي قصص متعددة ، وكلّ مكان من زاوية ، وكل مكان لهدف ، نجمع ما قيل في سيدنا موسى في كل السور تجد القصة متكاملة ، نجمع ما قيل في سيدنا نوح من كل الصور قصص متكاملة ، إلا قصة واحدة عولجت في سورة واحدة هي قصة سيدنا يوسف ، لأن مغزاها التوحيد ، فإخوة يوسف أرادوا به كيداً ، وضعوه في غيابات الجب ، واحتمال الموت 99 % ، فالذي حصل أنه صار عزيز مصر ، وخضعوا له ، وخروا له سجداً ، قال :

(وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً)

(سورة يوسف الآية : 100)

(إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ)

(سورة يوسف الآية : 90)

سورة يوسف فيها آية واحدة هي المغزى ، دققوا في هذه الآية :

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

أنت تريد وأنا أريد ، والله يفعل ما يريد ، عبدي كن لي كما أريد أكن لك كما تريد ، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك ، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك وما تريد ، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد .

(قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة الأعراف)

قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ

1 – مَن هم الملأ ؟

من هم الملأ ؟ الملأ علية القوم ، سادة القوم ، أو الذين يملؤون عينك مهابة شخصية مرموقة ، شكل ، منطق ، هدوء ، وقار

(قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ)

أي سادة القوم ، أو الذين يملؤون العين وقاراً ومكانة .

2 – تهمة قديمة : إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ

(إِنَّا لَنَرَاكَ)

يا نوح

(فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ)

ضلال اسم جنس ، كل الذي قلته من الضلالات ، هكذا اتهام .

يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ

(قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأعراف)

قالوا :

(إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ)

اسم جنس .،

1 – الردُّ : يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ

قال :

(يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ)

لو قال لك واحد: أعندك خبز ؟ قلت له : والله ما عندي كسرة خبز ، أنت حينما نفيت الجزء ماذا أردت من ذلك ؟ أن تنفي الكل ، يقول لك : أعندك رغيف ؟ تقول له : ما عندي كسرة خبز .

(إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ)

ولا ضلالة واحدة ، أنا يوحى إلي ، هذا كلام رب العالمين .

2 – النبيُّ نبيٌّ يوحى إليه : وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ

بالمناسبة : أعداء المسلمين بمكر خبيث يوهموننا أن نبينا محمد عبقري ، مصلح اجتماعي كبير ، رجل فذ ، لا ، نبينا نبي يوحى إليه ، النبي عليه الصلاة والسلام لا يُطرح في مجتمع المسلمين على أنه

عبقري ، ولا على أنه مصلح ، هو نبي هذه الأمة ، يتلقى وحياً من السماء ، لذلك الإسلام ليس كما يفهمه أعداء الإسلام ، أنه منتج أرضي للتراث ، لا ، ليس تراثًا ، الإسلام وحي السماء ، الوحي لا علاقة له بالبشر . الدليل : لما اتهمت السيدة عائشة رضي الله عنها ، لو أن الوحي من عند النبي بعد دقيقة تأتي آية التبرئة ، أربعون يوما بغير إثبات ، ولا نفي ، حتى يعلمنا الله أن هذا الوحي مستقل عن النبي الكريم ، لا يملك له استدعاءاً ولا رداً . فلذلك :

(وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)

هذا الإله العظيم الذي يربيكم ، الذي يعتني بكم ، الذي يمدكم بالهواء بالماء ، بالطعام ، بالشراب ، بما تشتهون ، بالمعادن ، بأشباه المعادن ،

(وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)

(أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ

1 – معنى : أُبَلِّغُكُمْ

(أُبَلِّغُكُمْ)

بلغ ، سافر من دمشق فبلغ حلب ، وصلها بالتمام والكمال ، البلاغ بيان كامل ، بيان شامل ، بيان واضح ،

(أُبَلِّغُكُمْ)

كلنا إذا وقفنا أمام قبر أن النبي ماذا نقول ؟ أشهد أنك بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونصحت الأمة ، وكشفت الغمة ، وجاهدت في الله حق الجهاد ، وهديت العباد إلى سبيل الرشاد .

2 – أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي

(أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي)

لماذا جاءت جمعاً ؟ لَمَ لمْ يقل أبلغكم رسالة ربي ، إشارة إلى أن جميع الرسالات واحدة ، يعني جئت برسالة سبقها رسالات ، لذلك :

(لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)

(سورة البقرة الآية : 285)

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

فحوى دعوة الأنبياء واحدة ، ملخصة بكلمتين :

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

نهاية العلم التوحيد ، ونهاية العمل العبادة .

3 – وَأَنصَحُ لَكُمْ

(أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ)

أنصح لكم في كل شيء ، في حياتكم ، في شؤون حياتكم ، رسالة مطولة . والله لا أبالغ ، هذا الذي يتوهم أن الإسلام صوم ، وصلاة ، وحج وزكاة ، هذا إنسان واهم ، الإسلام ولا أبالغ 500 ألف بند ، يبدأ من فراش الزوجية ، وينتهي بالعلاقات الدولية ، منهج كامل ، أما حينما ظنه المسلمون عبادات شعائرية صار حالهم إلى ما آل إليه ، الإسلام ليس في المسجد ، بل في بيتك ، في كسب مالك ، في إنفاق مالك ، في علاقاتك مع النساء ، في نزهاتك ، في أفراحك ، في أتراحك ، في سفرك ، في حلك ، في ترحالك ، الإسلام منهج كامل .

(أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

4 – وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

إخواننا الكرام ، مرة ثانية أستخدم هذا المثل الطويل : قال لك طفل: معي مبلغ عظيم ، والده مدرس ، عقب أيام العيد قال لك : معي مبلغ عظيم ، أنت تقول : 200 ليرة ، مسؤول كبير بالبنتاغون يقول لك : أعددنا لحرب العراق مبلغاً عظيماً ، تقدره 200 مليار دولار ، فإذا قال ملك الملوك :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

(سورة النساء)

من 200 ليرة إلى 200 مليار ، ضرب خمسين ، الآن أقلّ من خمسين ، فإذا قال خالق السماوات والأرض :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

يعني أنّ أعظم فضل على الإنسان أن يعرف الله . ابن آدم اطلبني تجدني ، فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتُّك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء .

رتبة العلم أعلى الرتب :

في دمشق ثانوية ضخمة جداً ، وأضخم ثانوية كانت كأنها جامعة قديماً ، كتب في مكان مرتفع من مدخلها : " رتبة العلم أعلى الرتب " ، وما مِن رتبة عند الله أعلى من العلم ، قال تعالى :

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر الآية : 9)

قال تعالى :

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة الآية : 11)

قال تعالى :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام الآية : 132)

القرآن اعتمد قيمتين فقط : قيمة العلم ، وقيمة العمل ، وأما القيم الأخرى فلم يعبأ بها القرآن ، الوسامة، والذكاء ، والغنى ، والقوة ، هذه قيم أغفلها القرآن الكريم .

((رب أشعث أغبر ذي طمرين ، مدفوع بالأبواب ، لو أقسم على الله لأبره))

[أخرجه الحاكم في المستدرك وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة]

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ* خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)

(سورة الواقعة)

الذين كانوا في الأرض في القمم ، قد تجدهم يوم القيامة في الحضيض ، والذين كانوا في الحضيض في المقياس الاجتماعي موظف بسيط ، لكنه مستقيم ، قد تجده يوم القيامة في القمم :

(خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ)

تماماً كهذه القلابة ، التي فيها مقاعد متتالية تارةً تكون في الأسفل ، ثم في الأعلى ،

(خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ)

هكذا الحياة ـ لذلك :

((ابتغوا الرفعة عند الله))

[أخرجه ابن عدي في الكامل عن ابن عمر]

(أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)

الله عز وجل في بعض الآيات الكريمة يقول :

(شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)

(سورة الشورى الآية : 13)

الدين واحد ، أما الشرائع فمختلفة ، بحسب العصور والتطورات والأنصار وشريعتنا .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(26-60): تفسير الآيات 65 ـ 72 ، صفات عاد الأولى تنطبق على صفات عاد الثانية ـ للذكر معانٍ عديدة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-08-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس السادس والعشرين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الخامسة والستين ، وهي قوله تعالى :

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

قومُ عاد :

1 – قومُ عاد مَثَلٌ للذين من بعدِهم :

أول شيء قوم عاد ضرب الله مثلاً بهم للأمم الطاغية الباغية المستكبرة المعتدية .

2 – قومُ عاد تفوّقوا في المجالات الدنيوية :

لذلك لو حللنا مجموعة الصفات التي وصفوا بها في القرآن الكريم لأخذنا العجبُ العجاب ، هؤلاء القوم تفوقوا في شتى المجالات ، قال تعالى :

(لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

(سورة الفجر)

وهؤلاء القوم كانوا متغطرسين .

(وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

(سورة فصلت الآية : 15)

وهؤلاء القوم تفوقوا في البنيان ، قال تعالى :

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ)

(سورة الشعراء)

وهؤلاء القوم بظاهر الآية تفوقوا في الصناعة :

(وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

(سورة الشعراء)

وهؤلاء القوم تفوقوا في الناحية العسكرية ، قال تعالى :

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

(سورة الشعراء)

وهؤلاء القوم تفوقوا في الناحية العلمية ، قال عزوجل :

(وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)

(سورة العنكبوت)

تفوقوا في شتى المجالات ، تغطرسوا ، استكبروا ، تفوقوا في العمران ، في الصناعة ، في الحرب ، في العلم .

3 – قومُ عاد قوم طاغون معتدون مفسدون :

وهؤلاء القوم ماذا فعلوا ؟ قال :

(طغَوْا فِي الْبِلَادِ)

(سورة الفجر)

لم يقل : طغوا في بلدهم ، بل

(فِي الْبِلَادِ)

(فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)

(سورة الفجر)

بالطغيان يحاربون ، وينتهكون الحرمات ، ويقتلون الأبرياء ، و ينشرون الفساد في الأرض .

(فصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ* إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر)

(وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)

(سورة الحاقة)

من معاني : وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى

(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى)

(سورة النجم)

من معاني هذه الآية : أن هناك عادا ثانية ، ويعاني العالم منها ما يعاني اليوم ، وإن صفات عاد الأولى تنطبق انطباقاً تاماً على صفات عاد الثانية . لذلك كان المصير واحدا :

(فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

لكن الشيء الذي يلفت النظر أن الله جل جلاله ما ذكر أنه أهلك قوماً إلا وذكّرهم أنه أهلك أشد من هو أشد منهم قوة ، إلا عاداً حينما أهلكها قال :

(هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً)

(سورة فصلت الآية : 15)

فبنص هذه الآية لم يكن فوق عاد إلا الله ، وهذه عبرة ما بعدها عبرة .

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ

أيها الإخوة ، يقول الله عز وجل :

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ)

1 – إعراب

(أخاهم):ماذا تعني (أخاهم)؟

(أخاهم)مفعول به بفعل محذوف تقديره : وإلى عاد أرسلنا أخاهم ، إذاً : هو مفعول به بفعل محذوف تقديره أرسلنا .

2 – معنى

(أخاهم):ما معنى أخاهم ؟ أي من جنسهم ، هم بشر ، وهودٌ بشر ، وأن لغته كلغتهم ، وهذه نعمة كبيرة ، واللغة أكبر حاجز بين شخصين .

(أَخَاهُمْ هُوداً)

أي من جنسهم ، هو بشر تجري عليه كل خصائص البشر ، وهو نبي لهم ، ولغته من لغتهم ، هم يأنسون به ، لماذا ؟ لأنهم يعرفون عنه كل شيء .

أنت مثلاً لك أخ ، أنت كبير في السن ، وهو صغير ، تعرفه من ولادته إلى الآن ، لا يغيب عنك شيء منه .

فأخوهم من جنسهم ، وهو بشر ، ولغته كلغتهم ، يعرفون عنه كل شيء .

إذا قال لك رجلٌ غريب : تعال اذهب معي إلى هذا المسجد فإنك تخاف منه ، لا تعرفه ، أما لو قال لك أخوك ذلك فأنت مطمئن إليه .

معنى (أخاهم) أنه من جنسهم ، لولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان صالحاً لهدايتهم ، هم يشتهون ، وهو يشتهي كما يشتهون ، هم يخافون ، وهو يخاف كما يخافون ، هم يبحثون عن السلامة والسعادة ، وهو يبحث عن السلامة والسعادة ، هو من جنسهم ، ويتكلم بلسان قومه ، لغته كلغتهم ، ولأنهم يعرفون عنه كل شيء فما توجسوا منه خيفة ، ولم يخافوا منه ، بل أنسوا به .

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ

أما معنى :

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ)

الأخوّة أخوّتان ، أخوة قريبة ، وأخوة بعيدة .

دخل على معاوية بن أبي سفيان حاجبه ، قال : أخوك في الباب ، يطلب أن يلتقي بك ، ومعاوية لا ليس له أخ ، قال له : أدخله ، دخل ، قال له : أنت أخي ؟ قال له : نعم ، أنا أخوك من آدم ، هذه أخوة بعيدة .

كل واحد من بني البشر أخ لأي واحد ، لأب واحد هو آدم ، ولأم واحدة هي حواء ، فكل إنسان على وجه الأرض في القارات الخمس هو أخوك من أبيك البعيد وأمك البعيدة .

ثم أعطى معاوية هذا الرجلَ مبلغا من المال فرآه يسيراً ، فعاتبه ، قال له معاوية : لو أعطيت كل أخ لي من أبي آدم لما وصلك شيء ، فهذا أخ بعيد ، أما الأخ القريب فمن أخ لأب وأم مباشرة .

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ)

1 – علةُ وجود الإنسان عبادةُ الله :

الدين كله مضغوط بكلمة العبادة ، بل إنّ علة وجودك على وجه الأرض أن تعبد الله .

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

هذه علة وجودك .

2 – ما هي العبادةُ ؟

والعبادة كما أقول دائماً : هي طاعة ، لكنها ليست قسرية ، بل هي طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، فما عبَد الله من أطاعه ولم يحبه ، وما عبد الله من أطاعه قسراً ، وما عبد الله من أحبه ولم يطعه، هي طاعة طوعية ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية .

(اعْبُدُواْ اللّهَ)

أكبر وهم توهمه المسلمون أنهم ظنوا أن العبادة أداءُ العبادة الشعائرية ، ولكن حقيقة العبادة هي أن تطيع الله جل جلاله في كل مفردات منهجه ، وقد تصل هذه المفردات إلى 500 ألف نوع ، في طعامك وشرابك ، في صحوك ونومك ، في سفرك ، في حلك وترحالك ، في زواجك وطلاقك ، في أفراحك ومسراتك وأحزانك ، في قوتك وضعفك ، في فقرك وغناك ، وأنت مع زوجتك ، وأنت مع أولادك ، بل إن هذا المنهج منهج تفصيلي ، يبدأ من الفراش الزوجية ، ويستمر إلى أن ينتهي بالعلاقات الدولية .

(اعْبُدُواْ اللّهَ)

أنواع العبادات :

1 – عبادةُ الهوية :

هناك عبادة الفرد ، عبادة الهوية ، الغني عبادته الأولى إنفاق المال ، والقوي عبادته الأولى إحقاق الحق ، والعالِم عبادته الأولى تعليم العلم ، والمرأة عبادتها الأولى رعاية زوجها وأولادها ، هذه عبادة الهوية .

2 – عبادةُ الظرف :

هناك عبادة الظرف ، عندك قريب مريض ، العبادة الأولى العناية بالمريض ، عندك ضيف ، العبادة الأولى إكرام الضيف ، عندك ابن في أسبوع الامتحان ، العبادة الأولى رعاية هذا الابن ، وتهيئة الجو المناسب له .

3 – عبادةُ الوقت :

هناك عبادة الوقت ، وقت الفجر وقت ذكر ، وصلاة ، وعبادة ، وتلاوة ، وقت النهار وقت العمل ، وقت العيد وقت سرور وبهجة ، في كل وقت عبادة لله ، وكل ظرف له عبادة ، وكل شخص له عبادة .

4 – عبادةُ العصر :

وهناك عبادة العصر ، إذا أراد أعداء المسلمين إفقارنا فكسب المال الحلال ، واستخراج الثروات ، وإنشاء السدود ، وتطوير الصناعات ، والبحث عن دخل كبير تحل به مشكلات المسلمين هي العبادة الأولى .

إن أرادوا إضلالنا فترسيخ معالم الدين ، وتوضيح قيم الدين ، والرد على المفترين ، وتوضيح بعض الشبهات هي العبادة الأولى .

إن أرادوا إفسادنا فرعاية الشباب والشابات ، وتهيئة مناشط إسلامية لهم ، وصيانة أخلاقهم هي العبادة الأولى .

إن أرادوا إذلالنا ، فبذل الغالي والرخيص ، والنفس والنفيس أول عبادة ، هذه عبادة العصر .

فالعبادة أوسع مفهوم في الدين ، تدور معك حيثما كنت ، أينما سافرت ، وفي أي سن كنت ، في سن الشباب ، في سن الكهولة ، في سن الشيخوخة ، متزوجا كنت أو غير متزوج ، عاملا كنت أو غير عامل ، موظفا كنت ، أو طبيبا ، أو مهندسا ، فما من إنسان إلا وهناك مئات الأحكام الشرعية التي ينبغي أن يفعلها حتى يعبد الله عز وجل . إذاً :

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ)

لماذا نعبد الله ؟

لماذا نعبد الله ؟ لأنه الخالق .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة الآية : 21)

مَن الجهة التي تستحق أن تعبدها ؟ الجهة الصانعة ، لأنها خبيرة في صنعتها .

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر الآية : 14)

الله وحده يعلم وسائل سلامتك وسعادتك ،

قال تعالى :

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد الآية : 28)

هذا قانون .

قال تعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

(سورة فصلت الآية : 46)

وفي آيات كثيرة قال عزوجل :

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة)

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل الآية : 97)

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

فلذلك الله عز وجل بيّن كل شيء ، فعبادته هي علة وجودنا ، وغاية وجودنا ، العبادة هي أن تعرفه فتطيعه ، فتسعد بقربه في الدنيا والآخرة ، فهو تعالى خلقك ليسعدك .

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود الآية : 119)

لابد أن تعبد الله وحدَه ، و لا تعبد معه غيرَه :

(اعْبُدُواْ اللّهَ)

وحده ، لذلك هناك من يعبد إنساناً ، ولئلا تعجبوا فهو لا يقول : هو إله ، يقول : فلان ، لكن يعامله كإله ، يعصي الله ويطيعه ، يترك فرضاً دينياً ويقول : فلان ، لكن يعامله كإله ، يعصي الله ويطيعه ، يترك فرضاً دينياً إرضاءً له ، أو تملقاً له .

فالعبادة لها شكل ، أن تقول : بوذا إله ، هذه عبادة ظاهرها شرك أكبر ، لكن أن ترضي إنساناً ، وتغضب خالق الأكوان فهذه عبادة من نوع ثانٍ ، هذه عبادة ضمنية ، فأنت حينما تطيع مخلوقاً وتعصي خالقك تكون بهذا قد عبدته من دون الله . لذلك :

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَار ، وَعَبْدُ الدِّرْهَم ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ))

[البخاري عن أبي هريرة]

والله عز وجل أكد هذا المعنى فقال :

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الجاثية الآية : 23)

هناك من يعبد المرأة من دون الله ، هناك من يعبد الدرهم والدينار من دون الله ، هناك من يعبد الطعام والشراب من دون الله ، هناك من يعبد السياحة من دون الله ، فالشهوات آلهة تُعبَد من دون الله .

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

1 – معنى

(مِن)في هذه الآية :

(مِن)تفيد استغراق أفراد النوع ، للتوضيح : لو قلت لأحدِهم : هل معك مال لأشترك معك في مشروع يحتاج إلى مليونين ؟ فإذا قال : ما عندي مال ، فالمعروف أنه ما عنده المليون الذي طلبته لهذا المشروع ، ما عنده المال الكافي ، أما إذا قلت له : ما عندي من مال ، أي ما عندي ولا ليرة ، فـ (من)تفيد استغراق أفراد النوع .

إذا دخلت إلى صف ، وقلت : لكم عندي هدية ، فإنك تشمل بقولك هذا الحاضرين فقط ، أمّا إذا قلت : ما من طالب في هذا الصف إلا وله عندي هدية ، فإن الغائبين يشملهم كلامُك ، فـ (من)تفيد استغراق النوع .

2 – مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ

(اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

الإله هو المسيِّر ، وما في جهة في الأرض مهما بدت لك قوية يمكن أن تفعل شيئاً .

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال الآية : 17)

الله وحده هو الفعال ، فعال لما يريد . الله :

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

3 – التوحيد ينجي صاحبَه :

ولا يعد الإيمان إيماناً منجياً إلا بالتوحيد ، وهو ألاّ ترى مع الله أحداً ، ألاّ ترى فاعلاً إلا الله ، ألاّ ترى معطياً إلا الله ، ألاّ ترى مانعاً إلا الله ، ألاّ ترى مُعِزًّا إلا الله ، ألاّ ترى مذلاً إلا الله ، ألاّ ترى خافضاً إلا الله ، ألاّ ترى ضاراً إلا الله ، ألاّ ترى نافعاً إلا الله ، هذا هو التوحيد ، ألاّ ترى مع الله أحداً ، أن تعلم أن يد الله تعمل وحده ، ولا أحد معه إطلاقاً .

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف)

(اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

مرة ذكرت أنّ طائرة دخلت في سحابة مكهربة ، وهي على وشك السقوط ، وفيها خبراء من دولة ، شعار هذه الدولة(لا إله)وقد تداعت من الداخل ، هؤلاء الملحدون دون أن يشعروا توجهوا إلى الله يلجؤون إليه بالدعاء ، الإيمان شيء فطري في كيان الإنسان ، لكن وهو في غنى وقوة يستغني عن الله.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى)

(سورة العلق)

(اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

ليس في الكون إلا الله ، لا فعال إلا الله ، لا رزاق إلا الله ، لا معطي إلا الله ، لا مانع إلا الله ، لا معز إلا الله ، لا مذل إلا الله ، لا موفق إلا الله ، كل شيء حينما تعلم أنه بيد الله تتجه إلى الله وحده ، ولا تتجه إلى سواه .

4 – الشركُ لا يغفره الله :

لذلك :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ)

(سورة النساء الآية : 48)

لماذا ؟ لو أن لك في حمص مبلغا ضخما جداً يُقَدَّرُ بخمسة ملايين ليرة ، وركبت قطار حمص ، وقطعت بطاقة من الدرجة الأولى ، لكنك ركبت في جهة من الدرجة الثالثة ، أليس هذا خطأ كبيرا ؟ لكن القطار متحرك نحو حمص ، وسوف تصل إليها ، سواء ركبتَ في الدرجة الأولى أو الثالثة ، مع أنك دفعت مبلغا كبيرا ، وركبتَ في جهةٍ متواضعة جداً ، وجلست بعكس سير القطار ، فأصبتَ بالدوار، هذا خطأ ثانٍ ، وجلست أمام شباب غير منضبطين فأزعجوك كثيراً ، هذا خطأ ثالث ، لكن القطار في طريقه إلى حمص ، والمبلغ سوف تأخذه ، ثم تلوى بطنُك من الجوع ، ولا تعلم أن هناك

مطعما صغيرا ، فأمضيت ساعتين أو ثلاثا وأنت جائع جوعاً شديداً ، هذا خطأ رابع ، لكن القطار في طريقه إلى حمص ، والمبلغ سوف تأخذه ، يمكن أن ترتكب أخطاء كثيرة تغتَفر ، أما لو أخطأت فركبت قطار مدينة درعا ، واتجهت نحو الجنوب ، ولو كانت درجة القطار فخمة جداً ومريحة ومكيفة ، وفيها نوافذ رائعة ، وفيها خدمة عالية ، لكن سفرك لا تجني منه خمسة ملايين ليرة ، لأنك اتجهت إلى لا شيء .

الآن اتجهْ إلى الله ، هناك أخطاء يغفرها الله لك ، هناك تقصير يسامحك الله عنه ، هناك زلة يقيلك الله من هذه العثرة ، هناك تقصير في العبادة يسامحك الله عنه ، هناك عدوان فتستسمح منه فيعفو عنك ، لكن لو أنك كفرت بالله ـ لا سمح الله ـ وتوجهت إلى إنسان ما عنده شيء ، ليس الموضوع أن الله عاقبك، وأنه لم يغفر لك ، لا ، هذا يسمونه تحصيل حاصل ، لكنك توجهت إلى لا شيء .

أحدُهم كان يعاني آلاما شديدة جداً ، فتوجه إلى أرقى مستشفى فيه عناية الأطباء ، ومخابر تحليل ، وتصوير ، وحالات تخدير ، وعناية مشددة ، وتحليل دقيق ، أما وأنت في حالة مرضية شديدة تتوجه إلى مستودع خشب ، لا فيه طبيب ، ولا مستشفى ، ولا غرفة عمليات ، ولا مسكّنات فهذا جنون ، لذلك:

(إنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ بِهِ)

لا لأنه يعاقبك ، أنت حينما اتجهت إلى غيره فغيرهُ ما عنده شيء ، هو مفلس مثلك ، فلو أن فقيرا يتلوى من الجوع فتوجه إلى أفقر منه لقال له : ما عندي شيء أعطيك إياه ، فخاب ظنه فيه . فلذلك :

(مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

هو المسير ، بيده الأمر ، دقق : بيده الخلق والأمر ، كل شيء خلقه أمره بيده ،

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ)

5 – أَفَلاَ تَتَّقُونَ

ألا تتقون سخطه ، ألا تتقون ناره ، ألا تتقون المعيشة الضنك التي توعد الله بها المعرضين ؟ أفلا تتقون النار التي توعد بها الكفار والمجرمين ؟

(أَفَلاَ تَتَّقُونَ)

أيها الإخوة ،

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

(سورة الأعراف)

قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ

1 – قَالَ الْمَلأُ

الملأ شخصيات كبيرة ، الوجهاء ، علية القوم ، بكل مجتمع فيه أكابر ، وقد يكون هؤلاء الأكابر :

(أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا)

(سورة الأنعام الآية : 123)

شخصيات مهمة مرموقة ، قوية ، غنية ، حولها مجموعات كبيرة .

2 – الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ)

معنى ذلك هناك ملأ ليسوا كفاراً ، هناك إنسان مِلْء السمع والبصر ، لكنه مؤمن ، مِلْء السمع والبصر ، لكنه متواضع ، مِلْء السمع والبصر ، لكنه سخي ، مِلْء السمع والبصر ، ولكنه يصغي إلى الحق ، مِلْء السمع والبصر ، ولكنه يعطي من ماله .

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ)

هذه إشارة إلى أن هناك ملأ مؤمنين ، الله عز وجل أعطى المُلك لمن لا يحب ، وأعطاه لمن يحب ، إذاً: لا علاقة له بالتقييم ، أعطى الملك لفرعون وهو لا يحبه ، أعطاه لنبي كريم سيدنا هو سليمان وهو يحبه ، أعطى المال لقارون وهو لا يحبه ، أعطى المال لسيدنا عثمان بن عفان وهو يحبه ، فما دام الشيء الواحد يعطى لمن يحب ولمن لا يحب إذاً ليس مقياساً للتقييم بتاتاً .

3 – إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ من الْكَاذِبِينَ

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ)

السفاهة هي الأعمال العابثة ، تقول : فلان سفيه .

بالمناسبة ، المؤمن قد يُتَّهم بأنه أبله ، لكنه أبله عند مَن ؟ عند البُله ، لما يمتنع المؤمن عن دخل كبير فيه شبهة يتهمه المنحرفون بالجنون ، لكنه عند العقلاء عاقل جداً ، وعند البلهاء أبله ، فلا تعبأ إذا كنت عند البلهاء أبلهَ ، لا تعبأ بهذا الكلام ، وقالوا عن النبي : إنه مجنون ، والمجنون من عصا الله ، والله عز وجل أخرسهم ، فقال له :

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

(سورة القلم)

أنت العاقل ، لذلك قد يضحك الإنسان أولاً ، والذي يضحك أولاً يبكي كثيراً ، لكن البطولة أن تضحك أخيراً .

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين)

مثلاً : هناك شريكان ، أحد الشريكين تمنى أن يستخدم بضاعة محرمة أو ممنوعة في القوانين ، كالتهريب ، لكنّ الشريك الآخر رفض ، فحلت الشركة ، الذي أراد أن يعمل ببضاعة غير نظامية جاءته ملايين مملينة ، فاتهم هذا الشريك بالغباء والحمق ، ثم ألقي القبض على الشريك الأول ، وأخذت كل أمواله ، وأودع في السجن ، من هو الفهيم ؟ ومن هو الأذكى والأعقل والأنجح ؟ فأنت مع الله في تفوق حقيقي ، والآية الكريمة :

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ)

(سورة آل عمران الآية : 185)

يقول لك أحدُهم : أرضي الدنم فيها بخمسة آلاف ليرة ، فصار ثمن الدنم خمسة ملايين ، يكاد يذوب ، أخذها بخمسة آلاف ، الآن الدنم بخمسة ملايين ، يكاد يذوب ، ليس هذا هو الفوز ، الفوز :

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ)

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران الآية : 185)

الدنيا تغر وتضر ، وتمر ،

(وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ من الْكَاذِبِينَ)

(قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأعراف)

قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ

أنا لست سفيهاً ، لكنني رسول ، أنا معي وحي ، معي منهج ، معي منهج خالق الأكوان .

(لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)

(أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ)

(سورة الأعراف)

أَبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أ

أنصحكم ، وأنا أمين على مستقبلكم الأخروي .

(أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آَلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة الأعراف)

أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ

النبيُّ بشرٌ كباقي البشر :

أي من غير المعقول أن يرسل خالق السماوات والأرض لهؤلاء البشر الشاردين التائهين رسولاً يبين لهم ، يشرح لهم ، يهديهم ، يدلهم إلى طريق والسعادة والسلامة .

هل يعظم على أب إن رأى ابنه شارداً أن ينصحه ؟ هل يعظم على أب يمتلئ قلبه رحمة إن رأى ابنه على مشارف السقوط في دراسته أن يعظه ؟

(أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ)

من بني جلدتكم ، تعرفونه ، تعرفون ماضيه ، تعرفون أمانته وصدقه ، وعفافه ونسبه ، يتكلم بلغتكم ، وهو بشر ، يشعر بما تشعرون ، ويتألم لما تألمون ،

(أَوَ عَجِبْتُمْ)

لذلك ؟

من معاني الذِّكر :

المعنى الأول :

(أن جَاءكُمْ ذِكْرٌ)

القرآن هو من الذكر .

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ)

(سورة الحجر الآية : 9)

(فاسْألُوا أهْلَ الذّكْرِ)

(سورة النحل الآية : 43)

أهل القرآن .

المعنى الثاني :

والذكر هو الصيت والسمعة .

(ورَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

المعنى الثالث :

والذكر هو المكانة .

(وَالْقُرْآنِ ذِي الذّكْرِ)

(سورة ص)

المعنى الرابع :

والذكر هو كل الكتب السماوية .

(مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ)

(سورة الأنبياء)

المعنى الخامس :

والذكر هو التسبيح .

(فِي بُيُوتٍ أذِنَ اللَّهُ أنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ)

(سورة النور الآية : 36)

المعنى السادس :

والذكر هو الخير العميم .

(وَأقِمِ الصَّلَاةَ إنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أكْبَرُ)

(سورة العنكبوت الآية : 45)

المعنى السابع :

ذكر الله لك منحك الأمن ، منحك السكينة ، منحك الرضى ، منحك السعادة ، منحك التوفيق ، منحك الآخرة ، الخير العميم .

(أوَ عَجِبْتُمْ أن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُم)

ما هو القصد من الذكر ؟ لينذركم :

الذكر أولاً ، ثم يأتي الإنذار ، وبعده الالتزام ، وبعد الالتزام الفوز بسعادة الدنيا والآخرة ، فالإنذار ليس القصد منه أن يزعجكم .

إذا شعر الإنسان بألم في بعض أسنانه فليس القصد من هذا الألم أن يتألم الإنسان ، القصد أن يبادر إلى الطبيب كي يعالج هذا الخلل الطارئ ، فيكسب هذه السن ، الألم أحياناً ليس هدفاً في حدّ ذاته ، الألم وسيلة لهدف كبير .

وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ

(أوَ عَجِبْتُمْ أن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُم وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ)

1 – ذكرُ آلاء الله طريقُ الفلاح :

هل تصدقون أن ذكر آلاء الله طريق الفلاح ؟

((يا رب ، أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال : أحب عبادي إلي تقي القلب ، نقي اليدين ، لا يمشي إلى أحد بسوء ، أحبني ، وأحب من أحبني ، وحببني إلى خلقك ، قال : يا رب إنك تعلم إني أحبك ، وأحب من يحبك ، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال : ذكرهم بآلائي ، ونعمائي ، وبلائي))

[ورد في الأثر]

ذكرهم بآلائي كي يعظموني ، وذكرهم بنعمائي كي يحبوني ، وذكرهم ببلائي كي يخافوني .

2 – لابد من اجتماع التعظيم والمحبة والخوف في قلب المؤمن :

إذاً : الحالة الطبيعية أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيم لخلق الله عن طريق آياته الكونية ، وأن يكون في قلبه محبة له عن طريق النعم التي منّ الله بها علينا ، وأن يكون في قلبه خوف من البلايا التي يصيب الله بها بعض خلقه ، فالحالة الصحية للقلب تعظيم ، ومحبة ، وخوف .

3 – وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً

(لِيُنذِرَكُم وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

كان عليه الصلاة والسلام إذا نظر في المرآة قال :

((اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي))

[الجامع الصغير بسند صحيح عن ابن مسعود]

إذا نظر أحدهم في المرآة فوجد نفسه كاملا ، له عينان ، له أذنان ، له شعر ، له أسنان ، في أجهزة سليمة ، يمشي على قدمين ، فهذه نعمة كبيرة جداً ، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا استيقظ يقول :

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي ، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي ، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

(فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

الآن ردَّ عليه القومُ :

(قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آَبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

(سورة الأعراف)

قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

1 – قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ

هناك آلهة متعددة ، كاللات والعزى ، كيف جعلتَه إلها واحدا ؟

قد لا تصدقون أنه صدر كتاب لإنسان أحمق قال فيه : آلهة قريش ديمقراطيون !!! لأنهم قبِل بعضُهم بعضا ، أما إله محمد فقمعي ، لأنه(لا إله إلا الله)لم يقبل معه إلها آخر ، حماقات ما بعدها حماقات .

2 – التوحيد راحة ما بعدها راحة :

(قالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ)

شيء مريح جداً أن يكون لك إله واحد .

((مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ آخِرَتِهِ كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ))

[ابن ماجه عن ابن مسعود بسند صحيح]

((اعمل لوجه واحد يكفيك الوجوه كلها))

[أخرجه ابن عدي والديلمي عن أنس بسند فيه ضعف]

شيء رائع جداً ، إنه إله واحد ، علاقتك معه ، فلا تمزق عندك ، ولا تبعثر ، ولا تشرذم ، ولا قلق .

دقق : إذا كان الرجل موظفا في شركة ملكٌ لخمسة أولاد ، وكلهم شركاء ، هذا يعطي أمرا ، والثاني يعطي أمرا معاكسا ، يتمزق الموظف ، لو أن لهذه الشركة مديرا واحدا فعلاقته مع واحد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد .

التوحيد مريح جداً ، لا يحتاج الرجل إلى أن ينافق ، ولا إلى أن يكذب ، ولا إلى أن يخاف أبداً ، علاقته مع واحد يرضيه ، فإذا رضي الله عنه حلت كلت كل مشكلاته .

((مَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ ، وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ))

[الترمذي عن عائشة]

3 – الاحتجاج بالتقاليد والعادات البالية : وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا

(وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا)

(إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ)

(سورة الزخرف)

هذه التقاليد والعادات البالية ،

(قالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

أين هي النار ؟ هي خبر ، لكنه صادق ، الشهوات محسوسة ، ترى بيتاً جميلاً ، ترى طعاماً نفيساً ، ترى امرأة جميلة ، ترى مركبة فارهة ، الشهوات محسوسة ملموسة ، أما الآخرة فخبرٌ .

4 – الجاهل يحكمه الواقع : فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

الآن أنت ذاهب إلى حمص بالسيارة ، ولك خمسة ملايين ، وصلت إلى منطقة دوما في ظاهر دمشق ، فوجدت لوحة مكتوب عليها خمس كلمات : الطريق إلى حمص مغلقة بسبب تراكم الثلوج في منطقة النبك ، هل تكمل السير ؟ خمس كلمات أوقفتك ، وعطفت ورجعت ، وإذا كان الدابة ماشية أين تقف ؟ عند الثلج ، ما الذي حكم العاقل ؟ النص ، ما الذي حكم الدابة ؟ الواقع ، لا تقل : أنا واقعي ، الواقعي ليس واقعياً ، أما العاقل فيحكمه النص .

(فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

(قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ)

قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم

إنها أسماء لا معنى لها إطلاقاً ، وإذا قلت : الله خالق السماوات والأرض ، إذا قلت : الله قوي ، فقوته ظاهرة ، المسمى موجود ، الله رحيم ، رحمته ظاهرة ، الله حكيم ، حكمته ظاهرة ، وأحيانا تضفي على إنسان تافه جداً صفات غير موجودة إطلاقاً ، فإذا تضعضع إنسان إلى مخلوق فقير ، ورجا منه العطاء يكون أحمق ، كمن وقف عند إله من تمر ، وتذلل أمامه ليحل له مشكلته .

والله مرة ذهبت إلى منطقة في ظاهر لوس أنجلوس فيها معبد وثني ، دخلنا المعبد فإذا بصنمين كبيرين من البرونز والماس ، وهذا الماس غالٍ جداً ، قدرت بمليون دولار ، والناس ينبطحون أمامهما انبطاحا كاملا ، بعضهم مثقفون ، يتوجهون بكلام إلى البرونز ؟! والله شيء مضحك ، وفي مدخل المعبد وجدت كسّارة جوز هند ، فقلت : ما هذه ؟ قيل لي : الآلهة تحب جوز هند ، هذا الصنم يأكل جوز الهند ؟ الهند مليئة بهذا الشكل ، البوذا عنده من الفواكه شيء نفيس جداً ، وقد تدخل بقرة إلى محل تجاري فتأكل من أنفس أنواع الفاكهة ، وصاحب المحل في غاية السعادة ، لأن الإله دخل إلى دكانه ، وأكل الفواكه ، إنه شيء مضحك حقًّا !!!

(قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ)

(فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(27-60): تفسير الآيات 73 - 79 ، قصة سيدنا صالح مع قومه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-11-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس السابع والعشرين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثالثة والسبعين ، وهي قوله تعالى :

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا

أيها الإخوة ، قصص الأنبياء دروس لنا بليغة ، هم أهلكهم الله ، وانتهى أمرهم فلماذا ذُكروا في القرآن الكريم ؟ لتكون قصتهم عبرة لنا .

أيها الإخوة ،

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا)

1 – أَخَاهُمْ صَالِحًا :

ما معنى(أخاهم)؟ ولِمَ قال الله :

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا)

أي : كما أرسل إلى عاد أخاهم هوداً ، أرسل إلى ثمود أخاهم صالحا ، أخاهم أي ؛ نشأ بينهم ، يعرفون صدقه ، يعرفون استقامته ، يعرفون نظافته ، يعرفون إخلاصه ، هو بينهم ، لو أن إنساناً غريباً جاءهم لشكُّوا فيه ، لكنه مِن جِلدتهم ، من بيئتهم ، من ظروفهم ، يعرف كل شأنهم .

لذلك لو أنه من الممكن أن يكون النبي مِلكاً لكان ملكاً ، ولكن لا بد من أن يكون النبي بشراً ، ولولا أن النبي بشر تجري عليه كل خصائص البشر ، لما كان سيد البشر ، والأنبياء قمم البشر ، ولأنهم انتصروا على بشريتهم كانوا أنبياء .

فيا أيها الإخوة ، كلمة

(أَخَاهُمْ)

أي أن الأنبياء من قومهم ، هم مستقيمون في قومهم ، صادقون في قومهم ، أمناء في قومهم ، أعفة في قومهم ، قومهم يعرفون أخلاقهم ، يعرفون استقامتهم ، يعرفون تميزهم ، يعرفون أنهم لا يبتغون شيئاً من الدنيا .

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا)

2 – المعنى التطبيقي :

الآن المعنى التطبيقي لنا يعني أنه إياك ، ثم إياك ، ثم إياك أن تدعو إلى الله ولست نظيفاً ، ولست مستقيماً ، ولست صادقاً ، ولست أميناً ، لأن الناس لا يصدقونك ، ولو أتيتهم بالحقائق كفلق الصبح ، لأن الطريق الذي يمكن أن يكون سبباً لإصغاء الناس إليك هو أن تكون مستقيما .

هل يعقل أن النبي عليه الصلاة والسلام ، مع أنه جاء بدين رفضوه ، أن يضعوا عنده أموالهم ! إنها ثقة في أمانته ! كان يسمى الأمين ، كان يسمى الصادق ، كان يسمى العفيف .

فلذلك كما أن الله سبحانه وتعالى يرسل إلى القوم إنساناً مصطفىً ، قمة في الاستقامة ، لتكون استقامته شفيعٌ له أن يصغي الناسُ إليه ، وهذا درس لنا جميعاً ، إن أردت أن تدعو إلى الله فاحرص على أن تكون مستقيماً .

لذلك قالوا : القدوة قبل الدعوة ، والإحسان قبل البيان ، والأصول قبل الفروع ، والمضامين لا العناوين، والمبادئ لا الأشخاص ، والتربية لا التعرية ، والتدرج لا الطفرة ، وهكذا .

إذاً : إذا فكرت أن تنطق بالحق فيجب أن تَلفت نظر الناس إلى استقامتك ، إلى نزاهتك ، إلى حبك للخير .

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ)

خلاصة دعوة الأنبياء : اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ

البلاغة في الإيجاز ، هل يمكن أن تضغط رسالات الأنبياء جميعاً بجملة واحدة ؟ هذه جملة :

(اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

(سورة هود الآية : 61)

قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ)

هذه(مِن) تفيد استغراق كل أفراد الأنبياء والرسل .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

لابد من التوحيد فكرا وعقيدة وتصورًا :

لذلك قالوا : نهاية العلم التوحيد ، ونهاية العمل التقوى ، إن وحدت واتقيت حققت الهدف من وجودك ، التوحيد هو الفكر ، والعقيدة ، والتصور ، والعبادة ، والسلوك .

(الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ)

(سورة الفتح الآية : 29)

منطلق فكري ، سلوك يومي .

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

على الشبكية آلاف الآلهة ، فيتوهم الناس لضعف إيمانهم أن مصير المسلمين بيد فلان ، وأن هذه القوة الطاغية تريد أن تنهي الدعوة الإسلامية ، تريد أن تنهي العمل الخيري ، هذا الوهم من الشرك .

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

المؤمن الصادق لا يرى مع الله أحدا ، يؤمن بكل جوارحه ، بل بكل خلية من جسمه ، بل بكل قطرة في دمه أنه لا إله إلا الله ، ولا معطي ، ولا مانع ، ولا خافض ، ولا رافع ، ولا معز ، ولا مذل إلا الله.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ آخِرَتِهِ كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ))

[ابن ماجه]

((اعمل لوجه واحد يكفِك الهموم كلها))

[أخرجه ابن عدي ، والديلمي ، عن أنس]

كلُّ شيء بيد الله :

إذاً :

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

هناك قوى ، وهناك دول ، وجيوش ، وأناس أقوياء ، وهناك أناس بطاشون ، هناك أناس ظالمون ، لكن هناك رب عظيم .

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف الآية : 54)

مِن أبلغ ما قاله أحد الأنبياء :

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا)

(سورة هود الآية : 55)

يتحداهم .

(ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

(سورة هود الآية : 55)

تصور وحوشا كاسرة مربوطة بأزمَّة محكمة ، بيد جهة ، قوية ، رحيمة ، عادلة ، علاقتك مع من ؟ هل مع الوحوش ؟ لا ، مع مَن يمسكها ، مع مَن إطلاقها بيده ، وحبسها عنك بيده ، كن مع الله يحبسها عنك ، لو نسيت الله ، وتجاوزت الحدود سلّطها عليك .

لذلك من أبلغ ما قيل : لا يخافن العبد إلا ذنبه ، ولا يرجون إلا ربه .

بالتعبير اليومي المألوف : لا إله إلا الله ، والله كبير ، هذا هو الإيمان ، وفي اللحظة التي تفكر هذا التفكير أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله تكون موحِّدًا :

(اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

ذكرت من قبل أن من مئة عام تقريباً كان هناك جهة في الأرض ترفع شعار (لا إله) ، وهي قوية جداً ، بل إنها تملك من القنابل النووية ما يكفي لتدمير القارات الخمس ، ومع ذلك تداعت من الداخل ، وانتهت ، لأن :

(الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

(سورة الإسراء)

زهوقا صيغة مبالغة ، فالباطل مهما كان باطلاً فهو زهوق ، ومهما كان متعدداً كان زهوقا .

(قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ)

1 – النبي معه منهج :

النبي يأتي إلى قومه ، ويقول لهم : أنا رسول الله ، معه منهج ، افعل ولا تفعل ، في هذا المنهج حرام ومكروه كراهة تحريمية ، ومكروه كراهة تنزيهية ، ومباح ومستحب ، فيه سنة وواجب وفرض ، هذا منهج الله عز وجل .

لذلك المؤمن ميزته الأولى أنه منضبط بمنهج الله عز وجل ، والنبي يقول وكذلك الرسول : أنا رسول الله ، لأن معه منهجاً يُكذّب .

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً)

(سورة الرعد الآية : 43)

2 – معجزة النبي شهادة الله لرسوله بأحقية رسالته :

لا بد من أن يشهد الله له أنه رسوله ، كيف يشهد له ؟ من هنا كانت المعجزة معجزة سيدنا موسى : سيدنا موسى ألقى عصاه :

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ)

(سورة الأعراف)

(فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا)

(سورة طه الآية : 77)

معجزة سيدنا إبراهيم :

سيدنا إبراهيم لم تحرقه النار ، فهذه هي المعجزات ، قال تعالى :

(قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ)

معجزة سيدنا صالح ناقة تخرج من صخرة :

سيدنا صالح معه بينة ، ما هذه البينة ؟ البينة هي الدليل على صدق رسالة الرسول في إبلاغه عن الله عز وجل .

أحياناً يأتيك رجل يقول لك : أعطني مئة ألف ، أنا مبعوث من فلان ، تقول له : معك دليل ؟ فيعطيك كتابا منه بتوقيعه ، وفيه رقم هاتف ، فاتصل به ، فالكتاب والتوقيع والهاتف دليل على أن هذه الرسالة صادقة .

لذلك الله عز وجل ، حينما يرسل رسولاً يعطيه بينة ، ما البينة التي زود الله بها هذا النبي الكريم ؟ أثناء الحوار ، هم يعتزون بآلتهم ، وهو يقول : لا إله إلا الله .

(اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ)

(سورة هود الآية : 56)

بيده كل شيء ، فاتفقوا معه على أنهم يستنجدون بآلهتهم ، وهو يسأل ربه ، فأية جهة استجابت لهؤلاء أو له فمعنى ذلك أن الذي أجاب أتباعه هو الإله الحقيقي ، فدعوا آلهتهم فلم يستجيبوا لهم ، احبطوا ، قالوا له : إن كنت رسولاً حقاً ، وأنت صادق ، كانت أمامهم صخرة ، قالوا له : اجعل هذه الصخرة عن طريق ربك تنشق ، وأن تخرج منها ناقة ، هذا غير معقول ! جبل صخري أصم ينشق ، وتخرج ناقة ، فدعا ربه أن يا رب هكذا طلبوا ، وأنت على كل شيء قدير ، وهؤلاء علقوا إيمانهم بك على هذه المعجزة ، وأكدوا له إن خرجت الناقة من الجبل فنحن نؤمن بإلهك ، فدعا ربه ، وقال : يا رب ، هم يزعمون أنهم إن رأوا هذه الناقة خرجت من الجبل سوف يؤمنون ، فالذي حصل أن هذه الصخرة التي أمامهم انشقت ، وخرجت منها ناقة عظيمة عُشراء ، أي حامل في الشهر العاشر ، وبراء ، وَبَرُها كثيف ، وجنينها يتحرك في بطنها ، عُشراء ، وبراء أي كثيرة الوبر ، يتحرك جنينها بين جنبيها ، ثم أخذها المخاض فولدت فصيلاً ، وليدا مفطوما ، لا يحتاج إلى حليبها ، والفصيل الذي تم فطامه .

لذلك سمى الله هذه الناقة :

(نَاقَةُ اللّهِ)

بحجمها ، بخصائصها ، بوليدها ، بمخاضها ، بولادتها ، بوبرها ، بحملها ، لكن لا بد من امتحان .

من عظيم شأن هذه الناقة

هناك بعض الينابيع لهؤلاء القوم ، شرط أن هذه الناقة لها شِرب يوم ، ولكم شرب يوم ، تشرب كل الماء في يوم ، وتروي الكتب أن كل هذا الماء الذي تشربه يصبح لبناً تعطيهم إياه ، الآن إذا اشترط عليك أحدُهم بكل لتر من الماء لترٌ من الحليب لم يستطع ذلك ، لتر الحليب غالٍ ، كل الماء التي تشربه الناقة يغدو لبناً تعطيه لهؤلاء القوم ، فهي ناقة وغذاء ، وهي آية من الله ، وينتفعون بها .

هكذا كان جزاء هذه الناقة !!!

لذلك أيها الإخوة ، هذه الناقة كانت آية دالة على الله ، كانت تحدياً لهؤلاء الذين كفروا ، تروي الكتب : أنه كانت هناك امرأتان لهما نياق ، وناقة الله تغلب نياق المرأتين في المرعى ، فأحضرت المرأتان رجلاً يطلق عليه " أحيمر ثمود " ليقتلها ، فقتل الناقة .

استنباطٌ لطيفٌ :

الحقيقة أنه حين قتلها أقرّ بنو هذا النبي الكريم بقتلها ، من هنا يستنبط كما قال سيدنا عمر : أنه لو ائتمر أهل بلدة على قتل واحد لقتلتهم به جميعاً ، قال :

(فَعَقَرُوهَا)

(سورة الشعراء الآية : 157)

الذي عقرها شخصٌ واحد ، لكن هذا الواحد مثلهم ، لكن هذا الواحد عبّر عنهم ، لكن هذا الواحد هو يعمل برضاهم .

الآن يقول لك : الشعب ما له علاقة ، الحكام الظالمون ، الآن انتخبوا انتخابات حرة ، والشعب حينما انتخبهم ، الدول الكبرى العظيمة الطاغية ، التي تتفنن بإذلال الشعوب هؤلاء انتخبوا انتخاباً ، لو أن الشعب ما أراد منهم هذه الأعمال لحجب عنهم الثقة .

لذلك المجتمعات التي فيها ديمقراطية هؤلاء الذي انتخبوا هؤلاء الظلام شركاء معهم في الجريمة ، أنتم انتخبتموهم ، هم يفعلون بقوتهم .

فرصة لمن أراد التوبة :

أيها الإخوة ، من تفاصيل هذه القصة أن ابنها الفصيل طلع على جبل ، وخار بثلاثة أصوات ، كأن الله سبحانه وتعالى بعد ارتكاب جريمتهم ، وبعد فعلتهم النكراء ، وبعد إقرارهم بقتل الناقة ، وبعد اقتراحهم بأنك يا نبي الله إن أخرجت الناقة من الجبل فنحن نؤمن بك ، لكنهم نقضوا وعدهم ، ونقضوا عهدهم ، وتمنوا أن يعقروا الناقة ، وأرسلوا من يعقرها ، ومع كل ذلك فقد أتاح الله لهم فرصة ليتوبوا ، فابن هذه الناقة الفصيل صاح بهم صيحات ثلاثا ، فانتبه سيدنا صالح ، وقال : يا قوم أدركوا صيحات هذا الفصيل ، لعل الله بسبب إدراككم له يرفع عنكم العذاب ، لكنهم لم يفعلوا ، وكان التصور لو أنهم ندموا على فعلتهم ، وأسعفوا هذا الفصيل ، لعل الله يغفر لهم ، لكنهم أصروا على جريمتهم ، وأقروا عقر الناقة ، وقتلها واستراحوا منها ، ونقضوا عهودهم ، ومواثيقهم ، لذلك قال تعالى :

(وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

(سورة الأعراف)

وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ

الآن الله عز وجل يذكرهم بنعمه :

(وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

1 – حضارة عمرانية كبيرة :

كانوا يسكنون في السهول ، وكانت أعمارهم طويلة ، فحفروا الجبال ، هذا في الأردن ، في البتراء ، أنا ذهبت إلى هناك .

والله أيها الإخوة ، الذي يراه السائح يكاد لا يصدق ، قصر بأبعاد دقيقة جداً ، بخطوط مستقيمة ، بأبعاد متساوية ، كلها محفورة في جبل له مدخل ، وأعمدة ، وتيجان أعمدة ، أبواب مدينة بأكملها محفورة بالجبل ، بيت من عدة غرف ، كلها نُحتت من الصخر ، لذلك : ما أهلك الله قوماً إلا وذكرهم أنه أهلك من هو أشد منهم قوة .

هؤلاء على أنهم في عصور سابقة ، أما أن تملك قدرة على حفر الجبال فهذا شيء كبير ، فهذا جبل قاسيون تفضل واحفر صالة كبيرة كهذا المسجد تماماً ، بأبعاد بالميليمتر ، وبخطوط مستقيمة ، واجعل له مدخلا كبيرا ، كله من الصخر من دون أن تضع عليه شيئاً ، وإذا أتيح لأحدٍ أن يذهب إلى البتراء لرأى العجب العجاب ، وما أهلك الله قوماً إلا وذكرهم أنه أهلك من هو أشد منهم قوة ، يقول الله عز وجل :

(وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ)

(سورة الأعراف الآية : 61)

2 – العبرة بقوم نوح :

هم رأوا تجربة نوح ، كيف أن الله أهلكهم ، وإن كانت هذه التجربة بعيدة ، هم رأوا ما حل بعاد بعد أن كفروا ربهم ، نوح ، عاد ، ثمود ، بالتسلسل ، واليوم نرى نحن بلاداً انحرفت انحرافاً شديداً فأصابتها

جائحة ، من زلزال ، أو من مشكلة ، أو من اجتياح ، أو من عدوان ، والبلاد الأخرى غارقة في المعاصي والآثام ، ولا تتعظ بما يجري في الأرض .

أيها الإخوة ، لذلك :

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ)

(سورة الأعراف)

قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ

1 ـ المستكبر المترَف كافرٌ بنصِّ القرآن :

عندنا مستكبرون ، وعندنا مستضعفون ، والمترفون مستكبرون ، والمترفون في آيات ثمانٍ في القرآن الكريم كفار ، وحينما يُلغي الإنسان الآخرة فليس بين يديه إلا الدنيا يعبدها من دون الله ، يعبد الدرهم والدينا ، يعبر المرأة من دون الله ، يعبد شهوته ، يتخذ من شهواته آلهة ، هذا شيء طبيعي جداً ، وهذه نماذج متعددة متكررة .

دولة جبارة قوية ، تتحكم فيها مصالحها ، لا تتخذ قيمة ، ولا مبدأ ، ولا رحمة ولا إنصافاً ، ولا عدلاً ، تبني مجدها على أنقاض الشعوب ، تبني عزها على إذلالهم ، تبني غناها على إفقارهم ، تبني ثقافتها على محو ثقافتهم ، تبني قوتها على إضعافهم ، هذه الدول الطاغية تركب رأسها ، وترتكب حماقات تلو حماقات ، إلى أن يأتي أجلها .

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)

(سورة الأعراف الآية : 34)

فلذلك قال تعالى :

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ)

2– المؤمن الفقير خير من كل مستكبر :

سبحان الله **!!!** أحيانا يكون الإنسان فقيرا ، أو بوظيفة متواضعة جداً ، لكنه مؤمن يعرف الله ، ويخافه، ويتقرب إليه ، ويؤدي العبادات ، وواثق من الله عز وجل ، هذا عند أهل الناس مستضعف ، بل فقير ،

وقد تلتقي بإنسان مستكبر ، حجمه المالي كبير ، يده طولى تراه لا يعبأ بكل هذه القيم والمبادئ ، ثم يفاجأ أن الذي على صواب هو هذا المستضعف .

فهؤلاء الذين استكبروا من استكبارهم وغطرستهم وكبرهم :

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ)

النجاح أن تعرف الله قبل فوات الأوان ، أن تعرف الله والمؤمنون ضعفاء .

لآن مع الامتحان الصعب ، الطرف الآخر قوي جداً ، غارق في الرذائل ، في كل أنواع الشذوذ ، في زنا المحارم ، في تبادل الزوجات ، في المساكنة غير الشرعية ، وما من شيء في حياتهم محرَّم ، وما من شيء في كسب أموالهم محرَّم ، وبلادهم جميلة وغنية ، ويتحكمون بالعالم ، ويتصدرون الشاشات ، ويصرحون ، ويكذبون ، ويقتلون ، ويقصفون الضعاف ، فيحسون بالإحباط .

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ)

3– المؤمن يصدِّق كل ما أخبر الله به :

بكل جرأة ، وبكل يقين :

(قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ)

(قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)

(سورة الأعراف)

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ

إخواننا الكرام ، أن تخرج ناقة من جبل صخري ، وأن تشرب ماء البلدة في يوم ، وأن تعطي كل هذا الماء لبناً لهم ، هذه ناقة استثنائية ، هذه معجزة ، هذه ناقة الله ، ومعها وليد جنين في الشهر العاشر ، ويأتيها المخاض ، وتلد هذا الفصيل .

لذلك الشيء الذي يلفت النظر أن الله عز وجل حينما يقول :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

(سورة البقرة)

يا رب نحن نؤمن بالآية ، أنت في هذه الآية عكست المعنى ، أنت تؤمن بهذا إن كنت في الأصل مؤمناً ، معنى هذه الآية أن الإنسان حينما يتخذ قراراً بالإيمان فإن كل شيء يدله على الله .

(فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

(سورة الأعراف)

فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ

1 – من دأبِ الكفار تحدِّي العذاب :

عصوا أمر ربهم :

(وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

أي : إن كنت رسولاً صادقاً فأتنا بما تعدنا ، ولا أجد في الأرض من هو أغبى مما يتحدى الله عز وجل ، الإنسان في قبضة الله .

(فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ)

2 – المشارك في القتل بالإقرار كالقاتل :

عقروا بواو الجماعة ، معنى ذلك أنهم جميعاً أقروا قتلها ، وما حاسبوا قاتلها ، ولا أرضوا فصيلها ، ولا ندموا ، ولا اعتذروا ، ولا تابوا ، بل تحدوا ،

(فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ)

أي أقروا قتلها .

(وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ)

بوقاحة ما بعدها وقاحة :

(يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

الردُّ الإلهي : فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ

جاء الرد الإلهي :

(فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

(سورة الأعراف)

1 – معنى : جَاثِمِينَ :

الواقف بقي واقفا ، والنائم بقي نائما ، حالتهم جمدت ، معنى جاثمين أن كل واحد بقي على الحالة التي جاء فيها بلاء الله عز وجل .

عبرةٌ لمَن يعتبر !!!

في إيطالية جبل فيه جوف ، هذا الجبل بركاني ، خرج منه حمم ، ورماد بركاني غطى بلدة كانت غارقة في المعاصي والآثام ، غطاها ثمانية أمتار ، ومع مضي السنوات والحقب هذا الرماد أصبح صخراً ، ونسي الناس من تحت الرماد ، في العصور الحديثة في أثناء التنقيب وجدوا صخرا ، لما نقروا رأوا جوفًا ، حقنوا تجويف الصخر بالجبصين السائل ، ثم كسروا هذا الصخر ، فإذا امرأة تجمع حليها من الخزانة ، وإذا أناس يأكلون على المائدة ، وإذا كلب أصابه الهلع ، لما حقنوا الفراغات بالجبصين السائل ثم أزاحوا القالب عن شكله الذي حقنوه بالجبصين ظهرت حالة البلدة ، كان الوقت بعد الظهر في أثناء الغداء ، كل إنسان كما هو ، حتى فزع الرجال ، وفزع النساء ، قسم منهم في القصور، وقسم في البيوت ، وقسم في الطرقات ، هناك من يأكل ، هناك يجمع الأموال :

(فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

هناك بحوث وفي صور ، وتحقيقات مطولة عن هذا البركان ، هذا قذف بالرماد البركاني حتى غطى هذه المدينة مقدار ثمانية أمتار ، ومع مضي الأيام أصبح صخراً ، فغطى الرماد الإنسان حتى ذاب ، وهو مِن لحم ودم ، بقي الفراغ ، حقن هذا الفراغ ، والله في هذه صور ظهرت ملامح الرجل وهو مذعور ، مع ملامح كلب إلى جانبه ، هذا معنى قوله تعالى :

(فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

2 – هذا مصير كلِّ ظالم :

هذا المصير ، والذي أقوله لكم : تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً ، ويأتي أخي عيسى فيملؤها قسطاً عدلاً . والله بلغ الظلم في الأرض أن البشر بالمئات ، بل بالألوف ، بل بالملايين يُقتلون ، ولا تهتز لواحد من الأقوياء شعرة أبدا ، مليون قتيل ، مليون معاق ، أربعة ملايين مشرد .

قتل امرئ في بلدة جريمة لا تغتفر وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر

يقول لك : أزمة الشرق الأوسط ، أيها الإخوة ، هذه قصص للموعظة .

وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِين

(فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ)

(سورة الأعراف)

ارجعْ قبل أن فوات الأوان :

أذكر مرة كنت في العمرة ، لي صديق ذكر لي هذه القصة الواقعية ، بدوي من أطراف جُدّة ، لما توسعت جُدّة اقتربت من أرضه ، فارتفع سعرها ، باعها بثمن بخس دون أن يعلم ، اشتراها مكتب عقاري خبيث جداً منه بأبخس الأثمان ، أنشأ فوقها بناء من عشرة طوابق ، وأصحاب هذا المشروع شركاء ثلاثة ، فالأول وقع من فوق الطابق العاشر إلى الأرض فنزل ميتاً ، والثاني دُهس بسيارة ، انتبه الثالث ، فبحث عن صاحب الأرض ستة أشهر حتى عثر عليه ، أعطاه ثلاثة أمثال حصته ، أعطاه الثمن الحقيقي ، فقال له هذا البدوي : أنت لحقت نفسك .

ما دام القلب ينبض فلنلحق بأنفسنا ، الذي عنده مخالفة ، الذي عنده تقصير ، الذي عنده بدخله حرام ، الذي عنده ظلم لإنسان ، أكل حق إنسان ، ما دام القلب ينبض فهو في بحبوحة .

لذلك :

(فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ)

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

هذا التفلت ، والمرأة التي هي كاسية عارية ، هذا الفساد إن لم يوضع حد له فهناك مشكلة كبيرة جداً مع الله ، نسأل الله أن يردنا إليه رداً جميلاً .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(28-60): تفسير الآيات 80 - 84 ، البعد عن الله يؤدي إلى الانحراف

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-12-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة لتفسير الآية :

أيها الإخوة الكرام مع الدرس الثامن والعشرين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثمانين ، وما بعدها ، الله عز وجل يقول :

(وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ)

معنى الشفع والوتر :

أولاً من أدق معاني الشفع والوتر ، أن الوتر هو الله ، لأنه واحد أحد فرد صمد :

(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)

(سورة الإخلاص)

صمد بمعنى أنه لا يحتاج إلى واحد ، لا يحتاج إلى أي شيء ، بل يحتاجه كل شيء ، واحد لا شريك له ، وأحد لا مثل له .

(مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً)

(سورة الجن)

شأن الله عز وجل الأحدية ، وشأن الخلق الزوجية .

(وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ)

(سورة الذاريات الآية : 49)

مبدأ الافتقار في عالَم المخلوقات :

الذرة في النواة إيجابية ، والكهارب سلبية ، وأي شيء يخطر في بالك بدءًا من الجماد وانتهاءً بالإنسان، زوجان ذكر وأنثى ، أو إيجابي وسلبي ، شأن مخلوقاته أن كل مخلوق مفتقر إلى مخلوق آخر، فالرجل مفتقر إلى المرأة ، والمرأة إلى الرجل ، والصديق إلى صديقه ، والزميل إلى زميله ، وكل مخلوق يفتقر إلى مخلوق آخر .

الافتقار أنواع ، هناك افتقار جنسي ، فالذكر مفتقر إلى الأنثى ، والأنثى مفتقرة إلى الذكر ، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان حاجات ثلاث ، أودع فيه حاجة إلى الطعام والشراب تحقيقاً لبقاء الفرد ، وأودع فيه حاجة إلى الجنس تحقيقاً لبقاء النوع ، وأودع فيه حاجة إلى تأكيد الذات تحقيقاً لبقاء الذكر ، فالإنسان يبحث عن الطعام والشراب ، فإذا أكل وشرب بحث عن الطرف الآخر ، فإذا كان مؤمنا تزوج ، وإذا كان غير مؤمن يزني ، فإذا أمن الاثنتين بحث عن الرفعة ، والقوة ، والتفوق ، والعلو ، وتأكيد الذات .

افتقار الرجل إلى المرأة و افتقار المرأة إلى الرجل :

لو أخذنا الشهوة الثانية ، الشهوة إلى الآخر ، الله عز وجل رسم منهجا ، فالأنثى خلقت خصيصى للذكر ، والذكر خلق خصيصى للأنثى ، خصائص الرجل الفكرية والنفسية والاجتماعية والجسمية كمال مطلق للمهمة التي أنيطت به ، وخصائص الأنثى الجسمية والنفسية والاجتماعية والفكرية كمال مطلق للمهمة التي أنيطت بها ، هما متكاملان ، إذاً : هما شفع .

(وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ)

(سورة الفجر)

لكن هذه العلاقة مع المرأة قد تأخذ شكلاً مشروعاً ، هو الزواج ، وقد تأخذ شيئاً غير مشروع ، هو الزنا ، فالزنا خروج عن الشرع ، وقد أودع الله في الإنسان هذه الحاجة ، فالمؤمن الذي يخاف الله عز وجل ما عنده قناة لإرواء هذه الحاجة إلا الزواج ، وغير المؤمن فعنده قناة أخرى ، هي الزنا .

إن الزنا خروج عن منهج الله ، ومعصية كبيرة ، بل تسمى جريمة الزنا ، وفيها ضياع أنساب ، واختلاط أنساب ، وفيها سقوط المرأة الزانية ، وسقوط الزاني ، والمجتمع ينكر الزنا ، والشرع ينكر الزنا ، وأي شيء أنكره الشرع تنكره الفطر السليمة .

في تاريخ البشرية يقولون : فضيحة أخلاقية ، في الدول الإباحية ، في الدول التي لا تلتزم بأي منهج ، فضيحة جنسية ، أو فضيحة مالية ، وفي تاريخ البشرية الفضائح الكبرى نوعان : فضائح مالية ؛ سرقة، واختلاس ، ونهب ، وتزوير ، أو فضائح جنسية ، والذي يقع على رأس البيت الأبيض تورط مع موظفة ، فعرضوا في الإنترنت 2800 صفحة تفاصيل هذه العلاقة الآثمة .

وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ

1 – الخروج عن منهج الله في الشهوة شذوذ وانحراف :

لكن حينما تسلك هذه الشهوة طريقاً آخر ، غير الطريق الذي رسم لهذه الشهوة فهذا مباح ، والله عزوجل رسم لهذه الشهوة طريق الزواج ، وغير المؤمن خالف المنهج فزنى ، لكن في الأصل المرأة للرجل ، والرجل للمرأة ، أما الشاذ فخالف المنهج والفطرة معاً ، وسلك طريقاً لا يؤدي إلى الولد ، طريق قذر ، فالله عز وجل سمّى هذا الانحراف فاحشة ، أول من أتى بهذه الفاحشة قوم لوط .

فلسفة الشهوة عند الغرب :

ولكن أيها الإخوة ، أتمنى عليكم أن تنتبهوا إلي ، في العالم الغربي الإنسان يخترع أفكارا كي يرتاح بها المنحرفون ، يقولون : هذا الشاذ في جيناته هذا الشذوذ ، لا ذنب له ، هذا مركوز في أصل تكوينه ، وفي أصل خلقه ، والله الذي لا إله إلا هو لو قطعت المؤمن مليار قطعة على أن يصدق أن الله سبحانه وتعالى خلق في الإنسان شذوذاً ، ثم يحاسبه على هذا العمل الشنيع ، ثم يضعه في جهنم ، والله ما من مؤمن مستعد لو قطعته مليار قطعة أن يصدق ذلك ، لكن هذا منطق الغرب !

نظرية داروين بين الحقيقة العلمية وفلسفة الراحة الوهمية :

أحيانا الإنسان يسمع تفسيرا ، أو طرحا فيصدقه ، لا لأنه صحيح ، بل لأنه مريح ، فنظرية داروين مثلاً لا يمكن أن يصدقها أحد في الأرض ، لأن داروين نفسه قال : " إن لم يثبت العلم هذه النظرية فهي باطلة " ، داروين اعتقد أنه الفأرة تأتي من الخرق البالية مع القمح ، وأن الضفدع يأتي من الوحل ، فالوحل يصنع ضفدعا ، هذا شيء مضحك الآن ، العلم لم يكذّب هذا ، بل يستهزئ به ، وتوقع أن المخلوقات تطورت من حيوانات أو مخلوقات أحادية الخلية ، حتى الإنسان عنده تطور طبيعي عبر ملايين السنين ، إذاً : لا بد من كائن مرحلي وحيد خلية ، سمكة بعدها زاحف ، بعدها قرد ، بعدها إنسان .

مع التفاصيل :

فتحوا الأحافير فوجدوا صورَ الحيوانات التي طمرت برماد بركاني ، وأصبح هيكلها مطبوعًا على الحجار ، هذه اسمها أحافير ، وجودوا مئات ، بل ألوف المخلوقات قبل 530 مليون سنة كما هي الآن،

فالنظرية باطلة كلياً ، مَن أبطلها ؟ علماء الغرب ، ومع ذلك العالم كله الآن يؤمن بها ، ليس لأنها صحيحة ، بل لأنها مريحة ، ما مِن إله ، هذا الشعب اسحقه ، انهب الثروات ، هذه مريحة جداً لأعداء الدين ، ما من إله يحاسب أبداً ، ولا يوم آخر ، ولا آدم ، هناك قرد فقط **!!!**

أنا هذه النظرية صدقتها حديثاً ، لكن صدقتها معكوسة ، كان المحلوق إنسانًا فصار قردًا الآن ، صار إنسانًا ماديًّا ، القرد رمز المادية ، لما قال الله عز وجل :

(وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ)

(سورة المائدة الآية : 60)

أنا أتصور المسخ هكذا ، إنسان إلهه المال ، هذا قرد ، وإنسان إلهه الجنس ، هذا خنزير .

النظرية باطلة كلياً ، لكن لأنها مريحة تمسك العالم بها ، الآن يقول الناس الشاذين ، وللملايين في العالم الغربي : إن الشذوذ أصله في جسم الشاذ ، وهذا أمرٌ مريحٌ جداً .

أنا زرت مدينة بأمريكا ، لوس أنجلوس ، 75% من سكانها شاذون ، صدقوا في يوم بأكمله ما لمحت طفلا ، من أين يأتي طفل ؟!

الشذوذ انحراف الفطرة ، الزنا انحراف شرعي ، الله أمر بالزواج ، لكن الزواج رجل مع امرأة ، والزنا رجل مع امرأة ، لكن هذا وفق منهج الله ، هذا بخلاف منهج الله ، أما الشذوذ فتوجُّه إلى مكان قذر ، إلى مكان ليس فيه حرث ولا نسل ، الشذوذ تحطيم الشاذ .

لهذا أيها الإخوة ، الشذوذ عقابه القتل ، مع أنه مطروح في العالم الآن آلاف الأفكار أن الشاذ إنسان سويّ ، لكن جيناته شاذة ، لذلك بكل بساطة يقول وزير الصحة البريطاني : " أنا شاذ " ، قالها في مؤتمر صحفي ، وهناك وزير إيطالي قال : " أنا شاذ " ، وسفير أمريكا في بوخارست لما تسلم أوراق اعتماده من الخارجية الأمريكية أقيم له حفل في الخارجية ، فكان هو حاضر مع شريكه الشاذ ، عوض زوجته ، والآن يعطون في أمريكا ميزات الزوجة للشريك الجنسي ، وفي كندا مَن كان له شريك جنسي كندي يستحق الجنسية الكندية ، شيء مخيف ، نحن في نعمة كبيرة جداً في بلادنا .

حدثني أخ من أستراليا ، هو رئيس الجالية ، في أثناء وداعي في المطار والله بكى ، قال لي : بلغ إخواني في الشام أن مزابل الشام خير من جنات أستراليا ، قلت : لمَ ؟ قال لي : احتمال أن ترى ابنك يضع حلقة في أذنه اليمنى بالـ 50% ، معناه أنه شاذ ، أو أن تكون في اليسرى ، بمعنى آخر ، فهناك شاذ إيجابي ، وشاذ سلبي ، أو في الأذنين معاً أسوأ وأسوأ ، بل إن أستراليا تعد ملجأ للشواذ في العالم ، وفي بلاد في أوربا الشواذ أشخاص محترمون ومديرو شركات ، رؤساء بنوك ، قضاة لهم شريك جنسي ، وفي دول عديدة الآن يعقد عقد زواج مثلي ، والآن بدأت تكثر هذه البلاد ، فأصبح الزواج المثلي مشروعاً ، أرأيتم إلى هذا المجتمع البشري ؟! .

لكن المفاجأة التي يصعب أن تصدق أن الرئيس الأمريكي كلنتون قبل نهاية ولايته ألقى قنبلة علمية ، حيث أعلن الخارطة الجينية ، فقال ، سبحانك يا رب ! الحق أبلج ، قال : ليس هناك من علاقة بين الجينات والسلوك ، لا لأسباب دينية ، ولا إسلامية ، ولا غير إسلامية ، قضية علم ، لا علاقة أبداً بين الجينات والسلوك ، هذا انحراف وشذوذ ، لكن يبدو أن الإنسان لو نشأ عليه يتأصل فيه ، ويقول لك : لا أستطيع تركه ، لأنه ألِفه ، أما أن يكون في تركيب أصل الإنسان شذوذ فهذا مستحيل ، وألف ألف ألف مستحيل ، إله عظيم ، رحيم ، عادل ، يخلقك شاذًّا ويحاسبك ؟ مستحيل .

2 – مرض الإيدز خرج من رحم هؤلاء الشاذين :

هؤلاء القوم قوم لوط ، لكن ببلاد الغرب لهم تجمعات ، ونوادٍ ، ومنتجعات خاصة بهم ، هم لهم شعار خاص بهم ، ويطالبون بحقوقهم ، وقد أخذوها ، ما معنى ذلك ؟ كما قال عليه الصلاة والسلام ، وهذا الحديث من دلائل نبوة النبي ، قال :

((لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا))

[أخرجه ابن ماجه عن عبد الرحمن بن عمر]

حتى يفتخروا :

((إِلَّا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ))

[أخرجه ابن ماجه عن عبد الرحمن بن عمر]

بالمناسبة مرض الإيدز من أسبابه الأولى الشذوذ .

((لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ))

والآن المصابون بمرض الإيدز يقتربون من مئة مليون في العالم ، وكل ثلاث ثوانٍ يموت شخص واحد به ، وحتى الآن ما من علاج له ، ولا مصل مضاد ، وأغرب من ذلك لو دفعنا الملايين ، بل المليارات للبحث عن مصل مضاد فإنه يكفي أن هذا الفيروس يغيِّر شكله ، فإذا غيّر شكله ذهبت كل هذه الأموال أدراج الرياح ، لا أمل ، وأغرب من ذلك أن هذا الفيروس له دور حضانة ستة أشهر ، فإذا فحص الإنسان دمه ، ومعه مرض الإيدز ، لكن أقلّ من ستة أشهر لا يظهر في الفحص ، احتمال أن يكون الدم ملوثا بهذا الفيروس ، والفحص سليم ليس إيجابيًا ، هذا بلاء من الله ، لذلك قال تعالى :

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا)

(سورة الروم الآية : 41)

هذه الأمراض التي انتشرت في العالم :

(لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا)

زلزال تسونامي ، لما جاء في جنوب شرق آسيا ، هذه السواحل من أجمل السواحل في العالم ، والشتاء في أيام البرد والثلج في النصف الكرة الشمالي جو لطيف دافئ حار ، مياه ساخنة ، مناظر جميلة ، غابات ، 400 ألف طفل معدّ للدعارة هناك ، ولهم صور موزعة في أنحاء أوربا ، يختار السائح الطفل قبل أن يأتي برقم معين ، أين أنتم ؟ العالم وصل إلى فساد يفوق حد الخيال .

رئيس دولة كبرى في شرق آسيا يفتخر في خطابه أنه ما عنده فتاة عذراء ، سياحة الجنس ، نحن نعيش في نعمة كبيرة ، وعندما فساد أيضاً ، لكن نحن نعيش ببقية مروءة ، ببقية طهارة ، ببقية أدب ، ببقية حياء ، ببقية استقامة ، بأسر منضبطة .

على كلٍ هذه المعصية الكبرى بدأها قوم لوط ، الرد العلمي أن الخارطة الجينية تؤكد أنه لا علاقة بين الجينات وبين السلوك ، هذه أنا سميتها قنبلة ألقاها كلنتون قبل انتهاء ولايته ، حيث قال : لا علاقة للجينات بالسلوك .

الزواج هو الطريق الطبيعي لتلبية الشهوة :

هذا شرع الله عز وجل ، الله ينهى عن معصية ، فهل هو ركبنا فينا ؟ الله ركب فيك الشهوة ، هذا صحيح ، لكن الشهوة حيادية ، هذا شيء دقيق جداً ، الله ركّب فيك شهوة الأنثى ، تصور أسرة الآن بشاب نظيف ، طاهر ، عفيف ، ما عرف امرأة قبل الزواج ، تزوج زوجة طاهرة وفية عفيفة ، أنجبت له أولادا كالأقمار ، امتلأ البيت سعادة ، تربى الأولاد ، فهذا طبيب ، هذا مهندس ، الوالد محترم ، الوالدة محترمة ، جاءه أصهار ، الزواج كله خير ، والله الزواج قطعة من الجنة ، هذا منهج الله عز وجل ، و الشهوة بنزين ، لكن وضع في المستودع المحكم ، وسال في الأنبوب المحكم ، وانفجر في الوقت المناسب ، وفي المكان المناسب ، ولد حركة نافعة .

إذا أخذت أهلك في نزهة بسيارتك ، ما الذي يحدث في السيارة ؟ انفجارات ، لكن سائل بمكان محكم ، بأنبوب محكم ، الانفجار بوقت معين ، بزمن معين ، فصار حركة .

ائت بصفيحة البنزين ، وصبها على المركبة ، وأعطيها كبريت ، تحرق المركبة ومن فيها ، البنزين هو هو ، والشهوة هي هي ، تجد أسرة زوجة وفية ، صادقة ، تحبها وتحبك ، تحصنها وتحصنك ، ترعاها وترعاك ، وأنجبت لك أطفالاً كالورود في البيت ، هذا هو الزواج .

مرة صديقي حدثني ، قال لي : طرق بابي الساعة الرابعة صبحا ، فتحت فلم أجد أحدًا ، لما نظرت إلى الأسفل فإذا بكيس يتحرك ، جنين ولد لتوه ، وضعوه أمام بيتي ، وقرعوا الجرس وهربوا ، أنا فكرت ، إنسان يتزوج ، هذه ليست عقد طبعاً ، بعدها كتابة الكتاب ، بعدها عرس ، بعدها يأتي الخبر السار الذي ينتشر في الآفاق ، المرأة حامل ، الحمد لله ، الآن نستعد لهذا المولود ، السرير الخاص ، والألبسة الخاصة ، والعطورات الخاصة ، يستعد لهذا الضيف الجديد أشهرا مديدة ، يولد هذا الجنين ، الاتصالات ، المباركات ، جاءنا صبي أو بنت ، والبنت مقدسة ، تجد الحفل ، والتبريكات ، والهدايا ، والورود ، هذا الزواج المشروع ، أما إذا كان الزنا فإن الطفل يوضع في كيس أمام الباب ، ويطرق الباب ويهرب أهل الطفل .

والله في الشام حادثة ، صلى أحدُهم الصبح ، وجاء إلى البيت ، وجد خربشة في الحاوية ، صوت ، الفضول دفعه إلى أن ينظر ، هو ظن هرة تنقب في الحاوية ، لا ليست هرة ، هناك كيس يتحرك ، فتحه فإذا طفل مولود لتوه ، أخذه إلى الحاضنة فوراً ، القصة إلى هنا ، وضعه عند الحاضنة ، وكبر ورباه ، أنا أكملتها بخيالي ، وضعه في الحاضنة حتى تجاوز الخطر ، رباه ، جاء له بمربية ، وأرضعه بحليب قوارير ، وكبر ، أدخله إلى الروضة ، ثم الابتدائي ، ثم الإعدادي ، ثم الثانوي ، أدخله جامعة ، أدخله الطب ، أخذ دكتوراه في الطب ، بعثه إلى أمريكا فحصّل على بورد ، زوجه ابنته ، هيأ له بيتا ، هيأ له سيارة ، وعيادة ، أين كان ؟ في الحاوية ، هذا المتبنى يسير بسيارته الفارهة ، لقي عمه سيد نعمته ، قال له : الله يرضى عليك أوصلني إلى البيت ، تردد ثانية واحدة ، يكون في هذه الثانية بحق هذا الإنسان مجرما ، فقط لأنه تردد .

منحك نعمة الإيجاد ، نعمة الإمداد ، نعمة الهدى والرشاد ، الآن نقول لك : تعال واحضر الدرس فقط، لا أن تقتل نفسك ، الآن الطلبات خفيفة جداً ، فقط اسمع الدرس ، غض بصرك ، اضبط لسانك ، حرر دخلك ، ارحم من حولك ، فقط ، الذي تردد في بذل حياته هبط مقامه في الجنة .

((وإني لأرى في مقامه ازوراراً عن صاحبيه))

[السيرة النبوية]

3 – وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ

لذلك أيها الإخوة ، قال تعالى :

(وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ)

سبحان الله ! قد يسأل سائل ، لماذا الشذوذ ؟ سؤال محرج ، أهو أمتع من المرأة ؟ لا أبداً ، لكن الإنسان إن لم يكن له هدف في الحياة فإنه يمل الشيء الطبيعي ، هذا تفسيري لما يجري في الغرب ، الشيء

الطبيعي مُمَل ، يبحث عن شيء جديد ، لأنه لا هدف له ، كل شيء يمل ، فجعلوا مكان الزواج الزنا ، وبعد الزنا الشذوذ ، وبعد الشذوذ مع البهائم أحياناً ، وهناك انحرافات لا يعلمها إلا الله ، سببها أنه إنسان بلا هدف ، وأية شهوة يستوعبها ، ثم يمل منها ، أما المؤمن فهدفه الله عز وجل ، وهذه الشهوة يأخذ منها بالمساحة المتاحة فقط ، فيسعد بأهله ، وتسعد زوجته به .

4 – مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ

إذاً :

(مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ)

(إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ)

(سورة الأعراف)

مرة ثانية ، الإنسان إذا لم يكن له هدف في الحياة فهو أقلّ منزلة من الحيوان .

أذكر قصة مشهورة ، أن بين أوربا وآسيا مدينة على الطرف الأول آسيا ، والطرف الثاني أوربا ، أنشئ جسرٌ ، وهو ثاني أطول جسر في العالم ، يعبره 300 ألف سيارة يوميا ، فالذي صمم هذا الجسر المعلق بين قارتين ، وهو ثاني أطول جسر ، الأطول في سان فرانسيسكو الأطول ، هذا في استنبول ، المهندس الذي صمم هذا الجسر ألقى نفسه من أعلى الجسر ، شيء عجيب ، خامس مهندس في العالم ، دخل فلكي ، شاب وسيم الصورة ، ذهبوا إلى غرفته في الفندق ، كتب ورقة فيها : " ذقت كل شيء في الحياة ، فلم أجد له طعماً ، فأردت أن أذوق طعم الموت " ، فالحياة من دون هدف مملة ، فيها سأم .

والله سافرت إلى بلاد كثيرة ، تجد الناس قد ملّوا ، وكل شيء مؤمَّن ، ما عندهم مشكلة ، واستراليا قارة بأكملها 18 مليون ، قارة بأكملها فيها رفاه يفوق حد الخيال ، وفيها ملل ، وسأم ، كل شيء مؤمَّن، لكن ليس لهم هدف ، وقد تجد شخصًا في بلاد إسلامية يعاني ما يعاني ، يعاني مليون مشكلة ، له هدف، يقنع إنسانا في الدين فيفرح ، يعمل عملا صالحا فيفرح ، حياته متجددة .

(وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ)

بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ

هناك عاصٍ ، وهناك مسرف ، ويبدو أن الإسراف معصية كبيرة جداً .

(وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)

(سورة الأعراف)

فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ

طبعاً المؤمن طاهر ، المؤمن نظيف ، علاقاته نظيفة ، سره كجهره ، ظاهره كباطنه ، خلوته كجلوته ، واضح .

(فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

(سورة الأعراف)

سيدنا لوط امرأته تعاطفت مع قومه ، لذلك حينما يتعاطف الإنسان مع عاصٍ ، ويتغافل عن معصيته ، بل يثني عليه فكأنه وقع في المعصية نفسها ، فمن غاب عن معصية فأقرها كان كمن شهدها ، ومن شهد معصية فأنكرها كان كمن غاب عنها .

لو سمعت قصة بكندا أن فلانا تمكن أن يسرق بنكا ، وجمع أموالا طائلة ، وما استطاعت الحكمة أن تكتشفه ، وعاش حياة بحبوحة كبيرة ، قلت : والله دبّر أمره ، فأنت شريكه في هذه الجريمة .

فمن غاب عن معصية فأقرها كان كمن شهدها ، ومن شهد منكراً فأنكره كان كمن غاب عنه .

هذه المرأة ما لها مصلحة أن يكون زوجها منحرفا ، ليس في صالحها إطلاقاً ، ومع ذلك لأن امرأته تعاطفت مع قومها :

(فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

وقفة متأنية عند الآية : وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ

هناك سؤال يتوارد كثيراً ، ما معنى قوله تعالى :

(وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ)

أو بالعكس :

(الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً)

(سورة النور الآية : 3)

ما من امرأة لم تزن وزوجها زانٍ ؟ ما معنى الآية ؟ لما يبلغونها أنه كان زير نساء ، ما من مشكلة ، تريد أن تتزوجه ، حينما تساهلت في هذه الجريمة التي ارتكبها وقبلته زانياً ، فهي في حكم الزانية .

أنت مثلاً تعرف رجلاً أمواله كلها حرام ، وشاركته ، أمواله كلها حرام ؟ ليس ثمة مشكلة ، فأنت مثله، الحلال ما له قيمة عندك ، ما دام أنك قبلت أن تشارك سارقا ، فالسرقة لا قيمة لها عندك إطلاقاً ، أنت وإن لم تسرق ففي حكم السارق ، الفكرة واضحة . إذاً :

(إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

(وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ

قصص الأقوام السابقة هدفنا أن نتعظ بها ، وما من قوم إلا أهلكهم الله عز وجل بذنوبهم .

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(سورة هود)

هلاك الأمم له أسباب :

هلاك الأمم له أسباب ، وأسبابه كثيرة ، من أسبابه :

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ)

(سورة المائدة الآية : 79)

من أسبابه :

((كانوا إذا سَرِقَ فيهم الشَّرِيفُ تَرَكُوه ، وإذا سَرَقَ فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عائشة أم المؤمنين]

فوضى الجنس ، أحد أسباب هلاك الأمم ، فوضى المال أحد أسباب هلاك الأمم ، عدم التناصح أحد أسباب هلاك الأمم . فيا أيها الإخوة الكرام ، هذه القصص ليست للمتعة ، لكن للموعظة ، لأن ما من قوم انحرفوا عن منهج الله عز وجل ، وأصروا على هذا الانحراف إلا أهلكهم الله عز وجل ، والأمة الإسلامية لأن أمر الله هان عليها هانت على الله .

خاتمة :

القصة بشكل مختصر :

(وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

أصابتها غبار هذه المعصية أنها رضيت بها .

(وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة الأعراف)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(29-60): تفسير الآية 85 ، الأنبياء ملكوا المنهج ، والأمر والنهي ، أنواع الغش والبخس

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-01-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

رحمة الله تقتضي هداية خَلقه :

أيها الإخوة الأكارم ، مع الدرس التاسع والعشرين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الخامسة والثمانين ، وهي قوله تعالى :

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

أولاً : تقتضي رحمة الله وحكمته أنه تولى هداية خلقه .

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل)

تقتضي رحمة الله وحكمته ، ولأنه تولى خلقه بذاته العلية هداية خلقه أن يرسل إلى كل قوم نبياً أو رسولاً يبين لهم .

لكن في المألوف أن هذا الرسول أو النبي معه منهج ، معه نظام ، معه أوامر ، معه نواهي ، فإذا جاءت هذه النواهي على خلاف شهوات الناس يرفضون هذه الدعوة ويكذبون هذه الرسالة ، ويسفهون هذه التعليمات ، فما الذي ينبغي أن يكون ؟ لا بد من أن يبين الله لهؤلاء الناس أن هذا الإنسان رسوله أو نبيه عن طريق المعجزات .

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ

1 - مَدْيَنَ

الآن :

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا)

مَدْين هي قبيلة تقطن قرب معان ، وهم أصحاب الأيكة ، وقد أرسل الله لهم نبياً كريماً هو سيدنا شعيب.

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ)

2 ـ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا

عاش معهم تربى فيهم ، رأوا عفته ، رأوا صدقه ، رأوا أمانته ، رأوا كماله ، ألِفوه وألِفهم ، هو منهم ، لئلا تكون الحواجز بين الدعوة والمدعوين .

مثلاً : لو أن أخوك دعاك إلى هذا الدرس هل تقلق ؟ هل تشك فيه ؟ هل تخاف ؟ أبداً ، لأن الأخ ليس بينك وبينه حواجز .

لو أن إنساناً من الطريق أمسكك بيدك ، وقال : تعال معي ، وأنت في نيتك أن تأخذه إلى هذا المجلس هل يقبل ؟ لا يقبل ، يخاف ، إلى أين ؟

لذلك الحكمة الدقيقة أن الله سبحانه وتعالى جعل الأنبياء يعيشون مع أقوامهم ، وجعل أقوامهم يرون بأعينهم كمالهم .

كان النبي عليه الصلاة والسلام يسمى عند قومه قبل البعثة الأمينَ ، وحتى بعد البعثة كانت أمانات قومه تودع عندهم ، هم لم يؤمنوا به كنبي ، لكنهم آمنوا بكماله ، آمنوا بعفته ، آمنوا بأمانته ، آمنوا بصدقه . إذاً :

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا)

كمالُ الخَلق يدل على كمال التصور :

دائماً وأبداً كمال الخلق يدل على كمال التصور ، في هذا الكون كمال مطلق ، الكون معجز ، هذا الكون يشفّ عن إله عظيم ، عن مربٍّ حكيم ، عن مقتدر ، عن قوي ، عن غني ، هذا الكمال كمال الذات الإلهية لا بد من أن يكون معها كمال في التصرف .

للتقريب : إنسان يحمل أعلى شهادة ، وملتزم ، وحضر دروس علم خمسين عاما ، وهو مفكر ، وباحث ، وله مؤلفات ، هذا الإنسان بهذه الثقافة ، بهذا الوعي ، بهذا النضج هل يعقل أن يرتكب حماقة؟ مستحيل ، هل يعقل أن يقول كلمة زائدة ؟ مستحيل ، وقد تجلس مع إنسان أياما مديدة في سفر لا تسمع كلمة ليست في مكانها ، ولا تعليقا لا يرضي .

كمال الخلق يدل على كمال التصرف ، فمن كمال التصرف للذات الإلهية أنه أرسل إلى عباده أنبياء ورسلاً .

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا)

3 ـ قَالَ يَا قَوْمِ

الأنبياء بماذا جاؤوا .

(قَالَ)

لا معه سلاح ، ولا قنبلة ذرية ، ولا أقمار صناعية ، ولا كمبيوتر ، هذا الإنجاز الحضاري لا يحتاجه الأنبياء ، الأنبياء كلمتهم طارت في الآفاق .

(مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ)

(سورة إبراهيم)

الأنبياء جاؤوا بالكلمة أيها الإخوة ، وللكلمة فعل لا يصدق إن كانت صادقة ، لذلك مع الكذب ، والدجل، والتزوير كفَر الناس بالكلمة ، الآن الكلمة سقطت ، لأنه كلام كثير لا يعني شيئاً ، كلام كثير ليس فيه مصداقية ، كلام كثير ليس فيه فعل ، كلام كثير لا ينقذ ، الكلمة إن لم تنفذ تفقد مصداقيتها وقيمتها .

لذلك الأنبياء العظام جاءوا بالكلمة فقط ، كلمة قلبت العالم من عالم شارد عن الله إلى عالم مؤمن :

(مثلاً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ)

(بِإِذْنِ رَبِّهَا)

(سورة إبراهيم الآية : 25)

والباطل أيضاً يعتمد الكلمة .

(وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ)

(سورة إبراهيم)

فالحق ينتشر بالكلمة الصادقة ، والباطل ينتشر بالكلمة المغرية :

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ)

ما كل نبيٍّ ذُكِر في القرآن :

بالمناسبة : ما كل الأنبياء ذُكروا في القرآن الكريم .

(مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ)

(سورة غافر الآية : 78)

ما كل الأنبياء ذُكروا في القرآن الكريم ، وما كل أحوال الأنبياء ذُكرت في القرآن الكريم ، لحكمة بالغةٍ بالغة ، عرفها من عرفها ، وجهلها من جهلها ، لكن هناك رغبة عند بعض المفسرين أن يتقصوا أخبار القصص وتفاصيلها وجزئياتها التي وردت في القرآن الكريم ، هذا منهج غير صحيح ، لأن الله سبحانه وتعالى ذكر أشياء ، ولم يذكر أشياء أخرى ، فالحكمة من ذكر الذي ذكره حكمة كاملة ، والحكمة التي من عدم ذكر الذي لم يذكره حكمة كاملة ، لأن الله سبحانه وتعالى أراد من هؤلاء القمم قمم البشر أن يكونوا نماذج نقتدي بها ، أما التفاصيل إذا كثرت ألقت في روعنا أن هذه النماذج وقعت ، ولم تقع مرة ثانية .

فلذلك أيها الإخوة ، لا تبحث عن أشياء سكت عنها القرآن ، إنك إن فعلت هذا أفسدت على الله حكمته من هذه القصص .

إذاً : لحكمة بالغة لم يذكر الله عز وجل ما المعجزة التي جاء بها شعيب .

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

4 ـ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ

أرأيت إلى هذه الكلمة :

(اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

هذه الكلمة ضغطت بها دعوات الأنبياء جميعاً .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا)

العقيدة ، بالتعبير المعاصر المنطلق النظري :

(فَاعْبُدُونِ)

عبادة الله الذي بيده الأمرُ :

العبادة ، السلوك ، بالتعبير المعاصر التطبيق العملي ، الإنسان عقل يدرك ، وإدراك ، وحركة ، عمل، وعقيدة .

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

في أية لحظة تتوهم أن مصيرك بيد غير الله فهذا نوع من الشرك ، لأن الذي خلقك هو الذي يتصرف بك .

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

الذي خلقك أمرك بيده .

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية : 123)

الذي خلقك مصيرك إليه .

(أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ)

(سورة الشورى)

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

(سورة الغاشية)

فلذلك كلمة :

(مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

إن رأيت على شبكية العين أقوياء فهم بيد الله وقبضة الله .

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ)

(سورة هود الآية : 55 - 56)

الدابّة هي أيّ شيء يدب على وجه الأرض .

(مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله بيده ، وهذا هو التوحيد .

(مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف)

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ)

(سورة الزخرف الآية : 84)

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف)

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ)

(سورة فاطر الآية : 2)

مشكلات المسلمين نابعة من ضعف التوحيد :

أيها الإخوة ، الدين كله توحيد ، وكل مشكلات المسلمين ، بل مشكلات المؤمن من ضعف التوحيد ، من ضعف التوحيد يسأل غير الله ، من ضعف التوحيد يخاف من غير الله ، من ضعف التوحيد يرجو غير الله ، من ضعف التوحيد يتوهم أن جهة في الأرض يمكن أن ترفعه ، وأن جهة أخرى يمكن أن تخفضه ، وأن جهة ثالثة يمكن أن تعطيه ، وأن جهة رابعة يمكن أن تحرمه ، أما التوحيد فأن تعتقد لا معطي إلا الله ، ولا مانع إلا الله ، ولا رافع إلا الله ، ولا خافض إلا الله ولا معز إلا الله ، ولا مذل إلا الله ، ولا مسعد إلا الله ، ولا مشقي إلا الله ، هذا هو التوحيد ، التوحيد ألا ترى مع الله أحداً ، التوحيد أن تعلم علم اليقين أن مصيرك بيد الله ، وأنك في قبضة الله ، وفي أية ثانية أنت في قبضته ، التوحيد ألا ترى مع الله أحدا ، التوحيد أن ترى أن يد الله تعمل وحدها .

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال الآية : 17)

أيها الإخوة ،

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ)

التوفيق والسعادة والنجاة في طاعة الله تعالى :

أي أطيعوه ، وكل السعادة في طاعته ، كل السلامة في طاعته ، كل التوفيق في طاعته ، كل النجاح في طاعته ، كل التفوق في طاعته .

(وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب)

مستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر ، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تعصيه وتربح . مرة دخلت جامعا في محافظة ، والله رأيت لوحة بحجم فلكي كبير ، كتبت عليها آية قرآنية ، حينما تقرؤها تشعر بخدر في جسمك .

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح الآية : 10)

مهما رأيت يداً قوية تخاف منها فاعلم علم اليقين أن يد الله فوقها .

للتقريب : وحوش كاسرة ، جائعة ، مفترسة أنيابها حادة ، وأنت ضعيف ، إلا أن هذه الوحوش مربوطة بأزمة محكمة بيد جهة عادلة ، رحيمة ، منصفة ، حكيمة تحبك ، هل تخاف منها ؟ تخاف منها

إذا اقتضت حكمتها أن ترخي أحد الأزمّة ، فالوحش المربوط بهذا الزمام يصل إليك ، أما إذا كنت تتحرك وفق مشيئة هذه الجهة هي بعيدة عنك ، هذا هو الدين .

والله الذي لا إله إلا هو أكاد ألخص مشكلات المسلمين بمثل بسيط : المسلمون انحرفوا ، وتفلتوا من منهج الله ، لم يطبقوا سنة رسول الله ، هان أمر الله عليهم فقيض الله لهم قوة جبارة ، ليس في الإمكان إزاحتها ، إلا بحالة واحدة ؛ أن يعودوا إلى استقامتهم ، فتنزاح من تلقاء نفسها ، هذا ملخص الملخص .

(وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ)

(سورة الأنفال الآية : 19)

فالعبادة هي الطاعة ، والتوحيد هو الدين ، والدين كله توحيد وعبادة .

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ)

قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ

إما أن البينة هي سيدنا شعيب ، ببيانه ، وحججه ، وفي الأعم الأغلب ومعه معجزة ، هي خرق للعادات ، وللنواميس تؤكد أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أرسله .

(قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

دائماً عندنا عقيدة ، ومنهج ، ينبغي أن تعتقد أن الله موجود وكامل ، وواحد ، وأسماءه حسنى ، وصفاته فضلى ، وأن هناك قضاءً وقدراً ، وأن هناك ملائكة وهناك كتباً ، وهناك أنبياء ، ومرسلين ، هذه عقائد ، لا تكذب هو منهج ، أقم الصلاة هو منهج ، آتي الزكاة هو منهج ، لا تغتب أحداً هو منهج ، فهناك عقائد ، و منهج ، فأنت بالكون تعرفه ، وبالشرع تعبده الآن المنهج :

(اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ)

عقيدة :

فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ

(فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا)

منهج .

آتي بمثل : أنت بحاجة إلى غرة نوم ، مثلاً بحاجة إلى سرير واحد ، رأيت غرفة نوم بسريرين ، هو مصنّع ، قلت له : أريد سريرا واحدًا ، الغرفة ثمنها 150 ألفًا ، قال لك : أخصم لك ألفين ، هو نفسه ،

لو جئته بعد عام الغرفة فيها سرير واحد ، قلت له : أريد سريرين ، قال لك : فيها زيادة 25 ألفًا ، لماذا بالحسم ألفان ؟ و بالإضافة 25 ألفًا ؟ هذا بخس .

كل شيء تعرضه ما له قيمة ، كل شيء تطلبه غال جداً ، الباعة يبخسون الناس أشياءهم .

مرة حدثني أخ بينه وبين صديقه سيارة ، يريدان التصفية ، التخاصص ، ذهبا إلى تاجر للسيارات أعطاهم سعرًا شرائه لها أربعين ألفًا ، ذهبا ليشتريا مثلها فطلبوا 80 ألفًا ، من نفس المستوى تماماً ، العرض 40 ، الشراء 80 ، هذا بخس ، وش ، والله الذي لا إله إلا هو هناك أنواع من الغش لا يعلمها إلا الله ، كل شيء إذا عرضته يدفع لك ثمن بخس ، فإذا طلبته تدفع الثمن الفاحش .

إذاً : ليس هناك إنصاف ، وأقول لكم من أعماق أعماقي : دينك ليس هنا ، دينك في محلك التجاري ، في عملك ، إذا أحب أن يستلم قماش كيلاً يشد القماش حتى يتمزق ، وأما إذا أحب أن يشتري القماش يشكله بخط منحنٍ عنده ، الشراء خط منحني ، أما في البيع كاد القماش يتمزق من شدة الشد ، هذا بخس.

أحيانًا يبيعك حاجة غالية جداً كالهيل ، بورق ثقيل جداً مع نشاء ، صار ثمن الكيس أضعافًا مضاعفة ، أحياناً عبوة الفاكهة خشب ، يكون سعره الكيلو مئة ليرة ، 4 كيلو 400 ليرة دفع ، 400 ليرة ثمن العبوة هي ثمنها 20 ليرة العبوة خشب منقوع بالماء ، وثقيل ، أنواع الغش لا تعد ولا تحصى ، يبدو أن الإنسان يبخس الناس أشياءهم ، يتلاعب بالسعر ، بالمواصفات يأتي بقماش من بلد متخلف جداً ، يضع عليه شريطًا ذهبيًا بالمكواة ، يصبح مصنوعًا في أرقى بلد في أوربا ، يبيع القماش بثلاثة أضعاف ، هو يبخس الناس أموالهم ، وإذا اشترى يبخسهم أشياءهم .

لذلك في سياق سور جزء عمّ ، في سياق الجزء الثلاثين ، كل السور تبدأ بالقسَم :

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

(سورة الشمس)

(وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ)

(سورة الفجر)

إلا في سورة قد يظن أنها مقحمة إقحامًا :

(وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ)

(سورة المطففين)

على خلاف السياق كله ، قال علماء التفسير : إذا كان التطفيف في البيع والشراء يسبب الهلاك ، فكيف التطفيف في الإيمان بالله ؟

وصدقوا أيها الإخوة ، دينكم ليس في المسجد ، دينكم في المحل التجاري ، في الصيدلية يمكن أن تبيع دواء انتهى مفعوله ؟ جاء طفل يشتريه فيحك التاريخ بالشفرة ، ثمنه 800 ليرة ، أنا أرى أنك إن فعلت

هذا ألغيت عباداتك كلها ، حينما تحتال ، وتغش في الوزن ، والكيل والمساحة ، والعدد ، والنوعية ، والمواصفات ، ومنشأ البضاعة ، أنواع الغش لا تعد ولا تحصى ، أحيانًا الـ200 الغرام بالمطعم 150، وأحياناً اللحم بحسب ما اشتريته هو من نوع آخر ، غش مرتين ، مرة بالوزن ، مرة بالنوع ، ما دام الإنسان هكذا ليعتقد اعتقاداً جازماً أن الطريق إلى الله ليس سالكاً ، وألغى عباداته .

(فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا)

وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا

أحياناً الماء يفسد ، أنا عشت في هذه البلدة ، وأعلم علم اليقين كان الناس يشربون من ماء نهر يزيد ، كان الورع بحيث يخاف أي إنسان أن يلقي فيه شيئاً ، الآن مياه نهر يزيد سوداء ، إفساد الماء إفساد ، إفساد الهواء إفساد ، مادة مسرطنة إفساد ، هناك هرمون نباتي مسرطن إفساد ، هناك مواد حافظة مسرطنة ، توضع بكميات مضاعفة ، مسموح أن تضع 3 بالألف ، لكن يضعون 6 بالألف ، وهو مسرطن ، حينما ترى أن هناك إلهاً عظيماً سيحاسبك لا تفعل مثل هذا .

صدقوا أيها الإخوة ، هناك مواد غذائية تضاف لها مواد كيماوية مسرطنة ، يفتح لونها ، تزداد بياضاً ، يرتفع سعرها على حساب صحة الناس ، هناك أدوية زراعية جهازية مسرطنة تُشترى تهريباً من أجل أن يبتعد الدبور عن العنب ، هذا الدواء ممنوع استيراده ، ممنوع بيعه ، يدخل تهريباً ، ويرش به العنب، فالدبور لا يقترب إطلاقاً ، لكن الناس يموتون ، الذي يفكر بغش المسلمين أو غير المسلمين بكل بساطة فقد ألغى عباداته كلها ، وألغى صلاته ، وألغى صيامه ، وألغى حجه ، و ألغى زكاته ، وهو مسلم !!!

أحياناً هناك شيء تبيعه مؤذٍ ، لكن له عمولة عالية ، وهناك شيء تبيعه غير مؤذٍ ، لكن بلا عمولة ، حينما تختار الشيء الذي له عمولة ، وتؤذي به إنساناً عبداً لله ، فأنت بهذا قد خنت الأمانة ، وألغيت عباداتك كلها ، هذا إيمانك ، فدينك ليس في المسجد ، في محلك التجاري ، في المواد التي تقدمها للناس.

الموظف في مطعم مصاب بالتهاب كبد وبائي ، ودخل إلى الحمام ، وما غسل يديه جيداً قد ينقل هذا المرض الخطير العضال المميت إلى 300 آكل .

لذلك الآن :

(فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

فالعبارة : الدين سلوك ، الدين معاملة ، الدين انضباط ، الدين صدق ، الدين أمانة الدين ورع ، الدين إنصاف ، الدين نصيحة ، الدين استقامة ، هذا الدين ، فإن لم تكن كذلك ولا أبالغ وسامحوني مجيئك للمسجد لا يقدم ولا يؤخر .

كنت في ألمانيا موظف كبير في السفارة ، قال لي : كنت في الشام ، وأنا ركبت سيارة أجرة ، وسائق السيارة يستمع إلى درسك ، قلت له : شيء جميل ، قال لي : قدمت له مئة ليرة أخذها كلها ، أنا قلت له: أغلق الإذاعة أحسن ، إذا كان هذا هو السلوك أغلق الإذاعة .

إذا لم يكن الإنسان مستقيما فلا ينضم للمؤمنين إطلاقاً ، يقوم بحركات وسكانات اسمها الصلاة ، يقوم برحلة اسمها الحج ، يقوم بنظام غذائي صارم اسمه الصيام ، وهذا إذا ما استقمت .

والله أيها الإخوة ، كلمة من القلب إلى القلب ، أنواع الغش المتاحة للناس .

أيها الإخوة ،

(وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ)

كلمة أشياء عامة جداً ، أي شيء حتى لو كان معنويًا .

أحياناً يكون البيت المراد بيعُه في الطابق الخامس ، حتى يقنعَ الوسيطُ الإنسانَ بشرائه يصعد معه ، عند كل طابق يقف معه دقيقتين ، يقص عليه قصة ليرتاح ، في كل طابق وقفة ، يصل إلى فوق مرتاحًا.

أقسم لي بالله وسيط عقاري ، قال له : أريد البيت اتجاه القبلة ، قال له : سنصلي العشاء ، صلى باتجاه الشمال حتى أقنع هذا الإنسان أن هذا البيت باتجاه الجنوب ، هناك غش لا يعلمه إلا الله ، وأساليب الغش والله يحار لفهمها الناس ، وهو يصلي في الجامع ، هذه الصلاة لا قيمة لها ، هذه الصلاة التي ليس قبلها استقامة لا شأن لها إطلاقاً .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَال :

((أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ فَقَالَ : إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى ، هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

[مسلم]

يقول لك : أنا أخذت الزيتون وعصرته أمامي ، يكون مستودع للزيت النباتي على السقيفة ، فيعصره نصف عصرة ، ويفتح المفتاح قليلاً ، ويأخذ زيته نصفه نباتي ، يقول لك : أنا وقفت أمامه ، لا مجال أن يكذب عليّ .

ألوان الغش لا يعلمها إلا الله ، وهذا المال الذي يأتي من الغش يدمره الله عز وجل ، الله عنده أساليب لتدمير المال لا يعلمها إلا هو .

أيها الإخوة ، الذي أتمناه في الدرس ، أنت مسلم تصلي يجب أن تكون مستقيماً استقامة تامة .

حدثني أخ يعمل بلف المحركات ، قال : يأتيني محرك قبل أن أعرف الله ، ما فيه شيء ، فيه شريط خارجي مقطوع ألحمه في ثانية ، الأجرة خمسة آلاف ، يأتي بعد يومين يشغله حسب الشرط 5000 ، يأخذها ، قال لي : بعدما عرفت الله ، أطلب منه 25 ليرة ، الشرط خمسة آلاف ، ما فيها شيء ، فيها شريط خارجي مقطوع ولحمته .

لما تعرف الله تستقيم استقامة تامة ، لما تعرفه يحاسبك ، لما تعرف صحتك بيده .

والله مرة حدثني أخ قال لي : جاء إنسان معه سيارة جديدة ، كان بدولة خليجية فيها مشكلة ، الذي رآه ذكي ، عرف أنه لا يعلم شيئاً في مكانيك السيارة ، أعطاه وصفًا يكلف عشرة آلاف ، وإصلاحها يحتاج إلى دقيقة واحدة ، كم يوما ؟ ثلاث أيام ، جاره من إخواننا ، أخذ السيارة وأخبر أهله ، ذهب إلى منطقة الزبداني أول يوم ، و ثاني يوم إلى طريق المطار ، ثالث يوم على منطقة أخرى ، وفي رابع يوم جاء صاحب السيارة فأعطاه إيّاها ، أخذ عشرة آلاف ، فجاره عاتبه ، قال له : هكذا الشغل ، لكن ابنه دخلت نثرة فولاذ في قرنية عينه بمخرطة ، تكلفه أربعين ألفًا ، بعد جمعتين العملية أجراها في لبنان ، الله كبير.

إياك ، ثم إياك أن تفهم الدين عبادات شعائرية ، الدين استقامة ، الدين بحقلك الزراعي ، الدين بمكتبك التجاري ، الدين بمكتب المحاماة ، الدين بالمكتب الهندسي ، الدين بالعيادة ، الدين بالدكان .

وقعت فأرة في علبة الزيت ، تباع ثاني يوم بيعًا عاديًا ، تُنزَع بالملقط ، ويباع الزيت ، والمؤمن مستحيل أن يبيعها ، وإذا ما راقبت الله عز وجل بينك وبينه لا تصح صلاتك ، لان حجابا بينك وبين الله.

توسعت في هذا الموضوع ، لأن العالم الآن يعاني من الغش بشيء لا يصدق ، في بخس لأموال الناس، إذا أعطيت مادة سيئة بسعر مرتفع فأنت بخست الناس أموالهم .

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ)

بضاعتهم ، على ألبستهم ، أي شيء .

(وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

خاتمة :

إذا كنتم مؤمنين فهناك إله يعلم ما تفعلونه ، وسيحاسب ، وسيعاقب ، فالأولى أن تستقيم ، الأولى أن تنجو من الله باستقامتك ، إذا كنت مؤمنًا أن هناك حسابًا :

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

ينبغي أن تستقيم .

حينما تؤمن أنه :

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

ينبغي أن تستقيم ، وحينما تؤمن أن لكل سيئة عقابًا ، ولكل حسنة ثوابًا ينبغي أن تستقيم ، وحينما تؤمن أنه مستحيل وألف ألف مستحيل أن تعصيه وتربح ، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر ينبغي أن تستقيم .

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(30-60): تفسير الآيات 86 - 93
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-01-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثلاثين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية السادسة والثمانين ، وهي قوله تعالى :

(وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آَمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)

مقدمة للآية :

1 ـ هما طريقان لا ثالث لهما :

أيها الإخوة الكرام ، هناك طريق إلى الله ، وهناك طريق إلى جهنم ، طريق إلى الجنة ، وطريق إلى جهنم ، طريق إلى الله ، وطريق إلى الشيطان ، لكن الطرائق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق ، المنهج واحد ، أما سبل الوصول إلى الله فمتعددة ، يمكن أن تصل إلى الله بإنفاق مالك ، أو بضبط تربية أولادك ، أو بإحسانك ، أو بطاعتك ، أو بعباداتك ، أو بصيامك ، أو بوسائل لا تعد ولا تحصى ، المنهج الإلهي واحد ، والحق لا يتعدد .

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ)

(سورة الأنعام الآية : 153)

2 ـ الحق واحد ، والباطل متعدِّد :

الحق لا يتعدد ، الحق واحد ، لكن الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق ، أما الباطل فمتعدد ، هناك مليون باطل ، باطل اعتقادي ، باطل شهواني ، باطل كيدي ، باطل قهر ، باطل اختلاس ، باطل كذب ، باطل انغماس في الشهوات ، الباطل متعدد ، مذاهب ، وفرق ، وملل ، ونحل ، واتجاهات ، وتيارات ، وطوائف ، ومذاهب ، لا تعد ولا تحصى ، كما أنه لا يمر بين نقطتين إلا خط مستقيم واحد ، ولكن يمر بين نقطتين ملايين الخطوط المنحنية والمنكسرة ، فالباطل متعدد ، والحق واحد .

(يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ)

جمع .

(إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة الآية : 257)

مفرد .

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ)

(وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام الآية : 153)

إذاً : الحق واحد ، والباطل متعدد ، لكن الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق ، أنواع الأعمال الصالحة ، إنسان يتقرب بإنفاق ماله ، إنسان يتقرب ببذل وقته ، إنسان يتقرب ببذل علمه ، إنسان يتقرب ببذل جاهه ، إنسان يصلح بين اثنين ، إنسان يصلح بين زوجين ، إنسان يزوج الشباب ، إنسان يبني المساجد ، الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق ، هذه الحقيقة الأولى ،الحق واحد ، والباطل متعدد .

إلا أن طرق الوصول إلى الله لا تعد ولا تحصى ، كما أن طرق الوصول إلى النار لا تعد ولا تحصى، الربا ، والزنا ، والدعارة ، والاختلاس ، والسرقة ، والقهر ، والظلم ، والقتل ، والاستبداد ، الطرق الموصلة إلى النار لا تعد ولا تحصى ، والطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق ، إلا أن الحق واحد لا يتعدد ، والباطل متعدد ، هذه أول فكرة .

3 ـ الشيطان لا يترك مَن يسير على صراط مستقيم :

حينما قال الله عز وجل في هذه السورة بالذات على لسان الشيطان :

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

(سورة الأعراف)

ما دام الإنسان يمشي في طرق الباطل ، في طرق الشهوات ، في طرق الانغماس في الدنيا ، ما دام في طريق يؤدي به إلى النار فالشيطان يتركه ، لأنه يحقق هدفه ، ما دام الإنسان يمشي في طرق تنتهي به إلى النار فالشيطان يتركه ، هذا مضمون ، أما حينما يبدأ الإنسان السير إلى الله ، يصطلح مع الله ، يتوب إليه ، يُقبل عليه ، يقلع عن الذنوب كلها ، يبدأ دور الشيطان مع هذا الإنسان .

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

والصراط مستقيم ، والحق صراط مستقيم ، والمستقيم أقرب خطر بين نقطتين .

4 ـ في كل عصرٍ ضلالاتٌ يروِّجها الشيطانُ :

ماذا يفعل هذا الشيطان ؟ قال :

(لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الأعراف)

في هذا العصر ضلالات يستخدمها الشيطان كأوراق رابحة ، من هذه الضلالات موضوع الجينات ، أن المنحرف له جينات خاصة ، إذاً : ليس ذنبه ، فإذا كان الإنسان منحرفًا أو شاذًّا فبتركيبه الجيني خصوصية ، من هذا المنطلق غير الصحيح ، ومن هذا الوهم أُعطِي المنحرفون والشاذّون حقوقهم المدنية ، هذه ضلالة من ضلالات العصر ، فالشيطان يروج لهذه الضلالات .

نظرية داروين التي تنفي وجود الخالق ، وتبين أن هذا الكون كان بهذا الشكل محض صدفة ، وبدأ من مخلوق وحيد الخلية ، ثم تطور ، وهناك قفزة نوعية بين المادة والخلية الحية ، وأن الخرق البالية تنتج فأرة ، وأن الوحل ينتج ضفدعاً ، وأن اللحم المتفسخ ينتج دوداً ، هذا في كتاب أصل الأنواع لداروين ، العلم أثبت عكسه ، وأثبت بطلانه ، داروين إذاً يروج لها ، الشيطان يروج لهذه النظرية ، لأنها تلغي المسؤولية ، تلغي وجود الإله ، تلغي الجنة والنار ، تلغي الحساب والعذاب ، تلغي المنهج ، تلغي افعل ولا تفعل :

(لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

كل إنسان منحرف يقول : في جيناته انحراف ، لكن حينما اكتشفت الخارطة الجينية ، وكان اكتشافها قفزة نوعية في العلم ، أثبتت هذه الخارطة أنه لا علاقة للجينات بالسلوك ، فكل هذا الذي كان يتوهمه الناس أصبح باطلاً .

إذاً :

(لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

أروّج لهم ضلالات العصر ، وشهوات العصر ، وفي بكل عصر ضلالات ، وشهوات ، وشبهات ، وأنا أقول في أول كل درس : أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم .

هناك مقولة : أنك ما دمت الأقوى فأنت على حق ، فالقوي على حق ، ولو سحق الشعوب ، ولو أباد الشعوب ، ولو بنى مجده على أنقاض الشعوب ، ولو محا ثقافة الشعوب ، ولو أباد الشعوب ، ما دام يملك قنبلة نووية إذاً هو يدمر بها كل شيء ، هذه أيضاً من ضلالات العصر .

القوة تصنع الحق ، لكن المناهج الإلهية تؤكد عكس ذلك ، الحق يصنع القوة ، أنت قوي لأنك على حق، لكن في عالم المادة أنت على حق لأنك قوي ، هذه أيضاً من ضلالات العصر ، ومِن هذه

الضلالات العنصرية ، لك ما ليس لغيرك ، لك حق الفيتو ؛ الاعتراض ، أما بقية دول العالم فلا تملك هذا الحق ، لك أن تمتلك أسلحة الدمار الشامل ، لكن لا تسمح لأي جهة أن تمتلك هذا السلاح ، العنصرية أن تتوهم أن ما لك ليس لغيرك ، وما على غيرك ليس عليك ، يمكن لك أن تضع في السجن كما يفعل الصهاينة بعشرين ألف أسير ، أما إذا أُخذ أسير واحد يدمر بلد عربي بأكمله ، من أجل أسير واحد ، لك ما ليس لغيرك ، وعلى غيرك ما ليس عليك ، هذه من ضلالات العصر ، وتسمى الآن العنصرية .

فالجينات أنواع الانحراف ، والشذوذ تفسر تفسيراً يريح المنحرف ، أن هناك خصوصية في جيناته ، والعلم أثبت عكس ذلك ، لا علاقة للجينات بالسلوك ، الأخلاق نسبية ، ما هو محرم في بيئة مقبول في بيئة أخرى ، والمعنى أنْ ليس هناك قيم ثابتة ، كل بلد له عادات وتقاليد ، وتراث وموروثات ، فكل شيء هنا محرم ، هنا كمقبول ومباح ، هذه الفكرة ميعت القيم ، فأصبح المجتمع بلا قيم .

أيها الإخوة ، الفتن الطائفية من هذه الضلالات ، نستورد مشكلات من التاريخ ، ونجعلها أصلاً في الدين ، ونسفك الدماء من أجلها ، هذا من ترويج الشيطان ، بل إن كل طاغية يستخدم سلاح الفتن الطائفية .

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص)

وطغاة العصر يقول بعض وزرائهم : أنا لا يعجبني أن يكون العالم مئتي دولة ، أتمناه خمسة آلاف دولة ، الفتن الطائفية من ضلالات العصر ، العنصرية من ضلالات العصر ، التطهير العرقي يقتل الرجُلُ لأنه من هذا العرق فقط ، ولم يسفك دماً ، ولم ينهب مالاً ، ولم ينتهك عرضاً ، موت كعقاص الغنم لا يدري القاتل لم يقتل ، ولا المقتول فيما قُتل ، هذا أيضاً من ضلالات العصر .

(ثم لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

من هذه الضلالات ، من أجل الحفاظ على أسعار اللحوم يعدم عشرين مليون رأس غنم في أسترالية ، للحفاظ على مستوى السعر ، بينما شعوب بأكملها تموت من الجوع .

أحياناً تُتلفت كميات من الزبدة يساوي حجمها حجم أهرامات مصر حفاظاً على السعر المرتفع ، ومحصول البرتقال أتلف بأكمله ، لكن لما تسلل الجنود ليأكلوا منه مجاناً في العام القادم سُمم هذا المحصول ، ورشّ بالسموم ، الشيطان يروج لهذه الضلالات وتلك الشهوات .

الضعفاء يسحقون ، يُقتلون ، تنهب ثرواتهم ، تؤخذ أموالهم ، يُعتقل شبابهم ، هذا أيضاً من ضلالات العصر .

وهناك الشهوات ، الجنس الآن في العالم إلهٌ يعبد من دون الله ، وهناك 800 محطة فضائية ، 400 محطةٍ منها إباحية ، و8 مليارات موقع بالإنترنت 23 مليونًا موقع إباحي ، وهناك تجارة الرقيق منتشرة في العالم .

إذاً :

(ثم لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

(وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

(سورة الأعراف الآية : 17)

5 ـ الفتن والاختلافات والدعوة إلى الجاهلية أساليب الشيطان :

ما في التاريخ من فتن يأتي مَن يحيي هذه الفتن ، ويركز عليها ، وتعد أصلا في الدين ، ويقتتل الناس من جراء هذه الفتن ، فتن عرقية ، فتن طائفية ، فتن مذهبية ، هذا أيضاً من فعل الشيطان .

(مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

أو إحياء التراث الوثني ، وتجاهل الإسلام ، يكون قبل الإسلام حياة وثنية ، وآلهة متعددة ، إحياء التراث الوثني ، تمجيد ما قبل الإسلام من أصنام ، ومن عادات ، ومن تقاليد ، أيضاً هذا من وسوسة الشيطان .

(ثم لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

أما :

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

(سورة الأعراف الآية : 17)

فمثلاً التحريش بين المؤمنين هذا من فعل الشيطان ، والمسلمون جماعات ومذاهب وطوائف وفرق .

وكل يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا

الغرق في الجزئيات ونسيان المقاصد والكليات ، نختلف على صلاة التراويح ، وفي بعض البلاد يتقاتلون ، وهي سنة ، ووحدة المسلمين فرض ، نختلف على تسمية الأشياء ، ما تعريف صلاة التهجد وصلاة قيام الليل ، نختلف ونقتتل ، نختلف على التشهد ، بحركات متتابعة أم بحركة واحدة ، نختلف على أشياء تعد من الدرجة المئة في سلم الأولويات ، ومع ذلك نختلف ونقتتل أحياناً .

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

الدعوة إلى الذات لا إلى الله ، دعوة إلى الذات أساسها الابتداع ، أساسها التنافس ، أساسها إلغاء الآخر.

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

الاهتمام بالمظاهر ، تجد المؤتمر إسلاميا ، والوفود من شتى بقاع الأرض ، والصحفيات يرتدين ثيابا فاضحة ، ولا شيء عليهن ، الالتزام منعدم فيه ، الاهتمام بالمظاهر ، وإلغاء السنة ، والاكتفاء بالقرآن .

(ثم لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

ألم يقل الله عز وجل :

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر الآية : 7)

(ثم لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

شبهات العصر ، وشهوات العصر .

(وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

العادات والتقاليد ما قبل الإسلام ، يروج لها ، ويحتفى بها ، وتقدس .

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

هذه القضايا الخلافية تضخم ، وتروج ، وتصبح موضوعاً للصراع .

6 ـ شبهات التأويل :

الدعوة إلى الاكتفاء بالقرآن ، أو اللعب بتأويله ، وأعداء المسلمين بوسوسة من الشيطان اخترقوا المسلمين في ثلاث قضايا ، القضية الأولى اللعب بالتأويل .

(لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران الآية : 130)

يقول الشيطان : إذا كان الربا ضعفاً واحداً فلا شيء فيه ، لأن النهي عن أضعاف مضاعفة .

أيها الإخوة ، نسبية النص ، هذه شبهة كبيرة ، أن هذا النص لا يصلح لهذا العصر ، لكنه يصلح لعصور الصحراء ، فلا بد من قراءته قراءة جديدة ، لا بد من قراءته تمهيداً لإلغائه ، أو تمهيداً لإخراجه عن مضمونه ، أو تحييداً له عن واقع الحياة ، فقد كان الدين كيانا واضحا صلبا ، واضح المعالم ، صار كياناً مرناً ، هذه المروة ازدادت ، فصار لزجا ، ثم صار سائلا ، والسائل يتغير شكله ، ويبقى حجمه ثابتاً ، الآن الدين غاز ، لا له شكل ثابت ، ولا حجم ثابت ، ترتكب أكبر المحرمات والمعاصي والآثام والمظهر ديني ، والإطار يدني ، وكل شيء فيه تسامح ، إلى أن فقد الدين محتواه ومضمونه .

أيها الإخوة ، هذا :

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

أما :

(عَنْ شَمَائِلِهِمْ)

ترويج الخمر ، قيم روحية ، ومشروبات روحية ، الخمر سمي بأسماء كثيرة ، الاختلاط والتعري والزنا ، وأكل الربا ، نحن أمة اقرأ (سابقاً) ، الآن أمة ارقص ، بدل اقرأ ارقص ، اختيار ملكات جمال حضارة .

أيها الإخوة ، هذه الآية دقيقة جداً ،

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

(سورة الأعراف)

معه الملايين ويشكو ، الشكوى جزء من حياته ، يشكو الدخل ، لا يعجبه والحياة لا ترضيه ، وزوجته لا يتهم بها ، وهكذا .

وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ

أيها الإخوة ، هذا تمهيد لدرسنا ، أما الدرس فيقول الله :

(وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ)

لا تأخذوا دورَ الشيطان في تثبيطِ الناس عن العمل الصالح :

كلما وجدتم طريقاً إلى الله ، الصدقة طريق إلى الله ، تنهون الآخرين عن الصدقة ، حضور مجلس العلم طريق إلى الله ، دعك من هذا المجلس ، اهتم بشيء آخر ، اهتم بدراستك ، طريق بناء مسجد ، المساجد كثيرة ، طريق إطعام الجياع ، لهم رب يتولى شأنهم ، كلما رأيت إنساناً تحرك نحو عمل صالح تنهاه عن هذا العمل ، إياكم ، ثم إياكم ، ثم إياكم أن تأخذوا دور الشيطان في تخويف الإنسان من إنفاق ماله ، أو من حضور مجلس علم ، أو من طاعة ، أو من اختيار عمل شريف ، يقول لك : الدخل لا يكفي ، هذا العمل دخله كبير ، دعك من هذه الوسوسة ، لا تكن متزمتاً .

(وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ)

أي : بكل طريق يؤدي إلى الحق ، إلى طاعة الله ، إلى إنفاق المال ، إلى إتقان العمل ، إلى غض البصر ، إلى ترك الاختلاط ، إلى تلاوة القرآن ، إلى حفظ القرآن ... هذه الطرق التي تفضي إلى الله عز وجل ، الذين شردوا عن الله ينهون سالكيها عن بلوغ أهدافهم .

(وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ)

إذاً : هذا الذي يفعل هذا شاء أم أبى ، أعجبه أو لم يعجبه ، رضي أم غضب ، هو شيطان ، لأنه أخذ دور الشيطان .

أحياناً يقوم بعمل معين ، مَن الذي فعله ؟ هناك دراسة تحليلية ، الذي انتفع به هو الذي فعله ، مثلاً : الخلاف بين المسلمين ، من ينتفع به ، الشيطان وحده ، لأن الشيطان ينتفع به وحده ، إذاً : كل إنسان يشق صفوف المسلمين ، يفرقهم ، يشرذمهم ، يثير العداوة والبغضاء بينهم هو إذاً شيطان ، ما دام المنتفع الأول من هذه الخلافات هو الشيطان ، إذاً : الشيطان هو الذي يدفع بالناس إلى هذه التفرقة .

(وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ)

أي تخوفون مَن يسلكه ، إياك أن تحضر مجلس علم ، ما الخطر ؟ يؤخذ اسمك ، وإذا أخذوا اسمي ! ما مِن شيء إطلاقاً ، درس مرخص ، درس نظامي ، درس فيه دعوة إلى الأخلاق ، درس يدعو إلى السلم، دعوة إلى المحبة ، دعوة إلى التعاون .

(تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

طريق إلى الله تصد عنه ، طريق إلى الدنيا إلى الشهوة ، إلى المعصية ، إلى النار تروج له .

وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آَمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً

(وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آَمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً)

أحكام الدين تفرغ من مضمونها .

مثلاً : لما حرم الله على اليهود الصيد يوم السبت ، ماذا فعلوا ؟ صنعوا بحيرات ، وجمعوا فيها الأسماك ، وأقفلوها مساء السبت ، واصطادوها يوم الأحد ، هذه هي الحيل الشرعية .

(وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آَمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً)

دائماً هناك احتيال على تطبيق الشريعة ، لذلك الآية الكريمة :

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ)

(سورة الإسراء الآية : 73)

هذه الفتنة بدأت من عهد النبي عليه الصلاة والسلام :

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ)

الإسلام مقبول كإطار ، مسجد ، مؤتمر ، مؤلفات ، دروس ، أما تطبيق منهج الإسلام الحقيقي فهذا ينبغي أن يغيّر ، لأنه لا يتناسب مع روح العصر ، ،تحريم الربا مشكلة كبيرة ، وإلغاء الاختلاط مشكلة أكبر .

فلذلك أيها الإخوة ، الصد عن سبيل الله أن يبتغي الإنسان الأمور بشكل معوج ، وكلّ أمر له طريق معوج ، هذا غير صحيح ، للتقريب :

هذه المرأة يجب أن تحج ، ما معها محرم ، تكتب عقد زواج صوريًّا ، هذا طريق معوج للحج ، لا يرضي الله ، الله عز وجل لا يعبد إلا وفق ما شرع ، أو أن أسلك طريقًا ملتويا كي أصل لهدف معنى ذلك أن الذي يفعل هذا ليس مخلصاً .

وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ

ثم يقول الله عز وجل :

(وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ)

قد يكون الإنسان ضعيفا ، الله عز وجل يقويه ، والمسلمون كانوا قلة ، لكنهم كانوا في أعلى درجات القرب من الله ، وفتحوا العالم ، الآن مليار و500 مليون ، ربع سكان الأرض التي فيها ستة آلاف مليون ، المسلمون مليار و500 مليون ، وهم يملكون ثروات طائلة كثيرة ، لا تقدر بثمن ، أكبر احتياطي نفط في العالم ببلاد المسلمين ، وفي العراق بالذات ، وأرخص نفط في استخراجه هو نفط العراق 450 مليار برميل الاحتياطي البعيد الأمد ، يملكون ثروات كبيرة ، وموقعا استراتيجيا ، أمة واحدة ، إله واحد ، نبي واحد ، قرآن واحد ، آمال واحدة ، آلام واحدة ، والحدود بينهم والسدود ، بينما الذين خاضوا حروبا لـ200 عام في أوربة ، أوربة الآن كلها بلد واحد .

كنت مرة في مدينة في ألمانيا ، فجأة قيل لي : هذه هولندا ، صعقت ، أين الحدود ! أين اللوحات ! أين الجوازات ! لا شيء ، ولا لوحة ، ولا إشارة ، ولا عبارة ، كيف عرفتم ؟ قال : من لون لوحات السيارة ، كانت بيضاء ، فأصبحت صفراء ، لأنهم اتحدوا ، اقتصاد واحد ، عملة واحدة ، ناطق واحد ينطق باسمهم جميعاً ، ونحن إذا أتوا إلينا يقولون : سُنة ، وشيعة ، وأكراد ، وآشوريون ، وعرب ، أعوذ بالله :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً)

لذلك :

(وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)

أيها الإخوة الكرام ، الله عز وجل يرينا آياته إن شاء الله ، في الطرف الآخر الذي طغى وبغى ، ونسي المبتدا والمنتهى ، هم قلقون جداً لفتح الحدود بين غزة ومصر ، لماذا ، لأن الموت المحقق للنساء والأطفال لم يقع ، إذا هم قلقون ، ما الذي يقلقهم ؟ إبادتنا ، هذا الذي يريحهم .

الآن :

(وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آَمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)

(سورة الأعراف)

وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آَمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا

أناس آمنوا بالله ، وأناس لم يؤمنوا ، الذين لم يؤمنوا قد يكونون أقوياء وأغنياء وأذكياء ، وناصية العالم بيدهم ، الأموال بيدهم ، الأقمار بيدهم ، التحالفات بيدهم ، الإعلام بيدهم ، أناس آمنوا وهم ضعاف ، أناس لم يؤمنوا وهم أقوياء .

(وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آَمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا)

أيها الضعيف اصبر ، وأيها القوي اصبر ، فسوف ترى النتائج ، الصبر الأول صبر رجاء ، والصبر الثاني صبر تهديد ، أيها الضعيف اصبر ، وأيها القوي اصبر ، سوف ترى .

حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ

(فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)

أنتم أيها الإخوة ، لو قرأتم التاريخ لا تتصورون حجم المعركة بين قريش وبين المسلمين .

أيها الإخوة .

(قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ)

(سورة الأعراف)

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ

هناك تناقض صارخ بين المؤمن المستقيم و غير المؤمن ، وهذه معركة أزلية أبدية بين الحق ، والباطل أرادها الله عز وجل لحكمة بالغة ، لأن الحق لا يقوى إلا بالتحدي ، ولأن أهل الحق لا يستحقون العطاء الأبدي السرمدي إلا بالبذل والتضحية .

أيها الإخوة الكرام .

(قَالَ الْمَلَأُ)

يعني وجهاء القوم ، كبراء القوم ، الأغنياء الأقوياء ، المتبوعون .

(قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ)

إنكم إذاً لخاسرون ، جاء أمر الله .

(فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

(سورة الأعراف)

المعالجة الربانية للناس :

(الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِين * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آَسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ)

(سورة الأعراف)

الله عز وجل أرسل نبياً كريماً ، ونصحهم ، وبين لهم ، وعالجهم ، وأدبهم ، وأصروا على كفرهم ، وانتهى الأمر .

لذلك هذه القصص أيها الإخوة ، ما ذُكرت في كتاب الله إلا لكي تكون لنا دروساً نستفيد منها في حياتنا، هؤلاء الذين جاؤوا إلى الدنيا ، وما عرفوا ربهم ، بل كذبوا بالحق لما جاءهم هلكوا في الدنيا ، وفي الآخرة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(31-60): تفسير الآيات 94- 96 ، عقاب الله تعالى للشاردين أن يأخذهم بالبأساء والضراء

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 08-02-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الواحد والثلاثين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الرابعة والتسعين ، وهي قوله تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ)

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ

1 – معنى القرية :



أنا لا أعتقد أن هناك آية في كتاب الله تنطبق على حال المسلمين اليوم كهذه الآية القرية هي البلدة التي تجمع فيها مصالح سكانها ، فيها مواد ، فيها سلع ، فيها متاجر ، فيها محكمة ، فيها قاضٍ ، فيها حاكم .

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ)

2 – التأديب والمعالجة الربانية للمكذبين :

يعني العبارة شمولية ، أية قرية أرسل الله لها رسولاً فكذبوه ، لما كذبوه خضعوا لمعالجة تربوية ، والمربي يختلف في موقفه عن غير المربي ، غير المربي إن وجد مَن لا يستجيب له يدعه وشأنه ، لكن المربي لا بد بسبب رحمته التي في قلبه من معالجة هذا الذي يربيه .

إذاً : إلهنا وربنا رب العالمين ، يربينا جميعاً ، فإذا كذبنا أنبياءه ، لم نستجب لهم ، لم نطبق ، تلبسنا بالمعاصي ، أكلنا المال الحرام ، اعتدينا على أعراض بعضنا بعضاً ، إذا غفلنا عن ربنا ، ولم نؤدِّ واجب العبودية له ، ضحينا بآخرتنا ، سرنا في طريق الهاوية ، لا يعقل ولا يقبل من رب كريم رحيم أن يدعنا وشأننا ، هذا كلام دقيق .

أنت تمشي في الطريق ، ترى شباباً ثلاثة ، الأول ابنك ، والثاني ابن أخيك ، والثالث صديق ابن أخيك ، لو رأيتهم في حالة لا ترضي ، يدخنون فرضاً ، فإنك تغضب ، وتتألم أشد الألم بسبب رحمتك بابنك ، وتقول لابن أخيك : هكذا رباك أبوك ؟! أما أعلى درجة من الغضب ، أعلى درجة من الألم ، أعلى درجة من القلق فهي على ابنك ، لأنه جزء منك ، لأنه امتدادك ، لأنه قدرك ، الغضب 50% يهبط على ابن أخيك ، الأب مسؤول ، والده هو المسؤول ، أما صديق ابن أخيك فتقول له : انصرف ، وهذا شيء طبيعي جداً .

كأن الألم والحرص والرأفة متناسبة مع القرب ، أقرب جهة إلى العبد ربه ، هو الذي خلقه ، هو الذي يربيه ، لا تعجبوا إذا شرد الواحد من الناس عن الله أن يدعه الله وشروده ، لا تصدقوا إذا خرج العبد عن منهج الله أن يدَعه الله وخروجه ، لا ، لا بد من معالجة .

طرق المعالجة الربانية للشاردين :

1 ـ الدعوة البيانية :

دائماً وأبداً أذكركم بأن الله سبحانه وتعالى من رحمته يبدأ مع عبده بما يسمى بمرحلة سلمية ، هي الهدى البياني ، يسمعك خطبة ، يسمعك درسا ، تقرأ كتابا ، تسمع ندوة ، تسمع محاضرة ، توضح هذه المحاضرة سر وجودك ، وغاية وجودك ، فأنت إن استجبت فهذا أسلم طريق ، أكمل طريق ، وأكثرهم راحة .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال الآية : 24)

أرقى علاقة مع الله أنه إذا دعاك إليه تستجيب له ببساطة ، القرآن واضح كالشمس ، خلقك الله ليسعدك في الدنيا والآخرة ، خلقك لجنة عرضها السماوات والأرض ، قال لك : افعل ولا تفعل ، وأيّ أمر إلهي علاقته بنتائجه علاقة علمية ، أي علاقة سبب بنتيجة .

حينما تؤمن أن الأشياء التي حرمها الله عليك ما حرمها عليك تضيقاً عليك ، ولا حداً لحريتك ، ولكنها ضمان لسلامتك ، تماماً لو رأيت لوحة كتب عليها : حقل ألغام ، ممنوع التجاوز ، أنت لا تحقد على واضع هذه اللوحة ، بالعكس يمتلئ قلبك امتناناً منه ، لأنه حرص على سلامتك فنبهك ، ففي اللحظة التي تعتقد أن المحرمات ، وأن الأشياء التي نهى الله عنها ، لم ينهَ عنها تقييداً لحريتك ، ولا لجعل حياتك متعبة ، ولكنه نهاك عنها ضماناً لسلامتك ، ها هو الفقه ، أن ترى هذه الأوامر لصالحك .

المحرمات ضمان لسلامتك

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة آل عمران)

إخوتنا الكرام ، الإنسان بفطرته يحب أن يكون فائزاً ، الفوز كل الفوز ، والنجاح كل النجاح ، التفوق كل التفوق ، الفلاح كل الفلاح ، العقل كل العقل ، الذكاء كل الذكاء، في طاعة الله ، لا تحب أحداً ، أحب نفسك ، إنك مجبول على حب وجودك ، وعلى حب سلامة وجودك ، وعلى حب كمال وجودك، وعلى حب استمرار وجودك ، سلامة وجودك في طاعة الله ، وكمال وجودك في طاعة الله ، واستمرار وجودك في جنة عرضها السماوات والأرض إلى أبد الآبدين في طاعة الله .

الفوز كل الفوز في طاعة الله

أيها الإخوة ، الموضوع دقيق ، الله عز وجل أرحم بنا من أنفسنا ، خلقنا ليسعدنا ، خلقنا لجنة عرضها السماوات والأرض ، فإذا لم نستجب ، لم ننصع له ، لم نخضع ، لم نفكر ، لم ننضبط ، لم نلتزم ، أيقبل من رب رحيم أن يدع هذا العبد وشأنه ؟

أضرب لكم مثلا أرجو أن يكون واضحاً : هناك ابن في الصف الخامس قال لأبيه مرة : لا أحب الدراسة ، قال له : دعها ، في اليوم الثاني لم يذهب إلى المدرسة ، فلا دوام ، ولا استيقاظ باكراً ، ولا وظائف ، ولا أستاذ ، ولا ضرب إذا ما كتب الوظيفة ، بل نام إلى لظهر ، ما هذه الحياة ، إنها مريحة جداً ! خرج من البيت ، عاشر رفقاء السوء ، تصور أنه في سعادة كبيرة جداً ، فلا أعباء ، ولا مسؤولية ، ولا عقاب ، ولا محاسبة ، ولا وظائف ، ولا استيقاظ باكرا ، لما كبر وجد نفسه بلا وظيفة ، ولا تجارة ، ولا طب ، ولا هندسة ، ولا زوجة ، ولا بيت ، فهو إنسان شارد ضائع ، فحقد على أبيه ، جاءه ، وقال له : يا أبتِ ، يوم سألتك : لا أحب الدراسة لمَ لم تضربني ضرباً مبرحاً ؟ لمَ سمحت لي أن أدع الدراسة ؟

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا)

يوم القيامة

(رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة القصص)

المصائب رسائل عملية ربانية مفهومة المقصد :

دققوا في كلمة :

(لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً)

سمّى الله المصيبة التي ساقها الله لعباده التائهين سماها رسولا من الله ، رسالة عملية ، ففي اللحظة التي تفهم بها أن المصائب رسائل من الله ، تجمع مالاً حراماً ، هذا المال يدمر ، فتدمير المال رسالة من الله أن يا عبدي تُب ، لقد أخطأت .

(إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

(سورة القصص)

أحببت امرأة لشكلها ، ولجمالها ، ولم تعبأ بدينها الرقيق ، فأذاقك الله بهذا الزواج ألوان الشقاء ، ألوان الشقاء التي أذاقك الله من خلال هذا الزواج رسالة من الله ، وفي اللحظة التي تفهم أن معاملة الله لك رسائل عندئذٍ أنت فقيه .

إذاً : لا تنتظر من الرحيم أنك إذا سرت في طريق الهاوية أن يدعك وشأنك ، قال تعالى :

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ)

(سورة الأنعام الآية : 147)

ماذا تقتضي رحمته الواسعة ؟

(فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة الأنعام)



تقتضي رحمته الواسعة ألا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، الذين مشوا في طريق الهلاك ، وحينما تفقه حقيقة كمال الله عز وجل تشعر أن الله حينما يضيق على الإنسان فمن أجل أن يرده إليه ، والله عزوجل ثبّت ملايين القوانين ، الكون ثابت ، دورة الأفلاك ، خصائص المواد ، قوانين الفيزياء ، الكيمياء ، قوانين الفلك ، الحركة ، لكنه حرك الرزق والصحة ، هما بيد الله ، وهناك أمراض لا حل لها حتى الآن ، الورم الخبيث شيء مخيف ، الفشل الكلوي شيء مخيف ، تشمع الكبد ، خثرة في الدماغ ، كلها أمراض وبيلة ، الله سبحانه وتعالى إن رأى عباده شردوا عنه ، وساروا في طريق الشهوة ، بل ساروا في طريق الهاوية ، وساروا في طريق ينتهي بهم إلى النار ، أيعقل ويقبل من رب العزة ، من الرحمن الرحيم أن يدعنا وشأننا ؟ أبداً ، هذه الآية :

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ)

أرسلنا نبياً إلى قرية فكذبته ، لم تستجب له ، لم تعبأ برسالته .

(إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ)

3 – إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ

يقول لك : 15 ألف بيت بلاستيكي أُتلف في الصقيع الماضي ، وهي حقول كان من الممكن أن تنتج ستة ملايين طن من القمح ، لكن لم تنتج حبة واحدة .

(إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ)

نقص في المواد ، زلزال ، بركان ، والزلزال له تفسير علمي ؛ اضطراب في القشرة الأرضية ، لكن مَن هو مسبب الأسباب ؟ رب العالمين ، الجفاف ، سنوات عجاف ، النبات يموت ، الحيوان يموت ، الإنسان يهاجر .

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ)

4 – وَالضَّرَّاءِ

الضراء الأمراض ، الضراء مصيبة تصيب الإنسان ذاته ، قد تكون ببتر عضو ، أو فقد بصر ، أو قطع رجل أحياناً ، أو شلل ، هذه الضراء ، والبأساء جفاف .

من السنن الكونية الجارية على الشاردين :

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ)

(سورة الأنعام الآية : 65)

هذه الصواعق ، والآن والصواريخ .

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

(سورة الأنعام الآية : 65)

الزلازل ، والألغام. أما أخطر شيء :

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً)

(سورة الأنعام الآية : 65)

الطائفية



(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص الآية : 4)

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام الآية : 65)

أيها الإخوة ، هذه الآية تفسر ما يجري في العالم الإسلامي ، المسلمون مليار و500 مليون شردوا عن الله ، انبهروا بالغرب ، آثروا الشهوة على طاعة الله ، أكلوا المال الحرام اعتدوا على أراض بعضهم ، لم يعبؤوا بمنهج الله ، لم يطبقوا منهج الله ، تعلقوا بالغناء ، وتركوا القرآن ، كنا أمة اقرأ ، الآن الأمة أمة الرقص ، لما شردوا عن الله عز وجل ، لما هان أمر الله عليهم هانوا على الله ، خمس دول إسلامية محتلة ، ثرواتها نهبت ، شبابها قتلوا ، أمرها ليس بيدها ، يتفنن أعداء الأمم بإذلال شبابها ، واعتقالهم ، وهدم بيوتهم ، وكما تسمعون وترون ، أين الله ؟ هذا فعل الله ، لحكمة بالغة عرفها من عرفها ، وجهلها مَن جهلها .

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ)

البأساء مصائب كبيرة تصيب زراعتهم ، أو ثرواتهم ، ثرواتهم تنهب ، أرضهم تجف فيها الينابيع ، تنقطع فيها الأمطار ، آفات زراعية تبيد كل شيء .

(وَالضَّرَّاءِ)

الأمراض ، والهموم ، والمتاعب ، والقهر ، والفقر ، والمرض ، لماذا يا رب ؟ كلام خالق السماوات والأرض قال :

(لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ)

5 – لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ

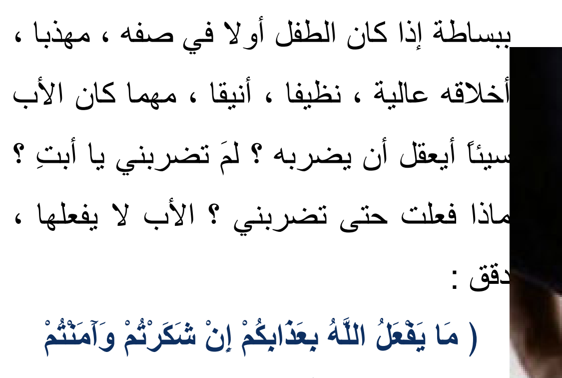
من أجل أن تسجد في الليل ، وتقول : يا رب ، لقد تبت إليك ، سامحني ، يا رب ، ليس لي إلا أنت ، يا رب ، أستغفرك من ذنب وقعت فيه ، من أجل أن نتضرع .

صدقوا أيها الإخوة ، والله الذي لا إله إلا هو لو تضرعنا إلى الله كما ينبغي لأزيحت عنا كل المصائب، لماذا ؟ لأن الله عز وجل يقول :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

(سورة النساء)

ببساطة إذا كان الطفل أولا في صفه ، مهذبا ، أخلاقه عالية ، نظيفا ، أنيقا ، مهما كان الأب سيئاً أيعقل أن يضربه ؟ لمَ تضربني يا أبتِ ؟ ماذا فعلت حتى تضربني ؟ الأب لا يفعلها ، دقق :



(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

أيها الإخوة ، آية دقيقة جداً :

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ)

هذه الدعوة البيانية ، نبي كريم ، معه معجزة ، قال لك : أنا رسول كريم ، هذا تكليفه ، هذا منهجه ، افعل ولا تفعل ، هذا حرام ، وهذا حلال ، إن استجبت فشيء رائع ، ووقفت أرقى موقف ، استجبت لدعوة الله البيانية .

أحياناً يقول لك الطبيب : معك التهاب معدة حاد ، هذا المرض قد ينقلب إلى قرحة خطيرة ، والقرحة قد تنتهي بثقب المعدة ، وعندئذٍ تحتاج إلى عمليه جراحية كبيرة ، لكن من الممكن أن تشفى شفاء تاماً عن طريق حمية صارمة ، فأنت إنسان مثقف وعاقل ، أقنعك الطبيب بحمية صارمة ، طبقت الحمية الصارمة ، شفيت معدتك ، الطبيب تكلم كلاما فقط ، وأنت استجبت له ، فإن لم تستجب له فلا بد من عمل جراحي ، يقول لك : أنت السبب ، أنا عرضت عليك الحمية الصارمة فرفضت ، ادفع الثمن ، لا بد من عمل جراحي .

2 - التأديب التربوي :

الآن المرحلة الثالثة ، الثانية التأديب التربوي ، التأديب التربوي أكمل موقف فيه التوبة إلى الله .

إخواننا الكرام ، الآيات دقيقة جداً ، ونحن في أشد الحاجة إلى فهمها فهماً صحيحاً ، لأن الحل في هذه الآيات :

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ)

هناك معنى ضمني ، لم يستجيبوا ، لم يتوبوا ، لم يقبلوا ، رفضوا :

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ)

إرسال النبي دعوة بيانية ، لكن البأساء والضراء تأديب تربوي ، الدعوة البيانية أكمل موقف فيها الاستجابة :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

أما التأديب التربوي فأكمل موقف فيه التوبة :

(إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ)

بأموال ، بحقول ، بزراعتهم ، بمصانعهم ، بعدوان ، باجتياح ، بأخذ أموال ، فقد نُقِلت مليارات من الشرق إلى الغرب في العشرين السنة الماضية .

(إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ)

أمراض ، الإيدز ، لماذا ؟

(لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ)

إذا تضرعوا ، واصطلحوا مع الله ، وتابوا أزيحت هذه المصائب .

إن أمة ـ دققوا ـ انحرفت ، فقيض الله لها عدواً كبيراً ، يتفنن في قهرها ، في حالة واحدة إذا عادت إلى الله ، واستقامت على أمره ، أزاح الله عنها هذا الكابوس :

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ)

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة الروم)

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

3 ـ الإكرام الاستدراجي :

في المرحلة الثانية في التأديب التربوي لم تكن هناك توبة ، هناك مرحلة ثالثة ، والمرحلة الثالثة خطيرة، أنا سميتها الإكرام الاستدراجي .

(ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آَبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(سورة الأعراف)

ثُمَّ بَدَّلْنا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ

1 – ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا

أمطار غزيرة ، دخل وفير ، غلّات كبيرة ، رفاه ، بيوت ، سفر ، فنادق ، نساء كاسيات عاريات ، حفلات مختلطة ، ولائم :

(ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا)

فهموا الدنيا هكذا ، يوم لك ويوم عليك ، فهموا الدنيا أنها للقوي ، للذكي ، لمن يملك المال ، الجنة في الدنيا للأقوياء ، لأصحاب الأموال ، أنت قوي ، إذاً : أنت على حق ، الحق للقوة .

قال تعالى :

(ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ)

2 – وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ

هذه طبيعة الحياة ، وأحيانا الإنسان يرفض أن يكون التأديب الإلهي تأديباً إلهياً ، يراه حظاً سيئاً ، يقول لك : قلب لي الدهر ظهر المجن ، القدر سخر مني ، هذا كلام لا معنى له .

(قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ)

هذه المرحلة الثالثة ، الإكرام الاستدراجي ، وأكمل موقف فيه الشكر لله عز وجل .

إن عشرين مليون رأس غنم يطلق عليها الرصاص في بلد مشهور لتصدير الأغنام حفاظاً على السعر المرتفع ، والشعوب تموت من الجوع !!!

أحياناً تتلف محاصيل الحمضيات بألوف الأطنان حفاظاً على السعر المرتفع !!!

أحياناً تتلف مشتقات الحليب ، بحجم يساوي أهرامات مصر ، حفاظاً على السعر المرتفع ، والشعوب تموت من الجوع !!!

(ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا)

أيْ : وسّع الله عليهم في الدنيا ، هذا اسمه استدراج ، أخطر شيء الاستدراج ، إذا رأيت الله يتابع نعمه عليك ، وأنت تعصيه فاحذره ، فإنّ مطبًا كبيرًا أمامك .

(ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ)

هذا شيء طبيعي ، والحياة هكذا ، وقد يرفض الإنسان البعيد عن الله أن يعدّ المصيبة من الله تأديباً له ، بل يقول : هذا حظي ، هكذا الدنيا ، حينما ترفض ما جاء به القرآن .

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا)

الله قال :

(قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

(سورة آل عمران الآية : 165)

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

(سورة الشورى)

3 – فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

(قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

فجأة ، تجد يقول لك : أعاصير سببت خسائر ثلاثين مليار دولار ، حرائق غابات ، جفاف أحرق الأخضر واليابس :

(فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

في المرحلة الثالثة كان من الممكن أن يشكروا ربهم على هذه النعم ، لكنهم جحدوا بها ، وكفروها .

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص الآية : 78)

لا يعزو الفضل إلى الله أبداً ، يعزو الفضل إلى نفسه .

(فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

أيها الإخوة ، ثم يقول الله عز وجل :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة الأعراف)

طبعاً قبل أن نتابع هناك آية متعلقة بهذا الموضوع ، هنا الآية :

(ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

في آية أخرى :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

(سورة الأنعام الآية : 44)

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا

1 – الإيمان والتقوى سببان لـ : بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ :

الآن :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا)


بركات السماء

ما قال آمنوا ، نحن الآن والحمد لله مؤمنون ، لكن بعضنا لا يتقي الله عز وجل :

(آمَنُوا وَاتَّقَوْا)

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

هل من آية أوضح من هذه الآية ؟ آمن واتق ، هل تصدقون أن حل مشكلات العالم الإسلامي بكلمتين في آية .

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

(سورة آل عمران الآية : 120)

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ * فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

(سورة إبراهيم)

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

انتهى كل شيء .

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

سؤال : إذا شرد الناس عن الله ، وأنت واحد ، ما علاقتك بهذا الموضوع ؟ اسمع إلى هذا الجواب : عظمة هذا الدين أنه للمجموع ، لكن لو أن الفرد وحده طبقه لقطف ثماره ، وله معاملة خاصة . دققوا في كلامي : الناس شردوا عن الله ، لم يستجيبوا له ، لا تنظروا إلى هذا الجمع الغفير ، رواد المساجد في الشام مجتمعون يوم الجمعة ، في كل مساجدها ، لا يزيدون عن 500 ألف إنسان ، سكان دمشق 5 ملايين ونصف مليون ، أي العشر ، المجموع في شرود عن الله عز وجل .

المستقيم في زمن الشاردين له معاملة خاصة :

لو أن الناس شردوا ، لم يستجيبوا ، غارقون في شهواتهم ، في كسب الأموال الحرام ، في الاعتداء على الأعراض ، في الانغماس في المتع الرخيصة ، وأنت واحد ، لو طبقت كلمة الله فلك من الله معاملة خاصة .

أطمئنك أيها الشاب ، هناك فساد عام ، لكن الله عز وجل لا يأخذ واحداً بذنب غيره .

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام الآية : 164)



أنت مستقيم ، لك حفظ من الله ، لك مستقبل مريح ، لك زوجة تسعدك إن شاء الله ، لك بيت يؤويك ، لك دخل يكفيك ، لك سمعة طيبة .

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ)

(سورة فصلت)

لك معاملة خاصة .

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

(سورة سبأ)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

أعرابي قال للنبي الكريم : يا رسول الله عظني ولا تطل ، فتلا عليه هذه الآية ، قال : كُفيت ، تكفيك هذه الآية :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

وعودٌ ربّانية عظيمة للمتقين :

أنا أخاطب الشباب ، أنا أعلم علم اليقين أن كل شاب منكم بحاجة ماسة إلى عمل ، وإلى بيت ، وإلى زوجة ، أليس كذلك ؟ كل شاب منكم بحاجة إلى عمل يدرُّ عليه مبلغاً يغطي حاجاته ، وإلى بيت يسكنه، وإلى زوجة يسعد بها ، الحل ـ دقق ـ أقسم لكم بالله العظيم لزوالُ الكون أهون على الله من ألا تحقق هذه الآية .

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

(سورة الطلاق)

أنا أعتمد على كلام الإله ، كلام الإله هو أكبر ضمان لكم .

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

دققوا :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية الآية : 21)

هذا ظنك بالله عز وجل ؟ شاب مؤمن ، مستقيم ، عفيف ، يغض بصره ، يضبط لسانه ، يخدم الناس ، دخله حلال ، يؤدي صلواته كاملة ، هل هذا يعامَل كما يعامَل فاسق ؟ هل هذا ظنك بالله عز وجل ؟

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة القصص)

أما الآية الدقيقة جداً :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ)

(سورة الجاثية الآية : 21)

دعك من الآخرة ، الآخرة حق ، في الدنيا ، وأنت في الدنيا ، شاب مؤمن ، له زوجة صالحة إن شاء الله ، له دخل يغطي حاجاته ، له بيت يؤويه ، له سمعة طيبة ، يسعده الله عز وجل ، هذه الآية شعار كل شاب :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ

(وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية الآية : 21)

تفاءلوا ، والله مع الإيمان بالله لا ألم ، ولا هم ، ولا حزن ، ولا قلق ، ولا يأس ، ولا إحباط ، الإحباط الذي يعم المسلمين من ضعف إيمانهم ، الله موجود ، وما سلمك إلى أحد ، كيف يقول لك : اعبدني ؟ وأمْرُنا بيد آخر ؟ هذا مستحيل !.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية : 123)

أنا متحرق على شاب مؤمن بالله ، علاقته مع الله طيبة ، يتقي الله ، يضبط جوارحه يضبط يده ، يضبط حركته ، يضبط دخله ، يسعى لمرضاة الله ، له جامع يؤويه ، له مرجع ديني يستشيره ، يحب أن يخدم أمته ، هذا الشاب والله لزوال الكون أهون على الله مِن ألاّ يرى نتيجة عمله توفيقًا في الدنيا .

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ)

(سورة هود الآية : 88)

هذه آية وحيدة بالقرآن ، لا ينجح شيء في الأرض إلا بتوفيق الله :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

كما قدمت قبل قليل : لو أن شاباً واحداً آمن واتقى لفتح الله عليه خير الدنيا والآخرة ، لأنه لا إله إلا الله، لا رافع ، ولا خافض ، ولا معز ، ولا مذل ، ولا معطي ، ولا مانع إلا الله .

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

2 – وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

سألوا مرة تيمور لنك ، طاغية كبير ، أجاب إجابة توحيدية ، قال : أنا غضب الرب ، إنسان يغضب فيرفع صوته ، يدفع الباب بعنف ، إذا غضب رب الأرباب يبعث تيمور لنك ، هذا غضب الرب .

لذلك ورد في الآثار القدسية :

((أنا مالك الملوك وملك الملوك قلوب الملوك بيدي ، وإن العباد إذا أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة ، وإن العباد إذا عصوني حولتها عليهم بالسخط والنقمة فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك ، وادعوا لهم بالصلاح ، فإن صلاحهم بصلاحكم))

[أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء]

مرة الحجاج كما يروى سأل إنسانا ليحرجه ، قال له : بِمَ تقيم الحجاج ؟ إذا قال له : مؤمن كبير ، يقول له : أنت أكبر منافق ، إذا قال له : أنت مجرم يقتله ، ماذا يقول له ؟ قال له : ذنوبنا تجسدت بالحجاج ، أنت ذنوبنا .

يروى أن بالجزائر فيما أذكر بعدما احتلت ، وقف قائد كبير فرنسي جاء بعالم مشهور له بالصلاح ، قال له في قرآنكم :

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

(سورة النساء)

قال له : ها نحن لنا عليكم ألف سبيل وسبيل ، أين الآية ؟ قال له : صدق الله العظيم ، نحن قصرنا مع ربنا ، فكنت أنت العلاج ، هذا الواقع .

أيها الإخوة ، أرجو الله سبحانه وتعالى في درس قادم أن نتابع هذه الآيات .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(32-60): تفسيرالآيات 96- 100، المؤمن يفقه حكمة المصيبة كي يرجع إلى الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-02-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثاني والثلاثين من سورة الأعراف ، ومع الآية السادسة والتسعين ، وهي قوله تعالى :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

1 – كلُّ مصيبةٍ بكسبِ الإنسان :

أيها الإخوة ، يتضح من خلال هذه الآية أن ما أصاب الناس من مصيبة :

(فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

(سورة الشورى)

ولا بد من مؤمن من أن يفقه حكمة المصيبة ، الله سبحانه وتعالى يقول :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

(سورة النساء الآية : 147)

مستحيل وألف ألف مستحيل أن تأتي مصيبة بلا سبب ، وبلا حكمة ، وبلا مبرر ، وبلا خطأ مِن الذي أصابته ، لأن الله عز وجل في آية واضحة قطعية الدلالة يقول :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

فليس صعباً أن تتهم نفسك ، وأن تصدق ربك . لذلك :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

أما حينما تأتي الضائقة ، يأتي الجفاف ، تأتي المصائب ، تأتي الزلازل ، وإن كان لهذه الظواهر أسباب علمية ، فهذا لا يمنع أن يكون الله عز وجل مسبِّبَ الأسباب .

إنّ العوارض التي تطرأ على أهل الأرض لحكمة بالغةٍ بالغة ، والدليل هذه الآية :

2 – لابد من الإيمان والتقوى والعمل الصالح :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا)

لا يكفي أن تؤمن ، لا بد من أن تتقي .

(الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة محمد الآية : 12)

الإيمان وحده من دون عمل لا قيمة له إطلاقاً :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

3 – تقتير الله لحكمةٍ لا لعجزٍ منه :

أحياناً في بلدة يهطل فيها من المطر في الليلة الواحدة ما يهطل في الشام في سنتين ، فالله إذا أعطى أدهش .

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

(سورة الحجر)

فإذا قنّن الله عز وجل فتقنينه تقنين تأديب لا تقنين عجز :

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

اكتشف في الفضاء الخارجي سحابة يمكن أن تملأ محيطات الأرض ستين مرة في اليوم والليلة بالمياه العذبة .

إن الله عز وجل ثبت ملايين القوانين ، وحرّك قانون الرزق والصحة ، فالصحة متبدلة ، فهناك أمراض ، كذلك الرزق متبدل ، في سنوات مطيرة ، وفي سنوات جدباء .

فالله عز وجل يبين أن نربط بينما نعانيه من ضائقة ، وبين استقامتنا وتقوانا وصلاحنا ، وطاعتنا لله عز وجل .

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

1 – البركة مفهوم إسلامي :

أما البركات فهو موضوع يذكرنا بهذه الآية ، البركة ، البركة مفهوم إسلامي واضح جداً ، لكن في

عصر المادة ، وعصر البُعد عن الله يضعف هذا المفهوم .

2 – الرزق السلبي بركة من الله :

الإنسان عنده رزق إيجابي ، وعنده رزق سلبي ، فإذا منّ الله على عبده بالعافية التامة ، عاش عمراً مديداً بلا أمراض وبيلة ، بلا أمراض عضالة ، بلا أمراض تجعل حياة الإنسان جحيماً ، بلا أمراض تكلف مئات الألوف بل بعض الملايين من المال ، كفشل كلوي ، وخثره بالدماغ ، وشلل ، وتشمع كبد ، أمراض لا تعد ولا تحصى ، وأيّ مرضٍ من هذه الأمراض يجعل حياة الإنسان جحيماً لا يطاق . حينما تؤمن وتستقيم يعافي الله بدنك ، وتكون قد وفَّرت مبالغ طائلة ينبغي أن تدفعها شئت أم أبيت ، قضايا الطب ، والعمليات الجراحية ، والتصوير ، والمرنان ، لا اختيار لك فيها ، يقول لك : تحتاج قسطرة ، تكلفتها أربعون ألفَ ليرة ، مع استند 125 ، ثلاثة أوعية مغلقة ، تحتاج حوالي 400 ألف ليرة ، لا خيار لك .

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا)

هناك رزق سلبي ؛ أن يعافيك الله ، أن يعافيك ، ويعافي أهلك معك ، وأولادك ، فقد تجد أسرة تنعم بالصحة التامة ، في بيت متواضع ، لكن فيه طمأنينة ، فيه حب ، فيه ود ، الأكل متواضع ، لكن فيه محبة ، فانتبه للرزق السلبي .

3 – راحةُ البالِ بركة من الله :

وإذا أنعم الله عليك براحة البال فهذا لا يقدّر بثمن الله قال :

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ)

(سورة محمد)

صلاح البال ، تنام قرير العين ، تنام ملء جفونك ، لأنك وأنت نائم لم يتعلق عليك حق ، فما أكلت حقاً، ما آذيت إنساناً ، ما أضللت مخلوقاً ، ما كنت سبب شقاء أسرة ، ما بنيت مجدك على أنقاض الناس ، ما بنيت غناك على إفقارهم ، ما بنيت عزك على إذلالهم ، ما بنيت أمنك على إخافتهم ، ما بثثت الرعب في قلوب الناس ، ولا ابتززت أموالهم ، ولا انتهكت أعراضهم ، ولا فرّقت بينهم ، ولا أورثت بينهم العداوة والبغضاء ، وكنت إنسانا معطاء ، إنسانا مصدر أمن للناس ، مصدر سلام .

4 – محبة الناس لك بركة من الله :

إذا كان اسمك عطرًا ، يملأ القلوب محبة الناس ، فهذه نعمة كبيرة جداً ، نعمة أن الناس يحبونك ، قال تعالى :

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

(سورة طه الآية : 39)

إذا الله أحب عبداً ألقى محبته في قلوب الخلق ، فمحبة الناس ، وثقة الناس ، وراحة البال ، والشعور بالأمن ، والشعور بالطمأنينة بركة من الله ، فإذا كان البيت متماسكا ، فيه حب ، الزوجة صالحة ، ودودة ، الأولاد أبرار ، هذه الأرزاق تقدر بالمليارات ، أن تجلس في بيتك في راحة .

5 – الرفق في المعيشة بركة من الله :

قد يُمنع المريض من تناول الطعام ، فيعطى (السيروم)، بعد شهر يرى أنه إذا أكل الطعام مباشرة كأنه في الجنة ، أن تأكل ما تشتهي ، أن تشرب ما تشتهي ، أن تنام قرير العين ، آمنا في سربك ، معافىً في جسمك ، هذه كلها أرزاق سلبية ، وهي مهمة جداً ، لذلك :

((الرفق في المعيشة خير من بعض التجارة))

[رواه الطبراني عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه]

إن تجارة فيها مغامرة ، فيها مصادرة ، فيها تهريب مادة محرمة ، أو الوثيقة مزورة ، تدخل تحت طائلة القوانين والمساءلة ، والقلق ، والخوف ، والرشوة .

((الرفق في المعيشة خير من بعض التجارة))

الله عز وجل يبارك لك في مالك ، وأنا لا أبالغ والله ، هناك أشخاص كثيرون دخْلهم محدود ، لكن ما عندهم مشكلة ، يأكلون ، ويشربون ، ويتمتعون ، لكن من غير بذخ ، ولا إتلاف للمال ، ولا هدر ، ولا استعلاء على الناس ، بل فيهم تواضع .

6 – الحياة الطيبة السعيدة بركة من الله :

اطلب الحياة الطيبة ، قال تعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل الآية : 97)

المؤمن في رعاية الله ، في حفظ الله ، في توفيق الله ، في تجليات الله ، في سكينة الله ، المؤمن يتلقى من الله أرزاقا لا تعد ولا تحصى ، الرضا رزق ؛ أن ترضى عن الله ، يا رب لك الحمد ، من أعماقك ، الصبر رزق ، الحكمة رزق ، الطمأنينة رزق ، الإحساس بالأمن رزق ، فحينما تكون مع الله فأمامك أرزاق لا تعد ولا تحصى ، والفهمُ لكتاب الله ، ومعرفة ما سيكون الإنسان عليه بعد الموت ، يعدّ العدة لنزول القبر ، تعلم هاتين الكلمين ، هناك رزق إيجاب ، الدخل الشهري ، ورزق السلب ، إذا الله عافاك، هيأ لك زوجة صالحة ، ليست مشاكسة ، هيأ لك أولادا أبرارا ، صحتهم جيدة ، سمعتهم طيبة ، هيأ لك ودًّا ، النبي الكريم يقول :

((الحمد الذي رزقني حب عائشة))

[ورد في الأثر]

هناك ود ، وأولاد أبرار ، وحولك أقارب محبّون ، لك سمعة طيبة ، تنام مطمئنا قرير العين ، هذه كلها أرزاق :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

أمطار غزيرة ، خيرات وفيرة ، أسعار متدنية ، سخاء ، سرور ، الله عز وجل ما خلقنا ليعذبنا .

إذا أنشأنا ثانوية من أجل أن نعلّم الطلاب ، أن نربيهم ، أن نعلمهم الحكمة والعلم ، والفهم ، والدين ، فإذا أساء طالب إساءة بالغة وعاقبناه ، إذا قال طالب : إنما أنشأت هذه المدرسة كي تعذبنا ، هذا كلام مضحك هذا ، هذه حالة طارئة ، الله عز وجل قال :

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود الآية : 119)

خلقنا ليسعدنا لا ليعذبنا ، خلقنا ليرحمنا لا ليقسوا علينا ، خلقنا ليحب بعضنا بعضاً جعلنا شعوباً وقبائل، لا لنتقاتل .

(لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات الآية : 13)

هذا أصل الخلق ، أما الناس لبُعدهم عن الله انحرفوا ، إذاً :

(لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

7 – البلدة الطيبة وطيبةُ أهلِها بركةٌ من الله :

تأتينا خيرات السماء ، والأرض تنبت النبات الطيب ، ومع النبات الطيب .

(بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ)

(سورة سبأ)

مع النبات الطيب راحة نفسية ، مع النبات الطيب ثقة بالله ، مع النبات الطيب رضا عن الله ، مع النبات الطيب ود بين الناس .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

(سورة مريم)

وداً بينهم وبينه ، وودا فيما بينهم .

والله أيها الإخوة ، أنا أرى من علامات الإيمان أن يكون الود بين المؤمنين ، وكلما رأيتُ وداً بين المؤمنين أزداد ثقة بإخواني ، ولا سمح الله ولا قدر لو رأيتهم متشاكسين متحاسدين ، والله أتألم ألماً لا حدود له ، معنى ذلك هناك ضعف في الإيمان كبير جداً .

أيها الإخوة ، إذاً : يجب أن تنتبه إلى الرزق السلبي ، معك مأوى ، مثلاً إنسان له زوجة صالحة فهي نعمة لا ينتبه لها ، لأنه يغيب شهرا عن البيت وهو يعلم علم اليقين أن له زوجة عفيفة أطهر من ماء السماء ، هذه نعمة لا تقدر بثمن ، وربما يكتشف أن لها اتصالات ، وعلاقات مشبوهة ، إنسان دخل بيته في غيابه ، يصبح كالمرجل ، هناك مليون نعمة ينعم بها المؤمنون ، وقد لا ينتبهون إليها ، الذي عنده زوجة صالحة ، الذي عنده أولاد أبرار ، محترم ، يخجلون منه ، يخدموه ، الذي عنده أصهار طيبون ، كل هذه نعم لا تقدَّر بثمن ، فحينما تصطلح مع الله يتولاك ، ويختار لك أفضل شيء ، أفضل زواج ، أفضل أولاد ، أفضل عمل ، عملا مريحا ، دخلا معقولا بوقت معقول ، وسمعة طيبة .

هذه البركة ، لكن بكل الآلات الحاسبة ، حينما أشتري آلة حاسبة هل أبحث عن زر للبركة ؟ هناك جمع ، وضرب ، وطرح ، وتقسيم ، ونسبة مئوية ، وذاكرة ... لكن ليس فيها زر للبركة ، وإذا بارك الله لك بوقتك تفعل في هذا الوقت المحدودِ المستحيلَ ، إذا بارك الله لك بمالك ، والله تفعل في هذا المال الشيءَ المدهشَ ، إذا بارك الله بصحتك تعيش حياة مديدة ، وأنت معافىً في جسمك ، لا تشكو شيئاً ، الله عنده عطاء كبير ، إذا رحِمك رفعك .

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

إذا رحمك طمأنك ، إذا رحمك منحك نعمة الأمن ، إذا رحمك منحك الكفاية ، فخذ من الدنيا ما شئت ، وخذ بقدرها هما ، ومن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر .

8 – البركة في الوقت القليل :

إذاً : البركة تعني أن يبارك الله لك : بوقتك ، تجد علماء كبارا تركوا مؤلفات يكاد العقل لا يصدقها ، 380 مؤلفا ، متى كتبها ؟ متى قرأ ؟ متى تعلم ؟ متى ألّف ؟ متى نقح ؟ متى درس ؟

ثمَّة عالم في الجزائر عاش أقلَّ من خمسين سنة ، وزنه أقلّ من خمسين كيلوًا ، ينام أقلَّ من ساعتين ، استطاع أن يبثَّ روح المقاومة في الشعب الجزائري ، وأن يواجه فرنسا بأكملها ، الآن لو ذهبت إلى الجزائر لم تجد كلمة تعلو على كلمة هذا العالم العامل ، المجاهد ، الواعي ، الوسطي ، الذي جمع وما فرقّ ، قال : مَن قبل ما عندنا فهو أخونا ، ومن لم يقبل فهو أخونا ، وما كفّر أحدًا .

الإسلام الآن يحتاج إلى وسطية ، يحتاج إلى إسلام كما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام .

8 – بركة الزكاة ولو نقصَ المال في الظاهر :

أيها الإخوة ، الآن لاحظ المفارقة ، معك ألف ليرة ، زكاة هذا الألف 25 ليرة ، نقص من ألف ليرة 25 ، ماذا يسمى هذا العمل ؟ زكاة ، الزكاة النمو ، يا أخي المبلغ نقص ، كيف نما ؟ بقدرة قادر .

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ)

(سورة التوبة الآية : 103)

ينمو المال ، وقد نقص ! يبارك الله فيه .

((ما نَقصَ مال من صدقة))

[أخرجه مسلم والترمذي ومالك في الموطأ عن أبي هريرة]

((أنفق بلالُ ، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً))

[أخرجه الطبراني عن بلال رضي الله عنه]

عبدي أنفق أنفق عليك ، المال لما ينقص يسمى المال الناقص زكاة ، أديت زكاته فنما .

9 – مالُ الربا ممحوق البركة ولو زاد في الظاهر :

أقرض قرضاً ربوياً ، أقرضت ألفا فرجعت 1050 ، قال تعالى :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة الآية : 286)

الزيادة بخلاف منهج الله تمحق ، والنقص وفق منهج الله زيادة ، والزيادة بمعصية الله تعني المحق ، والنقص بطاعة الله تعني الزيادة .

10 – الزوجة الصالحة بركة :

أنا أركز على كلمة بركة ، أحيانا يبارك لك بزوجتك . والله لا أنسى مرة عزّيت صديقاً لي بوفاة والدته، كان عمرها ثمانين عامًا ، والده في سن التسعين ، بكي الزوج بكاء غير معقول ، أردت أن

أسليه قليلاً ، أن أخفف عنه ، قال لي : والله منذ 55 سنة ما نمت يومًا غضبان عليها . التقيت بعالم قرآن كريم عالم جليل ، قال لي : أنا عندي 38 حفيدا ، 13 طبيبا ، ما شاء الله ! أساسه زواج ، زوجة مباركة ، أنجبت أولادا أبرارا ، وبنات طائعات وأصهارا مؤمنين .

الدين جميل ، والحياة جميلة بالدين ، حياة فيها بركة ، فيها محبة ، فيها موآثرة ، فيها ود .

11 – الجار الصالح بركة :

الأمير عبد القادر الجزائري كان ساكنا بالشام ، وله جار افتقر ، فاضطر أن يبيع بيته ، عرض البيت للبيع ، دفع له أحدهم 300 ليرة ذهبية ليشتريه ، فغضب ، قال : والله لا أبيع جيرة الأمير بهذا المبلغ ، خناك إنسان ابن حلال بلّغ هذا الأمير الخبرَ ، فاستدعاه ، قال له : هذه 300 ليرة ذهبية ، وأنت جارنا ، لا تبع بيتك ، هكذا كان الناس .

الآن من أين ينزعج الجار ؟ والعياذ بالله حياة شقاء ، الإنسان متحفز دائماً ، في كل لحظة قنص ، وغدر ، وشيء مريب ، أعصابنا كلها متوترة ، مِن بُعدنا عن الله عز وجل ، فلا راحة نفسية ، الشراء معركة ، البيع معركة ، المبيع مزوَّر ، أو أنّ مفعول المادة منتهٍ ، لكن مع المودة والحب تنحل كل المشكلات .

قال تعالى :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

الله له منهج تطبقه ، أنت آلة معقدة جداً تعقيد إعجاز ، ولهذه الآلة صانع حكيم ، ولهذا الصانع الحكيم تعليمات التشغيل والصيانة ، إن أخذت منهج الله بارك الله لك في حياتك ، وإن لم تأخذ منهج الله رفضته، وأخذت منهج الشيطان دمرك الله .

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب الآية : 71)

أنا أحياناً أحب أن أستفز بعض الناس ، أقول لأحدهم : لا تحب أحدًا أحبب نفسك ، وأطع الله ، لا تحب أحدا ، لو أنك انطلقت من حب ذاتك ، من أنانية مفرطة فعليك بطاعة الله ، أنت آلة معقدة ، أوامر الله عز وجل ليست حداً لحريتك ، لكنها ضمان لسلامتك .

أنا أقول لك كلمة : لا مصيبة على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة إلا بسبب خروج عن منهج الله، وما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل ، والجهل أعدى أعداء الإنسان ، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به .

والآن هناك أعداء تقليديون ، يقول لك : الاستعمار ، الكيان الصهيوني ، هؤلاء أعداء تقليديون ، لكن عندنا أعداء أخطر منهم ، جهلنا ، تخاذلنا ، نزاعاتنا الداخلية ، هؤلاء أعداء أشد ضرراً من أعدائنا التقليدين . لذلك الجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به .

منهج الله ضمان للسلامة وليس تقييدا للحريات :

قضية منهج الله ليس الموضوع موضوع جبروت ، يجب أن تطيعيني يا عبدي وإلا سأسحقك ، ليس هذا المعنى إطلاقاً ، الله عز وجل رحمن رحيم ، رب كريم ، أعطاك تعليمات لسلامتك .

قد تجد خط توتر عالٍ ، ممنوع الاقتراب ، خطر الموت ، يا ترى مَن وضع هذه اللوحة وضعها ليتسلط عليك ؟ ليقيد حريتك ؟ ليقهرك ؟ لا والله ، وضعها من أجلك ، سلامة لك ، فحينما تفهم أن هذه الأوامر والنواهي إنما وضعت من أجل سلامتك تكون فقيها ، ليس من أجل تقييد حريتك ، لكنها ضمان لسلامتك .

لا يستوي الصالح والطالح :

شيء آخر ، أنت كمعلم ، أعطيت وظيفة متعِبة للطلاب ، في اليوم التالي جاء الطلاب المجتهدون ، وقد كتبوها في أربع ساعات ، وطلاب ما كتبوا ، فإن لم تعاقب الذي لم يكتب فلا أحد يكتب في اليوم التالي ، هل هذا الكلام صحيح ؟ وحينما تسوي بين الفاسد والصالح ، والمجتهد والكسول ألغيتَ الاجتهاد ، ويتوهم المجتهد أنه أحمق ، تعب ، واستوى مع من لم يتعب .

فالله عز وجل من لوازم تربيته ، من لوازم حكمته ، أن يعامل كل مخلوق بحسب عمله إنْ تستقيم تسلم، إنْ تبذل من وقتك ، من مالك ، من علمك تسعد ، إنْ تنضبط تكن في بحبوحة ، إنْ تتفلت تكن في ضياع .

(أولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة الآية : 5)

الهدى رفعهم .

(أولَئِكَ فِي)

كآبة أو سجن :

(ضَلَالٍ بَعِيدٍ)

(سورة إبراهيم)

لا بد من أن يعاقب الفاسد ، وإلا لا أحد يستقيم ، أنت حينما تستقيم ، وتلمس لمس اليد نتائج استقامتك تزداد ثقتك بنفسك ، الحمد لله يا رب أن ناديتني إليك ، الحمد لله أن أعتني على طاعتك ، الحمد لله إذا وفقتني إلى لخضوع إلى أمرك ، أما لو فسد إنسان ، وانحرف ، وبغى وطغى ، ولم يصبه شيء ، يزهد الناس في طاعة الله ، الله عز وجل كبير ، الله عز وجل خلقنا ليرحمنا ، لذلك ابحث عن رحمته ، ابحث عن منهجه .

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ

الآن :

(أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ)

(سورة الأعراف)

نخبة أغنياء العالم يقضون عيد الميلاد في جنوب شرق آسيا ، بلاد جميلة ، شواطئ دافئة ، نباتات عملاقة ، جو جنوب الأرض في الشتاء رائع جداً ، بلاد دافئة ، مياه البحر دافئة ، أشجار باسطة أوراقها ، منتجعات بعشر نجوم ، جاءهم زلزال تسونامي فأراهم النجوم ظهراً ، قوته مليون قنبلة ذرية:

(أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ)

نحن تحت رحمة الله عز وجل ، ما مِن شيء ثابت ، الثابت طاعة الله عز وجل ، والثابت حفظ الله :

(أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ)

أحيانا الزلزال ليلاً .

(أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ)

(سورة الأعراف)

أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ

بالمناسبة في أي لحظة الشمس تشرق وتغرب ، في أي لحظة ليل و نهار ، الأرض نصفها ليل ونصفها نهار ، لذلك قد يأتي البلاء ليلاً ، وقد يأتي نهاراً ، والآية الكريمة :

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

(سورة يونس الآية : 24)

والله الآن هناك مدن جميلة ، فيها تزيينات ، فيها بذخ ، فيها لوحات جمالية .

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً)

(سورة يونس الآية : 24)

يعني أتاها ليلاً على قوم ، ونهاراً على قوم .

(فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

(سورة يونس الآية : 24)

نحن الآن نرى رأي العين إعصارا جعل بلدة بأكملها أنقاضاً ، في تركيا زلزال الصورة الحقيقية موعظة كبيرة جداً ، مركز الزلزال بإزميت ، بالتاء ـ غير إزمير ، اللسان الطويل ـ هنا المركز ، الصورة نشرتها إذاعة بريطانية ، كل الأبنية أنقاض على الأرض ، الأبنية تفتت تفتُّتا عجيبًا ، أعلى ارتفاع خمسون سنتيمترا ، المدينة كلها ركام ، ومسجد ومعهد شرعي لم يمس بأذى في وسط الأنقاض، هذه الصورة عرضتها الإذاعة البريطانية ، والمصورة أيضاً صورتها ، وأنا عرضتها في الجامع مرة.

الله عز وجل له آيات :

(أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ)

(أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ)

(سورة الأعراف)

فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ

الله عز وجل لا يمكر ، لكن مكره لصالح عباده .

(وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

(سورة آل عمران)

يمكر بنا كي يعيدنا إليه ، يمكر بنا كي نقبل عليه ، يمكر بنا كي نلجأ إليه ، يمكر بنا كي نصطلح معه ، يمكر بنا كي ندخل الجنة ، لذلك المؤمنون يوم القيامة لهم كلمة واحدة :

(وَآَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة يونس)

والله في هذه المنطقة المباركة الله ، قال مباركة ، الدليل :

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ)

(سورة الإسراء الآية : 1)

الأقصى وبلاد الشام بقعة مباركة :

نحن حول الأقصى ، بنص الآية بلاد مباركة ، فيها شدة ، فيها ضغوط ، فيها عدوان خارجي ، فيها ضغوط خارجية ، فيها حصار أحياناً ، أليس كذلك ؟ والله الذي لا إله إلا هو لو كشف الغطاء لوجدتم أن

إقبال الناس على الدين ، واصطلاحهم مع الله رب العالمين بسبب هذه الضغوط ، ولو ذهبت إلى بلاد فيها الرخاء ، فيها الأمن ، ما عندها مشكلة ، تجد الجفاف الروحي ، التصحر الروحي ، البعد عن الله ، ما أحد يقبل على المساجد ، ربما أعطاك فمنعك ، وربما منعك فأعطاك ، وإذا كشف لك الحكمة في المنع عاد المنع عين العطاء ، بلدة مباركة ، نحن في رعاية الله إن شاء الله .

عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((بَيْنَا أَنَا فِي مَنَامِي أَتَتْنِي الْمَلَائِكَةُ ، فَحَمَلَتْ عَمُودَ الْكِتَابِ مِنْ تَحْتِ وِسَادَتِي ، فَعَمَدَتْ بِهِ إِلَى الشَّامِ ، أَلَا فَالْإِيمَانُ حَيْثُ تَقَعُ الْفِتَنُ بِالشَّامِ))

[أخرجه أحمد]

عليكم بالشام في آخر الزمان ، بلدة مباركة ، المساجد مليئة ، هذه ظاهرة طيبة جداً ، الدعاة كثر ، توجيه سليم إن شاء الله ، إيمان بالله .

ألقيت البارحة محاضرة في الجامعة ، المدرج كله محجبات ، والله شيء لا يصدق ، الله عز وجل أراد بنا خيرًا .

(أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ)

الله يرخي الحبل ، لكنك في قبضته بلحظة واحدة ، فجأة سكتة دماغية .

اللهم إنا نعوذ بك من فجأة نقمة ، وتحول عافيتك ، وجميع سخطك ، أما المؤمن :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ)

(سورة فصلت)

مَن كان مع الله كان اللهُ معه :

أيها الإخوة الكرام ، نحن بحاجة إلى قرب من الله ، إلى صلح مع الله ، إلى مناجاة لله ، إلى إقبال على الله ، إلى توبة نصوح ، إلى عمل صالح ، إلى حضور مجالس علم ، إلى خدمة المؤمنين ، هذه كلها أعمال يتألق بها المؤمن .

والله الذي لا إله إلا هو أقول : أيها المؤمن ، إن لم تقل أنا أسعد الناس إلا أن يكون أحد أتقى مني فهو أسعد مخلوق ، معنى ذلك في الإيمان خلل ، أنت مع الله ، مع القوي ، مع الغني ، مع الرحيم ، مع من بيده كل شيء ، إلهي أنت مقصودي ، ورضاك مطلوبي ، مع الله ما لا حزن ، ولا يأس ، ولا إحباط ، ولا خنوع ، ولا نفاق ، ولا ذل ، ولا تشاؤم ، ولا سوداوية ، أنت مؤمن .

أنا والله لا أصدق مؤمنًا بمرض نفسي ، المرض النفسي يتناقض مع الإيمان ، الله معك ، ادعُه :

((يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدنيا ، حين يبقى ثُلثُ الليلِ الآخِرُ ، فيقول : من يَدعُوني فأستجيبَ له ؟ مَن يَسألُني فأُعطِيَهُ ؟ مَن يَستَغْفِرُني فأغْفِرَ لَهُ ، حتى يَنْفَجِرَ الفَجْرُ))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي ومالك عن أبي هريرة]

((ولو يعلمون ما في العَتَمة والصبح لأتوهما ولو حَبْوا))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي ومالك عن أبي هريرة]

أيها الإخوة ،

(أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِم

البشر يخلف بعضهم بعضا :

ثمة إنسان يعمل بمنصب ، بعد إنسان كان في هذا المنصب ، إنسان يسكن بيتًا بعد إنسان كان في هذا البيت ، إنسان يكون أميرًا بعد إنسان كان أميرًا ، لو أنها استمرت له ما وصلت إليك ، الله جعل البشر خلائف .

سوق الحميدية مثلاً ، كل خمسين سنة أصحاب للمحلات جدد ، يكبر صاحب المحل ، أولاده يحلون محله ، يختلفون فيبيعون المحل ، يأتي شخص جديد ، والبيوت هكذا ، كل خمسين سنة تقريباً أصحاب بيوت جدد ، أصحاب محلات جدد ، انظر إلى الآية ما أدقها

(أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ)

لا تفرح بالدنيا ، افرح برضوان الله عليك .

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ)

(سورة القصص الآية : 79)

قيل له :

(لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ)

(سورة القصص)

أيها الإخوة ، الإنسان قد يصل للقمة ، طريق صعب ، طويل ، وعر ، فيه أكمات ، وحفر ، وغبار ، وحر ، إلى أن وصل إلى القمة ، السقوط طريقه مبلط مع الصابون ، بدقيقة تصبح تحت ، البطولة أن تبقى في القمة ، لا أن تسقط .

قد يرث الإنسان الأرض مِن بعد مَن تركها له ، بطولتك أن تتقي الله ، بطولتك أن تخشى الله ، بطولتك أن تعدل ، لذلك :

(أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

أيها الإخوة الكرام :

(فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ)

أنت في قبضة الله ، وتحت رحمته ، وأمره نافذ فيك ، والدعاء :

اللهم إني عبدك ، ابن عبدك ، ابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، عدلٌ فيّ قضاؤك ، ماض فيّ حكمك .

هذا هو التوجه إلى الله ، وهذه الطاعة لله ، تعطيك طمأنينة ، وأمناً ، وسعادة ، وراحة ورضىً يفتقده معظم الناس ، وإن لم يكن هناك ظرف كبير بين أهل الإيمان ، وأهل الكفران ففي الإيمان خلل .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(33-60): تفسير الآيتان 101 - 102، كيف يكون المؤمن ؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-03-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الثالث والثلاثين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الواحدة بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ)

1 – الأصل في الأمر القرآني الوجوبُ ، والأصل في النهي التحريمُ :

أيها الإخوة ، كلكم يعلم أن هذا القرآن كلام الله ، فيه أوامر ، وكل أمر يقتضي الوجوب ، افعل ، وفيه نواهٍ ، وكل نهي يقتضي الترك ، يجب أن تأتمر بما أمر الله ، وتنتهي عما عنه نهى الله ، فكر دائماً أن كل آية تقرأها لا بد من أن يكون لك منها موقف ، لأن هذا الكلام كلام الله ، كلام الخبير ، كلام الخالق، كلام رب العالمين ، ولا يمكن أن يقول الله كلاماً ليس لك منه موقف .

النقطة الدقيقة : أيّ آية تقرأها فلا بد من أن يكون لك منها موقف .

2 – الأمر القرآني بالتفكّر في الكون :

الآن نستعرض آيات الأمر التي تقتضي أن تأتمر ، وآيات النهي التي تقتضي أن تنتهي ، وآيات تصف الجنة ، وما فيها من نعيم مقيم ، موقفك منها أن تسعى إلى دخول الجنة ، أن تحفزك هذه المشاهد على أن تستقيم على أمر الله ، وأن تعمل عملاً يؤهلك إلى دخول الجنة ، والمشاهد التي تصف أهل النار وأحوالهم موقفك من هذه الآيات أن ترتدع عن أن تعمل عملاً لا يقربك من الله ، والآيات المتعلقة بالكون :

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)

(سورة الطارق)

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

(سورة الشمس)

(وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ)

(سورة الفجر)

3 – التفكر في مصير الأقوام الماضية :

آيات الكون تقتضي أن تتفكر فيها ، والآيات المتعلقة بالأمم السابقة ، عاد ، وثمود وقوم لوط ، وقوم سيدنا موسى ، وقوم سيدنا إبراهيم ، آيات تتحدث عن الأقوام السابقة ، وكيف كذبت أنبياءها ، ورسولها فاستحقت الهلاك من الله عز وجل ، هذه الآيات تقتضي منا أن نتعظ ، والسعيد دائماً يتعظ بغيره ، والشقي يتعظ بنفسه .

4 – لابد للمستقيم من الابتلاء :

أحياناً يعاني الإنسان ما يعاني حينما يصطلح مع الله ، يعاني مَن معارضة مِن قِبل أقرب الناس إليه ، يعاني من استنكار بعض الناس لاتجاهه ، لأن الناس ألِفوا التفلت ، ألِفوا أن يأكلوا المال الحرام ، ألِفوا الاختلاط الآثم ، ألِفوا النفاق والدجل ، فحينما يأتي الإنسان ، ويستقيم على أمر الله ، ويتماسك ، وينضبط ، ويكون عفيفًا أمينًا صادقًا ، هذا الإنسان خطرٌ على مَن حوله ، مِن أين جاء الخطر ؟ أنه يكشفه ، المستقيم يكشف المنحرف ، والورع يكشف المتفلت ، والأمين يكشف الخائن ، والصادق يكشف الكاذب .

5 – خمسة أعداء يقفون في طريق المؤمن :

حينما يسلك الإنسان طريق الإيمان يرى الصعوبات ، بل إن لكل إنسان أعداء كثيرين ، يمكن أن نصنفهم في خمس جمل ، لا بد للمؤمن ـ لا سمح الله ولا قدر ـ مِن مؤمن يحسده ، لأن هناك مؤمنا مقصرا ، ومؤمنا مجتهدا ، المجتهد تألق ، لما تألق أصابه من الغيرة ما أصابه ، بدأ يتكلم كلاما لا يليق بأخيه ، فلابد من مؤمن يحسده ، ومن منافق يبغضه ، ومن كافر يقاتله ، ومن نفس ترديه ، ومن شيطان يغويه ، فهذه خمسة أطراف يمكن أن تسبب لك بعض المتاعب ، مؤمن ، منافق ، كافر ، نفس أمارة بالسوء ، شيطان ينتظر هذا الإنسان .

6 – الشيطان لا يترك باب الإضلال إلا سلكه :

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

(سورة الأعراف)

لمجرد أن يصطلحوا معك ، وأن يسلكوا طريق الإيمان ، أنا سوف أزعجهم :

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

من المفارقات التي تلفت النظر أن الإنسان يكون متفلتا غارقا في المعاصي والآثام ، يأتي إلى البيت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، لا يصلي ، يأكل المال الحرام ، لا أحد يتكلم ، فإذا اصطلح مع الله ، وغض بصره ، وضبط لسانه ، وصلى الصلوات الخمس ، وانضم إلى جامع ، أقرب الناس إليه يقيمون عليه النكير ، لما كان منحرفاً ، لما كان ضالاً مضلاً ، لما كان له صويحبات كان الأب ساكتا ، وكذا الإخوة ساكتون !

النقطة الدقيقة أن الذي يعاني ما يعاني حينما سلك طريق الإيمان ، بل يعاني من هذه الآية بالذات :

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الأعراف الآية : 17)

المستقبل ، والحداثة ، والكمبيوتر ، والإنترنيت ، والفضائيات ، عصر علم ، عصر تألق ، المرأة نصف المجتمع ، عصر الاختلاط ، من حق المرأة أن تعرض كل مفاتنها ، هذا حقها ، ينبغي أن تعيش وقتها ، أفكار تشجع على المعاصي والآثام ، هذه :

(مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

(وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

(سورة الأعراف الآية : 17)

إذا كان تاريخ لأمة قبل الإسلام فإننا نشيد بهذا التاريخ ، نشيد بالفرعونية ، نعتم على الإسلام ، هذا من فعل الشيطان أيضاً :

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

(سورة الأعراف الآية : 17)

دائماً المؤمن يتعرض لوسوسة الشيطان ، يوسوس له بالكفر ، إن رآه على إيمان يوسوس له بالشرك ، إن رآه على توحيد يوسوس له بارتكاب الكبائر ، إن رآه على طاعة يوسوس له بارتكاب الصغائر ، إذا وجدع قمة في الورع بقي مع الشيطان ورقتان رابحتان ، التحريش بين المؤمنين ، المؤمنون أطياف

الآن ، هذا الطيف يتهم هذا الطيف ، وهذا الطيف يكفِّر هذا الطيف ، وهذا الطيف يبدّع هذا الطيف ، وهذا الطيف يحتقر هذا الطيف ، هذه الخصومات بين المؤمنين ، وتراشق التهم من فعلِ الشيطان ، أما آخر ورقة فيغريه بالمباحات ، يضيع وقته كله بتحسين حياته ، وبيته ، ومركبته ، ودخله ، وتجارته ، ويفوته خير كثير من الأعمال الصالحة .

مثلاً : مَن منا يصدق أنه رقم لمركبة ، لأنه رقم واحد ثمنه 56 مليونًا ضرب 13 ، مقابل أن رقم مركبتك واحد ، ما هذا المكسب العظيم ؟! أنت ماذا قدمت للأمة ؟ ماذا يعني الواحد أو الألف أو مئة ألف ؟ قيم فارغة ما لها معنى إطلاقاً .

إن آخر ورقة رابحة بيد الشيطان يغري بها الناس أن يقول لك : منظر طبيعي ، تجريدي ، ثمن اللوحة 30 مليونا ، والناس يموتون من الجوع ، هو يقتني لوحات فنية ، ويعتني بهذه اللوحات ، وكأنها دين جديد له ، هذا مِن فعل الشيطان .

في بعض البلاد تم إعدام عشرين مليون رأس غنم ، ودفنت تحت الأرض حفاظاً على أسعار اللحم المرتفعة ، وشعوب تموت من الجوع ، وتم إتلاف محاصيل تكفي لقارة ، محاصيل حمضيات ، محاصيل البن ، إنتاج الألبان ، ومرة ألقي في البحر من مشتقات الألبان ما يساوي حجمه أهرامات مصر ، حفاظاً على الأسعار .

نعيش في عصر حماقات ، في عصر قسوة ، في عصر ثقافة إجرامية ، قلب الإنسان كالصخر ، همه ذاته ، همه أن يأكل وحده .

الأرض فيها قسم شمالي ، وهو فوق خط الاستواء ، وقسم جنوبي تحت خط الاستواء ، كم تتصورون نسبة سكان القسم الشمالي إلى القسم الجنوبي ؟ 20% ، 20% من سكان الأرض يسكنون فوق خط الاستواء ، هؤلاء الـ 20 % ماذا يملكون ؟ يملكون 80% من ثروات الأرض لذلك أحدث مصطلح جديد اسمه دول الشمال ، ودول الجنوب ، دول الشمال غنية جداً ، ودول الجنوب فقيرة جداً .

وهذا الذي يجري في العالم من حروب ، واجتياحات ، ونهب ثروات ، وقتل شعوب ، رقم مليون قتيل عادي جداً بالعراق ، وخمسة ملايين مشرد ، ولا أحد يعترض ، والعالم كله ساكت .

7 ـ معركة الحق والباطل أزلية ، ولحكمة بالغة :

فلذلك حينما تعاني ما تعاني من استقامتك ، وانضباطك ، ومبادئك ، وقيمك ، تأتي قصص الأنبياء السابقين لتخفف عنا ، لست وحدك ، هذا شأن أهل الحق .

إن المعركة بين الحق والباطل معركة أزلية أبدية ، لماذا ؟ لأنه كان من الممكن أن يكون أهل الباطل في كوكب آخر ، ما سوى الله كل شيء ممكن ، وكان من الممكن أن يكون أهل الباطل في قارة أخرى، أو في حقبة أخرى ، وانتهى كل الصراع ، لا كانت غزو بدر ، ولا غزوة أحد ولا الخندق ، ولا القادسية .

أنا أعجبتني كلمة ! لن أقول : استعمار ، إن شاء الله ، أقول : استدمار ، الإعمار شيء إيجابي ، الله قال :

(وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)

(سورة هود الآية : 61)

يجب أن نقول : استدمار ، أو استخراب ، لأن هذا الاستعمار يؤدي إلى الدمار والخراب . فلذلك قرار إلهي عظيم حكيم ، هذا القرار بنوده أن نعيش معاً في كل مكان ، في كل مكان أهل حق وأهل باطل ، مؤمن وغير مؤمن ، إنسان دينه المال ، وإنسان دينه دين الله عز وجل ، إنسان صاحب مبدأ ، وإنسان صاحب مصلحة ، إنسان شهواني ، وإنسان رحماني .

والآن سبحان الله ! الأحداث الأخيرة انقسم العالم بسببها قسمين ، كان سابقاً الأبيض هو الحق ، أبيض ناصع ، و أسود داكن هو الباطل ، ومساحة كبيرة جداً بين الأبيض والأسود لون رمادي ، سبحان الله ! الآن التطورات الأخيرة أفرزت لونين فقط ، أبيض أو أسود ، مؤمن وغير مؤمن ، ولي وإباحي ، منصف وظالم ، شهواني ورحماني ، هذا واقع العالم اليوم ، قوى الشر ، وقوى الخير ، قوى إنسانية ، وقوى عنصرية ، هذا الوضع المؤلم المأساوي الله عز وجل رب العالمين ، يشجعنا أن نصبر ، يخبرنا أن هذا شأن الإنسان حينما يبتعد عن الله ، فلا تقلق .

إذا كان طبيب جِلدية ، وجاءك مريضٌ معه مرض جلدي مخيف ، جلده كله قروح ، هل تحقد عليه ؟ أنت طبيب ، وهذا مريض .

المؤمن الراقي لا يحقد ، لكن يعالِج ، من هنا جاءت بعض القصص لتخفف عن المؤمنين ، وعن أنبياء الله ، وعن رسله ما يعانونه من صراع بين الحق والباطل .

تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا

قال تعالى :

(تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا)

1 – قصص الأنبياء تخفيف عن النبي والمسلمين جميعا :

هذه القصص تخفف عنك يا محمد ، لست وحدك المكذَّب ، لست وحدك المعارَض ، لست وحدك من يأتمر عليه ، الأنبياء السابقون ، المؤمنون السابقون ائتمروا عليهم ، فاعتقد اعتقاداً جازماً أن معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية وهذا قدَرُه ، ولحكمة بالغةٍ عرفها مَن عرفها ، وجهلها مَن جهلها نحن نعيش معركة الحق والباطل .

أنا أقول دائماً : هناك حرب عالمية ثالثة معلنة على المسلمين في القارات الخمس ، جهاراً ونهاراً ، وفي أعماق هؤلاء الأقوياء شعور أنه إذا أبيد المسلمون إبادة كاملة فهذا منتهى آمالهم ، نحن نخاف من الله ، نحن لا نعتقد أن القوة تصنع الحق ، هم يعتقدون أنك قوي ، إذاً : أنت على حق .

عندهم مثل شائع جداً : " القوة تصنع الحق " ، أما عند أهل الإيمان فالحق يصنع القوة ، وهما حقيقتان متعاكستان ، ليست القوة هي التي تصنع الحق ، ولكن الحق يصنع القوة ، أنت قوي عند الله ، لأنك على حق ، أما الطرف الآخر فهو قوي ، لأنه يملك سلاحاً نووياً .

الأولاد هم الورقة الرابحة عند المسلمين ، فعلينا تعليمهم مقتضيات العصر العلمية :

لذلك قلت مرة : يمكن أن نواجه القنبلة الذَرية بقنبلة الذُرّية ، أولادنا أهمّ ورقة رابحة في أيدينا ، الأب العاقل المؤمن الذي يحمل همَّ الأمة ، الذي يتمنى أن يفعل شيئاً إيجابياً لهذه الأمة يربي أولاده ، يربيهم على الصدق ، والأمانة ، والعفة ، والبذل ، والعطاء ، وأن يكون ابنك إيجابياً ، أن يحمل همّ أمته ، أن يسهم في حل مشكلاتها ، والله الذي لا إله إلا هو ليس هناك من طريق إلى أن تستعيد هذه الأمة دورها القيادي ، وتألقها التاريخي ، في عصورها الذهبية إلا أن نعتني بأولادنا ، وكل أب يجب أن يعلم علم اليقين أنه يكون في أعلى درجات القرب من الله حينما يقدم للأمة ابناً مؤمناً متعلماً ، فاعتنوا بأولادكم .

صدقوا ، ولا أبالغ ، قلت مرة كلمة لمت نفسي عليها ، لكنني مؤمن بها : إن لم تعلم ابنك اللغة الأجنبية الآن فأنت في حقه مجرم ، حتى يكون قويا ، حتى يفهم ماذا يجري في العالم ، حتى يكون أكبر داعم لأمته ، يجب أن يتقن لغة الطرف الآخر .

سافرت إلى بلد في شمال إفريقيا ، اللغة الرسمية اللغة الأجنبية ، لغة الخطاب لغة فرنسية ، الذين يتقنون هذه اللغة يتحكمون بكل مقدرات الأمة ، وهم أبعد الناس عن الدين ، أما المسلم الطاهر العفيف الأمين الصادق فلا يتكلم اللغة الفرنسية ، أنا أتكلم كلاما دقيقا ، عندك ابن ، وكلّ شيء فاتك أيها الأب تلافاه في أولادك ، فاتك أن تتقن اللغة الإنكليزية ؟ علم ابنك هذه اللغة ، اجعل ابنك عصرياً .

الذي لا يستخدم الكمبيوتر يعد أمّياً ، فالكمبيوتر رفع الدقة من واحد إلى مليون ، وخفض الجهد من مليون إلى واحد ، تطور من دراجة إلى روز رايز ، انخفض سعره من روز رايز إلى دراجة ، وهو لغة العصر ، مَن منا يصدق ؟

حينما أسافر يكون معي كمبيوتر صغير فيه برنامج يحوي 5555 عنوانا ، لماذا قلت : عنوان ؟ قد يكون العنوان في أربعين جزءا ، 5555 ، كتب تفاسير ، كتب أحاديث ، كتب تاريخ ، كتب لغة ، كتب فقه .

يجب على الإنسان أن يستخدم كل إنجازات هذا العصر لصالح الدعوة إلى الله ، وأنا أضعكم أمام مسؤولياتكم ، الذي عنده ابن أرجو الله أن يكون هذا الابن علَماً من أعلام المسلمين ، طبيبا ناجحا ، طبيبا منضبطا ، أقلّ عملية جراحية تكلف ملايين خارج البلاد ، لو أن الطبيب درس هناك ، وعاد إلى بلده ، فكلّ علم أمريكا صار عندنا ، هل تصدقون أن خمسة آلاف طبيب في ولاية واحدة ، وهناك ببت من أصل سوري الأولاد معهم بورد كلهم ، خمسة آلاف طبيب يخدمون الطرف الآخر ، ونحن في أمسّ الحاجة إليهم .

نكون أو لا نكون في ربح معركة العقول :

الآن يجب أن تنتبه أن معركتنا مع الطرف الآخر معركة نكون أو لا نكون ، فيجب أن نحمل همّ هذه الأمة ، يجب أن ننتمي إليها ، يجب أن ننتمي إلى المجموع ، يمكن أن ألخص لكم ماذا يعني الانتماء إلى الفرد .

هناك مثل صارخ جداً : إنسان مضطجع تحت شجرة تفاح ، قد قُطفت جميعها ، إلا أن الذي قطفها غابت عن ناظره تفاحة كبيرة جداً ، صفراء لها خد أحمر ، اشتهاها ، لكنها بعيدة ، معه منشار شجر فقطع الشجرة ، وأكل التفاحة ، هذا اسمه انتماء للفرد ، يضحي بمصلحة الأمة من أجل حاجته الشخصية ، أما للمجموع فنتفانى في خدمة هذه الأمة ، في صون ثرواتها ، في صون أموالها .

الآن معركة علم ، الحرب كانت بين ساعدين ، ثم بين سلاحين أبيضين ، ثم بين بندقيتين ، ثم بين مدفعين ، ثم بين مدرعتين ، الآن الحرب بين عقلين ، فلا بد من أن نتحرك ، والله عز وجل معنا :

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

فنحن لئلا نقع في الإحباط الله عز وجل قص على نبينا عليه الصلاة والسلام في قرآنه الكريم قصص الأمم السابقة ، المعارض هو َهو عبر التاريخ ، والمُوالي هوَ هو عبر التاريخ ، والمحسن هُو هو ، والمسيء هوَ هو ، والظالم هُو هو ، حتى إنهم قالوا : التاريخ يعيد نفسه .

لذلك الله عز وجل قال :

(وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

(سورة هود الآية : 120)

فإذا كان قلب سيد الخلق ، وحبيب الحق يزداد ثبوتاً بسماع قصة نبي دونه فلأن نزداد نحن إيماناً بسماع قصة سيد الأنبياء من باب أولى ، قال له : يا محمد :

(تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا)

2 ـ لستَ وحدك أيها النبي المكذّبَ والمعارَضَ والمحاصرَ فلا تحزن :

لا تحزن ، لست وحدك الذي عورض ، لست وحدك الذي كُذب ، لست وحدك الذي أُخرج من بلاده ، لست وحدك الذي حوصر ، وحصار عزة شيء مؤلم جداً ، لكن لماذا لا نذكر أن الله عز وجل سمح للكفار أن يحاصروا حبيبه سنوات ثلاثًا حتى أكل أصحابه أوراق الشجر ، أنا وجهت كلمة لأهل غزة بدأتها بهذا : أن سيد الخلق وحبيب الحق حوصر ، ففي الخندق :

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً)

(سورة الأحزاب)

في الهجرة أهدِر دم رسول الله ، ووُضِعت مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً ، تبعه سراقة ليأخذ المئة ناقة ، قال له : يا سراقة ! والله شيء لا يصدق ، قال له : كيف بك إذا لبستَ سواري كسرى ؟ ما هذا الكلام ؟! أنا سأصِل ، وسأسوس دولة في المدينة ، وسأحارب أقوى دولتين ، وستأتيني الغنائم ، ولك يا سراقة سوار كسرى ، ألم يقع هذا ؟ في عهد عمر جاءت كنوز كسرى ، فقال : أين سراقة ؟ أعطاه سوار كسرى ، وقال : بخن بخن ! أعيرابي من بني مدلج يلبس سوار كسرى .

الله هو هو ، إله الصحابة إلهنا ، الذي نصرهم ينصرنا ، لا تقلقوا ، ولا تحزنوا ، لا تقلق على هذا الدين إنه دين الله ، ولكن اقلق ما إذا سمح الله لك أو لم يسمح أن تكون جندياً له .

3 ـ عليك بخدمة الخَلق حتى نستغني عن غيرنا :

والله أيها الإخوة ، أتمنى أن الواحد منا يخرج من ذاته ، يخرج إلى عمل عظيم ، إلى عمل يكون بصمة له ، إن لم يكن لك بصمة في هذه الحياة فأنت زائد عليها ، ماذا قدمت لأمتك ؟ أنت طالب ؟ ادرس ، تكفينا أن تكون الأول في اختصاصك .

أحياناً نأتي بخبير يأخذ مليون ليرة في شهر ، أنت لو وظفت خريجي الجامعة كل واحد أعطيته 25 ألف ، 25 ألف ضرب 400 ، ضرب عشرة ، أربعون إنسانا يفتحون بيوتًا ويتزوجون ، مكان خبير واحد ، وعندنا خبراء من بلدنا ، ونكون قد استغنينا عن كل خبرة أجنبية .

تعمير محرك طيارة واحد يكلف خمسة ملايين دولار ، أربع محركات بعشرين مليون ، مليار ليرة سورية ، ألف مليون ، لتعمير محرك وتجديده ، المليار كم يساوي من أطنان القمح ؟ وأطنان قطن ؟ وأطنان الأرز ؟ أضعكم أمام مسؤولياتكم .

الآن المعركة لا ترحم ، هناك قوي ، وضعيف ، القوي الآن يأكل الضعيف ، وهناك عالِم وجاهل ، العالم يستغل الجاهل :

(وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

والله أيها الإخوة ، كل واحد منا بإمكانه أن يكون شيئاً مذكورا ، أتقن عملك ، طور مصلحتك ، خفض السعر ، انفع الأمة ، وحينما تتقرب إلى الله بخدمة أمتك يرفعك الله إلى أعلى عليين ، تقرب إلى الله بخدمة أمتك ، زوج شابا ، عندك بيت أعطه لشاب مؤمن بأجرة تتناسب مع دخله ، دخله 8000 ، أعطه إياها بألـ2000 في الشهر ، يخطب فتاة ، يتزوج ، أنت ساهمت ببناء أسرة .

هناك كلمة تقولها أصحاب الديانات الأخرى : ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، هذه كلمة السيد المسيح، وهي رائعة جداً ، ما كل ربح يعد مالاً .

4 ـ اللهَ الله في الفقراء والضعفاء :

أحد الإخوة الكرام عنده معمل ، قال لي : ما ربحت إطلاقاً ، قررت أن أصفي الشركة ، سألته : كم عاملا عندك ؟ قال لي : 80 ، قلت له : أنت فتحت 80 بيتا ، إذا كان في كل بيت خمسة أشخاص بين زوج وزوجة وثلاث أولاد ، 80 ضرب خمسة 400 ، 400 إنسان يأكلون من هذا المعمل ، قلت له : ألا تعتقد معي أن استمرار هذا المعمل هو أكبر ربح لك عند الله ولو ما ربحت ؟ هذا عمل عظيم ، لأنك هيأت فرصة عمل ، ولما تفكر في الآخر ، تفكر في الفقير ، النبي الكريم يقول :

((فإنما تُرزقُونَ وتُنصرون بضعفائكم))

[أخرجه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي عن أبي الدرداء]

هذا الفقير إذا أطعمته إن كان جائعاً ، أو كسوته إن كان عارياً ، أو علمته إن كان جاهلاً ، أو آويته إن كان مشرداً ، أو أنصفته إن كان مظلوماً ، أو أغنيته إن كان فقيراً ، الآن الله عز وجل يكافئك مكافئة من جنس عملك ، فينصرك على من هو أقوى منك ، وأضعف منك ، بإمكانك أن تسحقه ، أن تهمله ، أن تهمشه ، أن تعاقبه ، أن تفتري عليه ، لأنه ضعيف .

أحد إخواننا الأطباء يقول لي : أنا أذهب إلى مستشفى عام ، كل المرضى فقراء جداً لا يقدر الواحد أن يتصل بإنسان ، لأنه فقير ضعيف ، قال لي : أنا أعاملهم وكأنهم في أرقى مستشفى في دمشق ، أهتم بصحتهم ، وبالتحاليل ، بالمرنان ، بالتصوير ، قال لي : أعيش في جنة .

بطولتك أن تخدم إنسانا لا يملك أن يسألك سؤالاً ، هذه البطولة ، فأنت من أجل أن تعرف نفسك قريبًا من الله عز وجل قدمت خدمات لأفراد هذه الأمة ، هذه أمتنا ، هذه بلادنا ، لما تخرج من ذاتك لخدمة الآخر تكون عند الله كبير جداً ، فاحمل همّ أمتك .

(تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ)

أيها الإخوة ، هؤلاء الضالين الشاردين ، قال :

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)

(سورة الأعراف)

هل تحافظ أيها المسلم على عهدك مع الله ؟

إذا عاهدت الله عز وجل على الاستقامة هل تذكر هذا العهد دائماً ؟ فقد يذهب الإنسان إلى بيت الله الحرام ، وعند الحجر الأسود يقول : يا رب ، عهداً على طاعتك ، هل تحافظ على هذا العهد ؟ هل بعد أن تعود إلى بلدك كلما اقتربت من معصية تذكر هذا العهد .

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

(سورة النجم)

هذه الآية ألا تهزك ؟

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

سيدنا أيوب :

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً)

(سورة ص الآية : 44)

هؤلاء أنبياء عظام ، فحينما تعاهد الله يجب أن تكون وفياً بهذا العهد .

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ :

((بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ ، وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ))

[أخرجه البخاري ومسلم]

أنت تعامل الله ، أخذت قرارًا مصيريا مثلاً ، أنت مؤمن ، في السراء طائع ، في الضراء طائع وراضٍ ، قبل الزواج طائع وراضٍ ، بعد الزواج طائع وراضٍ ، في حالة الغنى شاكر وراضٍ ، في الفقر راضٍ ، في الصحة راضٍ ، في المرض راضٍ ، هذا هو المؤمن .

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

(سورة الأحزاب)

أحد الصحابة أسلم ، ودخل في غزوة ، وانتصر النبي فيها ، ووزعت بعض الغنائم قال : ما هذا ! أنا ما على هذا أسلمت ، أنا أسلمت على الذبح ، وفي غزو ثانية استشهد ، حمله النبي وبكى ، وأثنى عليه ثناء كبيراً .

أنت عاهدت خالق السماوات والأرض ، عاهدت مَن بيده كل شيء ، فأنت راضٍ ، تزوجت أو ما تزوجت ، سكنت بيتًا أو ما سكنت ، اشتغلت أو ما اشتغلت ، أكلت أو ما أكلت ، تعامل خالق الأكوان .

والله أيها الإخوة ، لزوال الكون أهون على الله مِن ألاّ يحقق الله وعده للمؤمنين .

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

(سورة الطلاق)

أنا أخاطب الشباب ، أنت بحاجة إلى دخل ، وإلى عمل ، وإلى بيت ، وإلى زوجة ، استقم تماماً ، وانتظر طل خير . عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((اسْتَقِيمُوا ، وَلَنْ تُحْصُوا ...))

[أخرجه ابن ماجه وأحمد]

وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ

(وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)

لا تكن فاسقاً ، كن مؤمناً . هذا الدرس مقدمة لقصة سيدنا موسى مع فرعون ، وهي أطول هذه القصص في هذه السورة ، إن شاء الله نبدأ بها في الدرس القادم .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(34-60): تفسير الآيات 103 - 115، قصة سيدنا موسى مع فرعون

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-04-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الرابع والثلاثين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثالثة بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)

1 ـ الأنبياء قدوة للبشر :

أيها الإخوة ، في القرآن الكريم قصص الأنبياء ، هؤلاء الأنبياء قمم البشر ، وقد تخلقوا بالكمال البشري ، وهم في الحقيقة قدوة لنا نحن البشر ، هؤلاء الأنبياء لا يغفلون عن الله لحظة ، كما قال عليه الصلاة والسلام :

((وَكَذَلِكَ الْأَنْبِيَاءُ تَنَامُ أَعْيُنُهُمْ ، وَلَا تَنَامُ قُلُوبُهُمْ))

[متفق عليه]

هؤلاء الذين عرفوا الحقيقة ، عرفوا ربهم ، عرفوا سر وجودهم ، عرفوا غاية وجودهم ، استناروا بنور ربهم ، حملوا هموم البشر ، نقلوا رسالة الله لخلقه .

2 ـ قصصُ الأنبياء فيها دروسٌ وعِبرٌ :

الله عز وجل يقص علينا قصصهم لتكون هذه القصص عبرة لنا :

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

(سورة يوسف الآية : 111)

بل إن الله سبحانه وتعالى لعل في رواية قصصهم موعظة لأنبيائه أنفسهم ، الآية الكريمة :

(وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

(سورة هود الآية : 120)

فإذا كان قلب سيد الخلق ، وحبيب الحق ، يزداد ثبوتاً بسماع قصة نبي دونه فلأن يمتلئ قلبنا إيماناً بسماع قصة سيد الأنبياء من باب أولى .

أنت مؤمن ، الحياة فيها صعوبات ، فيها مصائب ، فيها ابتلاء ، فيها قهر ، فيها فقر ، فيها مرض ، فإذا قرأت قصة سيدنا يونس ، حينما وجد نفسه فجأة في بطن حوت ، هل من مصيبة أكبر من هذه المصيبة ؟ الأمل معدوم ، لا أمل بمعطيات الواقع ولا بواحد من المليار ، وهو في بطن الحوت :

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ)

في ظلمة بطن الحوت ، وفي ظلمة الليل ، وفي ظلمة البحر :

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ)

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ)

لكن أنت مؤمن ، الذي يعطيك صعقة إيمانية التعقيبُ :

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

هذه لسيدنا يونس ، ولكل مؤمن ، فلا تقلق ، ولا تحزن ، كن مع الله ولا تُبَالِ ، كن مع الله ترَ الله معك، اسأل الله حاجتك ، توسل إليه بعمل صالح ، بصدقة ، ناجه في الليل ، اعرض أمامه مشكلتك ، ليكن الحوار بينك وبين الله عز وجل ، لتكن المناجاة بينك وبينه ، اشكُ له ما تعاني ، اسأله مِلْحَ طعامك ، اسأله شسع نعلك إذا انقطع ، هذه كله أحاديث شريفة ، اسأله حاجتك كلها .

قصص الأنبياء ليست لأخذ العلم ، ولكن للإقتداء ، إياك أن تقرأ قصة نبي على أنها قصة ، لا ، هي درس لك ، توجيه لك ، منهج لك ، طريق إلى الله .

فيا أيها الإخوة :

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى)

الآن نحن أمام قصة طويلة جداً ، لكن هذه القصة فيها من المواعظ والدروس والاستنباطات ، والحقائق والقوانين والقواعد ما يملأ حياتنا أمناً وطمأنينة ، واستنارة وطريقاً ترسمه هذه القصص إلى الله عز وجل ، بعد أن حدث الله عز وجل عن الأنبياء السابقين جاء دور سيدنا موسى مع قومه :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى)

1 ـ الحقٌّ قديمٌ ، كلما انطمس بعث الله نبيًّا ليظهره مِن جديد :

كأنه شيء كان تحت الأرض ثم بعثناه ، ماذا نفهم من هذا التصوير ؟ نفهم أن الحق قديم ، وأن الحق جاء به آدم عليه السلام ، وأنه تمر على البشرية حقب تنطمس فيه الحق ، ثم يأتي النبي فيظهره ، ثم تنطمس الحقائق ، فيأتي نبي آخر فيظهره ، هذا ما يفهم من كلمة بعثنا ، الحق قديم ، والحق مركز في فطر الإنسان ، والحق جاء به الأنبياء .

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى)

كلما تاه البشر ، كلما غلّبوا مصالحهم على مبادئهم ، كلما غلبوا شهواتهم على مبادئهم ، كلما انجذبوا إلى الأرض ، وأعرضوا عن السماء تأتي رسالة نبي لتوقظهم ، لترشدهم ، لتنبههم ، لعلهم ينتبهون إلى سر وجودهم .

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا)

2 ـ معنى الآيات :

الآيات العلامات ، الله عز وجل أعطانا قوة إدراكية ، فإذا بعث إلينا نبياً معه أدلة ، معه علامات ، معه أشياء نيرة ، واضحة ، بينة .

الآيات الكونية :

أيها الإخوة ، لا شك أنكم تعلمون أن الآيات أنواع ثلاث ، آيات كونية ، هذا الكون هو الثابت الأول ، الكون كله ينطق بوجود الله ، ووحدانيته ، وكماله ، فكل شيء في الكون يدلك على الله ، وكل شيء في الكون ينطق بوجود الله ، وكل شيء في الكون ينطق بكمال الله ، وكل شيء في الكون ينطق بوحدانية الله ، الكون من آيات الله الخلقية ، آياته الكونية .

الآيات التكوينية :

أو آياته الخلقية ، لكن أفعاله ، أفعاله آيات أخر ، لكنها آيات تكوينية ، حينما نجّى الله سيدنا موسى من فرعون فهذه آية كبيرة :

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء)

كيف نجّى الله عز وجل سيدنا موسى ؟ كيف نجّى سيدنا إبراهيم ؟ كيف نجّى سيدنا محمد في الهجرة ، نجّاه في الغار ، ونجّاه في الطائف ، ونجّاه في الهجرة ، ونجّاه في معركة الخندق ، فهذه القصص دروس لنا .

الذي أتمناه ثانية : ألا تقرأ قصة في القرآن على أنها قصة ، إنها درس بليغ ، إنها رسالة من الله ، فهناك آيات كونية ، هي خَلق الله ، هناك آيات تكوينية هي أفعاله .

وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ

أنتقل إلى موضوع يخص كل واحد منكم ، ما من الإخوة الحاضرين المستمعين واحد إلا وله مع الله أيام ، قال تعالى :

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

(سورة إبراهيم الآية : 5)

مرة كان في أزمة شديدة جداً ، الله عز وجل فرّجها عنه ، أو شبح مصيبة مخيف ألمّ به ، الله عز وجل صرفه عنه ، أو عدو قوي عنيد حاقد ، الله عز وجل نصره عليه .

أحيانا أن تنجو من مصيبة ، أن يستجيب الله لك دعاءك ، أن يرحمك ، أن يوفقك ، أن يعطيك ، أن يزوجك ، أن يطلق لسانك في الدعوة إلى الله ، هذه من أيام الله ، قال تعالى :

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

وأنت أيها الأخ المؤمن ، إذا كان لك علاقات مع الله رائعة ، علاقات توفيق ، علاقات تأييد ، علاقات نصر ، علاقات اتصال ، علاقات حميمة مع الله عز وجل ، هذه الأيام اذكرها .

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

مرة أحد الملوك في الأندلس هو ابن عباد ، كان يمشي في حديقة قصره ، فرأى بركة ماء ، وقد أثرت فيها الرياح ، فكأن سطح الماء سلسلة ، فقال وهو شاعر :

صَنَعَ الريحُ من الماءِ زَرَدَ

* * *

يعني كالسلاسل ، فلم يستطيع إكمال البيت ، فسمع جارية وراءه تقول :

أيُّ درع لقتالٍ لو جمدْ

* * *

فأعجب بهذه الجارية ، وتزوجها ، وأكرمها إكراما ما بعدها إكرام ، أكرمها إكراماً يفوق حد الخيال ، مرة حنّت إلى حياتها الفقيرة ، فأحبّت أن تمشي في الطين ، فجاء لها بالمسك والعنبر ، وخلطه بماء

الزهر ، وقال لها : هذا هو الطين ، دوسي فيه ، ثم عُزل عن ملكه ، ودخل السجن ، وفي ساعة علاقة سيئة بينه وبينها قالت له : ما رأيت منك خير قط **!** فعاتبها ، وقال لها : ولا يوم الطين **؟!**

أحياناً الأمور ليست كما ينبغي ، فتتضايق ، ذكّر نفسك بأيام الله ، يوم وفقك في الدراسة ، وفقك في الزواج ، عرّفك بذاته العلية ، ساقك إلى أهل الحق ، وما مِن إنسان ما له أيام مع الله ، فالإنسان البطل لا ينسى هذه الأيام ، من باب الوفاء :

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

إذاً : الله عز وجل له آيات كونية ، وله آيات تكوينية ، وله آيات قرآنية ، فخَلقه آية ، وأفعاله آية ، وكلامه آية ، وهذه الآيات هي الطرائق إلى الله عز وجل ، بما أن أصل الدين معرفة الله ، الله تعرفه من خَلقه ، ومن أفعاله ، ومن كلامه .

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ)

إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ

معنى الملأ :

ما معنى كلمة

(وَمَلَئِهِ)

؟ بعضهم قال : الملأ الرجال الذين يملؤون العين ، شكل ، جسم ، ذكاء ، فصاحة ، بيان ، منطق ، قوة شخصية ، هؤلاء الملأ ، فمن معاني كلمة ملأ أنهم يملؤون العين والسمع ، وإن يقولوا تسمع لقولهم ، إن تطلع عليهم يملؤون عينك مهابة .

دخل إنسان يملأ العين على أبي حنيفة ، وكان يلقي درساً ، ويبدو أن في رجل أبي حنيفة ألماً ، فاضطر أن يمدها ، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم ما رؤي ماداً رجليه قط ، لكن المعذور معذور ، فدخل إنسان عظيم الهيئة ، عريض المنكبين ، يرتدي جبة وعمامة ، وجلس في الدرس ، فاستحيا منه ، ورفع رجله ، والحديث كان عن صلاة الصبح ، وشرح أبو حنيفة المسألة ، وبعد نهاية الشرح سأله هذا الإنسان الذي يملأ العين والسمع ، قال له : ماذا نفعل إذا طلعت الشمس قبل الفجر ؟ قال له : عندئذ يمد أبو حنيفة رجله .

الأصل أن الملأ رجال يملؤون العين والسمع .

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا)

1 – الحديث عن الدنيا تكون الآذان له مصغية :

حينما تستمع لآية كونية ، ولا تعبأ بها ، وكانت هذه الآية مهيئة كي تنقلك من الظلمات إلى النور ، كانت هذه الآية مهيئة أن تأخذ بيدك إلى الله ، كانت هذه الآية كفيلة أن تهتدي بهدي الله عز وجل ، فإذا لم تعبأ بها فأنت ظالم .

لاحظ الناس في عصور التخلف ، إذا تكلمت في الدنيا تجد الآذان مصغية ، يرهفون السمع ، يحاورونك، تتألق عيونهم ، تتورد وجناتهم ، وإن حدَّثتهم في أمر الدين رأيتَهم ينامون ، ويتثاءبون ، ويعتذرون ، هذه مشكلة كبيرة جداً :

(فَظَلَمُوا بِهَا)

أمور التجارة ، والبيع والشراء ، وأسعار العملات ، والبيوت ، والشركات ، والبنوك الإسلامية ، آذان لها مصغية .

2 – الحديث عن الله واليوم الآخر لا يلقى له آذانا مصغية :

فإذا جاء الحديث عن الله عز وجل ، وعن رسله ، وعن جنته ، وعن الدار الآخرة ، كأن هذا الموضوع لا يعني أحدًا ، فالظلم في هذه الآية أنه لم يعطِها حقَّها .

تصور شيكًا بمئة مليون دولار موضوع على الطاولة على ظهره ، يبدو للعين ورقة بيضاء ، فأنت اضطررت أن تكتب عملية حسابية : 7 × 9 ، كم ناتج عملية ؟ أجريتَ على هذه الورقة المستطيلة عملية حسابية ، ثم مزقته ، ثم اكتشفت بعد حين أن هذا شيك بمئة مليون دولار ، وكان يحل لك كل مشاكلك ، تشتري به بيتًا ، ومركبة ، وبيتًا بالمصيف ، ومعملا ، كم تندم ؟ لا تنسَ هذا المثل في معنى قوله تعالى :

(اشْتَرَوْا بِآَيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا)

(سورة التوبة الآية : 9)

3 – كلمة لها مدلول الظلم : ماذا قال آنفاً ؟

تسمع درسَ علم ، درسًا في الإعجاز العلمي ، درسا في تفسير القرآن الكريم ، ماذا قال آنفاً ؟ يقول

لك: والله الخطبة رائعة ، ماذا قال ؟ والله لا أتذكر شيئًا فلا تؤاخذني ، قال : خطبة رائعة ، لكن ما تذكر منها شيئًا ، لأنه ليس مع الخطيب ، ولا مع المدرس ، مع همومه ، مع شهواته ، هذه معنى :

(فَظَلَمُوا بِهَا)

كلام الحق يجب أن يهز أعماقك ، القرآن يجب أن يقشعر جلدك منه .

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)

هؤلاء الذين تركوا منهج الله ، ولم يعبؤوا بآيات الله .

مرة كنت في أمريكا ، وألقيتُ درسًا بمدينة اسمها توليدو ، بعد نهاية الدرس قال لي رجل : أنا فلان ، أخي فلان ، أنا أعرف أخاه الطبيب ، قال لي : هل تعلم كم قطعت من المسافات حتى آتي لأستمع لهذا الدرس ؟ قلت له : كم ؟ قال لي : 600 ميلا ، أي ألف كيلومتر ، نحن في الشام في نعمة كبيرة ، نسمع دروس العلم ، والتفسير ، والحديث ، والسيرة ، وأسماء الله الحسنى بكل يسرٍ ، أقسم لي بالله أنه قطع 600 ميلاً ليستمع لهذا الدرس ، فإذا كان في بلد الإنسان دروس متوافرة ، ويسهل عليه أن يحضر الدرس ، ويستمع للدرس ، ويكتب بعض الفقرات بالدرس ، فهذه نِعم كبيرة جداً لا يعرفها إلا مَن فقدها.

(وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأعراف)

وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ

1 – فرعون مدَّعي الألوهية والربوبية :

فرعون ادعى الألوهية ، وقال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية : 38)

وكان في عصر فرعون يعتقدون أن للخير إلهًا ، وللشر إلهًا ، وللشمس إلهًا ، وللقمر إلهًا ، ولليل إلهًا ، وللنهار إلهًا ، فهي آلهة متعددة ، وفرعون قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

وقال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

2 – الله إلهٌ واحد ، وهو ربُّ العالمين :

رب الخير والشر ، والسماء والأرض ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، والإنس والجن :

(إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

الإله الواحد .

حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ

(حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

(سورة الأعراف)

رسُلُ الله لا تقول إلا الحقّ :

لا يليق برسول الله الذي أرسله الله لهداية خلقه أن يتكلم بغير الحق :

(حَقِيقٌ)

لا يليق لرسول الله أن لا يقول إلا الحق .

أذكر لكم قصة سريعة ؛ أن النبي عليه الصلاة والسلام قال قبيل موقعة بدر :

((لا تقتلوا عمي العباس))

[ورد في الأثر]

عمه العباس كان في مكة ، وأحد الصحابة ، و الصحابة غير معصومين ، قال : << أحدُنا يقتل أباه وأخاه ، وينهانا النبي عن قتل عمه ؟ >> ، فوقع في نفسه شيء ، ثم تبين أن عمه العباس كان مسلماً ، وأنه كان عينَه في مكة ، فما مِن أمر يحدث إلا وينقل إلى النبي عن طريق عمه العباس ، فإدارة النبي كانت إدارة ذكية جداً ، له عيون ، وأن عمه كتم إيمانه وإسلامه ، فعمه إن لم يخرج مع المشركين ليلقى محمداً وأصحابه في بدر كشف نفسه ، وانتهت مهمته ، وانتهى دوره ، وإن قال النبي الكريم : عمي لقد أسلم ، لانتقل الخبر إلى قريش ، وانكشفت الحقيقة ، وتنتهي مهمته ، وينتهي دوره ، وإن سكت النبي الكريم وهو عند أصحابه مشرك ، وهم في حرب ، واحتمال كبير أن يُقتل ، فالنبي عليه الصلاة

والسلام لحكمة بالغةٍ لا يستطيع إلا أن يقول هذه الكلمات :

((لا تقتلوا عمي العباس))

فقط ، فهذا الصحابي ظن في نفسه شيئاً ، بعد أن كشفت الحقيقة يقول هذا الصحابي : << والله ظللت أتصدق عشر سنين رجاء أن يغفر الله لي سوء ظني برسول الله >> .

رسول يتحزب لأقربائه ؟ هذا مستحيل ! إذا أكرم الله عز وجل إنسان بالدعوة إلى الله ، مع أنه غير معصوم ، لكن من الممكن أن يتكلم كلامًا لمصلحته .

النبي الكريم لما مات ابنه إبراهيم الصحابة من باب محبتهم للنبي توهموا ، وقد كسفت الشمس ، أن الشمس كسفت لموت إبراهيم ، فأيّ إنسان إذا كانت له دعوة متواضعة ، وأحد التلامذة ظن أن هذا الحدث الكبير من أجل شيخه ، فهل يبقى الشيخ ساكتًا ؟ ويقول : إنها مفيدة جداً ، ولا يتكلم بشيء ، لأنها تدعم مركزه ، لا ، لقد وقف النبي عليه الصلاة والسلام خطيباً ، وقال :

((إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن المغيرة بن شعبة]

لابد أن تكون رجلا علميًّا ، لا تعش في الوهم ، المؤمن أمين على هذه الدعوة ، لا يفلسف شيئًا لمصلحته ولا يوهم ، ولا يبالغ ، ولا يبرز شخصه ، المؤمن الصادق في التعتيم يبرز حقيقة هذا الدين ، وحقيقة هذا النبي الكريم .

(فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

الإله واحد ، رب العوالم كلها .

(حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ)

لا يليق بنبي كريم أرسله الله لهداية الخلق أن يقول كلاماً لمصلحته .

طرفة : مرة أردت أن اشتري ستارة لغرفة الضيوف ، فسألت أحد الباعة ، قال لي : يا أستاذ ، يجب أن نقطع من الثوب ضعف عرض الحائط ، زائد متر ، حتى تأتي الستارة مثنات تكون جميلة جداً ، أقنعي بعد شبهِ محاضرة ، عرض الحائط ثلاثة أمتار ، ضرب اثنين ، ستة ، زائد متر واحد سبعة ، أنا اخترت ثوبًا ، لما قاسه وجده أقلّ من الضعف ، خمسة أمتار ، قال لي : هذا المطرز بهذا القياس أحلى، فوراً أعطاني حقيقة ثانية ، هو ينطق عن الهوى لمصلحته ، أعجبني هذا الثوب ، لكنه أعطى قاعدة أخرى ، ما دام مطرزا فهو بهذا القياس أجمل .

صدقوا أيها الإخوة ، إن تسعة أعشار كلام الناس عن هوى ، أما النبي عليه الصلاة والسلام فقد قال الله في حقّه :

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم)

قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ

(قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

1 – قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ

معي دليل ، معي بينة ، معي آية ، معي معجزة .

2 – فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ

يبدو أن هؤلاء القوم ظلمهم فرعون ، ذبح أبناءَهم ، واستحيا نساءَهم .

فيما تروي بعض الروايات أن إنسان رأى أن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على ملك فرعون ، فأخبر بهذه الرؤيا ، أو بهذا المنام ، وفرعون جبار ، طاغية ، سفاح ، فأمر أن يقتل أبناء بني إسرائيل ، وأية قابلة لا تخبر عن ولادة طفل ذكر تُقتل مكانه ، المشكلة هذا حلها عند فرعون ، أما هذا الطفل الذي سيقضي على ملكه فإنه رباه في قصره ، أنت تريد ، والله يريد ، والله يفعل ما يريد .

((ابن آدم ، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد ، ابن آدم ، إذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد))

[ورد في الأثر]

مع الله عز وجل ليس هناك إنسان ذكي إطلاقاً ، بل يُؤتَى الحذِرُ من مَأمَنِه ، وكما قيل : عرفت الله من نقض العزائم .

(فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

الحقيقة أن فرعون يعُد مدّعِيًّا أنه هناك آلهة ، أو أنه هو إله ، قال :

(قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

(سورة الأعراف)

قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

إنسان يقتل بلا حساب ، وقتل الإنسان أهون عليه من قتل ذبابة ، لِمَ لم يقتل سيدنا موسى ؟ لأن فرعون بيد الله عز وجل ، هذا هو الإيمان والتوحيد ، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ حتى إن كلمة الحق لا تقطع رزقاً ، ولا تقرّب أجلاً ، قال فرعون :

(قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآَيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

المعجزة الأولى لموسى : فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ

سيدنا موسى :

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

(سورة الأعراف)

1 – قصة عصا موسى :

لكن لحكمة بالغةٍ بالغة في المناجاة قال الله عز وجل لسيدنا موسى :

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)

(سورة طه)

ألا يعلم اللهُ ما بيمينه ؟ إنه سؤال عجيب ، الجواب :

(هِيَ عَصَايَ)

(سورة طه الآية : 18)

لكن يبدو أن هذا النبي الكريم الذي ناجى ربه وأنِسَ بهذه المناجاة ، فأراد أن يفتعل معاني فرعية ليتابع المناجاة ، قال :

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ)

(أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي)

(سورة طه الآية : 18)

فخجل ، وقال : لعلي أطلت ، لعلي أجبت إجابة ما أرادها الله ، قال :

(وَلِيَ فِيهَا مَآَرِبُ أُخْرَى)

(سورة طه)

إذا سمح الله عز وجل لي أن أتابع وأقول لي : ما هذه المآرب يا موسى ؟ كلام دقيق جداً :

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآَرِبُ أُخْرَى)

الحقيقة لحكمة بالغةٍ الله عز وجل أراد أن يلفت نظره ، هذه التي بيدك ما هي ؟ عصا من خشب ، من خشب يبس ، أصلها نبات ، انتقال النبات ، وأن تعود هذه العصا غصناً نضراً مورقاً مزهراً معجزة ، فما قولك إذا انتقلت من الجماد ، إلى النبات ، إلى الحيوان ؟

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)

انتبه ، هذه التي بيدك عصا ، وهي جماد ، ومستحيل أن تعود غصنا مزهرا مورقًا ، لكنه بعد قليل سوف تكون حية تسعى :

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

(قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى)

(سورة طه)

2 – التجربة الأولى للعصا : التحوّلُ إلى حية صغيرة أمام موسى :

هذه أول تجربة ، الله جعلها له حية صغيرة ، حتى لا يخاف .

(قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى)

(سورة طه)

حينما قابل فرعون يكون واثق من نفسه ، ولو أن الله قال له : حينما تقابل فرعون ألق العصا تكن ثعباناً ، لكن ما معه تجربة ، فطمأنه ، صار إلقاء تدريبيا ، فاطمأن ، هذه العصا الجامدة أصبحت حية تسعى .

3 – التجربة الثانية للعصا : التحوّلُ إلى ثعبان كبير أمام فرعون :

أمام فرعون قال له :

(إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

بعض المستشرقين قال : إن في القرآن تناقضًا ، مرة يقول : حية ، ومرة يقول : ثعبان ، لكن هي حية على انفراد فيما بينه وبين الله ، حتى لا يخاف لأنه بشر ، تصور رجلاً أُلقِي أمامه عصا فإذا هي ثعبان بطول 12 مترا ، لكن المرة الثانية وثق من نفسه :

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

المعجزة الثانية لموسى : وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ

وسيدنا كان موسى أسمر اللون ، قال تعالى :

(وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)

(سورة الأعراف)

مرة قال سيدنا علي : << والله ، والله ، مرتين ، لحفر بئرين بإبرتين ، مستحيل وكنس أرض الحجاز في عاصف بريشتين ، أيضاً مستحيل ، ونقل بحرين زاخرين بمنخلين ، أيضاً مستحيل ، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين ، أيضاً مستحيل .

(وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)

وفي رواية : كأنها كوكب دري تتألق تضيء .

الحقيقة بهاتين الآيتين هزّ كيان فرعون ، فرعون إله ، فرعون قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

فرعون قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

بهاتين المعجزتين هز كيانه ، فصغر فرعون ، وانكمش ، وتطامن ، وحُجِّم ، وحولْ فرعون منافقون .

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ

(قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ)

(سورة الأعراف)

أي أنت يا فرعون إله ، وتبقى إلهنا ، وهذا ساحر :

(إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ)

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ

(يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)

(سورة الأعراف)

بعضهم قال : هذا كلام فرعون :

(فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)

متى كان يقول ملك جبار :

(فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)

ضعُف ، وتحجّم ، وصغُر :

(قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ)

تابع فرعون :

(يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)

قالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ

القضية أكبر بكثير ، ليست موضوع سحر ، القضية تحتاج لإعداد كبير ، القضية لا تحتمل حلاً آنياً .

(قالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)

(سورة الأعراف)

عمِّم على كل البلاد أن يأتوك بالسحرة المتفوقين الكبار :

(أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)

يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ

(يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ)

(سورة الأعراف)

الحقيقة أنه هو الساحر ، ويعلم علم اليقين أن هذا الذي رآه ليس سحراً ، بل ثعبان مبين حقيقي ، هذا من النفاق ، والمنافق هو هوَ .

(يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ)

السحرة في موعد التحدي مع نبي الله موسى :

1 – وصولُ السحرة إلى مكان التحدي :

(وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ)

(سورة الأعراف)

أي جاءوا فرعونَ ، ووصلوا إلى قصره .

2 – طلب السحرة أجرا من فرعون عند الغلبة والنصر :

(قالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ)

فرعون ضعف مركزه ، وتزعزعت مكانته ، وانهزّ ، وتطامن ، تحجّم ، صغُر ، عرف أن هذا الإله المدعي الألوهية جاء من يهز كيانه :

(قالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً)

أرادوا أن يستغلوا ضعف فرعون :

(إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ)

3 – تشجيع فرعون السحرة بالمكافآت المغرية :

(قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)

(سورة الأعراف)

بلا تردد ، وفوق الأجر :

(وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)

(قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ)

(سورة الأعراف)

نتابع تتمة القصة في الدرس القادم إن شاء الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(35-60): تفسير الآيات 115 - 126، هزيمة فرعون أمام سيدنا موسى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-04-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس الخامس والثلاثين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الخامسة عشرة بعد المئة ، ونحن في قصة سيدنا موسى مع فرعون ، ولعل هذه القصة في هذه السورة من أطول قصص سيدنا موسى مع فرعون :

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ

(قَالُوا ـ أي السحرة ـ يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ)

(سورة الأعراف)

1 – كل الخصائص الفنية للقصة متوفرة في قصص القرآن :

كلكم يعلم أن القصة فيها شخصيات رئيسية ، وشخصيات ثانوية ، الرئيسية فرعون وسيدنا موسى ، والثانوية السحرة ، وفيها سرد ، وفيها حوار ، وفيها تحليل ، وفيها بداية ، وفيها عقدة ، وفيها نهاية ، وفيها مغزى ، وفيها حبكة ، بعض الذين درسوا القصة في القرآن أكدوا أن كل خصائص القصة الفنية التي هي أرقى فن في الأدب متوافرة في قصة القرآن الكريم .

الآن هؤلاء السحرة الذين استعان بهم فرعون ، وطلبوا منه العطاء ، وعدهم بعطاء جزيل ، وأن يكونوا من المقربين ، لأن كيانَه كإلهٍ تزلزل .

2 – فائدة في تأخير قولهم : نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ

(قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ)

لو أن الآية : وإما أن نكون الملقين فهناك معنى آخر .

(وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ)

لكن هناك معنى آخر ، هذا الضمير يسمى ضمير التأكيد ، كأن رغبتهم أن يبدؤوا هم ، عزتهم دفعتهم إلى أن يبدؤوا ، ولكن العقل يقتضي أن يتأخروا .

في أكثر الاحتفالات آخر كلمة لأعلى مرتبة ، آخر كلمة هي الختام ، والحفل يقيَّم من الكلمة الأخيرة ، والكلمة الأخيرة تتلافى نقص الكلمة الأولى .

هم كانوا في صراع بين أن يبدؤوا تحقيقاً لعزتهم ، وبين أن يتأخروا مراعاة للحكمة ، لكن عبارتهم :

(قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ)

يعني أنت أولاً ألق عصاك .

(وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ)

قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ

(قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ)

(سورة الأعراف)

1 – سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ

لما رأى رغبتهم أن يبدؤوا هم .

(قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا)

هناك روايات في بعض الكتب تؤكد أنهم جاؤوا بأنابيب ، ولوّنوها على شكل ثعبان ، ووضعوا فيها الزئبق ، والزئبق معدن سائل رجاج ، وأنه يتمدد بالحرارة ، ومع التمدد يتحرك ، ووضعوا هذه الأنابيب فوق سطح ساخن ، فالذي يراها من بعيد يرى ثعابين تتحرك .

(قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ)

السحر له ترجمة معاصرة اسمها التنويم المغناطيسي ، ولا ينوم إلا ضعاف الشخصية .

2 – السحر توهُّم الأشياء :

حدثني أخ كان في الهند قال لي : تجمّع الناس حول ساحر ، معه ربطة حبال ، ألقاها في الفضاء ، فعلقت ، معه غلام أمره أن يصعد ، فصعد ، إلى أن غاب عن الأنظار ، أمره أن ينزل فلم ينزل ، فغضب الساحر ، ولحقه ومعه سكين ، بعد حين وقع رأسه ، ووقعت أعضاءه عضواً عضواً ، مع هذا الجمع الغفير سائح غربي ، معه آلة تصوير سينمائية ، فصور ، في أثناء التحميض لم يجد شيئاً ، هذا معنى قوله تعالى :

(سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ)

أحياناً في علم النفس يضعون بقعة حبر على ورقة ، هناك مَن يفهمها نجمة ، هناك من يفهما أخطبوطًا، فكل إنسان يسقِط ما عنده على هذه البقعة ، هذا اسمه التنويم المغناطيسي ، والمصطلح القرآني :

(سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ)

وفي آية ثانية :

(يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى)

(سورة طه)

توهموا ، وكم من إنسان توهم شيئاً ليس موجوداً ، توهم رؤية لا أصل لها ، توهم كلاماً لم يسمعه ، هذه قضية متعلقة بعلم النفس ، لكن هؤلاء السحرة عندهم براعة كبيرة ، فحينما ألقوا رأى الناس ثعباناً ضخماً كالعثبان الحقيقي يتحرك ، ويتلوى :

(قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ)

قال فرعون :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

وقال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية : 38)

3 – احذوا الطرف الآخر ، فإنه ليس غبيًّا :

استعان بمهرة السحرة ، فلابد أنهم سيأتون بشيء عظيم ، فالطرف الآخر ليس سهلاً ، الطرف الآخر قد يكون ذكياً جداً ، وقد يكون مثقفاً ثقافة عالية ، وقد يوهم الناس بشيء ، لذلك يجب على المؤمن أن يتسلح بالعلم ، فلو كان علمه ضعيفا فإن الطرف الآخر يقنعه بالكفر أحياناً ، ويقنعه أن هذا الدين ليس لصالح البشرية ، والمذاهب الأرضية لماذا رفضت الدين ؟ الدين فيه قيود ، وهي الحقيقية ليست قيوداً ، لكنها حدود لسلامة الإنسان ، فإن لم تكن متسلحاً بالعلم فقد تقع في شباكهم .

لي رأي : لا تعد مؤمناً الإيمان المنجي إلا إذا استطعت أن تدحض كل الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام ، والشبهات كثيرة جداً ، ولحكمة بالغة بالغةٍ سمح الله للطرف الآخر أن يطرحوا شبهاتهم ، هذا امتحان لنا ، فالإنسان ضعيف الإيمان يتزلزل .

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً)

(سورة الأحزاب)

الله عز وجل من محبته لنا ، من رحمته بنا ، لا يسمح لنا أن يكون الإيمان الذي نحن عليه إيماناً ساذجاً يتزلزل لأية شبهة ، أنا أقول لكم : في عصر لا يكفي أن تكون مؤمناً إيماناً تقليدياً ، الإيمان التقليدي لا يصمد أمام شبهات الغرب ، لا يصمد إلا إيمان متين ، إيمان أساسه البحث والدرس ، والتأمل ، إيمان أساسه التحقق لا التقليد ، الدليل أن الله عز وجل قال :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد الآية : 19)

ما قال لك : فقل ، قال :

(فَاعْلَمْ)

(قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ)

بثوا فيهم الرهبة :

(وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ)

أنا أقول لكم كإسقاط لهذه الآية على واقعنا : الغرب الذي شرد عن الله ليس شيئاً سهلاً ، عنده إمكانية كبيرة جداً أن يقنع الناس بشيء ليس صحيحاً ، هناك وسائل النشر ، فأحياناً يصور الطرف الآخر بآلة تصوير خاصة ، على وجهه غبرة ، والبطل الإيجابي يصور بآلة تعطيه ضياء ، وهناك وسائل الإعلام، والصحافة قوة كبيرة جداً ، وهي الآن بيد من ؟ بيد الطرف الآخر .

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)

(سورة الأعراف)

الفرق بين السحر وبين المعجزة :

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)

هذا الثعبان الكبير أكل كل هذه الثعابين التي صنعها السحرة ، التي ما كانت ثعابين حقيقية :

(فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)

فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

(فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الأعراف)

1 – ليس في الإسلام ضعف :

الحقيقة : يجب أن تعتقد اعتقاداً جازماً أنه لا يمكن ، بل يستحيل ، وألف ألف مستحيل أن يكون في الدين ضعف يتيح للطرف الآخر أن ينتصر .

(فَوَقَعَ الْحَقُّ)

2 – الله هو الحقُّ :

الله عز وجل اسمه الحق ، ولأنه حق فلا بد من أن يحق الحق ، وأنت أيها المؤمن إذا كنت على الحق فلا تخف ، لابد من أن ينصرك الله ، وإذا كنت على باطل فلا بد من أن يخذل ربنا جل جلاله هذا المبطل ، لذلك قالوا : قد تخدع معظم الناس لبعض الوقت ، وقد تخدع بعض الناس لكل الوقت ، أما أن تخدع كل الناس لكل الوقت فهذا مستحيل .

ذكرت البارحة قصة : أن إنسانا في بلد عربي بعيد عن بلدنا ، والحمد لله ، استطاع أن يستورد أغذية ليست صالحة لبني البشر ، هي مصممة للحيوانات ، لكن في مستودع كبير نزع اللصاقة ، ووضع لصاقة أخرى ، فحقق أرباحا كبيرة جداً ، العمال المكلفون بتبديل اللصاقات نسوا علبة واحدة أن يغيروا لصاقتها ، فوصلت إلى الجهات المسؤولة ، فلما وصلت دُمر هذا الإنسان ، هذه جريمة ، والله عز وجل مستحيل وألف ألف مستحيل أن يسمح لك أن تغش الناس إلى ما لا نهاية ، تغش الناس إلى حين ، لأنه لا بد من أن يهلك الإنسان عن بينة ، وأن يحيى عن بينة .

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

هذه هي النتيجة : فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ

(فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ)

(سورة الأعراف)

مرة ثانية : الحق هو الذي سينتصر ، من آدم إلى يوم القيامة ، ولكن انتصار الحق عمره أطول من أعمار البشر ، أحياناً يأتي رمضان في شهر آب ، إلى أن يأتي مرة ثانية بعد 36 سنة ، لو أن شخصًا عاش عشرين سنة لا يبلغه ، فقد يراه في الصيف ، ولا يسمح له العمر القصير أن يدركه مرة ثانية ، الآن تبدل الحق والباطل بدورة الحق والباطل ، وأحياناً الله عز وجل يجعل أهل الحق هم الأقوياء ، وأحياناً لحكمة بالغة يجعل الطرف الآخر قويًّا ، قال تعالى :

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

(سورة آل عمران الآية : 140)

لو كان أهل الحق بيدهم القوة دائماً يظهر النفاق ، وإذا كانت القوة بيد أهل الباطل بشكل مستمر كان اليأس ، الله عز وجل قال :

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاس)

نحن جميعاً هكذا ، وشاءت حكمة الله أن نكون في عصر الباطلُ فيه قوي جداً ، معه الإعلام ، معه المال ، معه التحالفات ، معه الأقمار ، يغير الحقائق كما يتمنى ، يوهم الناس بشيء غير صحيح ، يتهم المسلمين بكل التهم ، أنا أرى البطولة الآن أن تصبر ، والبطولة أن تلتزم .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ))

[الترمذي]

الآن أينما تحركت رأيتَ المعاصي على قارعة الطريق ، ففي الطريق نساء كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، والصحف فيها نساء شبه عاريات ، وكذا في المجلات كذلك ، وفي الإنترنت كذلك ، وفي الفضائيات كذلك ، وفي الجامعة كذلك ، وفي الدوائر كذلك ، كل شيء يدعو إلى المعصية ، حتى لو اشتريت علبة لمسح الحذاء ترى عليها صورة امرأة شبه عارية ، وهذا احتقار للمرأة ، وقد ثارت مظاهرات في العالم الغربي احتجاجًا على هذا الامتهان للمرأة ، فلا تروَّج سلعة إلا بامرأة شبه عارية .

(فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ)

هؤلاء السحرة الذين أتى بهم فرعون ليدعموه ، ليبطلوا عصا موسى التي أصبحت ثعباناً مبيناً صغروا، هو يفعل شيئاً فيه إيهام ، أوهم الناس أنه ثعبان بأنبوب مطاطي ، طلاءه متقن ، فيه زئبق ، الزئبق معدن رجاج ، على سطح ساخن ، تمدد الزئبق ، وتحرك ، حرك معه الأنبوب ، فتوهم الناس أنه ثعبان ، أما حينما ألقى سيدنا موسى عصاه كانت ثعبانا حقيقيا 100% ، والساحر يعلم أن هذا فوق طاقته ، أن هذا الإنسان ليس ساحراً ، لذلك قالوا :

(إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ)

(سورة الشعراء)

هو نبي مرسل .

(وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ)

(سورة الأعراف)

الخضوع لإرادة الله : وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ

هذا اسمه حرق المراحل ، هناك صحابي صلى ركعتين ، واستشهد ، وبين إسلامه واستشهاده ركعتان فقط ، وهو من أهل الجنة ، حرق المراحل ، هؤلاء سحرة دجالون أفّاكون ، جاءوا ليدحضوا معجزة سيدنا موسى ، فإذا هم يرون حقيقة هذا الذي حصل ، هذا ليس سحراً ، ولكنه معجزة ، وهذا الإنسان رسول الله .

مرة صفوان بن أمية جلس مع رجل أُسِر ابنه في غزوة بدر ، فحقد على الإسلام حقداً كثيراً ، في ساعة ألم قال له : " والله يا صفوان ، لولا ديون لزمتني ما أطيق سدادها ، ولولا أطفال صغار أخشى عليهم العنت منى بعدي ، لذهبت وقتلت محمداً ، وأرحكتم منه " ، صفوان استغلها ، وكان غنيًّا ، قال له : أما ديونك فهي علي بلغت ما بلغت ، وأما أولادك فهم أولادي ما امتد بهم العمر ، فاذهب لِما أردتَ، أعطاه الضوء الأخضر ، قلق على أولاده وعلى ديونه ؟ ديونك أنا أدفعها عنك ، بلغت ما بلغت، وأولادك أولادي ما امتد بهم العمر فاذهب لِما أردت ، سقى سيفه سماً ، وركب ناقته ، وتوجه إلى المدينة ، ما الحجة في دخولها ؟ جاء ليفدي ابنه ، ابنه أسير ، فلما وصل إلى المدينة رآه سيدنا عمر ، قال : هذا عدو الله عمير بن وهب ، جاء يريد شراً ، فقيَّده بحمالة سيفه ، وساقه إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، قال له : هذا عدو الله عمير جاء يريد شراً ، سيدنا النبي رقيق رفيق ، قال له : دعه يا عمر ، وأطلقه ، قال له : اقترب يا عمير ، فاقترب ، قال له : سلّم علينا ، قال له : عمتَ صباحاً ، قال له : قل: السلام عليكم ، قال له : هذا سلامنا ، بكل غلظة وفظاظة ، قال له : ما الذي جاء بك إلينا ؟ قال له : جئت أفدي ابني قال له : وهذه السيف التي على عاتقك ؟ قال له : قاتلها الله من سيوف ، وهل نفعتنا يوم بدر ؟ قال له : ألم تقل لصفوان : لولا ديون لزمتني ما أطيق سدادها ، ولولا أولاد صغار أخشى عليهم العنت من بعدي لذهبت وقتلت محمد ، وأرحتكم منه ، قال : أشهد أنك رسول الله ، هذا القول بينه وبين صفوان كان في الفلاة ، ولم يطلع عليه أحد ، قال له : هذا الذي كان بيني وبين صفوان لم يطلع عليه أحد ، وأنت رسول الله ، وتوضأ ، ونطق بالشهادة ، وأسلم .

أما صفوان فكان في غاية الفرح ، لأن أخبارا سارة سوف تأتي ، ما كان يومَها فضائيات ، ووكالات أنباء ، والخبر يتناقل في ثوان ، فكان الناس يذهبون إلى ظاهر المدينة ينتظرون الركبان ، كان كل يوم يخرج إلى ظاهر مكة ، حتى يسمع الخبر السار بقتل محمد ، فجاءه الخبر الذي سحقه ؛ قد أسلم عمير .

هذا ما حدَثَ للسحرة :

(وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ)

الحقيقة لمعَتْ أمامهم .

(وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ)

كان أصحاب النبي يطعمون الأسرة أطيب الطعام ، ويأكلون أرداه ، الإسلام ما انتشر بسهولة ، انتشر بجهد كبير ، انتشر بالالتزام صارم .

(وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ)

أتى بهم فرعون حتى يدعموه ، لكنهم خيَّبوا ظنَّه ، سجدوا لله .

قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ

(قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأعراف)

والله أيها الإخوة ، حينما تعرف الله ، وتعرف الحقيقة ، وتعرف سر وجودك ، وغاية وجودك ، والله هذا اليوم هو يوم عيد ، والله الذي لا إله إلا هو لا تسخو نفسي أن أقول لإنسان : هنيئاً لك ببيت سيتركه، بزوجة سيغادرها أو تغادره ، الآن كل واحد له زوجة ، فله احتمالان لا ثالث لهما : إما أن يموت قبلها ، وإما أن تموت قبله ، فأحبب من الدنيا ما شئت ، فإنك نفارقها .

(قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

أنا أقول : هنيئاً لمن عرف الله ، هنيئاً لمن عرف سر وجوده ، هنيئاً لمن عمل للآخرة .

(قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

(رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ)

(سورة الأعراف)

فرعون اختل توازنه ، هو تزعزع بسيدنا موسى ، لما ألقى عصاه ، فإذا هي ثعبان مبين ، وجمع الناس ، في يوم الزينة ، يوم عيد ، جمع الناس جميعاً ، وكان هناك طرفان : سيدنا موسى والسحرة ، ألقى السحرة عصيهم :

(يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى)

أما سيدنا موسى فألقى عصاه :

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

(فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ)

فرعون اختل توازنه ، هو تلقى ضربة قاسمة ، وهي ضربة ثانية .

(قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

الآن فرعون لا يخيف ، لكن لو كنتم في عهد فرعون ، فقد يكون الواحد أمام قوي ينهي وجوده ، دائماً القصة يجب أن تعيش أحداثها ، فرعون كان من الأقوياء ، إذا نظر إلى بإنسان يموت من الخوف ، لأن الطاغية مخيف .

الحسن البصري أدى أمانة العلم ، وبيّن الحق ، فقال الحجاج لجلسائه : " يا جبناء ، لأروينكم من دمه"، القضية بسيطة جداً ، أمر بقتله ، وانتهى الأمر ، جاء بالسياف ، السياف جاهز ، مدّ النطع ، مدة لئلا يصاب أثاث الغرفة ، كان الطغاة أو الأقوياء يقتلون خصومهم أمامهم ، ففي قطع الرأس دم ، هذا الدم سيفسد الأثاث الفخم ، فكان هناك رداء كبير جداً يسمى النطع ، فأمر بقتله ، فجاء بالسياف ، وجاء بالنطع ، ومدّه ، أرسل إليه ، وجاءوا به ليقتل ، فلما دخل إلى مجلس الحجاج ، ورأى السياف واقفا ، والنطع قد مُدَّ ، حرّك شفتيه بكلمات ، فإذا بالحجاج يقول له : أهلاً بأبي سعيد ، أنت سيد العلماء ، وما زال يدنيه من مجلسه حتى أجلسه على سريره ، وسأله ، وضيَّفه ، وعطَّره ، وشيّعه إلى باب القصر ، هناك شخصان صعقا ، هما الحاجب والسيّاف ، تبعه الحاجب ، قال له : يا أبا سعيد ! لقد جيء بك لغير ما فعل بك ، فماذا قلت لربك وأنت داخل ؟ قال له : قلت : يا رب ، يا ملاذي عندي عند كربتي ، يا مؤنسي في وحشتي ، اجعل نقمته علي برداً وسلاماً كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم .

إخواننا الكرام ، الإنسان إذا عرف الله كانت الدنيا لا شيء أمامه .

(قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

اسمعوا التهديدات :

هذه هي حلولُ المُفلسِين : لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ

(لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة الأعراف)

يقطع يده اليمنى ، ورجله اليسرى .

(ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)

بعدها يَصلبهم .

اسمعوا جواب السحرة ، وما رأوا قوته ، ولا رأوا بطشه ، ولا رأوا طغيانه ، ولا رأوا لحياتهم معنًى إذا كانوا أعواناً له .

جواب المؤمن بالله : إنَّا إلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ

(قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)

(سورة الأعراف)

القصة وردت في أماكن عديدة ، ففي بعض الأماكن :

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه)

هذا هو الإيمان ، فلذلك حينما تعرف الله لا ترى شيئاً في الدنيا له قيمة ، بل تصغر الدنيا في عينيك ، وتنتقل من قلبك إلى يديك ، والله الذي لا إله إلا هو إن لم يستوِ عندك التبر والتراب ، وهما الذهب والتراب أمام رضوان الله ففي بالإيمان خلل .

وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا

(وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا)

هذه آية كبيرة ، قديماً خرق القوانين آية ، وأنا قناعتي أن القوانين نفسها آية ، الشمس آية ، القمر آية ، الماء العذب الفرات آية ، البحر الملح الأجاج آية ، خلق ابنك آية ، بويضة كذرة الملح لا ترى بالعين آية ، ضع لعاباً على إصبعك ، ومس كمية ملح قليلة ، بأقلّ مسٍّ ، لترى طبقة من ذرات الملح ، البويضة إحدى هذه الذرات ، من الصعب أن تتصور حجمها ، والحوين المنوي أصغر منها بكثير ، بويضة ملقحة تصبح بعد تسعة أشهر طفلا له جمجمة ، ودماغ فيه 140 مليار خلية ، و300 ألف شعرة ، وعينان ، وقرنية ، وقزحية ، وجسم بلوري ، وماء زجاجي ، وشبكية ، والعصب البصري ، 900 ألف عصب ، و1500 كيلومتر من الأوعية الدموية ، وقلب يضخ في اليوم 8 أمتار مكعبة ، هذه ليست آية ؟ ابنك آية ، الماء آية ، الشمس آية ، النبات آية ، البقرة آية ، الدجاجة آية .

(وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)

هذا الشهيد حينما يقتل ، مع أول قطرة دم يضاء نور يملأ السماء والأرض عند استشهاده ، الشهادة شيء كبير جداً ، في رواية أنه قتلهم جميعاً ، لكن دخلوا إلى الجنة ، فيا بُنَي ، ما خير بعده النار بخير ، وما شر بعده الجنة بشر ، وكل نعيم دون الجنة محقور ، وكل بلاء دون النار عافية .

مهما كنت تملك من ثروات ، إذا انتهت بك الحياة إلى جهنم ـ لا سمح الله ولا قدر ـ فلا قيمة لكل هذه الدنيا ، مهما تكن معذباً في الدنيا ، إذا انتهت بك الحياة إلى الجنة ينبغي أن تقول : لم أرَ شراً قط .

((وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه ، إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها ، سقماً في جسده ، أو إقتاراً في رزقه ، أو مصيبة في ماله أو ولده ، حتى أبلغ منه مثل الذر ، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

إذا أوصلنا الله عز وجل إلى القبر طاهرين سالمين فهذا أكبر مكسب يحققه إنسان في الدنيا ، لذلك المؤمن حينما يأتيه ملك الموت ، ويرى مقامه عند الله يقول : لم أرَ شراً قط ، والآخر حينما يرى مكانه في النار ، يقول : لم أرَ خيراً قط ، وقد يصيح الذي استحق النار صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا.

رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ

(رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)

هؤلاء السحرة حرقوا المراحل ، وأنا أعتقد أن بين إيمانهم وموتهم لحظات ، هم استحقوا الجنة ، فكل واحد منا يفكر في المصير ، له عمل طيب ، له موقف .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(36-60): تفسير الآيات 117 - 129 ، تتمة قصة سيدنا موسى مع فرعون والسحرة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-04-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع الدرس السادس والثلاثين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية السادسة عشرة بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)

1 – ما هو الإفك ؟

الإفك هو قلب الحقائق ، الإفك هو الكذب .

2 – فرعون إنسان من عدم ويصير إلى عدم :

هم يدعّمون إنساناً ضعيفاً سبقه عدم ، وينتهي إلى عدم ، وهو يدّعي الألوهية ، قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

وقال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية : 38)

3 – إيهام السحرةِ الناس بسحرهم :

هؤلاء السحرة أرادوا بحيل أن يوهموا الناس أن هذه الأنابيب المطلية على شكل ثعابين ، وقد وضع بها الزئبق ، وقد وضعت فوق سطح ساخن ، فالزئبق تمدد ، وهو معدن رجراج ، وتحركت هذه الأنابيب ليوهموا الناس أنها ثعابين كما فعلوا أمام فرعون .

موسى عليه السلام يبطل بعصاه سحرَ الساحر :

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

(سورة الأعراف)

ثعبان حقيقي ، لذلك هم الآن يكذّبون ، ويقلبون الحقائق .

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)

سبحان الله ! ثعبان فغر فاه ، والتقم هذه الأنابيب كلها .

إذا أراد الله شيئا هيَّأ له أسبابَه :

هناك درس تلقاه فرعون ، وهو أن الذي أخبره أن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على مُلكه الله عز وجل من بديع حكمته أنه يعطل كل الأسباب ، فالطفل الذي سيقضي على ملكه ربّاه في قصره ، وألقى محبته في قلب امرأة فرعون .

(لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(سورة القصص)

أنت تريد ، وأنا أريد ، والله يفعل ما يريد .

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

أيها الإخوة ، حينما تعلم علم اليقين أن الله :

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

(سورة هود)

وأنه :

(فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية : 84)

وأنه :

(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)

(سورة البقرة الآية : 255)

وأنه بيده ملكوت السماوات والأرض ، حينما تؤمن هذا الإيمان تكون قد قطعت شوطاً واسعاً في طريق الإيمان ، هذا كلام يصعب أن يُفهم .

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ)

(سورة القصص الآية : 7)

أيتها الأم ، إذا خفتِ على هذا الجنين ، على هذا الطفل الصغير فألقيه من الشرفة ، هذا كلام غريب !

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

(سورة القصص الآية : 7)

موت محقَّق .

(وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

(سورة القصص)

هذان أمران ، ونهيان ، وبشارتان :

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ)

سوف نحفظه لا إكراماً لك فحسب بل لأن الله أوكله بمهمة الدعوة إليه ، هو في حفظ الله .

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور الآية : 48)

لكن الله عز وجل لحكمة بالغة ينجّي نبيه ، ومع نبيه دعوة ، ودين ، والإسلام كله انتصر بخيوط العنكبوت ، من عظمة الله ، وقد تكون النجاة بأصغر الأسباب ، وأحياناً يدمر الله أعداءه بأتفه الأسباب ، الله عز وجل يقول :

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

هذا العبد الفقير ، سأخاطب الشباب ، ومعظم الذين أمامي من الشباب ، أما المتقدمون في السن فهم شباب أيضاً ، لماذا ؟ أنت لمجرد أن تؤمن بالله العظيم فأنت شاب حتى الموت ، أنت شاب في الـ96 ، لأن الهدف كبير ، ومن معاني الشيخوخة حينما تحقق أهدافك المادية تنتهي ، ومعظم الناس همه الأول أن يشتري بيتًا ، وأن يتزوج ، وأن يأكل ، ويشرب ، ويفرح ، فإذا حقق هذه الأهداف انتهى ، إنها حياة مملة ، وكل شيء فيها يُمَلّ ، ولحكمة بالغةٍ ما سمح الله أن يمدك بمتعة مستمرة في الدنيا إطلاقاً ، إنها متعة متناقصة ، وقد تعقبها كآبة ، أما إذا توجهت إلى الله تألقت ، لذلك أنا أخاطب الشباب ، قياساً على هذين الأمرين ، والنهيين ، والبشارتين .

ما مِن آيةٍ تخصّ الأنبياء إلا وللمؤمن نصيب منها :

أريد أن أؤكد لكم أنه ما من آية تخص الأنبياء الكرام ، أو نبينا عليه الصلاة والسلام إلا ولك منها أيها المؤمن نصيب ، أنا أقول للشباب : ما دمت مستقيماً ، ما دمت موحداً ، ما دمت ملتزماً ، ما دمت صادقاً ، ما دمت أميناً ، ما دمت مخلصاً ، ما دمت تطلب العلم فلا تخَف ، مهما ساءت الأخبار ، ومهما

قيل : المستقبل مظلم ، لا ، المستقبل مشرق ، ومهما قيل : إن هناك مؤامرة على المسلمين ، بل على مستوى الأرض ، هذا كلام :

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

إن إخوة يوسف أقوياء ، أشداء ، أرادوا له أن يموت ، وضعوه في البئر ، ما الذي حصل ؟ أنه أصبح عزيز مصر ، دخلوا عليه وهم صاغرون .

(قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا)

(سورة يوسف الآية : 90)

سيدنا موسى ، سيدنا إبراهيم ، فإذا كان الله معك فمن عليك ظ وإذا كان عليك فمن معك ؟ واللهِ عندي قصص واقعية في هذا العصر لا تعد ولا تحصى عن شاب اتقى الله فهيأ له عملا ، وزوجة صالحة ، وبيتا ، وأهلا ، وأولادا أطهارا ، لك عنده حق ، دقق ، هذا الإله العظيم خالق السماوات والأرض أنشأ لك حقاً عليه ، فعَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :

((كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ ، فَقَالَ : يَا مُعَاذُ ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ ؟ قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))

[أخرجه البخاري ومسلم]

لا تقلق ، العالم الغربي ، ينهب ثرواتنا ، وييئسّنا بمجاعة عالمية ، ونقص مواد غذائية ، سوف يكون هناك اضطرابات من أجل غلاء الأسعار ، الله موجود ، أنا أدعوكم للكسب ، وللأخذ بالأسباب ، لكن لا تسمح لإنسان بعيد عن الله أن يوقعك في اليأس ، لك عند الله حق .

والله مرة دخل بيتي إنسان ، وقال كلمة والله أعرفها ، وأرددها مئات المرات ، لكنني بكيت منها ، قدمت له قطعة حلوى ، أخذ لقمة أولى منها ، ووضعها في فمه ، وقال : سبحان مَن قسم لنا هذا ، ولا ينسى من فضله أحدا .

وأنتِ أيتها الفتاة المؤمنة المحجبة الطاهرة لا ينساك الله ، إياك أن تتوهمي أن التفلت أحد أسباب زواجك ، قد تتزوجين مع التفلت ، لكن يأتي زوج يريك النجوم ظهراً ، فلا بد من الحجاب والاستقامة والعمل الصالح ، وأن تتعرفي إلى الله عز وجل الذي يقول :

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

(سورة الرحمن)

جنة في الدنيا ، وجنة في الآخرة ، رغم أنف التهديدات بالحصار ، وبالحرب ، وبالضغط .

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

أقول هذا الكلام : إن هناك الآن حالة إحباط عند المسلمين ، العالم كله يهاجمه ، العالم كله يهدده ، وادعاءات ، لكن علاقتنا بالله ، والذي خلقنا لا يسْلمنا إلى أحدٍ ، لأنه إلهنا ، وربنا ، دقق في هذه الآية :

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الزمر)

عليك أن تطيعه ، وانتظر الخير ، وبعدها اشكره على هذا الخير ، علق أملك بالله ، اتق الله ، اعقد الأمل على الله ، توكل على الله ، عليك أن تستقيم على أمره ، وعلى الله الباقي ، يا رب طالبتني بالطاعة فأنا أطيعك ، طالبتني بضبط اللسان فأنا أضبط لساني ، طالبتني بالصدق فأنا أصدق إن شاء الله ، طالبتني أن أكون أميناً فأنا أمين إن شاء الله ، هذا الذي عليك ، والباقي على الله .

هذا الإيمان يعطي راحة للنفس ، أما القلق ، وسماع التهديدات ، وتارةً الحصار ، وتارةً الهجوم ، وتارةً العزل ، وتارةً نقص مواد ، وتارةً ارتفاع أسعار ، هذه الأخبار فوق طاقتنا ، يجب أن نوحد أنْ لا إله إلا الله .

الإنسان عزيز بمَن ينتمي إليه :

بشكل أو بآخر أنت مع مَن ؟ مع خالق السماوات والأرض ، فقد يكون سائق وزير يمشي بكبرياء ، ولسانه طويل ، ويهدد ، ويتوعد ، وقد يكون موظفًا في الخارجية ، يقول لك : عينًا فلان في الخارجية ، أنت مَن ؟ أنت مستخدم بالوزارة ، يعدّ نفسه جزءا منها ، عينا فلانًا سفيرًا ، مَن أنت ؟ الإنسان ينتمي أو يعتز إلى مَن ينتمي إليه ، أنت كمؤمن أنت مع من ؟ مع خالق السماوات والأرض ، مع الذي منحك نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الهدى والرشاد .

كن مع الله تـر الله مــعك و اترك الكل وحاذر طمــعك
وإذا أعطاك مـــن يمنعه ثم من يعطي إذا مـــا منعك

***

أطع أمرنا نرفع لأمرك حجبنا فإننا مــنحنا بالرضا من أحبنا
ولذ بحمــانا واحتم بجنابنا لنحميك ممــا فيه أشرار خلقنا
وعن ذكرنا لا يشغلنك شاغل وأخلص لنا تلقَ المـسرة والهنا
وسلم الأمر إلينا في كل ما يكن فما القرب و الإبعاد إلا بأمــرنا
فيا خجلي مــنه إذا هو قال لي يـــا عبدنا هل قرأت كتابنا
أمـا تستحي منا ويكفيك ما جرى أما تختشي من عتبنا يوم جمــعنا

أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً و تنظر مـــا به جاء وعدنا

***

الأبيات طويلة ، لكن أيها الإخوة ، المسلمون اليوم في أمسَّ الحاجة إلى التوحيد ، فإنه لا إله إلا الله ، والله كبير ، لذلك كلمة :

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ)

(سورة طه الآية : 72)

من هؤلاء السحرة هل هي قليلة ؟ ماذا رأوا ؟

أحيانا مواطن في دولة نامية يخاف من مُساعد ، قال له : أعطني هويتك ، يخاف ، لكن السحرة خاطبوا فرعون :

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ)

بالتعبير الدمشقي : يدك وما تعطيك .

(إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آَمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه)

الرجوع إلى الله ، وعنده تحتكم الخصومُ :

سمعت قصة تأثرت لها كثيراً ، لعلي رويتها من قبل ، لما ذهبت إلى تركيا أعطوني كتابا فقرأته ، فيه قصة مؤثرة ، هي لعالم جليل من العلماء الورعين الأتقياء العاملين المخلصين ، ألّف كتابا صغيرا عن حرمة التشبه بغير المؤمنين ، أخذ الكتاب موافقة على التأليف ، وموافقة على الطبع ، وموافقة على النشر ، وكما تعلمون كمال أتاتورك منع اللباس الإسلامي كلياً ، وأمر باللباس الغربي ، حتى القبعة أمر بنزعها ، فإذا الكتاب في الأسواق ، هذا الكتاب يحرم من تقليد الأجانب ، أُخِذ هذا العالِم وأودع في السجن ، هذا العالم معه منطق ، معه حجة ، أنا ألفت الكتاب سابقاً ، والكتاب مرخص في التأليف ، والطبع ، والنشر ، والتداول ، أين الذنب ؟ بدأ بكتابة مذكرة ، راوي القصة صديقه في السجن ، أنه كتب 80 صفحة ، ومعه أدلة قوية ، أين الذنب ؟ نحن في العالم كله ممنوع أن تعمل القوانين بمفعول رجعي ، وهذا كتاب قديم ، ومؤلف سابقاً ، وله تراخيص ، فأين الذنب ؟ يقول رفيقه في السجن : في أحد الأيام استيقظ هذا الإنسان بحال عجيب ، بحال من السرور والإشراق ، وجهه متهلل ، يكاد يرقص من الفرح ، قال له صديقه : ما القصة ؟ قال له : رأيت رسول الله في النوم ، وقال لي : أنت ضيفنا

غداً، أمسك الأوراق ومزقها ، 80 صفحة ، يصبح بحاجة إليها ، ثاني يوم أعدم شنقًا ، لكن انظر إلى الحقيقية ، انظر إلى الظاهر .

هؤلاء السحرة قتلوا ثاني يوم ، قتلهم فرعون ، إلى أين ؟ .

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة آل عمران)

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة الزخرف)

المشكلة أن الناس المقصرين يرون الموت أكبر مصيبة ، والله أيها الإخوة قرأت تقريباً ، ودرست سيرة سبعين صحابيًّا ، في هذه السِّيَر كلها قاسم مشترك واحد بينهم جميعاً ، أنهم كانوا في أسعد لحظات حياتهم عند لقاء ربهم .

وا كربتاه يا أبتِ ، قال : لا كرب على أبيك بعد اليوم ، غداً نلقى الأحبة محمد وصحبه .

مَن واجه هؤلاء السحرة ؟ لم يواجهوا مساعدا ، واجهوا فرعون :

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

نقطة دقيقة : مرة وزير الدفاع الصهيوني اسمه موشي ديان ، دخل بعض الفدائيين ، وعملوا عملا هز إسرائيل ، فكان في جلسة برلمانية ، فالنواب تهجموا على هذا الوزير ، أين عملك ؟ أين جيشك ؟ قال له كلمة رائعة ، قال : أنا أقصى ما أملك أن أهدد الإنسان بالموت ، بأن أقتله ، فإذا جاء ليموت ماذا أفعل به ؟!

(فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ)

(سورة طه الآية : 71)

جاء الفرج ، وهذا مقصدنا .

(إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه)

حينما يزهد الإنسان في الدنيا يكون قويا جداً ، وحينما يعلق أمله بالآخرة يصبح إنساناً فذاً .

أيها الإخوة ، لما قال سيدنا موسى : أنا رسول الله ، هذه نسبة كلامية ، تقول : محمد مجتهد ، مجتهد خبر ، محمد مبتدأ ، نسبة كلامية نصية ، أما إذا ذهبت إلى مدرسته ، وسألت عن علامته ، وكان الأول صارت نسبة أخرى واقعية .

فسيدنا موسى قال : أنا رسول الله .

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

(سورة الأعراف)

بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ

وهذا الثعبان أكل كل سحر السحرة ، وأنابيب الثعابين المتوهمة ، وعرف فرعون أنه إنسان آخر فذ ، لا أنه إنسان طبيعي .

تروى قصة ، أن رجلا يعمل حمَّالاً على حمار ، هذا الحمار مات ، فأصبح بلا دخل إطلاقاً ، هو ذكي جداً ، فخطر في باله فكرة جهنمية ، بنى أربعة أسوار ، وقبة خضراء ، وسمّى هذا الحمار باسم ولي ، سماه الشيخ زنكي ، وجاء الناس ، وتباركوا بهذا الولي ، وقدموا الذبائح ، وقدموا الدجاج ، والسمن ، هذا عاش في بحبوحة تفوق حد الخيال ، أنا أقول : هل هناك قوة في الأرض يمكن أن تقنعه أن الذي دفِن تحت هذه القبة حمار ؟ هو دفنه بيده ، بل قناعته أنه حمار أكبر ممن يحاوره ، لكن المنتفع لا يناقش ، والقوي لا يناقش ، والغبي لا يناقش ، وقد يجتمعون في شخص واحد .

فرعون عرف نفسه إنسانا عاديا ، ويمرض ، ومرة سمعت طبيبا من نيكادو الذي يدعي الألوهية أنه أسلم ، معه في جسمه خمسون علة ، وهو إله ، بزعمه !!! أين الإله ؟ كل إنسان يعرف نفسه .

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة)

فلذلك تطابق عند السحرة دعوى هذا الإنسان العظيم مع الواقع ، هذه ليست قضية سحر ، إنه ثعبان حقيقي ، أكل كلّ حبالهم وعصيَّهم .

لا يقف الباطلُ أمام الحق : فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

أيها الإخوة ، ما الذي حصل ، قال :

(فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الأعراف)

فرعون أوهم الناس أنه إله ، وهو ربهم الأعلى ، وليس لهم مِن إله غيره ، هذا الوهم تتضعضع :

(فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

الواقع أقوى من الفكر النظري :

لذلك أقوى شيء في الدين أن يكون الدين واقعياً ، الآن يقال : مثاليات ، أحلام ، خيالات ، أما إذا ركل إنسان بقدمه الملايين ، وقبل بدخل محدود ، لكنه نظيف ، وعاش معك ، فهذا أقوى من مليون محاضرة ، دائماً الواقع أقوى من الفكر النظري .

لماذا أحتفل بالقصص ؟ القصة حقيقة مع البرهان عليها ، حقيقة لكن معها برهان ، بل أحتفل بقصة معاصرة بالذات ، لماذا ؟ هذا الذي يعيش معنا ، يتحمل الضغوط التي نتحملها ، وهو واقع تحت قوة الإغراءات التي نقع تحتها ، يستمع إلى الأخبار التي نستمع إليها ، ومع ذلك وضع الدنيا تحت قدمه . إن أكبر قصة مؤثرة لإنسان يعيش معنا ، واتقى الله ، وركل بقدمه الدنيا من أجل الدين ، فملك الدنيا والدين معاً ، لذلك اعمل لوجه واحد يكفيك الوجوه كلها .

((من جعل الهموم هما واحدا كفاه الله هم دنياه))

[أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عمر]

(فَوَقَعَ الْحَقُّ)

فَوَقَعَ الْحَقُّ : إسقاط على واقعنا اليوم :

والآن أيها الإخوة أنا أسلط هذه القصة على واقعنا ، الحق الآن ظاهر، إذا كان قبل خمسين سنة حق ناصع لونه أبيض ، وباطل داكن لونه أسود ، و بينهما مساحة كبيرة جداً لونها رمادي ، فهذا شيء يحيّر ، حق مع باطل ، باطل مع حق ، بنسب متفاوتة ، الآن عندنا ظاهرة جديدة ، حق أو باطل ، إمّا إنسان ولي أو إباحي ، إمّا أكبر محسن أو أكبر مجرم ، إمّا أكبر صادق أو أكبر كذاب ، إمّا أكبر رحيم أو أكبر مجرم ، العالم انقسم قسمين : قسم يؤمن بالله ، لكنه ضعيف الآن ، وأنت ضعيف ، وهذا سر قوتك ، والقسم الآخر قوي جداً ، معه 90% من ثروات الأرض ، معه الإعلام ، معه المال ، معه كل شيء ، يتكلم كما يشاء ، يوزع التهم على من يشاء ، يتهم من يشاء أنه إرهابي ، هم يفعلون كل شيء ، هذا الواقع الآن ، العالَم انقسم قسمين : أناس إنسانيون ، وأناس عنصريون ، أناس مع وحي السماء ، وأناس مع مصالح الأرض ، أناس مع الدنيا ، وأناس مع الآخرة ، أناس صادقون ، وأناس كاذبون ، أناس أمناء ، وأناس خائنون .

المشكلة أيها الإخوة أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال :

((كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن المنكر ؟ قالوا : يا رسول الله وإنَّ ذلك لكائن ؟ قال : نعم ، وأشدُ ، كيف بكم إذا أمرتُم بالمنكر ، ونهيُتم عن المعروف قالوا : يا رسول الله وإنَّ ذلك لكائن ؟ قال : نعم ، وأشدُّ كيف بكم إذا رأيتُمُ المعروفَ منكرا والمنكرَ معروفا))

[زيادات رزين عن علي بن أبي طالب]

فرعون صغُر ، دعواه أنه رب الناس ، ربهم الأعلى ، وما من إله غيره سقطت كلها ، لأن السحرة قالوا :

(فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ

(فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ)

(سورة الأعراف)

ودائماً المؤمن قوي ، والآخر ضعيف وصغير ، وسيدنا موسى ما غلب السحرة ، بل غلب مَن يدعم السحرة ، فرعون أمامه ، وفي رواية أن الثعبان بعدما أكل كل ما أمامه مِن أنابيب ، ومن عصِيّ ، ومن حبال ، توجَّه نحو فرعون ، وفغر فاه ، فقطع قلب فرعون ، أين : أنا ربكم الأعلى ؟ هذا الشاعر المشهور الذي ادعى النبوة ، المتنبي ، قال :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

في طريقه من البصرة إلى حلب لحقه عدو ، فهرب منه ، قال له غلامه : ويحك ، ألم تقل : الخيل والليل ؟ فقال له : قتلتني قتلك الله ، ورجع فقاتل حتى قُتِل .

الادعاء سهل :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

تقطع قلبُه من الثعبان :

(فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ)

لا إله إلا الله .

وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ

(وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ)

(سورة الأعراف)

روعة تعبير القرآن : وَأُلْقِيَ

دقق في كلمة

(وَأُلْقِيَ)

، كأن شيئاً دفعهم نحو الأرض ، ما هذا الشيء ؟ قال بعض المحللين : إنها دهشتهم ، هم سحرة ، هذا ليس ساحرا ، هذا رسول ! فانبهروا .

أنا أذكر قصة سمعتها قبل أسابيع ، صحفية بريطانية خُطفت ، الذين خطفوها هويتهم إسلامية ، فهي تحقد على الإسلام كثيرا ، وعلى هذا العمل العنيف ، فحينما أسرت تفننت في إحراجهم ، طلبت دخانا

فقدموه لها ، والأكل النادر جاءوا به ، أكرموها تكريما عجيبا ، بل استفزتهم بخلع ملابسها أمامهم ، فغضوا أبصارهم عنها ، و القصة طويلة ، لم تدع شيئاً يستفزهم إلا وفعلته ، وكانوا لها بأعلى درجة من الإكرام ، بحسب تعليمات النبي ، كان الصحابة الكرام يأكلون أردأ الطعام ، ويطعمون أسراهم أطيب الطعام ، الأسير إنسان ، لما أطلق سراحها عقدت مؤتمر صحفياً ، هي انبهرت ، في بذهنها أن هؤلاء إرهابيون ، قتلة ، جهلة ، متخلفون ، رأتهم كالملائكة ، أول كلمة قالتها في المؤتمر الصحفي : أشهد أن لا إله إلا الله أن محمداً رسول الله ، والآن هي أكبر داعية في بريطانيا .

هناك انبهار ، هؤلاء السحرة انبهروا ، ليست قضية سحر ، هذا رسول من الله ، هذا فعل الإله ، فعل الخالق ، دعك من هذا الاستثناء ، دعك من خرق العادات ، هذا الكون ألا توقن أن وراءه إله عظيم ، الشمس آية عظيمة ! عمرها خمسة آلاف مليون سنة ، وستبقى أيضاً خمسة آلاف مليون أخرى ، فاطمئِنوا ، لسان اللهب طوله مليون كيلومتر ، القمر آية ؟ الليل والنهار ، البحار ، الأسماك ، الأطيار ، النبات ، الطعام ، الشراب ، الهواء ، هذه آيات ، والحقيقية كلما تقدم الإنسان فالكون بوضعه الراهن أكبر معجزة ، وقديماً الذي يُظَن معجزة هو خرق النواميس والقوانين ، الكون بوضعه الراهن أكبر معجزة .

(وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ)

مَن ألقاهم ؟ انبهارُهم .

قَالُوا آَمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ

(قَالُوا آَمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأعراف)

ماذا قال فرعون ؟

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

حتى لا يتوهم أنهم آمنوا بفرعون قالوا :

(آَمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

(رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ)

(سورة الأعراف)

موسى أنا ربيته

(رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ)

يعني ليست أنت يا فرعون ، هذا كلام دقيق جداً :

(آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ)

سبيل الطغاة عند الشعور بالخطر هو التهديد بالقتل :

(قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

ماذا عنده فرعون ؟ قال :

(لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة الأعراف)

شيء صعب جداً ، يد يمين ، ورجل يسار

(ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)

(قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ)

(سورة الأعراف)

قال فرعون :

(قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ)

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

ما هو ذنبنا ؟ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا

(وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)

(سورة الأعراف)

ما الذنب الذي ارتكبناه :

(إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا)

فلان ذنبه أنه صادق ، هذا اسمه في اللغة تأكيد المدح بما يشبه الذم .

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهن فلولٌ من قراع الكتائب

فلان بخيل إلا أنه لئيم ، هذا تأكيد الذم بما يشبه المديح ، قال النبي عن نفسه :

((أنا أفصح العرب قال ، بيْدَ أني من قريش))

[ورد في الأثر]

قريش أفصح قبيلة ، هذا تأكيد المدح بما يشبه الذم ، وهو أسلوب بلاغي قرآني ، قال تعالى :

(وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)

لابد من الصبر حتى نلقى الله عزوجل :

إخوانا الكرام ، في كلمة : بدأت الحرب بالإنسان ، ثم أصبحت بين آلتين ، ثم بين عقلين ، ثم انتهت بالإنسان ، وهناك كلمة قالها مسئول كبير في دولة كبرى هي قطب العالم اليوم ، قال : ماذا نفعل بحاملات الطائرات ، والصواريخ العابرة للقارات ، لا تجرؤ دولة في العالم أن تحاربهم ، ولكن ماذا نفعل بهذا الإنسان الذي أراد أن يموت ؟ وأن يهز كياننا ؟

كل ما يملك فرعون على السحرة أنه سيقتلهم ، فإذا قُتلوا انقلبوا إلى رحمة الله .

((أعْدَدْتُ لعباديَ الصالحين ما لا عين رأتْ ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ)

(سورة التوبة الآية : 52)

إما الشهادة أو النصر ، وكلاهما شيء رائع جداً ، المؤمن أحد أسباب قوته أنه مؤمن بالآخرة ، مؤمن بحياة أبدية ، مؤمن بجنة عرضها السماوات والأرض أعدها الله له ، لا يعيش للدنيا ، آماله ليست في الدنيا ، بل للآخرة ، هذا أحد أكبر أسباب قوته .

مرة حاكم من التتار أراد أن يذل العلماء ، فجاء بلحم خنزير أمام ملأ كبير ، وجمع الناس ، وأمرهم أن يأكلوا منه ، كل واحد على حسب قوة إيمانه وضعفه ، بعضهم مضطر ، وأكثرهم أكل ، إلا أكبر عالم رفض أن يأكل ، فجاء من يهمس في أذنه ، أن هذا اللحم من أجلك ليس خنزيراً ، كل ولا تخف ، قال له : هو عند الناس خنزير ، فإذا أكلته سقط العلم ، ولم يأكله وقتِل ، وأبقى أملا في الناس .

هناك إنسان يجهر بكلمة الحق ، فتكلم .

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآَلِهَتَكَ

كلُّ منتفعٍ بفكر فرعون يحاسَب حسابَه :

هنا نقطة دقيقة ، كل واحد منتفع بفرعون سيحاسب مثله ، الدليل :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

(سورة القصص)

وهؤلاء المنتفعون بقربهم من هارون في مكاسب كبيرة ، فإذا ظهر الحق أنه ليس إلهاً ضاعت مكاسبهم ، لذلك :

(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآَلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ)

(سورة الأعراف)

هم استفزوه ، القوي معه جماعة ، معه من حوله ، هؤلاء جميعاً منتفعون وسيحاسبون طبعاً :

(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآَلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ)

طمأنهم ، لكن الذي حصل .

قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا

(قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

والآن أيها الإخوة ، والله أتمنى أن تكون هذه الآية في قلوبنا جميعاً :

شعار المؤمنين : اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا

(اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا)

لا تخافوا ، الله موجود ، الله كبير ، بيده كل شيء ، ولن يتخلى عن المؤمنين ، لكن يؤدبنا ، نحن معنا التهاب معدة حاد ، الأمل في الشفاء كبير جداً ، أما الطرف الآخر فمعه ورم خبيث منتشر ، قال له : كل ما شئت ، أما نحن فعلينا تشديد جداً ، كل شِدّة وراءها شَدّة إلى الله ، ومحنة وراءها مِنحة من الله .

إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ

(إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

هؤلاء صناديد قريش ، الأقوياء ، الأغنياء ، الغارقون في شرب الخمر ، وأكل الربا ، الذين أرادوا قتل النبي ، وأخرجوه من مكة ، مَن تبع النبي ؟ الضعاف ، الشباب الصغار ، الفقراء ، تقول الآن : سيدنا بلال رضي الله عنه ، وتقول : أبو لهب لعنه الله ، أليس كذلك ؟

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

(سورة المسد)

كن مع الله ترَ الله معك ، كن مع الله ولا تخَف .

التفسير التوحيدي للمصائب غير مقبول عند الناس :

أيها الإخوة ، عندنا حالة صعبة جداً ، التفسير التوحيدي للمصائب غير مقبول .

(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ)

(سورة الزمر الآية : 45)

(وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا)

(سورة غافر الآية : 12)

(قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)

(سورة الأعراف)

وفي درس آخر إن شاء الله نقف عند هذه الآية ملياً .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(37-60): تفسير الآيتان 130 - 131، تأتي المصائب تأديباً من الله عز وجل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-04-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم ... مع الدرس السابع والثلاثين من دروس سورة الأعراف .

نسبة المصائب إلى النعم قليلة لذلك يؤرخ بها :

مع الآية الثلاثين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

أيها الأخوة ، السنة هي العام ، والسنوات جمع سنة ، والسنين والسنون جمع آخر ، عندنا جمع مذكر سالم ، وجمع مؤنث سالم ، وجمع تكسير ، لكن هنا السنين المصائب لماذا ؟ السنوات الاعتيادية تتابع ، لكن في يوم خطير يؤرخ به .

التاريخ المعاصر يقول لك : الحادي عشر من أيلول هذا يوم قبله في سياسة ، وبعده في سياسة ، الأصل أن النعم تترا على الإنسان ، لكن المصائب نسبتها إلى النعم قليلة جداً ، إذاً يؤرخ بها ، هذا معنى

(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ)

لأن الله عز وجل ثبت وحرّك ، ثبت ملايين ملايين القوانين ، قانون الدوران ، قانون السقوط ، قانون الجاذبية ، قانون التميع ، قانون الانصهار ، ثبت ملايين القوانين ، ثبت حركة الأفلاك ، ثبت خصائص المواد ، ثبت خصائص النفس الإنسانية .

الله عز وجل ثبت بعض القوانين و حرك بعضها لحكمة منه :

طبيب درس بأمريكا ، يعمل بعقد عمل في الخليج ، عنده مريض من الهند ، الدواء صنع الصين ، لولا أن البنية التشريحية للإنسان واحدة ، مكان الشريان ، مكان الوريد مكان العصب ، لولا أن البنية التشريحية للإنسان موحدة ، ولولا أن الوظائف الفيزيولوجية موحدة ما كان في طب أساساً .

لو تتبعنا هذا الأمر ، القلب من أجل أن يجري عملية قلب مفتوح نحتاج إلى أن نوقفه ، نوقفه بالتبريد ، يقف ، نجري هذه العملية ، نرقع شرياناً ، نزرع شرياناً ، نرقع دساماً ، نزرع دساماً ، وننتهي بعد سبع

ساعات ، نعطيه صعقة كهربائية يتحرك ، لو لم يتحرك ، لو أن القلب مصمم أنك إذا بردته لا يتحرك ألغيت عمليات القلب كلها ، لو أن العظم لا يلتئم ألغيت عمليات جبر العظام .
فالإنسان في أصل خلقه يعني :

(فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(سورة التين)

عنده صيانة ذاتية ، سمعت بحياتك أن إنساناً كُسر معه عمود في سيارته ، فذهب إلى من يصلحه له قال له : تلتئم وحدها ؟ مستحيل !.

الله عز وجل حرك الصحة والرزق ليكون التأديب عن طريقهما :

إذاً الله ثبت القوانين ، والخصائص ، البذور هي هي ، تزرع جوزاً تحمل جوزاً تزرع فستقاً تحمل فستقاً ، لو أن الحديد يغير خصائصه ، ننشئ بناء ثلاثين طابقاً ، غيّر خصائصه الحديد ، من حالة إلى حالة وقع البناء ، ما الذي يمنحك الأمن ؟ بناء لن يتزعزع ، إلا إذا شاء الله طبعاً ، يوجد قوانين ثابتة ، خصائص المعادن ، خصائص المواد ، خصائص أشباه المعادن ، قوانين الدوران ، قوانين الأفلاك ، قوانين الفيزياء ، قوانين الكيمياء ، قوانين الضوء قوانين الحركة ، كل هذه القوانين ثابتة ، ثبات سرمدي أبدي ، لذلك المحصلة استقرار ، عددنا قوانين ، عندنا مقدمات ، عندنا نتائج .
لكن الله عز وجل لأنه رب العالمين حرك أشياء بحياة الإنسان ، حرك له صحته ، وحرك له رزقه ، فالصحة غير ثابتة ، يكون في أعلى درجات نشاطه تنمو بعض الخلايا نمواً عشوائياً ، انتهت حياته ، فالله عز وجل حرك الصحة وحرك الرزق ، ليكون التأديب عن طريقهما .

التهطال والجفاف يوزع من الله عز وجل على البلاد تربية وتأديباً :

(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ)

أمطار غزيرة جداً ، محاصيل وفيرة ، نحن بلدنا الطيب في عنا تقريباً ستة ملايين طن كل سنة ، وحاجتنا إلى مليون طن ، عنا ستة أضعاف حاجتنا ، مع أن المطر الذي يهطل من السماء لا تختلف من عام إلى عام على مستوى الأرض وهذه حقيقة من أدق الحقائق ، بعد وضع مقاييس للمطر في أنحاء العالم لو جمعنا الأمطار التي هطلت في كل البلاد نفاجأ بأنه ما من عام أمطر من عام ، كما قال سيد الأنام :

((ما من عام أمطر من عام))

[أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عباس]

لكن الله يوزع التهطال والجفاف على البلاد تربية وتأديباً ، ودائماً وأبداً تقنين الله عز وجل تقنين تأديب، لا تقنين عجز ، الدليل :

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

(سورة المائدة الآية : 66)

القرآن الكريم منهج من الله تعالى علينا تطبيق أوامره لا أن نقدسه ظاهرياً فقط :

نحن كمسلمين ولو أننا أقمنا القرآن الكريم ، طبعاً ممكن نقرأه ، ممكن نتبارك به ، ممكن أن نضعه في مقدمة مركبتنا ، أو ممكن أن نضع آيات في صدر محلاتنا :

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)

(سورة الفتح)

لكن هذا العرض ، وهذا التقديس الظاهري ، وهذه الطبعات الرائعة الملونة هذه لا تقدم ولا تؤخر ، لأن القرآن منهج .

شخص مريض وزار طبيباً وصف له أدوية ، جاء بهذه الورقة التي عليها خط الطبيب اعتنى بها ، جعل لها برواز ، وعلقها في غرفته ، قال : يا له من طبيب ! أدويته ناجحة جداً لكن ما اشترى الدواء ، ولا استعمله ، العناية بهذه الورقة ، وتغليفها ، ووضع إطار لها ، هل يشفي صاحبها ؟ هذا حال المسلمين اليوم .

القرآن نقرأه ، نضعه في مكان مقدس في بيتنا ، في الصدر ، في مكان مرتفع ، لكن القرآن يجب أن يُعمل به :

((رب تالٍ للقرآن ، والقرآن يلعنه))

[ورد في الأثر]

الشدائد التي تصيب الإنسان رسائل من الله تعالى ليرجع إليه و يتوب :

إذاً :

(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ)

لأن الله رب العالمين ، الله يؤدبنا ، يربينا ، لو أن الناس شردوا عن الله والله تركهم ، لكان معظم الناس من أهل النار ، لكن الله عز وجل يسوق الشدائد ، يضيق على عباده ، يقلل الأمطار .

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ)

(سورة الأنعام الآية : 65)

هذه الصواعق ، وحديثاً الصواريخ .

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

(سورة الأنعام الآية : 65)

الزلازل ، وحديثاً الألغام .

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً)

(سورة الأنعام الآية : 65)

الحروب الأهلية .

(وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام الآية : 65)

الله عز وجل رب العالمين ، يسوق لعباده الشدائد حتى يرجعوا إليه ، حتى يتوبوا إليه ، حتى يصطلحوا معه ، حتى تكون هذه الشدائد رسالة من الله لهم .

اطمئنان المستقيم و خوف الظالم في البلاد العادلة الطيبة :

(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ)

أحياناً الإنتاج الزراعي بكم هائل الأسعار تنخفض ، من أسماء الله الحسنى المسعر ، الله هو المسعر ، وأحياناً تقل هذه المحاصيل الأسعار ترتفع .

لذلك دخل مرة على عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي وفد ، تقدمهم غلام صغير فلما رآه غضب ، فتوجه إلى حاجبه وقال : ما شاء أحد أن يدخل عليّ حتى دخل ، حتى الصبيان ! فهذا الصبي الصغير كان فصيحاً ، قال له : أصلح الله الأمير ، إن دخولي عليك لم ينقص من قدرك ، ولكنه شرفني ، أصابتنا سنة أذابت الشحم ، في عظم ، في لحم ، في شحم أول سنة أذابت الشحم ، وسنة أكلت اللحم (بالتعبير الدارج جلدة وعظمة) ، وسنة دقت العظم جفاف ، سنوات عجاف ، وبيدكم فضول أموال ، فإن كانت لعباده فعلامَ تحبسونها عنهم ؟ نحن عباده ، وإن كانت لكم تصدقوا بها علينا ، وإن كانت لنا نحن أحق بها ، فقال هذا الخليفة : والله ما ترك لنا هذا الغلام في واحدة عذراً ، فصاحة ما بعدها فصاحة .

أنا مرة ذكرت غلاماً صغيراً ، رسم منهج دولة ، أطفال في أحد أزقة المدينة يلعبون رأوا سيدنا عمر ، كان ذا هيبة كبيرة ، تفرقوا إلا واحداً منهم ، لفت نظره ، لما وصل إليه قال : أيها الغلام لمَ لم تهرب مع من هرب ؟ قال له : أيها الأمير لست ظالماً فأخشى ظلمك ولست مذنباً فأخشى عقابك ، والطريق يسعني ويسعك .

البلاد الطيبة المباركة يجب أن يطمئن المستقيم ، وأن يخاف المذنب ، فأنت لست ظالماً فأخشى ظلمك ، وأنا لست مذنباً فأخشى عقابك ، والطريق يسعني ويسعك .

أصناف المصائب :

أيها الأخوة الكرام ،

(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ)

المصائب يمكن أن تصنف خمسة أصناف ، صنفان للمؤمنين ، وصنفان للعتاة والمجرمين ، وصنف للأنبياء المرسلين ، أما صنفا المصائب التي تصيب المؤمنين مصائب الدفع ، سرعة بطيئة ، في تكاسل، في تواني ، في إهمال ، فتأتي مصيبة تدفعك إلى باب الله ، وأحياناً ترضى بعمل صالح قليل مع أن إمكانياتك أن تعمل عملاً صالحاً كبيراً ، المصائب الأولى مصائب دفع ، أما الثانية رفع ، فالله عز وجل يسوق للمؤمنين بعض المصائب ليدفعهم إلى بابه ، أو ليرفع مستوى أعمالهم الصالحة ، الآية قال تعالى :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

(سورة البقرة)

لأن الله يحبنا ، لأن الله يريد أن يرحمنا ، لأن الله يريد أن يتوب علينا ، لأن الله يريد أن يطهرنا ، لأن الله خلقنا لجنة عرضها السماوات والأرض ، يريد أن يؤهلنا إليها ، يسوق لنا هذه المصائب .

((وعزتي وجلالي لا أقبض نفس عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه ، إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده ، أو اقتاراً في رزقه ، أو مصيبة في ماله أو ولده ، حتى أبلغ منه مثل الذر ، ما من عثرة ، ولا اختلاج عرق ، أو خدش عود إلا بما قدمت أيديكم ، حتى أبلغ منه مثل الذر ، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت ، حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

تتابع المصائب على المؤمن من أجل تطهيره :

أقسم لكم بالله أن المؤمن الذي تأتيه المصائب متتابعة من أجل تطهيره معنى ذلك أن الله يحبه . كنت مرة بتركيا بمتحف توبي كبي ، في ألماسة بحجم البيضة ، قالوا : إن ثمنها يزيد عن 150 مليون دولار ، القصة من عشرين سنة ، الآن أغلى بكثير ، 150 مليون ، والألماس أصله فحم ، لو أتينا

بفحمة بحجم هذه الألماسة كم هذه ثمنها ؟ ليرة ما في ، والألماس أصله فحم من شدة الضغط أصبح ألماساً ، الآن في ألماس صناعي ، فحم مضغوط يسمونه زيركون ، فالفحم على الضغط الشديد ، وعلى المعالجة الشديدة ، وعلى الحرارة الشديدة ، صار ألماساً .

وأنت أيها المؤمن كلما أخطأت يأتي التأديب ، أحد إخواننا عنده معمل ألبسة متواضع ، أخ كريم علم أن عنده معمل ألبسة ، قال نشتري من عنده على العيد ، عنده أولاد ودخله محدود قال له : أريد لهذا الولد، انزعج صاحب المعمل ، يبيع جمله هو ، يبيع مئتي دزينة ، ثلاثمئة دزينة كيف قطعة قطعتين ؟! قال له: أنا لا أبيع مفرق ، قال له : لا تؤاخذني بكل أدب انسحب ، أقسم لي بالله : 33 يوماً ما دخل لمعمله إنسان ، تكبرت أن تبيعه ؟ قطعة واحدة أو قطعتين ؟ بعد هذا الدرس يبيع قطعة واحدة ، وبكل احترام ، الله يؤدب .

كلمة غلط ، كلمة قاسية ، يؤدب ، إنسان خبير بالكمبيوتر للمعامل ، القصة طويلة لكن ملخصها طلب سعراً من معمل ، ضغط عليه كثيراً ، قال له : هذا سعري ، أنا ما لي بحاجة لك ، أنت بحاجة لي ، تحب سأعمل ، أقسم بالله العادة ساعة ، ساعتين ، يوم ، أول يوم ثماني ساعات ما بيّن معه الخلل ، ثاني يوم ثماني ساعات ، ثالث يوم ، رابع يوم ، خامس يوم ، سادس يوم ، سابع يوم ، ثامن يوم ، قام وقف ، طلب إجازة يوم ، راجع نفسه ، أين الخطأ ؟ تذكر أنه قال له : أنا ما لي بحاجة لك ، أنت بحاجة لي ، فاستغفر الله ، ودفع صدقة ، وباليوم العاشر ربع ساعة حلت القضية .

بطولة الإنسان أن يكون له مكانة عند الله عز وجل :

الله يؤدب ، لو أنك تفهم على الله الكلمة الغلط وراءها في تأديب ، تصرف غلط في تأديب ، ابتسامة بغير محلها في تأديب ، استخفاف بإنسان في تأديب ، الله كبير ، فالله يربينا فالمربى غالي ، يصير ألماساً ، متواضعاً ، أديباً ، واقعياً ، أحكامه موضوعية ، ما فيها شطح ، ما فيها مبالغة ، يقدم واجباته بالتمام والكمال ، يرعى حق الصغير ، يحترم الكبير ، يحترم الفقير .

زرت مرة بيت أحد إخواننا توفي رحمه الله ، غرفة الضيوف عنده ما مرّ معي غرفة صغيرة جداً ، كراسي ، والمسافات الفارغة قليلة جداً ، خجل ، قلت له : تخجل ! سيد الخلق وحبيب الحق كانت غرفته لا تتسع لصلاته ونوم زوجته ، ومن أنت ؟ ارتاح سبحان الله .

ألقيت محاضرة بحي فقير جداً ، ذكرت أثراً للنبي الكريم ، دخل أحد الصحابة وقف له قال له : أهلاً بمن خبرني جبريل بقدومه ، هو فقير جداً الصحابي ، قال له : أومثلي ؟! قال له : نعم يا أخي ، خامل في الأرض علم في السماء .

يا إخوان ! بطولتك أن يكون لك مكانة عند الله .

((ابتغوا الرفعة عند الله))

[أخرجه ابن عدي في الكامل عن ابن عمر]

والرفعة عند الله بيدك ، باستقامتك ، بإخلاصك ، بصدقك ، بأمانتك ، بتواضعك ، بخدمة الخلق .

بطولة الإنسان أن يعرف ربه في الرخاء قبل الشدة :

أيها الأخوة ،

(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ)

لماذا ؟ هنا السؤال ،

(لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

يعني يوجد ماء بأرضك ، حفرت بئراً في ماء ، لكن أحياناً يغور هذا الماء ، يا رب أمطرنا ، يكون بيدك أسباب ، بين يديك ، أنت مرتاح ، عندك بيت ، عندك مركبة ، كله ميسر ، لكن أحياناً هذه الأسباب التي بين يديك تختفي فتبحث عن مسبب الأسباب .

أحياناً الإنسان يكون غارقاً بالنعم ، لكن ينسى أن يعزوها إلى الله ، لكن بساعة من ساعات الغفلة يفتقد بعض النعم .

والله أيها الأخوة ، صديق صديقي درس في فرنسا ، اختصاص نادر ، وتعين ببلدنا بمرتبة عالية جداً دون وزير بقليل ، وبيت بأرقى أحياء دمشق ، ومركبة ، وشباب ، وهو شاب وسيم ، أموره كلها كما تمنى ، فقد بصره ، راعوه شهر ، يرسلون له البريد إلى البيت ، وموظف كبير يقرأ له المعاملة ، يقول له موافق ، لست موافقاً ، بعدها سرحوه ، زاره مرة صديقي ، قال له : والله أتمنى أن أتسول في الطريق وليس في ملكي إلا هذا المعطف ، وأن يرد الله لي بصري .

يكون في أسباب بين يديك ، تفقد واحدة تتذكر الله عز وجل ، ليتك تذكره والدنيا بين يديك ، ليتك تذكره وأنت معافى ، وأنت شاب ، وقوي ، المشكلة نحن جميعاً من دون استثناء عند الشدة نذكره .

من أغرب ما سمعت في بلاد عاشت سبعين سنة ترفع شعار لا إله فقط ، نحن لا إله إلا الله ، هم لا إله، ملحدون ، في عدد من خبراء هذا البلد ملحدون أيضاً ، كانوا على متن طائرة ، دخلت هذه الطائرة في سحابة مكهربة ، فاضطربت اضطراباً شديداً كانت على وشك السقوط يقسم لي أحد الركاب ، كان في طريقه من دمشق إلى موسكو ، يقسم لي بالله أن هؤلاء الخبراء الملحدين رفعوا أيديهم إلى السماء ، ودعوا ربهم ، راكب طائرة مرتاح واضطربت ، يا رب ، ما في غيرك .

ما في مانع الإنسان عند الشدة يقول يا رب ، لكن البطل يقول يا رب وهو قوي وهو صحيح ، وهو غني ، وهو في ريعان الشباب ، لا يوجد عنده ولا مشكلة ، كل شخص عند الشدة ما له إلا الله عز وجل، لكن البطولة أن تعرفه في الرخاء .

ورد في بعض الآثار :

((ابن آدم اعرفني في الرخاء أعرفك في الشدة))

من عزا المصائب التأديبية من الله إلى الدين فهذا شأن إبليس :

أيها الأخوة ،

(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

الآن :

(فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

هذا شأن الغافل عن الله ، كل إمكانياته إيجابية يقول : أنا درست ، تعبت ، بنيت نفسي ، تحديت الزمن، انتصرت على واقعي المر ، بذلت جهوداً جبارة ، دربت نفسي على العطاء ، كل ما عنده معه شهادة علمية عالية ، أو تجارة رائجة ، أو عنده زوجة وأولاد ، بتعبي ، وكدي ، وعرق جبيني ، الله عز وجل يرسل له مصيبة ، لماذا الخيرات كلها تنسبها إلى ذاتك ، وإذا الله عز وجل أدبك تأديباً بسيطاً تعد تدينك سبب هذه المشكلة ؟ هذا موقف غير صحيح .

(فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ)

هذا جهدي .

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص الآية : 78)

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ)

لو ما كنت بهذا السلوك هذه المشكلة لم تأتِ ، لأنني كنت ملتزماً فجاءتني هذه المشكلة ، معقول أن تعزو المصائب التأديبية من الله إلى تدينك ؟ هذا شأن إبليس .

(أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ)

معنى

(يَطَّيَّرُوا)

العرب في الجاهلية من جهلهم يمسك أحدهم طيراً ، ثم يحفزه ، فإن طار عن يمينه معنى ذلك هذا المشروع جيد ، ويقدم عليه ، وإن طار عن شماله هذا المشروع سيئ ويبتعد عنه ، كلام مضحك ، غير علمي ، ما له معنى إطلاقاً ، هذا اسمه التطير ، يعني التشاؤم ، إن طار عن يمينه يتفاءل ، وإن طار عن شماله يتشاءم .

كل أنواع التشاؤم لا أصل له و لكن الله يعاقب كل إنسان على عمله :

الآن في خرافات لا يعلمها إلا الله ، رقمه 13 يتشاءم ، اليوم الأربعاء يتشاءم ، لا طيرة ، ولا هامة ، كل أنواع التشاؤم خرافات ، أخذ صفقة ، قبل التوقيع دخل إنسان يقول لك فقست ، قدمه شؤم ، غير صحيح هذا الكلام ، ارتكب معصية كبيرة فعاقبه الله عقاباً كبيراً ، يقول من الزوجة قدمها نحس ، لا غير صحيح هذا الكلام ، هذه كلمات الجهلاء ، خيرك منك ، لا من زوجتك ، وشرك منك ، لا من رقم محلك ، كل أنواع التشاؤم ما لها أصل أبداً ، لا يوجد إلا الله عز وجل .

(فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ)

كل الخير الذي هو فيه يعزوه إلى ذكائه ، وخبرته ، وجهده ، واجتهاده ، ودأبه ، فإن جاءت مشكلة يعزوها إلى تدينه ، لو ما كنت هكذا ما كان صار معي هذا الشيء ، سألوا عني طلعت مستقيماً ، ملتزماً، لا يريدون ملتزماً .

من عزا أخطاءه إلى السحر و الشعوذة فهو إنسان جاهل و لو كان مثقفاً :

(أَلَا إِنَّمَا مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ)

ما في إلا الله ، ويعاملك على عملك ،

(أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

فالله عز وجل قال :

(وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة البقرة الآية : 102)

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم الآية : 22)

في آية أوضح من هذه الآية ؟

(وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

هذه آية ثانية :

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(سورة الإسراء الآية : 65)

والله أيها الأخوة ، مع الأسف الشديد مثقفون ، ومثقفات ، يعزون أخطاءهم إلى السحر والشعوذة ، هذا موقف ،

(فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ)

نستحقها بجهدنا ، وتعبنا ، وعرق جبيننا ، ودأبنا ،

(إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ)

بما قدمت أيديهم ،

(يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ)

يعني أحياناً يكون ابن صالح جداً ينصح والده بعمل خيري ، الآن أي مشكلة تأتي إلى هذا البيت أنت ورطتني ، لو لم تنصحني ما كان صار معنا شيء ، ينتظروه على واحدة أي مشكلة تأتي بسبب نصيحتك ، تورطنا ، هذا خطأ كبير ،

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ)

ما في إلا الله ، لا إله إلا الله ، لا معطي ، ولا مانع ، ولا خافض ، ولا رافع ، ولا معز ، ولا مذل إلا الله ،

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

الفعل فعل الله والاختيار اختيار الإنسان :

تروي الروايات أن الأمطار في عهد سيدنا موسى حبست أمداً طويلاً ، فخرج مع قومه للاستسقاء ، فدعوا ربهم كثيراً ولم يمطروا ، كان كليم الله ، ناجى ربه ، فسمع من الله أن فيكم عاصياً ، فقال سيدنا موسى لأصحابه : من كان عاصياً لله فليغادرنا ، ما أحد غادر والأمطار انهمرت كأفواه القرب ، سيدنا موسى سأل ربه ، قال له : يا رب من هذا العاصي ؟ الذي كان عاصياً ، ورد في بعض الروايات عجبت لك يا موسى أستره وهو عاصٍ وأفضحه وهو تائب ؟.

إخوانا الكرام :

((الخير بيدي ، والشر بيدي ، فطوبى لمن قدرت على يده الخير ، والويل لمن قدرت على يده الشر))

[ورد في الأثر]

الفعل فعل الله ، والاختيار اختيار الإنسان ، الإنسان يختار الله عز وجل يقلب اختياره إلى فعل ، فالفاعل هو الله ، أما العمل يقيّم من خلالك ، أنت الذي اخترته .

أفعال الإنسان من كسبه و الله عز وجل لا يجبر أحداً على فعله :

لذلك :

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة السجدة)

يعني الله عز وجل لا يجبر أحداً على فعله ، ولو أجبر الناس على أفعالهم لما أجبرهم إلا على الهدى ، ولكن أفعال الإنسان من كسبه .

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة الآية : 286)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(38-60): تفسير الآيات 133 - 136
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-05-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الثامن والثلاثين من دروس سورة الأعراف .

تكبر وعناد الكفار في قبول الحق :

مع الآية الثانية والثلاثين بعد المئة ، وهي قوله تعالى في سياق سيدنا موسى مع فرعون والسحرة :

(وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

هذا اسمه العناد في قبول الحق ، هذا اسمه التأبي ، معصية التأبي ، والعناد ، والكبر والرفض ، من أكبر المعاصي ، الشيطان ، قال :

(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)

(سورة الأعراف الآية : 12)

أبى أن يسجد .

(أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

(سورة البقرة)

عدم سجوده بدافع الكبر ، ودافع التأبي ، ودافع العناد .

الفرق بين معصية العناد و معصية الغلبة :

أما سيدنا آدم أكل من الشجرة قال :

(فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً)

(سورة طه)

الفرق كبير جداً بين معصية العناد والتأبي والكبر ، وبين معصية الغلبة .

لذلك ورد في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام : أن شارب خمر لعنه بعض الصحابة فقال عليه الصلاة والسلام : لا تلعنوه إنه يحب الله ورسوله .

مغلوب على أمره ، يعني هذا درس لنا ، قد تجد إنساناً عاصياً لكن يبكي في الليل من معصيته ، يتألم أشد الألم ، يذوب خجلاً من الله عز وجل ، في ساعة غفلة غلبته شهوته ، هذه معصية ، ولكن صاحبها أقرب إلى الله ألف مرة من إنسان يعصي الله كبراً وإباءً واستعلاءً .

أشد الناس صمماً من يرفض الاستماع لهذا الدين العظيم :

لذلك قال علماء القلوب : ربما معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً ، هنا في استهزاء ، أين الاستهزاء ؟

(وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ)

هي عندهم ليست بآية ، هي عندهم نوع من السحر ، والدليل :

(لِتَسْحَرَنَا بِهَا)

قالوا كلمة آية استهزاءً ، يعني على حدّ زعمك ، أنت تدعي أن معك آيات ، مهما تأتي به من آية لتسحرنا بها

(فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

لذلك قال بعض الحكماء : لم أجد أشدّ صمماً من الذي يريد ألا يسمع ، في إنسان له موقف ، وبالمناسبة: هل تعتقد أن إنساناً عاقلاً تأتيه رسالة يمزقها ولا يقرأها ؟ اقرأها ، مزقها بعد قراءتها ، يتأبى أن يقرأها ، في حالات كثيرة ، يرفض أن يستمع إلى شريط ، يرفض أن يأتي إلى مسجد ، يرفض أن يتابع حديثاً عن الله عز وجل ، ما دام الحديث في الدنيا جالس ، فإذا ما جعلت موضوع الحديث عن الآخرة ، وعن هذا الدين العظيم اعتذر .

من انطوى على واحد بالمليون من الخير أسمعه الله الحق :

أذكر مرة التقيت مع مندوب شركة ، حدثناه بكلمات معدودة عن خالق السماوات والأرض ، لم يسمح لنا أن نتابع الحديث ، قال : هذه الموضوعات لا تهمني أبداً ، ولا أعبأ بها ولا ألقي لها بالاً ، أنا يعنيني في الحياة كلها امرأة جميلة ، ومركبة فارهة ، وبيت كبير ، فقط أغلق ، بحياتي ما تذوقت الآية الكريمة:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال الآية : 23)

ما فيهم خير ، أنا أطمئنكم ، إذا شخص ينطوي على واحد بالمليون من الخير الله عز وجل يسمعه الحق ، الدليل :

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

أما إذا أسمعهم وهم رافضون للحق :

(وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

(سورة الأنفال الآية : 23)

هؤلاء النماذج لا تعبأ بهم ، لا تهتم بهم ، لا تلقي لهم بالاً ، مرةً كنت في بلد بعيد في استراليا ، كنت على الهواء في برنامج إذاعي ، فجاء سؤال ، هو في الحقيقة ليس بسؤال ، تعليق خبيث جداً أن هذا الدين الإسلامي دين القتل ، ودين الجهل ، ودين الإرهاب ، ودين الجريمة ومتى قيل هذا الكلام ؟ قبل نهاية البرنامج بدقيقة ، فقلت له : هذه التهم الكبيرة التي ذكرتها نحتاج إلى تفنيدها ساعات ، ولكن أجيبك إجابة مختصرة موجزة ، ما ضرّ السحاب نبح الكلاب ، وما ضرّ البحر أن ألقى فيه غلام بحجر، ولو تحول الناس إلى كناسين ليثيروا الغبار على هذا الدين ما أثاروه إلا على أنفسهم ،

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

من أراد أن يُقوِّد الإسلام خذله الله و زاد الإسلام قوة :

أيها الأخوة ، هذه النماذج موجودة ، لا تعبأ بها .

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى)

(سورة الأعلى)

لا تلقي الحكمة لغير أهلها فتظلمها ، ولا تمنعها أهلها فتظلمهم ،

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى)

هؤلاء دعك منهم ،

(وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

هذا الذي رسم رسوماً أراد تشويه سمعة النبي عليه الصلاة والسلام ، والله الذي لا إله إلا هو يعني أريد أن أرسم لكم حقيقته ، إنسان بأعلى درجات الغباء ، وأعلى درجات الحمق ، وأعلى درجات المحدودية ، توهم أنه ببصقة واحدة يطفئ الشمس ، لسان اللهب طوله مليون كم ، الحرارة هناك في مركز الشمس عشرون مليون درجة ، حرارة سطحها ستة آلاف درجة ، توهم أنه ببصقة واحدة يطفئ الشمس ، فتوجه نحو الشمس وهي في كبد السماء ، وجعل وجهه موازياً لقبة السماء وبكل عزم أخرج من فمه بصقة ارتفعت ثلاثين سم ثم ارتدت إلى وجهه ، وبين وجهه وبين الشمس 156 مليون كم .

إله عظيم ، نبي كريم ، دين قويم ، قرآن كريم ، هذه ثوابت ، لولا أن هذا الإسلام دين الله لانتهى من ألف عام ، هذا الإسلام كلما أردت أن تقوضه يزداد قوة .

أكبر خطأ يرتكبه الإنسان أن يكون في خندق معادٍ لهذا الدين :

دخلت مرة إلى متحف في بلد إسلامي ، رأيت ساعة قد ثبتت على التاسعة والخمس دقائق ، سألت ، حكم هذا البلد في مطلع عصر النهضة إنسان أراد إلغاء الإسلام ، لغى الحرف العربي كلياً ، منع ارتداء الزي الإسلامي ، أراد أن يقطع كل صلة بين هذا البلد وبين الإسلام أراده بلداً غربياً ، إباحياً ، متفلتاً ، فلما رأيت أن هذا الإنسان قد مات ، وأن الإسلام في هذا البلد في أعلى درجات القوة ، قلت سبحان الله! يأتي إنسان أحياناً ليلغي الإسلام ، هكذا قلت بالضبط فيغطس والإسلام باقٍ إلى يوم القيامة ، ما ضرّ السحاب نبح الكلاب ، وما ضرّ البحر أن ألقى فيه غلام بحجر ، ولو تحول الناس إلى كناسين ليثيروا الغبار على هذا الدين ما أثاروه إلا على أنفسهم .

لذلك صناديد قريش ، زعماء قريش ، أغنياء قريش ، أقوياء قريش ، الذين دانت لهم الجزيرة العربية، أين هم الآن ؟ في مزبلة التاريخ ، والشباب الضعاف ، سيدنا بلال عبد حبشي سيدنا صهيب ، هؤلاء الصحابة الضعاف الفقراء ، الذين وقفوا مع النبي أين هم الآن ؟ في أعلى عليين ، في لوحة الشرف عند الله عز وجل .

لذلك أكبر خطأ يرتكبه الإنسان أن يكون في خندق معادٍ لهذا الدين .

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة غافر الآية : 51)

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم)

خلاص العالم في الإسلام إن أحسن المسلمون فهمه و تطبيقه :

أقول لكم أيها الأخوة : لا تقلقوا على هذا الدين إنه دين الله ، ولكن اقلقوا ما إذا سمح الله لكم أو لم يسمح أن تكونوا جنوداً له ، ولا تقلق على هذا الدين ، ولو كان الباطل قوياً ، لكن الخطورة أن ينفرد الباطل بالساحة ، لو في بقعة ضوء صغيرة هذه تتنامى .

أيها الأخوة ، حرب عالمية ثالثة معلنة على الإسلام ، لكن الإسلام ينمو نمواً عجيباً أينما ذهبت ، الخلاص في الإسلام ، حتى إن بعض المفكرين الكبار الذي هداه الله إلى الإسلام قال : أنا لا أصدق أن يستطيع العالم الإسلامي اللحاق بالغرب على الأقل في المدى المنظور لاتساع الهوة بينهما ، ولكنني مؤمن أشد الإيمان أن العالم كله سيركع أمام أقدام المسلمين ، لا لأنهم أقوياء ولكن لأن خلاص العالم

في الإسلام ، لكن الشرط أن نحسن فهم هذا الدين ، وأن نحسن تطبيق هذا الدين ، وأن نحسن عرض هذا الدين .

سخرية آل فرعون من موسى و قومه :

(وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ)

كلمة آية ؛ من قبلهم نوع من السخرية ،

(و مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ)

على حدّ زعمك ،

(لِتَسْحَرَنَا بِهَا)

لأنك ساحر ، ألم يروا السحرة المحترفين ؟ أولم يروا كبار السحرة ؟ أو لم يروا هؤلاء السحرة الذين وعدهم فرعون بعطاء جزيل ، وتقريب شديد كيف خروا لله ساجدين ؟.

(وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ)

(سورة الأعراف)

وكيف أنهم قالوا لفرعون ، وما أدراكم ما فرعون :

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

(سورة الأعراف)

الكافر علينا ألا نلقي له بالاً لأنه يبحث عن المكاسب فقط :

أولم يروا هؤلاء السحرة المحترفين كيف خضعوا لرب العالمين ؟ لكن الكافر لا يعترف ،

(وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

هذا موقف معاند مثل هذا النموذج لا تلقي له بالاً ، ولا تعبأ به ، لأنه يبحث عن مكاسب ، لا عن الحقائق يعني لا بد من شرح :

قصة أرويها كثيراً : شخص يعمل على حمار لنقل حاجات الناس ، ليس له في الدنيا إلا هذا الحمار ، مات الحمار ، انقطع رزقه فجأة ، دفنه في مكان ، وأنشأ فوق قبره أربعة جدران وقبة خضراء وعمل على النافذة شموع ، وسماه اسم ولي كبير ، وأوهم الناس أنه ولي كبير فجاء الناس من أطراف البلاد ، يتبركون بهذا الولي ، ويقدمون له الأضاحي ، والحاجات الثمينة فهذا عاش ببحبوحة أنسته كل أيام الفقر، عاش بحبوحة لا توصف ، هل بإمكانك أن تقنعه أن تحت هذا البناء حمار مدفون ؟ يخرج

بروحك ، مع أن قناعته أن تحت هذا المكان مدفون حمار أكبر من قناعتك أنت ، لأنه دفنه بيده .
لكن المنتفع لا يناقش ، خذوها قاعدة ، المنتفع بفكر معين لا يناقش ، والذي يناقشه يعد أحمقاً ، والقوي لا يناقش ، والغبي لا يناقش ، وقد يجتمعون بواحد ، لا تحاور مثل هذا الإنسان ، منتفع ، هذا منتفع بهذه الفكرة التي روجها بين الناس ، المنتفع لا يناقش ، والقوي لا يناقش ، والغبي لا يناقش ، وقد يجتمعون بواحد ، لذلك مثل هذا الإنسان دعه ، لا تلقي له بالاً لا تلتفت إليه ،

(وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آَيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

من آمن بالله أم لم يؤمن به حكم الله نافذ فيه :

أيها الأخوة الكرام ، لو مثلت الدين بقوانين مادية ، قانون السقوط ، المظلي لماذا يصل إلى الأرض سالماً ؟ لأنه تأدب مع قوانين السقوط ، نزل بمظلة ، والمظلة مساحتها كبيرة جداً ، وقماشها أصم ، من أجل أن تقاوم الهواء ، فإذا قاومت الهواء نزلت بسرعة معتدلة إلى أن يصل إلى الأرض ، فإذا إنسان قال أنا هذا القانون لا أعتد به ، ولا أؤمن به ، هذا دجل ، هذا كذب ، هذا قانون من مخلفات الماضي ، وسأنزل بلا مظلة ـ دقق ـ هل يستطيع هذا الإنسان الأحمق أن يوقف عمل القانون به ؟ ينزل ميتاً ، أنت سواء آمنت بهذا القانون أو لم تؤمن حكمه نافذ فيك ، فكرة دقيقة جداً ، سواء آمنت بهذا أم لم تؤمن به سيان ، حكم هذا القانون نافذ فيك أمنت به أو لم تؤمن .

من عرف الحقيقة بعد فوات الأوان خسر الدنيا و الآخرة :

لذلك :

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)

(سورة الكهف)

رفض الدين ، إذا رفضت الدين هل ستموت أم لا ؟ هناك موت ، هناك قبر ، هناك حساب ، لكن بين أن تصحو قبل فوات الأوان ، وبين أن تصحو بعد فوات الأوان ، أن تصحو بعد فوات الأوان خسارة ما بعدها خسارة .

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقة)

متى عرف الحقيقة ؟ بعد فوات الأوان .

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق)

الناس على اختلاف نحلهم و مللهم يقرون بما جاء به الأنبياء بعد فوات الأوان :

أخوانا الكرام ، صدقوا ، على الأرض يوجد ستة آلاف مليون إنسان ، هؤلاء جميعاً على اختلاف مللهم ، ونحلهم ، وأديانهم ، ومذاهبهم ، وطوائفهم ، وأعراقهم ، وأنسابهم ، هؤلاء جميعاً عند الموت يقرون بما جاء به الأنبياء ، ولكن بعد فوات الأوان .

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ)

(سورة الفجر)

(يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً)

(سورة الفرقان)

من يكشف الحقيقة عند الموت يصيبه ندم لو وزع على أهل بلد لكفاهم :

أيها الأخوة ، لئلا نعرف الحقيقة بعد فوات الأوان ينبغي أن نعرفها الآن قبل فوات الأوان ، هذا كلام الله ، هذا كلام خالق السماوات والأرض :

(وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام خاطب قتلى الكفار في بدر ، واحداً واحداً بأسمائهم يا فلان ، يا فلان، يا عتبة بن ربيعة ، واحداً واحداً :

((أليسَ قد وجدتُم ما وعدَ ربكم حقّا ، فإني قد وجدتُ ما وَعَدني رَبي حقّا ؟ فسمعَ عمرُ بن الخطّاب قولَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسولَ الله ، كيف يَسمعونَ ؟ أو أنَّى يُجيبون ، وقد جَيّفُوا ؟ قال : والذي نَفسي بيدِهِ ، ما أنتُم بأسمعَ لما أقولُ منهم ، ولكنهم لا يَقْدرُونَ أن يُجيبوا))

[أخرجه مسلم عن أنس بن مالك]

والله أيها الأخوة ، الإنسان حينما يكشف الحقيقة عند الموت يصيبه ندم لو وزع على أهل بلد لكفاهم ، والله يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا .

أنا أعرف إنساناً كان تاجراً متألقاً جداً ، لكن بعيد عن الدين بعد الأرض عن السماء غارق في كل المعاصي والآثام ، أصابه مرض في الدم ، ظنه مرضاً عارضاً ، لكن بعد أشهر علم أنه مرض خبيث، فأصبحت تأتيه موجات هستيرية ، يقول لا أريد أن أموت ، تأتيه نوبة ، إلى أن وافته المنية ، يقسم لي

أحد جيرانه وهو في الطابق الرابع أنه عندما جاءه ملك الموت صاح صيحة ما بقي في البناء كله واحد إلا وسمعها ، يصعق الإنسان .

المؤمن حينما يرى مقامه في الجنة ينسى كل متاعبه :

لذلك المؤمن حينما يرى مقامه في الجنة ، يقول : لم أرَ شراً قط ، لا بد من فكرة : العز بن عبد السلام، هذا العالم الكبير ، الذي قال عنه الظاهر بيبرس : والله ما استقر ملكي حتى مات العز بن عبد السلام ، هذا له فتوى معينة من الصعب تطبيقها ، فجاء من تعنيهم هذه الفتوى ليقتلوه ، طرقوا بابه ، أمراء كبار ، أمراء المماليك ، أقوياء جداً ، طرقوا بابه فتح ابنه عبد اللطيف الباب فهم كل شيء ، أبوه مقتول لا محالة ، فانطلق إليه خائفاً ، وقال : يا أبتِ انجُ بنفسك ، بكى العز بن عبد السلام ، قال : والله يا بني ، أبوك أحقر من أن يموت في سبيل الله ، ما هذا المقام ؟! نزل إليهم ، وقعت من أيديهم السيوف لهيبته ، وباعهم ، هم عبيد كانوا ، وباعهم في السوق .

النتيجة مرّ معي حديث ، في الآثار القدسية :

((وعزتي وجلالي (دققوا في الحديث) لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه ، إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها ، سقماً في جسده ، أو إقتاراً في رزقه ، أو مصيبة في ماله أو ولده ، حتى أبلغ منه مثل الذر ، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت ، حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

يا ترى الله يسمح لنا أن نعاني ما نعاني في الدنيا ، ولكن بشرط إذا وصلنا إلى شفير القبر أن نكون أصحاء عند الله ، شيء ليس سهلاً ، وعدنا الله بجنة عرضها السماوات والأرض فإذا كان الله عز وجل عالجنا في الدنيا ، في ضائقة أحياناً ، في جفاف ، في غلاء أسعار ، في حرب عالمية ثالثة معلنة علينا، نحن قصرنا كثيراً ، غفلنا كثيراً ، هان أمر الله علينا كثيراً ، لم نرعَ حق بعضنا بعضاً ، لم نؤدِ العبادات كما أرادها الله عز وجل ، لم نقف الموقف الكامل في كل أحوالنا ، إذاً الله يعالجنا ، هل يتألم الإنسان ؟ نحن إن شاء الله في العناية المشددة ، نحن كإنسان معه التهاب معدة حاد ، شفاؤه مضمون لكن يحتاج إلى حمية صعبة جداً ، أفضل ألف مرة من إنسان معه ورم خبيث ، منتشر في كل أنحاء جسمه ، والطبيب سمح له أن يأكل شيء ، لأنه ميؤوس منه .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام الآية : 44)

من رحمة الله عز وجل بعباده ألا يرد بأسه عن القوم المجرمين :

أيها الأخوة الكرام ،

(وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

من رحمة الله بالمعاندين :

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة الأنعام)

يعني تقتضي رحمته ألا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، قال :

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ)

(سورة الأعراف)

وصل الماء إلى أفواههم ، فإذا جلسوا غرقوا ، الماء رحمة ، وأحياناً نقمة

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ)

أكل كل شيء ،

(وَالْقُمَّلَ)

غير القمل ،

(الْقُمَّلَ)

حشرة تصيب النباتات ، أتلفت كل نباتاتهم ،

(وَالضَّفَادِعَ)

في أي مكان ضفادع ،

(وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ)

لكن الحكمة أن هذه المصائب لم تكن عامة ، على قوم فرعون خاصة ، وبنو إسرائيل نجوا منها ، أحياناً تجد زلزالاً ، دمر كل شيء إلا مسجداً ، ومعهداً شرعياً ، آية .

بعض المحطات الإخبارية عرضت هذه الصورة في إزميت بلد الزلزال في تركيا كل المساحة الكاملة للزلزال ركام ، إلا جامع مع مئذنته الطويلة ، والمعهد الشرعي لم يصب بأذى ، هذه الصورة تركت أثراً في العالم كبير جداً .

المصيبة تصيب أناساً و تترك آخرين لحكمة أرادها الله تعالى :

إخوانا الكرام ، المصيبة حينما تأتي ، حينما تعم البشر جميعاً ، لم تعد مصيبة ذات معنى ، أما حينما تأتي تصيب أناساً ، وتبتعد عن أناسٍ صار في معنى .

مثلاً هبت عاصفة هوجاء ، أتلفت ألف بيت زراعي ، يعني معظم الناس رأوا أن الصالحين سلمت بيوتهم ، منطقة جفت آبارهم ، في مزرعة واحدة كانت تستقبل الرعاة ليسقوا أغنامهم من هذه المزرعة، هي الوحيدة لم يجف بئرها ، يعني الله عز وجل يعلمنا ، أن هذا الإنسان استقام ، مرة جاءت موجة جراد ، أحرقت كل شيء القصة من خمسين سنة في الشام ما بقي شيء ، لحاء الشجر أكلوه ، رجل وقور توفي رحمه الله ، دخل إلى بستان كالجنة ، أين الجراد ؟! شيء يلفت النظر ، فجاء بكمية جراد كبيرة بكيس ، وأطلقه في البستان ، خلال ثواني تطاير وغادر البستان ، قيل له : ماذا تفعل أنت حتى نجا بستانك من الجراد ؟ فأجاب : عندي دواء ، قيل له : ما الدواء ؟ قال : أنا أزكي عن مالي .

((ما تلف مال في بر ولا بحر إلا بحبس الزكاة))

[أخرجه الطبراني عن أبي هريرة]

الفرق الشاسع بين المؤمن و غير المؤمن :

لما تأتي مصيبة تصيب أناساً ، وينجو منها آخرون معنى هذا أن هناك مغزى ، فهذا الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، أصابت قوم فرعون ونجا منها بنو إسرائيل كانوا مع سيدنا موسى ، لما نجوا منها فهم فرعون ومن حوله أن هذا الإنسان نبي مرسل .

مرة حدثني طبيب ، قال لي : جاءنا مريض معه ورم خبيث منتشر في كل أنحاء جسمه ، قال لي : عجيب لهذا المريض ! كلما دخلنا عليه يقول : اشهد لمن زاره أنني راض عن الله ، يا رب لك الحمد ، قال لي : إذا قرع الجرس يتدافع الممرضون لخدمته ، الأطباء كذلك ، قال لي : أمضينا أسبوعين كأن هذه الغرفة فيها جنة ، مريض ورم خبيث ! لا صاح ، ولا تشكى بالعكس منير ، راضٍ عن الله ، قال لي : عجيب ، ترك أثراً بالمستشفى ، حتى الذين دينهم ضعيف اعتقدوا بالإسلام ، ما هذا الإيمان ، ما شكا ، آلام لا يحتمل ، ما رفع صوته ، يا رب لك الحمد ، كلما زاره إنسان يقول له : اشهد أنني راض عن الله ، يا رب لك الحمد ، ثم توفاه الله .

قال لي : لحكمة بالغة بالغةٍ جاءنا مريض معه المرض نفسه ، ورم خبيث منتشر في كل أمعائه ، ما ترك نبي إلا وسبه ، يسب الدين ، يسب الأنبياء ، يقرع الجرس لا يلبيه أحد ، غرفة موحشة ،

مظلمة ، مخيفة ، ومات ، الله أطلع أهل المستشفى على مريضين بالمرض نفسه ، الآلام نفسها ، لكن المؤمن صابر ، والثاني كافر .

نجاة المؤمن من المصائب التي يرسلها الله :

أيها الأخوة ، الله أرسل مصائب ، لكن هذه المصائب نجا منها المؤمنون ، قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

تجد شخصاً يعاني من أمراض نفسية ، عنده عقد ، عنده يأس ، عنده إحباط ، يتهم كل إنسان ، يشكو من كل شيء ، تجلس مع مؤمن بالبلد نفسه ، بالظرف نفسه ، بالصعوبات نفسها ، بالضغوط نفسها ، بالتقشف نفسه ، بالحرمان نفسه ، راضٍ عن الله ، ما قصته هذا الثاني ؟ مسرور راضٍ عن الله ، متفائل، واثق بالله عز وجل ، الفرق بين المؤمن وغير المؤمن فرق كبير كثير ، إياكم أن تتوهموا أن الفرق بالصلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة ، البنية النفسية مختلفة ، يرى أن الله يعمل وحده ، علاقته بالله عز وجل ، الله خلقه لجنة عرضها السماوات والأرض .

مرة قال لي شخص أراد أن ينتقض كلاماً أقوله دائماً : إن المؤمن سعيد بالدنيا ، قال لي : كيف سعيد ؟ والله لا يختلف عن غيره إطلاقاً ، هكذا أقسم بالله ، وأنا بجلسة فيها أربعين خمسين شخصاً ، قلت له : إذا شخص عنده ثمانية أولاد ، ودخله أربعة آلاف ليرة ، لا يكفوه أربعة أيام ، وبيته بالأجرة ، وعليه دعوى إخلاء ، ومريض ، كيف وضعه هذا ؟ قال لي : صعب جداً ، قلت له : عنده عم ما عنده أولاد ، ومالك خمسمئة مليون ليرة ، ومات بحادث فجأة ، الخمسمئة مليون لمن ؟ لهذا الفقير ، وريثه الوحيد هو ، لكن حتى قبض المبلغ خلال سنة ، وثائق ، وبراءات ذمة ، ومعاملة معقدة ، ومعاملة المواريث ، لماذا في هذا العام قبل أن يقبض قرشاً واحداً هو أسعد الناس ، ما قبض شيئاً ، لكن صار معه خمسمئة مليون ، دخل بالوعد ، موعود بخمسمئة مليون ، كلما رأى سيارة فارهة جداً سأشتري مثل هذه السيارة، وكلما رأى بيتاً رائعاً سأشتري مثل هذا البيت ، الله قال :

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

من أسباب سعادة المؤمن وعده بالجنة

وهذا الوعد يمتص كل متاعب الدنيا :

المؤمن لأن الله وعده بالجنة ، وعده بجنة عرضها السماوات والأرض .

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ)

(سورة فصلت)

لأن الله وعده هذا الوعد فهو راضٍ عن الله ، وهذا الوعد بالجنة يمتص كل متاعب الدنيا ، واضح تمام؟.

فلذلك أحد أسباب سعادة المؤمن وعده بالجنة ، وأمرك مع الله والله رحيم ، وعادل وحكيم ، لا يتخلى عنك ، هو يدافع عنك ، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ويا ربي ماذا وجد من فقدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ .

علاقة الإنسان مع الله تعالى لأن بيده كل شيء :

(وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)

(سورة الأعراف)

سيدنا موسى اجتهد لما خرج من البحر ، يا رب أرجعه بحراً لئلا يلحقنا ، فالله عز وجل حكيم ، أبقاه طريقاً يبساً حتى أغرى فرعون أن يتبع موسى ، فلما أغراه وتبعه ، ووصل إلى منتصف البحر رجع البحر بحراً ،

(فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)

الله هو القوي ، والناس كلهم في قبضته ، والأقوياء في قبضته ، والطغاة في قبضته لكن الطغاة عصي بيد الله ، علاقتك ليست معهم ، ولكن مع من يملكهم وهو الله ، هذا معنى قوله أحد الأنبياء الكرام سيدنا هود :

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس التاسع والثلاثين من دروس سورة الأعراف .

الشدائد التي يسوقها الله عز وجل لعباده من أجل أن يدفعهم إلى بابه :

مع الآية الرابعة والثلاثين بعد المئة ، الآية الكريمة :

(وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

(سورة الأعراف)

الله عز وجل هو الخبير ، خبير بنفوس عباده ، شريحة كبيرة ، وقسم كبير من عباده لا يقوده إلى الحق، يبيح الحق ، بل قد يقوده إلى الحق ، وإلى الإنابة ، وإلى التوبة ، شدة تصيبه ويبدو أن الله سبحانه وتعالى هذا أسلوبه في كل أنواع الشدائد ، من أجل أن يسوقهم إلى بابه فرعون الذي قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

والذي قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية : 38)

فحينما ابتلاهم الله بالقمل ، والدم ، والضفادع ، هذه المسائل الكبيرة ، وحينما نجا منها بنو إسرائيل شيء واضح ، لو أن هذا البلاء عمّ الكل ، لما كان له معنى ، أما حينما ينجو المؤمن ، معنى ذلك أن هذا تأديب من الله .

عدم معاملة المسيء كالمحسن :

الآن نستخدم هذه الفكرة بواقعنا ، أنت حينما ترى إنساناً مستقيماً ، يعيش حياة طيبة راضية ، متوازن، راضٍ عن الله ، سعيد ، موفق ، سعيد في بيته ، في عمله ، له سمعة طيبة أتمّ الله عليه الصحة ، له ما يكفيه ، تجد إنساناً آخر منحرفاً ، من مشكلة إلى مشكلة ، من مطب إلى طب ، من مصيبة إلى مصيبة ، من ضجر إلى ضجر ، من إحباط إلى إحباط ، شيء واضح جداً ، اعمل موازنة بين هذا وذاك ،

تكتشف الحقيقة ، والدليل الله عز وجل أعاننا على هذه الموازنة قال :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

أي من سابع المستحيلات أن يُعامل المحسن كالمسيء ، المستقيم كالمنحرف ، الصادق كالكاذب ، العفيف كالإباحي ، المنصف كالجاحد ، مستحيل .

الهدى يرفع الإنسان و الضلال يرديه :

هناك أدلة صارخة في كل عصر ، وفي كل مصر ، المستقيم ناجح ، المستقيم سعيد ، المستقيم متوازن، المستقيم موفق ، المستقيم مسدد ، المستقيم راضٍ ، المستقيم متألق ، والمنحرف من مشكلة إلى مشكلة.

(أولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة الآية : 5)

الهدى رفعهم .

(أولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة الأحقاف)

الضلال أرداهم إما في كآبة ، أو في إحباط ، أو في سجن ، الآية لها إسقاطات كبيرة جداً ، فرعون ، الطاغية الأكبر ، الذي قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

حينما رأى نفسه محاطاً بمصائب تلوى مصائب ، وكوارث تلوى كوارث ، ومحن تلوى محن ، وسيدنا موسى وأتباعه في منجاة منها ، شيء واضح تمام .

مرة ثانية : حينما يأتي زلزل ، ويدمر كل شيء ، في بلد مجاور ، وينشر الإعلام الغربي صورة في مركز الزلزال لمسجد بمئذنته الشامخة ، والمعهد الشرعي الذي إلى جانب المسجد ، لم يتأثر بالزلزال ، مع أنه اسأل المهندس : البناء ذي القاعدة الضيقة ، والامتداد الطويل يجب أن يقع أول بناء ، إشارة هذه، أنا سميتها رسالة من الله .

المؤمن يقوى بالله و يستمد منه الحكمة :

أيها الأخوة ، لما وقع عليهم المصاب الذي أصابهم به ، الآن

(قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ)

في إله عندهم ، فرعون رب ، إله فرعون عندهم ، رأوا أن الإله فرعون ليس فعالاً ليس بيده شيء ، لكن إله موسى هو الفعال .

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

(سورة هود)

أنت لاحظ المؤمن معه قوة كبيرة ، معه الدعاء ، معه القدرة الإلهية ، معه العلم الإلهي ، معه الحكمة الإلهية ، معه الرحمة الإلهية ، في مؤمن ضعيف لكن يستعين بالله .

طفل صغير إذا أبوه أغنى الأغنياء نقول هذا الطفل غني بغنى أبيه ، إذا أبوه قوي جداً يحتل منصباً رفيعاً جداً ، هذا الطفل الصغير يشعر بقيمته بين أقرانه أبي فلان .

فالمؤمن يتقوى بالله ، يستغني بالله ، يعلم بالله ، يستمد من ربه الحكمة ، فأنت قوي بالله ، عليم بالله ، حكيم بالله ، كبير عند الله ، فهذا الدرس بليغ لنا جميعاً .

الله مصدر الجمال فإذا مُنح الإنسان منه الرضا كان أسعد الناس :

الآن آيتين :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

(سورة طه الآية : 124)

لا يمكن أن تجد على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة إنساناً سعيداً وهو معرض عن الله ، غني يوجد ، بيت أربعمئة متر يوجد ، مركبة ثمنها اثنتي عشرة مليوناً موجودة ، كل شيء موجود ، أفخر طعام ، أفخر مركبة ، أفخر أثاث ، لكن لا يوجد سعادة ،

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

إياكم أن تفهموا أن معيشة الضنك الفقر ، لا أبداً ، وإياكم أن تفهموا أيضاً أن الحياة الطيبة هي الغنى ، لا أبداً ، قد تكون أسعد الناس بدخل محدود ، وقد تكون أسعد الناس بأصغر بيت ، وقد تكون أسعد الناس بأخشن طعام ، لأن الله مصدر الجمال ، فإذا منحك منه الرضا كنت أسعد الناس .

من كان مع الله كان الله معه :

لن أبالغ إذا قلت الآن ، وقد تكون في المنفردة وأنت أسعد الناس ، لأن يونس عليه السلام كان في بطن الحوت :

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأنبياء)

إبراهيم كان في النار ، سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام كان في الغار .

((فقلت : يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى قدَمْيه أبْصرَنَا تحت قدميه . فقال : يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك]

إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك ، يعني أنت أيها الأخ ، كن ما شئت ، كن أفقر إنسان ، كن أضعف إنسان ، في التعتيم ، كن بأي صفة تريدها ، إذا كنت مع الله كان الله معك ، وإذا كنت مع الله ناصرك ، وإذا كنت مع الله مدافعاً عنك ، وإذا كنت مع الله كان اتصالك بالله مسعداً .

أي إنسان أحياناً يقيم علاقة لطيفة مع شخص قوي ، يشعر بزهو ، يشعر بأمن أنه أنا معي رقم هاتفه ، بأي لحظة أتصل به ، إذا كان شخص مع الله ، إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك ،

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

(وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى)

(سورة طه)

من التزم منهج الله عز وجل عامله الله معاملة تختلف عن معاملة الإنسان الفاسق :

أيها الأخوة ، لأن هذه المصائب التي أصاب الله بها فرعون وقومه معاً ، ونجا منها بني إسرائيل ، أصبح درساً واضحاً ، فتأكد أيها المؤمن مليار بالمئة أنك إذا كنت مع الله شعرت بالقوة ، وشعرت بالأمن ، وشعرت أن الله لا ينساك ، ولا يتخلى عنك ، وأنت بهذه المعية قوي وموفق ، ومنتصر ، ومتفوق ، وأنت الفالح ، وأنت الناجح ، اسمعوا الآيات :

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

شاب مؤمن يخاف من الله ، يغض بصره عن محارم الله ، لا يكذب ، يصدق ، يحسن ، بار بوالديه ، وفيٌّ لإخوانه ، ملتزم بمنهج الله ، يتقيد بالشرع ، يخاف أن يعصي الله ، هذا الشاب هل يعقل أن يعامل في الدنيا كما يعامل الفاسق ـ دققوا ـ أنا قلت في الدنيا ، بالآخرة شيء بديهي ، في الدنيا ، الدليل :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ)

يعني صحته ، زواجه ، زوجته ، أولاده ، بيته ، عمله ، حتى في نزهاته ، له نزهات خاصة ، نظيفة ، رائعة ، متواضعة لكن نظيفة ، اختلاط لا يوجد ، انحراف لا يوجد .

الفرق بين المؤمن و غير المؤمن ليس بالصلاة و الصيام و إنما بالتصورات و القيم :

أيها الأخوة ، أكاد أقول أحد أكبر أسباب الإيمان بالله أن ترى حياة المؤمن ، وحياة غير المؤمن ، في آية دقيقة جداً :

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى)

(سورة العلق)

أين التتمة ؟ عجيبة الآية ،

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى)

يعني هذا الإنسان انظر إلى بيته ، انظر إلى مزاحه ، انظر إلى كلامه ، انظر إلى مواعيده ، انظر إلى إتقان عمله ، تراه متفلتاً ، مقصراً ، متجاوزاً ، ظالماً ، مهملاً .

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى)

(سورة العلق)

أكاد أقول لكم أكبر ما يدعم المؤمنين سلوك غير المؤمنين ، الصنعة البديهة ، صادق كاذب ، عنده حياء وخجل ، عنده تفلت ووقاحة ، أمين خائن ، رحيم قاسٍ ، إن لم يكن هناك فرق صارخ بين حياة المؤمن وحياة غير المؤمن ، الإيمان ليس له معنى ، فرق ليس بالصلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة ، لا ، فرق بالسلوك ، فرق بالتصورات ، فرق بالمبادئ ، فرق بالقيم ، فرق بكل شيء .

من ترك منهج الله و سنة نبيه هزمه الله تعالى بالرعب :

لذلك :

(وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ)

أين فرعون ؟ أين ألوهية فرعون ؟ أين ؟.

(ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

بلاء لا يرفع إلا بالصلح مع الله ، والإنابة إليه ، والآن كلام مؤلم المسلمين في بلاء شديد ، في ضغوط فوق طاقتهم ، في مستقبل لا يرضي أبداً .

((يوشكُ الأُمَمُ أنْ تَدَاعَى عليكم كما تَدَاعَى الأكَلَةُ إلى قصْعَتِها (الآن شيء واقع) فقال قائل : من قِلَّة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير))

[أخرجه أبو داود عن ثوبان]

مليار وخمسمئة مليون .

((ولكنَّكم غُثاء كَغُثاءِ السَّيْل))

[أخرجه أبو داود عن ثوبان]

ما في وزن .

((وليَنْزِعَنَّ الله مِنْ صدور عدوِّكم المهابة منكم ، وليقذفنَّ في قُلُوبكم الوَهْنَ ، قيل : وما الوَهْنُ يا رسول الله ؟ قال : حُبُّ الدُّنيا ، وكراهيَةُ الموتِ))

[أخرجه أبو داود عن ثوبان]

والله كأنه معنا الآن ، كأنه يعيش معنا ،

((حُبُّ الدُّنيا ، وكراهيَةُ الموتِ))

ليس لنا هيبة إطلاقاً ، قال عليه الصلاة والسلام :

((نُصِرْتُ بالرُّعبِ مسيرة شهر))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن جابر بن عبد الله]

أمته حينما تركت سنته من بعده ، هُزمت في الرعب مسيرة عام .

كل شيء يأتي بالقسر لا قيمة له إطلاقاً :

إذاً المفارقة أن هذا البلاء نزل على فرعون وقومه ، ولم ينزل على سيدنا موسى والذين آمنوا معه ، هذه المفارقة هي رسالة من الله .

(فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ)

(سورة الأعراف)

والإنسان حينما لا يؤمن الإيمان الصحيح ، حينما لا يبحث عن ربه بحثاً ملياً ، حينما يؤمن تحت الضغط ، إذا رفع الضغط يعود كما كان .

(وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

(سورة الأنعام)

كل شيء يأتي بالقسر لا قيمة له ، إنسان وهو معافى ، صحيح ، شاب في مقتبل حياته تعرف إلى الله ، حضر مجالس علم ، أتى إلى بيوت الله ، تعلم القرآن ، قرأ القرآن ، تعلم السنة ، حفظها ، طبقها ، غض بصره عن محارم الله ، حلل دخله من كل شبهة ، أنت حينما تفعل هذا تكون في طريق الإيمان ، إذاً أنت في حماية الرحمن .

الآن إذا أتت شدة لا تتغير ، ولا تتبدل ، اسمعوا هذه الآية :

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً)

(سورة الأحزاب)

من عاهد الله و رسوله في السراء و الضراء لا يتغير :

ثم يقول الله عز وجل :

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

(سورة الأحزاب)

عاهدنا رسول الله في السراء وفي الضراء ، صدقوا ، أقول لكم هذا الكلام : باستقامته ، وطاعته ، ومحبته ، وإقباله ، لا يتأثر لا قبل الزواج ، ولا بعد الزواج ، ولا قبل الغنى ، ولا بعد الغنى ، ولا قبل المرض ، ولا بعد المرض ، ولا قبل التألق ، ولا بعد التألق لا يتغير .

دخل عليه الصلاة والسلام مكة مطأطئ الرأس ، حتى كادت ذؤابة عمامته أن تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عز وجل .

المصائب لا تصيب إلا من يستحقها :

إذاً المصائب لا تأتي بشكل جماعي ، لا تصيب إلا من يستحقها ، الدليل :

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

أوضح فكرة أن سيدنا يونس وجد نفسه في بطن حوت بالمعايير الواقعية ، الأمل بالنجاة كم ؟ لأن الحوت وجبته المعتدلة أربعة طن ، فسيدنا يونس لقمة واحدة ، في ظلمة الليل وفي ظلمة البحر ، وفي ظلمة بطن الحوت ، حالة نادرة جداً ، حالة شبه مستحيلة ، الحالة الأمل فيها صفر ، صفر مكعب ،

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

إذاً قانون ، أنت مؤمن ، بأي مكان ، بأي زمان ، بأي عصر ، بأي مصر ، بأي بلد ، بأي مدينة ، غني ، فقير ، شحيح ، مريض ، قوي ، ضعيف ، صغير ، كبير ، أبداً هذه الآية لك :

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

لكل شيء حقيقة :

لذلك :

كن عن همومك معرضـا وكلِ الهموم إلى القضـا

وابشر بخــير عاجل تنسى به مـا قد مضى

فلرب أمر مسخط فــي عواقبه رضـــا

*** * ***

ولربما ضــاق المضيق ولربما اتسع الفضـا

الله يفعل مــا يشاء فلا تكن متعرضـا

الله عودك الـــجميل فقف على ما قد مضى

*** * ***

دقق ، لو أن هذه المصائب التي ألمت بفرعون وقومه أصابت سيدنا موسى وأتباعه ما قال فرعون هذا الكلام ، في فرق ، العوام لهم كلام ما له معنى ، بل بعيد عن الحكمة ، لأن البلاء يعم ، لا ، البلاء خاص ، والرحمة خاصة ، ما معنى ؟

(تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ)

(سورة الفيل)

يعني كل حجر عليه اسم من سيصيبه ، لذلك لا يوجد بالقاموس الإسلامي رصاصة طائشة ، هذه بالمفهوم الدنيوي ، أما بالتوحيد لا يوجد شيء طائش ، الدليل :

((لكل شيء حقيقة وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه))

[أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء]

((فلا تَقُل : لو أنَّي فعلتُ لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدَّر الله وما شاءَ فعَل ، فإن لو تفتحُ عَمَلَ الشيطان))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

الإيمان الذي يأتي تحت الشدة لا قيمة له :

الآن نستنبط ، والله الذي لا إله إلا هو لو تفرغ أحدنا ، وتتبع أحوال من حوله الذي أنفق على أهله ، وكان باراً بوالديه ، وكان محسناً لأبناء رحمه أغناه الله ، والذي عفا عن الحرام قبل الزواج رزقه الله زوجة صالحة ، تسره إن نظر إليها ، وتحفظه إذا غاب عنها ، وتطيعه إن أمرها ، ولود ودود ، والذي له تجارب قبل الزواج ، له خبرات مع النساء قبل الزواج يأتي زواجه كقطعة من العذاب ، الزوجة ما في حل وسط ، إما أنها إحدى حسنات الدنيا ، أو إنها إحدى المصائب التي يسوقها الله إلى بعض عباده.

(فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ)

لأن الإيمان الذي يأتي تحت الشدة لا قيمة له ، ما دام في شدة ، في إيمان ، رفعت الشدة زال الإيمان ، كالذين ركبوا السفينة ، فلما أوشكت على الغرق دعوا الله مخلصين ، فلما نجاهم إلى البر

(إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ)

شيء طبيعي ، لا تعبأ بإيمان جاءك عن طريق الشدة ، اعبأ بإيمان وأنت صحيح شاب ، معافى ، ما في عندك ولا مشكلة ، تعرفت إلى الله .

أنا معجب إعجاباً كبيراً بشاب ما عنده مشكلة ، متفوق في دروسه ، صحته طيبة ، له مكانة عند أهله ، التزم بدرس علم ، تتبع أمر الله ، قرأ القرآن ، درس ما فيه ، انتظم بمنهج الله ، ائتمر بما أمر الله ، وانتهى عما عنه نهى الله ، هذا الشاب بدايته محرقة بالاستقامة ، له نهاية مشرقة ، من كانت له بداية محرقة ، كانت له نهاية مشرقة ، أما كل شيء يأتي تحت الضغط ، والجبر ، والإكراه ، ما دام في ضغط ، في التزام ، يزول هذا الضغط ، يعود الإنسان إلى ما كان عليه .

(فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ)

(فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)

(سورة الأعراف)

العاصي بعد زوال الشدة عنه يعود إلى ما كان عليه :

شخص راكب مركبته ، في أحد شوارع دمشق ، وقف عند الإشارة في الحجاز ، إذ بأزمة قلبية تصيبه، فانكفأ على مقود السيارة ، وزوجته إلى جانبه ، فصرخت ، ومن حكم الله أن صديقه وراءه

صدفة ، فحمله إلى مركبته ، وأخذه إلى المستشفى ، وضعوه بالعناية المشددة أيقن أنه على وشك مغادرة الدنيا ، فطلب مسجلة ، وشريطاً ، وقال ، هو كان أخ أكبر واغتصب أموال كل الأخوة الصغار، البيت الفلاني لأخي فلان ، والمحل الفلاني لأخي ، والأرض الفلانية لأخي ، بعد أن اغتصب كل الثروة ، وقعوا على وكالة عامة ، واغتصب كل أموالهم ، أعطاهم النذر اليسير ، واغتصب كل هذه الأموال ، حينما كان في العناية المشددة ، شعر أنه على وشك المغادرة ، طلب آلة تسجيل مع كاسيت ، مع شريط ، بعد عدة يوم أعطوه مميعاً للدم ، شعر بنشاط طلب الشريط وكسره ، جاءته الثانية بعد ثمانية أشهر ، وكانت القاضية ، اعتبروا ، جاءته الثانية بعد ثمانية أشهر ، وكانت القاضية ، الله أعطاه رسالة ، لكن الله عز وجل يبعث رسالة واحدة وليس مئة رسالة ، بعث رسالة ، لو أنه تاب ، تاب الله عليه .

(فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ)

على الشدة آمنوا ، على الرخاء انتكثوا ،

(فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ)

نظرت إلى القانون ؟

(فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ)

وذكرت لكم أن سيدنا موسى تمنى على الله أن يرجع البحر بحراً ، لئلا يتبعهم فرعون ، وتصور أن يبقى فرعون في الضفة الأخرى يبقى عندئذٍ فرعون ، أما الله عز وجل أبقى البحر طريقاً يبساً حتى أغرى فرعون أن يهبط إليه .

استدراج الإنسان المنحرف الضال المعتمد على قوته من قِبل الله عز وجل :

الله عز وجل يستدرج الإنسان مهما يكون ذكياً ، مع الله لا يوجد ذكي ، يؤتى الحذر من مأمنه ، يستدرج الإنسان المنحرف الضال ، العاصي ، وهو في قمة ذكائه ، وفي بعض الأدعية : " واجعل تدميره في تدبيره " يجمع ، يطرح ، يقسم ، يخطط ، يعمل عمل نهايته في هذا العمل ، " اجعل تدميرهم في تدبيرهم " ، مع الله لا يوجد ذكي .

أحياناً يكون إنسان مختص باختصاص نادر جداً ، عنده وهم أنه لن يصاب بمرض من اختصاصه ، معظم الذين يعتدون بأموالهم ، يصابون بمصائب لا تحل بالمال .

شخص قال : الدارهم مراهم ، هذه ليست آية ولا حديث ، الدراهم مراهم ، تحل بها أية مشكلة ، أقسم لي بالله بقي في المنفردة أربعة و ستين يوماً وبلا سبب ، بلا سبب مقنع ، وبلا تهمة ظاهرة ، وفي هذه

الأيام الـ64 يأتي خاطر في اليوم عشرة مرات ، الدراهم مراهم ؟ تفضل حلها .

إياك أن تعتمد على مالك ، ولا على قوتك ، ولا على جاهك ، ولا على صحتك ، قال شخص : أنا لن أموت بسرعة ، سألوه : قال : أنا وزني خفيف ، رشيق ، أكلي معتدل ، كل طعامي صحي ، أمشي كل يوم ، وما عندي هموم ، روحي مرحه ، وكلامه علمي صحيح ، هذا الكلام المفروض يعيش مئة سنة ، قال السبت ، السبت الثاني كان تحت التراب .

إياك أن تعتد بشيء ، لا بصحتك ، ولا بعلمك ، ولا بمالك ، ولا تقول ابني ، قد يذهب إلى بلاد بعيدة ، ويتجنس ، ويمنّ عليك باتصال بالسنة مرة ، وضعت كل ما تملك من أجله لا تعلق على أحد أملاً .

((لو كنتُ متخذا من أُمَّتي خليلا لاتَّخذتُ أبا بكر، ولكن أخي وصاحبي))

[أخرجه البخاري عن عبد الله بن عباس]

العاقل من اعتمد عليه في كل أموره :

علق أملك بالله ، وثقتك بالله ، ولا تخاف إلا الله ، الشرك الجلي أن تخاف مما سوى الله ، وأن تطيع ما سوى الله ، وأن تتأمل ما عند غير الله ، هذا الشرك الجلي .

(فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ)

لا يوجد ذكي عند الله عز وجل ، وغطرسة القتل عنده شيء ممتع ، هذه السنة الثالثة والنصف ، ولم يمت بعد ، وأمد الله في عمره ، والله كبير ، أغنى الأغنياء في بريطانيا ، كان يقرض الدولة ، خزانته للمال غرفة فدخل إلى الخزانة ، وأغلق الباب خطأ ، وصاح ، لم يسمعه أحد ، إلى أن مات جوعاً ، فجرح يده وكتب على الحائط أغنى إنسان يموت جوعاً .

التيتانك ، الباخرة التي كما قيل عنها لا يستطيع القدر إغراقها ، غرقت في أول رحلة .

المركبة المتحدي في أول رحلة بعد سبعين ثانية أصبحت كرة من اللهب ، والثانية بعد عشر سنوات كولومبيا ، في العودة أصبحت كرة من اللهب .

لا تقل أنا ، لا تعتمد لا على مالك ، ولا على علمك ، ولا على قوتك ، اعتمد على الله .

الصحابة الكرام هم نخبة البشر ، لقول البشر :

((إن الله تبارك وتعالى اختارني واختار بي أصحابا))

[أخرجه الحاكم عن عويم بن ساعدة]

بحنين قالوا :

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عبس]

اعتمدوا لا على نصر الله لهم ، قضية داخلية ، غير معلنة ، اعتمدوا على عددهم قال تعالى :

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

من قال أنا تخلى الله عنه و من قال الله تولاه الله برحمته :

أيها الأخوة ، درسان بليغان جداً ، إذا قلت أنا تخلى الله عنك ، وإذا قلت الله تولاك ملخص الملخص ، تقول أنا بعلمي ، باختصاصي ، بمالي .

إنسان جمع أموالاً طائلة بالملايين المملينة (القصة من خمسين سنة) عنده دار سينما ، والأفلام فيها إثارة شديدة ، والشباب أقبلوا عليها ، وجمع أموالاً طائلة ، أصابه مرض خبيث ، رآه ابن أخته(وهو شاب بمقتبل حياته) يبكي ، خفف عنه ، قال له : أنا جمعت أموالاً طائلة حتى أتمتع بحياة مديدة ، ها قد عاجلني المرض ، وأنا سوف أموت ، لأني جمعت هذه الأموال على حساب أخلاق الشباب ، دمرت الشباب .

فالله عز وجل كبير ، وعقابه شديد .

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

إذاً تقول الله يتولاك ، تقول أنا يتخلى عنك ، الصحابة قالوا الله في بدر الله نصرهم بحنين قالوا :

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ))

[أبو داود عن ابن عباس]

وفيهم رسول الله ، الله خذلهم ، قانون .

(وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ)

(سورة الأعراف)

من عاد إلى الله و اصطلح معه تولاه الله بنصره :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

لعل الله عز وجل ينتظر منا أن نكون كهؤلاء المستضعفين ، أن نعود إلى الله ، وأن نصطلح معه ، وأن نتوب إليه ، وأن نقيم الإسلام في بيوتنا ، وفي أعمالنا ، وفي منازلنا ، وفي أنفسنا ، لعل الله سبحانه وتعالى يمكننا كهؤلاء :

(وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا)

يعني الشرق الأوسط .

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ)

(سورة الإسراء الآية : 1)

هذه بلاد الرسالات السماوية ، هذه بلاد الأنبياء ، بلاد الخير ، بلاد الرحمة ، بلاد الحياء ، بلاد العجل، بلاد الإنصاف ، الآن تشتعل ناراً ، قدمنا للعالم نوراً ، فأعادوه إلينا ناراً كما رأيتم .

(وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا)

من طبق أمر الله و صبر تولى الله توفيقه و نصره :

إخوانا الكرام ، بشكل واضح جلي ، محنة المسلمين تحل بكلمتين ، لا ثالث لهما الأولى والثانية معاً :

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

(سورة آل عمران الآية : 120)

وهذه الآية تطبق جماعياً أو فردياً ، أنت بضائقة ، اصبر ، اصبر وطبق أمر الله انظر كيف الله عز وجل يتولى توفيقك ، اصبر والتزم ، اصبر وأطع ، أما اصبر واعص ما بعد الصبر والمعصية إلا القبر فقط ما في شيء ثاني ، لكن بعد الطاعة والنصر والتوفيق .

(الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى)

الكلمة الحسنى أن الله ينصر من ينصره

(عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ)

كل شيء مدمر ، الفراعنة بمصر أين هم ؟ انظر إلى آثارهم ، لهم إنجازات مذهلة .

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذه القصة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول – سورة الأعراف 007 - الدرس(40-60): تفسير الآيات 138 - 141، الجهل والعلم متعارضان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-05-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

إغراق فرعون موسى الطاغية الجبار بقدرة الله تعالى في البحر :

أيها الأكارم ... مع الدرس الأربعون من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثامنة والثلاثين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)

الحقيقة أن كلمة

(يَعْكُفُونَ)

أي يستمرون ، يداومون ، يثبتون ، هؤلاء بنو إسرائيل رأوا بأعينهم كيف أن البحر أصبح طريقاً يبساً، وهذا فوق طاقة كل البشر ، وبنو إسرائيل حينما كانوا مع سيدنا موسى ، وكان فرعون وراءهم بقوته ، وطغيانه ، وحقده وقسوته .

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء الآية : 61)

فرعون الذي كان يذبح أبناء بني إسرائيل ، ويستحيي نساءهم ، وكان طاغية جباراً في الأرض ، ويدعي أنه إله ، وقال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية : 38)

وقال :

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

فرعون الذي كان في أذهان الناس من سابع المستحيلات أن يُدمر ، فالله عز وجل استدرجه إلى البحر، ولما كان في منتصف البحر على طريق يبس ، عاد البحر بحراً ، فأغرق الله فرعون .

الحكمة من نجاة جثة فرعون و قذفها إلى الشاطئ :

لكن لحكمة بالغةٍ بالغة بالغة نجا الله جثته ، فقذفتها الأمواج إلى الشاطئ ، ولو لم يكن ذلك ، لما صدقوا أن الله أهلكه ، لأنه عندهم إله ، قد يقولون رفع إلى السماء ، لكن الله سبحانه وتعالى يقول :

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

(سورة يونس الآية : 92)

والحقيقة فرعون موسى ، جثته محنطة ، وقد نقل إلى باريس كي تُرمم هذه الجثة من بعض الفطور التي أصابتها .

وأحد أكبر الملحدين بأمريكا ، حينما التقى بفتاة مسلمة محجبة حجاباً تاماً ، حجابها لفت نظره ، فعكف على قراءة القرآن ، ولما وصل إلى هذه الآية

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ)

عدّها من أخطاء القرآن فاتصل بصديقه موريس بوكاي ، ينبئه ، وقد ألّف كتاباً عن أحقية القرآن قال له : هذه الآية تفضل ، كيف تفهمها ؟ قال : المعني بهذه الآية رممت جثته بيدي ، هو مدير المشرحة كان .

جبار ، طاغية ، يدعي الألوهية ، يُقتل أبناء بني إسرائيل ، ويستحيي نساءهم والبحر كان بحراً فأصبح طريقاً يبساً ، ونجى الله بني إسرائيل ، وأهلك فرعون ، فلما جاوزوا البحر

(يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)

الله فوق كل الخلق يجعل و لا يُجعل :

لذلك أيها الأخوة ، قضية الإيمان قضية دقيقة جداً ، يجب أن تؤمن أن الخالق لا يُجعل ،

(اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً)

من هو الجاعل ؟ الإنسان ، ما عرفوا من هو الله ، الله يجعل ولا يُجعل ، الله يخلق ، ولا يُخلق ، الله فوق كل الخلق .

فلما قالوا هذا الكلام صُعق سيدنا موسى

(اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)

الإله الذي نجاكم من فرعون ، الإله الذي قلب البحر طريقاً يبساً ، الإله الذي أنقذكم ، الإله الذي خلصكم ، الإله الذي أكرمكم ، الإله الذي نجاكم ، تبحثون عن إله آخر ؟ طبعاً تطبيقات هذه الآية في حياتنا .

إنسان يكون ابنه على خطر الموت ، يأخذه لطبيب ، فإذا شُفي على يد هذا الطبيب ، ينسى أن الله هو الذي شفاه ، ويعزو شفاءه للطبيب ، الطبيب إنسان .

إن الطبيب له علم يدل به إن كان للناس فـي الآجال تخير

حتى إذا ما انتهت أيام رحلته حار الطبيب وخانته العقاقير

* * *

ضعف التوحيد وراء هذه الكلمة ،

(اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ)

هل تعرف من هو الله ؟ معقول قطعة من الحجر تُصنعها أنت ، تنحت الرأس ، ترى الأنف طويلاً تُقصره ، ترى الرأس كبيراً تصغره ، هذا إله ؟! تنحته بيدك ؟! بل إن بعض القبائل ، كان ربها من التمر فلما جاعت أكلته ، بعض الوثنيين إلهه الصنم جاء ثعلب وبال على رأسه ، فكر ، قال : أرب يبول الثعلبان برأسه ، لقد ضلّ من بالت عليه الثعالب .

مَنْ ضعف توحيده علّق أمله بغير الله تعالى :

إخوانا الكرام ، يوجد بآسيا معابد كبيرة جداً ، ما الإله الذين يعبدونه من دون الله ؟ الجرذ ، في اليابان ماذا يعبدون ؟ ذكر الرجل ، في الهند ماذا يعبدون ؟ البقر .

أيها الأخوة الكرام ، اشكروا الله عز وجل على أنه حررنا من هذه الأكاذيب ، هناك من يعبد ذكر الرجل ، هناك من يعبد الجرذ ، هناك من يعبد الحجر ، هناك من يعبد النار ، هناك من يعبد موج البحر، ونحن المسلمون شرفنا الله بأن نعبد الإله العظيم ، خالق السماوات والأرض يا موسى

(اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ)

قد ترون هذا شنيعاً ، ولكن أي إنسان يعلق أمله بإنسان قوي يطيعه ويعصي الله لا يختلف كثيراً عن بني إسرائيل ، إي إنسان لا يرى أن الله بيده كل شيء ، لا يرى أن الله هو الفعال .

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

(سورة هود)

(فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية : 84)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف الآية : 54)

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا)

(سورة الأنعام الآية : 59)

هذا هو التوحيد ، الإنسان من ضعف توحيده يعلق الأمل بغير الله .

المشرك من أطاع مخلوقاً و عصى خالقاً :

لا تستغربوا هذه الآية ، أنهم قالوا :

(اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)

وآلاف المسلمين ، ومئات ألوف المسلمين قال الله عنهم :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

الذي يخاف إنساناً ويعصي خالقاً مشرك ، الذي يغش المسلمين ماذا رأى ؟ أن المبلغ الكبير الذي سيحصّله من غشهم أكبر عنده من الله ، الذي يطيع مخلوقاً ويعصي خالقه مشرك .

أيها الأخوة ، الشرك الجلي في المسلمين قليل ، يعني لا يوجد مسلم يقول الجبل إله هذا لا يوجد ، لكن الذي يضع كل ثقته بإنسان وينسى الواحد الديان ، الذي يخاف من إنسان ويعصي الله .

قصة في بلد إسلامي آخر ، في شدة على أهل الدين ، موظف كبير ، صام رمضان أول يوم يصوم بحياته ، ما كان يصوم رمضان ، فالتقى مع مديره في الشركة ، أو في الوزارة قال له : صائم ؟ قال له: لا لست صائماً ، فجاؤوا له بضيافة فأفطر ، خاف أن يرى من فوقه أنه صائم ، هو يعبد هذا الإنسان من دون الله ،

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

لمجرد أن ترى أن القوة بيد غير الله ، ما لم ترَ أن الله وحده هو الرافع ، وهو الخافض ، وهو المعطي، وهو المانع ، وهو المعز ، وهو المذل ، وهو الذي يرزق ، وهو الذي يقنن ، هذا هو التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد .

الإيمان حقيقة مقطوع بصحتها يؤيدها الواقع :

أيها الأخوة ، لو وقفنا وقفة متأنية عند هذه الظاهرة ، ما العلم ؟ العلم بتعريف موجز الوصف المطابق للواقع ، المقياس والواقع ، للتوضيح :

تألق المصباح في لوحة البيانات في السيارة ، تألق المصباح الأحمر في لوحة البيانات إذا ظننت أن هذا التألق تزييني ، فهو الجهل بعينه ، وإذا علمت أن هذا التألق تحذيري فهو العلم هو في الحقيقة تألق تحذيري ، نسبة الزيت قلّت في المحرك ، فلئلا يحترق المحرك ، تألق هذا الضوء يعني قف ، وأضف الزيت ، فهمك للتألق على أنه تزيين هو الجهل بعينه ، وفهمك للتألق على أنه تحذير هو العلم بعينه ، فالعلم الوصف المطابق للواقع .

هذا شرح موجز ، الأوسع هي علاقة على شكل قانون مقطوع بصحتها ، أحياناً يقول لك : بالـ% 80 متأكد ، بالـ% 80 ظن ، بالـ% 50 شك ، بالـ% 30 وهم ، فالعلم ليس وهماً ، ولا شكاً ، ولا ظناً ، العلم يقيني ، قطعي الدلالة ، فالمقولة العلمية ، المقولة على شكل قانون ، الشيء الأول أنها مقطوع بصحتها ، والشيء الثاني تطابق الواقع ، والشيء الثالث عليها دليل ، إن ألغيت الدليل فالقضية تقليدياً ، ولا يقبل في عقيدة المسلم تقليداً ، لا يقبل في عقيدة المسلم اعتقاداً تقليدياً ، لا بد من اعتقاد مبني على البحث والدرس والدليل :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد الآية : 19)

ما قال فقل ، هنا

(فَاعْلَمْ)

ولو أن الله قبل عقيدة تقليدية لكانت كل الفرق الضالة ناجية عند الله ، لو أن الله يقبل عقيدة تقليدية لكانت كل الفرق الضالة ناجية عند الله ، لأنها قلدت من تزعّم هذا الاتجاه المعين ، ولقنهم كلاماً فصدقوه .

لذلك في العقيدة لا تقبل العقيدة إلا عن علم ، وعن قناعة ، وعن بحث ، وعن درس وعن دليل ، والدليل على ذلك :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

إذاً الإيمان حقيقة مقطوع بصحتها ، يؤيدها الواقع عليها دليل ، لو ألغيت الدليل لكان الكلام تقليداً ولو كان صحيحاً ، لو ألغيت الواقع لكان الكلام جهلاً .

الفرق بين الجهل و عدم العلم :

الآن في موضوع دقيق جداً هل هناك بين الجهل وبين عدم العلم فرق كبير جداً ؟ تصور وعاء ، وعاء الجاهل ممتلئ تعليمات مغلوطة ، أما وعاء غير العالم فارغ ، فعدم العلم شيء ، والجهل شيء آخر ،

الجاهل يملك آلاف المعلومات غير الصحيحة ، آلاف القوانين الخاطئة ، آلاف التصورات الهامة ، ممتلئ بالمعلومات لكنها كلها غلط ، مثلاً للتوضيح :

كلما أكثر الإنسان من ملح الطعام ينخفض ضغطه ، هذه معلومة غير صحيحة بالعكس مدمرة ، وقد تكون قاتلة ، كلما زدت الملح انخفض الضغط ، بالعكس هي ، كلما ازداد الملح ارتفع الضغط ، الضغط القاتل الصامت ، تصور إنسان عنده هذه القناعة ، وفي إنسان آخر كلما كان وزنه أثقل يقول لك صحته أطيب ، لا ، هذا كلام مضحك ، لأن الوزن الزائد من الأمراض الوبيلة ، فإذا شخص كل معلوماته خطأ ، قال أحد الشعراء الجاهليين :

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

* * *

يقول لك شخص : بقدر ما تستطيع استمتع بالحياة هذه معلومة غلط ، أي بقدر ما تقدر دمر نفسك ، بقدر ما تقدر أهلك نفسك ، فالجهل أن تمتلئ بالمعلومات الغير صحيحة ، أن تمتلئ بالقواعد التالفة ، أن تمتلئ بالتصورات الواهمة ، هذا جاهل اسمه .

شخص يظن أنه كلما ظنّ أنه كسب مالاً غير مشروع يعد شاكراً ، والجاهل الثاني يقول لك دبر حاله ، والله رجل ، الاثنين أجهل من بعضهم ، كلمة جاهل يعني يتكلم ، معه شهادات عليا أحياناً ، يتفلسف عشر ساعات ، يلقي عليك محاضرة باللغة الفصحى وهو جاهل معنى جاهل يعني معلوماته غلط ، تصوراته غلط ، معنى جاهل متصور أن هذه الدنيا كل شيء يقول لك الغني هو بالجنة عايش ، ما هي الجنة ؟ أن تكون غنياً ، هذا جهل ، بالعالم الغربي عندهم مقولة ، مايت مكرايت ، يعني أنت قوي أنت على حق ، من هو صاحب الحق ؟ القوي فقط ، كما يفعلون ، ما دمت قوياً افعل ما تشاء ، دمر ، اقتل، أنت على حق ، لأنك قوي ، هذه المقولة تنتهي إلى النار ، إلى جهنم ، في إله يحاسب .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)

(سورة إبراهيم الآية : 42)

هذا هو الجهل بعينه ، وإذا علمت أن الله ليس بغافل ، وسوف يحاسب ، وسوف يعاقب فأنت العالم .

إقناع الإنسان الغير متعلم أهون ألف مرة من إقناع الإنسان الجاهل :

أنا أقول لك كلاماً دقيقاً : احذروا الجاهل ، الجاهل معه دكتوراه أحياناً الجاهل بأعلى مكان يكون أحياناً، متكلم فصيح ، طليق اللسان ، له مؤلفات كثيرة .

ألف كتاب في لبنان أن إله محمد قمعي ، لأنه ما قبل معه إلهاً آخر ، أليس لا إله إلا الله ؟ أما آلهة قريش كانوا ديمقراطيين ، لأنه كل إله قبل معه إلهاً آخر ، هناك اللات ، و العزى ، في كتب كلها

جهل، يعني الجهل متفشي ، والجهلاء دكاترة وأصحاب شهادات عليا ، وتنظيرهم مادي ، والدنيا هي كل شيء ، والقوي صاحب الحق ، أما الغير العالم إنسان إناؤه فارغ .

لذلك أهون ألف مرة أن تقنع إنساناً لا يعلم ، من أن تقنع إنساناً جاهلاً ، أي معه معلومات خاطئة ، مشكلتك مع الإنسان الجاهل عندك مهمتين ، عندك مهمتان كبيرتان ، الأولى أن تنزع من تصوره هذه المعلومة ، والثانية أن تعطيه البديل ، مهمة مزدوجة أن تنتزع منه هذه المعلومة ، ثم أن تعطيه البديل ، أما الغير متعلم ، أو الغير جاهل ، أو الغير عالم ، إناؤه فارغ .

تجد أحياناً سهل جداً تقنع إنسان أجنبي بالإسلام ، عن أن تقنع شخصاً منافقاً بالإسلام الصحيح .

الجاهل هو الإنسان الذي ابتعد عن منهج الله وعن القيم التي جاء بها الدين :

أيها الأخوة الكرام ، الأمي ، أو غير المتعلم ، أو غير العالم إقناعه سهل بالدين ، لأن وعاءه فارغ .

عرفت هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً فارغاً فتمكنا

* * *

أما الذي عنده معلومات خاطئة ، الذي عنده قناعة أنه افعل ما تشاء والنبي يشفع لك مشكلة ، يرتكب المعاصي وهو مطمئن .

((شفاعتي لأهل الكبائر مِنّ أمَّتي))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أنس بن مالك]

مرتاح ، شيء مريح جداً ، هذا جاهل ، جاهل يعني معه معلومات ، وحافظ أحاديث وآيات كثيرة ، يقول لك : لماذا الربا حرام ؟ اسمعوا الآية :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران الآية : 130)

الله نهى عن الأضعاف المضاعفة فقط ، أما عن نسب معقولة ما نهى عنه ، ألا تستقيم ؟ أنا موقن بالله، الله قال :

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

(سورة الحجر)

إذا أيقنت انتهى ، هذا جاهل ، الجاهل معه معلومات ، ومعه أدلة أحياناً ، ومتكلم وفصيح ، ومعه شهادات عليا ، وهو عند الله جاهل ، الجاهل الذي ابتعد عن منهج الله ، ابتعد عن القيم التي جاء بها الدين ، ابتعد عن المبادئ .

من ابتعد عن تعليمات الصانع خسر الدنيا و الآخرة :

فيا أيها الأخوة ، ماذا قال ؟

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ)

رأوا البحر أصبح طريقاً ، رأوا كيف فرعون الذي قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

والذي قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

كيف غرق ،

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ ـ ماذا قال سيدنا موسى ؟ ـ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)

رأوا تجارب رائعة جداً ،

(إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)

(إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الأعراف)

الذين يعكفون على أصنام لهم

(مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ)

يعني هالكون ، أشقياء ، ابتعدوا عن منهج الله ، ابتعدوا عن تعليمات الصانع ، ابتعدوا عن الخير ، ابتعدوا عن الآخرة ، خسروا الآخرة .

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزمر الآية : 15)

الحق ثابت لا يتبدل أو يتغير و الباطل زائل لا محالة :

إخوانا الكرام ، الحق ثابت ، معنى حق أي مستقر ، الحق لا يتعدد ، والحق ثابت ، الله عز وجل قال :

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ)

(سورة إبراهيم الآية : 37)

القول الثابت القرآن الكريم ، لأنه كلام رب العالمين ، لأن هذا القرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، الحق ثابت لا يتغير ، ولا يتبدل ، يعني كم فرقة ضالة أتت في تاريخ المسلمين ؟

أين هي الآن ؟ تلاشت ، لأنها باطلة ، والإسلام بقرآنه ، وسنة نبيه هو الشامخ ، هو كالطود ، الحق ثابت ، والباطل زائل .

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

(سورة الإسراء)

والباطل الذي طرح شعار لا إله بقي سبعين عاماً ، وكان من أقوى الكيانات في الأرض ، يملك من القنابل النووية ما تدمر القارات الخمس ، ومع ذلك لأنه كان باطلاً ، كان زهوقاً :

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

العالم المادي لم يحقق للإنسان السلامة والسعادة لذلك اتجه نحو الإسلام :

الآن أي طرح باطل ، أي فلسفة باطلة ، أي عقيدة باطلة ، أي قوة باطلة ، أي كيان باطل ، إلى زوال،

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

ما الذي يبقى ؟ الحق ، الآن بالخمسينات كم مذهب وضعي انتشر وذاع وتألق ثم تلاشى ولم يبقَ إلا الدين ؟

في بعض البلاد الغربية يدخل في اليوم الواحد خمسون ألف إنسان من أصل أوربا ، في بلد واحد ، يومياً في الإسلام ، لأنه المذاهب الوضعية لم تحقق للإنسان كل حاجاته ، حققت له حاجات الجسد ، رفاه يفوق حدّ الخيال ، مواصلات ، اتصالات ، مخترعات ، بيوت جميلة ، حدائق ، مركبات ، كل شيء من الدرجة الأولى ، أما الإنسان هناك فراغ لا تملؤه المادة يملؤه الإيمان .

لذلك العالم الغربي يدخل في الإسلام بشكل عجيب ، في أمريكا ، في استراليا ، في أوربا ، لأن العالم المادي ما حقق للإنسان السلامة والسعادة ، حقق له رفاهاً .

أحياناً الإنسان يضجر من هذه الأجهزة المرفهة ، والمركبات ، والطائرات ، يريد أن يبكي ، يريد أن يتصل بالله ، يريد أن يطمئن إلى آخرته ، يريد أن يستقر .

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ)

(سورة فصلت)

الإسلام هو الدين الأول في العالم :

أيها الأخوة ، قال تعالى :

(أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ)

(سورة الرعد الآية : 17)

الإسلام هو الدين الأول في العالم ، مع أن حرباً عالمية ثالثة معلنة عليه ، ومع ذلك هو الدين الأول الذي ينمو .

أيها الأخوة ، ماذا قال سيدنا موسى ؟ قال :

(إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ)

هالكون

(وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

باطل يعني زائل ، أعمالهم إلى دمار ، حضارتهم إلى دمار .

الإنسان بقبضة الله عز وجل فعليه ألا يعبد غيره سبحانه :

(قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

(سورة الأعراف)

أي معقول أن تتخذ إلهاً غير الله ؟ الذي خلق السماوات والأرض ، الذي بيده حياتك وموتك ، الذي بيده رزقك ، الذي بيده أجهزتك ، الذي بيده زوجتك ، وأولادك ، ومن حولك ومن فوقك ، ومن تحتك .

القلب بيد من ؟ الأوعية الدموية بيد من ؟ الإنسان بلمحة يصبح مشلولاً ، خثرة دم لا تُرى بالعين تتجمد في أحد أوعية الدماغ ، يفقد الإنسان حركته ، أو يفقد بصره ، أو يفقد سمعه ، أو يفقد ذاكرته ، بثانية ، من أنت ؟ كل قيمتك ، وقدرتك ، وهيمنتك ، وشخصيتك منوطة بسيولة دمك ، منوطة بنمو خلاياك .

فلذلك أيها الأخوة ، أنت في قبضة الله ، وجسمك بفضل الله يتمتع بالصحة الجيدة كان عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ من فراشه يقول :

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي ، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي ، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

(قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً)

أي معقول أن تعبد إنساناً من دون الله ؟ معقول أن تعبد شخصاً من دون الله ؟ معقول أن تعبد المال ؟.
شخص قال مرة : الدارهم مراهم ، يقصد أنه بالمال تحل كل مشكلاته ، فالله عز وجل أدبه بمشكلة لا تحلّ بالمال .

بقوة الله أصبحت حكيماً ، حكمتك من حكمة الله ، أصبحت غنياً غناك من غنى الله عز وجل .

(قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

كأنهم نسوا ما فعل بهم فرعون .

(وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

(سورة الأعراف)

على كل إنسان أن يذكر نعم الله الكبرى عليه :

الله عز وجل في بعض الآيات يقول :

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله)

(سورة إبراهيم الآية : 5)

هذا درس بليغ ، وتوجيه حكيم ، يعني لا يوجد شخص من إخوتنا الكرام إلا له مع الله تجربة ، مرة دعاه فاستجاب له ، هيأ له زوجة صالحة ، هيأ له عملاً ، نجح بشهادة ، يتقن حرفة كان في أمامه شبح مرض فأنقذه الله منه ، فإذا أنقذك الله من شبح مرض ، أو هيأ لك وظيفة تدر عليك دخلاً تغطي حاجاتك، أو هيأ لك زوجة ، وأولاداً ، أو هيأ لك إيماناً ، هيأ لك مكاناً في مجلس علم ، هذه نعم الله الكبرى تذكرها ،

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله)

على كل إنسان أن يعود نفسه أن يتذكر أيام الله عز وجل :

لذلك

(وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

عود نفسك أن تتذكر أيام الله ، عود نفسك أن تتذكر أن الله سبحانه وتعالى أكرمك بوالديك ، أكرمك بصحة ، أكرمك بخلق تام ، كان عليه الصلاة والسلام إذا وقف أمام المرآة يقول :

((اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي))

[الجامع الصغير بسند صحيح عن ابن مسعود]

حواسك سليمة ، أعضاؤك سليمة ، قوامك مقبول ، قوتك جيدة ، لك سمعة طيبة ، تربيت في بلد طيب دلك على أهل الحق ، هذه كلها أيام الله ، أنا أستنبطها من هذه الآية .

(وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

تذكر نعمة الله عليك ، يعني الإنسان أحياناً يمر بإنسان مصاب ، هناك أمراض وبيلة ، هناك مصائب لا تحتمل ، هناك شيء فوق طاقة البشر :

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا)

(سورة البقرة الآية : 286)

دخلت إلى بيتك لك مأوى ، الحمد لله الذي آواني ، وكم من لا مأوى له ، لك زوجة والزوجة نعمة كبيرة ، لا تكفر هذه النعمة ، أيتها المرأة لك زوج ، والزوج نعمة كبيرة ، لا تكفري هذه النعمة ، لك أولاد ، الإنسان يكون معه ملايين مملينة ما عنده أولاد ، إذا رأى طفلاً صغيراً يموت من الألم ، عندك أولاد ، يملؤون البيت فرحة ، اعتن بهم ، اشكر الله عليهم ، إذا الله عز وجل منحك صحة ، منحك إيماناً ، منحك سمعة طيبة ، منحك مأوى صغير ، منحك زوجة .

((مَنْ أصبَحَ منكم آمِنا في سِرْبه ، مُعافى في جَسَدِهِ ، عندهُ قوتُ يومِه ، فكأنَّما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن محصن]

نعمة الأمن نعمة ثمينة لا تقدر بثمن :

أنا أحاول من خلال هذه الآيات أن أسقطها على واقعنا ، نحن نشكو أشياء كثيرة لكن هل ترى ماذا يحدث حولنا ؟ من إراقة دماء يومياً مئة قتيل ، مئتي جريح يومياً لا يوجد أمن إطلاقاً ، نعمة الأمن التي عندنا نعمة كبيرة جداً ، نعمة وجود أسر سليمة ، معافاة ، أي عندنا ميزات كبيرة جداً ، في إنسان سبحان الله ، كما قال الله عز وجل :

(وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

(سورة الأعراف الآية : 17)

بأي مكان في العالم ما في ماء إلا بالمال ، عندك بالشام تفتح الصنبور تجد ماء بارداً عذباً ، زلالاً ، مجاناً ، هذه نعمة كبيرة ، نعمة الماء ، نعمة أنه أنت لك بيت ، لك مأوى ، لك زوجة ، لك أولاد ، لك عمل ، لك دخل ، هذه نعم كبيرة .

ذلك التوجيه النبوي : انظر إلى من هو أدنى منك ، ذلك أحرى ألا تحتقر نعمة الله عليك .

أما في شأن الدين إياك أن تنظر إلى من هو أدنى منك ، في شأن الدين انظر إلى من هو فوقك في الإيمان ، من أجل أن تتحمس ، من أجل أن يكون هذا النظر باعثاً على مضاعفة الجهد ، في شأن الدنيا انظر إلى من هو أدنى منك ، في شأن الآخرة انظر إلى من هو فوقك .

له كلمة سيدنا عمر : من دخل على الأغنياء خرج من عندهم وهو على الله ساخط .

يسكن في بيت دافئ في الشتاء ، بارد في الصيف ، مساحته معقولة ، عنده غرفة نوم ، عنده غرفة جلوس ، عنده مطبخ ، عنده زوجة ، عنده أولاد ، يدخل إلى بيت 450 متراً التحف بالملايين ، الأجهزة ، خمسة أو ستة مركبات ، يجد ما عنده شيء هو ، من دخل على الأغنياء خرج من عندهم وهو على الله ساخط .

بطولة الإنسان أن ينقل اهتماماته من الدنيا إلى الآخرة :

أنت عاشر من هو أدنى منك ، تجد نفسك بنعم كبيرة ، والحياة مؤقتة ، أي لا يوجد إنسان يموت ويأخذ معه شيئاً ، أحياناً شخص بحكم علاقاته الاجتماعية يعزي إنساناً ساكن ببيت غالٍ كثيراً ، أنا أفكر في هذا البيت ، من اختار هذا الأثاث ؟ المرحوم ، من اختار هذا الجبصين ؟ المرحوم ، من اختار هذا البلاط الرخامي ؟ المرحوم ، من اختار هذه التزينات ؟ المرحوم ، أين المرحوم ؟ بالقبر المرحوم .

البطولة أن تؤمن بالآخرة ، أن تنقل اهتماماتك إلى الآخرة .

أيها الأخوة ، آيات اليوم :

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ *إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(41-60): تفسير الآيات 142 - 144، استعداد سيدنا موسى للقاء الله بعد مشقة كبيرة مع فرعون
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-06-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ الصادق الوعد الأمين اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم ، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات .

إغراق آل فرعون عبرة لمن جاء بعدهم :

أيها الأخوة الكرام ، مع الدرس الواحد والأربعين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثانية والأربعين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ)

أيها الأخوة ، بعد أن نجى الله بني إسرائيل من فرعون الذي كان يقتّل أبناءهم ويستحيي نساءهم ، بعد أن نجاهم منه بمعجزة ، حينما تبعهم بالبحر ، فلما خرج موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام مع قومه إلى الضفة الثانية ، عاد البحر بحراً ، وأغرق الله آل فرعون ودمرهم ، وأصبح عبرة لكل طاغية .

بعد أن نجى الله قوم موسى من فرعون ، الذي تفنن في سفك دمائهم ، واستحياء نسائهم ، وإذلالهم ، الآن جاء طور آخر ، هذا الطور هو مجيء التشريع ، فقال تعالى :

(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً)

الإجمال والتفصيل إن جاءا في آية واحدة حَلّ الإشكال :

أيها الأخوة ،

(وَوَاعَدْنَا مُوسَى)

أي هناك وقت ، ومكان لإلقاء الكتاب على موسى الذي فيه منهج الله ، وفيه التعريف لماذا خلق الإنسان في هذه الدنيا ؟ ولكن قد يقول قائل هناك آية يقول الله عز وجل :

(وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً)

(سورة البقرة الآية : 51)

وفي هذه الآية :

(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ)

قال بعض علماء التفسير هناك إجمال ، وهناك تفصيل ، ففي الآية الأولى

(وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً)

هذه آية طابعها الإجمال ، وفي الآية الثانية

(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ)

هذه آية فيها تفصيل ، فإذا جاء الإجمال والتفصيل معاً في آية واحدة حُل الإشكال ،

(فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً)

لكن أحياناً تأتي آيات من نوع آخر يبدو أن هناك تناقض بينها ، من هذه الآيات :

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ)

(سورة فصلت)

في يومين ، وفي أربعة أيام .

(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ)

(سورة فصلت)

كم يوم أصبحوا ؟ ثمانية ، وفي معظم آيات القرآن الكريم :

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

(سورة هود الآية : 7)

فقال هذا إجمال وتفصيل .

كلام الله كلام معجز وأي إشكال في القرآن الكريم على الإنسان أن يسأل عنه أهل الذكر :

قد يفهم هذا الإجمال والتفصيل معاً بالتداخل ، فقد تقول مثلاً وصلت إلى حمص في ساعتين ، وإلى حماة في ثلاث ساعات ، ماذا نفهم ؟ أن الزمن الذي استغرقته بالوصول إلى حمص داخل في حماة ، وصلت إلى حمص في ساعتين ، وإلى حماة في ثلاث ساعات ، هناك تداخل ، على كلٍ إن هذا الموضوع حينما نؤمن أن كلام الله كلام معجز وأن فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، أي إشكال يبدو لك في القرآن الكريم هناك إجابة مقنعة مئة بالمئة ، ولكن قال تعالى :

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل)

أهل الذكر أهل القرآن ، هناك ملمح آخر في قوله تعالى :

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

(سورة يونس الآية : 39)

إذاً أنت ليس مسموح لك أن تتساءل ، أو أن تحكم قبل أن تسأل ،

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

هناك إشكالات كثيرة جداً ، تبدو في الظاهر إشكالات ، يبدو في الظاهر مفارقات ، هي في الحقيقة آيات محكمات ولها شرح وتفصيل ، وتعليل رائع جداً .

ما من شيء عظيم يفوق أن تعرف الله عز وجل :

أيها الأخوة ، الموضوع الدقيق الذي يلفت النظر أن الله سبحانه وتعالى قال

(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً)

لقاء بين سيدنا موسى وبين ربه .

الإنسان أحياناً يعتز بلقاء مع ملك ، يعتز بلقاء مع إنسان كبير ، مع عالم جليل ، أما هنا اللقاء مع خالق السماوات والأرض ، أنا أذكر هذا المثل كثيراً كي أضع الحقيقة كاملة بين أيديكم :

الطفل الصغير إذا قال مرة : معي مبلغ عظيم ، كم تظنه ؟ طفل والده معلم ، وجاء العيد ، وانتهى العيد، وقال لأخيه الكبير معي مبلغ عظيم ، أنا أقدره بمئتي ليرة ، كلمة عظيم من طفل تعني 200 ، فإذا قال مسؤول كبير في دولة عظمى تزمع أن تشن حرباً على بلد نفطي : أعددنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً ، الكلمة نفسها ، ما دامت هذه الكلمة صدرت من مسؤول كبير في دولة عظمى 200 مليون ، لا ، 200 مليار دولار ، كلمة عظيم من هذا الإنسان نقدرها بمئتي مليار ، الكلمة واحدة .

فإذا قال ملك الملوك ، ومالك الملوك ، فإذا قال قيوم السماوات والأرض ، فإذا قال خالقنا ، وربنا ، ومسيرنا :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

(سورة النساء)

هل هناك من شيء عظيم يفوق أن تعرف الله .

((ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء))

[ورد في الأثر]

الإله العظيم الطريق إليه سهل جداً :

لذلك

(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً)

أحياناً رمضان فرصة للقاء مع الله ، للقاء مع الله في الصلوات الخمس ، في صلاة الفجر ، في صلاة التراويح ، الحج فرصة للقاء مع الله عز وجل ، الصلوات الخمس فرصة للقاء مع الله عز وجل ، والآية التي تنظم هذه اللقاءات :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

(سورة الكهف الآية : 110)

يعني يستطيع مجند غر ، التحق لتوه في قطعة عسكرية تنتمي إلى لواء كبير أو إلى فرقة كبيرة ، مؤلفة من ثلاثة ألوية ، على رأس هذه الفرقة ، لواء أركان حرب ، هل يستطيع هذا المجند الغر أن يقابل هذا اللواء الذي يرأس ألوية ثلاثة ؟ في كل أنظمة العالم ، وفي كل جيوش العالم هذا الجندي الغر، لا يستطيع مقابلة هذا اللواء الكبير ، لأن أمامه عريف ، على التسلسل يقابل العريف ، ثم عريف أول ، ثم مساعد ، ثم مساعد أول ، ثم ملازم ، ثم ملازم أول ، ثم نقيب ، ثم رائد ، ثم مقدم ، ثم عقيد ، ثم عميد ، ثم لواء ، بعدها في عماد ، هل يستطيع هذا الجندي أن يقابل أعلى رتبة مباشرة ؟ لا يستطيع ، إلا في حالة واحدة ، أن يكون ابن هذا اللواء الكبير يسبح وكان على وشك الغرق فألقى هذا الجندي بنفسه وأنقذه ، يدخل عليه من دون استئذان ، ويكرمه أعظم تكريم ، وقد يجلس إلى جانبه وقد يضيفه بنفسه ، أليس كذلك ؟ هذا المثل ضعوه بين أيديكم ،

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

أسعد إنسان من تجلى الله على قلبه بالأمن و الاستقرار :

أتحب أن تبكي في الصلاة ؟ أتحب أن يتجلى الله على قلبك ؟ أتحب أن تشعر أن الله يحبك ؟ أتحب أن تحس بالأمن ؟ أتحب أن تحس بالاستقرار ؟ أتحب أن تحس أن الله راضٍ عنك ؟ كل هذه المشاعر ثمنها العمل الصالح ،

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

ثمنها أن ترحم عباد الله ، ثمنها أن تنصحهم ولا تغشهم ، ثمنها ألا تبتز أموالهم ، ثمنها ألا تلقي الرعب في قلوبهم ، ثمنها أن ترحمهم ، أن تقدم لهم كل مساعدة ، إنهم عباد الله .

لذلك أيها الأخوة ، إن أردت ميقات الله عز وجل ، إن أردت خلوة مع الله ، إن أردت إقبالاً على الله ، إن أردت أن تستمد من الله العون ، والتوفيق ، والنصر ، والتأييد ، وأن يسعدك ، إن أردت أن تقول ليس في الأرض من هو أسعد مني ، إن أردت أن تشعر أنك متفوق ، وأن الله يحبك ، وأن كل من في الأرض بيد الله عز وجل ، وأنت مع الله ، كل من في الأرض من أقوياء بيد الله ، وأنت مع الله ، وإذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك .

كل إنسان بحاجة إلى شحنة روحية و خلوة مع الله عز وجل :

لذلك أيها الأخوة ،

(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً)

سيدنا موسى استخلف أخاه هارون في قومه ، هو ذهب إلى المناجاة ، ذهب إلى الخلوة مع الله ، ذهب إلى ما يشبه غار حراء ، وأنا أقول لكم أيها الأخوة : كل مؤمن يحتاج إلى غار حراء ، أحياناً غرفته إذا جلس في هذه الغرفة ، وقرأ القرآن هذا يشبه غار حراء ، إذا ذكر الواحد الديان ، هذا يشبه غار حراء، إذا ذكر الله باسمه ، أو بما دعا به النبي عليه الصلاة والسلام ، يعني لا بد لك من أن تشحن شحنة روحية .

وهذا الهاتف الجوال أكبر دليل على ذلك ، إن لم تشحنه تنطفئ الشاشة ، ويصمت وينتهي عمله .

وهذا المؤمن إن لم يشحن عندنا شحنات يومية ، خمس شحنات يومية ، الصلوات الخمس ، هذه الشحن بسيطة تكفي للصلاة التي تليها ، عندنا شحنة أطول شحنة أسبوعية ؛ شحنة خطبة الجمعة ، إذا أنت استطعت أن تدرك ركعتي الجمعة مع الإمام إياك أن تتوهم أنك أديت صلاة الجمعة ، لأن الله عز وجل حينما قال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الجمعة الآية : 9)

قال علماء التفسير : ذكر الله هي الخطبة ، هذه عبادة تعليمية ، هذه العبادة التعليمية من خصائص هذا الدين العظيم ،

(فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

بل إن الذي يأتي مبكراً كأنه قدم جملاً (ناقة) والذي يأتي بعده كأنه قدم بقرة ، والذي يأتي بعده كأنه قدم شاة ، والذي يأتي بعده كأنه قدم دجاجة ، والذي يأتي بعده كأنه قدم بيضة ، هذا كله قبل أن يصعد الخطيب إلى المنبر قال : فإذا صعد الخطيب المنبر طوت الصحف ، يقول لك أنا لحقت ركعة الحمد لله،

شيء مضحك ! عبادة تعليمية أرادك الله أن تستمع إلى خطبة ، إلى موضوع ، موضوع متعلق بآخرتك بسلامتك ، بسعادتك ، بتألقك ، بالتوفيق ، بالنصر ، بالتأييد .

استخلاف سيدنا موسى لأخيه هارون في قومه :

لذلك أيها الأخوة ،

(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً)

هو هيأ نفسه تهيئة كبيرة ، هيأ نفسه بالذكر ، هيأ نفسه بالتنقية من كل شيء ، من كل شائبة ، استخلف أخاه هارون ، و هارون رسول أيضاً ، والدليل لما التقى سيدنا موسى وهارون مع فرعون :

(فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ)

(سورة طه الآية : 47)

سيدنا هارون رسول ، سيدنا موسى أيضاً رسول ، فسيدنا موسى استخلف أخاه هارون

(وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي)

وكلتك بقومي ، بعد أن نجاهم الله عز وجل من فرعون .

(وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ)

إذا قلت للصالح أصلح ، أي داوم على إصلاحك ، نبي كريم هو صالح ، صالح من الصالحين الكبار ،

(وَأَصْلِحْ)

يعني اسلك سبيل الصلاح الذي عُهد منك . أما

(وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ)

كأن الله سبحانه وتعالى أوحى إليه أن هناك مشكلة سوف تنشأ مع بني إسرائيل ، وأخوك مسؤول عنكم، فقال له :

(وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ)

تناسي قوم فرعون المعجزات الدالة على عظمة الله وطلبهم بأن يُجعل لهم إلهاً :

لكن الذي حصل أن سيدنا موسى ذهب إلى المناجاة (ولها حديث طويل بعد قليل)واستخلف أخاه هارون في قومه ، فلما نجا الله بني إسرائيل من فرعون الذي قتّل أبناءهم واستحيا نساءهم ، قدموا على قوم يعبدون العجل من دون الله .

(قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ)

(سورة الأعراف الآية : 138)

هذه الآيات الصارخة الدالة على عظمة الله ، كيف أن الله أغرق فرعون ، وما أدراك ما فرعون ، بقوته ، بجبروته ، بمن حوله ، بأسلحته ، دمره كمعجزة ، كيف أن الله جعل البحر طريقاً يبساً ، كيف أن عصا سيدنا موسى ألقاها :

(فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

(سورة الأعراف)

كيف أن هذا الثعبان أكل كل ما صنعه السحرة والمفسدون ، كيف يتناسى هؤلاء كل هذه المعجزات ، ويقولون لسيدنا هارون :

(اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ)

(وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ)

إن لم ترحم من حولك لست مؤهلاً أن تقودهم :

بالمناسبة : انظر إلى الكلام ما أدقه ،

(وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ)

أنت أخي ، ما معنى أنت أخي ؟ قال فيها تحنن ، أنت ابني تقول أحياناً ، أنا ابنك يا أبتِ ، هذا كلام فيه تحنن ، فسيدنا هارون رسول ، وأخ لسيدنا موسى ، علاقة القرابة تبدو قوية جداً ، بدأ بأخوته ،

(وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي)

أن تنوب عني بإشراف عليم ،

(اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي)

ماذا تعني كلمة قومي ؟ فيها انتماء .

حينما جاء ملك الجبال النبي عليه الصلاة والسلام في الطائف وقال له : أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك ، لو شئت لأطبقت عليهم الأخشبين ، ماذا قال النبي الكريم ؟

((اللهم اهدِ قومي إنهم لا يعلمون))

ما الذي يحدث الآن ؟ إنسان يسافر لبلد غربي ويعود وقد انسلخ من أمته متخلفون ! كأنه هو من طينة أخرى ، كأنه صار من ذهب وهؤلاء من طين ، هذا الانسلاخ من بعض شباب المسلمين إذا سافروا إلى الغرب ينعتقون من دينهم ، ومن أمتهم ، ومن واقعهم ، ويستعلون عليه ، سيد الخلق وحبيب الحق ، قال:

((اللهم اهدِ قومي إنهم لا يعلمون))

دقق في هذا الكلام :

(وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ)

يعني أنت أخي وشريكي في الرسالة ، قال له :

(اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ)

في قومي ، هم عزيزون عليّ ، وما لم يكن الذين حولك عزيزين عليك أنت لست مؤهلاً أن تقودهم ، أساس القيادة تحتاج إلى حب ، أساس القيادة تحتاج إلى رحمة ، إن لم ترحم من حولك أنت لست مؤهلاً أن تقودهم ، أنا أقول هذا الكلام لأي منصب قيادي ، أنت معلم إن لم تحب طلابك لن تعلمهم ، أنت مدير مستشفى إن لم تحب الأطباء والممرضين ، وتراهم أسرة واحدة لن تحسن قيادتهم ، الأساس هو الرحمة ، الأساس هو الحب ،

(اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي)

قومي عزيزون عليّ .

التشريع الإلهي لا يزيد عن كلمتين ؛ افعل أو لا تفعل :

أما سيدنا موسى هو الآن يعد نفسه للقاء الله عز وجل .

بالمناسبة : سوف يأتي في هذا الميقات تشريع إلهي ، وينبغي أن نعلم علم اليقين أن التشريع الإلهي لا بد من كلمتين ، افعل ، فعل أمر ، ولا تفعل فعل مسبوق بنهي ، فالقرآن الكريم من دفته إلى دفته ، الأوامر والنواهي لا تزيد عن افعل ، ولا تفعل .

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ)

(سورة لأنعام الآية : 72)

افعل .

(وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

(سورة الحجرات الآية : 12)

لا تفعل ، منهج الله عز وجل لا يزيد عن كلمتين ، افعل ، ولا تفعل ، ويجب أن توقن وأن تعلم علم اليقين أن كل شيء أمرك الله أن تفعله أنت قادر على أن تفعله ، وتستطيع أن تفعله .

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة الآية : 286)

وأن كل شيء نهاك الله عنه أنت قادر على أن تنتهي عنه ، وباستطاعتك أن تبتعد عنه ، لقوله تعالى :

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

لذلك أي دعوة من أي مؤمن أنا لا أستطيع ، نقول له : لا ، الاستطاعة لست أنت الذي تحددها ، الذي يحددها هو الله عز وجل ،

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

دعوة النبي الكريم موسى إلى لقاء ربه :

أيها الأخوة :

(وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأعراف)

نحن الآن مع حالة متميزة جداً لهذا النبي الكريم ، الآن هذا النبي الكريم مدعو للقاء الله ،

(وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا)

الميقات هو الحقيقة ، كل فعل له مكان ، وله زمان ، مكان الفعل ميقات ، وزمان الفعل ميقات ، في مواقيت الحج الأمكنة التي يبدأ منها الإحرام ، ميقات أهل الشام ، ميقات أهل العراق ، ميقات أهل اليمن، هذه مواقيت ، يعني أماكن ، و هناك للصلاة أماكن أي أزمنة ، صلاة الفجر بين طلوع الفجر وشروق الشمس ، صلاة الظهر بعد أن تنحرف الشمس عن كبد السماء ، صلاة العصر إذا كان الظل مثلين ، صلاة المغرب عندما تغيب الشمس ، صلاة العشاء عند غياب الشفق الأحمر ، هذه مواقيت .

المواقيت الزمانية و المواقيت المكانية :

إذاً هناك مواقيت مكانية ، ومواقيت زمانية ، أي عندنا عبادات الأصل فيها الميقات الزماني ، كالصلوات الخمس ، ورمضان ، لك أن تصلي في أي مكان ، ولك أن تصوم في أي مكان ، أما الميقات ميقات الصيام ميقات زماني ، حينما ترى هلال رمضان .

(فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ)

(سورة البقرة الآية : 185)

ففي الصوم الميقات الزماني هو الأصل ، وفي الصلاة الميقات الزماني هو الأصل ، أما في الحج لا بد من أن تذهب إلى الحرمين الشريفين ، لا بد من أن تذهب إلى جبل عرفات .

((الحج عرفة))

[أخرجه مسدد بن مسرهد عن عبد الله بن عباس]

هناك ميقات مكاني .

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً :

الآن تمهيد :

(وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا)

جاء ليلتقي مع الله عز وجل

(وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ)

الله عز وجل قال :

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً)

(سورة الشورى الآية : 51)

بالقرآن الكريم عندنا قاعدة ،

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً)

عن طريق سيدنا جبريل ،

(أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ)

يسمع صوتاً ولا يرى شيئاً ،

(أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً)

(فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ)

(سورة الشورى الآية : 51)

أيها الأخوة ، سيدنا موسى كلمه ربه من وراء حجاب ، الحالة التي إحدى حالات ثلاث هي الحالة الثانية ، سيدنا موسى كلمه ربه من وراء حجاب ، يعني يسمع كلاماً ولا يرى متكلماً .

طموح سيدنا موسى في أن يرى ذات الله عز وجل :

أيها الأخوة ، الله عز وجل حينما كلمه سيدنا موسى تاقت نفسه إلى أكثر من تكريم الله له ، أي كان طموحاً ، تاقت نفسه إلى أكثر من تكريم الله له ، تاقت نفسه إلى أن يرى الله

(قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ)

يعني الله عز وجل من الثابت أن شيئاً في الكون لا يستطيع تحمل رؤية الله ، فسيدنا موسى طمع ، ما طمع أن يرى ذات الله عز وجل ، أن يرى الله من دون تفاصيل ، فقال يا موسى إنك

(لَنْ تَرَانِي)

هذه لن على التأبيد ، ما دمت في الدنيا ، ما دمت في هذه الحياة الدنيا ، ما دام لك جسم لن تستطيع رؤيتي ، والدليل :

(وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ)

يعني أي شيء قوي متماسك ، جبل ، صخر ،

(وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً)

جبل عملاق كبير ، صخور ،

(فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً)

يعني سويت قممه بقواعده ، كان جبل صار أرضاً مستوية .

(فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً)

صعق ، إن هذا الجبل حينما تجلى ربه أصبح دكاً فكيف بالذات الإلهية ، جبل عظيم عملاق مرتفع ، صخور ، لما تجلى الله على الجبل جعله دكا ، فسيدنا موسى صعق

(وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً)

استرسال سيدنا موسى بحديثه مع الله تعالى لأن سعادته كانت لا توصف :

لما سيدنا موسى قال الله له :

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)

(سورة طه)

يعني كان من الممكن أن يقول هي عصاي ، لكن طمع بمؤانسة الله له .

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا)

(سورة طه الآية : 18)

هو سألك ما هي ؟ قال :

(هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا)

ارتاح ، قال له :

(وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي)

(سورة طه الآية : 18)

فاستحى ، قال له :

(وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

(سورة طه)

أي إذا الله عز وجل يريد أن يتابع الحوار يقول يا موسى ما هذه المآرب ؟

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

أيضاً باللقاء طمع هذا النبي الكريم أكثر من أن يقول له يا رب هي عصاي ، فاسترسل في الحديث ، يبدو أن الإنسان إذا اتصل بالله عز وجل ذاق سعادة لا توصف ، لأنه كلما خلقه الله عز وجل من أشياء جميلة هي مسحة من جمال الله عز وجل .

((إن الله جميل يحب الجمال))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود]

أي أجمل شيء بالحياة أن تنعقد صلتك بالله عز وجل ، أجمل شيء بالحياة أن تبكي في الصلاة ، أجمل شيء في الحياة أن تبكي أثناء الطواف ، أثناء السعي .

أعظم ما في هذا الدين الاتصال بالله عز وجل :

أيها الأخوة :

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لــما وليت عنا لغيرنا
و لــو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب العجب و جئتنا
ولـــو ذقت من طعم المحبة ذرة عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا
ولو نسمت من قربنا لك نسمـــة لمت غريباً و اشتياقاً لقربنـــا

***

أعظم ما في هذا الدين الاتصال بالله ، أما كدين ، كثقافة ، كمعلومات ، كأفكار ، كنصوص ، كأدلة ، شيء جيد ، لكن لا يروي الغليل ، لا يروى غليلك إلا إذا اتصلت بالله عز وجل ، فلما رأى أن الجبل قد دكّ ،

(وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً)

لأنه لم يتصور أن هذا الجبل الكبير لأن الله تجلى عليه أصبح على مستوى الأرض .

الجنة ثمنها في الدنيا طاعة الله عز وجل :

الآن هناك شيء يحتاج إلى تفصيل ، يعني أنت تستيقظ في الليل والظلام دامس تمشي في الغرفة ، إذا شيء أقل منك تدوسه ، وتكسره ، وإذا شيء أكبر منك كالحائط يكسرك ، إما أن تكسر أو أن تُكسر ، ما دام لا يوجد ضوء .

لذلك يضعون إضاءة خافتة لا تفسد عليك النوم ، لكن لو استيقظت ترى الطريق هذه الإضاءة الخافتة لا تحتمل التيار العالي ، يوضع لها محول صغير ، هذا المحول يوفق بين التيار الشديد ، وبين الإضاءة الخافتة .

هكذا قال بعض العلماء : لذلك الملك هو المحول ، يتلقى من الله الوحي ، ويقدمه للنبي ملطفاً ، محتملاً.

فالله عز وجل كلم موسى من وراء حجاب ، وأنزل الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم عن طريق جبريل ، هذه بعض الحقائق المتعلقة بعمل الملائكة ، الملائكة أقرب إلينا من رؤية الله عز وجل ، شيء فوق طاقة البشر .

لذلك في الدنيا لن نرى الله ، إنك

(لَنْ تَرَانِي)

لن على التأبيد ، على تأبيد الدنيا لكن في الآخرة :

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

(سورة القيامة)

وفي بعض الآثار أن المؤمن إذا نظر إلى وجه الله الكريم يغيب خمسين ألف عام من نشوة النظرة ،

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

هذه الجنة التي عرضها السماوات والأرض والتي فيها :

((ما لا عين رأتْ ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

هذه الجنة ثمنها في الدنيا طاعة الله عز وجل .

الله عز وجل اصطفى سيدنا موسى مرتين مرة بالكلام و مرة بالرسالة :

أيها الأخوة ، سيدنا موسى لما رأى الذي رآه

(وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)

أي لن أسألك مرة ثانية مثل هذا السؤال ، فالله عز وجل تحبباً به أراه أن هذا الجبل دُك دكاً حينما تجلى الله عليه ، أنت من لحم ودم . إذاً

(فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ)

لن أسالك مثل هذا السؤال مرة ثانية

(وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)

الآن الله عز وجل طَيَب قلبه ، طمع إلى شيء فوق ما هو فيه ، طمع فوق أن الله كلمه ، طمع أن يرى الله ، كأن الله عز وجل يقول له :

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الأعراف)

الرسل جميعاً اصطفاهم الله عز وجل برسالة ، لكنك يا موسى اصطفيتك مرتين مرة بالرسالة ، ومرة بالكلام .

من قبل حمل الأمانة سخر الله له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه :

(إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

هذه آية دقيقة جداً ، أي نحن جميعاً لأننا من بني البشر فقد قبلنا حمل الأمانة ، والذي قبل حمل الأمانة سخر الله له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ، هذا التسخير هذا يعني أن المسخر له أكرم عند الله من المسخر ، مهمتنا شيئان فقط .

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الزمر)

العبادة

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

مهمتك أن تعبده ، وعلى الله الباقي مهمتك أن تعبده وإذا عبدته جاءك الخير من كل مكان .

((استقيموا ولن تُحْصُوا))

[أخرجه الحاكم عن ثوبان]

الخير ، فنحن كبني البشر عندنا مهمتان ، أن نعبده ، وحينما نعبده يأتي الخير بعدها نشكره ، سيدنا موسى ، قال :

(إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

هذه نصيحة قرآنية

(فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ)

نفذ الأوامر

(وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

فنحن لأننا من بني البشر الله عز وجل كرمنا ، وميزنا وسخر لنا ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ، فعلينا أن نعبده وأن نشكره .

أيها الأخوة ، هذه القصة لها دلالات كبيرة جداً أن الإنسان يسعد أيما سعادة إذا اتصل بالله عز وجل ، نحن متاح لنا أن نصلي خمس صلوات ، متاح لك أن تصوم رمضان ، متاح لك أن تشكره ، متاح لك أن تقرأ القرآن ، متاح لك أن تتصل به ، وأسباب هذا الاتصال الاستقامة على أمر الله أولاً ، والأعمال الصالحة ثانياً .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(42-60): تفسير الآيات 145 - 147، العفو طريق الإنسان للتواصل و الرحمة و المودة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-06-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتابة تطمين للمؤمنين :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الثاني والأربعين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الخامسة والأربعين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

أولاً أيها الأخوة ، الكتابة تطمين للمؤمنين لأن الله لا يكتب ، ولكن الإنسان بحسب معطياته الأرضية الشيء المكتوب أثبت ، إذا في عقد أقوى ، إذا في وعد خطي أشد تأثيراً .

فلذلك الله عز وجل تمشياً مع عقلية الإنسان استخدم كلمة

(وَكَتَبْنَا لَهُ)

والحقيقة الله عز وجل لا يكتب ، لكنه الآمر الأعلى ، والكتابة تعزى أحياناً إلى من يباشرها ، وهو الملك ، أو من يتوسط بين الله وبين الملائكة ، أو تعزى إلى الآمر الأعلى ، على كلٍ الكتابة من أجل تطمين المؤمنين .

(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)

(سورة الأنعام الآية : 45)

(كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي)

(سورة المجادلة الآية : 21)

كلمة كتب تفيد التطمين تفيد شيئاً ثابتاً ، لا يعدل ، لا يبدل ، لا يلغى ، لا يطور ، يعني ثبات أمر الله عز وجل أراد الله أن يعبر عن ثباته بكلمة

(وَكَتَبْنَا)

منهج الله عز وجل منهج تقريب من ذاته العلية :

أيها الأخوة ، الكتابة على الألواح ، ما كان في ورق ، عظم اللوح يُكتب عليه ، الجلد يُكتب عليه ، أي شيء مسطح يُكتب عليه فالمكتوب عليه هو الألواح .

(وَكَتَبْنَا لَهُ)

الهاء على من تعود ؟ على سيدنا موسى ،

(وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)

أي كل شيء يقربك إلى الله مهما بدا صغيراً يكتبه الله ، وأي شيء يبعدك عن الله مهما بدا صغيراً ينهاك الله عنه ، لأن منهجه منهج تقريب من ذاته العلية ، فالذي يقربك يُكتب والذي يباعدك يُكتب ، لكن هذا الذي يتوهم أن القرآن فيه كل شيء هذه مبالغة لا طائل منها يعني العلم ميكانيك التربة في القرآن ، هذا شيء من اختصاص الخبراء في الدنيا ، أما الله عز وجل جعل القرآن كتاب هداية ، فأي شيء يقربك من الله تجد نصاً له في القرآن ، أو في السنة ، وأي شيء يبعدك عن الله تجد له أثراً في القرآن والسنة .

(وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)

تحتاجه أيها الإنسان ، حينما جعلك الله في الأرض خليفة أنت بحاجة إلى منهج ، بحاجة إلى عقيدة ، بحاجة إلى أن تعلم من أنت ؟ ما سر وجودك ؟ ما غاية وجودك ؟ ما الذي ينبغي أن تفعله ؟ ما الحرام ؟ ما الحلال ؟ ما الخير ؟ ما الشر ؟ ما الجمال ؟ ما القبح ؟

الموعظة تذكير بتشريع سابق و ليست تشريعاً جديداً :

(وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)

يحتاجه الإنسان ، ليكون خليفة الله في الأرض ، كتبنا له موعظة تذكير لشيء سابق .

(وَعِظْهُمْ)

(سورة النساء الآية : 63)

ذكرهم .

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

(سورة إبراهيم الآية : 5)

ذكرهم بنعم الله .

(وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً)

(سورة النساء)

فالموعظة ليست تشريعاً جديداً ، ولكنها تذكير بتشريع سابق .

التناقض بين الطبع و التكليف ثمن الجنة :

(وَكَتَبْنَا)

لسيدنا موسى

(فِي الْأَلْوَاحِ)

في الأمكنة التي تكتب عليها الكلمات

(مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)

يحتاجه الإنسان الذي جعله الله خليفته في الأرض

(مَوْعِظَةً)

تذكيراً بوحي السماء ، تذكيراً بكتاب الله عز وجل ، وتفصيلاً لكل شيء ، وفي ديننا والحمد لله الكليات في القرآن الكريم ، والتفاصيل في السنة المطهرة ، فالله عز وجل جعل نبيه مبيناً لما في القرآن .

(لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)

(سورة النحل الآية : 44)

(فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ)

الإنسان له طبع ، ومعه تكليف ، مثلاً الطبع مرتبط بالجسم والجسم يميل إلى الراحة ، إلى الاسترخاء ، إلى النوم ، النوم المديد ، إلى أن يتمتع الإنسان بدفء الفراش في أيام الشتاء ، أما التكليف أن تستيقظ ، وأنت في نشوة النوم ، وأن تنزع عنك الغطاء وأن تتجه إلى الحمام ، وأن تتوضأ بالماء البارد كي تصلي الفجر ، فالتكليف يتناقض مع الطبع الجسم يميل إلى النوم ، والتكليف يأمرك أن تستيقظ . الإنسان لأن الله أودع فيه حبّ المرأة في طبعه ، ميله إلى أن يملأ عينه من محاسن النساء ، والتكليف أن يغض البصر .

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)

(سورة النور الآية : 30)

الموقف يتناقض مع الطبع ، الطبع يقتضي أن تأخذ المال ، المال قوام الحياة .

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ و الفضَّة)

(سورة آل عمران الآية : 14)

والتكليف يأمرك أن تعطي المال ، أن تنفق المال ، الطبع يقتضي أن تخوض في فضائح الناس ، والتكليف يدعوك إلى أن تصمت ، هذا التناقض بين الطبع والتكليف هو ثمن الجنة .

ممانعة النفس تحتاج إلى قوة إرادة :

لذلك :

(وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ)

لأن هناك ممانعة من النفس ، النفس تميل إلى الراحة ، إلى النوم ، إلى جمع الأموال ، إلى استغلال الآخرين ، إلى العلو عليهم ، إلى الترفع عنهم ، والتكليف يأمرك أن تكون واحداً من الناس . دخل أعرابي على النبي صلى الله عليه وسلم ما عرفه ، فقال : أيكم محمد ؟ ولا ميزة ، لا ثياب خاصة، ولا مكان خاص ، ولا جلسة خاصة ، ولا شيء تحته يجلس عليه أبداً ، مثله مثل أصحابه . فلذلك :

(وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)

يحتاجه الإنسان الذي جعله الله خليفته في الأرض ،

(مَوْعِظَةً)

تذكيراً لحكم شرعي ،

(وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ)

لأنه في ممانعة ، في صراع ، في دعوة إلى الأرض ، دعوة إلى الشهوة ، إلى الراحة ، إلى استغلال الآخرين ، إلى جمع الأموال ، إلى الاستمتاع بالحياة ، وفي دعوة من الله إلى أن تنتصر على نفسك . لذلك التناقض بين الطبع والتكليف هو ثمن الجنة ، ممانعة النفس تحتاج إلى قوة إرادة .

الشهوة تحقق لذة آنية تعقبها كآبة والسعادة التي تتأتى من الطاعة تحقق سعادة مستمرة:

(فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)

يعني الشهوة تحقق لذة للإنسان ، ما قال لك إن الشهوات لا يحبها الإنسان ، الشهوة محببة ، شيء طبيعي ، كل الشهوات التي أودعها الله فينا محببة إلى الإنسان ، الشهوة تقدم لك لذة آنية ، متناقصة يعقبها كآبة ، لكن تقدم لك لذة آنية متناقصة تتبعها كآبة ، هؤلاء الذين يُنشؤون المقاصف ، مع الخمور ، مع الراقصات ، مع المغنين تجد خمسين مركبة أمام مدخل هذه المقاصف ، ماذا يوجد في الداخل ؟ يوجد امرأة تغني وأخرى ترقص وهناك خمر ، و لحم ، و أكل ، هذه لذائذ كلها ، لكن طاعة الله عز وجل تعطيك سعادة متنامية ولا تنتهي بالموت ، تستمر حتى في القبر ، إلى أن تصل بك إلى جنة عرضها السماوات والأرض . لذلك

(فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ)

في عندك ممانعة ، في عندك نفس قد تكون أمارة بالسوء أو أقل شيء ترتاح من دون أن تعمل صالحاً، ولحكمة بالغةٍ بالغة جعل الله الأعمال الصالحة تحتاج إلى وقت ، وإلى جهد ، وإلى مال ، وإلى إرادة قوية ،

(فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)

أولاً : الله عز وجل حينما نهاك أن تأكل المال الحرام ، نهى مليار وخمسمئة مليون مسلم ألا يأخذوا المال الحرام ، الأمر لصالحك ، كم من المسلمين حولت لهم مبلغاً خطأ ردوه إليك ؟ لولا الأمر بتبرئة الذمة لما ردّ إليك المبلغ ، فإذا أمرك أن تكون أميناً أمر كل من حولك أن يكونوا أمناء معك ، إذا أمرك أن تكون مستقيماً أمر كل من حولك أن يكونوا مستقيمون معك .

إذاً الشهوة تحقق لذة آنية ، متناقصة ، تعقبها كآبة ، بينما السعادة التي تتأتى من الطاعة تحقق سعادة مستمرة متنامية تنتهي بك إلى الجنة .

العفو طريق الإنسان للتواصل و الرحمة و المودة :

إذاً

(فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)

ما معنى بأحسنها ؟ الله عز وجل قال :

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

(سورة الشورى)

ما دام في توجيه بالعفو أنت مكلف أن تأخذ من الأمرين أحسنهما ،

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

هذا حقك لكن :

(وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا)

(سورة التغابن الآية : 14)

(هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

(سورة المائدة الآية : 8)

(وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)

هذه واحدة ، يعني أنت انتصرت على خصمك ولك أن تؤدبه تأديباً دقيقاً ، ولكن الله عز وجل يحنن قلبك عليه يقول لك :

(وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا)

(فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ)

(سورة البقرة الآية : 178)

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

إذاً الأحسن أن تعفو لا أن تأخذ حقك الذي شرعه الله لك ، يعني مثلاً :

قاتل قتل ، ولي المقتول من حقه أن يطلب إنزال عقوبة الموت بالقاتل ، هذا حقه ، لكن ولي المقتول لو عفا عن هذا القاتل يكون أسيره طوال حياته ، بعفوه بقي حياً ، صار في تقارب بين القبيلتين ، لا أحد يفكر أن ينتقم ، أي العفو هو أقرب للتقوى ، أقرب للمودة ، أقرب للتواصل ، أقرب للتراحم ، فالله عز وجل قال :

(وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)

العدل و الإحسان :

الآن الله عز وجل قال :

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)

(سورة النحل الآية : 90)

العدل أمر ، وأمر قسري ، لكن الله أمرك أن تأخذ بالإحسان ، هناك قضايا لا تحل بالعدل ، تحل بالإحسان ، الشيء الذي لا يسعه العدل يسعه الإحسان .

فالانتصار وأخذ الحق مقبول ، والعفو مكرمة كبيرة ، يعني بكل شيء لك أن تأكل وأن تشرب ، أما الإفراط في الطعام والشراب له مضاعفات كبيرة جداً ، خذ من شهوة الطعام أحسن وضع فيه ، الاعتدال .

أحد الأدباء يقول : لي صديق كان من أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينيه ، فكان خارجاً عن سلطان بطنه ، فلا يشتهي مالا يجد ، ولا يكثر إذا وجد .

أي خذ الوضع المعتدل ، هذا في الطعام ، في العلاقة بالمرأة سمح الله لك بالزواج اكتفِ بزوجتك ، ولا تنظر إلى غيرها ، هذا الأمر الحسن ، أما أحياناً ضمن الحلال أربعة ، أربعة ترفاً ، يحتاج إلى مصروف كبير ، وهناك متاعب ، وخصومات ، ويخسر أولاده أحياناً .

(وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)

من طبع الإنسان أن يستطلع ، أما التجسس تطرف ،

(وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)

((مِنْ حُسْنِ إسلام المرءِ تِرْكهُ ما لا يَعنِيه))

[أخرجه زيادات رزين عن الحسين بن علي بن أبي طالب]

((طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس))

[أخرجه البزار عن أنس بن مالك]

((أحْبِبْ حبيبَك هَوْنا مَّا))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

(يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)

((وأبْغِضْ بغيضَك هَوْنا مَا))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

اصنع المعروف مع أهله ، ومع غير أهله ، إن أصبت أهله أصبت أهله ، وإن لم تصب أهله فأنت أهله،

(وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)

كلما ارتقى الإنسان أحبّ بعقله وكره بعقله :

الآن أنت أحببت إنساناً ، لا تظلم من لم تحب ، سيدنا عمر قال لشخص : والله لا أحبك ، قال له : أو يمنعك بغضك لي من أن تعطيني حقي ؟ قال له : لا والله ، قال له : إذاً إنما يأسف على الحب النساء ، يعني أحببت إنساناً لا تظلم غيره من أجله ، أحياناً إنسان يتزوج امرأتين ، أحب الثانية كثيراً ، أهمل الأولى ، لم يعد يأتيها إلى البيت ، إذا دخل متجهماً ، بنظرات قاسية ، بكلام قاسٍ ، محبة الثانية جعلتك بحق الأولى ظالماً ،

(وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)

أحسن ما في التعدد العدل ، لا تظلم الناس لصالح من تحب ، ولا تظلم من لم تحب ، بكل شيء خذ الوضع المعتدل ، الوضع الوسطي ، الوضع الذي كان عليه النبي وأصحابه قال :

((ما بال أقوام يقولون كذا و كذا لكني أصلي و أنام ، أصوم وأفطر ، و أتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني))

[متفق عليه عن أنس]

لذلك هذا الموضوع ينقلنا إلى ما يسمى بالحب العقلي ، يعني قيام الليل يحتاج إلى جهد ، صلاة الفجر في المسجد تحتاج إلى جهد ، غض البصر يحتاج إلى جهد ، فالإنسان يحب غض البصر مع أنه يتناقض مع طبعه ، يحب صلاة الفجر في المسجد مع أن الصلاة في هذا الوقت تتناقض مع طبع جسمه (الخلود إلى الراحة)

لذلك هذا وضع معتدل ، وضع بين ترك الصلاة كلياً ، وبين أن يصليها في البيت دائماً خذ الوضع المعتدل .

إنسان أحياناً يكون معه أمراض معينة ، هناك أكلات يحبها كثيراً لكنها تؤذي جسمه يكرهها بعقله ، ويحبها بحسه ، والإنسان كلما ارتقى يحب بعقله ، ويكره بعقله .

طالب معلق آمالاً كبيرة أن يكون الأول على القطر مثلاً ، يُدعى إلى سهرة يرفضها السهرة محببة ، أصدقاؤه يحبهم ، هناك طعام لذيذ ، هناك طرف ، جو لطيف ، هذا محبب بطبعه لكنه يعيقه عن الدرجة الأولى ، يعتذر ، فأحب الدراسة بعقله ، لكنه يحب السهر مع أصدقائه بحسه ، بل يكره السهر مع أصدقائه بعقله ، كلما ارتقى الإنسان أحب بعقله ، وكره بعقله .

الآن على مستوى الغذاء ، هناك أكلات رائعة جداً ، لكنها تسبب متاعب في القلب والأوعية كثيرة جداً، فالإنسان كلما كان عقله راجحاً يكره هذه الأكلات بعقله ، يحبها بحسه ويكرهها بعقله .

الأعمال الصالحة تحتاج إلى جهد كبير ، المؤمن يحب الأعمال الصالحة بعقله ، وقد تكون متعبة كثيراً تتعب جسمه ، لكنها محببة إليه بعقله ، هذا معنى

(يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)

من صبر على ما أصابه كان الله معه :

الآن الله عز وجل قال :

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

(سورة لقمان)

لكن في آية :

(وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

(سورة الشورى)

هذه اللام لام مزحلقة ، لام التوكيد ، لماذا ؟ قال : إذا القدر أتى من الله مباشرة يحتاج إلى صبر ، إنسان ابنه على الشرفة وقع فنزل ميتاً ، هذا قضاء وقدر ، هل يستطيع أن يقاضي إنساناً ؟ ابنه ، وفي بيت والده ، وابنه أخطأ ، أما لو أن سائقاً دهس ابنه ومات ، أمامه إنسان يقاضيه ، هناك إنسان تمّ إزهاق روحه على يد إنسان ، إذا جاء القدر على يد إنسان فأنت تحتاج إلى توحيد عالٍ جداً ، انتهى أجله على يد فلان ، فبدل أن تبطش ، تستسلم ، تأخذ حقك منه لكن من دون أن تحقد ،

(وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

هذا معنى

(وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)

لك دَيْن عند إنسان ، استحق الدين ، لك أن تقيم دعوى عليه ، ويحجز على بيته وعلى محله التجاري ، لكن الله عز وجل قال لك :

(وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ)

(سورة البقرة الآية : 280)

هذا شيء آخر ، إذاً انتظار المعسر

(وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)

حتى بعض العلماء قال : كيف لا أشكر الذي ظلمني ، لأنه جعل الله بجانبي ، الله عز وجل مع المظلوم دائماً قال : كيف لا أشكر من ظلمني ، لأن هذا الذي ظلمني جعل الله بجانبي ، بل بعضهم قال : لو يعلم الظالم كيف أن الله سيكون مع من ظلمه لضن عليه بظلمه ، فالله عز وجل أصبح معه كان معه ، وأيده ، ونصره .

ورود النار شيء ودخولها شيء آخر لأن دخولها عقاباً و ورودها إطلاعاً :

الآن :

(سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

الله عز وجل قال ، يخاطب المؤمنين :

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

(سورة مريم الآية : 71)

ورود النار غير دخولها ، ورودها أن يطلع على النار ، وعلى أهلها من دون أن يتأثر بوهجها .

أنا أضرب مثلاً : مرة كنا في معرض للثعابين ، وقفت أمام ثعبان يزيد طوله عن اثني عشر متراً ، وبيني وبينه أربعة سنتيمتر (بلور ستة ميلي بيننا) ، لا تتأثر ولا تخاف منه أبداً لأنه محجوز .

فالمؤمن أحياناً يرد النار ، يردها ليرى مكانه في النار لو لم يكن مؤمناً ، لتزداد سعادته في الجنة ، لذلك الله قال للمؤمنين :

(سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

يوم القيامة يتطلع المؤمنون على النار ،

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

ورود النار شيء ، ودخولها شيء آخر دخولها عقاباً ، أما ورودها إطلاعاً ، أما المؤمن ، قال :

(سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

سأوريكم مصيرهم ، هؤلاء الطغاة .

قتل امرئ في بلدة جريمة لا تغتفر وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر

* * *

هؤلاء الذين يدمرون الشعوب ، ينهبون الثروات ، يقتلون الملايين ، أي خمسة ملايين ، مليون قتيل ، مليون معاق ، وخمسة مشردون ، من أجل تهمة باطلة لا وجود لها ، يقول أسلحة دمار شامل ، لا يوجد شيء من هذه الأسلحة ، مليون قتيل ، مليون معاق ، خمسة ملايين مشرد ،

(سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم)

(سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

سأوريكم حسابي لهم العسير .

دار الفاسقين في الدنيا يراها المؤمن قاعاً صفصفاً و في الآخرة نار جهنم :

لذلك ورود النار نوع من رؤية المؤمنين لدار الفاسقين ، وأحياناً ترى الدار في الدنيا ، ترى بلاداً أصابها زلزال دُمرت عن آخرها ، هناك بلدة بالمغرب يرتادها السياح ، ولا يسمح لأبناء البلدة أن يدخلوا إلى المرافق العامة ، نوادي عُراة ، وفسق ، وفجور ، فيها فندق ثلاثين طابقاً(هولدي إن)أصابها زلزال ثلاثين طابقاً أصبحت تحت الأرض ، بقي آخر طابق عليه كلمة هولدي إن ، الشاهدة هذه شاهدة هذا القبر .

(سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

أي منتجعات سواحل آسيا ، شيء لا يوصف ، من فئة العشر نجوم ، تستقطب أغنياء أغنياء العالم ، الشركة فيها عشرين مديراً ، المدير العام يقضي عطلة الميلاد و رأس السنة في هذه السواحل والمنتجعات من فئة العشر نجوم ، وقد أرى الله هؤلاء رواد هذه المنتجعات النجوم ظهراً ، مات 25 ألف بزلزال تسونامي ، هؤلاء نخبة نخبة أغنياء العالم ، كيف أن الله استدرجهم .

(سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

أحياناً ترى زلزالاً ، طوفاناً ، بركاناً .

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(سورة هود)

هذا في أماكن زلزال تسونامي رئيس وزارة ببلد يلقي خطاباً ويفتخر أنه ليس في شعبه فتاة عذراء أبداً، لأنه بلد يعيش على الدعارة ، لا يوجد فتاة عذراء .

(سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

هناك آيات ، وهناك عبر ، و زلازل ، و براكين ، و فيضانات ، و أعاصير ، الإعصار يقول لك خسارة ثلاثين ملياراً .

(سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

دارين ، دار في الدنيا (يراها المؤمن قاعاً صفصفاً) ودار في الآخرة جهنم .

(سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)

ما أعظم العبر ، وما أقل المعتبرين .

من تكبر ظلم نفسه فالله عز وجل له أن يتكبر لأن وجوده لا يتعلق بجهة ثانية :

ثم يقول الله عز وجل :

(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)

(سورة الأعراف)

(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ)

الله له آيات ثلاث ، آيات كونية (خلقه) وآيات تكوينية (أفعاله) وآيات قرآنية (كلامه) هذا المتكبر لا يصغي إلى آيات الله ، متكبر .

(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ)

من الذي له حق أن يتكبر ؟ الله وحده ، لأنه صمد ، وجوده ذاتي ، وجوده لا يتعلق بجهة ثانية ، أما أنت وجودك متعلق بإمداد الله لك ، في أي لحظة موت مفاجئ ، فكل إنسان وجوده ليس ذاتياً لا يحق له أن يتكبر ، فإذا تكبر ظلم نفسه .

(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا)

كبراً ، واستعلاءً ، مأخوذ بصناعات البشر ، ولا يؤخذ بآيات الله الدالة على عظمته ، يقول لك الآلة الفلانية ، المركبة الفلانية ، اليخت الفلاني ، الطائرة الفلانية ، الحاسوب الفلاني ، الجوال الفلاني ، مأخوذ في صنع البشر ، ويتعامى عن دقائق خلق الله عز وجل .

(سَأَصْرِفُ عَنْ آَيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آَيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا)

مرة المتنبي قال : أي عظيم أتقي ، وأي مكان أرتقي ، وكل ما خلق الله وما لم يخلق محتقر في نظري، كشعرة من مرفقي .

لما سمي المتنبي ؟ ادعى النبوة ، قال :

(وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ)

(سورة الشعراء)

قال :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

* * *

خرج عليه أحد أعدائه فولى هارباً ، فقال له غلامه : ألست القائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفني .

كلام فارغ ، قال له : قتلتني قتلك الله .

اتباع الكفار سبيل الغي لأنه يوفر لهم كل طموحاتهم الشهوانية :

(وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آَيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً)

يقول أحدهم : صعب الدين ، الدين ينهاك أن تأخذ المال الحرام ، كل حياته بالحرام ، الدين يأمره بغض البصر هو يعيش مع النساء الكاسيات العاريات ، الدين صعب عليه ، دخله حرام ، وعلاقاته مع النساء حرام ، وكلامه في كذب ، وفي استغلال ، وفي دجل ، وفي استعلاء ، فالدين لا يناسبه ، الدين قيود بالنسبة له ، قال :

(وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آَيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً)

لا يتناسب مع طموحاتهم الشهوانية .

(وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ)

رائع جداً ، حرية ، اختلاط ، الربا حلال ، الاختلاط حلال ، تقريباً معاصي لا يعلمها إلا الله في هذه الخلوات تتم ، و لا يوجد أي قيد ، ولا أي شرط ، لا يوجد قيد أبداً ، كل شيء مباح ، فهذا سبيل الغي أريح ، العلمانية والله أريح من الدين ، الدين كله قيود ، العلماني ما في إله ، المؤمن هذه حرام ، وهذه حلال ، هذه لا ترضي الله ، هذه أحاسب عنها يوم القيامة .

(وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ)

الغي يعجبهم ، العلمانية تعجبهم ، الفكر الذي ينحي الدين جانباً يعجبهم ، يا أخي ! الدين كله قيود .

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)

يعني سبيل الغي يطلق العنان لشهواتهم ، والإيمان يحرمهم من طموحاتهم الشهوانية .

لذلك هذا الذي يتكبر بغير الحق ، هو عبد ، قلبه بيد الله ، نمو خلاياه بيد الله ، قطر شريانه التاجي بيد الله ، حركاته بيد الله ، سكناته بيد الله ، هو في قبضة الله ، ويتكبر ، الكبر حمق ، الكبر غباء ، الرب رب ، والعبد عبد ، من شأن العبد التواضع ، من شأن الله عز وجل أنه العلي الأعلى ، بيده مقاييد السماوات والأرض .

أيها الأخوة ، الإيمان بنظرهم يحرمهم شهواتهم ، بينما الغي يوفر لهم كل طموحاتهم الشهوانية .

من ابتغى بعمله الدنيا فعمله لا وزن له يوم القيامة :

أيها الأخوة :

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الأعراف)

معنى إحباط العمل قد يكون للعمل صورة رائعة ، لأن الإنسان ابتغى منه الدنيا ، ابتغى منه السمعة ، هذا العمل لا وزن له يوم القيامة .

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً)

(سورة الفرقان)

هذا معنى إحباط العمل ، لو كان عمل صورته رائعة ، مستشفى مثلاً ، ميتماً ، القصد أنه إنسان اجتماعي ، معطاء ، فهمه للحياة عميق ، يقدم الخير للمجتمع ، ولا يلتفت إلى الله إطلاقاً ، ولا يبتغي بهذا العمل وجه الله عز وجل ، هذا حبط عمله ، وقد يكون العمل سيئاً .

بعض البلاد المحتلة أنشؤوا دار قمار ، لها دخل كبير ، أنتم تجاهدون عدواً شرساً تنشؤون دار قمار ؟ كي تعطوا الله حجة لعدم نصرتكم على أعدائكم .

من لم يبتغ بعمله وجه الله عز وجل فعمله سيئ :

لذلك إما العمل سيء ، أو العمل ظاهره حسن لكن ليس وراءه إخلاص لله إطلاقاً قال :

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أعمالهم)

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

(سورة المؤمنون)

(هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قال معنى حبط ؛ انتفخ ، وتورم ، من علة ومرض ، قال :

أعيدها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

***

من كثرة القتل انتفخت رجليه ، هذا ليس سمناً ، هذا ضرب ، فالمحبط عمله ، عمله كبر ، كبر أصبح ورماً خبيثاً ، انتفخ وتورم من علة ومرض ، وتوهم حاله أنه إنسان عظيم ، ماذا فعل هتلر ؟ أنهى حياة خمسين مليون ألماني ، نتائج الحرب العالمية الثانية ، يظن عمله عظيم يقول لك : أتينا من أجل الحرية، خمسة ملايين بعضهم مشرد ، وبعضهم مات ، وبعضهم معاق من أجل الحرية ، أي حرية هذه ؟.

من أحبط عمله فعمله فاسد أو في ظاهره صالح ولكن لم يبتغ به وجه الله إطلاقاً :

إذاً حبط عمله ؛ كبر هذا العمل من مرض ، كبر من علة ، لذلك قال تعالى :

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)

(سورة الكهف)

إحباط العمل إما أنه فاسد ، أو أنه في ظاهره صالح ، ولكن لم يبتغَ به وجه الله إطلاقاً لذلك قال تعالى :

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ)

(سورة النور)

أيها الأخوة ، هذه الآيات الثلاث :

(وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ * سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(43-60): تفسير الآيات 138 - 153 ، اتخاذ قوم موسى غيابه سبباً لكفرهم وشركهم بالله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-07-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

اتخاذ قوم فرعون العجل إلهاً و عبادته من دون الله :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الثالث والأربعين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثامنة والأربعين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ)

قوم موسى رأوا بأعينهم كيف أن البحر أصبح طريقاً يبساً ، رأوا بأعينهم هذا الطاغية الذي ما كان أحد يصدق أن يموت ، وقد أهلكه الله عز وجل ، قوم موسى رأوا هذا النبي الكريم ينزع :

(يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)

(سورة الأعراف)

يضرب :

(عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

(سورة الأعراف)

هؤلاء ما الذي فعلوه ؟

(وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ)

وعبدوه من دون الله ، هذا كلام يحتاج إلى تعليق .

الشرك الخفي و الشرك الجلي :

أحياناً إنسان يعبد إنسان دون أن يشعر ، يطيعه ويعصي الله ، يعلق عليه الآمال ، يتوكل عليه ، يعطيه كل حبه ، وكل ولائه ، ولا يعبأ بمنهج ربه ، هذا نوع آخر ، ألا ترى إلى الشمس ، إلى القمر ، إلى النجوم ، إلى الأمطار ، إلى خلق الإنسان .

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

(سورة البلد)

إلى طعام الإنسان ، إلى شراب الإنسان ، إلى الماء العذب الزلال ، ألا ترى هذه الآيات الدالة على عظمة الله ؟ فكيف تطيع إنساناً وتعصي خالقك ؟ كيف تطيع مخلوقاً ضعيفاً وتعصي خالق السماوات والأرض ؟ الصورة اختلفت أما حقيقة الشرك واحدة .

لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((إن أخوف ما أتخوف على أمتي الإشراك بالله أما إني لست أقول يعبدون شمساً و لا قمراً و لا وثناً و لكن أعمالاً لغير الله و شهوة خفية))

[أحمد و ابن ماجه عن شداد بن أوس]

هذا المعنى تؤكده الآية الكريمة :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

الشرك الجلي لا وجود له في العالم الإسلامي ، ولكن الشرك الخفي أن تطيع مخلوقاً وتعصي خالقك ، أن تطيع زوجتك ، وتعلق عليها كل الآمال ، وتكسب المال الحرام إرضاءً لها هذا شرك .

عظمة الله عز وجل تظهر في الكون بواقعه الحالي أكثر مما تظهر بخرق نواميسه :

على كلٍ هم رأوا المعجزات الحسية ونحن نرى الآيات الكونية ، الكون لا نهاية له ، آلاف مليارات المجرات ، وكل مجرة ملايين ملايين الكواكب ، وخلق الإنسان آية ، وخلق النبات آية ، وخلق الحيوان آية ، نزول الأمطار آية ، الماء آية ، الهواء آية ، نحن محاطون بآيات لا تعدّ ولا تحصى ، والحقيقة أن عظمة الله عز وجل قد تتبدى في الكون بواقعه الحالي أكثر مما تتبدى بخرق نواميسه ، لكن من ضعف الفهم قديماً كانت المعجزة خرق النواميس ، لكن الآن خلق الإنسان .

تمشي في الطريق تستمع إلى بوق مركبة تنزاح نحو اليسار ، هل تدري ما الذي حصل ؟ أودع الله في دماغك جهازاً دقيقاً جداً ، يحسب هذا الجهاز تفاضل وصول الصوت إلى الأذنين ، الصوت من هنا هذه أقرب ، وهذه أبعد ، التفاضل واحد على ألف وستمئة و خمسين جزءاً من الثانية ، هذا الجهاز من أجل أن تعرف جهة الصوت ،

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

من أجل أن ترى البعد الثالث .

حاسة الشم عشرين مليون عصب شمي ، ينتهي كل عصب بسبعة أهداب ، الهدب مغطى بمادة تتفاعل مع الرائحة ، ينشأ شكل هندسي ، رمز الرائحة ، يشحن للدماغ ، هذا الرمز يعرض على الذاكرة الشمية، عشرة آلاف بند ، حيث ما يطابق الرمزان تكتشف أنه يوجد بالطعام المادة الفلانية .

أتحسب أنك جرم صغير

* * *

عبادة اليهود للأوثان التي لا منهج معها و لا يُنتفع بعبادتها :

أنا بدأت أن قوم موسى رأوا العصا التي ألقاها فأصبحت

(هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

رأوا يد سيدنا موسى نزعها فإذا هي كالكوكب الدري ، رأوا العصا ضُرب بها البحر أصبحت طريقاً يبساً ، ثم عبدوا العجل من دون الله ، ونحن معنا آيات ناصعات ، بينات ، واضحات ، كل شيء واضح، ومع ذلك :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

هذا الذي يغتصب بيتاً لا يرى أنه سيحاسب ؟ هذا الذي يأكل المال الحرام لا يرى أنه هناك إله عظيم سوف يحاسبه على ذلك ؟ المشكلة واحدة ، الصورة مختلفة .

(وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ)

هو ذهب إلى المناجاة ، ولعله أمضى أربعين ليلة ظنوه لا يرجع ، وكأن الدين مرتبط بسيدنا موسى ، فإذا غاب مديداً تحللوا من عبادات الله عز وجل .

لذلك ماذا قال الصديق ؟ من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، الرسالة مستمرة ، الرسالة هذا المنهج الذي جاء به النبي الكريم مستمر .

لكن أيها الأخوة ، نقطة دقيقة جداً الآن ، الإنسان حينما يعبد عجلاً من ذهب صنعه الإنسان ، هذا العجل عنده منهج ؟ لا يوجد شيء ، له أمر ؟ له نهي ؟ لا ، الذين عبدوا الشمس معها منهج ؟ الذين عبدوا البقر في الهند ، البقرة معها منهج ؟ هل هناك أوامر ؟ هل هناك نواهٍ ؟ هل هناك وسائل للتقرب من الله ؟ هناك وسائل للبعد عنه ، معاصي تبعدك عنه ، في أسباب سلامتك ، في أسباب سعادتك ، هذا العجل ماذا يفعل ؟.

الله عز وجل مع الإنسان أينما كان يحاسبه على كل تصرف صدر عنه :

لذلك بالمناسبة : قد يعجب الإنسان يقول تسعمئة مليون بوذي ، لماذا عبادات الأديان الأرضية الوضعية أتباعها كثر ، أعتقد في سبب ، والسبب واضح ، لأنه ما في منهج ، القضية سهلة ، افعل ما شئت ، أعلن ولاءك وافعل ما شئت ، إذا عبد الإنسان شيئاً دون الله عز وجل هذا الشيء ما له منهج ،

بالإسلام في أمر ، في افعل و لا تفعل ، في حرام ، في حلال ، في واجب ، في سنة ، في فرض ، في مندوب ، في شيء لا يجوز ، في شيء مستقبح ، في شيء مستحسن ، في شيء يغضب الله ، المسلم أمام منظومة لا تنتهي من الأوامر والنواهي .

وأساساً تخلف المسلمون حينما فهموا أن الدين عبادات شعائرية فقط ، كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب ، وما أكثر الأوامر في القرآن الكريم ، وما أكثر الأوامر في السنة المطهرة ، أنت أمام منهج .

فلذلك عبادة الأوثان سهلة جداً ، عبادة البقر سهلة جداً ، الحجر ، الشمس ، القمر هذه الجوامد لا منهج معها ، لا تنتفع بعبادتها ، وأحياناً أضيف على ذلك : وأن تعبد إنساناً ليس معك ، تعلن ولاءك له ، وتفعل ما تشاء ، تأخذ من الأموال ما تشاء ، وتظلم ما تشاء ، ليس معك هو .

لذلك من السهل بمكان أن تعبد إنساناً ليس معك ، تتلقي به وتكون في أعلى درجات الأدب والمحبة والولاء ، مرتاح ، تبتعد عنه تكون وحشاً مع الناس ، عبادة الأشخاص سهلة جداً ، أما أن تعبد الله هو معك ، لو حلفت يميناً كاذبة سقطت من عينه ، لو كذبت سقطت من عينه ، لو ظلمت هرة سقطت من عينه ، لو قتلت مخلوقاً لا يحق لك أن تقتله سقطت من عينه ، الفرق كبير جداً بين أن تعبد مادة ، حجر، شمس ، قمر ، بقرة ، نار ، وبين أن تعبد خالق السماوات والأرض .

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد الآية : 4)

معك يحاسبك .

الله عز وجل مُطلع على نوايا كل إنسان :

لذلك لا يمكن لأمر شرعه إنسان أن ينفذ مئة بالمئة ، هذا الأمر ينفذ مادام هذا الإنسان يطولك علمه ، أوضح مثل قانون السير ، ما دام في النهار كله واضع الأحزمة أما الساعة الثالثة بالليل ، لما الإنسان يضع قانون هذا القانون يطبق حينما يكون واضع القانون يطولك علمه ، أو تطولك قدرته ، أما إذا كنت مع الله والله بأي لحظة معك ، أوضح مثل :

بشهر رمضان ، في شهر آب ، والحر لا يحتمل (الحرارة خمس و أربعون)والعطش يكاد لا يحتمل تدخل لبيت ، للمطبخ ، تفتح الثلاجة ، في ماء بارد تستطيع أن تضع نقطة ماء في فمك ؟ لا تستطع ، لأن الله معه ، عظمة الدين شيء لا يصدق ، بينما بالأنظمة الوضعية ما دام واضع القانون ليس معك تستطيع أن تفعل كل شيء ، فرق كبير بين أن تطيع خالقاً معك ، مطلع على نواياك .

كلمة أقولها : مريض مخدر في مثلاً حاجة ثمنها 150 ألف توضع في أحد شرايين قلبه ، هي متفاوتة بالأسعار ، هناك قسم غالٍ جداً ، هناك قسم رخيص جداً ، إن وضعت الرخيص وهو مخدر ، وتمّ وضع هذا النابض في أحد أوعية القلب ، وانتهت العملية وخيطت وانتهى الأمر يستطيع المريض أن يكشف الخطأ ؟ ما في قوة تكشفه إلا الله ، وضعت نوع سيئاً جداً وسجلت بالفاتورة نوع غالٍ جداً .

الحياة لا تستقيم إلا بالإيمان بالله :

هناك أخطاء لا يمكن حتى بالقانون نكشفها، إن قال لك الطبيب: أريد عشرة تحاليل تستطيع أن تناقشه؟ لا تستطيع، من يراقبه ؟ الله عز وجل ، أقول لكم كلمة أخرى : الحياة لا تستقيم إلا بالإيمان بالله ، ما دام واضع القانون إنسان ، والإنسان المواطن قد يكون أذكى من واضع القانون .

مرة كنت بأمريكا ، واضعين أجهزة لكشف السرعات الزائدة ، كنت بمركبة سمعت صوتاً جديداً لم يكن ، ما هذا الصوت ؟ قال لي : هذا الصوت جهاز اشتريناه ينبهنا عن قرب جهاز وضع لكشف السرعات الزائدة ، معناها التغت العملية ، جهاز وضع بالمركبة ، ينبه السائق إلى أن الجهاز الذي سيكشف السرعة الزائدة اقترب ، انتبه ، انتهى إذاً .

إذا إنسان واضع قانون المواطن قد يكون أذكى منه ، فكل شيء يوضع يأتي مواطن يستطيع أن يحتال ويلغي مفعوله ، لذلك الآن الضبط بالعالم الغربي إلكتروني ، ضبط بالغ الدقة قطع الكهرباء بليلة واحدة تمت 200 ألف سرقة ، مجموع المسروقات 30 مليار دولار ، لأن الضبط إلكتروني ، ما في كهرباء ما بقي في ضبط .

لذلك تدخل سوق كبير في العالم الغربي ، أنا أقول ما في أمن ، إن لم تدفع ثمن السلعة اللصاقة التي على السلعة فيها مادة إن لم يؤشر عليها أنها دفعت تصدر صوتاً أمام قوس تغلق الأبواب آلياً ، من هو الأمين في هذا السوق ؟ ضبط عجيب ، لذلك كلما كان الضبط إلكتروني كان الأجر لا شيء ، لا يوجد أجر .

ربط اليهود الدين بوجود سيدنا موسى عليه السلام :

القصة أنه

(وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ)

غاب عنهم في المناجاة فربطوا الدين بوجوده ، فلما غاب عنهم عبدوا هذا العجل ،

(مِنْ حُلِيِّهِمْ)

من قطع ذهبية كانت معهم في تعبير لطيف أنه ذهب يشبه الإنسان ، بطيء الكسر ، سريع الالتئام .

(عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ)

يبدو أن هذا الذي صنع العجل لو نفخت في مكان في هذا العجل لأصدر صوتاً كصوت العجل ،

(لَهُ خُوَارٌ)

طبعاً العجل جسد لكن ما فيه روح تصور إنسان يرى في بعض المحلات لبيع الأقمشة تمثال لامرأة من شمع ، والمرأة الحقيقية ، كم هي المسافة ؟ أحياناً وردة بلاستيك بينها و بين الوردة الحقيقية فرق كبير في حياة .

(عِجْلاً جَسَداً)

يعني جثة ما فيها روح ،

(لَهُ خُوَارٌ)

قال تعالى :

(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً)

سبيل السلامة ، سبيل السعادة ، سبيل القرب من الله ، سبيل الأمن ، سبيل الحكمة ، سبيل الراحة النفسية ، سبيل الرضا ، سبيل التفوق ، سبيل التفاؤل ، سبيل قوة الشخصية .

(وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ)

كانوا ظالمين لأنفسهم ، سبحان الله الإنسان مع الله ، الله يحفظ ، الله يلهم ، الله ينعم ، الله يدافع عنه ، الله يقويك ، الله ينصرك ، الله يوفقك ، الله يوفقك بزواجك ، بعملك ، بصحتك ، بسمعتك .

المؤمن وقاف عند كتاب الله و سنة رسوله و الكافر لا مولى له :

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ)

(سورة محمد)

مثل واضح جداً ، لكنه مؤلم : تصور ابن له أب محترم ، أب مربٍ ، أب عالم وغني ، اعتنى بتربيته عناية صار شخصية فذة ، علماً ، وأدباً ، وديناً ، وسلوكاً ، تابعه متابعة دقيقة جداً ، تابع له صحته ، دراسته ، دينه صلاته ، أناقته ، ثيابه ، كلامه ، حتى أوقات فراغه ، صرفها فيما ينفعه ، هذا الابن للتقريب كالألماسة ، إذا ابن يتيم مات أبوه ، ومتشرد ، كل يوم بمخفر ، وكل يوم بمأوى أحداث ، وفي فاحشة ، وفي سرقات ، وكلامه بذيء ، وثيابه رثة ، وحركاته مؤلمة ، في موازنة بين هذا الطفل ، والذي له أب يرعاه ، وبين هذا الطفل المشرد ؟

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ)

مسكين الكافر ليس له مولى ، أحياناً يكون تدميره في تدبيره ، أما المؤمن وقاف عند كتاب الله .
سائق تكسي أشارت له امرأة ، أين ؟ قالت له : خذني إلى أي مكان تريد ، عد هذا مغنماً كبيراً ، قضى حاجته ، وأخذ رسالة منها ، ظنها مبلغاً من المال كبير ، فتحه : مرحباً بك في نادي الإيدز .
يكون تدميره في تدبيره ، قد يعد المغرم مغنى ، لذلك النبي الكريم في أدعيته الشريفة يقول :

((اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا إتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه))

الذي يرى أنه لا يكلمهم ، مرة بعض القبائل صنعت إلهاً من تمر ، فلما جاعت أكلته مرة في صنم جاء الذي يعبده رأى ثعلباناً قد بال على رأسه ، فقال : أرب يبول الثعلبان برأسه ! معقول ؟! لقد ضل من بالت عليه الثعابين .

العاقل من شكر الله عز وجل على نعمة الهدى :

والله يا أخوان هناك معلومات يصعب تصديقها ، في قبائل في آسيا تعبد الجرذان عندي تحقيق مطور مع الصور ، بناء فخم ، حجر منحوت ، والآلهة في هذا البناء هم الجرذان والأتباع يأتون ، يقفون على ظهورهم ، وعلى رؤوسهم ، يقدمون لهم الحليب ، والطعام الطيب ، هناك من يعبد ذكر الرجل في اليابان ، هناك من يعبد موج البحر ، اشكروا الله عز وجل ، نعبد الله ، نعبد خالق السماوات والأرض ، نعبد الذي معنا في كل حين ، نعبد الذي بيده كل شيء ، نعبد الذي بيده أعداؤنا ، والأقوياء ، نعبد الذي يسمعنا ، من يستجيب لنا ، من ينصرنا ، من يرحمنا .

(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ)

أنتم طبعاً وجدتم مفارقة حادة أن أشخاصاً رأوا البحر أصبح طريقاً ، رأوا فرعون غرق أمامهم ، رأوا آيات وأدلة ، ومع ذلك يعبدون عجلاً من الذهب ،

(لَهُ خُوَارٌ)

لاشك أنكم مندهشون لهذه المفارقة الحادة ، والله الذي لا إله إلا هو في كل عصر إنسان يؤذي الناس ، يبتز أموالهم ، ولا يعلم أن الله سيحاسبه حساباً عسيراً .
أذكر قصة ، طالب من طلابي خاله صاحب دار سينما ، سينما مستواها منحط جداً تستقطب الشباب ، الصائعين ، المنحرفين ، الشاردين ، بنى ثروة كبيرة جداً على حساب أخلاق الشباب ، بالأربعينات جاءه المرض الخبيث ، قال لي : كنت في زيارته صار يبكي أمامي ، قال لي : جمعت هذا المال الكبير حتى أستمتع به في حياتي ها قد عاجلني المرض ، ولم أستمتع به .

الله كبير ، أغبى إنسان الذي لا يدخل الله في حساباته ، لا تعجبوا بهذه المفارقة الحادة نعيش مفارقات أكثر منها حدة ، اغتصاب بيت ؟ ما في آخرة ؟ ما في يوم حساب ؟ تطليق زوجة تطليقاً تعسفياً ، كتبت له البيت ثم طلقها ، ظلم ما في عليه حساب ، والله في ظلم بالعالم الإسلامي بالبيوت ، بالطبقة الدنيا في ظلم لا يعلمه إلا الله ، وكل واحد يظلم الناس يظن أنه لن يحاسب .

العاقل من أدرك خطأه قبل فوات الأوان :

(وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

(سورة الأعراف)

يبدو هناك قسم من هؤلاء كانوا في غفلة ، فلما أدركوا الخطأ ، خطأ كبير .

(وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ)

شعروا بخطئهم الفادح ، شعروا بهذا الانحراف الخطير إله عظيم أراكم على يد نبيه معجزات ، وتعبدون

(عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ)

(وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

على كلٍ جيد أن الإنسان بعد الخطأ أدرك الخطأ ، الآن سيدنا موسى :

(وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأعراف)

سيدنا موسى نبي كريم ، من أولي العزم ، ذهب لمناجاة الله عز وجل ، وهو كليم الله ، ذهب أربعين ليلة ، في هذه الليالي الأربعين انحرف قومه انحرافاً شديداً ورجعوا وثنيين .

الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم :

(وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً)

أيضاً نفهم شيئاً ، هل تحمل هم المسلمين ؟ هل يؤلمك تقصيرهم ؟ هل يؤلمك انحرافهم ؟ هل يؤلمك انغماسهم في الملذات ؟ هل تتألم لهم ؟ هل تسعى لهدايتهم ؟ هل تقلق على مستقبلهم ؟ كلما كانت اهتماماتك واسعة تشمل قطاعاً كبيراً من الناس كلما كنت أقرب من الله عز وجل .

(غَضْبَانَ أَسِفاً)

الآن كأنه في شعور ، مادام دخلك وفيراً ، وصحتك جيدة ، وبيتك جيد ، مركبتك جيدة ، ما لك وللناس، لا يخطر في باله يعين إنساناً ، يأخذ بيد إنسان ، يهدي إنساناً ، أقول لكم أيها الأخوة : الدعوة إلى الله(أنا أقول كلاماً معه أدلة) فرض عين على كل مسلم ، الكفاية وضع آخر ، فرض الكفاية هو التبحر ، والتفرغ ، والتعمق ، وأن تملك أدلة وأجوبة ورد على كل شبهة ، هذا فرض الكفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الكل ، بكل بلد مجموع من العلماء الكبار ، هؤلاء فرض كفاية ، أما كل واحد من الأخوة الكرام فرض عين أن يكون داعية في حدود ما يعلم ، ومع من يعرف ، سمعت آية ، سمعت حديثاً ، سمعت قصة ، تأثرت .

((بلِّغُوا عني ولو آية))

[أخرجه البخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

تبلغ من ؟ زوجتك ، أخوك ، ابنك ، عمك ، ابن عمك ، خالك ، ابن خالك ، زميلك بالوظيفة ، جارك ، كنا بندوة ، بسهرة ، بنزهة ، ماذا سمعت يوم الجمعة ؟ عود نفسك تكتب نقاطاً أساسية يوم الجمعة ، أن تجعل هذه النقاط محور حديث طوال الأسبوع ، زرت أختك ، جالس صهرك ، وابن أختك ، وأختك ، وسمعت تفسير آية تأثرت بها ، بلغهم ، اكتب عندك هذه النقاط التي تحب ؟ وزع شريطاً ، ليس هدية ، إعارة ، حتى يسمعه ، سمعه أعطه شريطاً آخر .

والله في أخ من إخوانا لا يحسن الدعوة إلى الله ، أمن مئة شريط ، ووزعهم على أقربائه ، وتابعهم ، أربعة ، خمسة ، عشرة ، صاروا بالجامع من أقربائه ، لما الإنسان يصدق الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم ، في حدود ما تعلم ، ومع من تعرف ، يعني أقرباؤك أصدقاؤك ، جيرانك ، زملاؤك .

غضب سيدنا موسى الشديد بسبب تنكر قومه لعبادة الله عز وجل :

(وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ)

يعني وجدتم غيابي طويلاً فعبدتم إلهاً آخر .

(أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ)

أخوه نبي كريم ، لكن غضبه كان شديداً .

(يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي)

يبدو أن سيدنا موسى عاش مع أخيه أمداً طويلاً في رعاية الأم ، يبدو أن الأب كان متوفى في وقت مبكر جداً .

(قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي)

اسمع مني .

(وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

أنا دعوتهم ، منعتهم ، حذرتهم ، ما تركت طريقاً إلا سلكته ، لكنهم أصروا على أن يعبدوا العجل فلما بالغت في الإصرار

(وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي)

(قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي)

ـ أنا واحد ـ

(وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ)

خلافي معك ، وخلافك معي أمام هؤلاء الذين تنكروا لهذه الدعوة يشمتون بنا .

أنا أقول أيها الأخوة الدعاء :

((اللهم إنا نعوذ بك من شماتة الأعداء ، ومن السلب بعد العطاء ، ومن عضال الداء))

خروج سيدنا موسى عن طوره بسبب شدة إيمانه و ألمه من قومه :

(قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

أنا لم أقصر ، يبدو أن سيدنا موسى سكت عنه الغضب ، أحياناً الإنسان من شدة إيمانه ، من شدة حرصه ، من شدة غيرته ، من شدة ألمه ، قد يخرج عن طوره

(وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ)

في آية أخرى :

(لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي)

(سورة طه الآية : 94)

من أين جره ؟ من لحيته .

(وَلَا بِرَأْسِي)

(سورة طه الآية : 94)

(إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

سيدنا موسى عاد إلى نفسه ، قال :

(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

(سورة الأعراف)

يعني كل واحد منا إذا أخطأ ينبغي أن يستغفر الله ، وأن يرجع إليه ، ليس لنا إلا الله .

من أراد أمراً فليتدبر عاقبته :

لكن الله عز وجل يقول :

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ)

(سورة الأعراف)

أين عقلك ؟ أين إيمانك ؟ من أراد أمراً فليتدبر عاقبته ، يعني الإنسان لأن يسقط من السماء إلى الأرض فتنحطم أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله ، مؤمن مريض ممكن ، فقير ممكن ، زواجه غير ناجح ممكن ، ما رزقه الله بالأولاد ممكن ، كله ممكن ، لكن تعصي الله ؟ تأخذ ما ليس لك ؟ تحلف يميناً كاذباً ؟.

(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

يعني المؤمن أكبر عطاء له أن الله يعزه ، ويرفع قدره ، وأي عمل فيه شرك معه ظلم .

(لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ)

(سورة الزمر الآية : 65)

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

(سورة آل عمران الآية : 151)

غضب الله عز وجل شديد و مدمر :

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ)

يعني غضب الله شيء مدمر .

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

والله أروي قصة كثيراً لكنها مؤثرة : إنسان راكب مركبته إلى المطار موظف هناك لكن موظف رفيع المستوى ، أراد أن يعرض خبراته الدقيقة في القيادة على من إلى جانبه ، فهناك جرو صغير في أيام الشتاء الزفت الأسود أكثر دفئاً من التراب لأنه يمتص أشعة الشمس ، فهذا الجرو جالس على طرف الطريق ، فاستطاع قائد هذه السيارة بمهارة بالغة أن يقص يديه فقط دون أن يدهسه كله ، وأطلق ضحكة هستيرية ، يقسم لي بالله من كان إلى جانبه ، في السبت القادم بعد أسبوع ، في المكان نفسه إحدى العجلات أصبحت بحاجة إلى إصلاح ، وقف ، عنده رافعة ، رفع المركبة ، وحرر العجلة ، فالرافعة فاسدة انكسرت وقعت المركبة فوق العجلة بشكل أفقي ، والعجلة فوق رسغيه فهرستا ، إلى أن

وصل إلى المستشفى اسودت يداه وقطعتا ، يقسم بالله أنه بالسبت الماضي قطع يدي جرو صغير ، وفي السبت الذي تلاه قطعت يداه من الرسغين ،

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

والله أيها الأخوة ، هناك آلاف القصص لكن نحن مشكلتنا القصة نعرفها من آخر فصل ما لها معنى ، الذي راكب إلى جانبه قال لي : أمامي دهس ، أو سحق يدي جرو صغير وضحك ، في السبت القادم قطعت يداه ،

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

التوبة النصوح أساس مغفرة الله عز وجل للإنسان :

(وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة الأعراف)

(إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا)

إنسان عمل سيئاً ، تاب ، وأصلح ، وعقد العزم على توبة نصوح

(إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

أعتقد أنه في أكثر من ثماني آيات في القرآن الشرط في التوبة :

(مِنْ بَعْدِهَا)

من بعد التوبة ، وبعد الإصلاح ، وبعد العمل الصالح

(إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(44-60): تفسير الآيات 154 - 156، تأديب الله لقوم موسى لما عبدوا العجل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-07-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

الأنبياء قمم البشر تجري عليهم كل خصائص البشر :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الرابع والأربعين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الرابعة والخمسين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ)

أيها الأخوة ، أولاً سيدنا موسى نبي من أولي العزم ، لكنه بشر ، يغضب كما يغضب البشر ، ولولا أن النبي صلى الله عليه وسلم بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر ، هو يغضب ، ويتألم ، ويفرح ، ويخاف ، حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

((لقد أُخِفْتُ في الله ما لم يُخَفْ أحدٌ ، وأوذيت في الله ما لم يُؤذْ أحد ، ولقد أتى عليَّ ثلاثون من يوم وليلة ، ومالي ولبلال طعامٌ إلا شيء يُواريه إبطُ بلال))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

فالأنبياء قمم البشر ، لكنهم بشر ، ولأنهم بشر ، ولأنه تجري عليهم كل خصائص البشر كانوا سادة البشر .

على كل إنسان أن يسلك المنهج الذي جاء به الأنبياء :

سيدنا موسى نبي كريم ، ورسول من أولي العزم ، ومع ذلك الله عز وجل يقول :

(وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ)

شُبه الغضب بإنسان ، يصيح اقتل ، اضرب ، اشتم ، الإنسان أحياناً يغضب تأتيه خواطر ، وأحياناً تأتيه خواطر من نوع آخر ، فكأن الغضب نزوع إلى موقف عملي إثر استفزاز ، فكأن الغضب إنسان بدأ يكلم سيدنا موسى ، افعل ، افعل ، افعل ، ثم سكت الغضب ، هدأ الغضب .

(وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ)

إذاً هم بشر ، وهم قمم البشر ، والمنهج الذي جاؤوا به يصلح للبشر ، وينبغي على كل إنسان أن يسلك هذا المنهج ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((وإنَّ الله أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

أيها الأخوة ، الآية الدقيقة :

(فاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

(سورة هود الآية : 112)

للتقريب : ممرض بأقل درجة ، وجراح قلب بأعلى درجة ، إذا أراد الممرض أو جراح القلب أن يعطي المريض حقنة لا بد من التعقيم ، الإجراءات واحدة ، مقام هذا غير مقام هذا ، عظم المكان ليس له علاقة بالاستقامة ، الممرض إذا أراد أن يعطي حقنة لابدّ من تعقيمها ولابدّ من تعقيم المنشار ، ولابدّ من تعقيم الإبرة ، ولابدّ من تعقيم المكان ، هناك إجراءات لابدّ منها .

علامة كمال الإيمان أن تغضب لله وأن ترضى لله :

لذلك :

((وإنَّ الله أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين))

(وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ)

لما رأى قومه يعبدون العجل من دون الله .

(عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ)

(سورة الأعراف الآية : 148)

لما رأى قومهم وقد أراهم الله الآيات ، كيف أصبح البحر طريقاً يبساً ، وكيف أصبحت العصا ثعباناً :

(تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)

(سورة الأعراف)

كل هذه المعجزات رأوها رأي العين ، وبعد ذلك يعبدون عجلاً من دون الله ، هو كان بالميقات ، كان في لقاء مع الله ، كان في مناجاة ، وبقي في المناجاة أربعين يوماً ، هم استغلوا غيابه ، ورأوا أناساً يعبدون من دون الله فقالوا :

(اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ)

(سورة الأعراف الآية : 138)

الآن غضب :

(وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ)

(سورة الأعراف الآية : 150)

كان في حالة غضب شديد ، هذا غضب لله ، علامة كمال الإيمان أن تغضب لله وأن ترضى لله ، وأن تصل لله ، وأن تعطي لله ، أن تغضب وأن ترضى ، وأن تعطي وأن تمنع وأن تصل وأن تقطع .

الألواح التي كانت في جعبة سيدنا موسى منسوخ عليها توجيهات الله عز وجل :

سيدنا موسى أخذه الغضب الشريف ، أخذه غضب الغيرة على هذا الدين ، أخذه الغضب على المؤمنين الذين تاهوا وعبدوا صنماً من دون الله ، هنا سكت عنه الغضب

(أَخَذَ الْأَلْوَاحَ)

التي ألقاها ، الألواح التي ألقاها من شدة الغضب أخذها ، هذه الألواح ماذا فيها ؟ قال :

(وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا)

الألواح منسوخ عليها توجيهات الله عز وجل ، منسوخ عليها تعليمات الصانع ، منسوخ عليها منهج افعل ولا تفعل ، منسوخ عليها طريق السلامة ، منسوخ عليها طريق السعادة ، هذه

(الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا)

وقد نسخ عليها ، النسخة بمعنى منسوخ ، كغرفة ؛ مغروف ، فعلة ؛ بمعنى اسم المفعول .

فهذه الألواح نُسخ عليها مناهج الله عز وجل ، وتعليمات الصانع ، والتوجيهات ، وطريق السلامة والسعادة ، لما غضب ألقاها ، فلما سكت عنه الغضب حملها والله وأخذها .

ما فيها ؟ قال :

(وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ)

كلمة الرحمة كلمة جامعة مانعة يعني الله عز وجل خلقنا ليرحمنا .

الرحمة كلمة جامعة مانعة فالله عز وجل خلقنا ليرحمنا :

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود الآية : 119)

ماذا تعني الرحمة ؟ كلمة واسعة جداً ، يا ترى راحة نفسية ؟ راحة نفسية ، ثقة بالله ؟ ثقة بالله ، طمأنينة ؟ طمأنينة ، سعادة ؟ سعادة ، رؤية صحيحة ؟ رؤية صحيحة شجاعة ؟ شجاعة ، كرم ؟ كرم ، مكانة علية ؟ مكانة علية ، صحة ؟ صحة ، زواج موفق ؟ زواج موفق ، أولاد أبرار ؟ أولاد أبرار ، كلمة الرحمة شيء جامع مانع ، تشمل كل شيء ، كل شيء ، الله عز وجل تفضل بها علينا ، أحياناً الأمطار رحمة ، النبات رحمة ، الجو اللطيف رحمة ، أحياناً التوفيق بالتجارة رحمة ، التوفيق بعمل

رحمة ، التوفيق بشهادة عالية تخدم بها المسلمين رحمة ، تحقيق أهدافك رحمة ، كلمة واسعة .

هذه الرحمة أيها الأخوة ، تسعد بها ولو فقدت كل شيء ، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء ، بل إنك مخلوق للرحمة ، للتقريب :

طالب ما كتب وظيفته ، الذنب تكرر ، المعلم ضربه ، فقال : هذه المدرسة أنشئت لضربنا ، هذه المدرسة أنشئت لتعليمنا ، كي نكون قادة للأمة ، كي نكون علماء ، كي نعيش حياة مريحة ، كي نسهم في بناء الأمة ، هذه أهداف المدرسة ، أما هذا الطالب أفقه ضيق جداً ، ولما تلقى ضرباً من أستاذه تأديباً على تقصيره قام اتهم المدرسة بأنها بنيت ، وأسست لضرب الطلاب .

على المسلمين مراجعة حساباتهم قبل كل شيء :

عوام المسلمين لهم كلمات هي الكفر بعينه ، يقول : سبحان الله ! الله خلقنا للعذاب ، ويقول سبحان الله أيضاً ، سبحان الله ! لا يوجد أحد مرتاح ، هكذا طلع معك ؟ سبحان الله ! الله يعطي الحلاوة للذي ليس له أضراس .

والله أيها الأخوة ، هناك كلمات للعوام هي الكفر بعينه ، فلان شرب خمراً ، سبحان الله ! هكذا قدّر الله عليه ، هو ما له علاقة أبداً ، الله كتب عليه يشرب الخمر ، اسمعوا ماذا حكى الناس ، قال : طاسات معدودة بأماكن معدودة .

يا أخي الكريم يجب أن تراجعوا كل مصطلحاتكم ، والله مئات المصطلحات ، مئات التعبيرات ، مئات الكلمات والله هي الكفر بعينه .

الأم : مسكينة هذه البنت ما لها حظ ، هي طاهرة ، نقية ، عفيفة ، لكن لا حظ لها ، هذا الكلام غير صحيح .

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

(سورة الليل)

هذا قانون للتيسير والتعسير ، لذلك نحن بحاجة إلى مراجعة حساباتنا ، إلى مراجعة مصطلحاتنا ، إلى مراجعة عباراتنا التي نرددها دائماً ، إنسان مرتكب معصية كبيرة ، الله عتره ما هذا الكلام ؟! .

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية : 29)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

أو فلان الله كاتب عليه الشقاء ، الله يعافينا ، وكله سبحان الله ، يحكي كلمات الكفر وقبلها سبحان الله .

الأوامر و النواهي في منهج الله تعالى غرضها الوصول إلى رحمة الله و جنته :

فهنا :

(وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا)

منهج كي تصل إلى رحمة الله ، نسخ عليها منهج تفصيلي كي تصل إلى رحمة الله ، عندنا في الإسلام هناك صلاة خمس مرات يومياً ، شحنة روحية ، يوم الجمعة هناك درس تعليمي ، الخطبة ، يوجد بالشهر دورة تكثيفية ، ثلاثين يوماً رمضان صيام ، هناك حج بيت الله الحرام ، يوجد غض بصره ، ضبط لسان ، صدق ، أمانة ، استقامة ، عدم غش ، منهج تفصيلي يبدأ من فراش الزوجية وينتهي بالعلاقات الدولية ، هذا المنهج افعل ولا تفعل ، أمر ونهي ، مجموع هذه الأوامر وتلك النواهي من أجل أن تصل إلى رحمة الله ، من أجل أن تصل إلى الجنة ، وتقول :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ)

(سورة الزمر الآية : 74)

في الأرض جاءنا وحي السماء ، وجاء المنهج وطبقنا ، والنتيجة جنة عرضها السماوات والأرض .

مخافة الله عز وجل أكبر صفة يتمتع بها المؤمن :

إذاً

(وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى)

أي منهج يصل بك إلى الهدى ، والهدى رحمة الله ، منهج تفصيلي ، أحكام شرعية ، تفاصيل ملخصها افعل ولا تفعل ، أمر ونهي ، تؤدي بك هذه إلى رحمة الله ، لمن هذا ؟ لا لكل الناس أبداً

(لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ)

ما الفرق للذين يرهبون ربهم ، أو

(لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ)

تماماً الفرق بين نعبدك يا رب ، أو إياك نعبد ، حينما يأتي المفعول قبل الفعل صار في صيغة القصر والحصر إذا قلنا :

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

(سورة الفاتحة)

أي يا رب لا نعبد إلا إياك ، ولا نستعين إلا بك ، أما إذا قلنا يا رب نعبدك ، وقد نعبد غيرك ، هنا

(لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ)

أي لا يخافون إلا الله ، لا تأخذهم في الله لومة لائم ، إذا كان الله معك فمن عليك ، إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي ،

(لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ)

يخاف من الله .

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب الآية : 39)

يرهبون ، عرفوا عظمته ، عرفوا قدرته ، عرفوا غناه ، عرفوا رحمته ، عرفوا عدله ، عدله الدقيق ، فلذلك يخافونه ، أكبر صفة في المؤمن أنه يخاف الله ، و للعوام كلمة صحيحة(هذه المرة صحيحة) إذا شخص لا يخاف الله خاف منه ، لأنه وحش ، أعظم شيء بالمؤمن أنه مقيد .

((الإيمانُ قَيَّدَ الفَتْكَ))

[أخرجه أبو داود عن أبي هريرة]

لا يستطيع ، إذاً

(هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ)

الله عز وجل لا يعذب أحبابه أبداً :

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً)

(سورة نوح)

بالمناسبة : المؤمن الله عنده كبير ، يضحي بكل شيء ولا يضحي بطاعته ، الناس في آخر الزمان هان أمر الله عليهم فهانوا على الله ، لا يدقق المال حلال حرام ، يقول ماشي لا تدقق ، ما هذه لا تدقق هل هي آية أم حديث ؟ لا تدقق ، حرام ، حلال ، هذه الجلسة يجوز أن نجلس بها لا يجوز ، هذه الحرفة ترضي الله ، لا ترضي الله ، فيها معاصي ، فيها آثام ، المادة محرمة شرعاً يقول عليها طلب ، أنا أبيع طاولات زهر ، قلت له : لكن حرام ، عليها طلب كثير أستاذ لا أقدر ، عليها طلب كثير ، المهم أن يربح المال .

إذاً هان أمر الله عليهم فهانوا على الله ، قد عصيتك ولم تعاقبني ، قال وقع في قلبه أن عاقبتك ولم تدرِ، الله عز وجل يعاقب المسلمين ، وضعهم صعب جداً ، وضعهم لا يرضي .

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

ردّ الله عليهم :

(فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة الآية : 18)

معنى ذلك أنهم ليسوا أحبابه ، لأن الله لو قبل دعواهم لما عذبهم ، فاستنبط الإمام الشافعي إن الله لا يعذب أحبابه أبداً .

ذهاب سيدنا موسى مع سبعين رجلاً من قومه للاستغفار و الاعتذار من الله تعالى :

(وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ)

(سورة الأعراف)

نحن عندنا ميقاتين ، الميقات الأول ميقات المناجاة مع الله أربعين يوماً ، هذا الأول أما لما عبد قوم موسى العجل صار في ميقات ثانٍ للاعتذار والاستغفار ، سيدنا موسى اختار من قومه سبعين رجلاً يمثلوا كل أطياف قومه .

(وَاخْتَارَ مُوسَى)

من قومه

(سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا)

اختار موسى من قومه ، فجاءت

(وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ)

قومه في الأساس مجرور بحرف جر محذوف ، من قومه ، أما هنا نصب بنزع الخافض .

(وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا)

هذا الميقات الثاني ، أول ميقات ، ميقات المناجاة ، تمّ خلاله عبادة العجل ، الميقات الثاني سيدنا موسى مع نخبة من قومه من أجل الاعتذار والاستغفار ، لكن الله سبحانه وتعالى لحكمة بالغة أصابهم برجفة ، أي زلزال عنيف .

الله عز وجل متكفل أن يمتحن كل إنسان و يضعه في حجمه الطبيعي :

(فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ)

سيدنا موسى وقع بحرج شديد ، يعني هو أخذهم للمناجاة أخذهم للاستغفار ، أخذهم للصلح مع الله ، فإذا ماتوا فكأنه أخذهم ليقتلهم ، وقع بحرج .

(فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ)

لو أردت أن تهلكهم كنت قد أهلكتهم قبل هذا الميقات ، فإذا قتلوا وأهلكتنا الآن ماذا يقول الناس عني ؟ إنني أخذتهم ليموتوا .

(رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ)

وأنا معهم .

(أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا)

يبدو أن هؤلاء النخبة لم ينصاعوا لعبادة العجل فذهبوا للمناجاة ، أو لميقات ثانٍ كي يستغفروا لأقوامهم.

(لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ)

ماذا تعني كلمة فتنة ؟ امتحان فقط ، أنت لك أن تتوهم نفسك في أي حجم ، لك أن تتبجح ، لك أن تقول لكن الله متكفل أن يمتحنك ، وأن يضعك في حجمك الحقيقي ، مثل بسيط :

شاب يسمع أمه كلمات معسولة تفوق حدّ الخيال ، إن شاء الله حينما أتزوج سأكون أنا وزوجتي في خدمتك ، أنت أمنا ، أنت بركتنا ، أنت ، أنت ، أنت ، أسمعها كلاماً معسولاً ، لما تزوج انحاز لزوجته، قال لها : كل البلاء منك .

المشكلة أحياناً الإنسان يعطي نفسه حجماً كبيراً ، أنا لا آكل قرشاً حراماً ، طبعاً عرضوا عليك مئة ليرة ، لا تأخذها ، وألف لا تأخذها ، وخمسة آلاف لا تأخذهم ، جاءك مليون ، يا أخي أصبحت هذه بلوى عامة ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، أنا عندي أولاد ، اختلف الوضع ، كلامك باطل ، الله عز وجل يعرف بالضبط من أنت ، إذا تبجحت زيادة ، أعطيت نفسك حجماً كبيراً ، الله فقط يحجمك ، يضعك بظرف صعب ، صعب جداً .

الله عز وجل رحمة بالإنسان يريه من هو :

(إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ)

إنسان تجده صاحب دين ، وورع ، ومستقيم ، يقبل عمل بشركة ، يجد فيها اختلاط ، يطيب له الاختلاط ، صار يصلي صلاة و يقطع صلاة ، مشغول بعد ذلك ترك الصلاة ، بعد ذلك صار له صاحبات من هذه الشركة ، أين ورعك القديم ؟ ورعك ادعاء كنت تدعي هذا ، الله وضعك بوضع

صعب كشفك على حقيقتك .

بمعمل الاسمنت يصنعوا طبخات ، كل طبخة يصبوا منها مكعبات ، هناك جهاز بسيط جداً مكعب يمسك من الأعلى ، ومن الأسفل في كفة ، توضع في هذه الكفة أوزان متدرجة بأي وزن يكسر هذه مقاومته .

وكل مؤمن له وزن يكسر فيه ، كلما كان إيمانك أقوى يصبح الوزن عالٍ جداً ، أما الأنبياء :

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

(سورة الأحزاب)

(إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ)

وكل شخص لا بد من أن يفتن .

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت)

هو موظف ، دخله محدود ، وله جامع ، وله شيخ ، وكل أموره تمام ، عملَ عملاً تجارياً ، و هناك مادة رائجة جداً لكنها محرمة ، ماذا نفعل ؟ مضطرين .

مرة قال لي شخص : نحن عنا مطعم درجة أولى ، لكن المشكلة نبيع الخمر ، إن شاء الله برقبة شريكي أنا ما لي علاقة ، قلت له : ألا تأخذ نصف الربح ؟ قال لي : بلى ، لكن هو الذي أراد هذا ، قلت له : لماذا وافقت ؟ .

الإنسان أحياناً يدعي مكانة لنفسه ، يدعي حجم إيمان معين ، فربنا عز وجل رحمة به يحجمه ، يريه من هو ، هذه الفتنة

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

المؤمن القوي الصادق لا تضعفه سبائك الذهب اللامعة ولا سياط الجلادين اللاذعة :

بصراحة إخوانا الكرام ، هناك بالحياة ضغوط ، و مغريات ، المؤمن القوي الصادق لا تضعفه سبائك الذهب اللامعة ، ولا سياط الجلادين اللاذعة ، المؤمن رقم صعب ، الآن أي إنسان يغير قناعته برقم ، وليكن مئة مليون انتهى عند الله ، إذا في رقم يغيرك انتهيت ، والله المؤمن لو يعطوه ألف مليون وهو

فقير على أن يقول كلاماً بخلاف قناعته لا يتكلم ، الصحابة كانوا من هذا النوع ، كان الواحد بمليون ، الآن المليون بأف وليس بواحد ، بأف ، كلمة أف شيء تافه لا قيمة له إطلاقاً ، تأفف ، المليون بأف ، وكان الواحد بألف ، كن رجل مبدأ ، الله موجود ، كلمة الحق لا تقطع رزقاً ، ولا تقرب أجلاً .

(إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ)

الإنسان عند الله مكشوف ، لكن يدعي دعوة ، فربنا عز وجل يفتنه ، أي يمتحنه ، بعد الفتنة ينجح أو لا ينجح .

أذكر إنسان حدثني عن قصة ، ذهب مع صديقه ليشتريا سيارتين من ألمانيا ، ويأتيان بها إلى الشام ليتاجرا بالسيارات ، قال لي : نزلنا بفندق ببولونيا ، الساعة الثانية عشرة طُرق بابي وباب صديقي ، من امرأتين موميستين ، قال لي : أنا ما فتحت خفت من الله ، شريكه فتح ، طرق الباب من امرأة وأنت مسافر وحدك طبعاً هذه فتنة ، شخص قال :

(إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الحشر)

والله يا أخوان أبلغني أنه بعدما عادوا إلى الشام أحدهما عمله في صعود ، هذا الورع في توفيق ، في بحبوحة ، والثاني اضطر أن يسلم محله التجاري ، واشتغل صانعاً ، شخصهكذا وشخص هكذا ، الله فتن الاثنين ، أحدهما نجح ، والآخر لم ينجح .

استغفار قوم موسى عن خطئهم الناجم عن عبادة الأصنام :

(إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا)

والإنسان عنده رغبة بالمعصية ، لكن ما كان في ظرف مناسب ، جاء الظرف ، الظرف قلب رغبته إلى واقع ، فكان ضالاً ، والثاني عنده رغبة بالطاعة جاءه ظرف صعب قال : معاذ الله ، الله قلب ورعه إلى واقع .

(إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا)

أنت ربنا ، أنت ناصرنا .

(أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا)

اغفر لنا ماذا ؟ الخطأ الكبير الناتج عن عبادة الأصنام .

(وَارْحَمْنَا)

استنبط العلماء أن درء المفاسد مقدم على جلب المنافع .

(فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ)

الله عز وجل سمح لذاته العلية أن توازن مع بعض خلقه

الله عز وجل سمح لذاته العلية أن توازن مع بعض خلقه ، قال :

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

(سورة المؤمنون)

إنسان عالم كبير صنع كلية صناعية ، جيد ، صنعها من كل شيء ، صنعها من مئات القوانين التي قننها الله عز وجل ، صنعها من تقدم العلم المذهل ، لكن هذه الكلية الصناعية بحجم هذه الطاولة ، ومن أجل أن تصفي الدم يجب أن يجلس المريض إلى جانبها ثماني ساعات ، أو ست ساعات ، بالأسبوع ثلاث مرات ، وازن مع الكلية الطبيعية ، حجمها بحجم البيضة ، تعمل بصمت ، لا تشعر بوجودها ، تصفي الدم باليوم خمس مرات ، كل كلية في احتياطي عشرة أضعاف حاجتك ، الاثنتين عشرين ضعفاً، بلا صوت ، بلا نفقات ، لا تجمد نفسك ثماني ساعات بالأسبوع ثلاث مرات ، وازن بين كلية صناعية ، وكلية طبيعية ، وازن بين وردة بلاستيك ووردة طبيعية .

الله سمح لذاته العلية أن توازن مع بعض خلقه قال :

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

الله عز وجل ستير يُخفي عن الناس نقائصك إن تبت إليه :

هناك :

(أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)

(سورة الأنعام)

هناك :

(خَيْرُ الْوَارِثِينَ)

(سورة الأنبياء)

هنا

(خَيْرُ الْغَافِرِينَ)

أحياناً إنسان يعفو عنك ، كلما لمحك أنا فضلت عليك يقول لك ، الله يجزيك الخير ، غفر ، لكن منّ بغفرانه ، أما الله عز وجل :

((إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنؤوا فلاناً فقد اصطلح مع الله ، وإذا تاب العبد توبة نصوحة أنسى الله حافظيه ، والملائكة ، وبقاع الأرض كلها خطاياه ، وذنوبه))

[ورد في الأثر]

(وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ)

والله عز وجل ستير ، يُخفي عن الناس نقائصك ، ويظهر محاسنك ، يوجد أشخاص يكون يتعامل معك بمئة ميزة ، يجد في خطأ يشيع الخطأ ، قناص ، لئيم ، فضاح ، أما ربنا الله عز وجل ستير . إنسان ضُبط يسرق في عهد سيدنا عمر ، فجاء ليقيم عليه الحد ، فأقسم بالله أنها أول مرة ، قال له : كذبت ، إن الله لا يفضح من أول مرة ، فلما شدد عليه ، قال له : هذه المرة الثامنة ، ثامن مرة ، الله عز وجل ستير ، الإنسان يغلط يعطيه فرصة ، يبقى مستوراً .

فلذلك الإنسان لا يطمع بستر الله عز وجل إلى مالا نهاية ، ليس كل مرة تسلم الجرة ، مرة هناك فضيحة . إذاً

(إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ـ امتحانك ـ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ)

الحسنة في الدنيا لها معنيان معنى لغوي و معنى شرعي و المقصود هنا حسنة الشرع :

(وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة الأعراف)

الحسنة في الدنيا لها معنيان ، لها معنى لغوي ، شيء تستحسنه ، ولها معنى شرعي الشيء الذي حسنة الشرع ، إنفاق المال حسنة في الشرع ، أما إنفاق المال بنظر البخيل حمق فهناك معنى لغوي للحسنة ، كل شيء تحبه أنت ، وقد تحب المعاصي لا سمح الله ، أما البطولة بالمعنى الشرعي الحسن ما حسنه الشرع .

تكون نائماً في الشتاء ، والفراش وثير ، ودافئ ، فالحسنة عندك أن تبقى نائماً ، أما الحسنة بالشرع أن تستيقظ كي تصلي الفجر في وقته .

الحسنة بالشرع لها معنى ، وباللغة لها معنى ، المقصود هنا حسنة الشرع .

رحمة الله عز وجل في الدنيا لكل الخلق و في الآخرة للمؤمنين فقط :

(وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً)

أي يا رب أجري على أيدينا عملاً صالحاً ، أعنا على طاعتك ، أعنا على العمل الصالح ، أعنا على خدمة خلقك ، هذه حسنة الدنيا .

(وَفِي الْآخِرَةِ)

لكن هناك تعليق دقيق للعلماء : أن الحسنة في الدنيا لغوية للمؤمن والكافر ، للقريب والبعيد ، للمستقيم والمنحرف ، للمؤمن والملحد ، الملحد يأكل ، ويشرب ويتنفس ، في عنده دماغ ، ومعدة ، وأمعاء ، ورئتين ، وقلب ، وأوعية ، ويشتري بيتاً ويسكن ويتزوج ، مليون حسنة للكافر في الدنيا ، الحسنة في الدنيا بمعناها اللغوي للمؤمن والكافر معاً .

((ولو كانت الدنيا تَعْدِلُ عند الله جَناح بعوضة ما سَقى كافراً منها شَربة ماءٍ))

[أخرجه مسلم وأبو داود عن جابر بن عبد الله]

لكن الآية دقيقة :

(وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ)

رجعنا إليك يا رب ، الآن :

(قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ)

إياك أن تقول فلان لا بد من أن يعذبه الله ، هذا تألي على الله ،

(عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)

لكن في الآخرة ليست لكل الناس ، رحمة الله في الدنيا لكل الناس .

(رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ)

(سورة البقرة الآية : 126)

سيدنا إبراهيم :

(مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

(سورة البقرة الآية : 126)

الله ماذا قال له ؟

(وَمَنْ كَفَرَ)

(سورة البقرة الآية : 126)

الكفار غارقون بالنعم ، بيوت وسيارات ، وطعام نفيس ، واختلاطات ، وسفر وسياحة ، رحمتي في الدنيا لكل الخلق ، مؤمنهم وكافرهم ، أما رحمتي في الآخرة للمؤمنين فقط .

العاقل من يسعى لعمل يفضي به إلى الجنة :

(قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا ـ بالآخرة ـ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ)

كلام دقيق ، الرحمة في الدنيا لكل الخلق ، مؤمن ، كافر ، مستقيم ، عاصي ، ملحد ، يأكل ، ويشرب ، ويتنفس ، ويتزوج ، وساكن ببيت ، ودخله فلكي ، ويتفلسف على الناس ، هكذا ، رحمة الله في الدنيا لكل الخلق ، أما في الآخرة

(فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ)

لذلك :

((إن الدنيا عرض حاضر أكل منها البر والفاجر ، وإن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قادر))

[أخرجه الطبراني عن شداد بن أوس]

نعم الله في الآخرة للمؤمنين فقط ، أنت الآن في الدنيا مثلك مثل غيرك ، تجد شارعاً فيه مئة بيت ، بيوت فيها معاصي ، وفيها آثام ، في خيانة زوجية ، فيها استقامة ، وفيها غناء ، وفيها رقص ، وفيها تفلت ، بيوت ، والكل عندهم سياراتهم ، ولهم دخلهم ، ولهم مكانتهم ، ويعطيك بطاقة ، والكل مثل بعض الآن ، متى التمايز ؟ يوم القيامة .

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)

(سورة يس)

ابتعدوا عنهم ، فالبطولة من يسعى لعمل يفضي به إلى الجنة .

(وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ)

أي رجعنا إليك يا رب

(قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا)

(وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)

في الدنيا ، أما في الآخرة

(فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(45-60): تفسير الآية 157 ، الفطرة السليمة تنبئ صاحبها عن خطئه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-07-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

من آمن بالله موجوداً ولم يستقم على أمره لا قيمة لإيمانه إطلاقاً :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الخامس والأربعين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية السابعة والخمسين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آَمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

أيها الأخوة الكرام ، يجب أن نعلم علم اليقين أن هناك دائرة كل من لم يؤمن بالله أصلاً بوجوده خارج هذه الدائرة ، أما الذي آمن بالله أي إيمان ضمن هذه الدائرة ، لكن الذي آمن بالله موجوداً ، ولم يستقم على أمره لن ينتفع بإيمانه إطلاقاً ، وهذا الإيمان لا قيمة له إطلاقاً ولا يقدم ، ولا يؤخر ، وليس له أي ثمار ، لأن إبليس آمن بالله ، قال ربي :

(فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة ص)

وإبليس قال :

(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

(سورة الأعراف)

(خَلَقْتَنِي)

آمن به خلقاً ، وإبليس آمن باليوم الآخر قال :

(أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة الأعراف)

من انتفع بإيمانه ازداد تألقاً و توفيقاً بأعماله :

الإيمان الذي يحملك على طاعة الله تكون ضمن دائرة ثانية داخل الدائرة الكبرى ، صار هناك دائرة كبرى ، الذي لم يؤمن بالله أصلاً خارج هذه الدائرة ، والذي آمن به بشكل أو بآخر ضمن هذه الدائرة ، لكن لم ينتفع بإيمانه ، أما الذي حمله إيمانه على طاعة الله هذا في الدائرة الثانية ، التي هي داخل الأولى، هذا انتفع بإيمانه ، إيمانه أعطاه ثماراً يانعة ، أعطاه سعادة ، أعطاه سلامة ، أعطاه حكمة ، أعطاه قرباً ، أعطاه رضا ، أعطاه تألقاً ، أعطاه تفاؤلاً ، أعطاه توفيقاً بأعماله .

في مركز هذه الدائرة الأنبياء والمرسلون ، هؤلاء قمم البشر ، هؤلاء المعصومون قبل النبوة وبعدها ، هؤلاء الذين لا ينقطعون عن الله إطلاقاً ، هؤلاء الذين أحوالهم بإقبال مستمر وبيقظة مستمرة .

لذلك حينما مرّ الصديق رضي الله عنه بصحابي رآه يبكي ، اسمه حنظلة ، قال له الصديق : يا حنظلة مالك تبكي ؟ قال : نكون مع رسول الله ونحن والجنة كهاتين ، فإذا عافسنا الأهل ننسى ، من تواضع الصديق قال له : أنا كذلك يا أخي ، انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حدثاه عن هذه الحالة ، فقال : أما نحن معاشر الأنبياء ، فتنام أعيننا ولا تنام قلوبنا ، اتصال مستمر ، أما أنتم يا أخي كمؤمنين فساعة وساعة .

إياكم أن تتوهموا أنها ساعة طاعة ، وساعة معصية ، لا مستحيل ، ساعة تألق ، ساعة فتور ، الاستقامة هي هي ، عند الناس ، عند العوام كلام أنه ساعة لك وساعة لربك ، لك يعني تعصي الله ؟! هذا كلام مرفوض ، ساعة تألق ، وساعة فتور .

أما أنتم يا أخي فساعة وساعة ، دقق : لو بقيتم على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة ، ولزارتكم في بيوتكم .

معنى ذلك وأنت في المسجد لك حال مع الله ، تحس بطمأنينة ، تحس الدين عظيم ، تحس الآخرة أبدية، تحس العلم له قيمة ، الطاعة لها قيمة ، وأنت في المسجد في تألق ، في حال هذا الحال يعطيك قوة صمود ، يعطيك هذا الحال تفاؤلاً ، يعطيك سعادة ، يعطيك رؤية صائبة .

لو بقيتم على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة ، ولزارتكم في بيوتكم .

من كان مع الله كان معه :

أنت أيها المؤمن لك قالٌ ، ولك حال ، لك علم تقوله ، ولك مشاعر تحسها ، حتماً مشاعر المؤمن مسعدة ، المؤمن يرى أن أمره كله بيد الله ، المؤمن يرى أنه لا إله إلا الله ، المؤمن يرى أن الله :

(فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية : 84)

المؤمن يرى أن كل شيء بيد الله ، وأن الله عادل ، ورحيم ، وغني ، وقوي ، بيده كل شيء ، وأنت عبد من عبيده ، أمرك أن تطيعه فأطعته ، الذي عليك انتهى ، بقي ما وعدك به من عطاء ، من خير ، حالة المؤمن عجيبة .

عجبت لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، إن أصابته سراء شكر فكان ذلك له خير ، وإن أصابته ضراء صبر فكان ذلك له خير ، وليس ذلك لغير المؤمن .

يعني تصور مجنداً ملتحق بقطعة عسكرية ، وقائد الجيش والده ، ممن يخاف ؟ أكبر رتبة والده بإمكانه أن يأمره ، وأن ينهاه .

فأنت حينما تكون مع الله الأمر بيده ، صحتك بيده ، زواجك بيده ، عملك بيده ، رزقك بيده ، طلاقة لسانك بيده ، زوجتك بيده ، أهلك بيده ، من حولك بيده ، من أعلى منك بيده ، الأقل منك بيده ، الحالة هذه حالة مسعدة ، أنت مع الله ، كن مع الله ولا تبالي ، كن مع الله ترى الله معك ، أنت مع خالق الكون.

إذا شخص يعمل شرطياً مع وزير ، يمشي بالعرض ، يقول أنا عنده ، بهذه الحالة يعد نفسه وزيراً ، هو شرطي .

الله ولي الذين آمنوا يؤيدهم بالحفظ و الغنى و الدعم :

لذلك أنت حينما تكون مع الله تشعر بالقوة ، تحس بالغنى ، تحس بالحفظ ، تحس بالدعم ، تحس أن الله يدافع عنك ، الله وليك .

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة الآية : 257)

يعني الله عز وجل خالق السماوات والأرض ، بيده الأعداء ، بيده الأقوياء ، بيده الطغاة ، بيده الأغنياء، بيده هذه الأسلحة الفتاكة كلها ، لا تتحرك إلا بأمر منه ، هذا الإيمان الإيمان مريح جداً ، يعني إن لم تقل أنا أسعد إنسان بالأرض لست مؤمناً ، أنت مع من ؟ مع خالق السماوات والأرض ، مع من بيده كل شيء ، مع من إليه مصير كل شيء ، مع من

(فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

مع الذي قال :

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

فهذا الذي أتمنى أن يكون واضحاً ، هؤلاء الأنبياء قمم البشر ، أنت كمؤمن تتمتع بخصائص كبيرة جداً.

فحوى دعوة الأنبياء واحدة و هي الإيمان بالله تعالى :

لذلك الله عز وجل جعل لهؤلاء البشر قمماً ، مرجعيات ، فالأنبياء تتفاوت مراتبهم .

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

(سورة البقرة الآية : 253)

(لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)

(سورة البقرة الآية : 285)

الدعوة واحدة .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

من لوازم معرفة الله تعالى أن يبحث الإنسان عن أمره و نهيه :

الآية التي تبدأ في قوله تعالى :

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ)

المؤمن متبع ، قال : اتبع لا تبتدع ، اتضع لا ترتفع ، الورع لا يتسع ، المؤمن متبع ، سيد الأنبياء والمرسلين متبع .

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

(سورة الأنعام الآية : 50)

شأن العبد أنه متبع ، وشأن الرب أنه مُتَّبَع ، اتبع ، الآية الكريمة :

(الَّذِينَ)

من هم المؤمنون الصادقون ؟ الذين يتبعون النبي الرسول الأمي ، لذلك أنت دون أن تشعر ، بعد أن تعرف الله ، تسأل عن منهجه ، ما الذي يرضيه ؟ كيف أتقرب منه ؟ ما الحلال ؟ ما الحرام ؟ من لوازم معرفتك بالله أنك تبحث عن منهجه كي تتقرب إليه بما أمر ، وكي تنتهي عما عنه نهى وزجر .

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ)

أنت كمؤمن منهج الله عز وجل ، والله لا أبالغ لو دخلت بالتفاصيل في خمسمئة ألف بند ، تصلي لكن النظر له أحكام ، السماع له أحكام ، السماع له أحكام ، الزواج له أحكام ، الطلاق له أحكام ، التجارة

لها أحكام ، السفر له أحكام ، أنت أمام منهج كامل ملخصه افعل ولا تفعل ، لمجرد أنك عرفت الله لابدّ من أن تبحث عن أمره ونهيه .

الناس صنفان لا ثالث لهما :

لذلك من خصائص المؤمنين

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ)

بشكل أو بآخر البشر جميعاً على اختلاف مللهم ، ونحلهم ، وانتماءاتهم ، وأعراقهم ، وأنسابهم ، وطوائفهم ، ومذاهبهم ، هم متبع أو غير متبع ، مطيع أو عاصٍ ، مقبل أو مدبر ، مؤمن أو كافر ، لا ثالث لهذين الصنفين .

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل)

صدق أنه مخلوق للجنة فاتقى أن يعصي الله ، وبنى حياته على العطاء .

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

(سورة الليل)

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ)

المؤمن دأبه أن يسأل ، ما الحلال ؟ ما الحرام ؟ هل يجوز أن أفعل هذا ؟ هل هذا الدخل فيه شبهة ؟ هل هذه الحرفة ترضي الله ؟ هل هذا الموقف يرضي ؟ السفر يجوز ؟ دائماً وأبداً المؤمن له مرجع ، يسأل مرجعه عن الذي يرضي الله في عمله .

الرسول الكريم أميته وسام شرف له لأن الله تعالى تولى تعليمه :

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ)

نحن جميعاً من دون استثناء أميتنا وصمة عار ، إذا كنا أميين كيف نتلقى العلم ؟ العلم باللغة ، واللغة تحتاج إلى دراسة ، وإنما العلم بالتعلم ، أما أمية النبي صلى الله عليه وسلم وحده هي وسام شرف له ، لأن الله سبحانه وتعالى فرغ نفسه الطاهرة من كل ثقافة أرضية ، فرغه من كل ثقافة أرضية وملأها حقائق من عند الله مباشرة .

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)

(سورة النجم)

الله عز وجل ، على اختلاف المفسرين في معنى هذه الآية ، لكن الذي علمه هو الله ، خالق السماوات والأرض تولى تعليمه ، وهو أمي ، يأتي بآخر الزمان دكتور في الجامعة يأخذ بعض الأحاديث يشرحها (دكتوراه) يصبح دكتوراً لأنه فهم كلام رسول الله .

يا أيها الأمي حسبك رتبة في العلم أن دانت لك العلماء

* * *

أميته وسام شرف له ، لأن وعاءه ما فيه أي ثقافة أرضية ، لو معه شهادة عليا لو درس بالصين ، درس بأثينا فرضاً ، ورجع جاءه الوحي ، بدأ يتكلم ، كلما تكلم كلمة يسأل هذه من عندك أم من الوحي؟.

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)

(سورة العنكبوت)

أمية الرسول الكريم وسام شرف له و أميتنا وصمة عار بحقنا :

إذاً أميته وسام شرف له ، لأن الله تولى تعليمه ، مثلاً : لو جاء طبيب من أعلى اختصاص في العالم جراح قلب ، جاء من بلد بعيد ، ويحمل أعلى شهادة ، وفوق ذلك أجرى ألفي عملية ، وكلها ناجحة ، وجاء لمطار دمشق ، هو لا يتكلم العربية إطلاقاً ، هل أميته باللغة العربية تعني أنه جاهل ؟ كلامي دقيق ؟ هذا الطبيب الذي يحمل أعلى شهادة في الطب ، وهو جراح كبير ، وله مؤلفات ، وأستاذ في الجامعة ، لكنه لا يتقن العربية إطلاقاً ، فجاء إلى مطار دمشق ، احتاج إلى مترجم ، هذا الطبيب الذي يحمل أعلى شهادة لأنه أمي في اللغة العربية ، هل يعد جاهلاً ؟ لا .

النبي عليه الصلاة والسلام ما تلقى معرفة من بني البشر إطلاقاً ، ما تلقى معرفة من الأرض ، تلقاها من السماء .

لذلك

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ)

أميته وحده وسام شرف له ، وأميتنا جميعاً وصمة عار ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((إنما العلم بالتعلم))

[أخرجه الطبراني عن معاوية]

أنت إن لم تكن أمياً ، إن كنت أمياً من يعلمك ؟ معناها جاهل .

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ)

يعني بعض أحبار اليهود اتبعوا النبي الأمي .

قصة الحصين بن سلام :

الحقيقة هناك قصة مناسبة جداً لهذا الدرس ، الحصين بن سلامة ، كان عبداً لله عز وجل ، نفّذ أمر الله كله ، وكان كلما قرأ التوارة وقف طويلاً عند الأخبار التي تبشر بظهور نبي في مكة

(يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ)

اسم النبي ، وأوصاف النبي التفصيلية ، وأحوال النبي ، كل هذا في التوراة والإنجيل .

(وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)

(سورة الصف الآية : 6)

((أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشر بي أخي عيسى))

[أخرجه أبو يعلى عن شداد بن أوس]

يقول الحصين بن سلام ، لك أن تقول سلاّم وسلام كلاهما جائز ، يقول هذا الحبر اليهودي الكبير ، من كبار رجال الدين اليهود : لما سمعت بظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذت أتحرى عن اسمه ، وعن نسبه ، وعن صفاته ، وزمانه ، ومكانه ، وبينما هو مسطور عندنا في الكتب حتى استيقنت من نبوته ، استقين من نبوة هذا النبي الكريم .

هناك أوصاف ثانوية كثيرة جاءت في التوراة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : حتى استقينت من نبوته ، إلى أن كان اليوم الذي خرج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة قاصداً المدينة للهجرة ، فلما بلغ يثرب ، ونزل بقباء ، أقبل رجل علينا ، وجعل ينادي بالناس معلماً فقدومه ، وكنت ساعتئذٍ في رأس نخلة لي أعمل فيها ، وكانت عمتي خالدة بنت الحارث جالسة تحت الشجرة ، فما إن سمعت الخبر حتى هتفت الله أكبر ، الله أكبر ، وأنا على رأس النخلة .

قالت لي عمتي حينما سمعت التكبير : خيبك الله ، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً ما فعلت شيئاً فوق ذلك ، أنت يهودي ، ما هذا التكبير ! فقلت لها : أي عمة ، إنه والله أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه ، وقد بُعث بما بُعث ، لأن الرسالات واحدة ، المشكاة واحدة ، النور واحد ، المصدر واحد ، الهدف واحد ، قال تعالى :

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)

(سورة البقرة الآية : 275)

إسلام الحصين بن سلام :

في مضمون الدعوة ،

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(سورة البقرة)

فسكتت ، وقالت : أهو النبي الذين كنتم تخبروننا أنه يُبعث مصدقاً لما قبله ، ومتمماً لرسالات ربه ؟ فقلت : نعم ، قالت : كذلك إذاً ، هذا هو ، ثم مضيت من توي لرسول الله ، من كبار أحبار اليهود ، عبد الله بن سلاّم كما سماه النبي ، واسمه الحصين بن سلام .

مضيت من توي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيت الناس يزدحمون على بابه فزاحمتهم ، حتى صرت قريباً منه ، فكان أول ما سمعت ما يقوله : أيها الناس :

((يا أيُّها الناس ، أفْشُوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصَلُّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن سلام]

هذا أول حديث سمعه منه ، الآن يقول عبد الله بن سلام : لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قيل: قد قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قدم رسول الله ، قدم رسول الله ثلاثاً ، فجئت في الناس لأنظر ، فلما تبينت وجهه ، عرفت من وجهه أنه ليس بوجه كذّاب ، فكان أول شيء سمعته تكلم به أن قال :

((يا أيُّها الناس ، أفْشُوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصَلُّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام))

هذا أول حديث سمعه عبد الله بن سلاّم ، من رسول سيد الأنام ، قال : فجعلت أتفرس فيه وأتملّى منه ، هو درس بالتوراة أوصافه الدقيقة التفصيلية ، أيقنت أن وجهه ليس بوجه كذّاب ومن تكريم الله للمؤمن أحياناً أن يزوده بفراسة .

((اتَّقُوا فِراسَةَ المؤمن))

[أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري]

ثم دنوت منه ، وشهدت أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

تغيير اسم الحصين من قِبل النبي الكريم و إسلامه مع أهله :

التفت النبي عليه الصلاة والسلام إلى الحصين وقال : ما اسمك ؟ قلت : الحصين بن سلاّم ، فقال عليه الصلاة والسلام : بل عبد الله بن سلاّم ، كان عليه الصلاة والسلام يبدل أسماء أصحابه ، ما اسمك ؟ قال : الحصين بن سلاّم ، قال : بل عبد الله بن سلاّم ، ما اسمك ؟ زيد الخيل ، قال له : بل زيد الخير ، هناك إنسان اسمه حرة ، فكان عليه الصلاة والسلام ينادي أصحابه بأحب أسمائهم إليهم .

أيها الأخوة ، قال : نعم عبد الله بن سلام ، يعني ما دمت قد سميتني بهذا الاسم انتهى نعم عبد الله بن سلاّم ، والذي بعثك بالحق ما أحبّ أن يكون لي اسماً آخر بعد اليوم ، أحد كبار أحبار اليهود ، طالب الحق لا يتردد .

قال : ثم انصرفت من عند رسول الله إلى بيتي ، أول شيء دعوت زوجتي وأولادي إلى الإسلام ، فأسلموا جميعاً ، وأسلمت معهم عمتي خالدة ، التي قالت له : خيبك الله وكانت شيخة كبيرة ، ثم إني قلت لهم : اكتموا إسلامي وإسلامكم عن اليهود حتى آذن لكم ، راسم خطة ، اكتموا إسلامي وإسلامكم عن اليهود حتى آذن لكم ، قالوا : نعم .

اليهود قوم بهتان وباطل و أهل غدر وفجور بوصف الحصين بن سلام :

يقول : ثم رجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، قلت له : يا رسول الله إن اليهود قوم بهتان وباطل ، وإني أحبّ أن تدعو وجوههم إليك ، النخبة ، الزعماء ، رجال الدين الكبار ، وأن تسترني عندك في حجرة من حجراتك ، أنا مختبئ عندك ، ثم تسألهم عن منزلتي عندهم ، قبل أن يعلموا بإسلامي ، ثم تدعوهم إلى الإسلام أيضاً ، فالنبي الكريم وافق قال له : إنهم إن علموا بإسلامي عابوني ، ورموني بكل ناقصة ، وبهتوني .

أدخله النبي عليه الصلاة والسلام في بعض حجراته ، ثم دعاهم إليه ، وأخذ يحضهم على الإسلام ، يحبب لهم الإيمان ، يذكرهم بما عرفوه في كتبهم من أمره ، فجعلوا يجادلونه بالباطل ويمارونه بالحق ، وأنا أسمع ، فلما يئس من إيمانهم قال لهم : ما منزلة الحصين بن سلاّم فيكم ؟ اسمعوا ، قالوا : الحصين بن سلام ؟ هو سيدنا وابن سيدنا ، وحبرنا وابن حبرنا ، وعالمنا وابن عالمنا ، فقال عليه الصلاة والسلام : أرأيتم إن أسلم أتسلمون ؟ قالوا : حاشا لله ، ما كان له أن يسلم ، أعاذه الله أن يسلم ، فخرجت إليهم من الحجرة ، وقلت : يا معشر اليهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به محمد ، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وتجدونه مكتوباً عندكم في التوارة باسمه وصفته ، وإني أشهد أنه رسول الله ، وقد آمنت به وصدقته ، وأنا أعرفه ، فقالوا : كذبت والله ، إنك لشرنا وابن شرنا ، وجاهلنا وابن جاهلنا ، ولم يتركوا عيباً إلا عابوني به ، فقلت للنبي عليه الصلاة والسلام : ألم أقل لك يا رسول الله إن اليهود قوم بهتان وباطل ؟ وإنهم أهل غدر وفجور ؟ هو يعرفهم .

وسيدنا عبد الله بن سلاّم أكبر حبر يهودي صار من أكبر الصحابة ، ورفع الله مقامه عنده .

المعروف تعرفه الفطر السليمة ابتداءً من دون تعليم :

إذاً الله عز وجل يقول :

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَه)

هذا النبي الأمي ، يجدون اسمه ، وصفاته التفصيلية ،

(مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ)

ما مهمة النبي الكريم ؟

(يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ)

ما المعروف ؟ يا أخوان تسمية رائعة ، الشيء التي تعرفه الفطر السليمة ابتداءً من دون تعليم ، ائتِ بإنسان من الصحراء ، قل له فلان أمه جائعة ، اشترى طعاماً وأكله وحده ، يقول لك : مجرم ، أي إنسان .

النبي جاء بالمعروف ، ما تعرفه الفطر السليمة ابتداءً من دون تعليم ، الآن ببريطانيا في المحلفين ، جريمة يأتون بعشرة أشخاص من الطريق ، من عامة الناس من دون استثناء ، قد يكون طبيباً ، قد يكون عاملاً ، قد يكون حاجباً ، قد يكون عامل تنظيفات ، يعرضون على هؤلاء المحلفين أحداث الجريمة ، على الفطرة معظمهم ينطق بالحكم الصحيح ، عند الناس فطرة سليمة ، هناك شيء غير مقبول ، شيء مقبول ، أحياناً تؤلف كتاباً لا أحد يعترض ، معناها مقبول الكتاب ، إذا في خطأ تسمع ضجيجاً ، انتقادات ، تعليقات ، مقالة ، بصحيفة .

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ)

كل شيء تعرفه الفطر السليمة ابتداءً فهو المعروف .

تبدل القيم في آخر الزمان :

(وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ)

ولا تنسوا أن هذه الأمة العظيمة سنقول سابقاً ، أن هذه الأمة قال الله عنها :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران الآية : 110)

علية خيريتكم :

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية : 110)

أما وضعها الأخير يقول عليه الصلاة والسلام :

((كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن المنكر))

[أخرجه زيادات رزين عن علي بن أبي طالب]

الصحابة صعقوا :

((يا رسول الله ، وإنَّ ذلك لكائن ؟ قال : نعم ، وأشدُ ، كيف بكم إذا أمرتُم بالمنكر ، ونهيُتم عن المعروف ؟ قالوا : يا رسول الله وإنّ ذلك لكائن ؟ قال : نعم ، وأشدُّ كيف بكم إذا رأيتُمُ المعروفَ منكرا والمنكرَ معروفا))

والله الآن هناك أعمال يا أخوان قبيحة ، حقيرة ، دنيئة ، الناس يتباهون بها ، أعمال البطولة ، والجرأة، والشجاعة ، والنجدة ، والإنفاق ، والبذل يُتهم أصحابها بأنهم مجانين .

لذلك مشكلة كبيرة جداً ، تبدلت القيم .

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

* * *

هذا أهجى بيت قالته العرب ، هو شعار كل إنسان الآن :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

* * *

تحريم أشياء كثيرة على اليهود عقاباً من الله عز وجل :

(يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ)

أي شيء تعرفه ابتداءً من دون تعليم ، معروف ، وأي شيء تنكره ابتداءً منكر ، وقد يعرف هذا الحيوان ، القطة إن خطفت قطعة لحم تأكلها بعيداً عنك تعرف ذنبها ، أما إذا قدمت لها قطعة لحم تأكلها أمامك ، تدرك أن أول عمل غلط ، ينبغي أن تهرب ، العمل الثاني صح ، تأكلها أمامك .

(يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ)

كم نوع من الطعام مسموح به ؟ كم نوع ؟ أنواع لا تعد ولا تحصى ، حرم الله علينا لحم الخنزير ، وكم نوع من الشراب مباح لك ؟ والله هناك مئة نوع ، حرم الخمر .

(وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ)

الطيبات تطيب نفسك به ، مرة قال لي شخص (له جاهلية كبيرة جداً): أنا كنت شارداً عن الله ، وكنت منحرف الأخلاق ، ثم تزوجت ، قال لي : والله ربع ساعة مع الزوجة تعدل آلاف النساء الفاسقات ، هذه زوجة طاهرة ، عفيفة ، هي لك ، أم أولادك ، تنجب لك أولاداً يملؤون البيت فرحة .

(وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ)

ما تطيب نفسك به .

(وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ)

ما تخبث نفسك به .

(وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ)

فالله عز وجل قال :

(فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ)

(سورة النساء الآية : 160)

كان هناك عقاباً من الله في تحريم أشياء كثيرة على اليهود ، قال :

(وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ)

المتاعب التي عانوها ما كانت قبلهم عقاباً من الله عز وجل .

(وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

الأمر الإلهي العلاقة بينه وبين النتائج التي تنتج عنه علاقة علمية :

إخوانا الكرام ، أهم فكرة بالموضوع أن الأمر الإلهي العلاقة بينه وبين النتائج التي تنتج عنه علاقة علمية ، يعني علاقة سبب بنتيجة ، شيء طبيعي ، وأوضح مثل :

لما إنسان يقترب من تيار توتره عالٍ يحترق ، يصبح فحمة ، المواطن إذا رأى بلاغاً أنه ممنوع الاقتراب ، ليس الموضوع موضوع شرطي يحاسبك ، التيار يحاسبك ، الموضوع ليس موضوع مخالفة تكتب عليك ، لا ، أخطر بكثير ، التيار نفسه خصائصه ضمن 8 أمتار يصبح الإنسان فحمة ، هذا العلاقة بين الأمر والنهي والنتيجة علاقة علمية ، مثلاً :

هذا باب ، وهناك باب ثانٍ ، لو ظهر تعليمات في هذا المسجد هذا الباب لا أحد يخرج منه ، لو شخص خرج ، ما في علاقة علمية بين اللوم الذي سيصيبه ، وبين خروجه ، باب أساساً هُيئ للخروج ، لكن في تعليمات معينة لا تخرج منه ، نقول هذه العلاقة بين عدم الخروج من الباب ، واللوم الذي سيتحمله من خرج علاقة وضعية ، نحن وضعناها .

أحياناً جاءت فترة القانون يمنع إخراج الدولارات ، إذا الشخص المبلغ مبلغه وسافر فيه يسجن ، لا يوجد علاقة علمية ، بين السجن ، الإنسان السارق يسجن ، القاتل يسجن ، لكن هذا معه المال ماله ، لكن في تعليمات ، في قانون وضعي ، جعل خروج الإنسان بمال له عقاب .

نحن دائماً الأسباب والنتائج إما العلاقة بينها علاقة علمية ، أو علاقة وضعية ، أكثر القوانين علاقة وضعية ، إلا أن الأوامر الإلهية ، والنواهي الإلهية ، العلاقة بينها وبين النتائج علاقة علمية ، مثل آخر: معك شاحنة فيها عشرين طناً ، وصلت إلى جسر مكتوب عليه : الحمولة القصوى عشرة طن ، إذا سائق أحمق وفي شرطة ، ليس موضوع شرطة ، الشرطة ما لها دخل ، الجسر لا يتحمل عشرة طن ، سينهار ، ستسقط في النهر ، أي شرطة ؟ الفكرة واضحة ؟.

معرفة الإنسان الحق و الباطل و الحلال و الحرام بفطرته :

العلاقة بين الأمر ونتائجه ، والنهي والنتائج علاقة علمية ، يعني علاقة سبب بنتيجة

(وَيُحِلُّ لَهُمُ)

كل شيء تطيب أنفسهم به .

شخص تزوج ، زوجته حلاله ، سهر معها ، ونام ، وقام صلى قيام الليل ، مرتاح ، كله وفق المنهج ، لا يحس حاله غلط ، زوجته هذه ، أم أولاده ، لكن لو شخص أسمع فتاة كلمة بالطريق نابية يحس حاله انحجب عن الله ، هذه لا تحل له ، الكلمة النابية فيها عقاب .

فأنت تعرف بالفطرة الحق والباطل ، الحلال والحرام بالفطرة ،

(يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ)

تعرفه النفوس البشرية ابتداءً من دون تعليم .

مثلاً : طفل صغير وجد قلماً أعجبه فوضعه في جيبه ، صاحب القلم رفع إصبعه ضاع قلمي ، الأستاذ فتش الطلاب ، عثر عليه بجيب هذا الطفل ، يحس هذا الطفل بآلام لا توصف ، لماذا تألم ؟ هو مفطور فطرة ، هذه الفطرة أنبأته أن عمله غلط .

بالمناسبة هناك فندق بألمانيا مكتوب عليه : إن لم تنم هذه الليلة فالعلة ليست في فرشنا إنها وثيرة ، مريحة ، لكن العلة في ذنوبك إنها كثيرة .

العقاب الذاتي أكبر عقاب للإنسان :

الآن أي إنسان يغلط ، يؤذي إنساناً ، يبتز مال إنسان ، تجده شقياً ، تحاسبه نفسه ، تعاقبه نفسه ، أكبر عقاب العقاب الذاتي ، هناك حالة اسمها احتقار الذات ، قد تكون قوياً جداً وغنياً جداً ولا أحد يجرؤ أن يقول لك كلمة ، أما حينما تعلم أنت بفطرتك أنك تبني مجدك على أنقاض الناس ، تبني عزك على إذلالهم ، مالك على إفقارهم تسقط من عين نفسك ، هذا اسمه احتقار الذات ، الشعور بالذنب ، الشعور بالنقص ، هذه الفطرة ، الفطرة تحاسب ، هذه الفطر السليمة تعرف المعروف ، وتعرف المنكر ، عرفته ابتداءً ، وأنكرته ابتداءً ، من دون تعليم ، كل واحد منا .

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة)

الإنسان يعلم علم اليقين الخطأ من الصواب ابتداءً من دون تعليم ، هذه الفطرة .

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(46-60): تفسير الآيات 158 - 162، تيه قوم سيدنا موسى في الصحراء

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-08-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

سيدنا محمد بُعث إلى الناس عامة بينما باقي الأنبياء أرسلهم الله إلى أقوامهم فقط :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس السادس والأربعين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثامنة والخمسين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

أيها الأخوة ، الحقيقة الأولى في هذه الآية : أن كل أنبياء الله جلّ جلاله أرسلهم الله إلى أقوامهم ، إلا أن النبي وحده هو خاتم الرسل ، وخاتم الأنبياء ، ورسالته خاتمة الرسالات وكتابه خاتم الكتب ، أرسله الله لكل البشر أجمعين ، من دون استثناء ، والدليل أن القرآن الكريم يخاطب الناس في مئتي و ست عشرة آية يقول ،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ)

يخاطب الناس جميعاً ، يخاطب الأمم جميعاً ، الشعوب جميعاً ، لكن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أعطيتُ خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحد قبلي : كان كلُّ نَبيّ يُبْعَثُ إلى قومِهِ خَاصَّة ، وبعثْتُ إلى كُلِّ أحمرَ وأسودَ))

[البخاري و مسلم عن جابر]

يعني إلى كل الشعوب على اختلاف ألوانها ، وأجناسها ، وأعراقها ، وطوائفها .

((وأحلّتْ لِيَ الغنائمُ ، ولم تَحِلَّ لأحد قبلي ، وجُعِلَتْ لِيَ الأرضُ طَيِّبَة وطهورا ومسجداً ـ في أي مكان تصلي ـ فأيُّمَا رَجُل أدركَتْهُ الصلاة صلّى حيث كان ، ونُصِرْتُ بالرعب على العدوِّ بين يَدَيْ مَسِيرةِ شَهْر))

لكن أمته من بعده حينما تركت سنته هُزمت بالرعب مسيرة عام .

((ونُصِرْتُ بالرعب على العدوِّ بين يَدَيْ مَسِيرةِ شَهْر ، وأعطيت الشفاعة))

وفي رواية ثانية :

((أعطيتُ خَمْسا لم يُعْطَهُنَّ أحد من الأنبياء قبلي : نُصِرْتُ بالرُّعبِ مسيرة شهر وجُعلتْ ليَ الأرضُ مسجداً وطهورا ، فأيُّمَا رَجُل من أمَّتي أدركته الصلاة فليصلّ ، وأحِلّت ليَ الغنائمُ ، ولم تَحِلَّ لأحد قبلي ، وأُعْطِيتُ الشفاعة ، وكان النبيُّ يبعثُ إلى قومهِ خاصة ، وبعثتُ إلى الناس عامة))

[البخاري ومسلم عن أبي هريرة]

هذا معنى قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ)

معجزة النبي الكريم معجزة مستمرة لأنها لكل الأمم والشعوب :

أيها الأخوة ، لأنه بُعث إلى الناس عامة ، إذاً ينبغي أن تكون معجزته مستمرة ، لأن كل معجزات الأنبياء السابقين معجزات حسية ، كتألق عود الثقاب ، تألقت وانطفأت ، وأصبحت خبراً يصدقه من يصدقه ، ويكذبه من يكذبه .

إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام لأنه لكل الأمم والشعوب ، ولنهاية الدوران ، وحتى نهاية الساعة ، إذاً ينبغي أن تكون المعجزة (وهي شهادة الله لأنه رسوله) مستمرة ، ولن تكون مستمرة إن كانت حسية، ينبغي أن تكون عقلية .

لذلك الإعجاز العلمي في القرآن هو المعجزة المستمرة ، بمعنى أن القرآن الكريم أشار إلى حقائق كُشفت بعد ألف و أربعمئة عام ، والحديث عن هذا حديث طويل له وقت آخر إن شاء الله .

الله عز وجل خلق هذا الكون و أرسل الرسول الكريم :

إذاً :

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً)

رسول من ؟ رسول جهة أرضية ؟ .

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

والسماوات والأرض هي الكون ، والكون ما سوى الله ، أي ثلاثة آلاف مليار مجرة ، أحدث الأرقام ، ثلاثة آلاف مليار مجرة ، في كل مجرة مليون مليون كوكب ونجم ، الذي خلق هذا الكون هو الذي أرسل هذا الرسول .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

ولم يدع أحد أنه خلق السماوات والأرض .

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

أنت أحياناً تستمع إلى صوت ، من هذا الصوت تعرف من القائل ، إذا قال لك : هناك وزير عينته ، و قررت أن أقيله فهذا رئيس وزارة ، من كلام المتكلم تعرف من هو .

الذي يقول لك : الله الذي خلق السماوات والأرض ، هل ادعى أحد أنه خلق السماوات والأرض ؟ سبحانه وتعالى . إذاً :

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

من الإله ؟ الذي

(يُحْيِي وَيُمِيتُ)

حياتك بيده ، استمرار حياتك بيده ، سلامة حياتك بيده ، كمال حياتك بيده ، من حولك بيده ، من فوقك بيده ، من تحتك بيده ، الرزق بيده ، نجاح الزواج بيده ، النجاح بالعمل بيده ، راحتك النفسية بيده ، القلق بيده ، الحزن بيده ، الفرح بيده .

الإنسان مخلوق لحياة عليا فعليه أن يؤمن بالله خالقاً و مسيراً و رباً :

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآَمِنُوا بِاللَّهِ)

آمن به خالقاً ، آمن به رباً ، آمن به مسيراً ، آمن به موجوداً ، آمن به واحداً ، آمن به كاملاً ، آمن بأسمائه الحسنى ، وصفاته الفضلى ، آمن أن كماله كمال مطلق ، آمن أنه ذات كاملة ، آمن أنه خلقك ليسعدك ، آمن أن كل مصيبة لها حكمة بالغة لو كشف الغطاء لاخترتم الواقع ، آمن أن هذه الحياة دنيا ، وليست عليا ، وأنك أيها الإنسان مخلوق لحياة عليا ، فيها :

((ما لا عين رأتْ ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

(فَآَمِنُوا بِاللَّهِ)

آمن به عدل ، رحيم ، غفور ، كريم ، لطيف ، رؤوف ، جبار ، آمن به يقصم الجبابرة ، آمن به ينتقم من الظالمين ، آمن به :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود الآية : 123)

آمن به :

(فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ)

(سورة الزخرف الآية : 84)

(فَآمِنُوا بِاللَّهِ)

والله أنا آمنت أن الله خلق السماوات والأرض ، فقط ؟ هل عرفت أسماءه الحسنى ؟ هل عرفت صفاته الفضلى ؟ هل عرفت رحمته ؟ هل عرفت حكمته ؟ هل عرفت رأفته ؟ هل عرفت لطفه ؟ هل عرفت قوته ؟ هل عرفت غناه ؟ .

دخول الجنة بحاجة إلى من العمل :

(فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

هل تعرفت لرسول الله ؟.

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ)

(سورة المؤمنون الآية : 69)

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ)

(سورة سبأ الآية : 46)

(فَآمِنُوا بِاللَّهِ)

أقول لك مثلاً : يا أخي كن طبيباً ، كلمة كن طبيباً تنام تستيقظ تجد نفسك طبيباً ؟ أما في ثلاث و ثلاثين سنة دراسة ، ومعك مجموع عالٍ جداً ، وسبع سنوات دراسة ، وكل يوم عشر ساعات دراسة ، علوم عامة ، فيزياء ، وكيمياء ، ورياضيات ، وطبيعيات ، والعام الثاني تشريح ، العام الثالث فيزيولوجيا ، الرابع علم الأمراض ، علم الأدوية ، وبعدها فحوصات ، وتطبيقات ، وتدريبات ، بعدها إجازة في الطب ، سبع سنوات ، وخمس فوقهم ، وترجع بالرابعة و الأربعين و الخامسة و الأربعين معك بورد ، تكتب جانب اسمك الدكتور فلان .

تحتاج مرتبة تحصل بها على الجنة إلى أبد الآبدين من دون جهد ؟ من دون أن تحضر درس علم ؟ من دون مطالعة كتاب ؟ من دون سؤال وجواب ؟ معظم الناس مرتاحون يوزع ألقاباً على الناس ، يتوهم أنه مؤمن ، وله خمسين معصية .

سِلْعَةَ اللَّهِ غالية :

أيها الأخوة ،

(فَآَمِنُوا بِاللَّهِ)

يوجد جهد ، سلعة الله غالية ، جنة تريدها بلا عمل ؟ بالأمل ؟ بالدعاء ؟ بركعتين ؟ بليرتين ، وتعيش كما تريد ، وكما تشتهي ، لا يوجد انضباط لا بكسب المال ، ولا بإنفاقه ، ولا مع النساء ، وتريد جنة عرضها السماوات والأرض ؟ .

((ألا إنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غالية))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

أضرب مثلاً أعيده كثيراً : دخلت لأرقى محل للسجاد ، تريد سجادة ، أراك صاحب المحل ، أريد أثقل، الثانية ، الثالثة ، الرابعة ، أطلعك على مئة سجادة ، تريد أثقل ، أخذك إلى محل ثانٍ أعلى ، أراك السجاد الأصلي ، ثمن كل واحدة مليونان ، ثلاثة ملايين ، أعجبتك واحدة قلت له : تأخذ ثمنها خمس ليرات ؟ تخرج من المحل سالماً ؟ ثلاثة ملايين تريدها بخمس ليرات ؟!.

والله الجنة أعظم ، تريد حياة أبدية بالجنة ، ولست مستعداً أن تحضر درس علم ، أما مسلسل يمنع التجول ، أوقات المسلسل أربع ساعات ، أما درس العلم ساعة ، تعرف ربك فيه ، وضع المسلمين وضع متعب جداً ، وضع مؤلم جداً .

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

رسول من ؟ دولة عظمى الأولى بالعالم ، تجد سفيرها محترم احتراماً مذهلاً ، سفير الدولة العظمى ، السفير يأخذ مكانته من دولته ، من قوة دولته ، من هيمنة دولته ، ورسول الله رسول من ؟ رسول خالق السماوات والأرض .

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً)

من هو الله ؟

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

ولم يدعِ أحد أنه خلق السماوات والأرض .

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآَمِنُوا بِاللَّهِ)

آمن به خالقاً ، ومسيراً ، وممداً ، آمن به موجوداً ، وواحداً ، وكاملاً ، آمن بأسمائه الحسنى ، وصفاته الفضلى .

أمية النبي وسام شرف له لأن الله تولى تعليمه :

(فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ)

أميته وسام شرف ، لأن الله تولى تعليمه ولأن وعاء النبي عليه الصلاة والسلام ما أراد الله أن يكون به من ثقافات الأرض ، كله من وحي السماء ، لو أن النبي درس بالمراكز العلمية بحياته ، في عهده ، يقال له : يا رسول الله ، هذا من الوحي أم من عندك ؟ .

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)

(سورة العنكبوت)

وعاء النبي عليه الصلاة والسلام ممتلئ من وحي السماء فقط .

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم)

وعاء النبي ممتلئ من وحي السماء ، لذلك أمية النبي وسام شرف له ، لأن الله تولى تعليمه .

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)

(سورة النجم)

من آمن بالله و رسوله هُدي إلى سرّ وجوده و غاية وجوده :

أما نحن إن كنا أميين فأميتنا وصمة عار بحقنا ، لا يوجد طريق إلى العلم إلا بالتعلم لو شخص ما تعلم جاهل ، أما النبي وحده ، يأخذ بعض العلماء بعض أحاديثه ، يدرسونها ، يُمنح درجة دكتوراه بامتياز ، لأنه شرح بعض أحاديث رسول الله .

يا أيها الأمي حسبك رتبة في العلم أن دانت لك العلماء

* * *

(فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

(لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

إلى سرّ وجودكم ، إلى علة وجودكم ، إلى أنكم خلقتم لجنة عرضها السماوات والأرض .

(لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

إلى سلامتكم ، وسعادتكم .

العاقل لا يعمم لأن التعميم من العمى :

أيها الأخوة ، الشيء اللطيف بالقرآن ما يسمى الآن بالموضوعية ، يعني هناك من يعمم ، والتعميم من العمى ، قال تعالى :

(وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)

(سورة الأعراف)

يعرفون الحقيقة ، يتبعون الحق ، منصفون ، من أهل العدل والإنصاف ، كلمة من لا تعمم ، لا تقل كل أهل هذه البلدة فسقة ، إياك أن تقول ، لا تقل كل الأغنياء بخلاء ، إياك أن تقول هذا ، هذا كلام إنسان أعمى ، قل بعضهم ، بعضهم في أعلى درجة من السخاء والتواضع قل بعض أهل مدينة ما انحرفوا ، والبعض الآخر بأعلى درجة من الانضباط ، إياك أن تعمم التعميم من العمى .

انتشار اليهود في بلاد الأرض و الحكمة من عدم وجود وطن لهم :

انظر إلى دقة القرآن :

(وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)

ثم يقول الله عز وجل :

(وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

(سورة الأعراف)

يعني نسل سيدنا يعقوب ، جاء أحد عشر كوكباً ، والمتكلم اثني عشر .

(يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)

(سورة يوسف)

فسيدنا يعقوب نسله ، معنى الأسباط ، أي ابن الولد .

(وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً)

تقول جاء امرأتان اثنتان ، وجاء رجلان اثنان ، فاثنتان مؤنث ، بعضهم قال : لأن كل جمع مؤنثٍ ، وبعضهم قال : السبط هو القبيلة والقبيلة مؤنثة ، كل سبط صار أمة ، اثني عشر ولداً ، كل ولد صار أمة ، وانتشروا في بلاد الأرض ولحكمة بالغةٍ ليس لهم وطن .

رحلة اليهود في التيه :

ثم يقول الله عز وجل :

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ)

يبدو أن الحديث الآن عن رحلة اليهود في التيه ، الآن تاهوا في الصحراء ، في أثناء هذا التيه شعروا بحاجة كبرى إلى الماء عطشوا .

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ)

أي طلبوا السقيا ، الحاجة الأولى الهواء لكن لحكمة بالغةٍ بالغة الهواء ليس ملك أحد ، لو كان يُملك في فواتير ، كنا قد هلكنا ، يرفع السعر ، نريد أن نستنشق الهواء ، ما في هواء ، نختنق ساعتئذٍ ، الهواء لا يُملك ، لا يوجد باللغة استهوى ، يوجد استطعم ، طلب الطعام ، استسقى ، طلب السقيا ، لكن ما في استهوى ، فطلب الهواء الحاجة الأولى ، طلب الماء السقيا الحاجة الثانية ، طلب الطعام الحاجة الثالثة .

(فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا)

(سورة الكهف الآية : 77)

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ)

بالمناسبة : أي فعل سبقه ألف ، وسين وتاء ، على وزن استفعل صار للطلب ، استغفر طلب المغفرة ، استودع طلب الوديعة ، استقام طلب الاستقامة ، استرحم طلب الرحمة ، استسقى طلب السقيا ، استطعم طلب الطعام ، إلا أن فعل استهوى ورد في القرآن الكريم ، لا بمعنى طلب الهواء ، ولكن بمعنى أن تكون على هوى الشيطان ، الآية الكريمة :

(قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ)

(سورة الأنعام الآية : 71)

(اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ)

طلبت منه أن يكون على هواها ، الشيطان يوسوس بالمعاصي والآثام .

(فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأنعام الآية : 71)

تساوي الماء لكل سبط من أسباط اليهود حتى لا يتنازعوا :

إذاً :

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ)

يعني انفجرت

(مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً)

لكل سبط عين ، يبدو أنهم متشاكسون ، فكل واحد له عين خاصة ، وهناك استنباط آخر : أن كمية الماء من كل عين مساوية للثانية ، حتى لا يختاروا هذه لي ، وهذه لك ، حتى لا يكون هناك تنازع ،

الكميات متساوية ، وكل سبط له عين .

لكن هناك ملمح آخر دقيق : لما سيدنا موسى ضرب البحر بعصاه ، أصبح طريقاً يبساً ، ضرب اليبس بعصاه أصبح ماء زلالاً ، ضربة واحدة تحول الماء إلى صخر ، والصخر إلى ماء هذا من طلاقة القدرة الإلهية ، عمل واحد يحول الصخر إلى ماء .

(أن اضْرِبْ بِعَصَاكَ البحر)

(سورة الشعراء الآية : 63)

فأصبح الطريق يبساً .

(اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً)

يعني كن فيكون عمل واحد .

الآن الماء قلته بلاء ، وكثرته بلاء ، التسونامي ماء ، أحرق الأخضر واليابس الفيضانات تدمر كل شيء ، الريح منعش ، وهناك رياح مميتة .

إكرام الله عز وجل اليهود في رحلتهم بعدما تاهوا في صحراء سيناء :

إذاً :

(فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ)

أما الآية الثانية :

(فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ)

(سورة الشعراء)

هذه عصا واحدة ، والضرب واحد ، ضُربت المياه بالعصا فأصبحت طريقاً يبساً وضربت بالصخر العصا فأصبح ينابيع شتى .

الله عز وجل أكرمهم بهذه الرحلة ، جعل لكل سبط عيناً ، ولكل سبط غمامة سحابة تظللهم من أشعة الشمس ، ولكل سبط نقيباً ، وكل مجموعة لهم نقيب ، والتبليغ تسلسلي ، في نظام .

(وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى)

قال المن مادة بيضاء حلوة الطعام ، والسلوى طائر من رتبة الدجاجيات ، واحدته سلوات ، وهو السماني أو السمان المعنى واحد ، هذا طير لا يربيه أحد ، يأتي مهاجراً .

(وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى)

يعني حاجاتهم كلها ، ماء ، غمام ، منّ وسلوى ، ظل ظليل ، وماء وفير ، وطعام طيب .

لذلك قال : لُبيت حاجاتهم قدراً لا كسباً ، الآن شخص حتى يشتري الطعام يكون له حرفة ، وله دخل ، حتى يرتاح له بيت ، دافع ثمنه ، فكل مقتنيات الإنسان كسبية ، أما هؤلاء في هذه الرحلة الماء من قدر الله لهم ، والغمام من قدر الله لهم ، والطعام من قدر الله لهم ، في حلويات أعتقد تصنع في بعض الأقطار اسمها المن والسلوى .

(كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

أيها الأخوة ، هذه التفاصيل إشارة إلى رحلة اليهود في صحراء سيناء حينما تاهوا الله عز وجل أدبهم لأنهم عبدوا العجل ، ثم أكرمهم بالماء ، والطعام ، والظل الظليل .

عدم تطبيق اليهود الأمر الإلهي بأن يسكنوا مصر و يخضعوا لله و يطلبوا المغفرة :

الآن :

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

(سورة البقرة)

لما ضجروا من أنفس طعام ، ومن أطيب إكرام ، قال الله لهم :

(وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة الأعراف)

اسكنوا أية قرية ، أية مدينة .

(وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ)

فيها طعام لكم ، منوع كما تشتهون .

(وَقُولُوا حِطَّةٌ)

يعني اخضعوا لله عز وجل ، واطلبوا المغفرة .

(وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ)

نزول العذاب الأليم باليهود نتيجة آثامهم و معاصيهم :

لم يفعلوا .

(سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)

(سورة البقرة الآية : 93)

نحن في نهاية الصلاة يقول بعض المسلمين في بعض المساجد : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ، أما لسان حال المسلمين اليوم ،

(سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)

لم يقولوا حطة ، ولم يدخلوا الباب سجداً ، ولم يستغفروا ، فقال تعالى :

(فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ)

(سورة الأعراف)

ما طبقوا الأمر الإلهي .

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً)

الرجز هو العذاب ، عندنا رجزٌ ، رَجزٌ ، ورُجزٌ ، معنى بالكسر ، والفتح ، والضم ، يعني كلمة مثلثة ، الرجز ؛ المآثم والمعاصي ، وتنجو إذا تركت المآثم والمعاصي من الرجز الذي هو العذاب ، بالكسر العذاب ، بالضم الآثام والمعاصي ، فحينما يبتعد الإنسان عن الآثام والمعاصي ينجو من العذاب .

(فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ)

أي لم يطبقوا الأمر الإلهي .

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً ـ أي عذاباً ـ مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ)

الدين الإسلامي لكل الأمم و الشعوب :

أيها الأخوة ، أريد أن أؤكد لكم أن كل قصص القرآن الكريم هي لمن ؟ هي لنا ، لأن سيدنا موسى وقومه مضوا إلى دار القرار ، لكن المعني بهذه القصة نحن ، فهناك استنباطات كثيرة ، يقع في أول هذه الاستنباطات أن هذا الدين لكل الأمم والشعوب ، وأن هذا الدين خاتم رسالات السماء ، وأن النبي عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والرسل ، وأن بعثته خاتمة البعثات ، وأن كتابه خاتم الكتب ، وأن إعجاز القرآن الكريم هو الدليل ، والشهادة من الله على أنه كلامه .

أمثلة عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم :

1 ـ الهواء و الأعاصير :

حينما يصعد رائد فضاء إلى طبقات الجو العليا ، باتجاه القمر ، ويقطع 65 ألف كم طبقة الهواء ، طبقة الهواء المحيطة بالأرض سمكها 65 ألف كم ، النقطة الدقيقة أن الله عز وجل حينما قال :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

(سورة الروم الآية : 42)

بربكم تمشون على الأرض أم في الأرض ؟ على ، في يعني بالسراديب ، بالأنفاق ، الآية :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

ما وجه الإعجاز في هذه الآية ؟ قال : لأن الهواء جزء من الأرض ، 65 ألف كم طبقة الهواء .

تصور الهواء ثابت والأرض تدور ، ما الذي يحصل ؟ يصبح أعاصير سرعتها ألف و ستمئة كم بالساعة ، هناك أعاصير بالعالم الغربي بأمريكا تدمر كل شيء ، مدينة بأكملها .

(لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ)

(سورة المدثر)

وقد تشاهدون في الأخبار بعض الأعاصير ، البيوت كلها تحطمت ، السرعة ثمانمئة كم فإذا كان ألف و ستمئة لا يبقى على وجه الأرض شيء ، إذا كان الهواء ثابت والأرض تدور ، أما الهواء جزء من الأرض .

لذلك قال تعالى :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

تمشي أنت بين فوق طبقة الهواء 65 ألف كم وعلى سطح الأرض ، لكن الإجمالي تمشي أنت في الأرض ، لا على الأرض .

2 – الظلام في الفضاء الخارجي :

أيها الأخوة ، رائد الفضاء حينما صعد إلى الفضاء الخارجي صاح فجأة لقد أصبحنا عمياً ، لا نرى شيئاً ، كان في أكبر عالم فضاء من مصر في القاعدة التي انطلقت منها مركبة الرواد ، ما الذي حصل؟ لما قطع هذا الرائد طبقة الهواء انعدم تناثر الضوء ، فدخل في الظلام الدامس ، نحن في الأرض عندنا أشعة شمس ، و هواء ، والهواء ذرات ، فحينما تسلط أشعة الشمس على ذرات الهواء بعض ذرات

الهواء تعكس أشعة الشمس على ذرات أخرى ، صار في بالأرض مكان أشعة الشمس ، ومكان فيه ضوء شمس ، رائد الفضاء لما تجاوز الـ65 ألف كم دخل بالفضاء الخارجي ، ما عاد في هواء ، ما عاد في انتثار ضوء ، ما عاد في ضوء أبداً دخل في ظلام دامس فقال : لقد أصبحنا عمياً ، هذا متى كان ؟ كان قبل عشرين سنة ، مع إرسال أول مركبة إلى الفضاء ، صاح رائد الفضاء : لقد أصبحنا عمياً .

الآن افتح كتاب الله واقرأ هذه الآية :

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

(سورة الحجر)

هذا إعجاز القرآن .

3 ـ الوردة الجورية :

قد تعجب لوردة عرضتها وكالة الفضاء في موقعها في الانترنيت ، وردة جورية ، لو تأملتها ملياً لا تشك لثانية واحدة أنها وردة جورية بأوراقها الحمراء الداكنة ، وبوريقاتها الخضراء الزاهية ، وبكأسها الأزرق في الوسط ، لكن كُتب تحت هذه الوردة : صورة انفجار نجم اسمه عين القط ، يبعد عن الأرض ثلاثة آلاف سنة ضوئية ، وردة عرضتها بعض البرامج التلفزيونية ، افتح القرآن :

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

4 ـ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ :

تركب طائرة على ارتفاع أربعين ، خمسين ألف قدم ، بأعلى درجات الفخامة بالدرجة الأولى ، طعام ، وشراب ، ومسليات ، وفواكه ، وعصائر ، وصحف ، ومجلات ، ومقعد وثير ، وتكييف ، وانترنيت ، وفضائيات ، وقنوات ، تفتح القرآن تقرأ قوله تعالى :

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا)

(سورة النحل الآية : 8)

الطائرة 777 .

(وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل الآية : 8)

هذا كلام الله عز وجل ، هذه داخلة بالطائرة ، والمركبة ، والقطار السريع ، والحوامة والباخرة ، واليخت دخل فيها .

خاتمة :

الإعجاز هناك في إشارات إلى حقائق لم تكن معروفة وقت نزول الوحي ، لكن بعد ألف و أربعمئة عام تمت معرفته .

أيها الأخوة الكرام ، الآيات التي شرحت اليوم هي قوله تعالى :

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ * وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(47-60): تفسير الآيات 163 - 166، ابتكار الحيل الشرعية للخروج عن منهج الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 08-08-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

من أدلة أن سيدنا محمداً هو رسول الله أنه جاء بأنباء ما كان يعرفها لا هو ولا قومه :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس السابع والأربعين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثالثة والستين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

أيها الأخوة ، الله جل جلاله يأمر نبيه أن يسأل أهل الكتاب .

(وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ)

هو لم يقرأ ولم يكتب ، وما اتصل بالمراكز العلمية في العالم ، ولا يعلم شيئاً عن قصص الأمم الغائبة، من أنبأه بهذا الحديث ؟ لذلك الله عز وجل يقول :

(تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ)

(سورة هود الآية : 49)

من أنباء الغيب ، هذه الأنباء غابت عنك ، وما دمنا قد أوحيناها إليك وأنت تذكرها لقومك فأنت رسولنا

(تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ)

(مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ)

(سورة هود الآية : 49)

أي من أدلة أن هذا الإنسان محمد بن عبد الله ، رسول الله ، أنه جاء بأنباء ما كان يعرفها لا هو ولا قومه ،

(تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ)

أمية النبي عليه الصلاة والسلام وسام شرف له لأن الله تولى تعليمه :

آية ثانية :

(وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا)

(سورة القصص الآية : 45)

أنت ما كنت مع أهل مدين ، من أين أتتك هذه الحقائق تتلوها على قومك ؟ .

آية ثالثة :

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

(سورة آل عمران)

دليل ثالث .

آية رابعة ، أنت أمي لم تقرأ ولم تكتب ، وعاؤك ممتلئ من الله مباشرة :

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)

(سورة النجم)

أمية النبي عليه الصلاة والسلام وسام شرف له ، لأن الله تولى تعليمه ، يعني إنسان يفتخر له أستاذ بروفسور ، يحمل أعلى شهادة في العالم ، تتلمذ على يده ، يتيح بهذه النسبة لأستاذه فكيف إذا كان الذي علم النبي الكريم خالق السماوات والأرض ،

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)

دعوة النبي الكريم دعوة نقية خالصة لأنها من وحي السماء :

الله عز وجل شاءت حكمته أن يكون أمياً ، لئلا يكون في وعائه الثقافي إلا وحي السماء ، تبقى دعوته نقية خالصة من وحي السماء ، لذلك :

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم)

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)

(سورة العنكبوت)

لذلك اسألهم يا محمد ، اسأل أهل الكتاب ، كدليل على نبوتك ، وكدليل على رسالتك ، وكدليل على صدقك ،

(وَاسْأَلْهُمْ)

الإسراء و المعراج مكافأة من الله عز وجل للنبي الكريم على صبره في الطائف :

أيها الأخوة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الحِجْرِ ـ في الكعبة ـ وَقُرَيْشٌ تَسأَلُنِي عن مَسْرَايَ ؟ ـ عن أحداث الإسراء ـ فَسَأَلَتْنِي عن أشياءَ من بَيتِ المقدس لم أُثبتْهَا))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

أحياناً تزور صديقك أنت منشغل بالحديث معه ، تقول لك زوجتك ما لون قماش الأثاث ؟ والله لا أعلم! أنت منشغل بموضوع مهم تسألك عشرات الأسئلة لا تستطيع أن تجيب عنها إطلاقاً ، لأنك منغمس في موضوع خطير ، في لقاء حميم ، تعالج موضوعاً دقيقاً ، ما انتبهت لا إلى الأثاث ، ولا إلى الجدران ، ولا إلى الستائر ، تقول والله لا أعلم .

فالنبي عليه الصلاة والسلام جاء إسراءه ومعراجه مكافأة من الله عز وجل على صبره على قومه في الطائف ، قال تعالى :

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

(سورة الإسراء)

عدم تخلي النبي الكريم عن قومه بل دعوته لهم بأن يخرج الله من أصلابهم من يوحده :

لما قال النبي الكريم في الطائف :

((اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، أرحم الراحمين أنت أرحم الراحمين ، إلى من تكلني ؟ إلى عدو يتجهمني ، أم إلى قريب ملكته أمري ؟ إن لم تكن غضبان علي فلا أبالي ، غير أن عافيتك أوسع لي))

[أخرجه الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

فأراد الله سبحانه وتعالى أن يمتحنه ، مكنه أن ينتقم منهم ، أرسل له ملك الجبال قال :

((يا محمد أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك ، لو شئت لأطبقت عليهم الأخشبين قال : لا يا أخي ، اللهم اهدِ قومي))

[الدر المنثور في التفسير بالمأثور]

ما تخلى عنهم ، ودعا لهم ، واعتذر عنهم ، فإنهم لا يعلمون ، ورجا الله أن يخرج من أصلابهم من يوحده .

((اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحده))

سؤال قريش النبي الكريم في حِجر الكعبة عن معالم بيت المقدس :

لما سئل وهو في حجر الكعبة عن معالم بيت المقدس ، وقد أسرى الله به إليه قال :

((وَقُرَيْشٌ تَسأَلُني عن مَسْرَايَ ؟ فسألَتْني عن أشياءَ من بَيتِ المقدس لم أثبتْهَا ـ أي لم أتذكرها ـ فكُرِبْت كُرْبَة ما كُرِب مثلها قطُّ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

ألم تذهب إلى هناك ؟ حدثنا عن بيت المقدس ، وقع بحرج شديد ، قال :

((قال : فَرَفَعهُ الله لي))

يراه رأي العين .

((أَنْظُرُ إليه ، ما يَسألُوني عن شيءٍ إلا أنْبَأْتُهم بهِ ، وقد رَأيتُني في جماعةٍ من الأنبياء ، فإذا موسى قائم يصلي ، فإذا رجل ضَرْبٌ ـ نوع خاص ، متميز ـ جَعْدٌ كأنَّه من رجال شَنُوءة ، ـ قوم شنوءة قوم أشداء ـ وإذا عيسى بنُ مريمَ قائم يُصلِّي ، أقرب الناس به شَبَها عُروَةُ بنُ مسعودٍ الثقفيُّ ، وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يُصلِّي ، أشْبَهُ النَّاس به : صَاحِبُكم ـ أي النبي عليه الصلاة والسلام يشبه سيدنا إبراهيم ـ فَحَانَتِ الصلاةُ فأمَمتُهُم ـ صلى بهم إماماً ـ فحَانَتِ الصلاةُ فأمَمتُهُم ، فلمَّا فَرَغْتُ من الصلاةِ قال قائلٌ : يا مُحَمَّدُ هذا مالكٌ خَازنُ النَّار ، فسَلِّمْ عليه ، فالتَفَتُّ إليه ، فبَدَأني بالسلام))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

يعني الله عز وجل أخبره .

أحد أكبر أدلة نبوة النبي عليه الصلاة والسلام أنه جاء بأخبار الأمم والشعوب السابقة :

أحد أكبر أدلة نبوة النبي عليه الصلاة والسلام أنه جاء بأخبار الأمم والشعوب السابقة ، أنى له أن يعرفها لولا أن هناك وحياً يأتيه ، أنى له أن يعرفها لولا أن الله أخبره بها ، لكن السؤال :

(وَاسْأَلْهُمْ)

قال : سؤال للتقرير ، والتقريع ، والتوبيخ ، يعني أنتم يا أهل الكتاب لماذا تنكرون نبوة النبي الكريم ؟ وأوصاكم في كتبكم ، وها قد جاءكم بأخبار الأمم السابقة ، هي عندكم في التوراة هو لم يقرأ التوراة ، إذاً هذه الأخبار السابقة تعد دليلاً على نبوته صلى الله عليه وسلم وعلى رسالته .

(وَاسْأَلْهُمْ)

ما السؤال ؟ قال :

(عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ)

معنى حاضرة البحر ؛ أي قريبة من البحر ، طبعاً ليست بيت المقدس ، بعض العلماء قالوا : أيلة ، ومدين ، وطبرية ، لأن هذه المدن قريبة من البحر .

الحكمة من إغفال الله تفاصيل بعض القصص في القرآن الكريم :

بالمناسبة أيها الأخوة ، هناك ظاهرة في قصص القرآن أن الله جلّ جلاله يُغفل التفاصيل ، ويُغفل الجزئيات ، كم عدد فتية أهل الكهف ؟

(فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً)

(سورة الكهف الآية : 22)

ما الحكمة من أن القرآن الكريم في قصصه يغفل التفاصيل ؟ يغفل الجزئيات ؟

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً)

(سورة الكهف)

من هو ذو القرنين ؟ عاش في آسيا ؟ في جنوب آسيا ؟ في أوربا ؟ في الجزيرة ؟ متى ؟ متى ظهر ؟ في أي عام ظهر ؟ في أي أرض جلس ؟ مع من تحارب ؟ ما في تفاصيل ، ما الحكمة ؟ أقول لكم : الحكمة البالغة أن الله سبحانه وتعالى ما أراد من هذه القصص أن تكون قصصاً مع تفاصيل ، وجزئيات، وأسماء ، وزمان ، ومكان ، معنى أنها وقعت ولن تقع مرة ثانية ، الله ما أراد تاريخاً ، ما أرادها سيراً ذاتية ، ولا أرادها سيراً موضوعية ، أرادها قوانين مستمرة ، أرادها نماذج بشرية ، تقع في كل مكان .

قصص القرآن الكريم نموذج متكرر و حقائق مستمرة لا تاريخ و قصة وقعت وانتهت :

لذلك أنا أقول : حيث ما سكت القرآن الكريم عن بعض التفاصيل ينبغي ألا تسال عنها لأنك لو سألت عنها أفسدت على الله حكمته ، أضرب مثلاً :

أستاذ في جامعة أديب ، وأستاذ اقتصاد ، ألقى محاضرة على طلاب السنة الأولى عن عوامل نجاح التجارة ، فساق هذه الأفكار والحقائق بشكل قصة ، قال : لي صديق ، اشترى محلاً تجارياً في مركز المدينة ، بمكان تزاحم الأقدام (يوجد بمركز المدينة محل مئة مليون فروغ ، بينما في مكان آخر بلا فروغ ، إطلاقاً ، الفرق تزاحم الأقدام) فقال هذا الأستاذ : لي صديق اشترى محلاً تجارياً بمركز المدينة ، واختار بضاعة أساسية ، ما اختار حوض أسماك ، بضاعة غير أساسية ، إذا في ارتفاع أسعار ، في أزمات معيشية ، يقف عمله ، اختار بضاعة أساسية واختار البضاعة من أفضل الأنواع ، وضع لها سعراً معتدلاً ، ولم يبع ديناً ، وعامل الناس معاملة طيبة ، موقع المحل ، نوع البضاعة ،

مستوى البضاعة ، عدم البيع ديناً ، المعاملة الطيبة فهذا الصديق ربح أرباحاً جيدة ، واشترى بيتاً ، وتزوج ، واشترى مركبة ، وعاش حياة محترمة جداً .

فقام طالب و قال له : أستاذ هذا صديقك أبيض أم أسمر ؟ ما لها علاقة بالموضوع ! ما درجة قرابتك منك ؟ ما اسمه ؟ أين يسكن ؟ رقم هاتفه إذا ممكن ؟ هذا الطالب ما فهم مغزى المحاضرة ، أراد المدرس أن يقول من أجل أن تنجح تجارتك ينبغي أن تختار مكاناً ، و مكان ازدحام الأقدام بالمركز ، وأن تختار بضاعة يحتاجها الناس كثيراً ، وأن تختار مستوى البضاعة في أعلى مستوى ، وان تضع لها سعراً معقولاً ، وألا تبيع ديناً ، وأن تكون طيباً في معاملتك ، أراد المدرس أن يقول هذه الحقائق ، فلما سأل أحد الطلاب عن اسم هذا الشخص ، أبيض لما أسمر ، وعلاقتك معه أستاذ ، وأين بيته ؟ ورقم تلفونه ؟ هو ما فهم القصة إطلاقاً .

لذلك قالوا ينبغي أن تسكت حيث سكت القرآن ، ما جاء بتفاصيل ، جاء بالمغزى لذلك أراد الله من قصص القرآن الكريم أن تكون نموذجاً متكرراً ، وأن تكون حقائق مستمرة ، لا أن تكون تاريخاً ، وقصة وقعت ولن تقع .

وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ : هذه الآية وحدها تملأ النفوس ثقة بالله عز وجل :

أوضح مثل لهذا قصة سيدنا يونس حينما التقمه الحوت :

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ)

(سورة الأنبياء)

هذه هي القصة ، انتهت ، جاء التعقيب من قِبل الله عز وجل ليجعل هذه القصة قانوناً ساري المفعول في كل مكان و زمان ، فقال تعالى بعد القصة :

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

2008 - 2020 ، بأوربا ، بالشرق الأوسط ، وأنت على الباخرة ، وأنت في الطائرة ، وأنت في ضيق ، وأنت في مرض ، وأنت في دولة فيها حصار ،

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

هذه الآية وحدها ينبغي أن تملأ نفوسكم جميعاً وأنا معكم ثقة بالله عز وجل ، هل من مصيبة أكبر من أن ترى نفسك لقمة في فم حوت ، في ظلمة فم الحوت ، وفي ظلمة الليل ، وفي ظلمة البحر .

(وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ)

أي على البحر ، أو قريبة منه ، وما في تفاصيل ، لأن الله أراد المغزى ، سيدنا يوسف ، يقول لك شخص : يا ترى بعدما جعله الله عزيز مصر هل تزوج زليخة بعد ذلك ؟ والله لا أعرف ، أنا ما كنت وقتها ، لا أعرف ، ولازم ما أعرف ، أنا أعرف هناك إنسان دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال :

(إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

(سورة المائدة)

بطاعته لله كان عبداً فصار ملكاً ، امرأة خادمة ، جارية ، لما رأته في مركبه قالت : سبحان من جعل العبيد ملوكاً بطاعتك ، وسبحان من جعل الملوك عبيداً بمعصيته .

إذاً :

(وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ)

ما في تفاصيل ، فهمتم عدم ذكر التفاصيل ؟ أراد الله لقصصه أن تكون حقائق ، وقوانين ، ومبادئ ، وسنن ، ونماذج متكررة ، أما التفاصيل توحي إليك أن هذا تاريخ ، أنها قصة وقعت ولن تقع مرة ثانية، تقع كل يوم ،

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

تقع كل يوم .

تحريم العمل عن أهل الكتاب يوم السبت :

ما قصة هذه القرية ؟.

(وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً)

هؤلاء أهل الكتاب حُرم عليهم أن يعملوا يوم السبت ، وهذا التحريم ساري المفعول حتى الآن ، يكون في مؤتمرات ، مندوب هذه الدولة مراعاة لأحكام دينه لا يقبل أن يقوم بأي نشاط يوم السبت ، إذا في مؤتمر ، معروف ، أما هم يعتدون يوم السبت ، يهدمون بيوتاً يوم السبت ، ويذبحون ، ويقتلون ، ويعملون كل الموبقات يوم السبت ، هذه ما لها علاقة بالدين .

(إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ)

لكن حَّرم عليهم العمل يوم السبت ، وسبحان الله لحكمة بالغة ، ولامتحان صعب ،

(إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً)

البحر ممتلئ بالحيتان ، ممنوع أن تصيدوا ،

(وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ)

أحد ، اثنين ، ثلاثاء ، أربعاء ، خميس ، جمعة ، ما في أحد ، الامتحان صعب ، امتحان إنسان ادعى أنه يحب الله كثيراً .

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

(سورة المائدة الآية : 18)

يقول لك شخص : لو تقطعني إرباً إرباً لا آكل قرشاً حراماً ، ما في شغل ، طرق باب وظيفة لا يوجد، هنا لا يوجد شواغر ، هنا انتهت ، هنا فات الأوان ، يأتي عمل بدخل فلكي بمكان محرم ، يتماسك ، يتماسك ، بعدها يقول لك ماذا أفعل ؟ أنا عندي أولاد ، معناها أنت دعواك غير صحيحة ، أما وضعك بظرف صعب ، أحياناً الله عز وجل يغلق أمام أبواب الحلال ، ينفتح دخل كبير فلكي من عمل محرم ، فأنت تدعي وصلاً بليلى ، لكن ليلى تعرف أنك لا تحبها ، تحب مصلحتك ، وضعك بهذا الوضع الصعب بعدئذٍ كفرت بليلى ، وفعلت ما يغضبها وانتهى الأمر هذا الواقع .

الحيل الشرعية فيها جانب إيجابي ولها مئات الجوانب السلبية :

(إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

لمعت أمامهم فكرة ، عملوا أحواضاً مفتوحة من جهة واحدة ، هذه الحيتان يوم السبت تدخل في هذه الأحواض ، إذا دخلت أغلقوا الأحواض ، صادوها يوم الأحد ، هذه حيلة شرعية .

وصدقوا أيها الأخوة ، أقسم لكم بالله إن الذي يفعل مثل هذه الحيل الشرعية كأنه يستهزئ بالله عز وجل.

يريد أن يسكن مع زوجة أخيه ، هي امرأة أجنبية ، سهلة ، نأتي ببنت ترضع من عند الجيران ، نعمل عقد زواج بيني وبينها ، بنت ترضع عمرها سنة ، ترضعها زوجة أخي ، نصيغ عقد زواج بين الرجل وبين هذه الرضيعة ، تصبح أمها التي أرضعتها حماتي ، أطلق البنت الرضيعة الحماة محرمة على التأبيد ، حلها .

آتي زكاة مالي أضعها في رغيف ، أقدمه للفقير ، هو ظن فقط رغيف ، بعدما أخذ قال له : تهبه لي بخمسمئة ليرة ؟ رغيف ثمنه خمسمئة ؟ فيه اثني عشر ألفاً في وسطه ، يرجعهم يضحكون على أنفسهم.

الحيل الشرعية يا أخوانا كثيرة جداً ، لكن لها وجه إيجابي ، إذا كان أخوك له مكانته ، وعزيز النفس ، وصعب يقبل صدقة ، هو عنده كبرياء ، وعنده عزة نفس عالية ، إذا عملت حيلة أنه وجدنا هذا المبلغ ، والآن سنضعه عندك أمانة حتى الله يفرجها ونجتمع بصاحبه ، إذا انتفعت منه ما في مانع ، ونحن حتى يأتي صاحبه نؤمنه لك ، القصة كلها ما لها أصل ، عملت حيلة حتى تساعد أخاك ، وتحافظ له على كرامته ما في مانع ، فيها جانب إيجابي ، ولها مئات الجوانب السلبية ، الحيل الشرعية هذا وضعها .

من جمع مالاً حراماً حوسب عليه لأنه استحل ما حرم الله :

أيها الأخوة ، هذا هو الوضع الدقيق قال :

(إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ)

الحيتان جمع حوت ، والعمل يوم السبت عندهم محرم كي ينقطعوا للعبادة ، نحن عندنا يوم الجمعة :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ)

(سورة الجمعة الآية : 9)

لكن قال : لأنهم اعتدوا في السبت ، واصطادوا الحيتان التي حُرمت عليهم يوم السبت بحيلة أدخلوها إلى أحواض مغلقة ، أغلقوا الأحواض ، واصطادوها يوم الأحد ، لأنهم استحلوا ما حرم الله عليهم ، حرم الله عليهم ما هو حلال لهم ، كلام دقيق ، يعني عقاب من جنس العمل ، هم استحلوا ما حرم الله عليهم ، فالله عاقبهم لأنه حرم عليهم ما أحلّ لهم ، هذا اسمه عند العلماء تحريم تأديب ، لا تحريم شرعي ، والدليل :

(فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ)

(سورة النساء الآية : 160)

مثلاً : شخص خطر في باله أن ينشئ دار سينما ، وأتى بأفلام مثيرة جداً ، وفاضحة والشباب أقبلوا عليه ، وجمع أموالاً طائلة ، جمع هذه الأموال كي يعيش حياة مستقرة ، منعمة ، مرفهة ، فجاءه مرض خبيث وهو في الأربعين ، فله ابن أخت هو تلميذ عندي ، قال لي : دخلت على خالي رأيته يبكي ، قال له : جمعت ملايين مملينة من هذه الدار ، وأنا الآن سأغادر الدنيا ولم أنتفع بهذا المال إطلاقاً ، لأنه اختار حرفة مبنية على إفساد الشباب ، على انحرافهم .

لذلك أقول لكم يا أيها الأخوة ، أنا لا أرى أغبى ممن يجعل رزقه من طريق محرم .

مرة شخص عنده دار قمار ، على فراش الموت أهله طلبوا له داعية من الدعاة ، قال له : معي ثمانمئة مليون جمعتها من القمار ، هذه قصة قبل عشرين سنة ، ثلاثين سنة ، ثمانمئة مليون ماذا أفعل ؟ هذا الداعية أنا لا أوافقه على كلامه ، لكن هذا الذي قاله ، قال له : والله لو أنفقتها جميعاً لا تنجو من عذاب الله ، فات الأوان .

فلذلك الإنسان إذا جمع مالاً حراماً لا يستمتع به بل يحاسب عليه .

على الإنسان أن يصلح بين الناس و لا يستمع لكلام المثبطين :

أيها الأخوة :

(وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

(سورة الأعراف)

هناك قول قيل ، إذا أنت ألقيت كلمة ووجهتها إلى أناس معينين ، فأنت اسمك متكلم ، هناك ثلاث شرائح ، شريحة تؤيدك ، وشريحة تعارضك ، لذلك :

(وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً)

فأجاب الواعظون :

(مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

إنسان وعظ ، الموعوظ يخطئ ، يرتكب هذه الحيل الشرعية ، فمن ذلك أنه كان في بني إسرائيل أناس منصفون ، ومؤمنون ، وورعون ، هؤلاء المؤمنون الورعون نصحوهم ، وعظوهم ، ما معنى وعظه؟ هناك فرق كبير بين أن تقول صلِ ، وأنت مسلم من أب مسلم وأم مسلمة ، وتعلم علم اليقين أن الصلاة فرض ، إذا قلت له صلِ ، أنت الآن واعظ لماذا ؟ لأنك تأمر الناس بشيء يعرفون أنه فرض ، ولكن لا يفعلونه ، أما قد تدخل إلى جامعة ، تسمع درس علم مثلاً الفقه المقارن ، موضوع جديد عليك ، إذا ألقي عليك موضوع لا تعرفه هذا تعليم ، أما إذا ألقي عليك كلام يذكرك بالمحرمات التي لا تعبأ بها أنت أحياناً هذا اسمه وعظ ، الوعظ أنا أذكر من حولي بشيء يعرفونه محرم ، لكنهم يقترفونه .

فهؤلاء الشرائح الثلاث ، يرون أن هؤلاء لا جدوى منهم ، وأحياناً إنسان يقول لا أحد فيه خير ، ادخل إلى بيتك وارتاح ، دعك من الناس ، هذا موقف ؟ هناك أناس آخرون عندهم طموح كبير ، يحكي ، حكى أمام مئة هناك أربعة استفادوا ، وأربعة تابوا إلى الله ، فالذين وعظوا لما جاءهم اللوم ؟

(لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

على الإنسان ألا يتأخر في نصيحة الآخرين لأنه من قال هلك الناس فهو أهلكهم :

شخص مغنٍّ أقلق أبا حنيفة رحمه الله تعالى سنوات طويلة بغنائه ، وعوده ، وآلته الموسيقية ، ويغني ويقول : أضاعوني وأي فتىً أضاعوا ، ثم افتقد الصوت ، سأل عنه ، قالوا : في السجن ، ذهب بحجمه الكبير ، وبمكانته الكبيرة إلى صاحب الشرطة ، وأفرج عنه أركبه خلفه ، قال له : يا فتى هل أضعناك؟ فتاب إلى الله ، وقد يمكن ألا يتوب ، لكنه تاب .

فأنت حاول أن تصلح الناس ، لكن لا تسمع كلام المثبطين ، الناس ما فيها خير ، قال : من قال هلك الناس فهو أهلكهم ، والله هناك آلاف القصص من إنسان انحرافه شديد ، إلى إنسان تاب إلى الله عز وجل قال :

(لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

قال المعذرة إبداء سبب المخالفة ، والمُعذر من يأتي بعذر صادق ، والمُعذّر من يأتي بعذر كاذب .

في بعض المعارك جاء المنافقون ، يعتذرون إلى رسول الله ، قال جاء المُعذّرون سوف يختلق أعذاراً كاذبة غير صحيحة ، والنبي جاملهم ، قبل منهم أعذارهم وانتهى ، جاء سيدنا كعب قال : والله أوتيت جدلاً ، عنده قوة إقناع ، عنده أسلوب قوي جداً ، والله أستطيع أن أخرج من سخطه ، لكنني خفت إن خرجت من سخطه أن يُسخطه الله عليّ ، بحجة محبوكة تماماً أخشى من الله أن يسخطه عليّ ، قال : فأجمعت صدقه ، أخذ قراراً أن يصدقه ، لما وصل إليه كان النبي غاضباً ، قال له : والله يا رسول الله تخلفت عنك ولا عذر لي ، ما كنت أنشط ولا أقوى يوماً من يوم تخلفت فيه عنك ، ولكنه تقصير ، تكلم الحقيقة ، فالنبي بليغ قال : أما هذا فقد صدق ، وجاء الأمر الإلهي بمقاطعة هؤلاء الثلاثة الذين هم مؤمنون لكنهم قصروا خمساً و خمسين يوماً ، ثم تاب الله عليهم .

فلذلك : المُعذّر الذي يأتي بعذر كاذب ، والمُعذر الذي يأتي بعذر صادق ، والمَعذرة إبداء سبب التأخير.

(وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

من لم ينتبه لإنذارات الله تعالى تأتيه البطشة الإلهية من حيث لا يعلم :

قال :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

(سورة الأعراف)

شخص راكب مركبته في دمشق في طلعة الحجاز ، وصل إلى الشارة الضوئية ، فإذا به يصاب بأزمة قلبية حادة ، زوجته إلى جانبه ، فصرخت لحكمة بالغةٍ بالغة كان صديقه بمركبة خلفه صدفة ، خرج من مركبته وحمله وانطلق به إلى المستشفى ، إلى العناية المشددة ، وهو على وشك الموت ، أعطوه إسعافات ، أعطوه مميعات للدم ، لكن وهو في هذه الحالة شعر أنه على وشك الموت ، طلب مسجلة ، وفيها شريط وقال ، هو كان أخ أكبر ومغتصب أموال إخوته جميعاً : المحل الفلاني لأخي فلان ، البيت الفلاني لأخي فلان ، الأرض الفلانية لأخي فلان ، في هذا الشريط ذكر جميع الأموال التي اغتصبها من إخوته القُصر ، لأنه أيقن بالموت ، لما أعطوه مميع رجع طبيعياً ما فيه شيء ، أين الشريط ؟ كسره، وانتهى الأمر ، وافته المنية بعد ثمانية اشهر .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ)

الله ذكره ، صدق أيها الأخ يعمل لك إنذاراً ، أحياناً رؤية مخيفة ، تُقدم على مشروع لا يرضي الله ، رؤية مخيفة ، أو إنسان ينصحك ، إياك .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ـ جاءت البطشة الإلهية ـ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

عقاب الله عز وجل لمن لم يطبق فحوى الموعظة ونجاة الواعظين :

انتبه أنت حينما ترى رؤية واضحة جداً ، فيها تحذير ، حينما يأتيك أخ كريم ينصحك هذا العمل لا يرضي الله ، هذا الاختصاص لا يناسب مكانتك الإيمانية ، هذا العمل لزوجتك لا يناسب ، زوجتك مؤمنة ، ملتزمة ، محجبة ، هذا المكان لا يليق بها إطلاقاً ، هذا السفر لا يناسبك ، هذا الاحتفال لا يجوز ، هذه الحرفة لا ترضي الله ، فإذا إنسان نصحك ، وأنت استجبت تكون من السعداء ، أما إذا ركب الإنسان رأسه تنطبق عليه هذه الآية :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ)

أي عاقبنا هذا الذي ذُكِّر فلم يذكر ، وأنجينا الواعظين ، عاقبنا الموعظين الذين لم يطبقوا فحوى الموعظة ، وأنجينا الواعظين ، لكن هؤلاء الذي قالوا :

(لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً)

قال : هؤلاء لهم وجهة نظر ، ينجون إذاً .

أحياناً تقول لشخص يرتكب المعاصي والآثام ، تقول له : هذه الأعمال تنتهي معك بمرض الإيدز ، لكن إن شاء الله يلتقي له دواء ، هذا استهزاء ، لعلك تجد دواء إذا الله بعثه لك ، إذا شخص ما أحب أن يدرس ، هناك أعمال كثيرة جداً ، في مسح أحذية إذا كنت تريد لا يوجد مشكلة .

أحياناً هناك موعظة فيها سخرية ، فقال هؤلاء ، لما أنت تسمع شخصاً لا تغلب حالك ما في أمل ، قد تستفزه في هذا الكلام .

على كلٍ قال العلماء : قدموا يوماً للواعظين ، قال : هم وعظوا بطريقة غير مباشرة ،

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ)

الشيطان يُعري والرحمن يستر :

((بَدَأَ الإِسلامُ غريباً ، وسَيَعُودُ غريباً كما بدَأَ ، فطُوبَى للغرباءِ))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

من الغرباء ؟ قال :

((وهم الذين يُصْلحون ما أفسد الناسُ))

[أخرجه الترمذي عن عمر بن عوف]

ثم يقول الله عز وجل :

(فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)

(سورة الأعراف)

القرد مكشوف العورة صح هذا الكلام ؟ ثياب قصيرة ، ضيقة ، فتحات ، مثل القرد القرد ماشي من دون ثياب ، مكشوف العورة ، دائماً الشيطان يُعري ، والرحمن يستر .

(يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا)

(سورة الأعراف الآية : 27)

الشيطان عمله الأول التعرية .

تحذير الله تعالى الإنسان من المعصية فلما لم يسمع مسَخه قرداً بأنانيته وشهوانيته:

طبعاً أهل الضلال يظنون التعري حضارة ، أن هذه البنت يجب أن تظهر مفاتنها ، من حقها أن تثير الشباب ، أنا أقول الآن : هناك عبادة للفتيات المؤمنات والله الذي لا إله إلا هو حينما أرى فتاة محجبة ، ثياب سابغة ، لا تشف عن جسمها ولا تظهر خطوط جسمها ، ثيابها فضفاضة ، ثخينة ، ألوانها معتدلة، غير فاضحة ، والله أراها قديسة ، هذه فتاة تعبد الله بعبادة اسمها إعفاف الشباب ، مفاتنها لمن يحل له أن يراها ، لزوجها لمحارمها ، أما هذا الشاب بينه وبين الزواج عشرين سنة قادمة ، تظهر له كل ما عندها من مفاتن ماذا يفعل ؟ يوجد أسئلة تأتيني ، والله بالمئات كل أسبوع ، من هذا التفلت ، هذه الفتاة التي تبرز كل مفاتنها لمن لا تحل له هذه تعصي الله في أشد خصوصياتها ، أما التي تتحجب ، لعل الله سبحانه وتعالى يهيئ لها زوجاً يعرف قيمتها ويكرمها ، قال :

(فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)

القرد مكشوف العورة ، وهمه بطنه ، والخنزير همه فرجه ، فإذا مسخ الإنسان إلى قرد ، أو إلى خنزير ، أنا بتصوري ولا أصر على هذا التصور أنه معنى الإنسان مسخ قرداً يبقى بشكل إنسان لكن همه بطنه ، والثاني همه فرجه ، فكل شخص همه بطنه وفرجه فهو قرد على خنزير ، فقط .

لذلك لا يوجد حيوان يقبل أن يلتقي مع أنثاه إلا الخنزير أمام الخنازير البقية ، فلذلك :

(فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(48-60): تفسير الآيات 169 - 171، الإنسان يختار العرض الأدنى فيرتاح - وفي ظنه أنه أدى الواجب كاملاً

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-08-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الثامن والأربعين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية التاسعة والستين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ)

علماء اللغة يقولون : الخلف بتسكين اللام ، خلف في الفساد ، والخلَف بفتح اللام خلَف في الخير ، الإنسان يُدعى له ، ويُقال : خير خلف لخير سلف ، وحينما قال الله عز وجل :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور الآية : 55)

وهذه وعود الله عز وجل ، وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين .

إضاعة الصلاة تفريغها من مضمونها و ليس تركها :

لكن الذي حصل كما قال الله عز وجل :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ)

من بعد هؤلاء المؤمنين ، الصادقين ، الملتزمين ، الورعين :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ)

(سورة مريم الآية : 59)

وقد أجمع العلماء : على أن إضاعة الصلاة لا يعني تركها ، ولكن يعني تفريغها من مضمونها .

((ليس كل مصل يصلي))

[أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب]

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

(سورة مريم الآية : 59)

وقد لقي المسلمون ذلك الغي ،

(أَضَاعُوا الصَّلَاةَ)

ما تركوها .

(أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى)

(سورة التوبة الآية : 45)

معنى ذلك أنهم يصلون ، وينافقون .

(وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى)

(سورة النساء الآية : 142)

من لم تنهه صلاته عن الفحشاء و المنكر لم يحقق من الصلاة غايتها :

آيات كثيرة تبين أن إضاعة الصلاة لا يعني تركها ، ولكن يعني تفريغها من مضمونها ، لأن الصلاة في الأصل :

(تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

(سورة العنكبوت الآية : 45)

فمن لم تنهه صلاته

(عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

معنى ذلك لم يحقق من الصلاة غايتها ، ولم يحقق من الصلاة مقصدها الذي أراده الله منها . فلذلك

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ)

بتسكين اللام ، في الفساد

(أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ)

ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها ، الشهوات سلم نرقى بها ، أو دركات نهوي بها .

الشهوة حيادية فهي سلم نرقى بها أو دركات نهوي بها :

لذلك أيها الأخوة ، هؤلاء اتبعوا الشهوات ، أية شهوة ؟ الشهوة المحرمة ، لأن هناك شهوات أودعها الله فينا سمح لنا أن نمارسها ، والدليل :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص الآية : 50)

لو أن الإنسان اتبع هواه وفق هدى الله عز وجل لا شيء عليه ، لك أن تأكل الطعام ، لك أن تتزوج ، لك أن تنام وترتاح ، لك أن تمتع نظرك بجمال الطبيعة ، لك أن تنجب أولاداً يسعدوك في دنياك وفي أخراك .

لذلك قضية الشهوة حيادية ، سلم نرقى بها ، أو دركات نهوي بها .

إذاً هنا الآية :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ)

الإسلام في البدايات تألق تألقاً مذهلاً ، العصر الذهبي عصر النبي عليه الصلاة والسلام ، وعصر الصحابة ، والتابعين ، وتابعي التابعين ، وبعدئذٍ دخلوا على الإسلام ، أضيف على الدين ما ليس منه ، فُهم الدين فهماً ما أراده الله عز وجل ، اتخذ الناس الدين وسيلة لمكاسب دنيوية ، فصار في مشكلات ، ونرجو الله عز وجل أن يعيدنا إلى الدين الحق الذي أراده الله .

لن يُمكن الله للمسلمين دينهم حتى يفهمونه فهماً صحيحاً و يطبقونه تطبيقاً دقيقاً :

لكن كتعليق دقيق : حينما قال الله عز وجل :

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

أي دين وعد بتمكينه ؟ أي دين ؟ الدين الذي يرتضيه ، فإن لم نمكن في الأرض نحن معنى ذلك أن فهمنا للدين لم يرض الله عز وجل ، فالبطولة أن نفهم الدين فهماً صحيحاً ، وأن نطبقه تطبيقاً دقيقاً ، وأن نخلص في تطبيقه حتى نستحق أن يُمكن الله لنا ديننا . إذاً

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ)

الخلف بتسكين اللام خلف فاسد ، والخلف بفتح اللام خلف صالح .

(وَرِثُوا الْكِتَابَ)

هذا القرآن بين أيدينا ، هو الكلام الذي نزل على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، عن طريق جبريل ، الكتاب هو هو ، لم يكن فيه زيادة ، ولا نقصان ، هو هو ، كيف فتح به الصحابة أطراف

الدنيا؟ وكيف تألقوا ؟ وكيف سطروا آيات المجد والكتاب هو هو بين أيدينا ، له طبعات رائعة ، يطبع طبعاً ، وتراه على الشاشة ، وتسمعه تلاوة بالقراءات العشر ، وكل هذا الاعتناء بالقرآن ، وأمة المسلمين متخلفة ، معنى ذلك أن فهمنا لهذا القرآن لم يكن كما ينبغي .

فهم الناس لكتاب الله عز وجل ليس كما ينبغي :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ)

هنا الكتاب التوارة ، لكن أحياناً يمكن أن نقيس ، كيف نقيس ؟ حينما قال قوم موسى :

(نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

(سورة المائدة الآية : 18)

بماذا أجابهم الله عز وجل ؟ أجابهم الله بقوله تعالى :

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)

(سورة المائدة الآية : 18)

معنى الله عز وجل ما قبل ادعاءهم ، لو قبل ادعاءهم لما عذبهم ، كلام دقيق .

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

فكان الرد الإلهي :

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)

(بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة الآية : 18)

ألا أستطيع أن أقيس على هذه الآية ، إذا قال المسلمون : نحن أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، نحن أمة مرحومة ، الرد الإلهي بالضبط :

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

الآية هنا تتحدث عن أهل الكتاب ،

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ ـ التوراة ـ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى)

تجد بعض المسلمين يا أخي الله قال في كتابه الكريم :

(وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

(سورة القصص الآية : 77)

هذه حافظها تمام الآية ، كل آية فيها مكسب ، هينة ، سهلة يتمسك فيها ، أما في آيات فيها ردع قوي لمن يأكل المال الحرام ، يقول لك : نحن نرجو رحمة الله ، نحن عبيد إحسان ولم نكن عبيد امتحان .

سهل جداً أن تأخذ من كتاب الله ما يعجبك ، وأن تأخذ الأشياء اللطيفة ، يقول لك : أنا عملت 18

عمرة، والله العمرة سهلة ، تركب الطائرة ، تذهب إلى مكة والمدينة ، تنزل بفندق ، وتتمتع ، وتعمل سبع مرات طواف ، وسعي ، وينتهي الأمر ، خفيفة العمرة ، لكن غض البصر ليس خفيفاً ، عدم الاختلاط ليس خفيفاً ، أن تتحر الحلال في دخلك هذا كله يحتاج إلى إيمان قوي .

المسلم الحق من يطبق الدين بحذافيره لا الأشياء اللطيفة فيه فقط :

لذلك يمكن أن تأخذ من الدين الأشياء اللطيفة ، تعمل مولد ، المولد جيد جداً ، تعمل دعوة تأتي بمنشدين ، تدعو عالماً أو عالمين ، يلقوا الكلمات ، تستقبل الناس ، وتودعهم ، شيء جميل والله ، تعمل احتفالاً دينياً ، تعمل سهرة أسبوعية ، يوجد أشياء بالدين لطيفة ، ومريحة ، وخفيفة ، لا تكلف شيئاً ، هذه

(عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى)

في أشياء لطيفة ، وخفيفة ، ولا تكلفك انضباطاً ، ولا جهداً ، ولا مجاهدة ، ولا مشقة ، ولا بذلاً ، ولا تضحية ،

(يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى)

لذلك الآية الكريمة :

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

(سورة البقرة)

بالدين ، وبالقرآن ، وبالإسلام ، في أشياء خفيفة ، فيها وجاهة ، فيها متعة ، وفيها مكانة اجتماعية ، وفيها أشياء فيها مجاهدة ، وفيها بذل ، وفيها تضحية .

ضعف المسلمين نتيجة تأخرهم عن تطبيق منهج الله عز وجل :

لذلك المسلمون مع تأخرهم ، ومع تخلفهم ، ومع تأخرهم عن منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا

(يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى)

نحن نقيس أنفسنا على أهل الكتاب الذين وصفهم الله عز وجل

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى)

الأشياء الدنيوية مثلاً أوضح آية :

(وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

الله عز وجل خلقنا لجنة عرضها السماوات والأرض ، يقول لك : أنا أحب أن أتمتع بالدنيا ، لا عليّ إن تمتعت في الدنيا .

لهذا أيها الأخوة ، هذا مرض أصاب أهل الكتاب ، وهذا مرض أصابنا ، لذلك قال بعض العلماء : الشيطان يأتي الإنسان ليوسوس له بالكفر ، فإن رآه على إيمان وسوس له بالشرك ، إن رآه على توحيد وسوس له بالكبيرة ، إن رآه على طاعة وسوس له بالصغيرة ، إن رآه على ورع لم يستطع حمله على الكفر ، ولا على الشرك ، ولا على اقتراف الكبيرة ، ولا على اقتراف الصغيرة ، بقي معه ورقتان ، الورقة الأولى هي التحريش بين المؤمنين ، يوزع تهماً على الحلقات الدينية ، وعلى الجماعات الإسلامية ، هو مرتاح لا يقدم شيئاً ، فقط يوزع تهماً ، ويتهم ، ويُنصب نفسه وصياً على المسلمين ، ويحرش بينهم ، وقد يحدث فتنة بين علمائهم .

أستاذ ، العالم الفلاني هكذا أفتى ، أنت ما رأيك ؟ أنا بالمناسبة ، أي إنسان يسألني عن فتوى ، وينسبها إلى عالم لا أجيبه ، لئلا تقع فتنة ، اسألني سؤالاً عادياً أجيبك عنه ، أما فلان الفلاني ، العالم الفلاني قال كذا ، أنت ما رأيك ؟ إن خالفته ، نقل له هذه المخالفة ، نشبت مشكلة بين العلماء ، وإن وافقته ولم يكن على حق ، تلافياً للفتنة ، وقعت في الخطأ .

فلذلك هؤلاء الذين يحدثون الفتن هم ليسوا على ما يرضي الله عز وجل

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى)

البر الحقيقي أن يكون إيمانك صحيحاً وأنت منضبط :

فضلاً عن ذلك

(وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا)

وهذا تألي على الله ، هذه المرأة التي قالت لأحد صحابة رسول الله ، وقد توفاه الله ، قالت له على مسمع رسول الله : هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله ، فالنبي عليه الصلاة والسلام لو سكت لكان كلامها صحيحاً ، قال لها : ومن أدراك أن الله أكرمه ؟ قولي أرجو الله أن يكرمه ، وأنا نبي مرسل لا أدري ما يفعل بي ولا بكم . هؤلاء

(يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى)

لو أنه في وقت ممكن أعدد أنواعاً كثيرة من مظاهر الدين ، ومن نشاطات الدين ليس فيها جهد كبير ، بالعكس فيها متعة ، فيها وجاهة ، فيها مكانة ، فيها رفع قيمة ، هذه القضية سهلة ، أما البر الحقيقي أن يكون إيمانك صحيحاً وأنت منضبط ، وأن تبذل ، في تألي على الله ،

(وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا)

التمنيات بضائع الحمقى فالإنسان يتمنى وهذا التمني لا قيمة له عند الله عز وجل :

إخوانا الكرام ، لو فتحتم كتاب الله عز وجل ، أو تتبعتم هذه الآية :

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة النحل)

تطلب مغفرة بلا ثمن ؟ .

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الحجر)

وبعدها :

(وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

(سورة الحجر)

في هذا ، إن لم تتب يوجد عذاب .

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ)

(سورة الزمر)

لا تتصور المغفرة بلا ثمن ، هكذا ! يا رب اغفر لي ، وتعيد الكرة ثانية في المعاصي والآثام ، لا تتصور أن القضية بهذه البساطة .

((ألا إنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غالية ، ألا إنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الجَنَّةُ))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

فالإنسان يتمنى ، وهذا التمني لا قيمة له عند الله عز وجل ، فقد قال الله عز وجل :

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

(سورة النساء الآية : 123)

والتمنيات بضائع الحمقى ، والأحمق يتمنى ، والمؤمن يسعى ، فرق كبير بين السعي وبين التمني .

علة خيريتنا الإيمان بالله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

(وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا)

إذاً الآية الكريمة :

(نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

يعني أنتم لا قيمة لكم عندي إطلاقاً إن لم تلتزموا ، الدليل حينما قال الله عز وجل :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية : 110)

قال العلماء : علة الخيرية هو الإيمان بالله ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فإذا لم نتناهَ عن المنكر فقدنا خيريتنا ، والله عز وجل حينما أهلك بني إسرائيل ماذا قال ؟ قال :

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ)

(سورة المائدة الآية : 79)

فأنت حينما تجد أمة ليس فيها تناهٍ عن المنكر ، تقترف المعاصي ، والناس يجاملون بعضهم بعضاً .

لذلك حينما أرسل الله الملائكة لإهلاك قرية ، الملائكة قالوا : يا رب إن فيها صالحاً قال : به فابدؤوا ، لمَ يا رب ؟! قال : لأن وجهه لم يكن يتمعر إذا رأى منكراً .

بالمناسبة : الرحمة خاصة ، والبلاء عام ، هذه المقولة تحتاج إلى توضيح ، عندما يكون هناك حريق ببيت ، بشارع ، ولم يهب كل سكان البيوت في هذا الشارع لإطفاء الحريق فالحريق سوف يصل إليهم واحداً واحداً .

فلذلك ما لم نأمر بالمعروف ، وما لم ننهَ عن المنكر ، فالفساد سوف يعم الأرض .

مظهر المسلمين الآن تغطية المعاصي والآثام بأشياء فلكلورية إسلامية :

إذاً

(يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى)

ويدعون مجاهدة النفس والهوى ، يدعون البذل والتضحية ، إنفاق المال ، إحقاق الحق ، يدعون النصح العام ، يدعون الأشياء الشاقة المتعبة و

(يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى)

والله سمعت شخصاً عنده مسبح مختلط ، عمل مولد ، ودعا الناس ، وجاء من يتكلم في هذا المولد ، والأمر طبيعي جداً ، مسبح مختلط ، وعمل مولد ، وأتى بمنشدين ، وهناك إنسان ألقى كلمة ، واستقبل

المدعوين ، وودعهم ، إنسان صالح جداً ! وعمله مسبح مختلط ، نساء ورجال يسبحون في ثياب السباحة طبعاً .

فهذه التغطية ، تغطية الأشياء ، المعاصي والآثام بأشياء فلكلورية إسلامية ، هذا شيء لا يُقدم ولا يؤخر ، هذا الآن مظهر المسلمين ، تجد الآن أسرتان عريقتان ، العرس مختلط ، أين التدين ؟ أين الالتزام ؟ وبعدها الدعوة : الطيبون للطيبات ، أي طيبون وطيبات ؟ إذا ما في التزام إطلاقاً ، فما معنى الطيبون للطيبات ؟ في مظاهر ،

(يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى)

المظاهر دينية ، يقول لك : بعقد قران دعيت فلاناً ، وألقى كلمة ، ودعيت فلاناً وألقى كلمة ، هل أنت مطبق لهذا المنهج ؟ هل أنت مطبق لهؤلاء الذين قالوا كلمات في حفلة ابنتك ؟ لا ، يريد سمعة أنا دعوت فلاناً ، والدكتور فلان حضر ، وألقى كلمة ، وكان حفلاً رائعاً ، وأنت لست رائعاً .

من أراد الجنة عليه أن يُلزم نفسه بطاعة الله عز وجل :

أيها الأخوة ، كلمة :

(يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى)

الأشياء اللطيفة ، الخفيفة التي لا تكلف إلا عملاً لطيفاً ، وفي وجاهة ، ومكانة ، فهذا شأن المسلمين اليوم ، تجد سافرة : أنا اليوم صائمة ، 27 رجب ، لا أقدر ، ما شاء الله ! تجد تناقضاً عجيباً ، الأشياء الخفيفة ، صيام 15 شعبان ، 27 رجب لا يكلف شيئاً ، الدنيا شتاء ، والنهار قصير ، وصائمة ، والسفور ؟ وكل مفاتن المرأة ظاهرة ، لا تقدر ، هكذا الموضة .

الآية دقيقة جداً :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ)

منه الأشياء الخفيفة ، اللطيفة ،

(عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى)

والأشياء التي ما فعلوها ، وقصروا فيها ، ما بذلوا ، وما ضحوا ، وما ألزموا أنفسهم بطاعة الله ، ولا حملوا أنفسهم على البذل والتضحية

(وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا)

نوع من السذاجة أن تتوقع أن تنال الجنة بلا عمل .

يروى أن إنساناً أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، توفي والده ، بعد أن دفن ، يبدو فقيراً جداً رأى شاباً يقرأ القرآن في المقابر ، أعطاه عشرة قروش ، والقصة قديمة ، أن يقرأ له ، فهذا الشاب امتلأ منه غيظاً ، عشرة قروش ! فبدأ قوله تعالى :

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ)

(سورة الحاقة)

فهذا الشاب غلى ، الآن يغير الآية :

(ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ)

(سورة الحاقة)

ازداد غلياناً ، الآن يغيرها :

(ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ)

(سورة الحاقة)

فقال له : ما لقيت بالقرآن غير هذه الآيات ؟ قال له : تريد الجنة بعشرة قروش ؟

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ)

الجنة تحتاج إلى عمل وتعب :

يتابعون المكاسب ، أين يوجد احتفال ، أين يوجد سهرة ، أين يوجد جلسة لطيفة ، عشاء ، يتابعون ، والله الدين حلو ! ، أنت لم تطبق منه شيئاً ، لكن أحبّ فيه العزائم ، واللقاءات ، والاحتفالات ، بالعيد بيته مرتب ، وحلويات ، وضيوف ، تجد في عمله لا يوجد استقامة ، بكسب ماله لا يوجد استقامة ، بإنفاق ماله لا يوجد استقامة ، بعلاقاته لا يوجد استقامة ، بناته لسن كما ينبغي أن يكن في حجابهن :

(وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

يعني تريد جنة عرضها السماوات والأرض إلى أبد الآبدين بجهد يسير ، بركيعات تركعها ، بدريهمات تدفعها ، وانتهى الأمر .

والله أيها الأخوة ، ليست من باب التصعيد ، والمشقة ، ولكن لا تتوقعوا جنة من دون امتحان ، والدليل:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت)

ممكن ؟ من دون امتحان ، من دون ابتلاء ، من دون صعوبة توضع أمامك ، وعليك أن تجتازها ، تتمنى جنة عرضها السماوات والأرض بلا تعب ، هناك إنسان الآن يستطيع أن يقول أنا دكتور وما معه ابتدائي ؟ ابتدائية ، وإعدادية ، وثانوية ، ولسانس ، ودبلوم عام ، ودبلوم خاص ، ماجستير ، ودكتوراه ، ثلاث و ثلاثون سنة ، قراءة ، ودوام ، وتأليف ، حتى أضيف على اسمه دال فقط ، بالدنيا ، وكلمة مؤمن ، يعني أنت لك مرتبة علمية ، لك مرتبة أخلاقية ، لك مرتبة جمالية في انضباط ، في مجموعة قيم .

الدين النصيحة و لو كان لغير المسلم :

إخوانا الكرام ، لا تتصوروا الفرق بين المؤمن ، وغير المؤمن العبادات ، لا ، الأمر أعمق بكثير . مرة أخ استشارني بمصلحة معينة ، والله أنا لا أعلم ، اذهب إلى السوق الفلاني واسأل باعة هذه المصلحة ، استنصحهم ، قال لي : سوق ، سألت أصحاب هذه المصلحة دكاناً دكاناً ، على اليمن واليسار واحداً واحداً ، جميعهم من دون استثناء نصحوه ألا يقدم على هذا العمل ، متعبة ، وما فيها أرباح ، ولها متاعب ، يعني جعلوا هذه المصلحة سبب إفلاس الإنسان أنا ما أعجبني كلامهم ، قلت له : أعرف إنساناً مؤمناً سألته ؟ سميت اسمه ؟ قال لي : كان محله مغلقاً ، قلت له : اذهب غداً ، ذهب غداً إليه ، العجب العجاب ! قال له : والله مصلحة فيها الربح الكثير ، والمواد الأولية وطنية ، لا تحتاج إلى استيراد ، وسهل عملها أنا أعاونك ، المؤمن متميز .

((الدِّينُ النصيحة))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

قال له : هذه المصلحة جيدة جداً ، أرباحها جيدة ، موادها الأولية متوافرة ، عليها طلب مستمر ، وأنا أعاونك ، فالفرق بينك وبين غير المؤمن صارخاً ، المؤمن نصوح.

والله إنسان غير مسلم دخل لمحل معمل حلويات ، قال لصاحب المحل : أتعلمني صنع هذه الحلويات ؟ نوع واحد ، قال له : تكرم ، صنع أمامه طبخة ، ما اكتفى ، قال له : اكتب بعدما انتهى قال له : اصنع طبخة ثانية أمامي ، بحسب ما كتب ، صنعها نجح ، يقسم لي بالله خلال ثلاثين عاماً يأتي من القامشلي للشام ومعه هدية ، قال له : كل الخير الذي أكرمني الله به عن طريقك ، مسلم ! ألا تنصح ؟ ولو كان غير مسلم ، عمل جسراً .

أنا أريد أن أقول كلمة : إذا كنت مؤمناً متميزاً بكل مواقفك ، متواضعاً ، نصوحاً ، تقدم كل خبراتك للآخرين ، وقافاً عند كتاب الله ، منصفاً ، ورعاً ، يعني إذا لم يعشقك الناس ففي الإيمان خلل ، أما مؤمن يصلي ، لا يكفي أن يصلي ، يكون صادقاً ، أميناً ، عفيفاً ، يخدم الناس ، يقدم لهم كل ما

يطلبون، في خدمة الناس ، يحمل همّ المسلمين .

المباحات إحدى وسائل الشيطان لاستهلاك الإنسان :

أيها الأخوة ، ثم يقول الله عز وجل :

(أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ)

يعني نحن مسلمون ، ما في ميثاق ؟ الله عز وجل أخذ علينا ميثاقاً غليظاً أن نعبده ، أن نطيعه ، أن نحسن للخلق .

(أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ)

لذلك لما الشيطان يوسوس للإنسان بالكفر ، ثم بالشرك ، ثم بالكبيرة ، ثم بالصغيرة ، ثم بالتحريش بين المؤمنين ، معه ورقة رابحة ، آخر ورقة ، ورقة المباحات ، يغرق نفسه بالمباحات ، يعتني بحياته عناية فائقة ، بمزرعته ، ببيته ، بكل أموره ، لدرجة أن وقته كله في تهيئة جو مريح لنفسه ، ثم يفاجئه الموت .

المباحات أيضاً إحدى وسائل الشيطان لاستهلاك الإنسان ، يستهلك الإنسان بالمباحات استهلاكاً رخيصاً ، ثم يفاجأ بالموت .

(أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ)

العوام لئن يرتكبوا الكبائر أهون من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون .

الله تعالى جعل المعاصي متصاعدة و على رأسها أن يقول الإنسان على الله ما لا يعلم :

بالمناسبة الإنسان أحياناً يرتكب بعض الأخطاء ، لكن هذه الأخطاء حينما يرتكبها قد لا تسبب فتنة بالبلد ، يخطئ مع ربه ، أما حينما يتكلم على الله ما لا يعلم ، يعطي فكرة سيئة جداً عن حقيقة هذا الدين، فالله جعل المعاصي متصاعدة ، الفحشاء ، والمنكر ، والإثم ، والعدوان ، الشرك ، الكفر ، وعلى رأس هذه المعاصي والآثام :

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة)

لذلك : إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم ، ابن عمر دينك دينك إنه لحمك ودمك ، خذ عن الذي استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا .

(أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

أخطر حدث مستقبلي مغادرة الدنيا و العاقل من أعدّ لهذه الساعة عدتها :

الآخرة أبد ، ما في نهاية ، والدنيا محدودة ، وعطاء الله إن كان مقتصراً على الدنيا ليس عطاءً ، هذا العطاء لا يليق بكرم الله أن يعطيك عطاء ثم يأخذه عند الموت ، كل شيء حصلته في الدنيا تخسره في ثانية واحدة ، يضع السماعة ، يقول لك : لا يوجد نبض ، يأتي بمصباح ، يفتح العين يضيء المصباح الحدقة لا تصغر ، يأتي بمرآة يضعها أمام الذي على فراش الموت ، ما في بخار ، لا في بخار على المرآة ، والحدقة ما صغرت بالمصباح ، والنبض ما في ، يقول : عظم الله أجركم ، خالص ، خالص يعني انتهى كل شيء ، أملاكه المنقولة والغير المنقولة ، وبيته ، ومركبته ، ومقتنياته ، وشركته ، بلمحة تخسر كل شيء ، بثانية ، في نبض هذا البيت لك ، وقف النبض ليس لك ، للورثة ، ما دام الموت بهذه البساطة بلمحة يكون الإنسان ميتاً ، بلمحة يكون شخص له مكانته ، وله هيمنته ، فجأة صار جثة هامدة .

مرة كنت بالطائرة في محطة بالانتظار ، رأيت نعشاً نازلاً مع البضاعة ، كان إنسان له مقعد ، الآن صار بضاعة ، صار أوراق تخليص ، كان إنساناً راكباً ، له محل ، له هوية ، معه جواز سفر صار بضاعة معه أوراق تخليص .

أيها الأخوة ، البطولة أن تتوقع ما سيكون ، أخطر حدث مستقبلي مغادرة الدنيا ماذا أعددت له ؟ الذكاء، النجاح ، التفوق ، أن تعد لهذه الساعة عدتها ، كيف تلقى الله عز وجل ؟

أنا قرأت تاريخ سبعين صحابي ، لفت نظري أنهم ما منهم واحد إلا كان في أسعد لحظات حياته عند لقاء ربه .

على الإنسان أن يستقيم على أمر الله قبل أن يصلي :

ثم يقول الله عز وجل :

(وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ)

(سورة الأعراف)

الدعاة إلى الله يحملون الناس على أن يتمسكوا بالكتاب ،

(وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ)

((الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين))

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن عمر]

(إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ)

المصلحون مهمتهم تمسك الناس بالكتاب ، وإقامة الصلاة ، يعني تعمل فتتصل ، تدفع ثمن اتصالك تمسكاً بالكتاب .

(يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ)

يعني أنت لا تستطيع أن تصلي الصلاة التي أرادها الله إذا في بدخلك حرام ، إذا في عدوان بعملك ، إذا في تقصير ببيتك ، إذا في عدم أداء لواجباتك .

(يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ)

يحملون الناس على الاستقامة بأمر الله وفق كتاب الله ، ووفق سنة رسوله ، وبعدئذٍ يدعونهم إلى الصلاة ، فالصلاة تحتاج إلى إقامة ، إقامة الصلاة بالمعنى الواسع أن تستقيم على أمر الله قبل أن تصلي:

(وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ)

الصالح قد يهلك ، أما المصلح الله ينجيه ، المصلح الذي يصلح غيره ، صالح في ذاته مصلح لغيره .

من قصّر في العمل ابتلاه الله بالهم :

ثم يقول الله عز وجل :

(وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة الأعراف)

(نَتَقْنَا)

أي نزعنا ، نزع الجبل من مكانه ، ورفعه وكان كالمظلة ، هكذا ورد في القرآن الكريم .

(كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

والإنسان أحياناً يقول عندي هموم كالجبال تسحقني ، سواء كان المعنى الظاهري أو المعنى المجازي ، أحياناً من قصّر في العمل ابتلاه الله بالهم ، فالهموم تسحق .

(خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ)

بعزيمة ، بإرادة قوية ، بإتقان ،

(وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ)

من خير .

من تاب إلى ربه توبة نصوحة عاش حياة ملؤها السعادة :

لذلك أنت حينما تبحث عن حكم العبادات ، وعن حكم الأعمال الصالحة ، تزداد تمسكاً بها ، الإنسان منطقي يحب الخير لنفسه ، فإذا علم أن الذي يفعله من طاعات سيؤدي به إلى جنة عرضها السماوات والأرض يسعد بها .

(وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

الله عز وجل يسوق بعض الشدائد وكأنها جبال جاثمة على صدره ، يقول كدت أسحق من هذه الهموم ، أما إذا تاب العبد إلى ربه توبة نصوحة ، عاش حياة ملؤها السعادة .

((إذا تاب العبد توبة نصوحة ، أنسى الله حافظيه ، والملائكة ، وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه))

[رواه أبو العباس الهمذاني مرسلا]

(وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

لذلك :

((علموا ولا تعنفوا ، فإن المعلم خير من المعنف))

[أخرجه الحارث عن أبي هريرة]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(49-60): تفسيرالآيات 172 - 174، الأمانة نفسك التي بين جنبيك ـ والإنسان قبل حملها في عالم الذر
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 31-10-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى خلق الخلائق كلها قبل عالم الصور :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس التاسع والأربعين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثانية والسبعين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

أيها الأخوة الكرام ، هذه قصة الإنسان ، الله سبحانه وتعالى خلق الخلائق كلها قبل عالم الصور ، خلقها في عالم الذر ، والآية التي توضح هذه الحقيقة هي قوله تعالى :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

(سورة الأحزاب)

هذه الآية ، والآية التي هي موضوع الدرس تتكاملان لتكونا قصة هذا الإنسان .

القضايا ثلاثة أنواع ؛ إخبارية عقلية و حسية :

1 – دائرة المحسوسات أداة اليقين بها الحواس الخمس :

بادئ ذي بدء : بنص الآية التي تلوتها قبل قليل

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ)

السماوات ، والأرض ، والجبال تعبير عن كل الخلائق ، الخلائق خلقت قبل عالم الصور ، أنت لك صورة ، وأنا لي صورة ، والحصان له صورة ، والشمس لها صورة ، هذا العالم اسمه عالم الصور ، وكنا قبل هذا العالم في عالم الذر .

ولكن القضايا الإخبارية ، لابد من أن يكون واضح لديكم أن هناك قضايا عقلية ، وأن هناك قضايا حسية ، وأن هناك قضايا إخبارية ، كل أمور الدين ، كل حقائق الدين ، كل أفكار الدين لابدّ من أن تتوزع بين دائرة المحسوسات ، ودائرة المعقولات ، ودائرة الإخباريات ، فأنا بحواسي الخمس أرى أن هذا كأس ماء ، وبحواسي الخمس أرى أن هذا مكبر للصوت ، وأن هذا الضوء متألق ، وأن هذه طاولة، هذه معرفة حسية ، أدواتها الحواس الخمس ، أو استطالته ، الميكروسكوب استطالة للعين ، ترى بالميكروسكوب دقائق الأشياء ، والتليسكوب استطالة أيضاً للعين ترى به الكواكب البعيدة ، فكل شيء يُرى ، أو يُسمع ، أو يُلمس ، أو يُشم ، هذه أشياء مادية أداة اليقين بها الحواس الخمس ، هذه قضية سهلة ، الحواس الخمس أو استطالتها .

لكن هناك قضايا عقلية ، القضايا الأولى الحسية شيء ظهرت عينه ، أداة اليقين به الحواس الخمس ، هذا الكأس أمامي له وزن ، من بلور صافٍ ، فيها ماء ، هذه معرفة حسية أداتها الحواس ، المس أو استطالتها وهذه ليست موضع خلاف إطلاقاً .

لكن الموضوعات الثانية موضوعات حسية ، يا ترى في أسلاك الكهرباء في هذا المسجد هل تسري فيها الكهرباء ؟ الجواب نعم ، قطعاً ، والدليل : هذه آثار الكهرباء ، تألق المصابيح ، تكبير الصوت ، عمل المكيفات ، هذه كلها من آثار الكهرباء ، فالكهرباء غابت عنا ذاتها بقيت آثارها ، هذه معرفة عقلية، أيضاً هذه المعرفة ليست موضع خلاف إطلاقاً ، هناك عقل يستدل بالأثر على المؤثر ، وبالنظام على المنظم ، وبالخلق على الخالق ، وبالحكمة على الحكيم ، وبالجمال على الجميل ، وبالقوة على القوي .

فالشيء إذا غابت عينه وبقيت آثاره دليل اليقين به العقل ، لذلك العقل أصل من أصول المعرفة ، هذا الكون كله مظهر لأسماء الله الحسنى ، وصفاته الفضلى ، ذات الله لا نراها .

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ)

(سورة الأنعام الآية : 103)

2 – دائرة المعقولات أداة اليقين بها العقل :

لكن كل هذا الكون أثر من آثار خالق السماوات والأرض ، فنحن نتعرف إلى الخالق من خلال خلقه ، وإلى الصانع من خلال صنعته ، وإلى المسير من خلال تسييره ، وإلى الحكيم من خلال حكمته ، وإلى الجميل من خلال جمال الكون ، هذه المعرفة الثانية المعرفة العقلية ذات الشيء غابت عنا بقيت آثاره ، البعرة تدل على البعير ، والأقدام تدل على المسير ، والماء يدل على الغدير ، أفسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟ هذه المعرفة العقلية ، أداتها العقل ، طريقها التفكر .

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران)

هذه المعرفة العقلية ، المعرفة العقلية لابدّ من شيء مادي ، من هذا الشيء المادي أنتقل إلى صانعه ، هل صنعته متقنة ؟ هل صنعته جميلة ؟ هل صنعته محكمة ؟ وهكذا .

وهذا الموضوع الثاني أيضاً ليس موضع خلاف إطلاقاً .

3 – دائرة الإخباريات أداة اليقين بها الخبر الصادق :

إلا أن الموضوع الثالث ؛ الدائرة الثالثة التي نحن بصددها ، هذه دائرة لا تخضع للعقل أبداً ، العقل يحتاج إلى شيء مادي يدرسه ، يلاحظه ، يحلله ، يفحصه ، يختبره ، ثم يحكم على صانعه ، هذا العقل، أما الموضوع الثالث ، الدائرة الثالثة موضوع آخر ، العقل لا دور به إطلاقاً ، والحواس الخمس لا دور لها إطلاقاً ، الموضوع الثالث جهة أخبرتنا ، نسميه موضوع إخباري ، أو سمعي فقط .

لذلك هذا الموضوع الثالث تنطلق قيمته من المُخبر ، من هو المُخبر ؟ إذا الله عز وجل أحد أكبر مصادر المعرفة إخبار الله لنا ، الله أخبرنا أنه خلقنا لجنة عرضها السماوات والأرض ، أخبرنا أن بعد الموت إما في جنة يدوم نعيمها ، أو في نار لا ينفذ عذابها ، أخبرنا أنه لابدّ من أن نتصل به كي نسعد بقربه ، أمرنا بالصلاة ، والصيام ، والحج ، والزكاة ، نحن في الدين عندنا جانب كبير ، جانب إخباري، هذا لا يخضع للعقل أبداً ، وأنصح أخوتنا الشباب ألا تحاوروا أحداً في الموضوع الثالث ، إلا إذا كان مؤمناً بالله ، إن كان ليس مؤمناً تقول له : الملائكة ، يقول لك : أين هي ؟ ما الدليل ؟ لا يوجد دليل معك ، دليل ، معك دليل لك ، كمؤمن ، الله أخبرك ، بل إن الذي أخبرك الله به ينبغي أن تأخذه وكأنك تراه .

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(سورة الفيل)

من منكم رأى هذه الحادثة ؟ ولا واحد ، وأنا معكم ، لكن من المخبر ؟ هو الله عز وجل ، نحن في هذه الآيات لا تخضع للعقل أبداً ، ولا أتمنى عليكم أن تطرحوا أسئلة حولها موضوع إخباري لا يخضع للعقل أبداً ، لا للتحليل ، ولا للدرس ، ولا للسؤال .

قبول الإنسان حمل الأمانة و رفض جميع الخلائق ذلك :

أخبرنا ربنا أنه خلقنا في عالم قبل عالم الصور ، وأنه عرض علينا ، وأن معظم المخلوقات أشفقن منها، وأن الإنسان قال أنا لها ، وحملها ، وأنه إذا أدى الأمانة ، لم يكن ظلوماً جهولاً ، أما إذا خان الأمانة :

(كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

(سورة الأحزاب)

موضوع إخباري ، خلقنا الله عز وجل في عالم الذر ، قبل أن نكون في عالم الصور وعرض علينا الأمانة ، وجميع الخلائق أبى أن يحملها ، وخاف منها ، وحملها الإنسان .

من حمل الأمانة و أدى ما له و ما عليه دخل الجنة :

الآن لأنك إنسان بحسب هذه الآيات أنت خُلقت في عالم الذر مع بقية المخلوقات ، فلما عرض الله الأمانة على هذه المخلوقات

(فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

ولأنك إنسان إذاً أنت قبلت حمل الأمانة ، يجب أن تعرف نفسك ، الإنسان أعلى المخلوقات إطلاقاً . للتقريب : أب عنده عشرة أولاد ، غني كبير ، قال : كل واحد منكم له راتب شهري ، ومركبة ، وبيت، وزوجة ، أما الذي يقبل أن يذهب إلى بلاد بعيدة ، ويأتي بالدكتوراه في إدارة الأعمال أمنحه هذا المعمل كله ، هناك عرض ، تسع أخوة خافوا ، أريح أن يبقى في بلده ، وله راتب شهري خمسين ألفاً ، وله زوجة وأولاد ، وسيارة ، أما هذا الأخ العاشر كان طموحاً ، قال أنا لها ، أرسله أبوه ، إن أتى بالدكتوراه تَمَلك المعمل كله ، وإن لم يأتِ بها كل أخوته أفضل منه لذلك :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

(سورة البينة)

أعلى من الملائكة .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

(سورة البينة)

من هنا قال الإمام علي رضي الله عنه : رُكب الملك من عقل بلا شهوة ، ورُكب الحيوان من شهوة بلا عقل ، و رُكب الإنسان من كليهما ، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة ، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان .

خيروه بين أن يكون طياراً ، تأخذ بالشهر خمسمئة ألف مثلاً ، و بين أن تكون سائق سيارة على الأرض ، على الأرض القضية سهلة تعطلت تبلغ صاحبها ، تذهب إلى بيتك ، لكن بالطائرة ما في تبلغ صاحبها ، وقد مات جميع ركابها ، خمسمئة ألف مقابل احتمال الموت ، أما على الأرض الاحتمال أقل.

دائرة المرئيات و دائرة المسموعات و دائرة الخواطر :

لذلك الإنسان حينما قبل حمل الأمانة ، فإن لم يحملها أمامه النار ، خالداً فيها أبداً وإن حملها أمامه الجنة .

((ما لا عين رأتْ ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

ما لا عين رأت ، هذه دائمة ، ولا أذن سمعت ، أوسع بكثير ، أنت زرت القاهرة ، وعمان ، وبيروت، وباريس ، فقط ، يوجد هنولولو ، هذه أنت ما زرتها ، لكن تسمع عنها ، يوجد موزنبيق ، هناك دول ، دائرة المرئيات أقل دائرة ، المسموعات أكبر بكثير ، أما الخواطر لا تنتهي ، قد تقول تصور إنساناً طوله للقمر ، خاطر هذا ، ما له أي ضابط ، فهناك دائرة اسمها دائرة المرئيات .

((أعْدَدْتُ لعباديَ الصالحين ما لا عين رأتْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

وهناك دائرة أكبر اسمها دائرة المسموعات ، ولا أذن سمعت ، و دائرة لا تنتهي دائرة الخواطر ، ولا خطر على قلب بشر ، فإذا الإنسان حمل الأمانة ، وأداها كما أراد الله ، كان فوق الملائكة ، فوق بكثير، من هنا يُعد الإنسان أكبر مغامر ، إما إلى جنة يدوم نعيمها ، أو إلى نار لا ينفذ عذابها ، فلذلك رأى النبي عليه الصلاة والسلام جنازة فقال :

((مستريح ، أو مُسْتَراح منه ، فقالوا : يا رسول الله ما المستريحُ ، وما المستَراح منه ؟ فقال : العبد المؤمنُ يستريح من نَصَب الدنيا ، والعبد الفاجرُ يستريح منه العبادُ ، والبلادُ ، والشجر ، والدواب))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي ومالك عن أبي قتادة]

الآن العالم كله ينتظر بفارغ الصبر نهاية ولاية بوش .

((يستريح منه العبادُ والبلادُ ، والشجر والدواب))

هذه المشكلة .

الأمانة التي قبلت حملها هي نفسك التي بين جنبيك :

أيها الأخوة ، لأنك من بني البشر أنت في عالم الذر ، قبلت حمل الأمانة ، لأنك من بني البشر ، ولأنك من بني البشر أنت مهيأ أن تكون فوق الملائكة ، كلام دقيق هذا كلام في صميم العقيدة ، لأنك إنسان أنت مهيأ أن تكون أعلى مخلوق . الآن ما هي الأمانة ؟

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ)

ما هي الأمانة ؟ إياكم أن تفهموا الأمانة فهم محدود جداً ، إنسان أودع معك شيء كأمانة ، ثم طلبه منك، لا ، القضية عميقة جداً الأمانة في إجماع العلماء نفسك التي بين جنبيك ، سلمها الله لك ، أودع فيها الشهوات ، تشتهي المال ، هذه جماد ، لم تقبل حمل الأمانة ، هذه الطاولة لا تشتهي ، طاولة أنثى ، لا تشتهي تأكل ، اتركها مئة سنة تبقى بمحلها ، ما في حركة ، أما أنت تشتهي أنثى ، تشتهي مالاً ، تشتهي أن تكون كبيراً في نظر الناس ، بمنصب رفيع ، تشتهي زوجة جميلة ، تشتهي بيتاً مريحاً ، تشتهي أموالاً طائلة ، أموالاً منقولة وغير منقولة ، تشتهي المتعة ، أودع فيك الشهوات ، إله .

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ والبنيين وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة آل عمران الآية : 14)

العقل ميزان الإنسان ليرقى إلى رب السماوات و الأرض :

أودع فيك الشهوات ، أعطاك عقلاً ، هذا العقل ميزان دقيق .

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن)

معك ميزان ، عامل الناس كما تحب أن يعاملوك ، أودع فيك الشهوات لترقى فيها إلى رب الأرض والسماوات ، تشتهي المرأة ، وقد أمرك الله أن تغض البصر عنها فتغض البصر عنها وتقول : يا رب احفظني من أن أفتن .

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ)

(سورة يوسف الآية : 33)

أودع فيك شهوة المال ، وهناك دخل حرام ، و دخل حلال ، امتحنك الله .

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنين)

بالشهوات ترقى إلى الله صابراً و شاكراً :

أنت ترقى مرتين ، ترقى مرة حينما تقول إن أخاف الله رب العالمين ، ترقى صابراً وترقى شاكراً ، تزوجت الله هيأ لك زوجة صالحة جميلة ، فإذا ملأت عينيك من محاسنها ، لك أجر ، هذه هدية من الله ، ترقى إلى الله هنا شاكراً ، وإذا مرت امرأة لا تحل لك ترقى إلى الله صابراً ، ترقى بالشهوة مرتين ، لك معاش محدود ، اشتريت الطعام ، والشراب ، أكلت أنت وأولادك ، يا رب لك الحمد ، وهناك طريق غير مشروع ممكن تهرب مخدرات ، تربح ألف ضعف ، من مكان زراعتها إلى مكان بيعها يوجد ألف ضعف ، يقول لك : أغنى الأغنياء في العالم تجار مخدرات ، امتحنك ، المال محبب ، إما أن تكسبه حلالاً لكن لا يكون كثيراً جداً هناك جهد ، أو أن تكسبه حراماً ترقى مرتين ، إن قلت هذه الصفقة مشبوهة ، إني أخاف الله رب العالمين ترقى إلى الله صابراً ، وإذا كان صفقة مشروعة وربحت منها ربحاً معقولاً ، وأنفقت هذا المال على نفسك وأهلك ترقى إلى الله شاكراً ، أودع فيك حب المال وحب النساء ،

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ والبنيين)

الأولاد ،

(وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)

والسيارة ،

(وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ)

وقتها ، الآن يقابلها سيارة ،

(وَالْأَنْعَامِ)

مزرعة

(وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

أودع فينا الشهوات .

الله عز وجل زود الإنسان بمجموعة من المقومات لمعرفة الطريق الصحيح منها :

1 - الفطرة :

أعطاك عقلاً ، ميزاناً

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

أعطاك فطرة عظيمة برمجك برمجة ، جبلك جبلة بطريقة أنك تكتشف خطأك بذاتك ، آتي بمثل دقيق : دخلت إلى البيت الساعة الواحدة ، قالت لك والدتك : ماما أنا رأسي يؤلمني أريد أسبرين ، تقول لها : الساعة الواحدة كله مغلق ، قالت : خير إن شاء الله ، لكنك تعلم علم اليقين أن الصيدليات مناوبة ، هي لم تحرجك سكتت ، تريد أن تنام لا تستطيع ، أمك يؤلمها رأسها أنت صرفتها عن هذا الطلب ، لم تتكلم شيئاً ، بعدها شعرت أن الوالدة غالية ، نهضت ، فرضاً ليس أسبرين دواء ثانٍ ، أول صيدلية ، الثانية ، الثالثة ، درت عليهم كلهم لا يوجد هذا الدواء ، الوالدة بالمرتين الدواء لم تستخدمه ، لكن أول مرة تنام غير مرتاح ، المرة الثانية بعد جولة ساعة تنام مرتاحاً ، أنت أديت الذي عليك ، واضح تمام ؟.

الفطرة دقيقة جداً ، شخص دهس طفلاً الساعة الثانية بالليل ، وتابع سيره ، والضبط كُتب ضد مجهول، يقول لي قريبه : أكثر من أربعين يوماً ما تمكن من النوم .

برمجك برمجة إذا أخطأت تشعر بكآبة ، تشعر بالذنب ، تشعر بالخطأ ، تشعر أنك صغير ، لو لم يعلم أحد بهذا الخطأ ، برمجة داخلية هذه فطرة ، أعطاك عقلاً ، مقياس مادي ، أعطاك فطرة ، مقياس نفسي، أعطاك شهوات قوة دافعة ، وأعطاك حرية اختيار .

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية : 29)

2 ـ الشهوة :

أعطاك شهوة ، عقل ، فطرة ، حرية ، أعطاك منهجاً (شرع) في حلال ، في حرام ، الزواج له طريقة في الإسلام ، المال له طريقة في الكسب ، خالفوا الناس ربهم بالأرض كلها ، خالفوه فخسروا أموالهم كلها ، والله درس الأزمة المالية بالعالم والله درس بليغ من الله ، الله عز وجل أظهر آياته .

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة الآية : 286)

3 ـ العقل :

أعطاك منهجاً ، معك منهج ، ومعك عقل ، ومعك فطرة ، ومعك شهوة ، الشهوة كالمحرك قوة دافعة ، مُسرع يريد أن يأكل جوعان ، يريد أن يشتري بيتاً ويتزوج ، أعطاك شهوات ، قوة دافعة ، أعطاك عقلاً ميزان دقيق ، أعطاك فطرة ميزان نفسي آخر ، معك ميزانين العقل والفطرة ، معك شهوة .

4 ـ حرية الاختيار :

أعطاك حرية ، قيمة عملك أنك حر ،

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

5 ـ الشرع :

أعطاك شرعاً ، للتقريب :

هذه السيارة فيها محرك هو الشهوة ، قوة اندفاع ، وفيها مقود هو العقل ، وفيها طريق هو الشرع ، مهمة العقل أن يستخدم هذا المقود ليبقي المركبة وهي مندفعة على الطريق ، الطريق هو الشرع ، والمحرك هو الشهوة ، والطريق هو الشرع .

مثل آخر : يوجد بالجيب اليمين جهاز كشف العملات المزورة ، هذا يتحسس بالمعادن ، العملات فيها معدن ، تضعه على الجهاز يظهر لون برتقالي ، معناها عملة صحيحة ، إذا ورق فقط من دون معجونة خاصة يظهر لون آخر ، فمعك جهاز كشف العملات المزيفة ، معك بالجيب الثاني قائمة بأرقام العملات المزيفة ، هذا الشرع ، باليسار في شرع ، باليمين في عقل ، فأنت بعت بيتك بعملة صعبة ، لا استخدمت الجهاز ، ولا قرأت أرقام العملات ، ظهر المبلغ كله مزور الخطأ خطأك ، معل عقل ، ومعك شرع ، واضح تمام ؟.

فلما قال لك احمل الأمانة ، الأمانة نفسك التي بين جنبيك ، أعطاك عقلاً ، أعطاك فطرة ، أعطاك شهوة ، أعطاك إرادة ، أعطاك شرعاً ، الحسن ما حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه الشرع .

الإنسان الظلوم الجهول من خان حمل الأمانة :

أيها الأخوة الكرام ،

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

الآية الآن دقيقة :

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

إذا ابن كان طموحاً هل يقال له ظلوم جهول ؟ لا ، بالعكس ، لذلك يمكن أن تقرأ الآية بصيغة الاستفهام،

(إنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

؟ ما كان ظلوماً جهولاً ، كان طموحاً ، فلما قبل حملها وخانها ،

(إنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

هذه الآية تُقرأ لمن أدى الأمانة بطريقة استفهامية ، وتقرأ لمن خان الأمانة بطريقة تقريبية

(إنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

؟ لا ما كان ظلوماً جهولاً لما قبل حملها ، لكن إذا خان الأمانة

(إنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

لذلك ورد في الجامع الصغير حديث لا يرتقي إلى مستوى الصحاح يقول :

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر علي مما ألقى وأنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[أخرجه الحاكم عن جابر بن عبد الله]

من عرّف نفسه بربها و حملها على طاعته سلم و سعد في الدنيا و الآخرة :

والله أيها الأخوة ، هؤلاء البشر الذين يقتلون ، يسفكون الدماء ، هؤلاء الطغاة ، الذين يقهرون الشعوب، يقتلون بالمئات ، بالآلاف ، الذين ألقوا على هيروشيما قنبلة ذرية قتلت ثلاثمئة ألف بأربع ثوان ، هؤلاء المجرمون في العالم ، لو رأيتهم يوم القيامة ، وقد أصابهم ألم لا سبيل إلى وصفهم ، قال تعالى :

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

(سورة البقرة)

فلذلك لأنك إنسان أنت المخلوق الأول ، ولأنك مخلوق أول أودع الله فيك الشهوات لترقى بها صابراً ، أو شاكراً ، إلى رب الأرض والسماوات ، ولأنك إنسان أعطيت حرية الاختيار ،

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

ولأنك إنسان أعطيت فطرة تكشف لك فطرتك ، ولأنك إنسان أعطيت شرعاً ضابطاً لميزاني العقل والفطرة ، معك ميزانين ، لكن الميزانان قد يلعب بهما ، عندنا ميزان مضبوط جداً هو ميزان الشرع ، الحسن ما حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه الشرع .

فلذلك :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

من هنا الأمانة هي نفسك التي بين جنبيك .

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس)

أفلح بالقرآن وردت أربع مرات ، نجح نجاحاً عظيماً ، قلت أفلح يعني نجح ، وتفوق وسلم ، وسعد ،

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

يعني أكبر هدف لك أن تزكي نفسك من أمراض تعد سبب هلاك الإنسان في الآخرة ،

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

لا يوجد عنده حقد ، لا يوجد عنده ظلم ، لا يوجد عنده أكل حقوق ، لا يوجد اعتداء على الأعراض ،

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

الذي أبقاها جاهلة ، وسمح لها أن تفعل المعاصي والآثام ، ولم يردعها

(وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

أما إذا عرفها بربها ، وحملها على طاعته ، وحملها على اتباع منهج نبيه ، فسمت نفسه على الله ،

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

الله سبحانه وتعالى أخذ من سيدنا آدم ذريته كلها في عالم الذر :

آية اليوم :

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ)

أودع الله في سيدنا آدم نفوس الخلائق كلها إلى يوم القيامة ، كل البشر أودعت نفوسهم في سيدنا آدم ، فالله عز وجل أخذ ، المأخوذ منه سيدنا آدم ، المأخوذ نفوس البشر من آدم إلى يوم القيامة ، الآن كل إنسان آخذ ومأخوذ ، في ظهره أولاده ، هو يؤخذ منه أولاده ، وأولاده يأخذون من أبيهم ، يأخذ ويؤخذ.

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ)

بادئ ذي بدء أودع الله في ظهر سيدنا آدم الخلائق

(البشرية كلها)

من آدم إلى يوم القيامة ، لكن هناك صنفان من المخلوقات سيدنا آدم أُخذ منه ، ولم يؤخذ من أحد ، وآخر إنسان قبل يوم القيامة لم يؤخذ منه بل أخذ من أبيه فقط ، هناك إنسان أخذ من أبيه ولم يؤخذ منه ،

هذا آخر واحد ، أول واحد أُخذ منه ولم يؤخذ من أحد ، أما بقية البشر آخذ ومأخوذ ، يعني الملخص أن الله سبحانه وتعالى أخذ من سيدنا آدم ذريته كلها ، في عالم الذر .

تسخير ما في السماوات و ما في الأرض لمن قبل حمل الأمانة :

وقال :

(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)

يعني أودع في فطرنا الإيمان بالله ، كل واحد مودع في فطرته الإيمان بالله ، هذا الإيمان الفطري أعظم إيمان ، وعقله مبرمج على مبدأ السببية والغائية وعدم التناقض ، قوانين عقله تدعوه أن يؤمن بالله ، وقوانين فطرته تدعوه أن يؤمن بالله ، هذا الميثاق .

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ)

أخذهم دفعة واحدة

(وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

أنتم قبلتم حمل الأمانة ، ولأنكم قبلتم حمل الأمانة سخر الله لهذا الإنسان :

(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

(سورة الجاثية الآية : 13)

ولأنه قبل حمل الأمانة أعطاه عقلاً ، وفطرة ، وشهوة ، وحرية ، وشرعاً .

(وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

أنتم قبلتم حمل الأمانة ، ولأنكم قبلتم حمل الأمانة سخرت لكم

(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

لكم ، ولأنكم قبلتم حمل الأمانة ، أودعت فيكم الشهوات ، ولأنكم قبلتم حمل الأمانة أعطيتكم العقل وهو أداة معرفة الله ، ولأنكم قبلتم حمل الأمانة أعطيتكم الشهوات ، أعطيتكم الاختيار ، أعطيتكم الفطرة ، أعطيتكم الشرع .

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)

قد يقول واحد منكم : أنا لا أتذكر ، لأنك أنت مجبول على الإيمان بالله ، هذه الأمانة ، الله منحك إياها ، أنت مجبول في فطرتك على أن تؤمن بالله ، ولأن عقلك مبرمج على الإيمان بالله ، يعني العقل والفطرة هما الميثاق الذي منحك الله إياه فيما بينك وبينه .

العقل و الفطرة كافيان لمعرفة الله واتباع أوامره :

(قالُوا بَلَى شَهِدْنَا)

هذه الشهادة لئلا

(تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)

قال تعالى ، يوم القيامة يقول هذا الكافر :

(وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ *انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

(سورة الأنعام)

(أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ)

تقليد لا يوجد ، أودع الله فيك عقلاً و فطرة كافيان لمعرفة الله ، لو كان الأب منحرفاً ، لو كان الأب كافراً .

(أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ)

التقليد مرفوض ، الله منحك عقلاً ومنحك فطرة .

(وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

هذه الآية ، مع آية :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

هاتان الآيتان تتكاملان ، وتتحدث الآية الأولى والثانية عن قصة الإنسان حينما خلقه الله في عالم الذر، وعرض عليه الأمانة ، وقبل حملها ، ولذلك استحق أن يكون فوق الملائكة إذا أداها ، واستحق أن يكون دون الحيوان إذا خانها .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(50-60): تفسير الآيتان 175 - 176، إخفاء شرح بعض الآيات حكمة من الله - وكل شيء في الكون هو آية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-11-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

القصة في القرآن أراد الله أن تكون نموذجاً بشرياً متكرراً فأغفل كثيراً من جزئياتها :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الخمسين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الخامسة والسبعين بعد المئة .

أيها الأخوة ، الله عز وجل يقول :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ)

من هو ؟ هناك روايات عديدة أنها قصة فلان ، أو فلان ، أو فلان ، ولكن السؤال لماذا أغفل الله قصة صاحب هذه القصة ؟.

العلماء قالوا : هذا الذي يريد أن يسأل عن جزئيات القصة في القرآن يريد أن يفسد على الله هدايته لخلقه ، لماذا ؟ لأن الله عز وجل ما أراد القصة في القرآن أن تكون قصة تتوهم أنها وقعت أو لم تقع مرة ثانية ، القصة في القرآن أراد الله أن تكون نموذجاً بشرياً ، لأنه أرادها نموذجاً بشرياً متكرراً ، في كل زمان ومكان ، أغفل كثيراً من جزئياتها .

البحث عن تفاصيل القصص في القرآن يفسد على الله حكمته من رواية هذه القصص :

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ)

(سورة الكهف الآية : 83)

من هو ؟ العبرة :

(إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً)

(سورة الكهف)

أي أيها الإنسان إذا مكنت في الأرض تحرك وفق الأسباب ، فأية قصة في كتاب الله تمثل نموذجاً بشرياً متكرراً ، تجده في كل زمان ومكان ، هذه حكمة الله عز وجل ، من إغفال الجزئيات في القرآن الكريم .

مرة ثانية : من أراد أن يسأل ، وأن يدقق ، وأن يبحث في الإسرائيليات عن تفاصيل ما في القرآن في قصص ، كأنه يريد أن يفسد على الله حكمته من رواية هذه القصة .

للتقريب : أستاذ جامعي كبير متخصص في علم الاقتصاد ، أراد أن يعرض على طلابه درساً شائقاً في عوامل نجاح التجارة قال :

لي صديق ، اشترى محلاً تجارياً في مركز المدينة ، في مكان تزاحم الأقدام ، واختار بضاعة أساسية في حياة الناس ، واختار من أنواع هذه البضاعة أفضل أنواعها ، وكان السعر معتدلاً ، ولم يبع ديناً ، وكانت معاملته للآخرين معاملة طيبة ، نجح ، وربح ، وعاش في بحبوحة .

فسأله طالب : هذا الذي تعرفه أبيض أم أسمر ؟ هو صديق لك أم قريب لك ؟ ما اسمه ؟ كل هذه التفاصيل لا علاقة لها بمغزى القصة إطلاقاً ، مغزى القصة أنك إذا أردت أن تنجح بالتجارة ينبغي أن تختار مكاناً في مركز المدينة ، عند تزاحم الأقدام ، وأن تختار بضاعة أساسية في حياة الإنسان ، وأن تختار أفضل أنواعها ، وأن تجعل لها سعراً معتدلاً يستطيعه الإنسان المتوسط ، وأن لا تبع ديناً ، وأن تعامل الناس معاملة طيبة ، عندئذٍ تنجح في التجارة .

أما اسم هذا الصديق ، أهو قريب أم صديق ؟ ما لونه ؟ ما طوله ؟ جزئيات هي عبء على القصة ، وهي ليست خدمة القصة .

القصة في القرآن تعد نموذجاً فذاً في القصة الحديثة :

في علم القصة الفنية ، القصة من الفنون المعاصرة ، وكأن الأدب في العصر الحديث أدب قصة ، هذه القصة لها خصائص قيمة ، طبعاً لها موضوع ، لها أحداث ، لها شخصيات ، فيها سرد ، فيها تحليل ، فيها حوار ، فيها عقدة ، فيها حل ، هذه خصائص القصة .

الآن الجزئيات إما أن تكون في خدمة القصة ، أو أن تكون عبئاً عليها ، إما أنها في خدمتها ، أو أن تكون عبئاً عليها ، والناس في حديثهم ، هناك من يأتي بتفاصيل مملة لا تقدم ولا تؤخر ، قال لك : أنا قابلت الوزير ، حتى قابلته ساعة ، وجاء فلان ودخل من دون إذن ، يأتي بتفاصيل ! أنا أريد أنك قابلته، ماذا قلت له ؟ وماذا قال لك ؟ أما عشرين ثلاثين جزئية قبل أن تقابله لا تعنيني ، تعنيك أنت ، أنا لا تعنيني ، هذه التفاصيل عبء على القصة .

فلذلك هناك من درس القصة في القرآن في ضوء الشروط الفنية للقصة الحديثة فإذا بالقصة في القرآن تعد نموذجاً فذاً في القصة الحديثة .

الآيات الدالة على عظمة الله محيطة بالإنسان إحاطة الجلد بالجسم :

لذلك الله عز وجل أغفل صاحب هذه القصة ،

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آَتَيْنَاهُ آَيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا)

هذه سورة ، أنا أسلخ الجلد عن جسم الدابة ، الدابة تُذبح ثم تُسلخ ، الجلد محيط بالدابة ، إحاطة كاملة ، وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبين لنا أن الآيات الدالة على عظمة الله ، على وجود الله ، على كمال الله ، على وحدانية الله ، محيطة بالإنسان إحاطة الجلد بالجسم ، كأس الماء آية ، الخشب آية ، الضوء آية ، الهواء آية ، الطعام آية ، الولادة آية ، المرأة آية ، الرجل آية ، الذكر والأنثى في كل شيء آية . أين ما تحركت ، أين ما توجهت ، كيف ما فعلت ، أين ما أقمت ، الآيات الدالة على عظمة الله محيطة بك ، استيقظت أشرقت الشمس ، الشمس آية ، جاء المطر ، المطر آية ، هبّ الريح ، الريح آية ، شربت كأس ماء الماء آية ، جلست إلى طعام الفطور الخبز آية ، الجبن آية الحليب آية ، تناولت طعام الغداء ، الخضراوات آية ، اللحوم آية ، يعني أين ما تحركت استنشقت الهواء ، سمعت صوتاً ، شممت رائحة ، رأيت شيئاً ، تحسست شيئاً ، أية حركة ، وأية سكنة في حياتك هي آيات دالة على عظمة الله .

الآيات الدالة على عظمة الله و وجوده و وحدانيته لا تنتهي :

إنسان يمشي في الطريق ، سمع بوق مركبة ، فانحرف نحو اليسار ، آية ، كيف عرفت وأنت لم ترَ البوق أن البوق من جهة اليمين ؟ يعني المركبة من جهة اليمين ، كيف عرفت ؟ هناك جهاز بالغ التعقيد في الدماغ ، حينما تستمع إلى الصوت ، الصوت يدخل إلى الأذنين معاً ، لكن قد يدخل إلى أذن قبل الأخرى ، الصوت من هنا يدخل إلى هذه قبل هذه ، المسافة والفرق بينهما واحد على ألف وستمئة وعشرين جزءاً من الثانية ، هذا الجهاز يكتشف أن الصوت جاء من جهة اليمين ، إذاً المركبة من على يمينك ، ومن ورائك ، فالدماغ أعطى أمراً أن تنتقل إلى الطرف الأيسر ، هذه آية .

وأنت نائم ، غارق في النوم يتجمع اللعاب في فمك ، تذهب رسالة من الفم إلى الدماغ اللعاب ازداد ، يأتي أمر من الدماغ إلى البلعوم يغلق القصبة الهوائية ، ويفتح المريء ، من أجل أن تبتلع اللعاب الذي في فمك وأنت نائم ، وأنت نائم تتقلب يمنة ويسرة ، وزن الهيكل العظمي مع ما فوقه من عضلات يضغط على ما تحته من عضلات ، الله أودع بالإنسان مراكز الإحساس بالضغط هذه المراكز ترسل إشارة إلى الدماغ ، انضغطنا ، صار في ضغط ، يعني فتحة الأوعية ضاقت ، لمعة الأوعية ضاقت ، الدم قلّ مروره في الوعاء ، صار في حالة اسمها التنميل ، أي الخضران ، هذه المراكز ترسل إشارة إلى الدماغ ، الدماغ يأمر العضلات وأنت غارق في النوم أن تتقلب نحو اليمين .

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

(سورة الكهف الآية : 18)

وكل إنسان لا يتقلب في الليل يتفسخ جلده ، ولحمه ، لذلك حالة مرضية اسمها السبات تحتاج الآن إلى سرير خاص ، السرير يقلب ، وأنت نائم هناك آيات .

الحديث عن الآيات لا ينتهي ، لكن الآيات الدالة على عظمة الله ، بل على وجوده بل على كماله ، بل على وحدانيته ، محيطة بك ، كما يحيط جلدك بك ، هذا معنى

(فَانْسَلَخَ مِنْهَا)

آيات الله الكونية و التكوينية و القرآنية دليل للإنسان على عظمة المولى سبحانه :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا)

آيات كونية ، آيات تكوينية ، آيات قرآنية ، آيات تدل على لطف الله ، أي لا يوجد طبيب أسنان يستطيع أن يقلع سن لطفل إلا مع ألم ، حتى لو أعطاه حقنة مخدر ، غرز الإبرة في لثته مؤلم جداً ، أما الله عز وجل حينما يُقلع سن أحد الصغار يراه مع الطعام ، كيف خُلع السن ؟ وكيف لا يوجد ألم إطلاقاً ؟ لطيف الله عز وجل .

الله معنا لكنه لطيف ، يعني اللطف له آيات ، الجمال انظر إلى وردة ، انظر إلى فراشة ، انظر إلى عصفور ، هناك ألوان تأخذ بالألباب ، اسم الجميل يتجلى الله به على بعض الأماكن ، وعلى بعض الأشخاص ، وعلى بعض الكائنات ، وعلى بعض النباتات ، اسم الجميل تراه رأي العين ، اسم الحكيم ، اسم القدير ، اسم الغني ، اسم الرحيم ، اسم اللطيف ، الآيات الكونية والتكوينية ، الكونية خلقه ، والتكوينية أفعاله ، والقرآنية كلامه ، الآيات الكونية والتكوينية والقرآنية محيطة بك كما يحيط بك جلدك.

من عَرَّف نفسه بسرّ وجودها و غاية وجودها حقق النجاح المطلق :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا)

وتعقيب على الآيات السابقة حينما قال الله عز وجل :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

الأمانة نفسك التي بين جنبيك ، قال تعالى بحقها :

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس)

(قَدْ أَفْلَحَ)

يعني حقق النجاح المطلق ، عرف سرّ وجوده ، وغاية وجوده .

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة المؤمنون)

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)

(سورة الأعلى)

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

الأمانة نفسك التي بين جنبيك .

الإيمان أصل في فطرة الإنسان :

أما الآية الثانية :

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)

(سورة الأعراف الآية : 172)

هذا الميثاق الذي أخذه الله علينا ، قد يقول شخص : ما نذكره ، مودع فيك ، هذا الميثاق هو الفطرة ، أنت مؤمن بالفطرة ، الأصل أنك مؤمن ، حتى الذي يُقال له كافر هو مؤمن بشيء فالإيمان أصل في الفطرة .

لذلك الإنسان لو لم تأته رسالات ، يحاسب على عقله الكافي لمعرفة الله ، وعلى فطرته الكافية لمعرفة خطئه ، أي إنسان لو لم يتلقَ تعليماً ، لو نشأ في جزيرة ، ما سمعه كلمة من إنسان ، عقله وفطرته يحاسب عليهما ، عقله يدله على الله ، وفطرته تدله على خطئه ، الأقدام تدل على المسير ، والماء يدل على الغدير ، والبعرة تدل على البعير ، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟.

إيمانك بالله إيمان فطري ، والبشر جميعاً باستثناء قلة قليلة مكابرة تتوهم أن الإله غير موجود ، البشر جميعاً مؤمنون بالفطرة .

من تجاهل الآيات الدالة على عظمة الخالق وقع في يد الشيطان :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آَتَيْنَاهُ آَيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا)

سلخ جلد الدابة شيء ليس سهلاً الجلد مرتبط بالجسم ارتباطاً كاملاً .

(فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ)

الإنسان حينما يتجاهل الآيات الدالة على عظمة الله ، يكون قد قدّم للشيطان فرصة ذهبية .

(إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا)

(سورة آل عمران الآية : 155)

أي :

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ)

(سورة إبراهيم الآية : 22)

الشيطان لا يقترب من الإنسان ، إلا بسبب من الإنسان ،

(إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا)

أوضح مثل :

صف فيه طلاب مجتهدون ، وهناك طالب سيء جداً ، هذا الطالب السيئ يغري من بترك المدرسة ؟ يغري طالباً آخر عنده رغبة في ترك المدرسة ، لا يستطيع طالب فاسد أن يفسد إلا طالباً عنده رغبة في الفساد . لذلك الشيطان :

(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(سورة الحجر الآية : 42)

أيها الأخوة ، من الخطأ الشائع والفادح أن تظن أن الشيطان أضلّ إنساناً .

(رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)

(سورة ق)

لا أحد يضل أحداً .

المؤمن آياته كونية وتكوينية وقرآنية والآخر مأخوذ بصنع البشر :

لذلك

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آَتَيْنَاهُ آَيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا)

لما انسلخ منها ، تجاهلها ، لم يعبأ بها ، لم يفكر فيها أصلاً ، تجد الآن إنساناً كل شيء من صنعة خالق الأكوان يدهشه ، هذا مؤمن ، الشمس عنده آية كبيرة ، القمر آية كبيرة ، خلق الإنسان آية ، البعوضة آية ، النحلة آية ، العسل آية ، النبات آية ، المياه آية ، البحار آية ، وهناك إنسان لا يعبأ بكل هذه الآيات، يعبأ بسيارة معينة ، بماركة معينة ، بشكل معين ، مأخوذ بصنعة الإنسان ، وقد نسي الواحد الديان ، فالمؤمن آياته كونية وتكوينية وقرآنية ، والآخر مأخوذ بصنع البشر ، متقدمون جداً ، هذا الإنسان الذي اخترع الطائرة ، أحياناً هناك شيء مدهش ! طائرة على ارتفاع خمسين ألف قدم ، تتسع لأربعمئة راكب ، والآن يوجد ثمانمئة راكب ، و هناك ألف راكب تطير بسرعة ألف كم ، وأنت نائم ، كأنك في البيت ، كأنك في بيت فخم جداً ، ماذا أعطى الله الإنسان حتى صنع هذه الطائرة ؟ أعطاه عقلاً، من خالق هذا العقل ؟ هو الله عز وجل .

المخترعات الحديثة المذهلة التي تلفت النظر دليل على عظمة الله عز وجل :

صدقوا أيها الأخوة ، لو الإنسان تعمق حتى الأشياء التي صنعها الإنسان وتلفت النظر هي دليل على عظمة الله عز وجل .

تصور مدينة محلقة في الجو ، الطائرة مدينة ، بمقاعدها ، بخدماتها ، بجوها المعتدل ، بكل حاجاتك المؤمنة بالطائرة ونائم أيضاً نوماً عميقاً وأنت في الطائرة ، هذا فعل من ؟ القرود صنعت طائرة ؟ معناها الإنسان متميز ، الله عز وجل منحه العقل ، فالعقل أثمن عطاء إلهي ، لما استخدموه في الدنيا ، نقلوا الصوت والصورة ، اخترع الجوال ، اخترع الطائرة ، غاص في أعماق البحار ، وصل إلى القمر.

أنا رأيي حتى المخترعات الحديثة المذهلة التي تلفت النظر يمكن أن تكون دليلاً على عظمة الله عز وجل .

هناك رأي آخر ، لما قال الله عز وجل :

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

قال :

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل)

معنى ذلك أن الله عزا خلق الطائرة لا إلى الإنسان بل إلى الله ، الإنسان سبق ، فالله عز وجل ألقى في روعه فكرة الطائرة .

عدم اقتراب الشيطان من الإنسان إلا بسبب من الإنسان :

إذاً الشيطان لا يمكن أن يقترب من الإنسان إلا بسبب من الإنسان ،

(فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ)

(إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا)

(سورة آل عمران الآية : 155)

أما المؤمنون

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ)

(سورة إبراهيم الآية : 22)

(فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ)

الشيطان حينما يأتي الإنسان يأتيه من أربع جهات :

الشيطان حينما يأتي الإنسان يأتيه من أربع جهات ، يأتيه من عن يمينه ، و عن شماله ، ومن أمامه ، ومن ورائه ، من أمامه أحد أكبر وسوسات الشياطين التقدم ، عصر علم ، المرأة نصف المجتمع ، عصر حرية ، الشهوة أساسية في حياة الإنسان ، يجب أن يأخذ الإنسان حظوظه من شهواته ، طروحات متعلقة بالعصر .

ومن وساوس الشيطان ، هذه الأمة ليست إسلامية فرعونية ، يتجاوز الإسلام إلى أقوام عاشوا قبل مئات السنين ، هؤلاء الأقوام ليس لهم دين ، القضية سهلة جداً ، الانتماء سهل أما الانتماء إلى الدين هناك منهج ، هناك افعل ولا تفعل ، إما أن يأتي الشيطان الإنسان من بين أيديهم ، أو من خلفهم ، إما الحداثة ، والعصرنة ، والتقدم ، وعصر الكومبيوتر ، وعصر الفضائيات ، وهذه فضائيات حضارة ، أو أن يأتي الإنسان من ورائه ، هؤلاء آراميون ، هؤلاء فراعنة .

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

(سورة الأعراف الآية : 17)

أحياناً نقطة ضعف الإنسان عن يمينه ، الصلاة ما صحت ، الوضوء ما صحّ ، يدخله في الوسوسة .

(وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

(سورة الأعراف الآية : 17)

المعاصي .

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

(سورة الأعراف الآية : 17)

الطريق إلى الله وطريق التذلل إلى الله محمي من الشيطان :

لكن في جهتين لم يردا في هذه الآية ، الطريق إلى الله محمي من الشيطان ، وطريق التذلل إلى الله محمي من الشيطان ، نحو الأعلى الطريق إلى الله ، ونحو الأسفل التواضع ، هاتان الجهتان محميتان .

(وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

(سورة الأعراف)

من صفات من مشى مع الشيطان دائماً يذم حياته ، يكون صحته طيبة ، له بيت ، له زوجة ، له أولاد، دخله يكافئ مصروفه ، دائماً يتشكى ، الشكوى من علامات الإنسان البعيد عن الله عز وجل ، المؤمن يرى ما عنده ، عنده إيمان ، عرف الله ، عرف دين الله ، عرف آخرته ، عرف منهج الله عز وجل .

الشهوة حيادية ؛ سلم نرقى بها أو دركات نهوي بها :

إذاً

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ)

غوى ؛ انحرف ، هو أراد أن يكون من الغاوين ، والسبب أنه اشتهى الدنيا ، وآثرها على الآخرة ، والآيات التي أحاطه الله بها لم يعبأ بها ، انسلخ منها ،

(فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ)

لكن الرحمن ماذا أراد من الإنسان ؟ قال :

(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة الأعراف)

يعني الدنيا حيادية ، الشهوة حيادية ، يمكن أن تكون سلماً ترقى بها إلى أعلى عليين ، والشهوة نفسها يمكن أن تكون دركات تهوي بها إلى أسفل سافلين ، المال حيادي ، إن كسبته من حلال وأنفقته في حلال من نعم الله الكبرى ، والمال أكبر نقمة إن كسبته من حرام وأنفقته في حرام ، أحد أسباب دخول النار ، المال نفسه كصفيحة البنزين ، إن وضعت في المستودعات المحكمة ، وسالت في الأنابيب المحكمة ، وانفجرت في الوقت المناسب ، وفي المكان المناسب ولدت حركة نافعة ، أما إذا صُبت على المركبة ، وأصابتها شرارة أحرقت المركبة ومن فيها هذه الشهوة ، سبب لرقيك ، وسبب لدمارك ، حيادية ، أنت مخير .

(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا)

الشهوات هذه ،

(وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ)

أودع فيك شهوات ، هي حيادية ، لكن الحركة فيها يمكن أن تمثل بـ180درجة ، مسموح لك مئة درجة امرأة ؟ زواج فقط ، يعني الذي يجري بأي مكان حرام يجري في غرفة الزوجين ، لكن هنا الطريقة ترضي الله ، هذه زوجتك ، و هناك إنجاب أولاد ، والأولاد قد يكونوا صالحين في المجتمع وفي للمرأة مستقبل عندك ، هذه زوجة ، وأم ، وبعد بضع سنوات ستكون جدة ، وستكون كبيرة العائلة، المرأة المتزوجة لها شأن كبير ، أما لو امرأة انحرفت ما دام فيها مسحة جمال هناك من يسأل عنها ثم تلقى على قارعة الطريق .

أيها الأخوة ، الشهوة مرة ثانية حيادية ، سلم نرقى بها أو دركات نهوي بها .

من اتبع هواه وفق هدى الله عز وجل لا شيء عليه:

(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا)

هو لماذا تغافل عن آيات الله ؟ من أجل شهواته ، الشهوة نفسها لها قنوات نظيفة ، الله عز وجل قال :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص الآية : 50)

المعنى المخالف أنه من اتبع هواه وفق هدى الله عز وجل لا شيء عليه ، اشتهيت المرأة هناك قناة نظيفة رسمها الله عز وجل ، الزواج ، اشتهيت المال ، اعمل في الكسب المشروع ، اعمل في التجارة ، تعيّن في وظيفة ولو دخلها قليل ، لكن النفقات الأساسية مغطاة .

أيها الأخوة ، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل الله لها قناة نظيفة تسري خلالها .

(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا)

أي الشهوة كالمحرك ، لو ما في شهوات ما في حركة أبداً ، صدقوا أيها الأخوة ، لولا الشهوات لما رأيتم شيئاً على وجه الأرض ، هذه الطاولة ما في شهوات ، لا تتحرك ، دعها في هذا المكان مليون عام ، لا تشتهي طاولة مؤنثة ، ولا تأكل لا تشتهي شيئاً ، لولا الشهوات لما رأيت شيئاً في الأرض ، جامعات ، ومعامل ، وصناعة طائرات ، وصناعة أسلحة ، ومصالح ، لأنه يوجد شهوات ، الشهوة محرك ، والعقل مقود ، والشرع طريق ، تصور مركبة بلا محرك ، ليست مركبة ، ليست سيارة ، هذه وقافة ، تصور مركبة بلا مقود ، تتدمر فوراً ، طريق فيه منعطفات تمشي في طريق مستقيم على الوادي ، هناك محرك الشهوة ، مقود العقل ، و هناك طريق هو الشرع .

الشهوة لم يودعها الله في الإنسان إلا ليسمو بها :

(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ)

مال للأكل ، للنساء ، مال لشيء لا يرضي الله عز وجل ، اتبع هواه ، اتبع شهوته .

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية : 29)

(وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ)

لكن بالمناسبة ممكن أن تتنعم بكل الشهوات التي أودعها الله فيك من قنواتها النظيفة ، مثل ضربته كثيراً :

التقيت بعالم جليل ، قال لي : عندي ثمانية و ثلاثون حفيداً ، ثلاثة عشر حفيداً حفاظ كتاب الله ، وعشرة أطباء ، قلت : هذا الكم الكبير عنده أولاد ، عنده بنات ، والأولاد جلبوا له الكنائن ، والبنات جلبوا له الأصهار ، صار في رأس هذا الهرم ، هناك أولاد مع كنائن ، وبنات مع أصهار ، عنده ثمانية و ثلاثون حفيداً ، كل هذا الكم الكبير أساسه علاقة جنسية ، أليس كذلك ؟ وفي أي بيت دعارة هناك علاقة جنسية ، سقوط إلى الهاوية ، سقوط من عين الله ، من عين الناس ، زاني والزنا جريمة .

الشهوة سلم ترقى بها ، أو دركات تهوي بها ، لما أودع الله فيك الشهوات أرادك أن تسمو بها .

الحرمان غير موجود في الإسلام بل التنظيم و القيم و الطهارة :

والله أيها الأخوة ، هناك أناس صالحون ، تزوج ، تجد زواجه مباركاً ، عاش حياة مديدة في سعادة كبيرة ، أولاد أبرار ، بنات عندهم محبة لآبائهم تفوق حدّ الخيال ، أحفاد ملؤوا البيت سعادة ، هناك حياة أساسها إنسان اشتهى المرأة فتزوج ، شهوة ، الله عز وجل أراد من الشهوات التي أودعها فينا أن نرقى إليه ، والشيطان أراد من الشهوات أن نهوي بها إلى أسفل سافلين ، وكل الشهوات التي تراها بعينك المؤمن متاحة له من طريق نظيف ، بالإسلام لا يوجد حرمان ، لكن في تنظيم ، في قيم ، في طهارة ،

(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ)

قال لي إنسان مرة (زميل عمل) : أنا عشت مرة منحرفاً ، ثم تزوجت ، أقسم لي بالله ، قال لي : ساعة مع زوجة أشعر بطهر ، أشعر براحة نفسية ، أشعر بسعادة لا توصف ولا مليون ساعة مع امرأة لا تجوز لك أن تجلس معها ، طريق الجنة طريق مريح .

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ)

الآن ائتِ بحمار ، ضع على ظهره كتاب فيزياء ، وكتاب كيمياء ، وكتاب رياضيات ، وكتاب فلك ، وكتاب ديني ، امش معه ساعتين ، اسأله سؤالاً بالفيزياء هل يجاوبك ؟ حمار ! مثل آخر :

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ)

يعني يبحث عن شهوته فقط ، بسبب ، أو بغير سبب ، بحاجة أو بغير حاجة ،

(إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ)

الكلب من خصائصه يتنفس بسرعة ، ولسانه يخرج من فمه أثناء التنفس ، قال تعالى :

(ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

كذب بآيات الله الدالة على عظمته ، وانسلخ منها ، فالشيطان جاهز ، هذا صيد ثمين أتبعه الشيطان ، حمله على الزنا ، على أكل المال الحرام .

الغفلة عن الله عز وجل تولد المشاكل و المعاصي :

قبل أشهر إنسان بأعلى مكانة في بلد عربي ، أعلى مكانة ، يملك 23 مليار أعجبته فنانة ، اقترن بها ، ثم تركته ، وأنفق عليها الملايين ، فاشتهى أن يقتلها ، كلف إنساناً أعطاه مليونين من الدولارات ، والأمر كُشف ، والآن هو بالسجن ، إنسان بأعلى مكانة ، بأعلى مرتبة ، بأعلى ثروة ، من أعمدة البلد ، بالسجن ، وضع القيد في يديه ، وسيق إلى السجن ، بصراحة بالتعبير العامي ، لما الإنسان ينقطع عن الله يرتكب حماقة لا يرتكبها طفل .

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)

(سورة محمد)

الآن كل مشاكل البشر ساعة غفلة عن الله ، يسرق ، بعد يومين ثلاثة أصبح في السجن .

أخوانا الكرام ، أنت بحاجة إلى نور إلهي ، في نبي بدأ بكسب المال الحرام ؟ .

أيها الأخوة ،

(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(51-60): تفسير الآيتان 178 - 179، هداية الله إلى خلقه بكونه - وبكلامه ، ومعجزاته

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-11-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

هداية الله عز وجل على أربعة أنواع :

1 - هداية الدلالة :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الواحد والخمسين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثامنة والسبعين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

هذه الآية تشير إلى حقيقة دقيقة وعميقة وخطيرة في القضاء والقدر ، ما لم يكن الإنسان مخيراً لا يُثمّن عمله ، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب ، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب ، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة ، إن الله أمر عباده تخييراً وكلف يسيراً ، ولم يكلف عسيراً ، وأعطى على القليل كثيراً ، لكن حينما تعزى الهداية إلى الله هداية الدلالة ، الله عزّ وجل هدى عباده جميعاً هداية دلالة ، دلّهم عليه ، هذا الكون ينطق كل شيء فيه بوجود الله ، وبكماله ، وبوحدانيته ، الكون مظهر لأسماء الله الحسنى ، وصفاته الفضلى ، دلك عليه بالكون ، دلك عليه بالفطرة ، دلك عليه بالعقل، دلك عليه بالأنبياء والرسل ، دلك عليه بالكتب .

الله عز وجل هدى عباده جميعاً في كل ما تقع أعينهم عليه :

إذاً الله عز وجل هدى عباده جميعاً ؛ مؤمنهم ، وكافرهم ، هداهم جميعاً إليه ، هذه الهداية هداية الدلالة.

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

(سورة فصلت الآية : 17)

لأنهم في الأصل مخيرون ، والاختيار أحد خصائص الإنسان .

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة الآية : 148)

الآيات التي تؤكد أن الإنسان مخير لا تعد ولا تحصى ، بل إن الأصل في كل هذه الآيات قوله تعالى :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

إذاً الله عز وجل هدى كل الخلق إليه ، هداهم بخلقه ، هداهم بأفعاله ، هداهم بكلامه ، هداهم بالفطرة ، هداهم بالعقل ، هداهم في كل ما تقع أعينهم عليه ، فالإنسان مخير ، إما أن يستجيب لهذا الهدى الدلالي، وإما لا يستجيب ،

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

2 ـ هداية التوفيق :

إذا عُزي الهدى إلى الله هو الهدى الدلالي ، هداهم هداية دلالة ، لكن :

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آَمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

(سورة الإسراء)

هذا الهدى الثاني هدى التوفيق ، أنت حينما تختار طريق الحق ، حينما تختار الجنة ، حينما تختار طاعة الله عز وجل ، حينما تختار العمل الصالح ، حينما تختار أن تكون عبداً لله ، تأتيك هداية ثانية ، هداية توفيق ، الله عز وجل يشرح لك صدرك لهذا الدين العظيم ، الله عز وجل يسوقك لهذا الهدف الذي اخترته ، يُمكنك من العمل الصالح ، يطلق لسانك في الدعوة إلى الله ، هو يختار لك زوجة صالحة، تعينك على أمور دينك ، يختار لك عملاً شريفاً نظيفاً طاهراً ، أنت حينما تختار طاعة الله ، تأتيك هداية ثانية هداية التوفيق ،

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آَمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى)

(سورة محمد الآية : 17)

عندنا هداية أولى وثانية .

3 ـ هداية المصالح :

بل إن العلماء قالوا : هناك أربع هدايات ، هداك إلى مصالحك ، كيف ؟

الإنسان أودع الله في أذنه جهاز توازن ، فإذا مال لا يتابع الميل ، يعدل وقفته ، الجهاز دقيق جداً ، هو

التوازن ، ولولا هذا التوازن ما مشى إنسان على قدميه .
هداك بالعين ترى ما حولك ، فأنت في غرفة ترى كل شيء فيها ، لكن سمعت صوتاً الصوت يغطي كل البيت ، يقول لك : هناك حركة في البيت ، فالصوت هداية .
وأحياناً يوجد شيء متفسخ ليس له صوت ، ولا تراه ، يوجد رائحة ، هداك بالصور وبالأصوات ، وبالروائح ، أعطاك حواساً خمس ، أعطاك عقلاً ، هيأ لك أجهزة ، تعينك على أمر دنياك ، يوجد تقيؤ ، التقيؤ معنى ذلك أن الطعام سام ، يوجد قلب يعمل بانتظام وأنت لا تدري ، هداك لآلاف الخصائص ، بالأجهزة ، بالأعضاء ، بالأنسجة .
وأنت نائم أودع بالجسم مراكز إحساس بالضغط ، فإذا كان وزن الهيكل العظمي مع ما فوقه من عضلات ضاغطاً على ما تحته من عضلات ، مراكز الضغط وأنت نائم تعطي إشارة إلى الدماغ ، فالدماغ وأنت نائم يصدر أمراً بأن يقلبك ذات اليمين وذات الشمال ، والنائم يتقلب .
وحينما يزداد اللعاب في فمك تذهب رسالة إلى الدماغ ، والدماغ يعطي أمراً بأن لسان المزمار يغلق القصبة الهوائية ، ويفتح المريء ، من أجل أن تبتلع اللعاب .
هداك لأجهزة بالغة التعقيد ، هداك للقلب الذي يعمل بانتظام ، الهضم الذي يعمل بانتظام ، هداك إلى طعامك وشرابك ، خلق لك كائنات من أجل غذائك ، خلق لك النباتات ، هداك إلى مصالحك ، هذه الهداية الأولى ، والهداية الأولى يشترك فيها الخلق جميعاً ، إنسان ، وحيوان ، ونبات .

الله عز وجل هدى كل شيء إلى مصالحه :

النبات حينما لا يسقى ، لو أنه استهلك ماء الجذر لمات فوراً ، من علمه أن يستهلك ماء الأوراق ، أول ماء يستهلكه حينما لا يسقى يستهلك ماء الأوراق ، وبعد ماء الأوراق يستهلك ماء الأغصان ، وبعد ماء الأغصان يستهلك ماء الفروع ، وبعد ماء الفروع يستهلك ماء الجذع ، وآخر ماء يستهلكه ماء الجذر ، هدى النبات إلى أن يبقى إلى أمد طويل بلا ماء من أجل ألا تخسر هذه الشجرة أيها الإنسان ، هدى النبات .
هدى الحيوان ، الحيوان يقوم بأشياء مذهلة ، هناك طائر اسمه البطريق ، يعيش في القطب الجنوبي يتجمع عشرة آلاف بطريق بمكان ، يصبح تزواج ، والبيضة التي تلدها الأنثى يأخذها الذكر يضعها على قدميه ، ويغطي القدمين بالريش ، من أجل أن تكون في دفء عميم ، ويبقى واقفاً لا يتناول طعاماً ولا شراباً لمدة أربعة أشهر حفاظاً على هذه البيضة ، وفي حوصلته وجبة غذائية ثمينة لهذا المولود الذي يخرج بعد فقص البيضة ، يفتح فمه ، ويضع هذه الوجبة في فمه .

هدى الحيوانات إلى مصالحها ، هدى النبات ، هدى كل شيء ، الحديث عن الهداية الأولى هداية المصالح حديث لا ينتهي ، أول هداية هدى المخلوقات إلى مصالحها ، ثم هدى المكلفين من المخلوقات الإنس والجن إليه ، إذاً أول هدايةٍ هداية المصالح ، والهداية الثانية هداية الدلالة ، والهداية الثالثة هداية التوفيق .

4 ـ هداية إلى رسله :

الهداية الرابعة :

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

(سورة محمد)

هداية إلى رسله ، فالله عز وجل تولى بذاته العلية هداية الخلق ، قال تعالى :

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل)

وحيث ما جاءت على مع لفظ الجلالة معنى ذلك أن الله تولى بذاته العلية هداية الخلق

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

(سورة النحل الآية : 9)

أي وعلى الله تبيان الطريق الموصل إليه .

الحق واحد لا يتعدد :

إذاً الآية الكريمة :

(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي)

لا يوجد هداية أخرى إلا هداية الله ، فإن لم تكن على الحق فأنت على الباطل قطعاً ، لا يوجد هدايات متعددة ، أنت على أحدها ، الحق واحد لا يتعدد ، والدليل :

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام الآية : 153)

فالحق لا يتعدد ، لذلك قالوا : إن المعركة بين حقين لا تكون ، لأن الحق لا يتعدد ، والمعركة بين حق وباطل لا تطول لأن الله مع الحق ، أما المعركة بين باطلين لا تنتهي ، الحق واحد .

(يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة الآية : 257)

ما قال الله عز وجل يخرجهم من الظلمات إلى الأنوار ،

(مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

وما قال يخرجهم من الظلمة إلى النور ، الباطل متعدد ، الباطل لا يعد ولا يحصى ، كما أنه بين نقطتين لا يمر إلا خط مستقيم واحد ، لكن بين النقطتين يمر آلاف ، بل مئات ، بل ألوف الألوف من الخطوط المنحنية والمنكسرة ، فالباطل كثير .

بطولة الإنسان أن يستوعب الحق الذي لا يتعدد أبداً :

لذلك أعمار البشر جميعاً لا تكفي لاستيعاب الباطل ، الباطل كثير ، لكن عمر الإنسان وحده يستوعب الحق .

فلذلك إذا أنت وفقت إلى استيعاب الحق ، كان هذا الحق مقياساً لك ، فالبطولة أن تستوعب منهج الله ، أن تستوعب منهج السماء ، أو تستوعب الحق الذي لا يتعدد أبداً .

(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي)

لا يوجد هداية أخرى .

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص الآية : 50)

الطاقات في الإنسان من خلق الله وتوجيهها بيد الإنسان :

أيها الأخوة ،

(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي)

لكن لو شخص توهم أن الله سبحانه وتعالى هدى زيداً ، وأضلّ عبيداً ، مشكلة ، أقول : الإنسان حركته اليومية ، هي أفعال ، مشى إلى المسجد في عضلات ، في أرجل ، وضع يده على كتف يتيم وربت على كتفه تحبباً له ، هناك حالة ثانية ضرب إنساناً ، هناك حالة ثالثة أعطى إنساناً مال كصدقة ، في حركة ، في عضلات ، في سير ، في بطش .

النقطة الدقيقة أن الإنسان عنده طاقة ، الحركة طاقة ، بالمناسبة الكون كله مادة وطاقة ، وقد تتحول الطاقة إلى مادة ، هناك مركبة وزنها طن ، بصفيحة البنزين تنتقل إلى مسافة 200 كم ، هذا فعل ، ما أصله ؟ صفيحة البنزين ، الطاقة تحولت إلى فعل ، عندنا بالكون طاقة ، و عندنا فعل ، الله عز وجل أودع في الإنسان طاقات ، هذه الطاقات من خلق الله ، أما توجيه هذه الطاقات بيد من ؟ بيد الإنسان ،

قام ليصلي ، الله أمده بالطاقة ، لكن هو أراد أن يصلي ، فأمده الله بالطاقة ، فالفعل فعل الله ، والإرادة إرادة الإنسان ، ضرب إنساناً ، هذا فعل سيء ، هو اختار الضرب ، الله أمده بهذه الطاقة .

لذلك حينما يقولوا علماء العقيدة : الأفعال أفعال الله عز وجل كلامهم صحيح والبواعث إلى الأفعال من قبل الإنسان كلام غير صحيح ، لو قلنا : إن مدير الثانوية اتخذ قراراً بترسيب طالب في صفه ، قرار المدير ، لكن لماذا أمر أن يرسب هذا الطالب في صفه ؟ لأن الطالب كسول ، بالامتحان ما جمع علامات كافية ، فصار السبب من الإنسان ، والفعل من الله .

فإذا عزوت الأفعال إلى الله فأنت على صواب ، وإذا عزوت البواعث إلى الإنسان أنت على صواب ، فالفعل هو توجيه الطاقة إلى إحداث شيء ، فالطاقة أودعها الله فينا هي فعله ، والانبعاث إلى توجيه هذه الطاقة لفعل شيء من قبل الإنسان ، فالإنسان محاسب ومسؤول ، هو انبعث إلى الخير فيثاب على هذا الانبعاث والفعل فعل الله ، وانبعث إلى الشر فيعاقب على هذا الانبعاث ، والفعل فعل الله ، هذا المعنى دقيق جداً إذا الله عز وجل قال :

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الزمر الآية : 62)

صح ، لأن الفعل فعله ، و إذا قال :

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة الآية : 286)

أيضاً صواب ، الفعل الانبعاث له من قبل الإنسان إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

الإضلال الجزائي و الضلال الاختياري :

(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ)

إذا عُزي الإضلال إلى الله ماذا يحدث ؟ يعني أن هذا الإضلال جزائي مبني على ضلال اختياري .

مدير شؤون الطلاب بالجامعة أصدر قراراً بترقيم قيد هذا الطالب ، وطرده من الجامعة ، الفعل فعل مدير شؤون الطلاب في الجامعة ، نقول له : لماذا ؟ يقول لك : لم يداوم ولا ساعة ، ولم يقدم أي امتحان ، وجاءه إنذار ، تلو إنذار ، تلو إنذار ، فلم يستجب ، فرغبة هذا الطالب ألا يدرس ، أصرّ على أن لا يدرس ، صمم ألا يدرس ، هذا اختياره ، فجاء ترقيم القيد تنفيذاً لاختياره ، فإذا قلت إن مدير شؤون الطلاب هو الذي أمر بطرد هذا الطالب الكلام صحيح ، وإذا قلت إن الطالب الكسول الذي لم يلتحق بالجامعة ، ولم يؤدِ هذا الامتحان هو السبب في هذا الطرد ، أيضاً صحيح ، هذا المعنى الدقيق .

الانبعاث من الإنسان ، والفعل من الله عز وجل ، أنت في ضوء هذه الحقيقة تفهم من مئات الآيات الفعل فعل الله ، والكسب كسب الإنسان ،

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

(سورة فصلت الآية : 46)

أما فعل العمل الصالح فعل الله ، وفعل الإساءة فعل الإنسان .

الله عز وجل خلق الإنسان ليسعده :

أيها الأخوة ، من الإنسان الإرادة ، ومن الله أن يمدك باختيارك ،

(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

وقد يقول الله عز وجل :

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)

(سورة الأنعام)

هل يستقيم إيماننا جميعاً إذا توهمنا أن الله خلق لجهنم أشخاصاً معينين ؟ مستحيل وألف ألف ألف مستحيل ، خلقنا ليسعدنا .

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود الآية : 119)

ماذا نفعل في هذه الآية ؟

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا)

أي بثثنا ، ذرأ بثّ ونشر ، أي خلق

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ)

يعني معقول مواطن ، ولد بريء ، يؤخذ إلى أماكن يدرب على الجريمة من قبل الدولة وبعد أن يرتكب جريمة نسوقه إلى السجن ، هذا مخلوق للسجن ، هذا لا ترضاه أنت لإنسان ، لا ترضاه لعاقل ، إلا أن هذه اللام قال عنها العلماء : لام المآل ؟ .

لام المآل و لام التعليل :

خلق ربنا عز وجل

(كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)

مخيرين ، مؤهلين للهداية ، أو لعدم الهداية ، مؤهلين للطاعة ، أو للمعصية ، فالذي حصل أن كثيراً من الإنس والجن عصوا ، فهذه اللام ليست لام التعليل هي لام المآل ، توضح بهذا المثل :

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً)

(سورة القصص الآية : 8)

أي معقول إنسان يلتقط طفلاً ليكون عدوه ؟ الآية معناها هذا الطفل في النهاية هو الذي قضى على ملك فرعون ، اسمها لام المآل ، أعتقد واضحة ، لام التعليل شيء ، مثلاً لام التعليل :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

هذه لام التعليل ، علة وجودنا في الأرض العبادة ، خلقنا كي نعبده فإذا عبدناه سعدنا بقربه في الدنيا والآخرة ، خلقنا ليرحمنا ، خلقنا ليسعدنا ، خلقنا ليكرمنا .

لذلك

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

هذه اللام لام التعليل ، علة وجودنا ، أما حينما يقول الله عز وجل

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً)

معنى ذلك هو التقطه .

(لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(سورة القصص)

لماذا التقطوه ؟

(عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا)

ما الذي كان في المآل ؟ أنه كان عدواً له واضحة ؟ إذاً هذه الآية لا تفهم على معنىً ما أراده الله عز وجل .

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ)

ذرأنا خلقاً كثيراً من الجن والإنس ، في المآل والنهاية كثير منهم عصوا ، وخانوا الأمانة ، واستحقوها،

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)

الإنسان إذا أحبّ شيئاً لا يرى غيره :

سؤال آخر :

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا)

هناك سؤال آخر ، وسؤال دقيق : إذا كان يا رب قلب هذا الإنسان لا يفقه ، وأذنه لا تسمع ، وعينه لا تبصر ، ما ذنبه ؟ الجواب :

((حُبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمّ))

[أخرجه أبو داود عن أبي الدرداء]

الإنسان إذا أحبّ شيئاً لا يرى غيره ، إذا أحبّ شيئاً لا يسمع كلاماً آخر يرفضه ، إذا أحب شيئاً يملأ هذا الشيء عقله .

إذاً

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا)

هذا من خصائص الإنسان إذا أحبّ الشيء تعلق به ، ولا يلتفت لا إلى أية نصيحة ، ولا إلى أي تحذير، ولا إلى أي تفسير لهذا الشيء .

إذاً من شأن الإنسان أنه إذا أحبّ شيئاً أقبل عليه .

إذاً

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا)

من كان مع الله قذف الله في قلبه نوراً يفرق به بين الحق والباطل :

لذلك المؤمن له ميزة كبيرة جداً ، ما هذه الميزة ؟ أن الله سبحانه وتعالى حينما يتصل به المؤمن يلقي في قلبه النور ، يريه الحق حقاً ، والباطل باطلاً ، هذه نعمة كبرى .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

(سورة الحديد الآية : 28)

(إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)

(سورة الأنفال الآية : 29)

تفرق به بين الحق والباطل ، فلذلك أنت حينما تكون مع الله أنت مستنير ، ترى الحق حقاً فتتبعه ، وترى الباطل باطلاً فتجتنبه ، أنت حينما تكون مع الله ترى حقائق الأشياء ولا ترى صورها .

يجوز تجد ترى جامعة بناؤها متواضع جداً ، على الشبكية بناء متواضع ، في بعض البلاد النامية الجامعات بناؤها ضعيف ، لكن هذا البناء الضعيف أحياناً في الشتاء الجو بارد ، غير مدفأ ، بالصيف

غير مكيف ، وهناك اختصاص طلاب ، هذه الجامعة ماذا تخرج ؟ علماء ، أطباء مهندسون ، قادة للأمة ، وهناك دور قمار تكلفة الصالة ثلاثمئة مليون تزيينات ، على الشبكية الملاهي فخمة جداً ، وجميلة جداً ، والجامعات على الشبكية بناء متواضع جداً ، هذه صور الأشياء ، أما حقائقها الجامعة تخرج قادة للأمة والملاهي تخرج منتحرين .

هناك شخص دخل إلى دار القمار فخسر كل ما يملك من الدولارات في أمريكا ، يملك اثنان ونصف مليون دولار ، فجاء إلى البيت معه مسدس ، أطلق على زوجته وأولاده الخمسة ثم انتحر ، وهكذا .

فالبناء فخم ، البناء جميل جداً ، تزيينات رائعة ، فأنت حينما تكون مع الله يقذف الله في قلبك نوره ، يريك الحق حقاً والباطل باطلاً .

من شرد عن منهج الله عز وجل خسر الدنيا و الآخرة :

أيها الأخوة ، إذاً هؤلاء الذين شردوا عن الله

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا)

أي انقطاعهم عن الله عز وجل جعلهم يتجهون إلى شهواتهم بقوة ، والإنسان حينما يتجه من أجل شهوته إلى جهة ما لا يرى شيئاً ، وقد ورد :

((حُبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمّ))

[أخرجه أبو داود عن أبي الدرداء]

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)

(سورة البقرة)

إذاً

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا)

هذه من بعدهم عن الله ، وأن تكون لهم

(أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا)

هذا أيضاً من بعدهم عن الله ، وأن تكون

(لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا)

إذاً من بعدهم عن الله ، لو أنهم أقبلوا على الله لقذف الله في قلبهم النور ، ومن أدعية النبي عليه الصلاة والسلام :

((اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا إتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه))

يعني أي إنسان يرتكب معصية يتخيل أنها تسعده ، لو كان مؤمناً يعلم علم اليقين أنها تسخطه ، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تعصيه وتربح ، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر .

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا)

هذا من نتيجة بعدهم عن الله وإقبالهم على الشهوة .

((حُبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمّ))

الأنعام حينما تخطئ لا تعد عاصية بينما الإنسان يعد عاصياً لأن معه منهج السماء :

الله عز وجل يقول :

(أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ)

لماذا هم أضل ؟ .

أخوانا الكرام ، الحيوان يتحرك بغريزته فقط ، قد يقوم بأعمال مذهلة ، لكن هذا فعل غريزته ، الإنسان الله أعطاه فكراً ، أعطاه عقلاً ، أعطاه اختياراً ، فالحيوان لا يثاب على تفوقه ولا يعاقب على إساءته ، لا يوجد عنده تكليف ولا التزام ، فإذا تحرك بدافع من غريزته لا يوجد مشكلة عنده ، لا يعد ضالاً ، أما الإنسان إذا تحرك بدافع من شهوته فقط معه تكليف ، معه شرع ، معه وحي ، معه عقل ، معه فطرة ، هذا الإنسان أضل من الأنعام ، الأنعام تحركت بغرائزها ، لا تحاسب ، أنت إذا أقدمت هرة على خطف قطعة لحم هل تعد سارقة مثلاً ؟ لا هي تعد جائعة علاقتها مع اللحم علاقة غريزة فقط ، لا يوجد عندها حرام وحلال .

فالأنعام حينما تخطئ لا تعد عاصية ، لأنها ما معها تكليف ، أما الإنسان إذا تحرك بقضاء شهوته بلا منهج ، لو اعتدى على أعراض الناس ، أو اعتدى على ممتلكاتهم ، معه تكليف ، معه عقل ، معه شرع، معه منهج ، معه فطرة ، معه افعل ولا تفعل ،

(بَلْ هُمْ أَضَلُّ)

شخص أعطي عملة مزورة فقبلها ، لا يوجد عنده معرفة دقيقة بالعملات المزورة ، الثاني معه جهاز إلكتروني يكشف له العملة المزورة ، ومعه بالجيب الثاني أرقام العملات المزورة ، وقبض ثمن بيته بعملة صعبة ، لم يستخدم الجهاز ، ولم يقرأ أرقام العملات ، هو أضل من الأنعام ، الأول أخطأ لكن ما عنده أجهزة ، لو كان معه جهاز إلكتروني في جيبه الأيمن يكشف له العملة المزورة ، معه أرقام العملات المزورة للكشف في جيبه الأيسر ، وقبض ثمن بيته عملة مزورة الذي معه أجهزة هو أضل ، أما الأول ما عنده معلومات ، أخذها بعفوية وسذاجة .

إذاً هذا معنى قوله تعالى :

(أولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ)

تحركوا بلا عقل ، تحركوا بلا فطرة ، تحركوا بلا منهج ، تحركوا بلا تبصر ، بلا تأمل ، لم يسأل ، تحرك بشهوته .

أكبر مرض يصيب الإنسان أن يكون غافلاً عن الله عز وجل :

الإنسان حينما يعصي الله عز وجل همه أن يمتع نفسه ، حلال ، حرام ، يجوز ، لا يجوز ، يوجد عقاب وراءها ، يوجد ثواب ، همه المتعة واللذة ، فهذا الإنسان حينما يتخلى عن عقله وعن فطرته ، وعن وحي السماء ، وعن منهج الله ، وعن القرآن ، ويتحرك بشهوته فقط هو دون الحيوان .
الإمام علي رضي الله عنه يقول : ركب الملك من عقل بلا شهوة ، وركب الحيوان من شهوة بلا عقل، وركب الإنسان من كليهما ، فإذا سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة ، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان .

إذاً

(أولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)

وأكبر مرض يصيب الإنسان أن يكون غافلاً عن الله عز وجل ، لذلك يقابل الغفلة اليقظة ، المؤمن يقظ.

((المؤمن كيس فطن حذر))

[رواه الديلمى والقضاعى عن أنس رفعه وهو ضعيف]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(52-60): تفسير الآية 180، الدعاء بأسماء الله الحسنى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-11-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

الله جلّ جلاله ذاتٌ كاملة كل شيء في الكون ينطق بوجوده ووحدانيته وكماله :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الثاني والخمسين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثمانين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

أولاً أيها الأخوة ، الله جلّ جلاله ذاتٌ كاملة ، كل شيء في الكون ، أو يكاد ينطق بوجوده ، ووحدانيته، وكماله ، والله عز وجل يصف نفسه فيقول :

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

أول حقيقة : لا يمكن لإنسان وليكن قوياً أن نقول عليه اسمه قوي ، لأن قوته ليست ذاتية ، هي قوة محدثة ، لم تكن منه ، هناك إله قوام ، وفي أية لحظة يسلبه هذه القوة ، فنقول فلان يتصف بالقوة ، ما سوى الله يتصف بالقوة ، بالكرم ، بالحلم ، أما أن تقول اسمه الحليم ، هذا لله وحده ، لأن أسماء الله الحسنى قديمة قدم الله عز وجل .

(وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً)

(سورة النساء)

(وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً)

(سورة الكهف)

أسماؤه أزلية أبدية ، أما صفات الإنسان صفات محدثة طارئة ، الله عز وجل منحه قوة يقول أنا قوي ، في أية لحظة لو تجمدت قطرة دم في أحد أوعية الدماغ فقد ذاكرته ، أو فقد عقله ، يودع في مستشفى المجانين ، لا يوجد قوي إلا الله عز وجل ، قوة الإنسان مستمدة من قوة الله .

لذلك نقول فلان يتصف بالقوة ، يتصف بالكرم ، لكن الله سبحانه وتعالى من أسمائه الكريم ، من أسمائه القوي ، من أسمائه الحكيم ، هذه أول حقيقة .

الإنسان مفطور على حبّ الجمال و الكمال والنوال عند الله :

أيها الأخوة ، النفس البشرية جبلت على حبّ الكمال ، ولا تحب إلا الكامل ، من خصائص النفس البشرية أنها جبلت على حب الكمال ، والجمال ، والنوال ، تحب الكامل ولو لم يكن لك علاقة به ، سمعت عن إنسان صاحب مروءة ، صاحب كرم ، تبقى أياماً وأنت تتحدث عنه دون أن تشعر ، مع أن كرمه لم يصل إليك ، أنت في الأصل مجبول على حبّ الكمال وعلى حبّ النوال ، أصابك خيره ، أعطاك مالاً ، أعطاك مكانة ، أعطاك وظيفة ، زوجك ابنته ، تحب من أسدى إليك معروفاً ، والإنسان مفطور على حبّ الجمال ، وأصل الكمال و الجمال والنوال عند الله .

من تعلق بجهة أرضية احتقر نفسه :

لذلك أيها الأخوة ، حقيقة أراها من أخطر الحقائق ، أي إنسان لمجرد أن يتعلق بجهة أرضية يكون قد احتقر نفسه ، أنت مخلوق لله ، أنت مخلوق لمعرفة الله ، فحينما تتجه إلى إنسان كائن من كان ، طبعاً عدا محبة النبي ، لأن محبة النبي في الأصل من محبة الله .

النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((لَوْ كُنْت مُتَّخِذًا مِنْ الْعِبَادِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْت أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا ، وَلَكِنْ صُحْبَةٌ وَإِخَاءٌ إيمَانٌ حَتَّى يَجْمَعَ اللَّهُ بَيْنَنَا عِنْدَهُ))

[روى البخاري والبيهقي عن ابن عباس]

لذلك أنت حينما تتجه إلى مخلوق وقعت في خطأ كبير لأنك مخلوق لله عز وجل .

((خلقت لك ما في الكون من أجلك فلا تتعب ، وخلقتك من أجلي فلا تلعب ، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك ، لي عليك فريضة ، ولك عليّ رزق ، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك ، وعزتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك لأسلطن عليك الدنيا ، تركض فيها ركض الوحش في البرية ، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي وكنت عندي مذموماً ، أنت تريد وأنا أريد ، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد ، ما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته ، إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه ، وقطعت أسباب السماء بين يديه ، وما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي ، أعرف ذلك من نيته فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا))

[ورد في الأثر]

إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان الله عليك فمن معك ، ويا رب ماذا فقد من وجدك ، وماذا وجد من فقدك .

فـليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

ولـيت الذي بينك وبيني عامر وبيني وبين العالمين خـراب

إذا صحّ منك الوصل فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

* * *

من عرف الله عرف كل شيء ومن فاتته معرفة الله فاته كل شيء :

إن عرفت الله عرفت كل شيء ، وإن فاتتك معرفة الله فاتك كل شيء ، والله جلّ جلاله أحب إليك من كل شيء ، لذلك ورد في بعض الآثار :

((يا داود لو يعلم المعرضون انتظاري لهم ، وشوقي إلى ترك معاصيهم ، لتقطعت أوصالهم من حبي ، ولماتوا شوقاً إليّ ، هذه إرادتي في المعرضين فكيف بالمؤمنين ؟))

يا رب قلت لسيدنا موسى :

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ)

(سورة طه الآية : 43)

فرعون طاغية ، الذي قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

والذي قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية : 38)

والذي ذبح أبناء بني إسرائيل ، واستحيا نساءهم ، هذا الطاغية المجرم الذي ادعى الألوهية تقول يا رب لنبيك الكريم موسى عليه الصلاة والسلام :

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى*فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

(سورة طه)

فقال بعض العارفين يناجي رب العالمين : إذا كانت رحمتك بمن قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

فكيف لمن قال : سبحان ربي الأعلى ؟ وإذا كانت رحمتك بمن قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

فكيف رحمتك بمن قال : لا إله إلا الله ؟.

محبة الله عز وجل شيء أساسي في الدين :

أيها الأخوة ،

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

أن تحب الله شيء أساسي في الدين ، لأن الله سبحانه وتعالى قال عن المؤمنين :

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

(سورة المائدة الآية 54)

والعبادة طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة يقينية ، أساسها معرفة يقينية تفضي إلى سعادة أبدية ، فما عبد الله من أطاعه ولم يحبه ، وما عبد الله من أحبه ولم يطيعه .

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب يطيع

* * *

الله عز وجل ذات كاملة ، أسماؤه حسنى ، وصفاته فضلى ، من أعجب العجب أن تعرفه ثم لا تحبه ، ومن أعجب العجب أن تحبه ثم لا تطيعه ، فأي إنسان لا يطيع الله عز وجل يجب أن يعلم علم اليقين أن هناك نقصاً في معرفته ، حملته على هذه المعصية .

أسماء الله كلها حسنى و بأعلى درجة من الكمال المطلق :

لذلك الله عز وجل يقول :

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

الحسنى مؤنث الأحسن ، الأحسن هذا الموقف الأحسن ، فهذه الصفة الحسنى ، فالحسنى مؤنث أحسن، والأحسن اسم تفضيل ، لغتنا العربية فيها مشتقات ، فيها فعل ماض ، فعل مضارع ، أحسن فعل ماض، يحسن فعل مضارع ، أحسن فعل أمر ، محسن اسم فاعل ، محسنون جمع ، هناك اسم فاعل محسن إليه، اسم مفعول ، اسم مكان ، اسم زمان ، اسم آلة ، صفة مشبهة باسم الفاعل ، الحسنى ، اسم تفضيل ، اسم تفضيل ، أسماء الله كلها حسنى ، أي بأعلى درجة من الكمال المطلق .

لو أن قاضياً حكم ألف حكمٍ في حياته القضائية ، و هناك أحكام ليست عادلة ، هو عند الناس عادل لأن الأحكام على بني البشر في الأعم الأغلب .

ولكن الخلاف يطلق ، ولو أن عصفوراً في كونه من آدم إلى يوم القيامة ظُلم هذا يتناقض مع اسم الله العدل ، العدل المطلق ، الله عز وجل أسماؤه حسنى وصفاته فضلى .

العقيدة أخطر شيء في الإسلام :

لذلك أيها الأخوة ، لابدّ من التنويه إلى أن الإسلام يمكن أن يكون كالمثلث مقسم إلى أربعة أقسام ، القسم الأعلى العقيدة ، وأخطر شيء في الإسلام العقيدة ، فإن صحت صحّ العمل وإن فسدت فسد العمل ، وما من شيء تعتقده إلا وله انعكاس على سلوكك ، فلذلك إن اعتقدت خطأ فهناك سلوك خطأ ، ولو أن الاعتقاد لا علاقة له بالسلوك نقول لك اعتقد ما شئت ، ولكن لأن كل عقيدة لها منعكس في السلوك ، فمن صحت عقيدته صحّ عمله ، ومن صحّ عمله سلم وسعد في الدنيا والآخرة ، أخطر شيء العقيدة .
العقيدة أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبقضائه وقدره ، هذه أركان الإيمان ، أن تؤمن بالله موجداً واحداً كاملاً ، أن تؤمن بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى ، فالعقيدة إيمان بالله ، بالملائكة ، بالكتاب ، بالأنبياء ، بالقضاء والقدر ، باليوم الآخر ، أهم شيء في العقيدة الإيمان بالله ، وأهم شيء بالإيمان بالله الإيمان بأسمائه الحسنى ، وصفاته الفضلى ، هذا أهم باب في الدين ، أن تعرف الله .

((ابن آدم اطلبني تجدني ، فإذا وجدتني وجدت كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

الإيمان بالله يعطي الإنسان العزة :

إن عرفتني عرفت كل شيء ، الله عز وجل يقول :

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

للتقريب :

شاب طالب علم ، وجد فتاة دينة ، صالحة ، من أسرة صالحة مناسبة جداً له ، له دخل معقول لكن يحتاج إلى بيت ، والبيت مشكلة كبيرة ، وعدم وجود البيت قد يحول بينه وبين الزواج منها ، بلغه أن هناك محسن كبير عنده بيت مناسب جداً خصصه لطالب علم ، وهو طالب علم ، لما جاءته هذه المعلومة ماذا فعل ؟ طلب عنوانه ، لما جاءته هذه المعلومة التي تحل بها مشكلته الأساسية ، توجه إليه، لما علم هذا الشاب أن هذا المحسن عنده بيت مناسب ، ويريد أن يقدمه هدية لطالب علم ، وهو طالب علم ، يريد الزواج من فتاة مؤمنة ، عندئذٍ يتجه هذا الطالب إلى هذا المحسن ، لماذا اتجه إليه ؟ لأنه

عرفه أنه محسن ، وعنده بيت ، وقد خصص لهذا الطالب .

أنت حينما تعرف الله تتجه إليه ، حينما تعرف أنه هو الفعال ، فعال لما يريد لا تتجه لغيره ، لا تتذلل أمام غيره ، لا تتضعضع أمام غيره ، لا تنبطح أمام غيره ، لا تنافق لغيره ، لا تستخذي لغيره ، الإيمان بالله يعطيك العزة .

اجعل لربك كل عزك يستقر ويثبت فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

* * *

لأن هذا الطالب عرف أن هذا المحسن عنده بيت لطالب علم بحث عنه ، فأنت إذا عرفت الله توجهت إليه ، إن عرفت رحمته توجهت إليه ، إن عرفت قدرته اعتززت به ، إن عرفت عدله خفت أن تقتل نملة ، إن عرفت غناه تفتدي به ، تترفع عن أموال الناس ، إن عرفت لطفه تحبه .

التعرف على أسماء الله الحسنى يفيد الإنسان في الاهتداء إلى الله تعالى :

لذلك

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

ومن فضل الله عز وجل أن الله عز وجل أكرمني بشرح أسماء الله الحسنى في مجموعتين ، مجموعة قديمة كانت صوتاً ، ومجموعة جديدة هي بالضبط 200 حلقة ، كل اسم له حلقتان ، هناك مقدمتان ، و99 اسماً ضرب اثنان ، المجموع 200 هذه موجودة ، أين ما أردت تجدها أمامك ، في الموقع ، في الانترنيت ، في أي مكان ، أنا أتمنى أن تجهد أن تستمع لكل هذه الأشرطة ، إن عرفت الله عرفت كل شيء ، هناك مجموعة قديمة صوت ، وهناك مجموعة حديثة صوت وصورة .

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

أنا أشهد الله أنني سمعت مئات القصص عن أناس ليس لهم أي صلة بالدين ، سمعوا هذه الأشرطة فمشوا بطريق رائع إلى الله عز وجل .

أقسام الإسلام :

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

هذا المعنى الأول ، فمعناها مثلث أول قسم بالمثلث العقيدة ، العقيدة أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقضاء والقدر ، خيره وشره .

أركان الإيمان أن تؤمن بالله موجوداً ، وواحداً ، وكاملاً ، وأهم ما في الإيمان بالله أن تعرفه ، وكيف تعرفه ؟ تعرف أسماءه الحسنى ، وصفاته الفضلى .

القسم الثاني : قسم العبادات ، هناك صلاة ، وصوم ، وحج ، وزكاة ، وهناك نطق بالشهادة .

والقسم الثالث : المعاملات ، الديون ، والحوالات ، والكفالات ، أحكام الزواج ، أحكام الطلاق ، الشرع.

القسم الرابع : هو الآداب .

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا : للآية عدة معان منها :

1 ـ من عرف الله عز وجل توجه إليه و أطاعه فذاق طعم القرب و المحبة :

أيها الأخوة ، المعنى الأول :

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

من أعجب العجب أن تعرفه ثم لا تحبه ، ومن أعجب العجب أن تحبه ثم لا تطيعه ، أي إذا عرفت الله توجهت إليه ، وإن توجهت إليه وأذاقك طعم القرب تطيعه ، تعرفه ، تطيعه ، تسعد بقربه في الدنيا والآخرة .

2 ـ الله عز وجل كامل كمالاً مطلقاً فإذا اشتققت منه الرحمة ورحمت عباده أحبك و وفقك :

أيها الأخوة ، المعنى الثاني :

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

الله عز وجل كامل كمالاً مطلقاً ، ما الذي يقربك إليه ؟ هو رحيم فإذا اشتققت منه الرحمة ورحمت عباده يحبك ، أي تقرب إليه بكمال مشتق من كماله ، هو عدل إن أنصفت في أحكامك يحبك الله ، هو لطيف لا يكون الرفق في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه ، هو لطيف يحبك أن تكون لطيفاً ، هو حليم يحبك أن تكون حليماً ، هو قوي يحبك أن تكون قوياً بطاعة الله .

(خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)

(سورة مريم الآية : 12)

هو محسن ، يحبك أن تكون محسناً .

أقصر الطرق إلى الله أن تشتق منه كمالاً تتقرب به إليه :

أيها الأخوة ،

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

إذاً هذه الآية الكريمة الرائعة بينت الطريق إلى الله ، أحد أقصر الطرق إلى الله أن تشتق منه كمالاً ، تتقرب به إليه ، أقوى دليل : إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي .

((الرَّاحِمُونَ يرحمهم الرحمن ، ارحَمُوا مَن في الأرض ، يرحمْكم من في السماءِ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

الله عز وجل عدل ، بعدلك بين أولادك تتقرب إلى الله ، بعدلك بين بناتك تتقرب إلى الله ، بأداء الحقوق كاملة تتقرب إلى الله ، بعدم حرمان البنات من أموالك تتقرب إلى الله ، بإنصافك مع موظفك تتقرب إلى الله ، بإنصافك مع أصدقائك تتقرب إلى الله ، كلام دقيق ، من أشد الوسائل فعالية في الوصول إلى الله أن تتقرب إليه بكمال مشتق من كماله ، الله عز وجل غني .

فحينما يراك مستغنياً عن الناس ، عزيز النفس ، لا تبذل ماء وجهك للبشر ، يغنيك الله عز وجل ، الله عز وجل يحب المتوكلين فإذا توكلت عليه قربك منه ، الله عز وجل صبور هو يصبر على عباده فإذا صبرت على أولادك ، أو على من حولك ، أو على منهم دونك ، يحبك الله عز وجل .

من عرف الله زهد فيما سواه :

أول حقيقة : من أجل أن تتجه إليه ينبغي أن تعرفه ، من أجل أن ترى أن معرفته شيء ثمين جداً لا يقدر بثمن ينبغي أن تعرفه .

لو في ورقة على طاولتك طويلة ، بيضاء ، فأنت ظننتها ورقة عادية ، كتبت عليها بعض العمليات الحسابية ثم مزقتها ، ووضعتها في سلة المهملات ، ثم اكتشفت أنها شك بمئة مليون ، وحينما مزقته ضاعت علينا هذه الغنيمة ، بماذا تشعر ؟.

(اشْتَرَوْا بِآَيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً)

(سورة التوبة الآية : 9)

إن عرفته قدمت له كل حياتك ، وكل مالك ، وكل وقتك ، وكل خبرتك ، إن عرفته لم تجد شيئاً في الدنيا أعظم من أن تتصل به ، المشكلة أن تعرفه ، وطريق معرفته أن تعرف أسماءه الحسنى ، وصفاته الفضلى ، إن عرفت أسماءه الحسنى ، وصفاته الفضلى ، توجهت إليه واستغنيت به عن الناس ، من عرف الله زهد فيما سواه ، من عرف الله ما تعلق بإنسان تعلق بالواحد الديان ، من عرف الله لا يعبأ

بالخلق ، لطيف مؤدب ، لكن لا يعبأ بهم .

صحابي امرأته يحبها ، وتحبه ، لكنها طالبته بما لا يستطيع ، فلما ألحت عليه ، قال : اعلمي أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر ، فلأن أضحي بك من أجلهن ، أهون من أضحي بهن من أجلك .

الذي عرف الله لو وضعت له الملايين المملينة ، على أن يعصيه مستحيل .

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

سيدنا الصديق يطالبه سيدنا خالد بمدد ، خمسون ألفاً ، أرسل له شخصاً ، لكنه يعرف الله " القعقاع بن عمر" ، لما وصل ، قال له : أين المدد ؟ قال له : أنا ، واحد ؟! قال له : واحد ، معه كتاب ، يا خالد ! والذي بعث محمداً بالحق إن جيشاً فيه القعقاع لا يهزم .

من غشّ المسلمين ألغى صلاته وصيامه وحجه وزكاته :

نحن مليار وخمسمئة مليون ، مليار وخمسمئة مليون ربع سكان الأرض ، أفقر الشعوب نحن ، لا نملك شيئاً ، ليس لنا أن نصل إلى حقنا ، لا وزن لنا ، للطرف الآخر علينا ألف سبيل وسبيل ، لأننا ما عرفنا الله ، عرفنا أركان الإسلام ، هناك جوامع ، هناك صلوات ، لكن لا يوجد استقامة ، لا يوجد إنسان وقاف عند حدود الله ، المؤمن يركل الملايين بقدمه إذا كان فيها شبهة ، هناك قصص لا تعد ولا تحصى عن تقصير الناس ، لا تكفي الصلاة وحدها ، حينما تغش المسلمين تلغي كل عباداتك ، هل تعلم ذلك ؟ حينما تأخذ ما ليس لك تلغي كل عباداتك ، ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام. حينما تأخذ ما ليس لك ، حينما تحرم بناتك من الإرث .

((إن الرجل ليعبد الله ستين سنة ثم يضر في الوصية فتجب له النار))

[ورد في الأثر]

أين ؟ يصلي فقط ، ولكن المال للذكور ، لكن حينما ينفذ أمر الله ، أحكام الله في الميراث ، ويعطي البنات هذا المال للأصهار هذه عنده جريمة ، فتجب له النار ، بنص الحديث الشريف ، كل صلاته بعمره ذهبت أدراج الرياح ، صلاته ، وصيامه ، وحجه ، والله معظم الناس يحرمون البنات ، والبنت يمكن أغلى شيء على أبيها ، البنت غالية جداً ، لكن لا أحد يعرف قيمة هذا الشرع العظيم . حينما تغش المسلمين أنت لا تعرف الله ، حينما تأخذ ما ليس لك أنت لا تعرف الله ، حينما تظلم زوجتك أنت لا تعرف الله ، ممكن تأخذ شهادة عليا ، وتكون طليق اللسان ، ومتكلماً ومعك أدلة

وبراهين ، أما حينما تنتهك حرمات الله أنت لا تعرفه ، حينما تأخذ ما ليس لك أنت لا تعرفه .

السيدة عائشة قالت مرة : قولوا لفلان إنه أبطل جهاده مع رسول الله .

يقول لك شخص : انصحني ، تعطيه بضاعة كاسدة ، هذه أجمل شيء ، أما أنت خنت الأمانة ، القصص التي أعرفها عن أخطاء المسلمين في بيعهم وشرائهم ، في غشهم ببعض المواد ، والله لا تعد ولا تحصى ، والله هناك من يضع في المواد الغذائية مواداً مسرطنة ، يتغير لونها ، يرتفع سعرها ، مسرطنة ، هناك من يرش بعض المواد بمادة مهربة ، ممنوع استخدامها في هذا البلد ، وأي صيدلية تبيع هذه المادة تغلق ، يأتي بها تهريب ، ويرش بها بعض الفواكه حتى لا تأكلها العصافير ، هي مادة مسرطنة ، ومادة جهازية تدخل في الداخل ، من أجل أن يزداد ربحك تؤذي المسلمين ؟ المعلبات مسموح بمادة اسمها بنزوات الصوديوم بـثلاثة بالمئة يضعون عشرة بالمئة ضمان لسلامة الغذاء ، مادة مسرطنة ، هذا الذي يؤذي المسلمين لا يعرف الله أبداً ، أقول لكم مرة ثانية : ألغى صلاته ، وصيامه ، وحجه ، وزكاته .

علامة معرفة الإنسان بربه الاستقامة على أمره :

هل تعرف الله ؟ أن تعرف الله يأتي على القاضي العدل يوم القيامة ساعة أي قاضي ؟ العدل ، يتمنى بها لو لم يقض بين اثنين بتمرة ، علامة معرفتك بالله الاستقامة على أمره وهذا الدين العظيم لن تقطف منه شيئاً إلا إذا استقمت على أمر الله .

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

أول معنى إن عرفته أقبلت عليه ، إن عرفت رحمته ، عدله ، غناه ، قدرته ، لطفه ، قوته ، بطشه أحياناً ، إن عرفت أسماءه الحسنى أقبلت عليه

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

أي اتجهوا إليه ، اطلبوا منه ،

(بِهَا)

أي بعد معرفتكم به .

المعنى الثاني : إنكم إن أردت التقرب إليه تقربوا بكمال مشتق من كماله ، الله رحيم يرحم هذا الإنسان، يرحم هذه الدابة ، ارحم هذا الموظف الذي عندك .

قال لي مرة شخص : عندي شاب فهيم جداً وذكي ، لكن طلب مني ساعة ، يغادر المحل قبل ساعة ، حتى يلتحق بمدرسة داخلية ليأخذ كفاءة ، قال لي : ما وافقت له ، هذا إذا تعلم أخسره سأدعه هكذا ، هذا

واضع لابنه مليون ليرة دروس خاصة حتى يصبح طبيباً ، أما هذا اليتيم خليه جاهلاً ، أنا والله بحسب ما أفهم ألغى كل عباداته ، يا أخوان الدين ما فيه مزح إطلاقاً بالدين الله كبير ، وكلهم عباده ، إياك ثم إياك ثم إياك أن تظلم نملة .

((دَخَلت امْرَأَةٌ النَّارَ في هِرَّةٍ : ربطتها ، فلم تُطْعِمها ، ولم تَدَعْها تأكُل مِن خَشاشِ الأرض))

[أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر]

إن عرفت الله ترتعد مفاصلك ، لو ظلمت إنساناً ، لو اغتبت إنساناً ، لو أعطيت إنساناً شيئاً لا يستحقه إما أقل أو أكثر .

عدل الله عز وجل لا يمكن لعقل الإنسان القاصر أن يثبته :

أيها الأخوة ، إن عرفت الله عرفت كل شيء ، إن عرفت الله أطعته ، إن عرفت استقمت على أمره ، إن عرفت الله أعطيت كل ذي حق حقه ، إن عرفت الله كنت عادلاً ، إن عرفت الله كنت رحيماً ، إن عرفت الله كنت لطيفاً ، كنت منصفاً ، كنت محسناً ،

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ)

الآن مع التطاول على الدين صار هناك تطاولاً أن الله ليس عادلاً ، هذا الطفل لماذا يولد أعمى ؟ أنت إله ؟ هل تعلم حكمة الله في هذا ؟ الله خلق البشر لحياة أبدية ، قد يكون هذا الطفل بأعلى مقام في الجنة، أنت إله تحاسب الله عز وجل ؟ أنت عبد ، صار هناك تطاولاً .

(وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ)

لماذا الحروب ؟ لماذا الاجتياح ؟ لماذا الفيضانات ؟ لماذا البراكين ؟ عدل الله عز وجل لا يمكن لعقلك القاصر أن يثبته ، إلا بحالة مستحيلة أن يكون لك علم كعلمه ، لكن الله أخبرك قال :

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

(سورة النساء)

لا فتيل ، ولا :

(قِطْمِيرٍ)

(سورة فاطر)

ولا نقير ، ولا حبة من خردل .

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

(سورة غافر الآية : 17)

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

(سورة العنكبوت الآية : 40)

كل هذه الآيات أنت لا تصدقها ؟ لكن عقلك القاصر لا يستطيع أن يكشف حكمة الله يقول لك دول غنية قوية كافرة ، تمتع بها بكل شيء ، والدول الفقيرة مظلومة ، واجتياحات الحياة كلها فترة محدودة ، وهناك أبد ، إذا شخص خسر هذه الدنيا وربح الأبد ما الذي حصل ؟.

من أنكر وجود الله عز وجل و حكمته كفر دون أن يشعر :

أيها الأخوة ،

(وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ)

كل إنسان ينكر حكمة الله ، ينكر عدله ، ينكر حكمته ، أحياناً هناك كلمات هي الكفر بعينه ، دون أن تشعر ، يقول لك شخص : الله يعطي الحلاوة لمن ليس له أضراس ، ما هذا الكلام ؟ أنت بهذا أنكرت وجود الله ، أنت حينما تعظم الله ، تعظم أفعاله ، تحسن الظن به ، تعتقد بكماله ، بحكمته ، تعتقد أن ليس في الإمكان أبدع مما كان ، تعتقد أنه يوم القيامة حينما يكشف لعباده عن حكمته من وراء أفعاله تذوب نفسك محبة له أنت قاصر ، أقول هذا الكلام وقد قلته كثيراً :

أنا ماشٍ في الطريق شخص خرج من محله التجاري ، قال لي : هذا الإنسان جاء إلى محله التجاري ، في سوق مدحت باشا ، وسمع إطلاق رصاص ، مدّ رأسه فجاءت رصاصة فاستقرت في عموده الفقري ، فشُلّ فوراً ، قال لي : ما ذنبه ؟ إذا شخص فتح محله التجاري يكون مجرماً ؟ قلت له : لا ، كأنه يعترض على الله عز وجل

(وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ)

أنا قلت لا أعلم ، أنا أعلم أن الله عادل ورحيم ، والله بعد عشرين يوماً أحد الأخوة الكرام حدثني قصة عرضية ، قال لي : فوقنا هناك جار مغتصب بيتاً لأولاد أخيه الأيتام ، والاغتصاب مضى عليه ثمان سنوات ، هم يلحون في طلب البيت ، بيتهم وهو متمسك به ، لا يعطيهم إياه ، فلما يئسوا احتكموا إلى أحد علماء دمشق الشيخ حسين الخطاب رحمه الله كان شيخ قراء الشام ، فاستدعاه ، وحاول أن يقنعه لكي يعطي أولاد أخيه البيت ، وكان وقحاً ، قال : لن أعطيهم البيت ، قال لهم الشيخ حسين : يا بني هذا عمكم ، لا تشتكوا عليه للقضاء اشكوه إلى الله ، هذا الكلام الساعة التاسعة مساءً ، هو نفسه الساعة التاسعة صباحاً سمع إطلاق رصاص مدّ رأسه جاءت رصاصة شُلّ فوراً .

أنا ما كنت أعلم ما القصة ، قال لي شخص : هناك رجل جاء لمحله التجاري وفتح محله التجاري وما عمل شيئاً ، سمع صوت رصاص مدّ رأسه شُلّ ، أحرجني ، أنا لا أعلم ، أنا عبد فقير ، أما لما الله عز وجل ساق الأخ الكريم ، قال لي : هو له محل بمدحت باشا ، هو لا يعلم الذي اعترض قبل عشرين

يوماً ، قال لي : جارنا ساكن فوقنا ، واغتصب بيتاً لأولاد أخيه الأيتام ورفض أن يعطيهم حقهم .
قال لي أخ كريم من يومين : شخص على وشك أن يحرم أولاد أخوته حقهم ، يأتي المحامي يقول لهم : طولوا بالكم ، يقول له : بعد فترة ، بعد فترة ، لكن يبدو بعد سنة أخبر المحامي فجأة قال له : مشي المعاملة ، قال له : ماذا حصل ؟ قال له : سمعت اليوم درساً بالقدس عن هذه القصة نفسها ، فبادر مباشرة إلى إعطاء البيت لأولاد أخيه الأيتام .
أخوانا الكرام ، الله عز وجل عادل ، وكبير ، اعرفوه ، استقيموا على أمره ، تسعدوا بقربه .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(53-60): تفسير الآيات 181 - 184، السلوك الإيجابي يعكس إيجابية صحيحة وصادقة وموضوعية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-11-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

توزيع الكمالات البشرية بين خلق الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الثالث والخمسين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الواحدة والثمانين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)

أيها الأخوة ، الله عز وجل قبل آيات عدة يقول :

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)

(سورة الأعراف الآية : 179)

إذاً هناك كثيرون شردوا عن الله عز وجل فاستحقوا النار ، وهذا لا يعني أن كل البشر كذلك ،

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)

أما كلمة

(أُمَّةٌ)

الكمال البشري من شأنه أنه متعدد ، في شجاعة ، في كرم ، في حكمة ، في حلم ، في لطف ، في قوة، في إباء ، في رحمة ، الكمال البشري متنوع ، ولحكمة بالغةٍ بالغة أن كل واحد من بني البشر ممن آمن بالله تفوق بكمال من هذه الكمالات ، يغلب على صفات إنسان أنه كريم ، إنسان آخر أنه شجاع ، إنسان آخر أنه حليم ، إنسان آخر أنه يحب خدمة الخلق ، فهذه الكمالات البشرية موزعة بين خلق الله عز وجل .

كمال النبي عليه الصلاة والسلام كمال شمولي :

لذلك

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ)

الأمة تجتمع فيها كل الكمالات ، هذا شيء واقع ، بحياتنا أستاذ جامعي كبير ، داعية كبير ، مثلاً محسن كبير ، عالم كبير ، قائد كبير ، إنسان مكنه الله من مقارعة الأعداء ، سيدنا صلاح الدين ، سيدنا

خالد ، إنسان مكنه الله من إقامة العدل ، سيدنا عمر ، فكل إنسان له كمال تفوق به ، مجموع هذه الكمالات يشكل أمة ، إلا أن إبراهيم عليه السلام كان أمة وحده .

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

(سورة النحل الآية : 120)

سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام أمة وحده ، فلذلك النبي صلى الله عليه وسلم معصوم بمفرده ، بينما أمته معصومة بمجموعها .

((أُمَّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ))

[أخرجه ابن ماجه عن أنس بن مالك]

والنبي عليه الصلاة والسلام كماله شمولي .

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم)

شجاعته ، وحلمه ، ورحمته ، ورقته ، ولطفه ، وهذه الصفات كلها مجتمعة في شخص النبي عليه الصلاة والسلام ، هو معصوم بمفرده ، وكل الكمالات البشرية محققة فيه بمفرده ، بينما أمته معصومة بمجموعها ، والكمالات موزعة فيها ، هذا شيء واقع ، طبيب ، مهندس ، محامي ، اختصاصات ، محسن كبير ، داعية كبير ، قائد شجاع ، فكل كمال في النبي موجود فيه ، وكل كمال في أمة محمد موجود فيه ، هذا معنى قوله تعالى :

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا)

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)

طبعاً نبهت وقتها أن

(ذَرَأْنَا)

لا تعني أننا خلقنا لجهنم ، هذه اللام لام المآل ، خلقنا خلقاً كثيرين ، منهم شردوا عن الله عز وجل فاستحقوا النار فاللام لام المآل ، ليست لام التعليل ، خلق كثير عرفوا الله عز وجل فاستحقوا الجنة .

الله عز وجل خلق الإنسان ليسعده :

إذاً :

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية : 29)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة الآية : 148)

خلق الله الخلائق ، خلقها جميعها ليسعدها .

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود الآية : 119)

الحكمة من المصائب :

قد تقول ما حكمة المصائب ؟ المصائب حكمتها تماماً كحكمة المكبح في السيارة ، السيارة صنعت من أجل أن تسير ، والمكبح عقدياً يتناقض مع علة صنعها ، لكنه أكبر ضمان لسلامتها .

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

المتفوق داعية إلى الله بعمله لا بلسانه :

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)

يعني الله عز وجل حينما أكرم المؤمنين بهذه الكمالات ، هذه الكمالات مشاعر داخلية تنعكس سلوكاً خارجياً ، فالقلب الرحيم رحيم ، لكن سلوكه رحيم ، قلب الحليم حليم لكن حركته فيها حلم ، فصار الكمالات البشرية قدوة وأسوة لمن حولهم .

أب ما سمع أولاده منه كلمة بذيئة ، أبلغ الظن أن أولاده ينضبطون في كلامهم ، أب كلما دخل وقت الظهر توضأ وصلى أمام أولاده ، فالأب أسوة في صدقه ، في حكمته ، في ضبط لسانه ، في عبادته ، في معاملته ، في كرمه ، في رحمته ، فهؤلاء المؤمنون الذين شرفهم الله عز وجل بكمال بشري هم في الحقيقة دعاة صامتون ، دون أن يشعروا ، فالمتفوق داعية لكن لا بلسانه بل بعمله .

والدليل أن في بعض الأحاديث الشريفة حديثاً يقول فيه النبي عليه الصلاة والسلام :

((استقيموا يستقم بكم))

[أخرجه الطبراني عن سمرة بن جندب]

يكفي أن تكون أميناً فأمانتك دعوة إلى الأمانة ، يكفي أن تكون صادقاً صدقك دعوة إلى الصدق ، يكفي أن تكون مؤدياً لعباداتك ، أداؤك لعبادتك في المكان العام دعوة لأداء العبادات ، فأنت يمكن أن تكون داعية كبيراً بلسانك ، ويمكن أن تكون داعية كبيراً بعملك .

هؤلاء التجار التسعة الذين ذهبوا إلى إندونيسيا ، فيها ثلاث عشرة ألف جزيرة ، هؤلاء التجار التسعة أغلب الظن أنهم ما تكلموا كثيراً ، لكنهم فعلوا كثيراً ، فإذا بأكبر قطر إسلامي يعد 250 مليوناً كل مسلم عن طريق هؤلاء التجار .

لذلك حينما قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((التَّاجِرُ الأمينُ الصَّدُوقُ مع النَّبيِّين))

[أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري]

الصين فيها 80 مليون ، زرت مسجداً في بكين عمره 1200 عام ، والذي بنى المسجد مدفون في صحن المسجد ، قلت : إنسان دخل إلى الصين ، الآن دعوته شملت 80 مليون إنسان .

الأسوة الحسنة طريقة مذهلة في التعليم :

النقطة الدقيقة : أن كمال الإنسان كماله بأخلاقه ، بعفته ، باستقامته ، بأمانته ، بصدقه ، برحمته ، بإنصافه ، بحلمه ، هذه الأخلاق الراقية جعلت منه أسوة حسنة لمن حوله ، أنا أتصور أباً مؤمناً بلا جهد أولاده كذلك ، يرون أباهم ، يرون أدبه ، يرون حكمته ، يرون رحمته ، يرون سخاءه ، كرمه ، نحن عندنا طريقة للتعليم مذهلة الأسوة ، بلا كلام ، بلا إلقاء خطابات ، بلا توجيه نصائح ، بلا توجيه مواعظ ، بلا زجر ، لا ، كن كاملاً في البيت ، كمالك يعد أسوة لأولادك ، المعلم الكامل أسوة ، مدير المؤسسة الكامل عادل بين الموظفين ، متواضع لهم ، يحترمهم ، يسأل عن أحوالهم ، يلبي حاجاتهم ، يرحمهم ، لو أن أحد كبار الموظفين عُين رئيس دائرة في الأعم الأغلب سيقلد مديره العام ، برحمته ، وإنصافه .

كمال الإنسان يجعله قدوة أمام الآخرين :

لذلك هناك طريق سالك وسهل طريق الأسوة الحسنة ، سيدنا عمر كان إذا أراد إنفاذ أمر جمع أهله وخاصته وقال : إني قد أمرت الناس بكذا ، ونهيتهم عن كذا ، والناس كالطير إن رأوكم وقعتم وقعوا ، ويم الله لا أوتين بواحد وقع فيما نهيت الناس عنه ، إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني ، فصارت القرابة من عمر مصيبة .

الآن أنت حينما تكون كاملاً ، زوج ناجح ، أب ناجح ، أب رحيم ، كلامك رحيم ، قلبك ممتلئ رحمة لأولادك ، لك أجران ، أجر أنك كنت كاملاً ، وأجر أن من حولك اقتدوا بك ، فأنت تثاب على كمالك ، وعلى كمال الذي قلدك ، ولا سمح الله ولا قدر أب مدخن ، أو معلم مدخن ، يتحمل إثم التدخين هو ،

ومن قلده من طلابه ، بشكل أو بآخر أي خطأ من إنسان له منصب قيادي العقاب مضاعف ، عقاب خطئه ، وخطأ من قلده ، وأي موقف كامل لإنسان له منصب قيادي ، معنى منصب قيادي الأب منصبه قيادي بالبيت ، والأم ، والمعلم ، مدير الدائرة ، مدير المستشفى ، مدير الجامعة ، مدير المعمل ، أي إنسان مكنه الله من أن يدير جمع من الأشخاص منصبه قيادي ، فكمالاته لها أجر مضاعف ، وسيئاته عليه منها وزر مضاعف ، وزره ووزر من قلده .

الله عز وجل يقول :

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ)

وهو صامت ، لذلك أنا أقول هناك الآن دعوة صامتة ، لا تحتاج إلى ضجيج ، ولا إلى رفع صوت ، ولا إلى زجر ، ولا إلى خطابة مفوهة ، كن مستقيماً استقامتك دعوة ، وكن أميناً أمانتك دعوة ، وكن صادقاً صدقك دعوة ، وكن حليماً حلمك دعوة ، وكن متفوقاً التفوق دعوة .

الحق الشيء الثابت والهادف والباطل الشيء الزائل والعابث :

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ)

ما الحق ؟ كلمة ترد في القرآن كثيراً ، الله عز وجل هو الحق ، لكن ما معنى :

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

(سورة التغابن : 3)

معنى

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

أي أن الحق لابس خلق السماوات والأرض ، الحق معناه الشيء الثابت والهادف ، يقابله الباطل الشيء الزائل والعابث ، مثلاً :

قد ينصب سيرك في بلد ما ، السيرك أسبوعي ، وفيه ألعاب بهلوانية ، فيه فيل ووحوش ، قضية تسلية، أولاً مؤقت ، هذا المخيم الكبير لأسبوعين فقط ، وهذا السيرك لا يقدم علماً عميقاً ، ولا يقدم فكراً دقيقاً ، ولا يقدم علماً رائعاً ، يقدم ألعاب تسلي الإنسان فقط .

فالشيء الباطل الشيء الزائل ، والشيء الباطل الشيء العابث ، أحياناً تبنى جامعة هذه تبنى لتكون إلى مئات السنين ، هناك جامعة يقول لك من 1500 عمرها ، الآن 2000 ، من 500 عام ، هذه الجامعة بنيت لتبقى ، هذه الجامعة هدفها تزويد الأمة بقادة ، بأطباء بمهندسين ، بقضاة ، بعلماء ، بعلماء فلك ، علماء ذرة ، فالهدف كبير ، الهدف راقٍ ، الهدف نبيل ، فالحق الشيء الثابت والشيء الهادف ، والباطل الشيء الزائل ، الإلحاد باطل .

لذلك الدولة العملاقة التي قامت على الإلحاد بقيت سبعين عاماً ثم زالت ، أصبحت أفكارها في الوحل ، الباطل مهما يكن قوياً زائل ، لقول تعالى :

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

(سورة الإسراء)

مهما يكن متعدداً كم فرقة ضالة طرأت على التاريخ الإسلامي ، أين هي الآن ؟ الذي بقي هو الحق ، الذي بقي من تمسك بالقرآن ، وسنة النبي العدنان .

تناقض تأليه الأشخاص مع منهج الله عز وجل :

لذلك أيها الأخوة ، أريد أن أبين أن الفرق الضالة تجمعها خصائص ، من هذه الخصائص أنها تؤله الأشخاص ، تأليه الأشخاص يتناقض مع منهج الله .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)

(سورة الكهف الآية : 110)

دخل أعرابي على مجلس النبي قال : أيكم محمد ؟ ما له مكان خاص ، ولا هيئة خاصة ، ولا حرفة خاصة ، أيكم محمد ؟ الفرق الضالة من شأنها أنها تؤله الأشخاص ، وتخفف التكاليف ، هذه الفرقة ألغت الصلاة ، هذه الفرقة ألغت الصيام ، هذه ألغت الزكاة ، تؤله الأشخاص ، وتخفف التكاليف ، وتعتمد على نصوص موضوعة لا أصل لها .

مرة أهدي إليّ كتاب ، فيه أحاديث مختارة ، أول حديث روى الديلمي عن ابن عباس أنه قال : ليس من مات فاستراح بميت ، إنما الميت ميت الأحياء ، قلت : هذا ليس حديثاً ، قلت له : هذا كلام المتنبي ، قال : لعل النبي أخذه منه ، قلت له : جاء بعد النبي .

اعتماد الفرق الضالة على الأحاديث الموضوعة و تخفيف التكاليف :

الفرق الضالة تعتمد على أحاديث موضوعة ، وعلى تأويلات ضالة ، وعلى قصص هزيلة ، تالفة ، والصفة الثانية أنها تخفف التكاليف ، الآن الانتماء سهل جداً ، الانتماء سهل أما تطبيق المنهج صعب ، يكفي أن تقول أنا مع فلان ، سهلة ، هل أنت مستقيم ؟ هل أنت صادق ؟ هل أنت أمين ؟ هل أنت وقاف عند حدود الله ؟ .

لذلك الديانات الأرضية في آسيا تعد 90 مليون ، ما فيها منهج ، تأليه بوذا فقط .

مرة زرت معبداً في أمريكا لديانة أرضية آسيوية ، وجدت صنماً من البرونز ، صدقوا أيها الأخوة أن صدره فيه حبات ألماس بمئات الملايين ، برونز أسود صدره كله حبات ألماس موشورية برلنت

بالملايين ، رأيت بعض الأتباع ينبطحون بأجسادهم انبطاحاً كاملاً ، وهم مثقفون ، ورأيت كسارة جوز هند بمدخل المعبد ، سألت ؟ قال : الآلة تحب جوز الهند ، والله زيارة لا أنساها بأمريكا بلوس أنجلوس، كيف يحب هذا الصنم من البرونز والألماس جوز الهند ؟ شيء غير معقول ؟ .

فكل شيء أرضي ، الانتماء سهل ، لأنه لا يوجد منهج ، لا يوجد افعل ولا تفعل ، يكفي أن تعلن انتماءك لهذا المنهج ، القضية سهلة جداً ، لكن الإسلام فيه منهج ، فيه أحكام ، فيه أوامر ، فيه نواهٍ ، فيه محرمات ، فيه عبادات ، فيه هدف ، فيه التزام .

من هنا الآية الكريمة :

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ)

في حق

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

الفرق الضالة كلها تؤله الأشخاص ، وتخفف التكاليف ، وتعتمد على نصوص موضوعة ، وضعيفة ، وقصص تالفة وذات نزعة عدوانية ، هذه الصفات الأربع تتصف بها كل الفرق الضالة .

عظمة الدين الإسلامي :

أما الكتاب والسنة ، سيد الخلق وحبيب الحق قال :

(إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

دقق لا أملك لكم نفعاً ولا ضراً ، سيد الخلق ، لا أملك لكم نفعاً ولا ضراً ، والأبلغ من ذلك :

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

(سورة الأعراف الآية : 188)

الأبلغ من ذلك قل لا أعلم الغيب .

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

(سورة الزمر)

هذا من ؟ سيد الخلق ، حبيب الحق ، سيد ولد آدم ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فلا أملك لكم نفعاً ولا ضراً ، لا أعلم الغيب ،

(أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

أيها الأخوة ، أرأيتم إلى عظمة هذا الدين ؟ .

كل شيء مبني على العدوان والكذب والدجل زاهق لا محالة :

إذاً

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)

الحق الشيء الثابت والهادف ، الدين حق ، أما هناك آلاف النشاطات العابثة والزائلة لا قيمة لها إطلاقاً، هي الباطل ، الباطل زائل يعني جدار أنشأناه بلا شاقول مائل ، لأنه أنشئ بلا شاقول هذا مصيره إلى الوقوع ، أما الجدار الذي أنشئ وفق مبادئ صحيحة هذا من شأنه البقاء ، فالحق باقٍ والباطل زائل .

الذين رفعوا شعار لا إله ، عندهم قنابل ذرية ، قنابل نووية ، يحكمون تقريباً ثلث العالم ، كل هذه القوة، وكل هذه الغطرسة ، وكل ، وكل ، تلاشت ، وانتهى الأمر

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

والقوة الثانية التي أرادت الهيمنة على العالم لا بالحق بل بالباطل أيضاً زائلة ، والذين احتلوا هذه البلاد الفرنجة بقوا فيها تسعين عاماً ، وبعدها خرجوا إذاً

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

كل شيء مبني على العدوان والكذب والدجل هذا زاهق لا محالة .

من كان متفوقاً تفوق من حوله :

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)

التركيز اليوم على أنك إذا كنت متفوقاً تفوق من حولك ، إذا كنت صادقاً صدق من حولك ، إذا كنت أميناً كان أميناً من حولك ، فالكمال وحده دعوة إلى الله ، أنت لا تحتاج إلى قدرة على الخطابة ، والنصوص واضعها ، تجد أباً صالحاً ، أولاده صالحون .

هناك نقطة دقيقة : إنسان أُميّ لا يقرأ ولا يكتب ، اشترى مكيفاً ، فتح مفتاح التشغيل ، جاءه الهواء البارد ، تمتع به ، شخص معه دكتوراه بالتكييف من أرقى بلاد العالم ، اشترى مكيفاً ، وضعه بغرفته ، فتح التشغيل جاءه الهواء البارد ، فقال بعضهم : الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به ، يستطيع إنسان أُميّ أن ينتفع بالمكيف انتفاعاً تاماً ، كما ينتفع به من يحمل دكتوراه بالتكييف ، القصد من هذا المثل إنسان يصدق ، لا قرأ عن فلسفة الصدق ، ولا عن نتائج الصدق ، ولا عن الأدلة عن الصدق ، إنسان يلقي محاضرة عشر صفحات ، الأدلة ، الآيات ، الأحاديث ، القصص ، التحليل ، تحليل نفسي ، تحليل اجتماعي ، تحليل لغوي ، يزيدك علماً من أجل أن تكون صادقاً ، يأتي إنسان يصدق بالفطرة

يقطف كل ثمار الصدق ، احفظوا هذه القاعدة الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به .

الموقف الكامل لا يحتاج إلى ثقافة عالية و تعمق وفلسفة يحتاج لقلب رحيم :

أجدادنا ، قد يكون ثقافتهم محدودة ، لكن الأب صالح ، يصلي صلواته الخمس ، صادق ، أمين ، رحيم، الأب هذا انتفع من حوله وانتفع هو بكماله من دون تحليل إيديولوجي للصدق ، أنا لست مع الجهل معاذ الله ، هذا الدين لكل الخلق ، إنسان غير متعلم ، متعلم ، ثقافته عالية جداً ، ابن ريف ، ابن مدينة ، فقير ، غني ، ذكاؤه متقد ، محدود الذكاء ، هذا الدين لكل البشر ، أي إنسان طبق منهج الله قطف ثماره كاملة ، عن وعي أو عن غير وعي ، عن علم أو عن غير علم ، أي إنسان طبق منهج الله ، قطف ثماره كاملة .

قصة أرويها كثيراً لكن جاءتني الآن خاطرة أن أرويها لكم : إنسان يعمل خطيب وإمام مسجد رأى النبي عليه الصلاة والسلام ، قال له النبي في الرؤيا : قل لجارك فلان إنه رفيقي في الجنة ، جاره بقال إنسان بسيط جداً ، فهذا الذي يخطب على المنبر ، وإمام تأثَرَ تأثراً سلبياً جداً ، هذه الرؤيا كان من الممكن أن تكون لي ، لماذا لهذا البقال ؟ طرق بابه ، قال له : لك عندي بشارة ، لن أقولها لك إلا إذا أخبرتني ماذا فعلت مع ربك ؟ فامتنع ، فبعد إلحاح شديد قال له : تزوجت إنسانة ، بالشهر الخامس من زواجي كان حملها في الشهر التاسع ، واضح في خطأ مرتكب ، قال له : بإمكاني أن أسحقها ، وأن أفضحها ، وأن أطلقها ، والشرع معي ، وأهلها معي ، والمجتمع معي ، والقانون معي ، والمحكمة معي، لكن أردت أن أعينها على التوبة ، جاء لها بمن يولدها ، ولدت ، وحمل الجنين المولود تحت عباءته ، وتوجه إلى جامع الورد في دمشق ، وبقي واقفاً أمام الباب حتى نوى الإمام الصلاة ، قال : الله أكبر ، دخل ووضعه إلى جانب الباب والتحق بالمصلين ، فلما انتهت الصلاة بكى هذا الصغير ، تحلق المصلون حوله ، وتأخر هو حتى يكتمل تحلق المصلين حوله ، ثم اقترب ، قال : ما القصة ؟ قال : تعال انظر ! جنين مولود لقيط ، قال : أنا أكفله ، فأخذه ، ودفعه إلى أمه من أجل أن تربيه ، فاستحق هذا الإنسان أن يبشره النبي الكريم أنه رفيقه في الجنة .

أحياناً الموقف الكامل لا يحتاج إلى ثقافة عالية ، وتعمق ، وفلسفة ، يحتاج لقلب رحيم ، هذه بإمكاني أن أحملها على التوبة لي فيها أجر كبير جداً .

فيا أيها الأخوة ، لمجرد أن تكون كاملاً فأنت داعية ، لا بلسانك ولكن بفعلك ، أنت أب معلم ، عندك محل تجاري ، عندك خمسة موظفين ، أنت الآن منصبك قيادي ، كلامك منضبط ، ما عندك كلمات بذيئة ، علمتهم الانضباط بالكلام ، امرأة متفلتة غضضت عنها البصر ، علمتها غضّ البصر .

لذلك الآية الكريمة :

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)

من لم يعبأ بكلام الله و أفعاله و خلقه سيتعرض لعقاب الله و تأديبه حتى يعترف بذنبه :

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

هناك آيات كونية ، وهناك آيات قرآنية ، وهناك آيات تكوينية ، لم يعبأ لا بأفعال الله ، ولا بخلقه ، ولا بكلامه .

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ)

الآن درج تنتقل من طابق أول لطابق خامس ، درجة درجة ، وتنتقل من خامس لأول درجة درجة ، فالله عز وجل وصف استدراج من شرد عنه استدراج أنه يعترف بذنبه مرة تلوى مرة ، بالنهاية والله يا ربنا ما كنا بك مشركين ،

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ)

تجد الإنسان العاصي متعند ، متكبر ، متغطرس ، ضربة تلوى ضربة ، ضربة تلوى ضربة ، يقول لك أنا إنسان سيء جداً ، هذه متى قالها ؟ بعد أن عاقبه الله ، وأجرى عليه كل ألوان التأديب حتى اعترف بذنبه .

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا)

الكونية والتكوينية والقرآنية :

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)

إنسان مع إنسان قد تستدرجه يبقى صاحياً ، أي يفسد عليك استدراجك له ، يقول لك : انتبهت له ، يقول له : تغديت به قبل أن يتعشى بي ، إنسان مع إنسان يقدر ، أما الإنسان مع خالق الأكوان لا يقدر ،

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)

(وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

(سورة الأعراف)

أي أمهلهم .

تأخير العقاب و المكافأة يعطي الإنسان الاختيار :

أخوانا الكرام فكرة دقيقة : لو شخص مع أول معصية الله قصمه ، الكل يستقيم لا عن محبة لله ، لو شخص مع أول عمل صالح الله كافأه ، الكل يعمل أعمالاً صالحة تصبح بعقلية تجارية ، لكن ممكن أن تطيعه لأمد طويل وأنت أنت ، لا يوجد شيء ، دخل محدود ، بيت متواضع ، صحة وسط ، وأنت صائم و تصلي ، ممكن شخص يعصي الله عز وجل بكل أنواع المعاصي وضغطه 8 - 12 نظامي ، ونبضه 80 نبضة ، وصحته عمل تحليلاً لكل شيء درجة أولى مثل البغل طبعاً ، ممكن تعصيه إلى أمد طويل وأنت بأعلى نوع قوة ، ممكن تطيعه ، تأخير العقاب ، والمكافأة تعطي اختيار ، صار في اختيار.

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ :

(وَأُمْلِي لَهُمْ)

تجدهم يتغطرسون ، ويدمرون شعوباً ، ويقصفون مدناً ، ويتعالون على الله عز وجل ، وهم مرتاحون،

(وَأُمْلِي لَهُمْ)

لذلك :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم)

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً)

(سورة الطارق)

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم)

هذه معنى

(وَأُمْلِي لَهُمْ)

بطولة الإنسان أن يبتغي الرفعة عند الله عز وجل :

لو شخص على أول غلطة الله عاقبه التغى الاختيار ، نظر فقد بصره ، الكل يغمضون أعينهم ، انتهى، مثلاً دفع صدقة ليرة يأتيه عشرة ، الكل يدفعون صدقة ، لا ، ممكن تطيعه لأمد طويل ، لا يوجد شيء ، لأنك تريد الآخرة ، ممكن لا سمح الله تعصيه بكل أنواع المعاصي لا يوجد شيء ، بيت ، وسيارة ، ودخل ، وولائم ، وسفر ، و ذهاب و إياب ، لا يوجد شيء ، يقول له أين الله ؟ ، ممكن تطيعه لأمد

طويل لا يوجد شيء أبداً ، في راحة نفسية فقط ، كم مؤمن صادق فقير ؟ موظف درجة عاشرة ، ضارب آلة كاتبة ، لكن من بيته لعمله مستقيم ، صادق ، أمين ، صلواته الخمس يؤديها ، يحب الله عز وجل ، له درس علم يحضره ، هذا قلامة ظفره تساوي مليون شخص ، لكن بالدنيا ليست مبينة الأمور، يبين مواطن عادي ، لذلك :

((رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بالأبواب لو أقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

ممكن أن يكون الشخص من الدرجة العاشرة اجتماعياً ، موظف ، حاجب ، وهناك مدير عام ، وسكرتير ، وبالنهاية الله لا يحبه ، وهذا الحاجب غالٍ على الله ، فأنت بطولتك أن تبتغي الرفعة عند الله:

((رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بالأبواب لو أقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

كن ابن من شئت ، غني ، فقير ، من أرقى عوائل دمشق ، عائلة لا أحد يعرفها مغمورة ، أنت عبد لله عز وجل ، هذه كلها عنعنات جاهلية .

أنا والله لي كلمة يا أخوان لا يضاف على كلمة مسلم ولا كلمة ، مسلم ، انتهى ، تحبه غنياً متواضعاً ، تحبه فقيراً ، تحبه مثقفاً ثقافة عالية ، سخر ثقافته للدعوة ، تحبه غير متعلم ، لكن على الفطرة ، صادق، أمين ، كريم ، تحب إنساناً أحياناً على الفطرة ، مادام مسلم الإسلام صبغوه بالكمال ، فأنا أقول لا يضاف على كلمة مسلم ولا كلمة .

بطولة الإنسان أن يكون متواضعاً لا تهمه المراتب الدنيوية :

أيها الأخوة ،

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)

مع الله لا يوجد ذكي ، يؤتى الحذر من مأمنه .

(وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

المتانة صفة لمقاومة قوى الشد ، يعني عندنا أمتن شيء بالدنيا الفولاذ المضفور ، الجسور العملاقة تعلق بحبال فولاذية ، المصاعد بحبال فولاذية ، التل فريك بحبال فولاذية ، هذا أمتن شيء ، وأقسى شيء مقاومة قوى الضغط الألماس ، المتانة مقاومة قوى الشد ، والقساوة مقاومة قوى الضغط ، فهنا الإنسان مربوط بحبل مهما كان قوياً لا يستطيع أن يفلت منه ، مهما كان ذكياً في قبضة الله ، بثانية

بأعلى درجة من القوة ، بثانية أصبح مشلولاً وهذه السنة الرابعة ، أو أكثر ، كم سنة صار له ؟ والله يمد بعمره .

(وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

بطولتك أن تعرف الله ، تصبح متواضعاً ، تصبح أديباً ، لا يهمك المراتب الدنيوية ، ساكن بأقل مستوى ، لكن لك عند الله مكانة كبيرة .

من آمن إيماناً حقيقياً تبدلت مقاييسه و له عند الله مكانة كبيرة :

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

(سورة القمر)

كن إنساناً عادياً ، أقل من عادي لكن الله يحبك ، وإذا أحبك الله أحبك كل شيء ، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ويا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ لا تهتم بالدنيا ، هذه عرض زائل ، يأكل منه البر والفاجر ، والآخرة وعد صادق يحكم فيه ملك عادل ، كن من أهل الآخرة ، اعمل عملاً صالحاً ، اطلب العلم ، ادعُ إلى الله ، أما بيتك خارج دمشق ، خير إن شاء الله !. مرة دخلت لبيت انحرج صاحبه كثيراً ، صغير جداً ، قلت له هون عليك ، سيد الخلق وحبيب الحق كانت غرفته لا تتسع لصلاته ونوم زوجته .

((لو كانت الدنيا تزن عند الله تبارك وتعالى جناح بعوضة ، ما أعطى كافراً منها شربة ماء))

[أخرجه ابن أبي شيبة عن رجل من بني فهم]

إذا آمنت إيماناً حقيقياً تتبدل كل مقاييسك ، مقياسك العمل الصالح ، مقياسك عبادتك ، مقياسك محبتك لله عز وجل ، مقياسك حبك للخير ، و خدمة الخلق .

إذاً آيات اليوم :

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

(سورة الأعراف)

علم ، وحكمة ، وأمانة ، وصدق ، وطلاقة لسان ، ودعوة ، وبيان ،

(إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(54-60): تفسير الآيات 185 - 187
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-12-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

بحث علمي لتقريب عظمة الكون من أذهاننا :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الرابع والخمسين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الخامسة والثمانين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)

أخوتنا الكرام ، بحث علمي لتقريب عظمة الكون من أذهاننا ، هذا الجامع الذي نحن فيه جامع النابلسي، لو قدرنا مساحته بألف متر ، وقدرنا مساحة الجامع الأموي بعشرة آلاف ، إذاً الجامع الأموي يكبر هذا الجامع بعشرة أضعاف ، لو قسنا الجامع الأموي للمسجد النبوي في المدينة مساحته ثلاثمئة ألف متر مربع ، إذاً يكبر الحرم النبوي الجامع الأموي بثلاثمئة ضعف ، المدينة المنورة بأكملها تكبر المسجد النبوي بألف و ستمئة و سبعة و ستين ضعفاً ، الجامع النابلسي ، للجامع الأموي ، للمسجد النبوي ، للمدينة المنورة .

الآن الجزيرة العربية مساحتها ثلاثة ملايين كم مربع ، تكبر مساحة المدينة بستة آلاف ومئتي مرة .

الآن قارة آسيا بلاد الحجاز في آسيا ، قارة آسيا تكبر الجزيرة بأربع عشرة مرة .

الآن الأرض أكبر من مساحة آسيا بإحدى عشرة مرة ، الآن ما مساحة هذا الجامع بالنسبة إلى الأرض؟.

التفكر في ملكوت السماوات و الأرض أمر إلـهي :

أحياناً الأرقام وحدها لا تكفي ، لكن الموازنات والمقارنات تعطي صورة دقيقة ، جامع النابلسي ألف متر ، الأموي عشرة آلاف متر ، الحرم النبوي ، المدينة ، الحجاز ، آسيا ، الأرض ، يعني الآن الأرض خمس قارات ومحيطات ، الخمس قارات يساووا خمس مساحتها ، وأربعة أخماس مساحتها بحار ، ومحيطها 40 ألف قدم .

الآن لو انتقلنا إلى المجموعة الشمسية ، المشتري ، المشتري أكبر من الأرض بألف وثلاثمئة مرة ، كلمة جامع النابلسي ، الجامع الأموي ، الحرم النبوي ، الحجاز ، آسيا ، الأرض ، الأرض عالمنا ، كوكبنا ، يعني من دمشق إلى حلب خمس ساعات ، مسافات شاسعة ، قارة آسيا ، أمريكا ، أوربا ، إفريقيا ، أوقيانوسيا ، القارات كلها خمس ، والبحار أربعة أخماس ، الأرض كلها إذا قيست بمساحة المشتري فهو أكبر منها بألف وثلاثمئة مرة .

الآن الشمس أكبر من الأرض ، بمليون وثلاثمئة ألف مرة ، يعني جوف الشمس يتسع لمليون وثلاثمئة ألف أرض ، جوف الشمس ، الشمس تصويرها عند الكسوف تظهر ألسنة من اللهب ، هذه الألسنة طولها مليون كم ، بإمكان هذا اللسان من اللهب أن يلف المجموعة الشمسية بأكملها ، كوكباً كوكباً ، الزهرة ، وعطارد ، والمشتري ، والأرض ، لسان اللهب الذي يصدر عن الشمس يمكن أن يطوق جميع المجموعة الشمسية .

إعراض الكفار عن دين الله عز وجل بالرغم من آياته الواضحة :

الآن نحن أمام الشمس ، تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة ، الآية الكريمة :

(أوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

أمر إلهي .

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس الآية : 101)

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

(سورة يوسف)

الشعرى اليمانية قال الله عنها :

(وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى)

(سورة النجم)

الشعرى اليمانية ألمع نجم في السماء ، أشد النجوم لمعاناً ، تكبر شمسنا بثماني مرات ، شمسنا تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة ، الشعرى اليمانية تكبر شمسنا بثماني مرات .

الآن حجم الأرض بالنسبة إلى الشعرى اليمانية ، الشعرى اليمانية أكبر من الأرض بعشرة ملايين مرة،

(وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى)

هناك نجم أكبر من شمسنا بخمسمئة واثنتي عشرة مرة ، نمشي بالصعود نحن حتى نفهم قوله تعالى :

(أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

هذا بولوكس أكبر من شمسنا بخمسمئة واثنتي عشرة مرة ، وأكبر من أرضنا بستمئة وثلاثة وستين مليون مرة

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الجاثية)

الكون هو الثابت الأول :

الكون أيها الأخوة ، هو الثابت الأول ، هناك نجم اسمه السماك الرامح ، هذا النجم أكبر من شمسنا بثلاثين ألف مرة ، وأكبر من أرضنا بأربعين مليون مرة ، كون لا نهاية له ، إذا كان هذا هو المخلوق فما أعظم الخالق .

هناك نجم اسمه رجل الجوزاء ، أكبر من شمسنا بثلاثمئة وثلاث وأربعين ألف مرة ، وأكبر من أرضنا بأربعمئة بليون مرة ، بليون ، البليون ألف مليون ، والتريليون ألف بليون ، المليون ستة أصفار ، والبليون تسعة ، التريليون اثنا عشر ، التريليون مليون ، البليون ألف مليون ، رجل الجوزاء أكبر من شمسنا بثلاثمئة وثلاث وأربعين مرة ، أكبر من أرضنا بأربعة بليون مرة .

هناك نجم اسمه بيت الجوزاء ، أكبر من شمسنا بمئتين وأربع وسبعين مليون مرة ، يعني الشمس أكبر من الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة ، هذا النجم بيت الجوزاء أكبر من شمسنا بمئتين وأربع وسبعين مليون مرة ، وأكبر من أرضنا بثلاثمئة وخمس وخمسين تريليون مرة .

هل هذا الإله العظيم يعصى ؟ ألا يخطب وده ؟ ألا ترجى جنته ؟.

تعصي الإله ونت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لـمن يحب يطيع

* * *

خلق الشمس متناسبة مع حجم الكواكب يدل على عظمة الخالق :

الآن قلب العقرب سمعتم مني كثيراً عن قلب العقرب ، قلب العقرب أكبر من شمسنا بثلاثمئة وثلاث وأربعين مليون مرة ، ويبعد عنا ستمئة سنة ضوئية ، للتقريب : بيننا وبين أقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية ، لو أردنا أن نصل لهذا النجم بمركبة أرضية لاحتجنا إلى خمسين مليون ، أما لو أردنا

أن نصل إلى قلب العقرب يبعد عنا ستمئة سنة ضوئية ، وكما تعلمون يقطع الضوء في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كم ، بالدقيقة ضرب ستين ، بالساعة ضرب ستين ، باليوم ضرب أربع و عشرين ، بالسنة ضرب 365 ، ضرب ستمئة سنة ضوئية .

أيها الأخوة ، يبعد عنا ستة آلاف مليون مليون كم قلب العقرب ، يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما ، لو حلّ قلب العقرب محل الشمس لبلع عطارد ، والزهرة ، والأرض ، والمريخ ، كلهم صاروا داخله ، لو وضعنا قلب العقرب مكان الشمس لابتلع عطارد والزهرة والأرض والمريخ معاً .

قلب العقرب أكبر من الشمس كما قلت قبل قليل ، بثلاثمئة وثلاث وأربعين مليون مرة ، فجامع النابلسي ما حجمه ؟! أنت ما حجمك أنت كواحد ؟ لكن الإنسان شيء عظيم .

قال قلب العقرب أشد إشعاعاً من الشمس بعشرة آلاف مرة ، طول إشعاع قلب العقرب عشرة آلاف مليون ضعف .

الآن هناك نجم نجيريوس ، هذا النجم يبعد عنا خمسة آلاف سنة ضوئية ، من أجل خطأ بثانية ضوئية واحدة المركبة كلفت 24 مليار إذا ذكرتم ، ثانية ضوئية ، رحلة إلى القمر المركبة قطعت ثانية ضوئية (360 ألف كم) هذا النجم يبعد عنا خمسة آلاف سنة ضوئية ، أكبر من الشمس بتسعة آلاف مليون مرة، لو حلّ هذا النجم نجيريوس محل الشمس لابتلع عطارد ، والزهرة ، والأرض ، والمريخ ، والمشتري ، وزحل ، تقريباً بحجم المجموعة الشمسية ،

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

لو أن ضوء الشمس أراد أن يبث حول محيط هذا الكوكب لاحتاج إلى ثمان ساعات ، ضوء الشمس يصل إلينا بثمان دقائق ، بين الأرض والشمس 154 مليون كم ، يقطعها الضوء بثمان دقائق ، أما هذا النجم نجيريوس لو أراد الضوء أن يلف حوله لاحتاج إلى ثماني ساعات ، والسرعة ثلاثمئة ألف كم بالثانية .

الآن لو في طريق حول محيط الأرض ، محيط الأرض أربعون ألف كم ، لو شخص مشى كل ساعة خمسة كم ، يحتاج الإنسان كي يلف الأرض إلى عام بأكمله ، مشي ، لو أراد أن يمشي حول الشمس افتراضاً يحتاج إلى مئة و أربع سنوات ، لو أراد أن يمشي حول هذا النجم لاحتاج إلى مئتين و سبع عشرة سنة ، هذه كلها أرقام دقيقة جداً .

الكون لا محدود هذه معرفة الإنسان فكيف بخالق الإنسان ؟!

الآن مجرتنا في أحد الليالي الغير المقمرة ، لو استلقيت على سطح البيت ، ونظرت إلى السماء ترى سحابة من النجوم ، هذه السحابة هي النجوم هي درب التبان ، لها اسم آخر درب التبابنة ، هذه مجرتنا، هي مجرة متواضعة جداً ، هذه المجرة تحوي بلايين النجوم والشموس .

هذا الكلام أسوقه لكم قبل أن تعصي الله ، هل تعلم من تعصي ؟ قبل أن تستعين بإنسان ، هل تعلم من الذي أشركت معه ؟.

قال مجرتنا درب التبابنة طولها مئة ألف سنة ضوئية ، كيف ؟ يعني طولها بالكيلو مترات تسعمئة مليون مليون كم ، نجومها أربعمئة بليون نجم تقريباً ، من ثلاثمئة إلى أربعمئة بليون نجم ، هذه مجرة متواضعة جداً ، اسمها درب التبابنة .

في السماء الدنيا :

(وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ)

(سورة الملك الآية : 5)

في سماء الدنيا بلايين المجرات ، بلايين لا ملايين المجرات ، وكل مجرة فيها ملايين النجوم ، قطر المجرات في السماء الدنيا ثلاثون ألف سنة ضوئية ، بين كل مجرتين 3 مليون سنة ضوئية ، الآن في حدود معرفتنا بالكون قطر الكون 156 بليون سنة ضوئية ، القطر ، هذا هو الموجود الكون ، والكون لا محدود ، هذه معرفة الإنسان ، فكيف بخالق الإنسان ؟.

الكون أكبر ثابت للإيمان :

أيها الأخوة الكرام ، الكون أكبر ثابت للإيمان ، الكون يقرأه كل الناس ، يقرأه العربي والأعجمي ، وأي إنسان ، الكون قرآن صامت ، والقرآن كون ناطق ، وكل أمر إلهي في القرآن يقتضي الوجوب ، كل أمر قرآني يقتضي الوجوب ، الله عز وجل يقول :

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران)

أيها الأخوة ، الآية الخامسة والثمانين بعد المئة من سورة الأعراف :

(أوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

هذا هو الكون ، هذا النبي الذي جاءنا ، سيدنا محمد رسول خالق هذا الكون ، أنت إذا سرت مع الله سرت مع خالق هذا الكون ، أنت إذا استعنت بالله استعنت بخالق هذا الكون ، أنت إذا عرفت الله عرفت خالق هذا الكون .

التركيز في الإيمان لا على أن تؤمن إيماناً إبليساً أن تؤمن بالله العظيم :

أيها الأخوة :

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ* ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ *إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقة)

الحقيقة آمن بالله ، لكن ما آمن به عظيماً ، إبليس آمن بالله ، قال :

(فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة ص الآية : 82)

قال :

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

(سورة الأعراف)

قال :

(قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة الأعراف)

آمن بيوم البعث ، وآمن بالله خالقاً ، آمن به رباً ، آمن به عزيزاً ، لكنه ما آمن بالله العظيم ، فالتركيز في الإيمان لا على أن تؤمن إيماناً إبليساً أن تؤمن بالله العظيم ،

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ* ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ *إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

أصل الدين معرفة الله :

أصل الدين معرفة الله ، لا تنظر إلى صغر الذنب ، ولكن انظر على من اجترأت ، كلما ازداد تعظيم الله في قلبك ازددت له طاعة ، ازددت له خشوعاً ، ازددت له إخلاصاً ، كلما عرفت الله زهدت فيما

سواه ، كلما زادت معرفتك بالله زاد استغناؤك عن الناس ، كلما زادت معرفتك بالله زادت عزتك ، كلما زادت معرفتك بالله زاد غناك ، أن تعرف الله قضية سهلة ؟.

((ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

والله أيها الأخوة الكرام مجموع الآيات التي تتحدث عن الكون تقترب من ألف آية والآية الأصل في هذا الموضوع :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

التفكر من أرقى العبادات :

لذلك التفكر من أرقى العبادات ، تعرفه ، إن عرفته تعد للمليار قبل أن تعصيه ، تعد للمليار قبل أن تأخذ ما ليس لك ، تعد للمليار قبل أن تؤذي مخلوقاً ، هذا الذي يجري في الأرض قتل ، وتدمير ، وإذلال ، ونهب ثروات ، لأنهم ما عرفوا الله ، والله لو عرف الإنسان ربه والله الذي لا إله إلا هو لا يستطيع أن يدوس على نملة ، والله ! ، إله سيحاسب حساباً دقيقاً .

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ *عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

سيدنا رسول الله في بيته وجد تمرة على السرير ، قال : والله يا عائشة لولا أني أخشى أن تكون من تمر الصدقة لأكلتها .

الآن يلف مليون تمرة ، مليون مليون يلفها ، عادي ومرتاح ويجد نفسه شاطراً ، والله أيها الأخوة لو عرفنا ربنا معرفة تليق بمعرفته لا تستطيع أن تأخذ قرشاً بالحرام ، ولا أن تظلم إنساناً ، ولا مخلوقاً ،

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ *عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

قالت السيدة عائشة للنبي الكريم عن زوجته صفية : قصيرة ، قال لها : يا عائشة لقد قلت كلمة لو مزجت بمياه البحر لأفسدته ، فقط قالت قصيرة .

المعاصي بكلامنا ، المعاصي بنظرنا ، بسمعنا ، بمشاهدتنا ، بمتابعاتنا ، المعاصي بمجالسنا ، هذا الوضع هو الذي سبب أن يأتي عدو غاشم يتفنن في نهب ثرواتنا ، وقتل شبابنا ، وانتهاك حرماتنا .

التفكر في الكون طريق لمعرفة الله و تعظيمه :

(أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

التفكر في الكون طريق لمعرفة الله ، التفكر في الكون طريق إلى تعظيم الله ، التفكر في الكون طريق لخشية الله ، التفكر في الكون طريق لسعادة الدارين ، من هو الله ؟ من هو الذي تعصيه ؟ من هو الذي لا تعبأ بأمره ؟ من هو الذي تؤذي عباده ؟ .

قال له : يا بن السوداء ، خطأ ، غضب النبي أشد الغضب ، قال له : أنت امرؤ فيك جاهلية ، إذا كنت تعرف الله لا تجرؤ أن تنتقص من إنسان .

((بنو آدم وآدم من تراب))

[أخرجه البزار عن الحذيفة بن اليمان]

العنعنات الجاهلية ، أنا فلان ، أنا ابن فلان ، أن من المدينة الفلانية ، هذه كلها عنعنات جاهلية ، سببها الجهل .

دخل على النبي شخص قال له : أهلاً بمن خبرني به جبريل ، قال له : أومثلي ؟! قال له : نعم يا أخي، خامل في الأرض علم في السماء ، ابتغوا الرفعة عند الله .

والله أيها الأخوة بإمكانك أن تكون من أسرة عادية جداً ، ما أحد يعرفك ، في التعتيم ، في الظل ، وتكون عند الله علماً ، ابحث عن مكانة عند الله .

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

(سورة القمر)

النقلة المفاجئة من المجرات إلى البعوضة :

(أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ)

هذه المجرات ، هذه البعوضة مئة عين برأسها ، ثمانية و أربعون سناً بفمها ، ثلاثة قلوب بصدرها ، قلب مركزي وقلب لكل جناح ، بكل قلب أذينان ، وبطينان ، ودسامان ، معها جهاز استقبال حراري(رادار) حساسيته واحد على ألف من الدرجة المئوية ، معها جهاز تحليل دم ، معها جهاز تمييع، ومعها جهاز تخدير ، يوجد بخرطومها ستة سكاكين ، بأرجلها مخالب ، ومحاجم ، بعوضة ! .

(إِنَّ اللَّهَ لَا يستحي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

(سورة البقرة الآية : 26)

نقلة مفاجئة من المجرات إلى البعوضة .

خلق الله عز وجل خلق متقن :

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

(سورة الملك الآية : 3)

كل خلق الله متقن ،

(وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ)

إلا أتقنه ، إلا كمله .

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

(سورة طه)

هذا الصوص بالبيضة كيف يخرج ؟ ينمو له نتوء على منقاره ، نتوء مؤنف ، كالإبرة تماماً يكسر بهذه الإبرة البيضة ويخرج ، هذا النتوء انتهت وظيفته ، يضمر ، يد من ؟ صنعة من ؟ .

بالحليب لا يوجد حديد ، الطفل بسنتين يأخذ غذاءه ، أودع الله في طحال الوليد كمية حديد تكفيه عامين، يد من ؟ تقدير من ؟.

أنت بدولة بشمال الأرض ، ولتكن في فلندا 69 تحت الصفر ، تضع قبعة ، قفازات ، جوارب صوف، ألبسة صوف ، معطف صوف ، والعين هل تستطيع أن تغطيها بالصوف ؟ تمشي في الطريق ، والعين فيها ماء ، والماء يتجمد بدرجة صفر ، والحرارة 69 تحت الصفر ، أودع الله في ماء العين مادة مضادة للتجمد .

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

(سورة لقمان الآية : 11)

أخطر حدث ينتظر كل واحد منا الموت ومغادرة الدنيا فالعاقل من تكيف مع هذا الوضع :

(أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ)

النقلة من بيت صالونات ، غرف ضيوف ، استقبال ، جلوس ، طعام ، شرفات ، حدائق ، سيارات ، مكاتب ، إلى قبر ، قبر مظلم ، هذه النقلة من فكر فيها ؟.

كل مخــــلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والـــــجبروت

* * *

والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلابد من نزول القبر

* * *

وكل ابن أنثى وإن طـالت سلامته يوماً على آلـــــة حدباء محمول

فإذا حملـــت إلى القبور جنازة فـــــاعلم بأنك بعدها محمول

* * *

(أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ)

علمونا في الجامعة أن الذكاء هو التكيف ، أن تتكيف مع المحيط ، أخطر حدث ينتظر كل واحد منا الموت ومغادرة الدنيا .

زرت مدير مدرسة ، حدثني عن مشاريعه ، قال لي : سفر إلى الجزائر ، إقامة خمس سنوات ، لن آتي إلى سوريا في الصيف ، صيفية بفرنسا ، صيفية ببريطانيا ، صيفية بإسبانيا ، صيفية بإيطاليا ، قال لي: أرجع و أشتري محلاً لبيع التحف ، قال لي : ليس لهذه الصنعة علاقة بالتموين ، فازات كريستال ، أعمل المحل منتدى فكرياً ، مثل هافانا ، هو دارس فلسفة وأنا أسمع له ، أقسم لكم بالله الحديث يمتد لعشرين سنة قادمة ، وانتهى اللقاء ، وذهبت إلى البيت ومساء في الطريق إلى البيت قرأت نعوته ، في اليوم نفسه ، من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت ، إذا قلت أنا غداً أدفع فاتورة الهاتف ، معنى ذلك أنك لا تعرف الموت ، الموت يأتي بغتة ، كان شخصاً صار خبراً .

(وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)

كل هذه الحقائق ، كل هذه المجرات ، كل هذه الكوكب ، كل هذه الشموس ، كل هذه الحظوظ ، كل هذه المسافات تدل على إله عظيم ،

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

الآية هنا :

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)

الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري :

لذلك الله عز وجل يقول :

(مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

(سورة الأعراف)

إذا عُزي الإضلال إلى الله عز وجل فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري ، قياساً على قوله تعالى :

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف الآية : 5)

رفضوا الدين ، رفض كل شيء متعلق بالروحانيات ، بالآخرة ، الدنيا همه ، أكبر همه ، ومبلغ علمه ، رفض الدين ، إذاً هذا الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري

(مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

من بحث عن الحقيقة بعيداً عن معرفة الله عز وجل فهو ضال :

الهدى عند الله وحده ، فالذي يطلب الهدى من غير الله فهو ضال ، أي بحث عن الحقيقة بعيداً عن معرفة الله ، ومعرفة منهجه ، ومعرفة سرّ وجودك أيها الإنسان ، فالإنسان في ضلال .

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

متى تقع ؟

(قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

يوم الدينونة ، يوم المحاسبة .

(يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة المطففين)

يوم الجزاء ، يوم العقاب ، يوم أن يقتص من المظلوم للظالم ، للضعيف من القوي

(لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا)

لست مهتماً بها ،

(حَفِيٌّ)

مهتم بها ،

(قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

اقتران ركني الإيمان بالله و اليوم الآخر في القرآن الكريم :

لذلك ما من ركنين من أركان الإيمان اقترنا في القرآن كركني الإيمان بالله واليوم الآخر ، الإيمان بالله أن تعرف سرّ وجودك ، والإيمان باليوم الآخر من أجل ألا تعتدي على إنسان .

قال أعرابي للنبي الكريم : عظني ولا تطل ، قال له :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

قال : كفيت .

هذا الراعي الذي امتحنه سيدنا عبد الله بن عمر ، قال له : بعني هذه الشاة وخذ ثمنها ، قال له : ليست لي ، قال : قل لصاحبها ماتت وخذ ثمنها ، قال : ليست لي ، قال له : خذ ثمنها ، قال له : والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني فإني عنده صادق أمين ولكن أين الله .

هذا الراعي على ضعف ثقافته الإسلامية وضع يده على جوهر الدين ، في الوقت الذي تقول فيه أين الله ؟ أنت مؤمن ورب الكعبة .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(55-60): تفسير الآية 188 ، النفع والضر بيد الله وحده

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-01-02

بسم الله الرحمن الرحيم

الكاذب من ادعى معرفته بالغيب وأنه يملك للآخرين نفعاً أو ضراً :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الخامس والخمسين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الثامنة والثمانين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

أيها الأخوة ، هذه الآية لها دلالات كبيرة جداً ، ذلك أن الله يأمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يبين للناس أنه رسول هذه الأمة ، وأنه نبي هذه الأمة ، ومع أنه سيد ولد آدم ، ومع أنه سيد الأنبياء والمرسلين ، ومع أنه حبيب الحق ، وسيد الخلق ، لا يعلم الغيب ، ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً .

ماذا أراد الله من هذه الآية ؟ أي إنسان من آدم إلى يوم القيامة يدعي أنه يملك للآخرين نفعاً أو ضراً فهو كاذب ، وأي إنسان من آدم إلى يوم القيامة يدعي أنه يعلم الغيب فهو كاذب ، هذا مقام النبي عليه الصلاة والسلام ، مقام النبي وهو فوق كل المقامات ، وهو رسول فوق كل الرسل ، ومع ذلك لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فلأن لا يملك لغيره من باب أولى وهو لا يعلم الغيب .

النبي عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب و لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً :

هل تصدقون أن هذه الآية وحدها يمكن أن تنفي نفياً قاطعاً ملايين القصص التي لا أصل لها ؟ هذا الدين دين الله ، هناك مبادئ في هذا القرآن الكريم ، أي إنسان يدّعي أنه يعلم الغيب ، أي إنسان يدّعي أنه يقدم لك شيئاً ، يستطيع أن ينفعك ، أو أن يضرك ، فهو كاذب ، هذا هو أعلى مقام في بني البشر ، هناك أخطاء كبيرة جداً يقع بها الناس ، مثلاً :

إنسان يسأل شخصاً يعمل في الحقل الديني (إمام مسجد ، خطيب مسجد)سؤالاً يعطيه فتوى ، يظن هذا السائل أن هذه الفتوى تعفيه من المسؤولية ، ولو علم مقولة النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح :

((ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من أخيه فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فإنما أقطع له قطعة من النار))

[أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عمر]

لو كنت في عهد النبي عليه الصلاة والسلام ، وانتزعت من فمه الشريف فتوى منه وهو المعصوم لصالحك ، ولم تكن محقاً لا تنجو من عذاب الله .

إذاً النبي عليه الصلاة والسلام لا يملك لنا نفعاً ولا ضراً :

(وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً)

(سورة الفرقان الآية : 3)

لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، النبي عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب .

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

(سورة الأنعام)

التوحيد أن تتجه إلى الله وحده بمعية رسول الله :

النبي عليه الصلاة والسلام يخاف أن يقع في خطأ ، حينما تعرف ما معنى مقام النبوة والرسالة ، مقام الطاعة ، مقام الخضوع ، مقام الاتباع ، لا مقام أن للنبي مقام ، أن للنبي إرادة مستقلة عن إرادة الله ، ينفع ويضر ، ويعطي ، ويمنع ، لا ، هذا الدين دين التوحيد .

سيدنا الصديق من أقرب الناس لرسول الله ، من أشدهم حباً له ، من أشدهم طاعة لتوجيهاته ، لما توفي النبي عليه الصلاة والسلام ماذا قال ؟ قال : من كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، أراد أن يؤكد التوحيد ، الله وحده ينفع ويضر ، الله وحده يعلم الغيب ، الله وحده ينفع ، الله وحده يُعلي ، الله وحده يخفض ، هو المانع ، هو المعلي ، هو الخافض ، هو المعز ، هو المذل ، هو الرزاق ، التوحيد أن تتجه إلى الله وحده بمعية رسول الله .

(يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً)

(سورة الفرقان)

التوحيد أن تعبد الله وحده ، أن تعقد الأمل على الله وحده ، التوحيد أن تثق بالله وحده ، التوحيد أن تطيع الله وحده ، وأن تطيع رسوله أيضاً لأنه أمرك أن تطيع رسوله .

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر الآية : 7)

التوحيد أن توقن أن طاعة رسول الله هي عين طاعة رسول الله ، وأن طاعة الله هي عين طاعة رسول الله .

التوحيد ألا ترى مع الله أحداً :

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

(سورة التوبة الآية : 62)

بضمير المفرد ، فلذلك آية دقيقة جداً ، وآية فاصلة ترد بها مليون قصة لا أصل لها ، مليون شطحة ، مليون بدعة ، التوحيد ألا ترى مع الله أحداً ، التوحيد أن تعلم علم اليقين أنه وحده هو الرافع ، وحده هو الخافض ، وحده هو المعز ، وحده هو المذل ، وحده هو المانع ، ولكن لأن النبي عليه الصلاة والسلام معصوم ، ولأن الله سبحانه وتعالى أمرك أن تطيعه .

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

(سورة المائدة الآية : 92)

استقلالاً ، أطيعوا الله ورسوله لها معنى ، أما

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

أي أنك تطيع رسول الله لكن الذي يعطي ويمنع هو الله ، والذي يرفع ويخفض هو الله ، والذي يعز ويذل هو الله ، والذي يحيي ويميت هو الله .

قال أحد الخطباء أمام رسول الله : ما شاء الله وشئت يا رسول الله ، قال : بئس الخطيب أنت ، جعلتني لله نداً ، قل ما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن ، فقط ، بئس الخطيب أنت جعلتني لله نداً .

إعلام الله عز وجل نبيه ببعض الغيب :

الله عز وجل يبين مقام العبودية الذي كان النبي عليه الصلاة والسلام في قمة هذا المقام

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

أنا لا أملك النفع لكم ، ولا لنفسي ، لا أملك الضر لكم ولا لنفسي ، ولا أعلم الغيب ، إلا إذا أعلمني الله هذا الغيب .

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

(سورة الجن)

أحاديث قيام الساعة لا تعني أن النبي يعلم الغيب ، ولكن تعني أن الله سبحانه وتعالى أعلم نبيه ببعض عالم الغيب ، هذه عقيدة ، هذا هو التوحيد .

فلذلك هؤلاء الدجاجلة ، والمشعوذون ، والكذابون ، والذين يسحرون الناس ، ويسلبون عقولهم ، ويربطونهم بذواتهم ، أساساً ليس هناك على وجه الأرض فرقة ضالة إلا ولها هذه الخصائص ، تأليه

الأشخاص ، شيخ يعلم الغيب ! إذا كان سيد الخلق وحبيب الحق لا يعلم الغيب أنى له أن يعلم الغيب ؟ شيخ ينفع ويضر ! مستحيل ! إذا كان سيد الخلق وحبيب الحق لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فلأن لا يملك أي إنسان النفع والضر من باب أولى ، هذه العقيدة ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، أنا لا أتصور على وجه الأرض إنساناً أشد حباً لرسول الله من الصديق ، ومع ذلك الصديق موحد ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت .

التوحيد يلغي دور المشعوذين والمتسكعين الذين يبتزون أموال الناس بالباطل :

هذا التوحيد يلغي دور المشعوذين ، والدجاجلة ، والمتسكعين ، الذين يبتزون أموال الناس بالباطل ، فضلاً عن السحرة والمنجمين وما إلى ذلك ، أنت مؤمن ، الله وحده يعلم ، الله وحده قادر ، وأنت ذائب في محبة رسول الله ، أحبه ما شئت ، قدره ما شئت ، تمثل أخلاقه ما شئت ، بالغ في محبته ما شئت ، الباب مفتوح هنا ، أما أن تعتقد أن له إرادة مستقلة عن إرادة الله ؟ ينفع ويضر ؟ مستحيل ! .

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

طبعاً من باب أولى فلأن لا أملك لكم نفعاً ولا ضراً من باب أولى .

مثل للتوضيح : يقول لي شخص : أرجوك أن تؤمن لي عملاً لابني ، أقول له : هل لديك فرصة عمل لابني أنا ؟ إذا كنت أنا لا أملك لنفسي أن أؤمن عملاً لابني ، من باب أني لا أستطيع أن أؤمن عملاً لابنك ، طبيعي جداً .

هذا هو مقام النبوة ، مقام العبودية لله .

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ)

(سورة الجن الآية : 19)

وحينما بلغ :

(سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى)

(سورة النجم)

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)

(سورة النجم)

هذه نقطة دقيقة جداً ، هذه الآية فاصلة ، هذه الآية مركزية ، هذه الآية بإمكانك أن تعتمد عليها ، لنفي ملايين القصص الباطلة التي لا أصل لها .

العاقل من ابتعد عن المشكلات التي تسبب شرخاً بين الفئات الإسلامية :

شيء آخر ، الشيء بالشيء يذكر :

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة البقرة)

كن واقعياً ، هناك من ينبش في التاريخ لعداوة قديمة بين فئتين ، ويجلبها ، ويثيرها الآن ، هؤلاء الآن سبقوا أمرهم إلى الله ،

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ)

وفر وقتك

(وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

هذا الذي يستورد من التاريخ المشكلات ويثيرها الآن لإيقاع شرخ بين الفئات الإسلامية ، آن الأوان أن ننتهي من هذا ، هذا التاريخ دعه للاختصاصيين ، أما أن تقحم نفسك في رواية تاريخية لم تثبت ، ولم تقع .

المشكلة الكبرى أن أكبر كتاب تاريخ بين أيدينا تاريخ الطبري ، يقول المؤلف في مقدمته : أنا أدرجت في هذا الكتاب كل ما وصل إلى سمعي من حق أو باطل ، من رواية صحيحة أو غير صحيحة ، وأيها القارئ محص أنت ، هذه المقدمة يجب أن تكتب في كل صفحة في هذا الكتاب ، أعداء الدين ينقبون في هذا الكتاب ، ويأتون بروايات غير معقولة ، هو المؤلف صرح بهذا .

ولم يتح بالمناسبة للتاريخ الإسلامي رجال ثقات محققون كما أتيح لعلم الحديث ، فلذلك أكثر أعداء الدين يأتون بروايات باطلة لا أصل لها ، من وضع الزنادقة في التاريخ الإسلامي ليشوهوا صورة الإسلام في عصر ازدهاره .

على كل إنسان ألا يقبل أية رواية تتناقض مع الفطرة والعقل و كمال الصحابة :

يجب أن تسأل من لم يأخذ العلم عن الرجال فهو ينتقل من محال إلى محال ، لا تستطيع أيها الطالب طالب العلم لمعلوماتك المحدودة أن تكتفي بالكتاب ، في الكتاب الغث والثمين ، في الكتاب الحق والباطل ، أي كتاب مؤلف فيه صح وفيه خطأ ، فيه غث وفيه ثمين ، فيه ثغرات ، فهؤلاء أعداء الدين يتصيدون هذه الثغرات ، ويجمعونها ، ويقولون هذا هو الدين ، غير صحيح هذا الكلام ، اعتقد اعتقاداً جازماً أنه لم يتح للتاريخ الإسلامي رجال ثقات ، علماء كبار دققوا ومحصوا في رواياتهم كما أتيح للحديث الشريف ، إذاً لا تقبل أية رواية ، تتناقض مع الفطرة ، ومع العقل ، ومع كمال الصحابة الكرام.

لماذا عزل سيدنا عمر سيدنا خالد ؟ قيل : هناك عداوات في الجاهلية قديمة فلما تملك السلطة شفى حقده من هذا الصحابي الجليل فعزله ، هكذا بعض الروايات ، اركلها بقدمك ، يا أمير المؤمنين لِمَ عزلتني (سيدنا خالد)؟ قال له : والله إني أحبك ، قال له : لمَ عزلتني ؟ قال له : والله إني أحبك ، قال له: لمَ عزلتني ؟ قال له : والله ما عزلتك يا بن الوليد إلا مخافة أن يفتتن الناس بك ، لكثرة ما أبليت في سبيل الله ، حفاظاً على التوحيد عزلتك ، قال الناس خالد أية معركة يقودها ينتصر ، أراد عملاق الإسلام عمر أن يبين للأمة أن الناصر هو الله ، وأن سيدنا خالد على علو مقامه عبد لله ، فعزله والنصر استمر .

التاريخ يحتاج إلى تمحيص و تدقيق و مراجعة كثيرة لمعظم الروايات التاريخية :

لا تستطيع أن تفهم التاريخ إلا إذا كنت في مستوى أبطاله ، بعضهم من يفسر أنه عزله خوفاً منه ، يعمل عليه انقلاب ، إياك أن تفهم التاريخ تاريخ الصحابة بمنطق العصر ، حسن الظن بالله ، وبأنبياء الله ، وبأصحاب رسول الله من الإيمان ، نحتاج إلى تمحيص كثير ، نحتاج إلى مراجعة كثيرة لمعظم الروايات التاريخية ، وحسبكم أن أكبر مؤلف كتاب تاريخ الطبري يقول : أنا أدرجت في هذا الكتاب الغث والثمين ، والصحيح وغير الصحيح ، وأيها القارئ محص أنت ، كان هناك ثقة بطلاب العلم ، جمع لك في هذا الكتاب كل ما وقعت يده عليه ، أما الآن يقول لك بالطبري موجودة هذه ؟ اقرأ مقدمة الطبري . لذلك :

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ)

والله هناك آلاف القصص لا أصل لها إطلاقاً ، من وضع الزنادقة .

الإنسان حينما يكتفي بالنقل من دون تدقيق ، من دون تمحيص ، من دون بحث ، من دون درس ، من دون أن تأخذ العلم على أيدي علماء كبار لن تستفيد شيئاً .

أيضاً ورد في بعض الكتب أن امرأة وضيئة حسناء صلت بين الصحابة ، فصلى بعضهم وراءها ، ليرى محاسنها أثناء ركوعها وسجودها ، وبعضهم صلى أمامها ، فنزل قوله تعالى :

(وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)

(سورة الحجر)

هذه أخلاق صحابة هذه ؟ هل يجوز أن تصلي امرأة بين الصحابة ؟ إذا صلت امرأة في الصف فالصلاة باطلة ، ممنوع أن تحاذي امرأة في الصلاة ، فكيف أن تصلي وراءها ؟ وصفوف النساء في آخر المسجد دائماً .

يعني حينما نصل إلى مثل هذه الروايات نرى الصحابة أشخاصاً عاديين جداً ، وأقل من عاديين .

رواية ثانية : أراد سيدنا علي أن يخطب فتاة رفع ثوبها إلى الأعلى ، معقول ؟! هل يجرؤ خطيب الآن أن يفعلها ؟ أما أبيها ، قالت له : لولا أنك أمير المؤمنين لسملت عينيك .

ما هذه الروايات يا أخوان ؟ صدقوا والله الذي لا إله إلا هو الصحابة الكرام في مستوى رائع جداً ، والله المؤمن العادي الآن في مستوى رفيع .

الله عز وجل عطاؤه نعمة وأخذه نعمة :

أيها الأخوة الكرام ،

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ)

إذا الله عز وجل مكني من شيء وانتفعت ، هذا من فضل الله عز وجل ، وأحياناً الله عز وجل لحكمة بالغة يمنعني من شيء ، أنا أتوهم ذلك ضر ، هو في الحقيقة منع ، منع رحمة بنا ، إن الله ليحمي صفيه من الدنيا ، كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام ، أحياناً الله عز وجل يعطيني ، فهذا الخير من الله ، الله مكني منه ، وأحياناً الله عز وجل يمنعني من شيء ، أما الكلمة الرائعة ربما أعطاك فمنعك ، وربما منعك فأعطاك ، وإذا كشفت لك حكمة المنع عاد المنع عين العطاء ، فالمؤمن كما قال عليه الصلاة والسلام :

((عَجَبا لأمر المؤمن ! إنَّ أمْرَه كُلَّه له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابتْهُ سَرَّاءُ شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابتْهُ ضرَّاءُ صبَر ، فكان خيراً له))

[أخرجه مسلم عن صهيب الرومي]

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ)

أو ما اقتضت حكمته من ضر ، وهذا الضر في ظاهره ضر ، أما هو نعمة باطنة ، نعمة باطنة من نعم الله عز وجل ، عطاؤه نعمة وأخذه نعمة .

(إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ)

مثلاً يقول لك عرضوا عليّ أرضاً (25 دنم) بخمسة و عشرين ألف ليرة ، اليوم ثمن الدنم خمسة ملايين ، لو أن هذا الذي عُرض عليه الأرض يعلم الغيب يوافق على الشراء فوراً ، لا أحد يعلم الغيب، التجار لهم كلمة لطيفة يقول لك : تاجر ومنجم لا يوجد ، لو أنك تعلم ما سيكون بعد حين ، الذي اشترى فرضاً بمئة مليون حديد ، الطن بتسعة و ستين ألفاً على أمل أن يبيعه بمئة ألف ، اليوم بستة و عشرين ألفاً طن الحديد ، لو كان يعلم الغيب لما فعل ، هذا خسر أربعة أخماس ماله .

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)

إنسان يموت أثناء السفر لا يسافر ، يعني للتعبير عن حقيقة التوحيد .

يروى أن فرعون رأى أن طفلاً من بني إسرائيل سيقضي على ملكه ، فأمر بقتل أبناء بني إسرائيل جميعاً .

(يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ)

(سورة القصص الآية : 4)

أما الطفل الذي سيقضي على ملكه رباه في قصره ، أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد .

مهمة النبي عليه الصلاة والسلام نذير و بشير و الإنسان مخير :

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

الآن الله عز وجل حدد لك مهمة النبي نذير وبشير .

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

(سورة القصص الآية : 56)

الإنسان مخير .

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

(سورة البقرة الآية : 272)

لست مسؤولاً إن لم يؤمنوا كما أنك لا تستطيع أن تهديهم ،

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

أي أنت لست مسؤولاً إن لم يهتدوا ،

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

أنت لا تستطيع هداية عمك قل يا عم لا إله إلا الله ، أبداً ما قالها

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

(سورة المسد)

عمه ،

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة الشورى)

لا ينتفع من سنة النبي إلا من أراد الآخرة و سعى لها :

أيها الأخوة ،

(إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ)

يعني ما من قضية مهما دقت تقربكم من الله إلا بينتها لكم ، وما من قضية مهما دقت تبعدكم عن الله إلا بينتها لكم ، هذه مهمتي ، أما هناك قضايا ، ملايين القضايا لا تقرب ولا تبعد ، هل يعقل أن يعرف النبي الجهاز الهضمي للضفدع مثلاً ؟ ليس له علاقة فيها ، هناك من يضم علماً مطلقاً ، العلم المطلق علم الله عز وجل ، أما النبي الكريم أي جزئية مهما دقت تقرب من الله يبينها ، أية جزئية مهما دقت تبعد عن الله يبينها .

(إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ)

لكن لمن ؟

(لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة البقرة)

لمن أراد الإيمان ، أما الذي لم يرد الإيمان لا يصغي إلى أقوال النبي الكريم .

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً)

(سورة الأحزاب الآية : 21)

إنسان ليس له علاقة بالعلم إطلاقاً ، ولا طلب العلم ، ولا قرأ ، ولا كتب ، لو وقف أمام مكتبة هل تعنيه الكتب ؟ إطلاقاً ، لا يقف أمامها أصلاً ، لكن طالب دكتوراه مرّ أمام مكتبة ، فيها كتب متعلقة باختصاصه ، يقف ، يدخل ، الكتاب الفلاني ، الكتاب الفلاني ، لا ينتفع من سنة النبي إلا من أراد الآخرة .

من أراد الإيمان بالله عزّ وجل كل شيء في الكون يدله عليه :

لذلك

(إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

(سورة البقرة)

يؤمنون بالغيب ، فلذلك هناك فكرة دقيقة جداً ، هذه الفكرة أن الله عز وجل يقول :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

عجيب ! أنا أتصور أنتم بهذه الآية تؤمنون ،

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

كأنه فيما يبدو القضية معكوسة ، ليست معكوسة ، هذا هو الأصل ، الذي اتخذ قراراً أن يؤمن أي شيء يدله على الله ، والذي اتخذ قراراً ألا يؤمن لو كان يعمل في مرصد فلكي يرى المجرات بعينيه ، أو في مجهر إلكتروني يرى الخلية بعينيه ، لا يؤمن .

حينما تتخذ قراراً أن تؤمن كل شيء في الكون يدلك على الله ، وحينما تتخذ قراراً داخلياً بعدم الإيمان لو رأيت الآيات صارخات ، واضحات ، جليات لا تؤمن ، يعني الذي أراد الإيمان يشبه آلة تصوير ، فيها فيلم ، فكل هذه المناظر طبعت على هذا الفيلم ، أما الذي لم يرد الإيمان يشبه آلة تصوير لكن بلا فيلم ، كل هذه اللقطات لأنه ما أراد الإيمان لا تنطبع على قلبه ، هذا السؤال المشهور أن هؤلاء علماء الغرب الذين تفوقوا في العلوم لماذا هم غير مؤمنين ؟ إنهم ما أراد الإيمان أصلاً ، أرادوا الشهادة ، أرادوا الشهرة ، أرادوا التألق الاجتماعي ، أرادوا الثروة الطائلة ، وقد حصلوها ، أما هذا العلم إن أردته لله عندئذٍ تكشف لك الحقائق ، حقائق الدين الدقيقة .

خيار الإنسان مع الإيمان ليس خيار قبول أو رفض بل هو خيار وقت :

كل الذين يأتيهم ملك الموت يرون الحقيقة التي جاء بها الأنبياء ، أكبر دليل على ذلك أن فرعون عندما بدأ يغرق آمن بالذي جاء به سيدنا موسى ، لكنه آمن بعد فوات الأوان ، الآية الكريمة :

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق)

جميع الحقائق التي جاء بها الأنبياء الذين يأتيهم ملك الموت ، يرونها ناصعة جلية واضحة ، ولكن بعد فوات الأوان .

لذلك أيها الأخوة ، خيارك مع الإيمان ليس خيار قبول أو رفض ، بل هو خيار وقت لماذا ؟ إما أن تؤمن في الوقت المناسب ، فتنتفع بإيمانك ، أو أن تؤمن بعد فوات الوقت المناسب ولن تنتفع بهذا الإيمان .

(لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً)

(سورة الأنعام الآية : 158)

فأنت خيارك مع الإيمان خيار وقت ، إما أن تؤمن في الوقت المناسب ، وإما أن تؤمن بعد فوات الأوان ، الآية الكريمة دقيقة جداً ، وبإمكانك أن تعتمدها في كل قصة وردت في الكتب تتناقض مع كمال الله ، تتناقض مع رحمته ، تتناقض مع علمه ، تتناقض مع كمال الأنبياء ، تتناقض مع كمال سيد الأنبياء والمرسلين ، تتناقض مع الصحابة الكرام ، هذه القصص من وضع الزنادقة .

على الإنسان ألا يقبل شيئاً في الدين من دون دليل من كتاب الله أو سنة رسوله :

قال بعض واضعي الحديث : وضعت فيكم مئة ألف حديث ، حرمت فيها الحلال وحللت فيها الحرام ، من أجل التيئيس .

كل الناس هلكى إلا العالمون ، والعالمون هلكى إلا العاملون ، والعاملون هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم .

حديث للتيئيس وضعه الزنادقة ، هذا الدين علم .

((إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم))

[مسلم عن ابن سيرين]

((ابن عمر ، دينك دِينك ، إنه لحمك ودمك ، خذ عن الذين استقاموا ، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[كنز العمال عن ابن عمر]

لا تقبل شيئاً في الدين من دون دليل من كتاب الله ، أو مما صحّ من سنة رسول الله ولا ترفض شيئاً في الدين إذا كان معه دليل من كتاب الله ، ومما صحّ من كتاب رسول الله ، أما أن تقرأ أي كتاب ، أن تستمع إلى أي إنسان ، أقول لك كما قال النبي الكريم لابن عمر :

((ابن عمر ، دينك دِينك ، إنه لحمك ودمك ، خذ عن الذين استقاموا ـ استقاموا في عقيدتهم ـ ولا تأخذ عن الذين مالوا ـ مالوا منحرفين ـ))

[كنز العمال عن ابن عمر]

هذه الآية يمكن أن تنفي بها مليون قصة باطلة ، فيها باطل ، فيها انحراف ، فيها موازين خاطئة .

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً : هذه الآية ميزان أي إنسان على وجه الأرض :

لذلك أقول لكم أيها الأخوة ، لأن تخطئ في الوزن أفضل ألف مرة من أن تخطئ في الميزان ، الخطأ في الميزان لا يصحح ، إذا الميزان غلط هذه مشكلة ، أما الخطأ في الوزن لا يتكرر ، يعني ممكن ميزان دقيق جداً لكن ما انتبه البائع ظن الكيلو كيلو و نصف ، هذا خطأ في الوزن لا يتكرر ، أما إذا أصل الميزان خطأ يعني في كفة فيها مئة غرام زائد ، لو استخدمنا مليون مرة المليون مرة غير

صحيح، لأن تخطئ في الوزن أفضل ألف مرة من أن تخطئ في الميزان .

هذه الآية ميزان أي إنسان على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة مهما لمع نجمه إذا أوهمك أنه يعلم الغيب قل له أنت كذاب أشر ، لأن هذا لم ينله رسول الله ، قال : لا أعلم الغيب .

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ)

أي إنسان يقول لك : أنا أملك أن أنفعك أو أن أضرك ، قل له : الذي يملك النفع والضر هو الله ، الذي يملك الموت والحياة هو الله ، الذي يملك الرزق هو الله ، هذه الآية أصل في التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، هذه الآية يمكن أن تكون آية مركزية ، آية فاصلة ، آية يمكن أن تنفي بها مليون قصة .

والآية التي ذكرتها من باب الشيء بالشيء يذكر :

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

أي رواية تاريخية لقوم مضوا ، وقعت أو لم تقع هذا ليس من شأننا ، أنا معي كتاب ، معي منهج ، معي منهج تفصيلي ، عليّ أن أعرف الله وأن أتبع هذا المنهج وانتهى الأمر ، لا تقحم قضية تاريخية تستوردها من التاريخ ، وتسهم في شقّ صفوف المسلمين ، التاريخ دعه لخبرائه ،

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

هناك من المسلمين من يحرص على الغوص في أعماق التاريخ ليقرأه قراءة مغلوطة حتى يقيم شرخاً في العالم الإسلامي ، هذا خطأ كبير .

هاتان الآيتان تنفي بهما ملايين القصص التي ربما أعاقت الطريق إلى الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(56-60): تفسير الآيات 189 - 191، التوحيد نقيض الشرك

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 09-01-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

الشرك نوعان ؛ خفي و جلي :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس السادس والخمسين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية التاسعة والثمانين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آَتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آَتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آَتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

الحقيقة الأولى في هذه الآية هي حقيقة التوحيد ، والتوحيد نقيض الشرك ، والشرك نوعان ، شرك جلي كأن ينحت قوم صنماً ، ويطلقون عليه اسماً ، ويضعونه في معابدهم ، ويعبدونه من دون الله هذا الشرك شرك جلي ، والله سبحانه وتعالى تفضل على المؤمنين وانتهت حياتهم من الشرك الجلي . في العالم الإسلامي هذا ليس وارداً إطلاقاً ، ولكن الشرك الخطير هو الشرك الخفي .

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

من وقع في شرك خفي أدبه الله عز وجل حتى يبقى موحداً :

الشرك الخفي قلّ ما ينجو منه المؤمنون ، حتى إن الصحابة الكرام في حنين وقعوا بنوع خفيف جداً من الشرك الخفي ، حينما قالوا :

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس]

لمجرد أن تعتمد على ذاتك ، وأن تنسى الله ، لمجرد أن تعتمد على ذكائك ، أو على خبرتك ، أو على نسبك ، أو على مالك ، وقعت في شرك خفي ، والله عز وجل يراك ، فإذا وقع الإنسان في شرك خفي أدبه الله عز وجل ، أدبه حتى يبقى موحداً ، التوحيد هو الدين ، أرأيت إلى الدين الإسلامي الذي هو أصل الأديان كلها ؟ قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

الرسالات السماوية جمعت في هذه الآية :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

فنحن في هذه الآية حديثنا عن الشرك الخفي ، قد يعتمد الإنسان على ماله ، كيف يؤدب ؟ يؤدب بمصيبة لا يحلها المال .

مرة شخص أنا أظنه صالحاً ، ولا أزكي على الله أحداً ، قال في مجلس : الدراهم مراهم تحل بها جميع المشكلات ، هو من أهل اليسار ، فابتلي بمشكلة أودعته في المنفردة ستين يوماً ، تفضل حلها .

التوحيد أن تعتمد على الله و تخلص الوجهة له :

حينما تعتمد على مالك ، أو على نسبك ، أو على أهلك ، أو على أبيك ، أو على قوي ، أو على صديق، أو على ذكاء ، أو على عقل ، التوحيد أن تعتمد على الله ، التوحيد أن ترى أن الله وحده هو الرافع ، وهو الخافض ، وهو المعطي ، وهو المانع ، وهو الضار ، وهو النافع ، وهو المعز ، وهو المذل ، أن تخلص الوجهة إلى الله ، وأنا أستخدم هذا المثل لأنه مناسب جداً لشرح هذه الآية .

بلدنا الطيب عاصمته دمشق ، وهناك ثاني أكبر مدينة بعدها ألا و هي حلب ، وهناك قطار بين دمشق وحلب ، إنسان له مبلغ كبير في حلب وقد وعد أن يقبضه مثلاً يوم الاثنين الساعة الحادية عشرة ، يوجد قطار من دمشق إلى حلب ، يصل الساعة العاشرة ، قطع تذكرة من الدرجة الأولى ، وأخطأ وجلس في عربة من الدرجة الثالثة ، أليس هذا خطأ ؟ خطأ ، دفع قيمة الدرجة الأولى وجلس في الدرجة الثالثة ، لكن القطار متجه إلى حلب ، أخطأ خطأ ثانياً ، جلس مع ركاب شباب متفلتون أزعجوه إزعاجاً شديداً ، هذا خطأ ثانٍ ، لكن القطار متوجه إلى حلب ، جلس عكس اتجاه القطار أصيب بالدوار هذا خطأ ثالث ، لكن القطار متجه إلى حلب ، الآن تلوى من الجوع ولا يعلم أن في القطار عربة مطعم ، هذا خطأ رابع، لكن القطار متجه إلى حلب ، أما في خطأ لا يغفر أن تركب خطأ قطار درعا المتجه نحو الجنوب، هذا القطار لا يوجد معه مبلغ تقبضه ، القطار مريح جداً ، ودرجة أولى ، ولوحدك في الغرفة، مقاعد وثيرة ، لكن انتهى كل شيء ، تعطلت الغاية ، ألغي الهدف .

من أشرك بالله عز وجل انتهى و أصبح طريق المغفرة عنده مسدوداً :

الإنسان مع التوحيد قد يخطئ ، لكن الله يغفر له ، أما إذا أشرك انتهى عند الله ، لذلك :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)

(سورة النساء الآية : 48)

طريق المغفرة أصبح مسدوداً ، لأنك توجهت إلى غير الله ، اعتمدت على مالك ، أو على وجاهتك ، أو على أسرتك ، أو على ذكائك ، صحابة رسول الله هم قمم البشر ، حينما وقعوا في الشرك الخفي أدبهم ربهم وفيهم رسول الله .

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

التولي و التخلي :

لذلك درس ينبغي ألا ينسى ، درس التوحيد ، تقول الله ، يتولاك الله جلّ جلاله ، يتولاك بالتوفيق ، يتولاك بالحفظ ، يتولاك بالتأييد ، يتولاك بالنصر ، يتولاك بالقول السديد ، يتولاك بالفكر الرشيد ، يتولاك بالمنطق الصحيح ، يتولاك فيهبك مكانة ، يتولاك فيهبك حكمة ، يتولاك فيهبك أمناً ، يتولاك فيهبك عطاء ، يتولاك فيهبك سعادة ، يتولاك فيهبك سكينة .

أما إذا قلت أنا ونسيت الله عز وجل ، قال له : يا رب ، عنده امتحانان هندسة وجبر قال له : أنا يا رب جيد بالجبر ، فالجبر عليّ والهندسة عليك ، فلم ينجح بالهندسة ، ولم ينجح بالجبر ، قال له العام القادم : يا رب الجبر والهندسة عليك .

لا تقل أنا ، لا تقل عندي خبرات متراكمة ، حينما يقع الإنسان في الشرك الخفي يرتكب حماقة لا يرتكبها الصغار .

قال أبو حنيفة النعمان لطفل يمشي في الطريق أمام حفرة: إياك يا غلام أن تقع ، فقال : بل إياك يا أمام أن تقع ، إني أن وقعت وقعت وحدي ، وإنك أنت إذا سقطت سقط معك العالم .

حينما تعتمد على ذكائك ، أو على خبرتك ، أو على شهادتك ، أو على أسرتك ، أو على علمك ، تعلم واجتهد ، وقل يا رب ، الحل الأمثل أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ، وأن تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء .

الحل الأمثل أن نأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء وأن تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء :

سهل جداً أن تكون متطرفاً ، سهل جداً أن تكون كالعالم الغربي يأخذون بالأسباب أخذاً رائعاً ويعتمدون عليها ، وينسون ربهم ، ويؤلهونها ، وسهل جداً أن تكون كأهل المشرق لا يأخذون بها إطلاقاً ، وقعوا

بالمعصية ، أما البطولة أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء عندك سفر ، راجع المركبة ، العجلات ، المكبح ، كل دقائق العجلة ، الأجهزة ، العدادات ، الوقود ، تراجع كل شيء ، ثم تتجه إلى الله ثم تقول : يا رب أنت المُسلّم ، أنت الحافظ ، نحن المسلمون في أمس الحاجة إلى هذا الدرس .

ابنه مريض يبحث عن أمهر طبيب ، ينفذ تعليمات الطبيب بحذافيرها ، يعطيه الدواء في الوقت المناسب ، ومن أعماق أعماقه يقول : يا رب أنت الشافي ، أخذت بالأسباب .

النبي عليه الصلاة والسلام كان من الممكن في الهجرة أن ينتقل على البراق ، بلمح البصر من مكة إلى المدينة ، لكن أراد أن يعلمنا كيف نحيا ، اتجه نحو الساحل ، ليضلل المطاردين ، وقبع في غار ثور أياماً ثلاثة ، كي يخف الطلب عليه ، وهيأ من يأتيه بالأخبار ، وهيأ من يأتيه بالزاد والطعام ، وهيأ من يمحو الآثار ، استأجر دليلاً غلب فيه الخبرة على الولاء ، ولم يدع لثغرة احتمالاً ، أغلق كل الثغرات ، فلما وصلوا إليه قال أبو بكر : يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا ، الآن جاء دور التوكل على الله ، أخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ، وقال :

((يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك]

الإيمان بالله شرط غير كاف للنصر فعلينا ربطه بإعداد العدة المتاحة :

الله عز وجل قال :

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم)

أنت مؤمن ورب الكعبة ، مؤمن بالله موجوداً ، وواحداً ، وكاملاً ، مؤمن بأنه خالق ورب ، ومسير ، مؤمن بأنه صاحب الأسماء الحسنى ، والصفات الفضلى ، لا يكفي ، هذا حال المسلمين ، يجب أن تعد لهم ، فوجئنا أعدوا لهم الصواريخ ، والمدافع المضادة للدروع ، والألغام حتى قال أحد رجالاتهم : يا رب أعددنا ما نستطيع ، بقي أن تنصرنا ، أعدوا لهم ، هم أعدوا لنا من مئتي عام ، أعدوا لنا أنواعاً من الأسلحة ، ساعة قنبلة عنقودية ، تأتي كالمظلة بدائرة قطرها 150 م ، كل من في هذه الدائرة يصاب ، قنبلة انشطارية ، قنبلة حارقة وخارقة ، قنبلة تركب أشعة الليزر ، قنبلة تلغي الاتصالات ، قنبلة تلغي الطاقات ، قنبلة تفني البشر وتدع الحجر ألقيت في بغداد قبل سقوطها ، أعدوا أنواعاً من القنابل ، أقمار صناعية ، قصف خارجي ونحن نائمون ، نائمون في ضوء الشمس ، وهم يعملون من مئتي عام في الظلام ، والذي يعمل في الظلام يغلب من ينام في ضوء الشمس ، إذا كان الوحي شمساً نحن نائمون

في ضوء الشمس ، سوقوا لباطلهم أروع تسويق ، تسمع كلمات رنانة الحرية ، ديمقراطية ، حقوق إنسان ، حقوق حيوان .

قتل امرئ في بلدة جريمة لا تغتفر وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر

* * *

أعدوا لنا ونحن نائمون ، منشغلون ببعضنا بعضاً ، الذي أعدوه لنا في المئتي عام السابقة تظهر آثاره اليوم ، أخطاء متراكمة ، ونرجو الله أن نصحو من غفلتنا ، وأن نعود إلى رشدنا ، وأن نتبع منهج ربنا، ليس مسموحاً الآن أن تنطق بكلمة خلافية ، وضعنا جميعاً في سلة واحدة ، وينبغي أن نقف جميعاً في خندق واحد .

الشرك الخفي أخطر شيء يصيب المسلمين بالشلل :

أيها الأخوة الكرام ، أخطر شيء يصيب المسلمين بالشلل الشرك الخفي ، أن نظن أن زيداً أو عبيداً ينصرنا .

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية : 119)

بأي موضوع صغير جداً كان لهذا الذي انتخب رأي فيه إلا بهذا الموضوع ، سكت

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

الحل عند الله عز وجل ، والله عز وجل ممكن فئة قليلة جائعة ، محاصرة ، معذبة ، أن تقف في وجه أعتى جيش في المنطقة ، أليس كذلك ؟ اليوم هو الرابع عشر ، ولم يستطع جيش العدو أن يحقق هدفاً واحداً ، أما هو جيش جبان قتل أطفال ونساء فقط .

لذلك هذا الذي حدث أنا أسميه جرعة منعشة ، الأمر بيد الله عز وجل ، كن مع الله فأنت أقوى الأقوياء، كن مع الله ، نحتاج إلى تجديد إيمان ، إلى صلح مع الله ، إلى بيت مسلم فيه تعاون ، ما سمعت كلمة لا تليق بالله عز وجل ، سبعة أولاد ماتوا ، لك الحمد يا رب ، الحمد لله إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ .

أيها الأخوة ، أنا أرى أن هذا درساً بليغاً لنا ، درس في التوحيد ، هذا الجيش هزم سبعة جيوش بست ساعات ، والآن مع فئة مؤمنة ، اليوم الرابع عشر ، ما تمكن من تحقيق شيء ، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ويا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟.

النصر من عند الله و ثمنه نصر دينه :

أيها الأخوة ، درسنا اليوم درس توحيد ، ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، الأمر بيد الله ، دقق :

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية : 126)

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية : 160)

ثمن النصر :

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

(سورة محمد الآية : 7)

انصر دينه ، ثمن هذا النصر :

((هل تُنصرَون وتُرزَقون إلا بضعفائكم ؟))

[أخرجه البخاري والنسائي عن سعد بن أبي وقاص]

أزل المنكرات ، أزل الظلم ، أطعم الجائع ، اكسُ العاري ، علّم الجاهل ، عالج المريض ، انتصر للمظلوم ، إذا نصرت من هو أضعف منك فالله عز وجل يكافئك فينصرك على من هو أقوى منك .

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

(سورة الأنفال الآية : 60)

ما كلفك ربنا جل جلاله أن تعد لهم القوة المكافئة ، هذا فوق طاقتنا ، إنما أمرك أن تعد العدة المستطاعة فقط .

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

(سورة الأنفال الآية : 60)

النفوس جبلت على حبّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها :

فيا أيها الأخوة ، درسنا اليوم درس توحيد ، لأن هذه الآية :

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

أينما سافرت لي كلمة أرددها : الإنسان هو الإنسان ، أين ما سافرت ، شرقاً وغرباً ، وشمالاً ، وجنوباً، الإنسان هو الإنسان ، خصائصه واحدة .

((يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم ، فإن النفوس جبلت على حبّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها))

[ورد في الأثر]

هذه الفطرة ،

(خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

نحن جميعاً نحب الكمال ، ونحب الجمال ، ونحب النوال ، والله هو أصل الكمال ، وأصل الجمال ، وأصل النوال ، و الإنسان فطر على حبّ وجوده ، وعلى حبّ سلامة وجوده ، وعلى حبّ كمال وجوده، وعلى حبّ استمرار وجوده.

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

أي إنسان يمكن أن تستعبده بالبر ، بالإحسان ، بالبر يستعبد الحر .

((يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم ، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها))

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

الذي يعادي الدين لو رأى مسلماً صادقاً ، مؤمناً ، عفيفاً ، رحيماً ، متواضعاً ، عالماً ، حكيماً ، يقبل الدين الإسلامي .

تكلمت قبل قليل : هم عندهم أسوأ بضاعة ، لكنهم سوقوها أروع تسويق ، وعندنا أفضل بضاعة ، وكنا أسوأ مسوقين لها ، هذا الإنسان الغربي ، لا يمكن أن يقرأ تفسير القرطبي ولا فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، يرى الإسلام من خلال مسلم يعيش معه ، فإذا أدلى هذا المسلم بتصريح كاذب لم يسقط هذا المسلم ، سقط عنده الإسلام ، هذه المشكلة .

والله الذي لا إله إلا هو لو أن مسلمي الجاليات في العالم الغربي طبقوا دينهم فقط لكان موقف الغرب من المسلمين غير هذا الموقف .

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

مرة رجل من أمريكا هداه الله إلى الإسلام وحج بيت الله الحرام ، هو في مِنى أحيان تعقد منتديات ، ألقى كلمة قال : أنا أنتمي إلى أقوى دولة في العالم ، فإذا أقنعتمونا بإسلامكم كانت قوتنا لكم .

الناس رجلان لا ثالث لهما :

أيها الأخوة ، الشعوب واحدة ، هذه تقسيمات ما أنزل الله بها من سلطان .

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

(سورة الليل)

يعني الناس رجلان ، إنسان عرف الله ، فانضبط بمنهجه ، وأحسن إلى خلقه ، فسلم وسعد في الدنيا والآخرة ، وإنسان غفل عن الله ، وتفلت من منهجه ، وأساء إلى خلقه ، فشقي وهلك في الدنيا والآخرة، أين ما ذهبت ، أين ما سافرت الإنسان هو الإنسان ، الأب هو الأب ، الأم هي الأم ، الغني هو الغني ، الفقير هو الفقير .

التخلق بأخلاق الصحابة الكرام أساس انتشار الإسلام في العالم :

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

أنا أقول لكم : لو عندك موظف ، وهو يعادي الدين أشد العداء ، لو رآك صادقاً ، أميناً ، عفيفاً ، منصفاً ، رحيماً ، لأحب دينك ، المشكلة أن عالماً يقول : يستطيع المسلمون أن ينشروا دينهم بالسرعة التي انتشر بها الإسلام سابقاً بعدة عقود من الزمن ، الإسلام وصل إلى الصين ، وإلى مشارف باريس ، يستطيع المسلمون أن ينشروا دينهم بالسرعة التي انتشر بها من قبل بشرط واحد أن يتخلقوا بأخلاق الصحابة .

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم)

أقسم لكم بالله هذا الذي يعادي المسلمين ، يفعل ما يفعل ، لو جُمع بمسلم صادق لأخذ فكرة أخرى عن الدين .

حدثني أخ قال لي : كنت في أمريكا بمسجد ، رجل هيئته من وجهاء البلد فسأله ، فإذا هو أدميرال في البحرية ، برتبة عالية جداً متقاعد ، كان بمهمة في الخليج بحاملة طائرات ، سكن إلى جانبه رجل مسلم مثقف ثقافة عالية ، أقنعه بالإسلام ، فأسلم ، ماذا يفعل بالجامع ؟ ينظف المسجد ، الطرف الآخر ليس معقداً ، يحتاج إلى مسلم واعٍ ، مسلم صادق أمين .

الطرف الآخر يحتاج إلى مسلم واع صادق و أمين حتى يتبع ديننا :

بإمكانك أن تكون أكبر داعية وأنت صامت ، صدقك دعوة ، أمانتك دعوة ، إتقانك دعوة ، تواضعك دعوة ، إنصافك دعوة ، هل تحبون قصة تكمن بها مشكلات المسلمين ، رويتها ألف مرة :

إمام مسجد بلندن نُقل لظاهر لندن ، اضطر أن يركب مركبة كل يوم مع السائق نفسه يصعد المركبة ، أعطى السائق ورقة نقدية كبيرة ، ردّ له التتمة ، جلس في المقعد وعد التتمة فإذا هي تزيد عشرين بنساً عما يستحق ، هو إمام مسجد قال : لابدّ من ردّ الزيادة حينما أنزل ، قال : إنها شركة عملاقة(جاء

الشيطان)ودخلها فلكي ، وهذا المبلغ يسير ، وأنا بحاجة إليه ، لا عليّ أن آخذه ، الذي حصل لما أراد أن يغادر المركبة دون أن يشعر مدّ يده وأعطى السائق عشرين بنساً ، ابتسم السائق قال له : ألست إمام هذا المسجد ؟ قال : بلى ، قال : والله أردت أن آتي إليك قبل يومين لأتعبد الله عندك ، ولكنني أردت أن أمتحنك قبل أن آتي إليك ، وقع هذا الإمام مغشياً عليه ، وغاب عن الوعي ، لأنه تصور عظم الجريمة التي كاد يقترفها ، لو أبقى المبلغ في جيبه ، فلما صحا من غفوته قال : يا رب كدت أبيع الإسلام كله بعشرين بنساً .

والله ملايين مملينة من المسلمين يبيعون إسلامهم بدراهم معدودات ، يمين كاذب ببضاعة مغشوشة ، لا تنتظر أن يعجب الناس بإسلامك إذا كنت كاذباً أبداً .

ببعض البلاد الغربية إذا إنسان ليس له دخل ، يكتب كتاباً أنا ليس لي دخل ، يُعطى رقماً يكفي عشرة أشخاص مجاناً ، ولابنه هناك تعويض ، يسافر كل سنة لبلده حتى يتواصل مع أهله ، وهناك تأمين صحي ، وبيت مجاني ، وكهرباء ، وماء ، بكتاب ! .

بعض أفراد الجالية اكتشف أنه إذا طلق زوجته يتقاضى هو راتباً ، وتتقاضى هي راتباً ، هو بيت وهي بيت ، يطلقها تطليقاً شكلياً ، هم يرون هذا الكذب ، هل يعقل أن يحترموا ديننا ؟.

أقسم لكم بالله من يكذب ، أو يحتال على غير مسلم كأنه ارتكب جريمة بحق دينه لأنه عندئذٍ بهذا العمل يقنع الطرف الآخر أنه على حق ، نحن سيئون .

أساساً رسام الدنمرك لما عوتب ، قال : كنت أظن محمداً كأتباعه ، هذه المشكلة ، أنت رسول ، رسول لهذا الدين ، أنت سفير هذا الدين ، أنت جميع الناس ينظرون إليك على أنك تمثل هذا الدين .

النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرجال :

فيا أيها الأخوة ، الدرس حول التوحيد :

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

من خصائص واحدة أين ما ذهبت .

(وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا)

إنسانة ، لها تفكير ، لها مشاعر ، تحب كما تحب ، تكره كما تكره ، ترقى كما ترقى ، تقصر كما تقصر ،

(مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

من خصائص واحدة .

((النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرجال))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عائشة أم المؤمنين]

(مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا)

الزوج يكمل نقصه العاطفي بزوجته فيسكن إليها ، والزوجة تكمل نقصها القيادي به ، فتسكن إليه ، الذكر والأنثى ليسا متشابهين ، بل هما متكاملان .

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

خصائص واحدة ، الإنسان هو الإنسان في أي زمان ومكان ،

(وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا)

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الروم الآية : 22)

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(سورة فصلت الآية : 37)

دقق :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم الآية : 21)

(فَلَمَّا تَغَشَّاهَا)

يعني دخل بها ، بالمصطلح الشرعي ،

(حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً)

الحمل في بدايته خفيف جداً .

(فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ)

لما صار سبعة أشهر ، ثمانية أشهر ، تسعة أشهر انتفخ بطنها .

من عزا توفيقه إلى أسباب أرضية و نسي الله عز وجل فهو إنسان مشرك :

(فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

وهذا شأن أي إنسان في الأرض ، راكب طائرة ، دخلت في سحابة مكهربة ، على متن الطائرة عشرة مهندسين ملحدين ، القصة قديمة حدثني بها طيار ، فلما دخلت هذه الطائرة بغيمة مكهربة واضطربت ، وكادت تقع ، هؤلاء الملحدون دعوا ربهم و قالوا : يا رب .

أي إنسان عند المصيبة يقول يا رب مسلم ، غير مسلم ، كافر ، ملحد ، منافق ، فاجر أبداً ، عند المصيبة : يا رب ، بعد أن ينجو يقول الطيار ماهر ، بعد أن يشفى ابنه ، الطبيب رائع معه بورد ، بعد

ذلك أدوية أجنبية أخذتها له ، صار الدواء الأجنبي سبب شفائه ، أو طبيب معه بورد ، أو طبيب ماهر ، أو طيار رائع ، نسي الله عز وجل ، هذا شأن البشر ، وأنت في المصيبة يا الله ، فإذا أزيحت عنك تعزو نجاتك ، وتوفيقك إلى أسباب أرضية وتنسى الله عز وجل .

من أطاع مخلوقاً و عصى خالقاً فقد أشرك بالله تعالى :

يا أيها الأخوة ، هذه مشكلة المسلمون اليوم ، أقسم لي بالله رجل : صار زلزال بدولة إسلامية أنا أكبرها كثيراً ، أقسم لي بالله المصلون في الصلوات الخمس ملؤوا الحرم ، والصحن ، والرصيف عند الزلزال ، فلما انتهى الزلزال رجع الصف واحد ، لا يوجد بلد إسلامي تأتيه مصيبة جائحة إلا و يتضاعف المصلون أضعافاً مضاعفة ، بعد أن تنزاح عنهم عاد إلى ما كان عليه هذه مشكلة ، هذا مرض ، هذا من خصائص المسلم المقصر .

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

هذا معنى قوله تعالى :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ،

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ)

(سورة الأعراف)

إنسان ضعيف مثلك ، مفتقر إلى الله مثلك ، تعبده من دون الله ؟ تطيعه في معصية ؟ بمجرد أن تطيع إنساناً وتعصي ربك فأنت لا تعرف الله ، أنت واقع لا سمح الله ولا قدر في شرك ، ترى أن طاعته أكبر من طاعة الله ، لمجرد أن تطيع مخلوقاً مهما كان كبيراً ، أكبر من طاعة الله فأطعته وعصيت الله فأنت مشرك . لذلك لو قلت الله أكبر أنت كاذب بها ، هذا الذي يطيع مخلوقاً ، ويعصي خالقاً ما قال الله أكبر ولا مرة ، ولو رددها بلسانه ألف مرة . أيها الأخوة الكرام ، الآية الكريمة محور هذا الدرس :

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(57-60): تفسير الآيات 191 - 196، التوحيد هو أساس العقيدة السليمة - والتوحيد هو من فحوى القرآن
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-01-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

التوحيد فحوى دعوة الأنبياء جميعاً :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس السابع والخمسين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الواحدة والتسعين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ)

أيها الأخوة ، لا شك أن فحوى هذه الآيات متعلق بالتوحيد ، ولابدّ من أن أردد لآلاف المرات أن ديننا دين توحيد ، وأن التوحيد هو الدين كله ، بل إن التوحيد فحوى دعوة الأنبياء جميعاً ، والدليل قوله تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

التوحيد ألا ترى مع الله أحداً :

أيها الأخوة ، التوحيد كفكرة سهل ، إدراك فكرة التوحيد سهل جداً ، أما أن تعيش التوحيد هذا يحتاج إلى جهد كبير ، أن تعيشه لا أن تفهمه ، الفرق بين أن تفهم الفكرة ، وبين أن تعيشها سأوضحه بالمثل التالي :

طالبان على مقعد الدراسة ، الأول مؤمن ، مستقيم ، طاهر ، عفيف ، دخله حلال ، كبر وتزوج ، وعنده بيت متواضع ، وصديقه الثاني غير منضبط ، إيمانه ضعيف جداً ، متفلت ، معظم دخله من المال الحرام ، له دخل فلكي ، بيت فخم ، ومركبات ، وسفر ، وإقامة ، وثياب غالية ، وطعام نفيس ، الأول إذا قرأ قوله تعالى :

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

الآية واضحة تمام ، لكن لمجرد أن يقول صديقي الغني هنيئاً له ، هو ما عاش هذه الآية ، فهم معناها لكن ما عاشها .

مرة ثانية : ديننا دين التوحيد ، التوحيد ألا ترى مع الله أحداً ، أن ترى يد الله تعمل وحدها ، أن ترى أن كل شيء وقع أراده الله ، وأن كل شيء أراده الله وقع ، وأن إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة ، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق .

التوحيد أن ترى أن الله عز وجل بيده كل شيء :

التوحيد أن ترى أن :

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح الآية : 190)

التوحيد أن ترى لأنه :

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال الآية : 17)

التوحيد أن ترى :

(فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية : 84)

التوحيد أن ترى :

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

التوحيد أن ترى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية : 123)

التوحيد أن ترى أن الله سبحانه وتعالى :

(إِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

(سورة غافر)

عدم استطاعة الكافر فعل شيء إلا بإرادة الله عز وجل :

هو الرافع وحده ، هو الخافض وحده ، هو المعز وحده ، هو المذل وحده ، التوحيد أن ترى أنه لا إله إلا الله ، ولا معبود بحق إلا الله ، التوحيد أن ترى أن :

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

التوحيد أن تؤمن أن الكافر مهما يكن قوياً لا يستطيع أن يفعل شيئاً إلا إذا سمح الله له به لحكمة بالغةٍ بالغةٍ بالغة ، عرفها من عرفها ، وجهلها من جهلها .

التوحيد أن ترى أنه بيده :

(الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف الآية : 54)

أحياناً دوله عظمى تصنع طائرة وتبيعها ، الدولة المالكة للطائرة قد تقصف بها مدينة نقول صنعت في هذا البلد لكن أمرها لمن اشتراها أما عند الله :

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

التوحيد كفكرة سهل جداً ، أما التوحيد أن تعيشه ، ترى بعينك قوى الطغيان تقصف ، وتضرب ، وتهدم ، وتتبجح ، وتتغطرس ، وتستعلي ، وتكذب ، وأن ترى أن الله عز وجل سمح بهذا كله لحكمة سوف نراها إن شاء الله فيما بعد .

إيجابيات الأحداث التي مرت بالمسلمين تحتاج إلى أناس متعمقين في الفهم :

والله أيها الأخوة ، إن سلبيات الأحداث يعرفها جميع الناس ، ولا تحتاج إلى بطولة في إدراكها ، صار قصف ، هدموا المنازل ، قتلوا الأبرياء ، قتلوا الأطفال ، سلبيات الأحداث معروفة عند الجميع ، يكفي أن ترى الصورة ، وانتهى الأمر ، لكن إيجابيات الأحداث تحتاج إلى أناس متعمقين في الفهم .

مثلاً قبل عشر سنوات غير مسموح بالعالم الإسلامي أن تقول كلمة جهاد ، غير مسموح بالعالم الإسلامي بأكمله ، حتى مرة ملك في خطابه قال : جهاد ! يأتي شخص من أطراف الدنيا ليسأله ماذا أردت من هذه الكلمة ؟ فاضطر أن يقيم حفلاً مفتعلاً ويقول : الجهاد جهاد النفس والهوى ، أما الآن تستمع إلى القادة يتحدثون عن الجهاد ، هذا إنجاز كبير ، الجهاد دخل في حياتنا اليومية ، الجهاد رأينا آثاره ، قلب موازين القوى كلها .

فئة مؤمنة طاهرة مستقيمة ، هذه الفئة تستحق أن نقبل رأسها ، ويديها ، وأن نقبل الأرض التي تطؤها قدماها ، هذه الفئة أربكت أقوى جيش في المنطقة ، بل أربكت رابع جيش في العالم ، إحدى و عشرون يوماً لم يتحقق أي هدف ، هم فقراء ، جائعون ، محاصرون لسنتين .

إذا دخل الإيمان تتغير جميع المعادلات كلها ، هذا التوحيد ، التوحيد ألا ترى مع الله أحداً ، أن ترى أن

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

هناك حكمة كبيرة ، والله أيها الأخوة أنا مؤمن هكذا أقول دائماً ، بكل ذرة من دمي ، بكل قطرة من دمي ، وبكل خلية في جسمي ، أن الله لا يسمح للطغاة في الأرض أن يكونوا طغاة إلا ويوظف طغيانهم لخدمة دينه والمؤمنين ، من دون أن يشعروا ، ومن دون أن يريدوا ، وبلا أجر ، وبلا ثواب .
أنا أتمنى عليكم أن تدعوا السلبيات ، أن تفكروا في الإيجابيات ، ما الذي حدث بالعالم الإسلامي ؟ ما هذه الوحدة التي جمعتنا ؟! ما هذا الذوبان في بوتقة واحدة ؟! ما هذا الإيمان الذي تحرك ؟! ما هذا البذل الذي كان ؟! شيء لا يصدق ! .

الأحداث تكشف المحسن من المسيء :

أيها الأخوة :

(الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ)

(سورة النور الآية : 11)

الإفك أن تتهم السيدة عائشة زوجة رسول الله بأثمن شيء تملكه امرأة ، عفتها ، جاء القرآن :

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ)

(سورة النور الآية : 11)

لأنه حديث الإفك فرز المؤمنين ، ظهر المؤمنون الصادقون الذين ظنوا بأنفسهم خيراً ، وظهر المنافقون الذي روجوا هذه الأخبار .

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ)

(سورة آل عمرن الآية : 179)

قياساً على ذلك ليذر الدول على ما هي عليه :

(حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

الفتن تفرز الناس إلى قسمين ؛ مؤمن و مجرم :

نعوذ بالله من الفتن ، لكن إذا جاءت الفتنة يجب ألا نذمها ، لأنها تكشف المنافقين وتكشف الكاذبين ، ويفرز الناس إلى قسمين ، والآن أقولها صراحة اللون الرمادي في الأرض اختفى ، بقي الأبيض والأسود ، وليّ أو مجرم ، مجرم ، مؤمن ، مستقيم ، طاهر ، عفيف ، ورع ، يضبط حواسه ، وجوارحه ، ودخله ، وبيته ، وزوجته ، وبناته ، وإنسان مجرم متفلت ، هذا الذي حصل ، يعني كيف جمعتنا هذه الآلام ، وكيف وصلت إلى أعماقنا ، وكيف وحدتنا ، وكيف كُشف أعداؤنا ، كيف أصبحوا

في مزبلة التاريخ ، والله لمئة عام قادم ، بل لمئتي عام قادمة لا يستطيعون أن يقولوا كلمة عن حضارتهم ، حتى الغرب الذي سكت عنهم .

الساكت عن الحق شيطان أخرس :

الله عز وجل ذكر أن قوم صالح عقروا الناقة :

(فَعَقَرُوهَا)

(سورة الشمس الآية : 14)

بالجمع .

(فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا)

(سورة الشمس)

قال

(فَعَقَرُوهَا)

والذي عقرها واحد ، لأنهم سكتوا جميعاً عدّ الله سكوتهم مشاركة في الجريمة .

مرة سيدنا عمر ، قام أحدهم يمدحه قال : والله ما رأينا خيراً منك بعد رسول الله ، يا لطيف ! فأحدّ فيهم النظر ، فخافوا ، فقال أحدهم : لا والله ، لقد رأينا من هو خير منك ، قال : من هو ؟ قال : الصدّيق ، أمامه عشرون ، واحد منهم قال الصدّيق خير منك ، فقال : كذبتم جميعاً ، ما تكلموا ، كذبوا بسكوتهم ، والساكت عن الحق شيطان أخرس .

هل سمعتم تنديداً من الدول العظمى ؟ دعك من أمريكا ، بريطانيا ، أستراليا ، فرنسا ، سويسرا ، هل سمعتم استنكاراً ؟ تنديداً ؟ من أجل أسير واحد يأتي رئيس أمريكي سابق إلى بلادنا ويزور أسرة هذا الأسير ، وأحد عشر ألفاً و ثمانمئة أسير لنا عندهم ما خطر في باله أن يطيب خاطرهم بكلمة ، ما لم نكفر بالطاغوت لن نؤمن بالله ، والدليل :

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

(سورة البقرة الآية : 256)

الله عز وجل يعلم و يقدر و يعنيه ما يجري في العالم من أحداث :

التوحيد ألا ترى مع الله أحداً ، التوحيد أن تؤمن أن الذي وقع وراءه حكمة بالغة عرفها من عرفها ، وجهلها من جهلها ، بمنطق البشر الذي شرد عن الله هذا مات ، أما عند الله :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

(سورة آل عمران)

لذلك أيها الأخوة ، نحن في آيات التوحيد ، ينبغي أن تكون موحداً ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، والتوحيد كفكرة إدراكها سهل جداً ، أما أن تعيشه ، أن تكون موقناً أن الله بيده كل شيء ، وأنه لا يستقيم إيمانك إن توهمت أن الله لا يعلم ما يجري ، ولا يستقيم إيمانك إن توهمت أن الله لا يقدر، ولا يستقيم إيمانك إذا توهمت أن الله لا يعنيه ما يجري ، يعلم ، ويقدر ويعنيه ، وسمح للذي وقع .

(لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ)

(سورة الأنفال الآية : 42)

من اعتمد على غير الله فقد احتقر نفسه :

لذلك أنت حينما تعتمد على قوي من أجل أن يحميك فقد أشركت ، حينما تتنازل لقوي من أجل أن تكف شره عنك فقد أشركت ، هذا الذي حصل ، هؤلاء الذين قعدوا عن نصرة دينهم ، ماذا فعلوا ؟ خافوا من الأقوياء فآثروا السلام .

فلذلك الآية الكريمة :

(أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ)

يعني أقوى إنسان بالأرض لو تجمدت في أحد أوعية دماغه قطرة دم لا تزيد عن رأس دبوس يصاب بالشلل هذا القوي يعبد من دون الله ؟.

(أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ)

هذا مخلوق ، وحياته بيد الله واستمرار حياته بيد الله ، وإمداد مكونات حياته بيد الله ، هذا لا يعبد من دون الله ، وأنت أيها المؤمن لمجرد أن تجير لمخلوق تُحسب عليه ، تنتمي إليه ، وتنسى ربك ، فقد احتقرت نفسك أنت لله ، لا تكن خطيئة إنسان قوي ،

(أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ)

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ)

(سورة النحل الآية : 17)

(لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

مخلوق .

من تنازل لقوي و اعتمد عليه فقد أشرك بالله عز وجل :

الإنسان مهما كان عظيماً ، عظمته ، وهيبته ، وكيانه ، منوط بسيولة دمه فإذا تجمد الدم في عروقه مات فوراً ، يقول لك : مات بجلطة مفاجئة ، احتشاء بعضلة القلب ، سكتة قلبية ، وإذا نمت خلاياه نمواً عشوائياً يقول لك : ورم خبيث ، ليس له دواء ، وإذا توقف قلبه مات فوراً ، فالإنسان ضعيف ، بثانية يكون شخصاً فيصبح خبراً ، الآن النعوات بالطريق أصحابها أشخاص ، أحدهم طبيب ، و الآخر مهندس ، و الثالث عميد أسرتهم ، والرابع له رتبة عسكرية عالية ، لما أصبح اسمه على النعوة صار خبراً ، مساء يكون مدفوناً وانتهى الأمر ، طويت صفحته .

فهذا الذي يموت يعبد من دون الله ؟ هذا الذي يُخلق ولا يَخلق ، يعبد من دون الله ؟.

(أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ)

أي إذا كان سيد الخلق وحبيب الحق وسيد ولد آدم يقول لنا :

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا)

(سورة الأعراف الآية : 188)

وفي آية ثانية :

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً)

(سورة الجن)

لا لنفسه ولا لغيره ، وهو سيد الخلق وحبيب الحق ، وفي آية ثالثة :

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

(سورة هود الآية : 31)

هذا الإنسان ، لذلك لما توفي رسول الله عليه الصلاة والسلام سيدنا الصديق أحب أصدقائه إليه ، قال : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت .

(وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ)

إذا إنسان له أتباع كُثر ، وكان قوياً بيده كل شيء ، وتوفاه الله ، أتباعه ماذا يستطيعون أن يقدموا له ؟ برقية تعزية ، باقة ورد ، هذا كل شيء ، بيد من حياتك ؟ بيد من موتك ؟ بيد من رفعتك ؟ بيد من سلامتك ؟ بيد من سعادتك ؟ بيد من شقاؤك ؟ بيد من رزقك ؟ .

الاعتماد على غير الله مذلة :

أيها الأخوة ، لا زلنا في آيات التوحيد .

(وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ)

طبعاً هؤلاء الشركاء إما أن يكونوا من بني البشر ، شخص قوي علقت الآمال عليه ، أو من الحجر "صنم" ، المعنى واحد .

(قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)

(سورة الصافات)

إذاً

(وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ)

لما سيدنا إبراهيم كسر الأصنام وضع الفأس في عنق أحدها ، أو أكبرهم :

(قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ)

(سورة الأنبياء)

أخوانا الكرام ، بأي عصر هناك مجموعة أوهام يجب أن تتحرر منها ، الآن أحد أكبر هذه الأوهام الإعلام ، أحياناً يوحي لك المعركة ملتهبة ، والعكس هو الصحيح ، فبطولتك أيها المؤمن ألا تكون ضحية الإعلام ، الإعلام خبيث جداً ، تعتيم على خسائر العدو ، تعتيم غير معقول .

لذلك :

(وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ)

(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة الأعراف)

شخص يخاف كما تخاف ، ويجوع كما تجوع ، ويعرى كما تعرى ، ويعطش كما تعطش ، ويتمنى أن تدوم حياته طويلاً كما تتمنى ، هو مثلك ، لا يليق بك أن تكون لإنسان ، أنت للواحد الديان ، أنت لله ، لمجرد أن تكون لإنسان فقد احتقرت نفسك ، أنت لله .

((خلقت لك ما في الكون من أجلك فلا تتعب ، وخلقتك من أجلي فلا تلعب ، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك))

[ورد في الأثر]

الشرك الخفي أخطر شيء يقع به الإنسان :

(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ)

قد تحمل على أنهم من بني البشر ، أحياناً إنسان يعتمد على قريب له قوي ، أو على قريب له غني ، أو على إنسان بيده الحول والطول ، يعبده من دون الله ويصاب ، وأخطر شيء أن تقع في الشرك الخفي ، الشرك الخفي كما قال الله عز وجل :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

هذا هو الشرك الخفي ، الصحابة الكرام على علو قدرهم ، وعلى رفعة شأنهم وعلى أنهم نخبة البشر ، في حنين نظروا إلى العدد عشرة آلاف صحابي ، فقالوا :

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس]

اعتمدوا على عددهم فلم ينتصروا ، فقال الله عز وجل :

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

التولي و التخلي :

أنت أيها المؤمن في حاجة ماسة إلى هذا الدرس درس بدر ، ودرس حنين ، في درس بدر قال الصحابة : الله ، فتولاهم الله ، وفي حنين قالوا : نحن ، فتخلى الله عنهم .

فأنت أيها المؤمن بين التولي والتخلي ، تقول أنا ومع التفصيل ، أنا معي شهادة عليا ، مرة طبيب أخ كريم ببلد عربي شقيق ، حدثني بهذه القصة ، زوجته حامل ، ويحتاج إلى عمل معقد قليلاً للولادة ، فاستشار صديقاً له متخصص بالأمراض النسائية ، فأعطاه توجيهات ، فقال له : هل من الأفضل أن أرى طبيباً آخر كي أستأنس ؟ قال له : أنا أقوى وأعلم إنسان في هذه المنطقة ، والباقون جهلة ، بغطرسة واستعلاء ما بعده استعلاء ، القصة طويلة لكن ملخصها أن هذا الطبيب الذي أشرك مع الله عز وجل وصف نفسه بأنه أعلم العلماء ، ارتكب خطأ في الولادة أدى إلى وفاة المرأة ، يترفع عنه طالب طب ، ولأول مرة في تاريخ هذا البلد العربي سُحبت شهادة طبيب وأصبح بلا شهادة عقاباً له .

تقول أنا الله يؤدبك ، قل الله ، ادرس ، تفوق ، لكن قل بفضل الله ، الله أكرمني ، سمح لي ، مكنني ، وفقني ، انسب الفضل إلى الله ، هذه الحقيقة ، فإذا أعجبت بنفسك ، بعلمك ، بمالك ، قال : الدرهم مراهم ، هذه آية أم حديث ؟ حديث باطل .

والله صديق لي ، قال : الدراهم مراهم تحل بها كل المشكلات ، وجد نفسه فجأة بالمنفردة ، ثلاثة و ستون يوماً ، تفضل حلها بالدراهم ، معك دراهم ، الله يؤدب ، انتبهوا ، إياك أن تشرك نفسك مع الله ، لا تقول أنا أحمل شهادة عليا ، أنا من أعرق أسرة ، كلما قلت أنا تخلى الله عنك ، وكلما قلت الله تولاك بالرعاية والحفظ .

على الإنسان ألا يعلق آماله على إنسان مثله بل يتوكل على الواحد الديان :

(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ)

كن مع الله .

(فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ)

أحياناً تعلق آمالاً كبيرة على صديق لك قوي بمنصب رفيع ، تدخل عليه ، لا يقول لك تفضل اجلس ، ويعتذر عن خدمتك ، لأنك وضعت ثقتك بغير الله ، هذا هو الشرك الخفي ، لا تعتمد على مالك ، ولا على جاهك ، ولا على نسبك ، ولا على حسبك ، ولا على أسرتك ، ولا على أولادك .

أعرف شخصاً عنده شاب بذل من أجله الغالي والرخيص ، حتى جعله يحمل أعلى شهادة ، وسافر إلى بلاد بعيدة ، تزوج امرأة ونسي والده ، ولا يتصل به بالسنوات مرة ، اعتمد عليه فتخلى عنه .

((لو كنت مُتَّخِذًا مِنْ الْعِبَادِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا ، وَلَكِنْ صُحْبَةٌ وَإِخَاءٌ إِيمَانٌ حَتَّى يَجْمَعَ اللَّهُ بَيْنَنَا عِنْدَهُ))

[الطبري عن بعض آل أبي سعيد بن المعلى]

(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

فإذا كان هؤلاء الشركاء أشخاصاً اعتمدت عليهم ، أو على وعدهم ، ومشكلة المسلمين الأولى أنهم اعتمدوا على القوى الكبيرة في الأرض ليحموهم ، لينصروهم ، فأمروا عصاهم الغليظة أن تدمرهم ، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تشرك بالله وتفوز ، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن توحده وتخسر .

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ)

أحد الولاة وصل إلى بيت الله الحرام قال : أريد عالماً جليلاً ألتقي به ، فالتقى مع عالم ، قال له : سلني حاجتك ، قال له : والله إني أستحي وأنا في بيت الله أن أسأل غير الله ، فالتقى به خارج بيت الله الحرام، قال له : سلني حاجتك ؟ قال له : والله ما سألتها من يملكها ، أأسألها من لا يملكها ؟ قال له : ما حاجتك؟ قال له : أنقذني من النار وأدخلني الجنة ، قال له : هذه ليست لي ، قال له : إذاً ليست لي عندك حاجة.

بين سيدنا عمر و جبلة بن الأيهم :

أنت حينما توحد يعزك الله ، حينما توحد لا تتضعضع أمام قوي أو غني ، أنت حينما توحد لا تنبطح ، لا تركع ، لا تسجد له ، أنت حينما توحد لا تساوم على مبادئك ، كلمة لا .

سيدنا عمر جاءه ملك اسمه جبلة ، أعلن إسلامه ، ورحب به عمر ، أثناء طوافه حول الكعبة بدوي داس طرف ردائه ، فانخلع رداؤه عن كتفه ، فضربه ضربة هشمت أنفه ، شكاه إلى عمر ، استدعاه عمر ، وجرى حواراً بينهما ، قال له : أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح ؟ دقق ملك ، إنسان بالمصطلح المعاصر من الدهماء ، من سوقة الناس ، من الطبقة الدنيا ، من هؤلاء الضعاف الفقراء ، قال له ، أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح ؟ قال : لست ممن ينكر شيأ أنا أدبت الفتى أدركت حقي بيديا ، قال له : أرض الفتى ، سيدنا عمر ، لابدّ من إرضائه ، ما زال ظفرك عالقاً بدمائه ، أو يهشمن الآن أنفك ، يخاطب ملك ، حق ، وتنال ما فعلته كفك ، طبعاً تعجب أشد العجب ، قال له : كيف ذاك يا أمير ؟ هو سوقة وأنا عرش وتاج ، كيف ترى أن يخر النجم أرضاً ؟ قال له : نزوات الجاهلية ، ورياح العنجهية قد دفناها ، أقمنا فوقها صرحاً جديداً وتساوى الناس أحراراً وعبيداً ، قال : كان وهماً ما جرى في خلدي أنني عندك أقوى وأعز ، أنا مرتد إذا أكرهتني ، قال عنق المرتد بالسيف تحز ، عالم نبنيه كل صدع فيه يداوى ، وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى .

من وحّد الله عز وجل أكد مكانته الإنسانية :

أنت حينما توحد لا تخاف في الله لومة لائم ، أنت حينما توحد تقول لا بملء فمك ، بقاموسك يوجد كلمة لا ، تقولها بملء فمك ، أما إن لم تكن موحداً يقذف الله الخوف في قلبك ، تقول نعم لكل شيء ، للباطل ، أنت حينما توحد تؤكد مكانتك الإنسانية ، أنت لست لغير الله ، أنت لله .

(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

أما إذا فهمنا هذه الشركيات ، ليست بشراً بل حجراً ، تأتي هذه الآية :

(أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ)

(سورة الأعراف)

الصنم يتحرك ؟ لك أن تعتقد أن هذا الشيء الذي أشرك مع الله إنسان قوي ، دولة طاغية قوية ، تلتمس رضاها مع تنازلات لا تحتمل ، أو أنه صنم كما كان العرب قبل الإسلام .

الإيمان اعتماد على الله وتوكل عليه واتصال به :

أيها الأخوة الكرام :

(إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ)

(سورة الأعراف)

الإيمان اعتماد على الله ، الإيمان توكل على الله ، الإيمان اتصال بالله ، الإيمان طاعة لله ، الإيمان أن تعتز بالله .

اجعل لربك كل عزك يستقر ويثبت فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

* * *

لا أنسى أن الحسن البصري كان عند والي البصرة ، هذا التوحيد ، فجاءه توجيه من الخليفة ، لو نفذه لغضب الله عز وجل ، ولو لم ينفذه لأغضب الخليفة ، هذا الوالي وقع بما يسمى بيحص بيص ، ماذا يفعل ؟ فاستنجد بالحسن البصري ، قال له : ماذا أفعل ؟ قال له كلمة والله أيها الأخوة تعد منهجاً ، قال له : إن الله يمنعك من يزيد ، لكن يزيد لا يمنعك من الله .

الله يمنعك من أقوى الأقوياء ، لكن أقوى الأقوياء لا يستطيع أن يمنعك من ورم خبيث ، إن الله يمنعك من يزيد ، لكن يزيد لا يمنعك من الله .

وفي درس إن شاء الله نتابع هذا الدرس .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(58-60): تفسير الآيات 196 - 199، الولاء لله وحده

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-01-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل كامل كمالاً مطلقاً و من لوازم كماله المطلق أنه كامل التصرف :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الثامن والخمسين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية السادسة والتسعين بعد المئة ، وهي قوله تعالى :

(إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ)

معنى الولي في الأصل الذي يليك ، ومعنى الولي هو أقرب الناس إليك ، ومعنى الولي هو الذي يتولى أمرك ، فلن تقبل ولياً إلا إذا كان أقوى منك ، وأعلم منك ، لأنه عندئذٍ قادر على أن ينفعك بعلمه ، وأن ينفعك بقدرته .

والحقيقة أن الولي الحقيقي هو الله جلّ جلاله ،

(إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ)

هذا الإله العظيم خلق الخلق ، ولم يدعهم من دون إرشاد ، من دون توجيه ، من دون منهج . بشكل مبسط : الدولة حينما تشق طريقاً ، بعد أن يشق الطريق ، توضع الشاخصات هنا منحدر خطر ، هنا تقاطع خطر ، هنا طريق ضيق ، هنا جسر يتسع لمركبة واحدة ، هنا منطقة انزلاق ، هذه الشاخصات هي توجيهات ، وتحذيرات ، وإرشادات .

فهذا الكون ينم عن إله عظيم ، كماله مطلق ، وكمال الخلق يدل على كمال التصرف ، فكما أن في الكون إعجازاً ، وعظمة ، وقوة ، وعلماً ، حكمة ، وغنىً ، هذا الإله العظيم الكامل الكمال المطلق ، من لوازم كماله المطلق أن يكون كامل التصرف .

إذاً يخلق الخلق ، ولا يعلمون لماذا خلقوا ، لا يعلمون ماذا أعدّ لهم بعد الموت ؟ لا يعلمون ما الحلال وما الحرام ؟ وما الخير وما الشر ؟ وما الحسن وما القبح ؟

الولي الحقيقي هو الله جلّ جلاله :

لذلك من هو وليك ؟ هو الخالق الذي خلقك ، من هو وليك ؟ هو الخبير ، بما يسعدك وما يشقيك ، من هو وليك ؟ هو الذي أمرك بيده ، رزقك بيده ، حياتك بيده ، موتك بيده ، سعادتك بيده ، تفوقك بيده ، من حولك بيده ، من هو أقوى منك بيده ، من هو أضعف منك بيده ، من هو الولي ؟ القوي ، من هو الولي ؟ الغني ، من هو الولي ؟ الحكيم ، القدير ، العليم .

(إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ)

الكتاب منهج .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام الآية : 1)

الكون .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

(سورة الكهف)

وكأن الكون كله في كفة ، والكتاب في كفة ثانية ، خلق الكون ونوره بهذا الكتاب ، الكتاب نور ، أنشئت الجامعة ومعها كتاب يتحدث عن كلياتها ، وعن اختصاصاتها ، وعن شروط القبول فيها ، وعن وسائل النجاح فيها ، وعن كل شيء ، في بناء ، في كتاب ، في كون ، وفي منهج.

لذلك من هو الذي ينبغي أن يكون وليك ؟ هو الله ، لأنه الخالق .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة الآية : 21)

من هو الولي ؟ هو الخبير .

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر)

من هو الولي ؟ هو العليم ، هو الحكيم ، من هو الولي ؟ هو القدير على كل شيء .

التوحيد نهاية العلم والعبادة نهاية العمل :

(إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ)

فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه ، أي أن المسافة بين كلام الله ، وبين كلام المخلوقين كالمسافة بين الخالق والمخلوق .

القوة : أقوى الأقوياء في قبضة الله ، من هو القوي حقيقة ؟ هو الله ، من هو الغني حقيقة ؟ هو الله ، من هو الحكيم حقيقة ؟ هو الله ، من هو المعز ؟ هو الله ، من هو المذل ؟ هو الله ، من هو المعطي ؟ هو الله ، من هو المانع ؟ هو الله ، من هو الرافع ؟ هو الله ، من هو الخافض ؟ هو الله ، أيعقل أن تتخذ إنساناً ولياً ؟ لمجرد أن تجير لإنسان احتقرت نفسك ، أنت لله لمجرد أن تكون محسوباً على إنسان أنت بهذا تحتقر نفسك .

الجماد للنبات ، والنبات للحيوان ، والحيوان للإنسان ، والإنسان لمن ؟ لله الواحد الديان ، لمجرد أن تكون تابعاً لجهة أرضية ، وتنسى أن الله وحده هو الولي فهذا منتهى الجهل .

لذلك قالوا : التوحيد نهاية العلم ، والعبادة نهاية العمل ، التوحيد ألا ترى مع الله أحداً والعبادة ألا تطيع مع الله أحداً ، فالتوحيد نهاية العلم ، والعبادة نهاية العمل .

من عرف الله زهد فيما سواه :

أيها الأخوة ، أنت ضعيف لكنك تتقوى بالله فقد ورد :

((ما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني إلا قطعت أبواب السماء والأرض دونه فإن دعاني لم أجبه وإن سألني لم أعطه وما من مخلوق يعتصم بي دون خلقي إلا ضمنت السموات رزقه فإن سألني أعطيته وإن دعاني أجبته وإن استغفرني غفرت له))

[كنز العمال عن علي]

إذا أردت أن تكون أقوى الناس ، أقوى الناس قاطبة ، فتوكل على الله ، إن أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك ، إن أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله .

(إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ)

إذا كنت صالحاً يتولاك الله .

بالمناسبة : متى يتولاك ؟ إذا آمنت به ، آمنت به خالقاً ، ورباً ، ومسيراً ، إذا آمنت به موجوداً ، ووحداً ، وكاملاً ، إذا آمنت بأسمائه الحسنى لأنه القوي ، والغني ، والحكيم ، والعليم ، والقدير ، والمغني ، والرزاق ، حينما تؤمن به تزهد عما سواه ، من عرف الله زهد فيما سواه ومن أعجب العجب أن تعرفه ثم لا تحبه ، ومن أعجب العجب أن تحبه ثم لا تطيعه .

(إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ)

هو ولي النبي ، وهو ولي كل مؤمن ، تأتي في آخر الزمان ، بعام ألفان و ثمانية ، بعام عشرة آلاف ، قبل مئة سنة ، قبل خمسمئة ، في الشام ، في الحجاز ، في أي مكان في الأرض ، الله هو الولي .

أولياء الله لا خوف عليهم و لا هم يحزنون :

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة يونس)

من هم أولياء الله ؟ ولي الله الذي اتخذ الله وليه ، ومتى تتخذه وليك ؟ إذا أطعته .

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضا من أحبنا

ولـذ بحمانا واحتم بجانبنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

* * *

هل تصدقون أنه ما من عصر كثر فيه الأشرار كهذا العصر ؟ البشر وحوش ، لا في رحمة ، ولا في خلق ، ولا في أي شعور ، وحش كاسر ، دابة متفلتة ، تبحث عن مصالحها ، عن الأموال الطائلة ، يصنعون من غذاء الفقراء وقوداً للطائرات ، فارتفعت الأسعار عشرة أضعاف ، فول الصويا ، الذرة ، الشعير ، غذاء الفقراء يصنع في بعض البلاد في أمريكا الجنوبية وقوداً للطائرات ، زعماء أوربا يرون خلال عشرين يوماً جرائم بربرية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً ، يتفقون على أن يمنعوا الأسلحة فقط ، أما أن ينددوا بكلمة ؟ بكلمة لا تقدم ولا تؤخر ، أن يتحدثوا عن هذه الجرائم ، أبداً .

((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَمْتَلِئَ الْأَرْضُ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا قَالَ ثُمَّ يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عِتْرَتِي أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَمْلَؤُهَا قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا))

[أحمد عن أبي سعيد الخدري]

التولي و التخلي :

أيها الأخوة ، الإنسان ضعيف ، يحتاج إلى ولي قوي ، يحتمي به ، يلوذ به ، يعتمد عليه ، يلجأ إليه ، الإنسان فقير يحتاج إلى غني ، والإنسان جاهل يحتاج إلى العليم ، كمالك في ضعفك ، كمالك في الافتقار إلى الله ، وقوتك في التوكل عليه ، مثلان من السيرة النبوية :

أصحاب النبي وهم نخبة البشر ، في بدر افتقروا إلى الله :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران الآية : 123)

فتولاهم الله ، ببدر افتقروا إلى الله ،

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

ما اجتمع في الجزيرة عشرة آلاف مقاتل إلا في حنين ، عشرة آلاف صحابي ، وقتها عدد فلكي ، فقالوا في أنفسهم :

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس]

فقال تعالى :

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

الملخص أنت بحاجة إلى هذين الدرسين ، درس بدر ، ودرس حنين ، في بدر قال الصحابة الله ، فتولاهم ، وحفظهم ، ونصرهم ، ووفقهم ، وأذلّ عدوهم ، هم ، هم ، وعلى رأسهم سيد الخلق وحبيب الحق ، في حنين قالوا في أنفسهم :

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس]

فتخلى الله عنهم ، فأنت بين التولي وبين التخلي ، يتولاك إذا قلت الله ، ويتخلى عنك إذا قلت أنا .

من اعتمد على غير الله فقد أشرك :

أحد أنواع الشرك الشرك الخفي ، ليس في العالم الإسلامي اليوم شرك جلي ، ولكن ما أكثر الشرك الخفي ، من اعتمد على ماله فقد أشرك ، من اعتمد على ابنه فقد أشرك ، من اعتمد على صحته فقد أشرك ، من اعتمد على وظيفته فقد أشرك ، الذي يقول أمطرنا بنوء كذا وكذا ، يسمع بالأخبار منخفض جوي متمركز فوق قبرص ، باتجاه الشرق الأوسط ، تأتي الأمطار وفيرة ، يقول لك : المنخفض .

((من قال : مُطِرْنا بِنَوْءِ كذا وكذا : فذلك كافر بي ، مؤمن بالكواكب ، مُطِرْنا بفضل الله ورحمته : فذلك مؤمن بي ، كافر بالكوكب))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي ومالك عن زيد بن خالد الجهني]

أنت حينما ترى يد الله تعمل وحدها ، أنت حينما ترى أن كل ما يجري بعلمه ، أن كل ما يجري بحكمته ، برحمته ، بعدله ، ترتاح نفسك .

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

(إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ)

كن صالحاً حتى يتولاك كن صالحاً لعطاء الله ، كن صالحاً لتطبيق منهج الله ، كن صالحاً لدخول الجنة، هذا الذي يستجيب لله يعد نفسه لجنة عرضها السماوات و الأرض .

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد ، و الظمآن الوارد ، والعقيم الوالد))

[ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة]

(وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ)

(سورة الأعراف)

أولاً قد لا يرغبون بنصركم ، هكذا لا يوجد داع لأن يعاونك ، لا يوجد داع لينصرك ، قد لا يرغبون بنصركم ، وإذا أعلنوا عن رغبتهم بالنصر في باطنهم لا يريدون ذلك النصر ، لا يرغبون ولا يريدون، وقد لا يقدرون ، ليس عندهم أسباب النصر .

دولة صغير جداً حينما تستنجد بدولة أصغر منها ، ما بيدها شيء ، أما حينما تستنجد بأقوى دولة في العالم يمكن أن يكون هناك أمل .

فهذا الإنسان الذي تشركه مع الله ، قد يكون ضعيفاً ، هو في قبضة الله ، هو خائف ، هو فقير ، هو في حيرة ، وقد يكون قوياً لكن لا يريد أن يعاونك ، مودته ظاهرة ليست حقيقية ، وقد لا يسخو أن يعاونك ، إذاً

(وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ)

من كان مع الله كان الله معه :

الأنبياء :

(آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ)

(سورة هود)

إلى الله ، إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك ، يعني مثلان أضعهما بين أيديكم ، أول مثل سيدنا موسى ومعه أتباعه ، مستضعفون ، ملاحقون ، مضطهدون ، تبعهم فرعون بقوته ، وبأسلحته ، وقياساً على اليوم بطائراته ، وبقنابله العنقودية ، والفسفورية ، ببوارجه ، بمدرعاته ، بأسلحته ، بأقماره الصناعية ، بحقده الدفين ، بقلبه القاسي ، بعنجهيته ، بوحشيته ، أمامهم البحر ، وراءهم فرعون ، وفي كل عصر في فرعون ، وراءهم فرعون بكل صفات التوحش ، من حقد ، من قوة ، من قسوة ، بكل أنواع الأسلحة ، من أجل أن يبيدهم ، والبحر أمامه ، بكل حسابات الأرض الأمل بالنجاة معدوم .

(أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

(سورة الشعراء)

هذا الواقع ، هذا الطرح الموضوعي ، هذه الحسابات الأرضية ، قال :

(كَلَّا)

(سورة الشعراء الآية : 62)

ما قال لا ، لا يعني نفي ، أما كلا ردع ، إياكم أن تقولوا هذا .

(قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء)

وإذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك .

النصر الذي أكرمنا الله به جرعة منعشة لنا :

أيها الأخوة ، أتمنى عليكم ألا تقرؤوا هذا الكلام على أنه قصة ، إنها حقيقة يجب أن نعيشها ، قل الله يتولاك ، ليس بعيداً عنا ، عشرة آلاف مقاتل ، بأسلحة بدائية ، من صنعهم ، يواجهون جيشاً يعد رابع جيش في العالم ، يملك كل أنواع الأسلحة التي جُربت ، والتي لم تُجرب ، كل أنواع الطائرات ، مئات ألوف الأطنان ألقيت عليهم ، قصف من الجو ، ومن البحر ، ومن البر ، وبعد مضي 22 يوماً لم يستطع العدو أن يحقق شيئاً من أهدافه ، إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا عليك فمن معك ، أليس هذا النصر الذي أكرمنا الله به يعد جرعة منعشة لنا ؟ لا تنسوا ربكم بيده كل شيء ، بيده كل شيء ، بيده وحده قلب كل المعادلات .

(وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ)

قد لا يريدون ، وقد لا يستطيعون ، لعلهم أرادوا لكنهم لا يستطيعون ، والدليل :

(وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ)

فإذا كانوا عاجزين عن نصر أنفسهم فهم عن نصركم أعجز .

لذلك في إنسان من ألمانيا قرأ هذه الآية ، حينما قال الله عز وجل يخاطب نبيه :

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

(سورة المائدة الآية : 67)

فلما نزلت هذه الآية صرف حراسه ، هذه المرأة قالت : يمكن أن يكذب المرء على كل الناس ، أما أن يكذب على نفسه ، مستحيل ، فلما صرف حراسه ، وعرض نفسه للموت لأنه صدق ربه .

وأنا أقول لكم أيها الأخوة : إذا كنت معه فهو معك ، لا تخف ، لك مستقبل كبير ، إذا كنت مطيعاً له فلا تخف ، إن كنت معتمداً عليه فلا تخف ، إن كنت محباً له فلا تخف ، إن كنت مطبقاً لمنهجه فلا تخف .

أيها الأخوة ، أحد أسباب إسلام هذه المرأة أن النبي حينما أُنزلت عليه هذه الآية صرف حراسه .

زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين :

أقول لكم : زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين ، إلهنا هو ، إله الصحابة إلهنا ، إله المسلمين الذي نصرهم سابقاً إلهنا ، وعوده قائمة ، والكرة في ملعبنا ، أعطانا جرعة منعشة .

هذا البلد المعتدي ، المستعمر استعمار استيطاني ، هذا البلد كان عنده مشكلة واحدة من خمسين عاماً ، قضية الأمن ، الآن هناك مشكلة أكبر ، قضية البقاء ، كانوا في الأمن فأصبحوا في البقاء ، وهم لا يزالون أقوى قوة في المنطقة ، كان الحسم بيدهم فقدوا الحسم ، بدؤوا يخططون أربعة أيام ، يومان ، أول يوم ثمانمئة هدف ، يخططون ليومين ، ثلاثة ، أقسى شيء أربعة أيام ، إذا كان في ذيول سبعة أيام، مضى أول يوم ، والثاني ، والثالث ، والرابع ، لم ترفع راية بيضاء ، حتى تطوعوا في اليوم الثاني و العشرين هم وأوقفوا إطلاق النار من جانب واحد .

مرة ثالثة هي جرعة منعشة لنا ، لا يوجد إلا الله عز وجل .

كل إنسان مكلف و محاسب على عمله :

أيها الأخوة ، الشيء الثاني :

(وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

(سورة الأعراف)

أحياناً إنسان في حبه الشيء يعمي ويصم ، هو في قبر شهواته .

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

(سورة فاطر)

(أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ)

(سورة النحل الآية : 21)

أحياناً الطبيب يستدعى ليكشف عن المريض ، يضع يده على شريانه ، لا يوجد نبض ، يأتي بمرآة يضعها أمام أنفه ، لا يوجد بخار ، يأتي بمصباح يضعه في عينيه الحدقة لا تتحرك ، عظم الله أجركم انتهى ، لا في نبض ، ولا في بخار ماء على المرآة ، ولا في تحرك حدقة ، إذاً ميت . فالكافر ميت ،

(أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ)

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)

(سورة الفرقان)

لماذا ؟ الأنعام غير مكلفة ، أما الإنسان مكلف .

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

(سورة المنفقون الآية : 4)

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)

(سورة الجمعة الآية : 5)

النبي الكريم بشر مثلنا فمن عرفه قدم نفسه فداء له :

أيها الأخوة ،

(وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

مرة كنت في مسجد وهناك إنسان قصير القامة ، منحي الظهر ، بالثمانين من عمره ، أنا هرعت إليه وسلمت عليه سلاماً في أعلى درجات الأدب ، كان معي صديقي ، قال لي : من هذا ؟ قلت له أنت لا تعرفه ، هذا كان عميد كليتنا ، وهو من أعلم علماء المنطقة بالنحو ، فأنا متأثر بتدريسه لأربع سنوات ، لكن منظره بالمسجد إنسان كبير بالسن ، قد يكون إنساناً عادياً جداً ، في سن متأخرة ، فأحياناً ترى مؤمناً ماذا ترى به ؟ إنسان مثلك ، يأكل ويشرب ، هل رأيت علمه ؟ هل رأيت محبته لله ؟ هل رأيت عقيدته ؟ هل رأيت مبادئه ؟ قيمه ؟ ماذا رأيت منه ؟ الأنبياء أنفسهم بشر مثلنا .

((إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر ، وأغضب كما يغضب البشر))

[أحمد و مسلم عن أنس]

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة الكهف الآية : 110)

((وأوذِيت في الله ما لم يُؤذَ أحد ، ولقد أتى عليَّ ثلاثون من يوم وليلة ، ومالي ولبلال طعامٌ إلا شيء يُواريه إبطُ بلال))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

النبي بشر ، رأوا بشريته ، ولم يروا نبوته ، رأوا بشريته ولم يروا علمه .

سراقة لماذا أراد قتل النبي ؟ من أجل مئة ناقة ، فلما عرف النبي أقسم لكم بالله ، ماذا أقول ؟ مستعد أن يقدم نفسه فداء للنبي ، ما كان يعرفه .

وأنت لو عرفت الله ، لكنت إنساناً آخر ، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تعرفه ثم لا تحبه ، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تحبه ثم لا تطيعه .

الندم الذي يصيب الإنسان الغافل عن الله عز وجل عندما يأتيه ملك الموت :

لذلك حالة الندم التي تصيب الإنسان حينما يأتيه ملك الموت ، وقد أمضى حياته في المعاصي والآثام ، هذه الحالة تكاد تبيده .

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر علي مما ألقى ، وأنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[أخرجه الحاكم عن جابر بن عبد الله]

وحينما تكتشف في لمح البصر أنك خسرت الآخرة ، أن الله خلق الإنسان لجنة عرضها السماوات والأرض .

((أعْدَدْتُ لعباديَ الصالحين ما لا عين رأتْ ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

أعد له جنة مهما تصورت عظمتها فهي أعظم ، هذه الجنة إلى أبد الآبدين خسرها في حياته الدنيا لبضع سنين ، أمضاها في المعاصي والآثام .

لذلك

(وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

المؤمن حقيقته في داخله ، بإيمانه ، بورعه ، بمحبته ، باستقامته ، بإدراكه للحقائق ، لماذا خلقه الله ؟ من أين جاء ؟ ماذا بعد الموت ؟ ما سرّ وجوده ؟ ما غاية وجوده ؟ .

الإنسان لله فعليه ألا يكون لسواه :

أيها الأخوة ،

(إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ * وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ)

ضعاف ، هل يعقل أن تتعلق بالضعيف ؟ بالجاهل ؟ بمن يخيب ظنك ؟ أنتم انظروا بالتاريخ المعاصر، أي دولة علقت كل آمالها بدولة عظمى خيبت ظنها ، واستغلتها ، ثم طرحتها جانباً ، أنت لله لا تكن لسواه .

((خلقت لك ما في السماوات وما في الأرض ولم أعيَ بخلقهن ، أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين ، لي عليك فريضة ، ولك علي رزق ، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك ، وعزتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية ، ثم لا

ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي ، وكنت مذموماً ، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد))

[ورد في الأثر]

الموائمة بين العقل وبين النص أساس الدين :

(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)

(سورة الأعراف)

العفو الشيء البسيط ، جاءتني هذه الأفكار عفو الخاطر ، اجعل هذا التشريع مبسطاً ، لا تعقد الأمور ، العفو الشيء السهل .

إنسان غربي أسلم على يد شيخ ، أبقاه ستة أشهر في أحكام المياه ، حتى خرج من جلده و ترك هذا الدين ، التقى بعالم آخر ، قال له : الماء الذي تشربه توضأ منه ، وانتهى الأمر .

كأن الله سبحانه وتعالى يريد من نبيه أن يكون الإسلام سهلاً ، أنا أقول كلمة : الإسلام بحاجة الآن إلى تبسيط لا إلى تعقيد ، يحتاج إلى تطبيق لا إلى متاجرة ، يحتاج إلى عقل ، العقل أصل في الدين ، لا تأتي بقضية العقل يرفضها ، بل يرفضها أشد الرفض ، لا يمكن أن يتناقض العقل مع الدين ، لأن الدين من عند الله ، والعقل جهاز أودعه الله فينا ، فإذا وجدت تناقضاً بين العقل وبين الدين فاعلم علم اليقين أن في العلم خطأ ، أو النص ضعيف ، أو موضوع ، إما خطأ بالنص ، يكون ضعيفاً أو لا أصل له ، أو خطأ بالعلم ، أو توافق العقل مع النقل قطعي ، فها الدين يحتاج إلى موائمة بين العقل وبين النص ، ويحتاج إلى تبسيط .

إنفاق ما زاد عن حاجتك يقرب الآخر إليك :

(خُذِ الْعَفْوَ)

ليكن منهجك مبسطاً ، والمعنى الآخر أنفق العفو .

(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ)

(سورة البقرة الآية : 219)

فإذا أنفقت العفو أخذت الخير من الآخر ، بمعنى إنفاق ما زاد عن حاجتك ، بمعنى قدم منهجاً ميسراً ، بسيطاً ، واضحاً ، لا تعقيد فيه ، بمعنى أنك حينما تعفو عن الآخر تقربه إليه .

(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ)

تطابق النقل مع الفطرة قطعي ، أي أمر أمرك الله به يتوافق مع فطرتك .

لذلك ما تعارف الناس عليه أنه خير فهو خير ، لماذا سمّى الله المعروف معروفاً ؟ لأن كل النفوس تعرفه ، ولماذا سمّي المنكر منكراً ؟ لأن كل النفوس تنكره .

من معاني " خُذِ الْعَفْوَ " :

1 ـ أن يكون منهجك سهلاً و بسيطاً :

إذاً

(خُذِ الْعَفْوَ)

ليكن منهجك مبسطاً ، لا تعقيد فيه ، لا إشكال ، لا تناقض ، لا مبالغة ، لا تشدد ، لا تساهل .

2 ـ أنك حينما تعفو عن الآخر تقربه إليه :

(خُذِ الْعَفْوَ)

والمعنى الثاني أنفق العفو ، ما زاد عنك أنفقه لأخيك حتى يتماسك المجتمع ، واعفُ عمن ظلمك .

((أَمَرَنِي رَبِّي بِتِسْعٍ : خَشْيَةِ الله في السِّرِّ والعلانية ، وكلمة العدل في الغضب والرضى والقصد في الفقر والغنى))

[أخرجه زيادات رزين عن أبي هريرة]

(وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ)

و ائمر بهذا المنهج الذي يتطابق مع الفطرة ، و ائمر بتطبيق منهج الله ، لأن النفوس تعرفه من دون تعليل ، هذه فطرة .

(وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)

الجاهل هنا لا يعني غير متعلم ، يعني الذي يملك فكرة أو تفسيراً لخلاف الواقع .

إذا قال لك شخص : كلما زدت الملح في الطعام انخفض الضغط ، ما قولك ؟ لكن معه دكتوراه ، هذا جاهل ، ما دام تكلم كلاماً بخلاف الواقع فهو جاهل ، الجهل ليس معناه أن وعاءك فارغ من المعلومات، ذاك الأمي ، أما الجاهل هو الذي يملك آلاف المعلومات لكن كلها غلط ، كلها بخلاف منهج الله عز وجل .

على الإنسان أن يدع من يهتدي بغير هدى الله عز وجل :

(خُذِ الْعَفْوَ)

ليكن منهجك مبسطاً .

((تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك))

[أخرجه ابن ماجه والحاكم عن العرباض بن سارية]

((اعفُ عَمَّنْ ظلَمَكَ))

[أخرجه زيادات رزين عن علي بن أبي طالب]

تقربه إليك ، ثم اجعل هذا المنهج مطبقاً في حياتك ،

(وَأمُرْ بِالْعُرْفِ)

ودع من يهتدي بغير هدى الله عز وجل .

من يتصور حلّ المشكلات بشيء أرضي ،

(وَأعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الآيات .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(59-60): تفسير الآيات 200 - 203 ، الإلهام من الملائكة والوسوسة من الشيطان ، عندما يشعر الإنسان بوساوس الشيطان يجب أن يستعيذ بالله فوراً
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-01-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

من أصابته وسوسة من دفع إلى عمل ما لمجرد أن يستعيذ بالله يحترق الشيطان :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس التاسع والخمسين من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية المئتين ، وهي قوله تعالى :

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

أيها الأخوة ، نزغ تشبه نخس ، يعني هناك مسافة بينك وبين إنسان آخر نخسته بعصا أو نخسته بيدك، دفعته هكذا ، أو دفعته إلى شيء ، أو أغريته بشيء ، واستخدمت يدك ، نزغ ونخس .

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ)

أيها الأخوة ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((ما منكم من أحد إلا وقد وكلّ به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة))

[مُسْلِمٌ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود]

كل واحد من نبي البشر معه ملك يلهمه الصواب ، ومعه شيطان من الجن يوسوس له بالمعصية .

فالآية الكريمة الآن :

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ)

إذا شعرت أن هناك وسوسة تدفعك إلى معصية ، إلى عمل لا يرضي الله ، إلى لقاء لا يرضي الله ، إلى علاقة لا ترضي الله ، إلى خلوة لا ترضي الله ، إلى نزهة لا تر ضي الله ، إلى صفقة لا ترضي الله ، إلى شراكة لا ترضي الله ، إلى إطلاع لا يرضي الله ، إلى حديث لا يرضي الله .

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ)

كأن إنسان نخس إنساناً وقال له : خذ هذه ، أحياناً الإنسان يكتفي بالكلام ، هذا شيء مهم جداً يضيف إلى كلامه إشارة ، فإذا كان الشيء مهماً جداً يضيف إلى كلامه وإلى إشارته وخزاً ، قم ، تحرك ، افعل ما أقول لك ، لا تفوت هذه الفرصة ، فرصة ثمينة تسعد بها ، دعك من كلام العلماء ، أنت في دنيا ، استفد من هذا العمل ، عليك أن تبحث عن لذتك ، عن مباهج الدنيا ، هذه كلها وساوس .

لذلك إن أصابتك أيها المؤمن وسوسة مع دفع إلى عمل ،

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)

لمجرد أن تستعيذ بالله يحترق الشيطان ، أعطاك الله عز وجل سلاحاً فعالاً ،

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)

الشيطان والملك لا يملكان شيئاً إلا الإلهام أو الوسوسة :

يقابل ذلك إذا ألهمك ملك اذهب واحضر درس تفسير ، دعك من هذا اللقاء ، دعك من هذه النزهة ، دعك من هذا الصديق ، هذا يغريك بالمعاصي ، دعك من هذه التجارة ، فيها مادة محرمة ، دعك من هذا اللقاء ، دعك من هذه السفرة ، الشيطان يوسوس والملك يلهم ، والشيطان والملك لا يملكان شيئاً إلا الإلهام أو الوسوسة .

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ)

(سورة إبراهيم الآية : 22)

كلام الله ، كلام خالق الأكوان ، آية صريحة رائعة :

(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

(سورة إبراهيم الآية : 22)

يعني أنت لو أنك ترتدي أجمل الثياب في الصيف ، ثياب بيضاء غالية جداً ، وقميص وحذاء ، وما إلى ذلك ، ونزلت في حفرة ماء آسن ، ماء أسود ، ماء مجاري ، وتوجهت إلى الشرطة لتشتكي على شخص مما أصابك ، فسألك المحقق : هل دفعك إلى الماء ؟ قلت له : لا والله ما دفعني ، هل أشهر عليك مسدساً وأمرك أن تنزل ؟ قلت له : لا والله ما فعل هذا ، قال لك : هل أمسكك ، ووضعك في الماء ؟ قلت له : لا ، فقال : لِمَ تشتكي عليه ؟ قال له : لأنه قال لي انزل فنزلت ، أليس هذا أحمقاً ؟ هذا وضع الشيطان مع الإنسان ،

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ)

كل إنسان أوكل الله به قريناً من الملائكة يلهمه الخير وقريناً من الجن يوسوس له بالشر :

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(سورة الحجر الآية : 42)

(وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة البقرة الآية : 102)

الله عز وجل هو الخالق ، بيده كل شيء ، فلذلك ما منا واحد إلا وقد أوكل الله به قريناً من الملائكة يلهمه الخير ، وقريناً من الجن يوسوس له بالشر ، لكنهما لا يملكان إلا الإلهام والوسوسة ، فلما قال عليه الصلاة والسلام :

((ما منكم من أحدٍ إلا وقد وكلّ له قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة ، فقالوا وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياي ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم))

[مُسْلِمٌ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود]

الجني الذي أوكل برسول الله أسلم على يديه . إذاً

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ)

الآن أنت صامت وتمشي بالطريق تأتيك آلاف الخواطر ، معظمها من الشيطان ، لا تذهب ، لا تعبأ برضا الأم ، أخوك يخدمها ، دعك من هذا ، دائماً هناك خواطر ، طبعاً علماء النفس يقولون : هذا منولوج ، هذا حديث النفس .

إنسان ركب بالسيارة خمس ساعات ساكتاً ، لا يفتر عن حديث نفسه ولا دقيقة ، من موضوع لموضوع ، لموضوع ، لموضوع ، فهذا الحديث حديث النفس ، بعضه من الشيطان وبعضه من الملائكة ، بعضه إلهام ملائكي ، بعضه وسوسة شيطانية ، فبطولتك ألا تصغي للشيطان .

عدم اقتراب الشيطان من الإنسان العاصي لأنه امتداد له يحقق أهدافه :

لكن أيها الأخوة ، الشيطان لا يتعب إطلاقاً مع أهل الضلالة ، لأنهم في أعمالهم يحققون هدف الشيطان، يعني شاب لا يصلي ، ولا ينضبط ، ولا يستقيم على أمر الله يقول لك : ما عندي ولا مشكلة ، طبعاً ما في مشكلة لأنك تحقق هدف الشيطان ، ما في مشكلة لأنك تفعل ما يريد منك الشيطان ، ما في مشكلة لأنك غارق في الملاهي ، في المعاصي والآثام ، طبعاً الشيطان لا يقترب منك لأنك امتداد له ، لأنك محقق لأهدافه ، أما حينما يتوب هذا الشاب ، ويعقد التوبة مع الله ، ويصطلح مع الله ، يأتي دور الشيطان .

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

(سورة الأعراف)

ما داموا في طريق منحرفة دعهم وشانهم لأنني أريدهم هكذا ، أما إذا سلكوا طريقاً إليك ، أما إذا اصطلحوا معك ، أما إذا استقاموا على أمرك ،

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)

احتجاج الشيطان بما أمام الإنسان أو خلفه ليبعده عن الطريق المستقيم :

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الأعراف الآية : 17)

يعني من أمامهم ، التقدم ، عصر الفضائيات ، الكومبيوتر ، المرأة نصف المجتمع ، من حقها أن تبدي كل زينتها ، هذا من حقها الطبيعي ، لابدّ من إيداع الأموال ببنوك ربوية ، هذا مال له قيمة ،

(لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

العولمة ، والعصرنة ، والحيونة ، والتقدم والفضائيات ، والمرأة نصف المجتمع ، وما إلى ذلك ، وضريبة الربا ... إلى آخره .

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

(سورة الأعراف الآية : 17)

هذا البلد أصله روماني ، وهذا البلد أصله فرعوني ، وهذا البلد أصله آرامي ، يتجاوزون الإسلام إلى أقوام الوثنيين ، عاشوا قبل الإسلام ، يعتزون بهم ، يستخدمون رموزهم ، إما أن يحتج الشيطان بما أمامك ، أو بمن خلفك ،

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ)

وسوسة الشيطان للإنسان من النواحي الدينية :

الآن :

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

(سورة الأعراف الآية : 17)

يعني يأتيك بوسوسة من النواحي الدينية ، صلاتك ما صحت ، لم تكن في خلال الصلاة متجهاً إلى الله كلياً ، ما دامت هذه الصلاة لا يقبلها الله دعها انتهى ، لا تأتي إلى الدرس أنت لست على ما ينبغي ، ما دمت لا تأتي إلى الدرس ، يبعدك عن درس علم ، عن عبادة ، عن نافلة ، عن طاعة له وهكذا ،

(مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)

أو بالوسوسة ، الوضوء ما صحّ ، يعيده مرة ثانية ، ثالثة ، رابعة ، هذه أمراض كلها ، مرض الوسوسة يصبح معه وساوس قهرية ، نعوذ بالله منها ، هذه

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

مرة دخل شخص إلى المسجد ، قصة قديمة جداً ، قال : كل واحد ليس على رأسه قبعة فصلاته باطلة، بهذه البساطة ؟ هذه

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

في بالفاتحة أربع عشرة شدة ، إن لم تأتِ بها فالصلاة باطلة ، كلام غير معقول ، والله كتاب اطلعت عليه قبل أيام كُتيب صغير أن كل إنسان أثناء الحج سعى في الطابق الثاني ، أو رجم في الطابق الثاني حجه باطل ، ويبقى محرماً إلى يوم القيامة ، وكل لقاءاته مع زوجته بالحرام ، شيء جميل والله ؟! . هذه

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

يأسك ، يعطيك اليأس .

القصص التي ما أنزل الله بها من سلطان تبعد الإنسان عن الدين :

يقول لك : فلان الفلاني يقرأ القرآن كل ليلة ، لا تستطيع ، لو قرأت بأسرع طريقة لا تستطيع ، أو يصلي بخمس ركعات القرآن كله ، أو الإمام الفلاني صلى لأربعين عاماً الفجر في وضوء العشاء ، أنت تستطيع أن لا تنام ؟ هذا العالم أليس من بني البشر ؟ .

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً)

(سورة النبأ)

لما تقدم الإسلام على أشكال تعجيزية ، لا ، لا ، كما قال عليه الصلاة والسلام :

((أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ـ أنام ، وهو سيد الخلق وحبيب الحق ـ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

يعطيك نموذجاً فوق طاقتك ، لا تستطيعه ، أن فلاناً يذكر الله في اليوم مئة ألف مرة ، عدهم ، هذه مسابح ، يحتاجون عشر ساعات ، تعمل ، تؤمن طعاماً لأولادك ، أذكار فوق طاقة البشر ، أو يقرأ كل ليلة القرآن بأكمله ، فوق طاقة البشر ، أو أربعين سنة يصلي الفجر بوضوء العشاء ، إذا أرادوا أن يجعلوا لك الدين شيء غير معقول ، غير مقبول فقد أبعدوك عن الدين بطريقة أخرى .

ديننا دين منهج وعقيدة وعمل لا دين تبرك و أشياء لا تقدم ولا تؤخر :

لذلك

(ثُمَّ لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ)

أو قصص ما أنزل الله بها من سلطان .

إنسان سأل عن طالب علم عند عالم ، قال له : هذا هو ، بضع من ماء بالأرض قال : من شدة محبته لنا ذاب ، من شدة محبته فذاب .

قصص غير معقولة ، خرافات ، سحبات ، دجل ، شطحات ، الدين علم ، لما الصحابة الكرام توهموا أن الشمس كسفت لموت إبراهيم ، وقف النبي عليه الصلاة والسلام مصححاً لهم ، قال :

((إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا يَخسِفان لموت أحد ، ولا لحياته))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ومالك عن عائشة أم المؤمنين]

مرة كنت في مكة المكرمة ، حفظها الله ، فسمعت أخباراً غير معقولة ، أن هناك أنوار ساطعة من القبة الخضراء باتجاه السماء ، أنوار النبي اللهم صلِّ عليه ، سمعت هذه القصة من أشخاص عديدين ، فلما وصلت إلى المدينة هناك درس علم حضرته ، فقال المدرس جزاه الله خيراً : أعلمني أمير المدينة أن هناك أشعة ليزر وضعت على سطح المسجد النبوي لإرشاد الطائرات ، أشعة ليزر أصبحت أنواراً! هذه مبالغات دعك من هذا .

أو تأتيك أحياناً رسائل إلكترونية أن بلكيت أسلم ، غير صحيح ما أسلم ، الغابة على شكل لا إله إلا الله ، ليست صحيحة ، هذه المرأة داست على المصحف فمسخت إلى قرد ، من صنع الكومبيوتر ، مركز إلحادي يصمم هذه الصور ليضحك علينا بها ، وإن شاء الله بدرس معين ، أكثر من سبعين حالة ، خلية نحل عليها اسم الله ، موج البحر على اسم الله عز وجل ، يشغلوننا بأشياء لا تقدم ولا تؤخر ، نحن ديننا دين منهج ، دين عقيدة ، دين حركة ، دين عمل ، لا دين تبرك ، دين أشياء لا تقدم ولا تؤخر .

إخفاء الله جهة العلو و الدنو لأن العلو يشير إلى الله و الدنو طريق الافتقار إلى الله :

أيها الأخوة ،

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)

(ثُمَّ لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

المعاصي والآثام هل انتبهتم إلى أن الله أخفى جهة العلو ، وجهة الدنو ، العلو تشير إلى الله عز وجل ، هذا الطريق سالك وآمن ، شيطان لا يوجد ، والدنو طريق الافتقار إلى الله ، وهذا الطريق ، وهذه الجهة سالكة وآمنة ، إن افتقرت إلى الله لا يوجد ولا مشكلة ، إن أقبلت على الله لا يوجد ولا مشكلة ، أما

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

(وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

(سورة الأعراف)

يقول لك خسرنا ثمانية ملايين ! لا حول ولا قوة إلا بالله ! ربحان مئة مليون السنة الماضية ، نقصوا ثمانية ملايين بالسنة ، صار خسران ثمانية ملايين ،

(وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

دائماً يشكو ، هذه من علامات من مشى مع الشيطان ، أما النبي الكريم كانت تعظم عنده النعمة مهما دقت ، تتمتع بحواسك الكاملة ، تتمتع بصحة جيدة ، لك بيت تؤوي إليه ، لك زوجة وأولاد وانتهى الأمر ، المؤمن شاكر ، والآخر ساخط ،

(وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

على الإنسان أن يلجأ إلى الله تعالى الذي يسمعه ويقدر على تلبية طلبه ويرحمه :

أيها الأخوة ، الشيء الدقيق أن الله سبحانه وتعالى حينما أمرك أن تستعيذ به فاستعذ بالله ، أنت هل من الممكن أن تلجأ لجهة كي تعينك غير موجودة ؟ يكون الإنسان بلا عقل ، لابدّ من أن تلجأ إلى جهة موجودة ، هل يمكن أن تدعو جهة لا تسمعك ؟ مستحيل ! لابدّ من أن تدعو جهة موجودة وتسمعك ، هل يمكن أن تلجأ لجهة لا تقدر على إنقاذك ؟ مستحيل ! لابدّ من أن تدعو جهة موجودة ، وتسمعك وتقدر على إنقاذك ، هل يمكن أن تلجأ إلى جهة لا تحبك ولو أنها قوية وقادرة وتعلم وموجودة ؟ لابدّ من أن تستعيذ ، أو أن تلجأ إلى جهة موجودة تسمعك ، وتقدر على تلبية طلبك ، وتحب أن ترحمك ، إنها الله .

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)

قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بقلب حاضر ، بتوجه إلى الله ، ينتهي فعل الشيطان .

(إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

إن تكلمت فهو سميع ، وإن سكت فهو عليم ، وإن تحركت فهو بصير ، سميع ، بصير ، عليم ، إن تكلمت فهو سميع ، وإن سكت فهو عليم ، وإن تحركت فهو بصير .

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً * وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً)

(سورة الإسراء)

القرآن الكريم سبيل الإنسان للخلاص من وسوسة الشيطان :

أيها الأخوة ، الآن :

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

(سورة الأعراف)

الآن عندنا النزغ ، نخس عن بعد

(هناك مسافة)

أما المس : أحياناً تضع يدك بيد صديقك تقول له : يدك بادرة جداً ، يقول لك : أنا والله معي أعراض نقص تروية ، لما مسسته شعرت بالحرارة ، أما لما لمسته شعرت بالحرارة والنعومة ، فصار عندنا نزغ ، ومس ، ولمس.

فقد وجهت إلى النبي

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ)

أي إن أصابتك وسوسة تثير غضبك على المكذبين

(فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)

المؤمن :

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ)

عن قرب

(طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا)

آيات القرآن و الاستعاذة بالله ،

(تَذَكَّرُوا)

أن هذه وسوسة من الشيطان ، أن الشيطان لا يملك لهم شيئاً ، لا يملك إلا الوسوسة فقط ،

(تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

لمواقع الخطر .

سيدنا يوسف ، عظمة هذا النبي الكريم أنه حينما دعته امرأة ذات منصب وجمال قال:

(إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الحشر)

فأصبح سيدنا يوسف .

الشياطين نوعان : شياطين الإنس وشياطين الجن :

لذلك :

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)

وجهت هذه الآية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعنى إذا أثارك الشيطان ، وأثار غضبك على المكذبين بك لا تعبأ به ، فدعه ،

(فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

سميع لدعائك ، عليم باستعاذتك .

أما المؤمنون :

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ)

تذكروا القرآن ، تذكروا أمر الله بالاستعاذة به ، تذكروا أن الشيطان لا يملك لهم نفعاً ولا ضراً ، تذكروا أن الشيطان ضعيف .

(فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

الشياطين نوعان ، شياطين الإنسان ، وشياطين الجن .

مرة ذكرت أن إنساناً سيئاً جداً التقى مع الشيطان ، قال له : ماذا أفعل ؟ قال له : افعل كذا ، فعلته ، أعطاه حلاً ثانياً ، قال له : فعلته ، الثالث ، الرابع ، الخامس ، السادس ، السابع ، الثامن ، التاسع ، العاشر ، قال له : كله فعلته ، قال له : والله أنا هذا الذي عندي ، ماذا تريد أن تفعل أيها الإنسي ؟ قال له: أريد أن أفعل كذا وكذا ، قال له : خاف الله يا رجل .

يعني شيطان الإنس يخوف ، والدليل الله عز وجل قدم شياطين الإنس على شياطين الجن ، والله ما يفعله العالم الغربي يحتلون ، يسفكون الدماء ، يقتلون الشباب ، يهدمون البيوت ، ينهبون الثروات ، تحت شعارات براقة ، من أجل الحرية والديمقراطية ، وحقوق الإنسان عندهم حقوق الحيوان ، أما ألف و ثلاثمئة قتيل ، معظمهم من الناس والأطفال ولا تعليق ولا كلمة أبداً .

شياطين الإنس أشرّ من شياطين الجن :

لذلك شياطين الإنس أشرّ من شياطين الجن ، أما أخوانهم شياطين الإنس .

(وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ)

(سورة الأعراف)

لا يمسكون عن إغوائهم ، مثلاً لماذا قال الله عز وجل :

(إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً)

(سورة النساء)

يوسوس الشيطان ، أما لماذا قال تعالى :

(إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

(سورة يوسف)

هذه شيطانة لكن على شكل إنسان ، لك حاجة عندها تثير شهوتك ، لذلك

(إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

أكبر فتنة تصيب المسلمين فتنة النساء في آخر الزمان :

لذلك أنا أقول كما قال عليه الصلاة والسلام ، أكبر فتنة تصيب المسلمين فتنة النساء في آخر الزمان ، وقال بعض العلماء : كان الغرب يجبرنا بالقوة المسلحة على أن نفعل ما يريدون ، لكنهم الآن بالقوة الناعمة ، بالمرأة على أن نريد ما يريدون ، لذلك جاءت آيات غض البصر ، في القرآن :

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور الآية : 30)

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ـ أي وسوسة ـ

(تَذَكَّرُوا)

آيات القرآن ،

(تَذَكَّرُوا)

آيات الاستعاذة بالله ،

(تَذَكَّرُوا)

أن الشيطان ضعيف ، لا يملك شيئاً ،

(تَذَكَّرُوا)

أن الله عز وجل قال :

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(سورة الإسراء الآية : 65)

(فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

وقع الخطأ .

(وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ)

أخوانهم من شياطين الإنس

(يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ)

بالانحراف ،

(ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ)

أي لا يمسكون عن إغوائهم حتى يصروا على المعصية ولا يرجعون عنها .

النبي الكريم بشر يتبع ما يوحى إليه :

(وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الأعراف)

قال تعالى :

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً * وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً)

(سورة الإسراء)

هذا ليس بيدي لذلك :

(وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ)

من هذه الآيات

(قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا)

لو لا صنعتها أنت بنفسك ، هو بشر ، النبي بشر ،

(وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ ـ من هذه الآيات ـ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا)

أي لولا فعلتها أنت ، وتكلفتها ، وصنعتها لنا ، كي نؤمن بك

(قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي)

أنا متبع ولا أقدر أن آتي بهذه الآيات .

النبي عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب وأي إنسان يدّعي علم الغيب إنسان كاذب :

لذلك قال تعالى :

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

(سورة الأنعام الآية : 50)

النبي عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب ، وأي إنسان يدعي علم الغيب فهو كاذب .

((لا أملك لكم من اللّه ضَرّاً ولا نفعاً))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة]

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

(سورة الأعراف الآية : 188)

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

(سورة الأنعام)

أربع آيات ، لا يعلم الغيب ، لا يملك النفع ولا الضر ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ،

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

أي إنسان يدعي خلاف ذلك فهو كاذب .

(وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا)

لولا تكفلت بها أنت ، وأنشأتها من عندك

(قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

علم اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين :

أيها الأخوة ، الله عز وجل في بعض الآيات حينما جاءت كلمة يقين

(لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

قال :

(فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

(سورة الواقعة)

هناك علم اليقين ، وهناك عين اليقين ، وهناك حق اليقين ، جدار وراءه دخان ، والقاعدة المنطقية لا دخان بلا نار ، فهذا علم اليقين ، فإذا أتيت وراء الجدار ، ورأيت النار بعينك ، هذا عين اليقين ، فإذا اقتربت من النار وشعرت بالوهج الشديد فهذا حق اليقين .

فينبغي أن ينتقل المؤمن من علم اليقين ، إلى عين القين ، إلى حق اليقين .

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ)

(سورة التكاثر)

أما حق اليقين فجاءت في قوله تعالى :

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)

أيها الأخوة ، من بلغ علم اليقين ، أو عين اليقين ، أو حق اليقين كما قال سيدنا علي : والله لو كُشف الغطاء ما ازددت يقيناً ، وقال في قول آخر : والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي ، هذا علم اليقين ، مع حق اليقين ، مع عين اليقين .

القرآن يهدي الإنسان إلى سبل السلام والرحمة التي هي قمة العطاء الإلهي :

أيها الأخوة ، حينما قال الله عز وجل :

(وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ)

الآية قرآن ، الآية منهج ، الآية هذا التصور الرائع للكون ، والحياة ، والإنسان ، الآية هذه التفاصيل ، فالمعجزة القرآن ، المنهج الدستور ، العقيدة ، هذا الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام .

(هَذَا بَصَائِرُ)

أي هذه الأنوار التي هي القرآن الكريم .

(وَهُدًى)

هذا القرآن يهديكم إلى سبل السلام ، السلام مع نفسك ، ومع أهلك ، ومع من حولك ، ومع ربك .

(وَهُدًى وَرَحْمَةٌ)

راحة نفسية واستقرار وسعادة وقرب من الله .

(إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ)

منهج كامل ، افعل ولا تفعل ، يهديكم إلى السلامة والسعادة ، والرحمة هي قمة العطاء الإلهي ،

(وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

الحارث بن مالك الأنصاري ، مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له :

((كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، قال : انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها ـ أي يرفعون صوتهم بالبكاء والعون ـ قال عليه الصلاة والسلام : يا حارثة عرفت فالزم))

[أخرجه الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري]

أعادها ثلاثاً .

أيها الأخوة الكرام ، بقي درس أخير في سورة الأعراف نشرحه في الدرس القادم إن شاء الله .

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس(60-60): تفسير الآيات 204 - 206 ، كيفية قراءة القرآن الكريم بقراءة التدبر ، وقراءة التعبد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-02-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه :

أيها الأخوة الكرام ... مع الدرس الستين وهو الدرس الأخير من دروس سورة الأعراف ، ومع الآية الرابعة بعد المئتين ، وهي قوله تعالى :

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

أولاً فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه ، هذا كتاب ليس كأي كتاب ، إنه كتاب خالق السماوات والأرض ، هذا كتاب ليس فيه أي زيغ ، ولا فيه أي شك ، يقين قطعي ، هذا كتاب يجب أن نتلقاه بخصوصيات كثيرة ، من هذه الخصوصيات :

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا)

الفرق بين سمع واستمع كبير جداً ، أنت حينما تجلس وتأتي بمسجلة وتضع شريطاً وجلست لتستمع هذا شيء ، إن كنت تمشي في الطريق ووصل إلى أذنك صوت ما من مذياع ، أو من شخص ، هذا سماع ، فالسماع غير مقصود ، أما الاستماع مقصود بذاته .

لذلك ورد في الحديث :

((من استمع إلى قينة))

[ابن عساكر عن أنس]

وهذا من رحمة الله بنا ، من استمع ، الإنسان يمشي في الطريق الأذن مفتوحة ، وقد يأتي صوت قد لا يرغب أن يستمع إليه ، لكنه يسمعه ، لعظمة هذا الكتاب ، قال تعالى :

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ)

أي اجعل سماع القرآن الكريم مقصوداً ، اجلس كي تستمع القرآن الكريم ، اجلس كي تتأمل في آيات القرآن الكريم ، كي تتفكر في آيات القرآن الكريم .

القرآن الكريم يقدم للإنسان إضاءة لسرّ وجوده وغاية وجوده و لما بعد الموت :

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ)

لماذا ؟ لأن الله عز وجل قبل آية واحدة قال :

(هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الأعراف)

هذا الكتاب يريك الحق حقاً والباطل باطلاً .

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)

(سورة الكهف)

هذا القرآن يقدم لك إضاءة لسرّ وجودك ، لغاية وجودك ، لما بعد الموت ، لماذا خُلقت ؟ ماذا ينبغي أن تفعل ؟ ما سبب سلامتك وسعادتك ؟

(بَصَائِرُ)

يقدم لك تفسيراً عميقاً دقيقاً متناسقاً عن الكون ، والحياة ، والإنسان ، يقدم لك حقيقة الخير والشر ، حقيقة الجمال والقبح ، حقيقة العلم والجهل .

لذلك :

(هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ)

من الذي يربيكم ؟ من الذي خلقكم ؟ من الذي أمدكم ؟ من الذي يعتني بكم ؟ من الذي ينقلكم من حال إلى حال ؟

(هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى)

تهتدي به إلى سبل سلامتك .

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ)

(سورة المائدة الآية : 16)

سلام مع نفسك ، سلام مع أهلك ، سلام مع مجتمعك ، سلام مع من هو فوقك ، ومع من هو دونك ، سلام من أجل صحتك ، من أجل أسرتك ، من أجل سعادتك ، من أجل سلامتك .

الاستماع إلى القرآن الكريم طريق سلامة الإنسان و سعادته :

(هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

الرحمة مطلق عطاء الله ، الرحمة سكينة ، الرحمة تجلٍّ ، الرحمة سعادة ، الرحمة أمن ، الرحمة طمأنينة ، الرحمة رضا ، الرحمة تفاؤل ، فهذا القرآن فيه هدى ، فيه رحمة ، فيه بصائر ، لذلك ليس القرآن كتاباً كأي كتاب .

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ)

استمع ، قد يقرأ القرآن وهناك أصوات أخرى ، يوجد حديث آخر ، مثلاً :

القرآن ينطلق من إذاعة ، والمذياع في غرفة الجلوس مثلاً وهناك حديث ، لا ، استمع وأنصت من حولك ،

(فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا)

قد تستمع وهناك أصوات كثيرة تأتي إليك الأولى والأكمل أن تستمتع إلى القرآن ، وألا يدخل إلى الأذن شيء آخر معه ، وإن كان هذا مستحيلاً ، لكن هذا هو الأدب الكامل مع القرآن الكريم .

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

لعلكم تسعدون ، لعلكم ترون من خلال آياته الحق حقاً ، والباطل باطلاً ، لعلكم ترون من خلال آياته طريق سلامتكم وطريق سعادتكم ، لعلكم إذا قرأتم آيات القرآن الكريم كان منهجاً لكم ، كان سبيلاً إلى سلامتكم ،

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

علامة صحة سماعك للقرآن الكريم المبادرة إلى تطبيقه :

أخوانا الكرام ، معنى الاستماع يعني هناك شيء دقيق ، الله عز وجل يريدنا أن نفهم الاستماع على أنه تطبيق ، كيف ؟ قال :

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

(سورة التحريم الآية : 4)

يعني إصغاء القلوب كان صحيحاً ، لا تعد مستمعاً ، ولا تعد منصتاً ، ولا تعد متلقياً ، إلا إذا انقلبت هذه الآيات من أصوات تستمع إليها إلى سلوك يومي .

أيها الأخوة ، الدقة البالغة أن الإنصات يعني التطبيق ، نأتي بمثل بسيط : إنسان واقف بشكل طبيعي ، أمامه صديقه ، فقال له صديقه : على كتفك عقرب ، لو أن هذا الذي على كتفه عقرب ، بقي هادئاً ، مرتاحاً ، فلما سمع هذه الكلمة قال له : شكراً على هذه الملاحظة ، وأرجو الله أن يمكنني أن أكافئك عليها ، هل تعتقدون أنه فهم ما قيل له ؟ لو أنه فهم ما قيل له لقفز ، وخلع معطفه ، وصاح ، العقرب لدغتها قاتلة أحياناً فلذلك لأنه بقي هادئاً وما تحرك ، ولا خلع معطفه ، ولا اضطرب ، معنى ذلك لم يستمع .

علامة استماعك الحقيقي الانفعال وعلامة الانفعال الحقيقي الحركة :

علامة استماعك الحقيقي الانفعال ، وعلامة الانفعال الحقيقي الحركة .

لذلك بعض العلماء جاء بقانون ، هذا القانون أساسه أن هناك إدارك ، وهناك انفعال ، وهناك سلوك ، لا يصح إداركك إلا إذا نتج عنه انفعال ، إذا في خبر خطير ما تحركت ، قال لك عقرب ما اضطربت ، قال لك أفعى ما مشيت ، ولا تأثرت ، علامة صحة الإدراك الانفعال ، وعلامة صحة الانفعال السلوك، تتحرك ، إما لقتل الأفعى أو للهروب منها ، أما كلام خطير متعلق بمصيرك ، متعلق بسلامتك ، متعلق بسعادتك لا تتأثر ، هنا المشكلة ، فلذلك :

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

(سورة الأنفال)

كأن السماع عند الله عز وجل في القرآن الكريم يعني التطبيق ، علامة صحة سماعك المبادرة إلى التطبيق ،

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

كان إصغاؤها صحيحاً صغت يعني من الإصغاء ،

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

(كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

أنت في هذا الدرس وأنا معكم إن لم تنقلب هذه الآيات إلى سلوك فكأننا ما سمعنا ، عند الله السماع يعني التطبيق ، والآيات واضحة

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

وهم عند الله لم يسمعوا ،

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

فإذا قال الله عز وجل :

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ)

أي اصغوا إلى آياته ، وترجموها إلى سلوك ، قال لك غض بصرك ، غض بصرك .

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)

(سورة هود الآية : 112)

(وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

(سورة الحجرات الآية : 12)

لا تغتب أخاك ، هذا المعنى الدقيق لكلمة :

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ)

أي طبقوا ما فيه .

الأدب مع سماع القرآن الكريم :

أيها الأخوة ،

(وَأَنْصِتُوا)

لا تسمح لتداخلات ، وأصوات كثيرة ، وتعليقات ، وأنت تستمع إلى كتاب الله ، هذا كتابنا ، هذا منهجنا، هذا دستورنا ، هذا كلام خالقنا ، ومرة ثانية فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه .

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا)

يعني حديث ورفع صوت في غرفة الجلوس ، وأنت تستمع إلى القرآن الكريم ، لا ، أنصتهم ، تعلم الأدب لسماع القرآن ، نجلس لنستمع إلى القرآن الكريم .

(فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

هل تستهين بكلمة

(تُرْحَمُونَ)

ترحمون أي أنت سعيد ، أي أنت حكيم ، أي أنت آمن ، أي أنت موفق ، أي أنت مستجاب الدعوة ، أي أنت متصل بالله ، هذا معنى

(تُرْحَمُونَ)

أنت راضٍ عن ربك ، راضٍ عن وضعك في الدنيا .

الآن هناك من يستمع ولا ينصت ، يسمع قرآناً لكن لا يوجد إنصات ، لا يوجد متابعة ، لا يوجد تدقيق، لا يوجد تأمل ، لا يوجد تدبر ، يستمع ولا ينصت ، هناك من يستمع وينصت ولا يتعبد ، هذا القرآن تعبدنا الله بقراءته ، كتاب ليس كأي كتاب ، إذا قرأناه نتعبد الله بقراءته .

على الإنسان أن يقرأ القرآن بنيّة عبادة الله عز وجل بقراءته :

أيها الأخوة :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام الآية : 1)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

(سورة الكهف)

كأن الكون كله بكفة ، وكلام الله جلّ جلاله بكفة أخرى ، الله عز وجل خلق الدنيا ونورها بالقرآن ، يشق الطريق ، بعد أن يشق الطريق ، توضع شاخصات ، هنا منعطف خطر ، هنا جسر ، هنا طريق صاعدة ، هنا طريق زلقة ، انتبه يوجد شاخصات ، فالله عز وجل خالق الأكوان ونورها بالقرآن الكريم.

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

يجب أن تقرأ القرآن وأنت بنية أن تعبد الله بقراءته .

على الإنسان أن يقرأ القرآن قراءة تدبر :

لذلك ليست العبرة أن تقول قرأت جزءاً ، اقرأ جزءاً كتلاوة ، اجعل لك قراءتان ، قراءة تدبر ، وقراءة تعبد ، التعبد أن تقرأ القرآن كل يوم جزء ، جزأين ، وهناك كلمة عند حُفاظ كتاب الله من لم يقرأ همساً ينس ، يعني ينسى ، حُفاظ كتاب الله يقرؤون كل يوم خمسة أجزاء ، هذه قراءة تعبد ، أما أنت بحاجة إلى قراءة تدبر ، ولو قرأت في اليومين آية واحدة ، أن تقف عند معانيها ، عند مدلولاتها ، عند التطبيق العملي لها ، ماذا ينبغي أن تعمل ؟

يعني مثلاً قرأت آية فيها أمر هل ائتمرت بما أمر الله ؟ قرأت آية فيها نهي هل انتهيت عما نهى عنه الله ، قرأت آية فيها وصف لأهل الجنة ، هل تسعى إلى الجنة ؟ قرأت آية فيها وصف لأهل النار ، هل تفر من النار ولو بشق تمرة ؟ قرأت آية فيها وصف لأمة سلفت عصت ربها فأهلكها الله ، هل اتعظت بها ؟ قرأت آية فيها من آيات الكون هل تفكرت بها ؟ التدبر أن تأخذ موقفاً من الآية ، الأمر أن تأتمر ، النهي أن تنتهي ، وصف الجنة أن تسعى إلى الجنة ، وصف للنار أن تفر منها .

على الإنسان أن يستمع وينصت ويتعبد الله أثناء تلاوة القرآن الكريم :

إذاً هناك من يستمع ، وهناك من يضيف إلى الاستماع ، هناك من يسمع ، لو في قرآن يصدح من محل تجاري مثلاً ، أنت سمعت الآية ، هناك من يسمع ، وهناك من يستمع ، هناك من يستمع وينصت ، هناك من يستمع وينصت ويتعبد الله بهذه التلاوة .

مثلاً : سيدنا جعفر يقول كلاماً رائعاً ، قال : عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قوله تعالى :

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

(سورة آل عمران)

ماذا قال الله بعد هذه الآية ؟

(فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)

(سورة آل عمران)

لذلك سيدنا جعفر يقول : عجبت لمن يخاف ولم يفزع إلى قوله تعالى :

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)

الاستعانة بالله عز وجل أساس نجاة الإنسان من المصائب :

ثم يقول سيدنا جعفر : وعجبت لمن اغتم ولم يفزع إلى قوله تعالى :

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأنبياء)

وهو في ظلمة بطن الحوت ، وفي ظلمة الليل ، وفي ظلمة البحر ، في ظلمات ثلاث والأمل بالنجاة معدوم ،

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

ماذا قال الله بعدها ؟ :

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

فعجبت لمن يخاف ولم يفزع لقوله تعالى ، وقرأ هذه الآية ، وعجبت لمن مُكر به ولم يفزع إلى قوله تعالى :

(وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ)

(سورة غافر الآية : 44)

المؤمن المستقيم الطائع يفوض أمره إلى الله عز وجل عند مكر الآخرين به :

إذا أنت مؤمن ، مستقيم ، طائع ، محب ، مقبل ، ولك عدو خطير ، وأقوى منك فمكر بك ، ليس لك حل إلا أن تقول :

(وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ)

(إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)

(سورة غافر)

فجاء الجواب :

(فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ)

(سورة غافر)

إذاً حينما يجتمع الناس ضدك

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)

وعجبت لمن اغتم ولم يفزع إلى قوله تعالى :

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

وعجبت لمن مُكر به ولم يفزع إلى قوله تعالى :

(وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ)

القرآن شفاء للنفوس :

أيها الأخوة ، إذاً هذا القرآن فيه شفاء ، القرآن شفاء للنفوس ، والقرآن فيه طرق السلامة والسعادة ،

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ)

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ)

عقله .

(وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه الآية : 123)

نفسه .

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة)

من تبع هداي لا يخاف مما سيأتي ، ولا يندم على ما سبق ، فمن يتبع هدى الله عز وجل لا يضل عقله، ولا تشقى نفسه ، ولا يندم على ما فات ، ولا يخشى مما هو آت .

أيها الأخوة ، الآن عجبت لمن طلب الدنيا ، كما قال سيدنا جعفر ، ولم يفزع إلى قوله تعالى :

(وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً * فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ)

(سورة الكهف)

أربع آيات إما أنك تخاف ، أو يُنكر بك ، أو تطلب الدنيا من وجهها الصحيح ، فكل آية جاءت بعدها آية ،

(فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ)

الإنصات أساسي أثناء سماع القرآن الكريم :

الآن ومعنى

(أَنْصِتُوا)

معنى واسع جداً ، أنصت حينما تتلو القرآن ، لا تستمع إلى غيره ، وهو معك ، أنصت حينما تقرأ القرآن في الصلاة ، وأنصت حينما تقرأ القرآن في المسجد ، وأنصت إذا استمعت إلى خطيب المسجد ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((إذا قلتَ لصاحبك يوم الجمعة : أنصِتْ - والإمام يخطُب - فقد لَغوْتَ))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ومالك عن أبي هريرة]

لذلك الآخرون يعجبون من المسلمين ، تجد بالجامع في عشرة آلاف ، فإذا صعد الخطيب المنبر لا تستمع إلى كلمة ، من هذا التوجيه الإلهي ، شيء رائع جداً في حياة المسلمين خطبة الجمعة ، عبادة دعوية ، والكل ينصت ، وقد يكون المتكلم أقل علماً ممن يستمع الخطبة أحياناً ، يكون في أستاذ جامعي، يكون في إنسان ذو رتبة عالية في الجامعة ، ينصت ، الخطيب يتلو آيات القرآن الكريم .

إذاً أول حقيقة أن الاستماع يعني التطبيق ، لن تكون مستمعاً للقرآن إلا إذا طبقت أحكامه .

((رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه))

[ورد في الأثر]

التولي و التخلي :

ثم يقول الله عز وجل :

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ)

(سورة الأعراف)

(تَضَرُّعاً)

أي تذللاً ، القضية أيها الأخوة كلما تذللت إلى الله رفعك الله ، وكلما استعليت خفضك الله ، إن أردت العز فتذلل بين يدي الله عز وجل ، هناك درسان خطيران درس بدر ، ودرس حنين ، درس بدر بليغ جداً ، ونحتاجه جميعاً ، ودرس حنين خطير جداً ، ونحتاجه جميعاً ، في درس بدر هناك افتقار إلى الله، افتقروا إلى الله :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران الآية : 123)

ببدر افتقروا إلى الله فلما افتقروا إلى الله عز وجل نصرهم ، وفي حنين اعتمدوا على كثرتهم قال :

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس]

فلم ينتصروا ، الملخص : إذا قلت أنا تخلى الله عنك ، قلت أنا بمالي ، بقوتي ، بمنصبي ، بعلمي ، بشهادتي ، بأسرتي ، بمركزي بالمجتمع ، بتاريخي ، إذا قلت أنا تخلى الله عنك وإذا قلت الله تولاك بالرعاية .

من تذلل لله رفعه :

إذاً

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً)

مع الله عز وجل في افتقار ، كلما ازددت افتقاراً له رفعك ، وأعلى قدرك ، ورفع ذكرك ، أعلى شأنك، هابك أعداؤك ، بل خدمك أعداؤك ، وكلما استعليت على طاعته أذلك الله .

اجعل لربك كل عزك يستقر ويثبت   فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

***

((سبحانك إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت))

مستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر ، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تعصيه وتربح .

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ)

لذلك :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً)

(سورة الأحزاب)

المناجاة بين العبد و ربه مسعدة لاتصاله مع خالق السماوات و الأرض :

أيها الأخوة ، المنافقون قال الله تعالى عنهم :

(وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)

(سورة النساء)

لذلك ورد في بعض الأحاديث :

((من أكثر من ذكر الله فقد برئ من النفاق))

[ابن شاهين في الترغيب في الذكر عن أبي هريرة]

((من حمل سلعته فقد برئ من الكبر))

[القضاعي والديلمي عن أبي أمامة]

((برئ من الشح من أدى زكاة ماله))

[أخرجه ابن مردويه عن جابر بن عبد الله]

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً)

اجعل لك ساعة تناجي بها ربك ، تتذلل له ، يا رب أنا فقير وأنت الغني ، أنا ضعيف وأنت القوي ، أنا جاهل وأنت العليم ، يا رب ارحم ضعفي ، ارحم ذلي بين يديك ، هذه المناجاة بينك وبين الله مسعدة ، لأنك تتصل مع خالق السماوات والأرض .

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً)

ورد :

((أن يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال : أحب عبادي إليّ تقي القلب ، نقي اليدين ، لا يمشي إلى أحد بسوء ، أحبني ، وأحب من أحبني ، وحببني إلى خلقي ، قال : يا رب إنك تعلم أني أحبك ، وأحب من يحبك ، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال : ذكرهم بآلائي ، ونعمائي ، وبلائي))

[من الدر المنثور عن ابن عباس]

ذكرهم بآلائي كي يعظموني ، وذكرهم بنعمائي كي يحبوني ، وذكرهم ببلائي كي يخافوني .

ذكر الله علامة الإيمان :

المؤمن الصادق بقلبه تعظيم لله ، بقلبه محبة لله ، بقلبه خوف من الله ، في أمراض ، في أورام ، في فشل كلوي ، في خثرة بالدماغ ، في شلل ، في بلاء مخيف ، في صحة ، في راحة نفسية ، في زوجة صالحة ، في أولاد أبرار ، في دخل وفير ، وفي أشياء تحملك على محبة الله ، وفي آلاء ، وفي

مجرات، وفي كواكب تدعوك إلى تعظيم الله .

إذاً ذكر الله علامة الإيمان .

((من أكثر من ذكر الله فقد برئ من النفاق))

[ابن شاهين في الترغيب في الذكر عن أبي هريرة]

دوران الذكر مع الإنسان في كل شؤون حياته :

والأمر بالذكر لا ينصب على الذكر فقط بل على كثرة الذكر لقوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً)

لكن بالمناسبة قراءة القرآن ذكر ، والاستغفار ذكر ، والدعاء ذكر ، والتسبيح ذكر والتهليل ذكر ، والتكبير ذكر ، والتمجيد ذكر ، وقراءة كتاب العلم من أجل أن تعرف الله ذكر ، والدعوة إلى الله ذكر ، والأمر بالمعروف ذكر ، والنهي عن المنكر ذكر ، لذلك الذكر يدور مع الإنسان في كل شؤون حياته ،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً)

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً)

وكما قال الله عز وجل :

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت الآية : 45)

قال علماء التفسير : أكبر ما فيها :

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه)

أكبر ما فيها ، وقال بعضهم : ذكر الله لك في الصلاة أكبر من ذكرك له ، إنك إن ذكرته أديت وأحب العبودية له ، أما إذا ذكرك منحك الحكمة .

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة الآية : 269)

يعني الصلاة الصحيحة تعني أنك حكيم وقفت كي تصلي وذكرت الله ، فأنت حينما تذكره يذكرك ، يذكرك بأن يهبك الحكمة ، يذكرك بأن يهبك الرضا ، يذكرك بأن يهبك التوفيق ، يذكرك بأن يهبك السداد والرشاد في القول والعمل .

لذلك ثمار الصلاة الصحيحة تفوق حدّ الخيال ، أقل هذه النتائج أنك في حفظ الله وفي رعايته .

إخفاء الذكر أفضل من رفع الصوت وإزعاج الآخرين :

إذاً :

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً)

أي تذللاً

(وَخِيفَةً)

أي خوفاً ، هذه صفات المؤمن الذاكر .

(وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ)

رفع الأصوات ، وأن تعلو على كل صوت ، يعني الله عز وجل يريد قلبك ، يريد إخلاصك ، يريد مودتك ، يريد محبتك ، لا يريد صوتك العالي .

لذلك :

(وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ)

(وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً)

(سورة الإسراء)

هناك إنسان إذا ما رفع صوته إلى أعلى طبقة ممكنة لا يعد ذاكراً ، لا ، أفضل الذكر إخفاء الذكر ، هناك ذكر بالقلب ، وهناك ذكر باللسان ، لكن بشكل لطيف ، أما رفع الأصوات وإزعاج الناس ، يعني الآذان بالمئذنة لكن المكبر بشكل معتدل ، لأن هناك مريض ، إنسان يعاني ما يعاني ، فرفع الصوت ، وإزعاج الآخرين ، ليس من الذكر إطلاقاً .

الذكر شحن للإنسان :

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)

أنت بحاجة إلى الذكر قبل الذهاب إلى العمل ، بالغدو ، وبعد العودة من العمل ، بحاجة إلى ذكر يومي وإن الصلاة ذكر ،

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

الذكر شحن ، أنت كهاتف جوال أنت بحاجة إلى شحن يومي صباحاً ومساءً .

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)

قبل الذهاب إلى العمل إنسان صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله حتى يمسي ، وصلى العشاء في جماعة فهو في ذمة الله حتى يصبح ، أنت مغطى برعاية الله مدة أربع و عشرين ساعة .

أكبر مرض يصيب الإنسان أن يكون غافلاً عن الله عز وجل :

(وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ)

أكبر مرض يصيب الإنسان أن يكون غافلاً عن الله .

أيا غافلاً تبدي الإساءة و الجهل　　متى تشكر المولى على كل ما أولى

عليك أياديه الكرام وأنت لا تراه　　كأن الـــعين حولاء أو عميا

لأنت كمزكوم حوى المسك جيبه　　ولكن الـــمحرم ما شمّه أصلاً

* * *

(وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ)

الغفلة أخطر ما يصيب الإنسان لذلك قال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ)

(سورة الأعراف)

العندية هنا ليست عندية مكانية ، الله عز وجل فوق المكان والزمان ، هو خالق المكان والزمان ، عندية قرب من الله

(إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ)

الملائكة المقربون ،

(لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ)

التسبيح التعظيم ، التسبيح التمجيد ، التسبيح التنزيه ، إذا قلت سبحان الله فقد مجدته ، وإذا قلت سبحان الله فقد نزهته عن كل نقص ، وإن قلت سبحان الله فقد عظمته ، التمجيد والتنزيه و التعظيم .

(وَلَهُ يَسْجُدُونَ)

يخضعون ، المؤمن لا يخضع لله وحده .

أيها الأخوة الكرام ، بهذا الدرس انتهت سورة الأعراف بتوفيق الله وفضله الكريم .

والحمد لله رب العالمين

الفهرس